

عالم الفكر

المجلد الثامن - العدد الثالث - أكتوبر - نوفمبر - ديسمبر ١٩٧٧

- التحول السياسي من الشيوعية إلى الديمقراطية
- مألوف - ستجور وحضارة الإنسان
- الفعل الثوري في رواية الأمكن
- اندريه مالرو: فكري الاستكشاف



رئيس التحرير: أحمد مشاري العدواني
مستشار التحرير: دكتور أحمد البوزيد

عالم الفكر

مجلة دورية تصدر كل ثلاثة أشهر عن وزارة الإعلام في الكويت * أكتوبر - نوفمبر - ديسمبر ١٩٧٧
المراسلات باسم : الوكيل المساعد للشئون الفنية - وزارة الإعلام - الكويت : ص.ب ١٩٢

المحتويات

التراث

- | | | |
|-----|-------------------------------|--|
| ٣ | بقلم التحرير | التعهد |
| ١٢ | الدكتور فحي شيخه | التحول السياسي من الشيوعية الى الديمقراطية |
| ٤١ | الدكتور جولين جودت هشان | مالرو - سنجور وحضارة الانسان |
| ٩٩ | سلوى مطر | العقل الثوري في رواية الامل |
| ١٢٩ | الدكتور جزة هيكل | اندره مالرو « قلد الانسان » |

آفاق المعرفة

- | | | |
|-----|-------------------------------|---------------|
| ١٦٢ | الدكتور عبد العزيز أمين | من وهي العلوم |
|-----|-------------------------------|---------------|

أدباء وفنانون

- | | | |
|-----|------------------------|-----------------------------|
| ١٩٥ | دكتور حلمي مرزوق | جوانب لم معروفة من شعر شوقي |
|-----|------------------------|-----------------------------|

عروض الكتب

- | | | |
|-----|--|--------------------------|
| ٢١٥ | عرض وتحليل الدكتور علي حسان حنين | دبة البيت |
| ٢٢٢ | عرض وتحليل الدكتور سامية حسان الساعاتي | سوسيولوجيا العمل المنزلي |

الدراسات التي تنشرها المجلة تعبر عن آراء اصحابها وحدهم

اندريه مالرو

تقديم

جيد : لا يوجد الهيباء او بلاء في كتابك .
مالرو : انني لا اكتب لكي ابرر الملل في النفس ، اما عن
البلاء فهناك الكثيرون جدا منهم في الحياة الواقعية .
(عام ١٩٢٨)

حين التقى اندريه مالرو لأول مرة بالجنرال ديغول عام ١٩٤٣ بادره ديغول بقوله : « الماضي
أولا » . وكان ذلك في رأى مالرو مدخلا قريبا للمثل هذه المقابلة الهامة ، ولكنه اجاب مع ذلك : -

« الأمر بسيط .. لقد خضت معركة ، ولنقل انها من أجل العدالة الاجتماعية ، أو اذا
اردنا مزيدا من الدقة من أجل ان نعطى الناس فرصتهم ... كنت رئيسا مع رومان رولان
للجنة العالمية المعادية للفاشية ، وذهبت مع جيد لأحمل الى هتلر - الذي لم يستقبلنا - الاحتجاج
على قضية ديمتروف والذين اتهموا كذبا بحرق الرايخستاغ . ثم كانت حرب اسبانيا وذهبت
لأقاتل هناك .. ليس في الفرق والألوية المولوية التي لم تكن قد تكونت بعد ... اذ كان الحرب
الشيوعي لا يزال يفكر في الأمر ... ثم كانت الحرب الحقيقية (الحرب العالمية الثانية) وأخيرا
جاءت الهزيمة ... ومثل الكثيرين غيري اخترت فرنسا ... عندما عدت الى باريس سألني
البير كامى : هل سنضطر يوما الى أن نختار بين روسيا وأمريكا ؟ ... لم يكن الاختيار في نظري
بين روسيا وأمريكا ولكنه كان بين روسيا وفرنسا ، حيث كانت فرنسا الضعيفة تقف وجها
لوجه أمام روسيا القادرة القوية . لم اهدأ من بحرف مما كنت أؤمن به حينما كانت فرنسا
القادرة تقف بمواجهة الاتحاد السوفيتي الضعيف . ان روسيا الضعيفة تريد جبهات شعبية ، اما

روسيا القوية فتريد ديموقراطيات شعبية... لقد قال ستالين املئى « في بداية الثورة كنا ننتظر الانقاذ على يد الثورة الأوروبية ، اما الآن فالثورة الأوروبية تنتظر الجيش الاحمر » . لست اؤمن بثورة فرنسية يقوم بها الجيش الاحمر ، ولا اؤمن بالعودة الى عام ١٩٣٨ » .

« وفي مجال التاريخ ، فان الواقع الرئيسي الاول الذى ساد السنوات العشرين الاخيرة هو في نظري ، أولية الأمة ، وهو شيء يختلف تمامًا من الوطنية . فهو لا يبنى على التفوق ولكن على الخواص المميزة » (اندريه مالرو - مذكرات الجزء الاول - الترجمة العربية مع بعض التصرف) .

هذه الفترة الطويلة المعبرة من حديث مالرو تكشف لنا عن عدد من النواحي الهامة في حياته وتفكيره ومواقفه ونظريته الى الحياة والانسان ، كما تبرز بعض جوانب شخصيته الغلة التى تجمع بين حب المفامرة بحيث ملأت حياته ورواياته ، وحب فرنسا الذى املئ عليه ان ينخرط في سلك المقاومة بعد الهزيمة ، وان يقف موقف العداء من الشيوعية بعد ان كان ضالعا معها ، وان يقارن في مواقف كثيرة بين (الوجود الفرنسى) و (الوجود السوفيتى) الذى يحاول ان يطعمه في المستعمرات ودول العالم الثالث ولكن دون جدوى ، بل ان حبه لفرنسا كان يملئ عليه ان يقارن دائما بين مبادئ الثورة الفرنسية والثورة الروسية وما حققته كل منهما للانسانية . سبق ان التقيت ، ثم التقيت مرارا بعد ذلك بهذا الوجود لفرنسا . ان روسيا السوفيتية لم تطعمه . ان الالة تصطنع للبلاد الحديثة النوعا مهرا اكثر مما تصطنع ببوليتاريا عاملة . وفي كل مكان يدعو الشعب الى الثورة وليس بالبوليتاريا ، فان دعوة الثورة الفرنسية وحماس المعركة الملته من اجل العدالة ، من سان جوستالى جوريس الى ميشيليه وعلى الاخص فيكتور هوغو ، هذه اللحوة تحتفظ بتأثير يصارع الماركسية على اقل تقدير . وفي افريقيا وفي امريكا اللاتينية ، حتى عندما كان تكتيك الثورة روسيا كانت لفتها لا تزال فرنسية . لقد رايت في برشلونة ايام الحرب الاهلية اكواما من كتاب (اليؤساء) بين (باكوئين) وكتابات تولستوى النظرية (لا مذكرات) . كذلك تكشف هذه الفقرة عن مدى حب مالرو للحرية وإيمانه بالانسانية الذى يجب ان يعطى الفرصة كاملة لتحقيق وجوده ، ومن اجل الانسان والحرية تطوع مالرو في عدد من الحروب للدفاع عن المستضعفين . وقد اعطاه هذا كله بغير شك ابعادا جديدة في نظره الى الانسان والمجتمع والحضارة الانسانية .



والشيء الذى يلفت النظر حقا هو انه على الرغم من شهرة اندريه مالرو ورغم الدور الذى لعبه في الادب والفن والسياسة بحيث أصبح يعتبر واحدا من اكبر المفكرين الذين اثروا في سير الثقافة المعاصرة ، فان هناك كثيرا من نواحي حياته - وبخاصة حياته المبكرة - لا تزال غامضة بل ومجهولة تماما . والظاهر ان مالرو نفسه كان يحب ان يحيط نفسه بالقعوض ، او على الاقل يترك بعض جوانب حياته وبعض نشاطه وبعض الاحداث التى تعرض لها في منطقة الظل بعيدا عن الضوء . وحتى الذين يزعمون انهم على بعض الصلة الوثيقة به لا يعرفون في الحقيقة كثيرا عن حياته الخاصة فيما عدا بعض الحقائق الاساسية عن مولده عام ١٩٠١ في إحدى العائلات البرجوازية

في باريس ، وعن ميله في أيام الصبا والشباب إلى الترف وحب الظهور والتباهي في أول الامر إلى أن اصطلح يوفائع الحياة القاسية المروية في الهند الصينية حين ذهب إلى كمبوديا للتنقيب عن الآثار والبحث عن كنوزها فوجد نفسه غارقا في آذنيه في مآسى البشر تحت وطأة الاستعمار . كذلك هناك معلومات كافية عن المآسى الشخصية التي تعرض لها في السنوات الأخيرة من حياته وبالذات منذ أوائل الستينات ، حين قتل ولداه الصغيران في حادث سيارة عام ١٩٦١ ، ثم موت صديقة عمره الكاتبة لويز دو فيلموران Louise de Vilmorin عام ١٩٦٦ قبل أن يتحقق ما تعاهدا عليه من اتمام الزواج بوقت قصير ، وذلك بالإضافة إلى ادمانه الضمر والمخدرات على الأقل في فترات محددة من حياته ، إلى جانب سوء حالته الصحية . ولكن كل هذه أمور يمكن أن تضاف إلى رصيده الهائل من التجارب في الحياة التي انعكست في كتاباته ، بحيث نجد أحد النقاد يقول أن أهم وأروع أعمال مالرو كانت حياته .

هذه الشخصية الفذة المتعددة الجوانب والتي تبدو متناقضة لأول وهلة ، كانت ولا تزال موضوعا للبحث والتحليل بقصد ردّها إلى نوع من المنهجية والاطراد والنظام والترتيب ، وذلك من طريق دراسة إنتاج مالرو وتصنيف أعماله إلى (اتجاهات) رئيسية ، والزمن بما كل اتجاه من هذه الاتجاهات يعبر مرحلة معينة بالذات من مراحل حياته . وتمثله هذه المحاولات على أنه كان مغامرا أول الامر ، وحين سُمّ المغامرات وحياة المخاطر ، ونال كفايته من الرحلات والحروب انقلب دياليا ومفكرا ادبيا ، وحين فكر في التآمر من ممارسة هذا اللون من النشاط تحول إلى (عالم الفن) فاصبح ناقدًا فنيا . ولكن مثل هذه المحاولات لا تفلو من السذاجة الناجمة عن البساطة في التبسيط ، لان مالرو دخل (عالم الفن) منذ كان في الثامنة عشرة من عمره ولم يفسدده قط على ما يقول لارمان هوج Armand Hoog . فلقد أحب مالرو وهو في تلك السن الفن الشرقي ، وحضر محاضرات عنه في مدرسة اللوفر ، ثم قام هو نفسه بالقاء محاضرات عنه في متحف جيميه Musee Guimé ومع أنه مارس كثيرا من الوان النشاط الادبي والسياسي والثقافي فان هوج يحب أن يجعل مهنته الحقيقية — او على الأقل المهنة التي تمسك بها طيلة حياته — هي نشر كتب الفن . ومنذ بدايات كتاباته لم تخل رواية من فقرات تمكس نظرات عميقة في الفن .

ولقد رأس مالرو بعثة اثرية إلى الهند الصينية وهو في الثالثة والعشرين من عمره للتنقيب عن الآثار الكمبودية ، ولكن اتصاله بثوار كمبوديا الذين كانوا يكافحون للتحرر من الاستعمار الفرنسي دفع الحكومة إلى تفتيق تهمة له بمحاولة تهريب بعض الآثار ، وحكم عليه بالسجن ثلاث سنوات ، لولا أن انبرى للدفاع عنه بقوة عدد من كبار المفكرين والادباء الفرنسيين من امثال اندريه جيد واندريه مورو واندريه بريتون ولوى راجون مما اضطر الحكومة لاطلاق سراحه . وزار مصر وبهره حضارتها القديمة وفنها الاصيل الذي اوحى اليه بكثير من الآراء . ويقول في ذلك في كتابه (لا مذكرات) : « لقد التقيت في مصر الآراء التي ظلت لمدة سنوات تحكم وتوجه تفكيرى في الفن .. ولد أولها من أيمى الهول ولم يكن قد تخلص من الرمال .. ولكنه لا يزال يتحدث بلغة الاطلال التي اخذت تستحيل الى مواقع اثرية » وظل أوتباطه قويا بمصر وآثارها إلى أن اسهم في الحملة لاتقاذ معابد النوبة « مكتبة المتحف تعرض أيضا الخطبة التي ألقاها من أجل انتقاذ آثار النوبة ، وتعرض صورة فوتوغرافية كثيرة للأعمال الجارية .. انا أذكر صخور اسوان

المستديرة السوداء يعكسها نيل بلون انهيار الجحيم .. لا شك ان هذه الصخور لم تغير منذ الوقت الذي اخذ فيه فلوير الشاب مرض الزهري من فتاة تدعى كوتشيك هاتم، كان منبرها باسمها، قدر انهياره باسم ملكة سبأ، ومعناه على ما اظن : السيدة الصغيرة .. وجلدته مملكة سبأ نقام برحلة مليئة بالخطر اليها - « كيف ادخلت في راسي منذ ثلاثين سنة ان احشر على عاصمة مملكة سبأ، كان للمغامرة الجغرافية هندك فتنة فقدتها .. فيم كانت ولا تزال شامرية سبأ ؟ الملكة بليس ؟ قليل من النساء قد دخلن التوراة، وقد جاءتنا من المجهول بفيلها المتوج بريش النعام .. (الخ) .. مملكتها تنتمي الى الحضارات الضالمة » .. وحين تولى وزارة الثقافة في فرنسا حقق انتجازات هائلة في الفن ونشر الثقافة الفنية وانقاذ كثير من الكنوز وتشجيع الاعمال الفنية والفنانين .. لقد عهد الى الرسام الشهير شاجال مهمة رسم سقف الاوبرا في باريس، واشرف على ترميم قصر فرساي الشهير، ونفض التراب عن كثير من اعمال الفن الرائعة في اللوفر نفسه . ولقد كان يؤمن - كما يقول في كتابه الضخم « اصوات الصمت » بان الفن هو بمثابة الدين، وان كل فن انما هو ثورة ضد ثمر الانسان ومصيره ونوع من الثأر من العالم المعادي، وان الفن الاوربي ليس يعد كل شيء سوى فن واحد ضمن فنون كثيرة لدى سائر البشر .

وربما كان ذلك هو ما دفع موريس بلانشو Maurice Blanchot الى ان يقول « انشا نعرف ان مالرو يهتم بفن التصوير والرسم ولكننا نعرف ايضا انه يهتم بالانسان » . وهذه عبارة لها مغزاها لانها تبين الى حد كبير اهتمامات مالرو، ولكن الاهم من ذلك انها تعكس العلاقة القوية بين الفن ومصير الانسان وقدره - او الوضع الانساني على العموم - كما تظهر في كتابات مالرو . وتبع هذه العلاقة ومحاولة ابرازها هي التي تجعل من مالرو في حقيقة الامر ليس مجرد روائي او دارس للفن، وانما تجعل منه في الوقت ذاته مؤرخا وباحثا في الحضارات والثقافات وبخاصة الحضارات القديمة، والى حد ما الثقافات (البديالية بحيث تصطبغ بعض كتاباته بصبغة انثربولوجية واضحة، وتجمصل منها مصدرة للمعلومات الانثروبولوجية الموسوعة في قالب قصصي جذاب . ورغم اعجابه بالانجازات الحضارة الحديثة فانه يعتبرها مجرد حضارة واحدة ضمن حضارات كثيرة عرفها الجنس البشري خلال تاريخه الطويل، تماما مثلما يعتبر الفن الاوربي مجرد فن واحد ضمن فنون كثيرة .. « على الرغم من ان شبابه عرف الشرق شيئا بعربي مجوز يسير على حماره بينما يخط العالم الاسلامي في نومه الذي لا يقهر، فقد اصبح المتألف من سكان القاهرة اربعة ملايين، وبنداد تستبدل الزوارق البخارية بقوارب البوص والقار التي كان فلاحوها البابلبيون يصطادون بها، وناهت ابواب طهران المظلمة بالفسيفساء في عمار المدنية كما نهلت بوابة سان دينيس .. امريكا تعرف منذ زمن بعيد المدن التي اطلقوا عليها اسم القطريرت (والتي تنسج وتنتشر وتشعب في كل مكان)، ولكن هذه المدن لم تكن لتمحو حضارات اخرى ولم تكن ترمز الى تحول صور الانسان » . (لا مذكرات) .

ويقدر ما كان مالرو يهتم بالحضارات القديمة التي اندثرت (وان تكن خلفت وراها معالم حية تتمثل في آثارها الرائعة كما هو الحال بالنسبة للحضارات مصر القديمة) بقدر ما يهتم بالاحداث الجارية في المجتمعات المعاصرة على مختلف درجات تطورها . ومن هنا كان يمزج في كتاباته بين الماضي والحاضر .. حضارة مصر القديمة « وما يمثلها ابو الهول بحاضر مصر وما يمثلها اتقاذا معابد

النوبة .. وهذا المزج الذى يسيطر على معظم كتاباته يتخذ اتجاهات ومتاهات مختلفة وبخاصة حين يتكلم في رواياته عن تجربته في الشرق الأقصى حيث اندمج في أحداثه السياسية المعقدة ، بحيث نجد **أدموند ولسون** Edmund Wilson يقول في عام ١٩٣٤ أن مارلو استقطب المشكلات الحضارية والثقافية بكمبوديا القديمة من أجل المشكلات السياسية الراهنة على ما فعل بالدات في رواية «**الغزاة**» Les Conquerants التى تدور حول أحداث الثورة الصينية ، وتعرض لهذه الأحداث بطريقة تدل على فهم ومعرفه وثيقة بها وبالقوى المتعارضة في الصين الحديثة بوجه عام . ولقد قال **تروتسكى** Leo Trotsky عن رواية «الغزاة» أنهم يسمون هذا الكتاب رواية «ولكن الذى أراه أمامى في واقع الأمر هو سجل تاريخي موضوع في قالب خيالى للثورة الصينية خلال مرحلتها الأولى المعروفة باسم مرحلة كانتون» .

والمهم هنا هو أن ذلك المزج بين الحضارات القديمة والثقافات العديدة المعاصرة ، أو يقول آخر الرحلة عبر الزمان وعبر المكان والتي تكتشف في مارلو من روح المغامر الانثولوجى أو الانثروبولوجى الى جانب روح المغامر الأركيولوجى إنما تعكس في آخر الأمر الرغبة العميقة الصادقة في فهم طبيعة الإنسان ووضعه في هذا الكون .



ولقد خضع مارلو لفترة من حياته ، وبخاصة بين عامى ١٩١٨ و ١٩٢٣ لتأثير عالم الانثروبولوجيا الشهير ليو فروبنويس Leo Frobenius الذى كانت سمعته الدولية قد انتشرت في كل أنحاء العالم في ذلك الحين . والمعروف أن فروبنويس الذى ولد عام ١٨٧٣ كان قد بدأ عددا من الرحلات في أفريقيا - وبخاصة فيما كان يعرف حينذاك باسم الكامبيرون الألمانية - امتدت حتى عام ١٩٠٤ ، وكتب عددا كبيرا من الكتب والمقالات حول الثقافات الزنجية ، ووجدت كتاباته صدق عميقا في الأوساط العلمية وأوساط المثقفين في العالم قبل الحرب العالمية الأولى . وقد ترجم كتاب فروبنويس عن **تاريخ الحضارة الأفريقية** في نهاية الحسب العالمية الى اللغة الفرنسية ، وذلك في الوقت الذى كانت فيه باريس تشهد انتشار موسيقى الجاز وتتعرف بعمق على فن التخت الزنجي . ومن هنا دخل مارلو الى هذا العالم (البدالى) بشعوبه وثقافته وأفكاره وأساطيره وطقوسه وتعاليمه الغريبة عن الثقافة الأوروبية ، وانتهى تكتشف على أى حال من جوانب جديدة من الطبيعة الإنسانية . وقد زاد ذلك من شغف مارلو بالرحلة والسفر والمغامرة للدراسة والكشف والمزيد من المعرفة .

ولقد شغل مارلو نفسه ببعض الأفكار التى شغل بها فروبنويس من قبل وبخاصة المشكلة الرئيسية التى كان فروبنويس قد ألهاها حول :هل للفكرة الإنسان أى معنى على الإطلاق ؟ ، وهو سؤال وجد كثيرا من الاهتمام وحاول الكثيرون الإجابة عليه ، وتراوحت اجاباتهم بين السدين يرون أن الإنسان ليس إلا نتاجا للظروف البيولوجية والاقتصادية والثقافية أى أنه محصلة لعوامل وضغوط خارجية ، والذين يرون أن الإنسان هو ما يفعل أو ما يصنع كما ورد على لسان إحدى شخصيات مارلو نفسه ، وليس نتاجا لما يصنعه الآخرون أو يريدونه منه . فالإنسان وليد إرادته ، وهى فكرة آمن بها مارلو ، ووجهت حياته وتفكيره وانتاجه ، بل وعلاقاته مع الناس وأصحابه بسم

وارتباطه بهم . وقد ظهرت هذه الفكرة بوضوح في روايته « **أشجار الجول في التنجيز** » وان لم تفل منها كتاباته الأخرى التي تمجد اعلام الإرادة الإنسانية على كل العوالم والقوى الخارجية التي لا يمكن أنكار الدور الذي تلعبه - رغم ذلك - في تشكيل حياة الفرد . ولكن المشكلة التي يبدو أنها كانت تشغل بال مالرو في كل ما كتب هي - كما يقول هو نفسه - كيف يمكنه ان يساعد الانسان على ان يدرك ان في استطاعته - وبدون ان يستعين بالدين - ان يبني عظمته على ذلك العدم الذي يكاد يسحقه .. وفي « **أشجار الجول في التنجيز** » التي ظهرت عام ١٩٤٣ يقول :

« اننا نعرف انه لم يكن لنا حق الاختيار ان نولد ولن يكون لنا حق الاختيار ان نموت ، مثلما لم يكن لنا حق اختيار آباءنا او امهاتنا . كذلك نحن نعرف اننا لا نستطيع ان نفعل شيئا حيال الزمن ، وان لمة هوة واسعة عميقة .. تفصل بين كل فرد منا وبين الحياة الكونية . ونحن أقول ان كل شخص يشعر بين جنباته بشعور عميق عن وجود القدر ، فإني أعتقد انه يحمل في داخله شعورا عميقا - مأساويا في بعض اللحظات ان لم يكن في كل الاحيان - بموقف الالامبالاة الذي يقفه العالم منه » .

والواقع ان مالرو نفسه يقول عن شخصيات رواياته أنها تقوم اساسا على فكرة الحاجة او الرغبة في ترجمة نسق معين من القيم الاخلاقية من طريق افراد معينين من الناس . ولذا كانت رواياته تزخر بالافكار ، بل وبفسا بالمبادئ والانسانية والاخلاقية الراقية العميقة من الانسان ووحده - تلك الوحدة المفروضة عليه والتي لا مفر منها ولا علاج لها ، ولهذه الانسان القريبة للتخلص من الزمن والانتصار عليه ، والتزامه بان يتحمل عبء الحرية والدفاع عنها بحيث يفضي بحياته في سبيل تلك المبادئ والقيم التي يعتنقها فيتحدى الموت ، ويعتبر ذلك هو التوكيد النهائي للبقاء « الحقيقي » او الحياة « الحقيقية » .



في بحثه عن ماهية الطبيعة الإنسانية ومحاولة الوصول الى فهم اعماق السلوك الانساني اهتم مالرو اهتماما خاصا بنواحي العظمية ومظاهر النبل والسمو والتعالى في السلوك ، باعتبارها اهم اللامع التي يجب ان تتوفر في الشخصية الإنسانية التي ترتكز على الإرادة الحرة الطليقة التي يستعين بها الانسان في صنع نفسه والتحكم في مصيره وقدره . فهذه اللامع هي التي تتوفر في الانسان الذي يقهر الصعاب ويتغلب على كل ما يصادفه من عقبات ، والذي يشعر شعورا عميقا بان له في هذه الحياة رسالة تتعين عليه ان يحميها ويؤديها وينقلها ايا ما يكون لمن ذلك .. ثم هو الانسان الذي يتمسك بشدة وقوة وإيمان بوطنه ، ويعتبر به كل الاعتزاز وخاصة حين يمر هذا الوطن بازمة شديدة تلك التي كانت فرنسا تمر بها تحت وطأة الهزيمة والاحتلال . والمعروف انه حين عقد الروس والألمان اتفاقية عدم الاعتداء عام ١٩٣٩ نيل مالرو افكاره اليسارية ، ثم قاد احدى فرق المقاومة أثناء الحرب العالمية الثانية تحت اسم (بيرجين) وأنه التقى بشاول ديجول قرب نهاية الحرب ، ثم تحول بعد ذلك الى الديبلوماسية المحافظة ، وهي حركة قوبلت بكثير من الامتناع والتقد والهجوم من المثقفين والفكرين الفرنسيين الذين وصفوه بالانهازية فقال لهم عبارته المشهورة

« لقد تروجت فرنسا ». وفي **الامم** ذكرت جملة عميقة الى ابعاد حدود العمق وردت على لسان بيرجييه (مالرو) مخاطباً صاحبة الفندق الفرنسية حين قدمت اليه بعض الخدمات البسيطة وأبدت نحوه قليلا من المطف بعد ان وقع في ايدي الألمان أيام المقاومة .. « اشكرك يا سيدتي ؟ لقد كنت رائعة .. كنت تشبهين فرنسا ». ثم هو يقول في موضع آخر : « ان ما يعنى في أى انسان هو الحال الانسانية » ، ويعنى في الانسان العظيم وسائل مقلته وطبيعته ، وفي القديس طابع قداسه ، وبعض الملامح التي تعبر عن صلة خاصة بالعالم اكثر مما تعبر عن الطابع الفردي .

ومن الطريف ان عددا من النقاد لاحظوا ان روايات مالرو تخلو من الشخصيات الشريرة حقاً ، لان الشر الحقيقي العميق يتناهل مع العظمة والسمو والنبيل والتعالى ، ولا يمكن ان يتوفر نوع البشر الذين يهتم بهم مالرو في كتاباته ، والذين يكرسون انفسهم لصنع التاريخ وقبيلهم الوضع المولم للانسان ، والذين يتميزون بالطولة والمطاء والتفخية ويقفون من القضايا الانسانية موقفاً إيجابياً بحيث يحملون عن غيرهم أعباء الحياة ، ويبعثون في نفوسهم الهدوء والراحة والطمأنينة كما هو الحال بالنسبة لديجول مثلاً نهر . وهذا النوع من الهدوء مختلف اشد الاختلاف عن الرضا بالواقع . انه الهدوء الذي ينجم عن التحريض على رفض هذا الواقع ، والامل في حياة اكثر اشراقاً واكثر ابتسامة ، والعمل من اجل ذلك .

وتجلى هذه العظمة في كثير من الانفعال والإنجازات التي حققها أشخاص معينون يتميزون بالارادة الصانعة الخاصة ، ويستشهد مالرو على ذلك بما كتبه سكوت Scott مثلاً وهو يموت في القطب الجنوبي « لقد فعلت ذلك لكي ادلك على ما يمكن للرجل الانجليزي ان يفعل » . كذلك الحال بالنسبة للذين ذلوا طريق خيبر الذي يعتبر مالرو أحد الرموز او العلاقات الدالة على الارادة الانجليزية ويصفه بأنه (طريق ملحمي) ويصف الذين ذلوه بأنهم لم يموتوا وانما حفرُوا حقاً ومن جدارة اسم انجلترا على هضبة البامير . ولقد كان ذلك الأمر ميداناً لكثير من المارك حين وقف الوطنيون هناك يهيلون جوائب من الهملايا على الطواير الانجليزية فيبيدونها ، ولم ينج من الإبادة الا ملازم واحد . وحين سئل : اين الطاور ؟ اجاب الملازم بروح الفكاهة وروح اسبرطة : « انا الطاور » .. فهذه اذن اتمام من الشجاعة والبطولة والتحدى والعظمة نور النفس ، واعتبر في نظر مالرو المعيار الحقيقي الذي يجب ان يقاس به الانسان العظيم .



ولكن هذه العظمة تجلى بافضل واعلى صورها في اثنين من الساسة وكبار قادة الامم في العصر الحديث ، اولهما هو نهر ، والثاني ، وربما كان في نظر مالرو اعظم الاثنين ، هو ديغول .

لقد هزه من نهر وهدوه وسكينته وموهبته في اسكات ما يسميه مالرو « قطع البشر » حين ظهر اليهم نهر بشخصيته القوية المتفردة الهائلة . ولكن لعل اكثر ما امتع به هو ما يسميه ايضا « ميرة الانسان » ، لان الوهية وحدها ليست كافية . ولقد ذكر له نهر انه لا يزال مؤمناً بما سبق ان كتبه في الماضي . « قيل ان العمل للامنيث خرافة ، ولكنه كان هنا (في الهند) هو

الوسيلة الوحيدة الواقعية للعمل السياسى . ولكل عمل سوى نتائج سيئة . . حتى فى السياسة . . وهذا فيما اعتقد قانون من قوانين الطبيعة يضارع فى صحته أى قانون فيزيائى أو كيميائى » . ثم قال أثناء الحديث : - « كنت أذكر راماكيشنا وقوله (لا يمكن أن يظهر الله حيث تكون الكراهية أو العار أو الخوف) ، ولكننى أذكر أيضا غاندى وقوله (أفضل للإنسان أن يناضل من أن يخاف) » . فروح النضال كانت تكمن وراء الألفاظ ، والألفاظ لا يعنى أبدا السلبية أو الاستسلام . . ولقد سجن نهرو ، ولم يكن السجن بالنسبة إليه مجرد حادث عابر كما هو بالنسبة لكثير من المناضلين ، وإنما كان غاية . . ويذكر مالرو أنه أثناء زيارته لنهرو وبعد العشاء اصطحبه نهرو عن طريق سلم حلزونى مع بعض كبار المدعوين إلى مسرح صغير أقيم تحت الأرض . . « وبعد أن جلسنا مال نحوى وقال (كان السجن بالنسبة إليك حدثا عارضا ، وكان بالنسبة إلينا غاية . وكلما ألقى القبض على واحد منا كان غاندى يبرق إلينا مهتئا . وفى تلك الأيام كان يقول : تطلب الحرية بين جدران السجن وأحيانا فوق أرواح المشائى ، ولا تطلب أبدا فى المجالس والمحاكم أو المدارس ») - لا مذكرات .

إلا أن الشخصية التى يبدو أنها فاقت فى نظره فى عظمتها وقوتها وجبروتها أى شخصية أخرى عرفها مالرو من قرب كانت هى شخصية **الجنرال دييجول** . . . رجل الفعل ، الذى يهب نفسه للقضية التى يؤمن بها .

وكانت هيبة دييجول أو عظمتها تتبدى بوجه خاص من تلك المسافة التى يشعر بها الناس دائما وهو بينهم حتى وهو يتلطف معهم ، وهى نوع من المسافة الفريدة التى لا تظهر بين دييجول وغيره ممن يحولونه فحسب ، بل أنها تظهر أيضا بين قوله وشخصيته ، وهى أشبه شيء بالمسافة التى يشعر بها المرء أمام العقول الدينية الكبيرة التى تبدو كلمات أصحابها العادية وكأن لا علاقة لها بحياتهم الداخلية . إلا أن هذه المسافة لا تمنى عدم وجود اتصال قوى بين دييجول ومن يحده ، ولكنه اتصال يصعب تفسيره نظرا لوجود تلك المسافة . أى أن ثمة اتصالا قويا رغم الشعور بهذه المسافة أو ذلك البعد ، وهذا فى رأى مالرو مظهر من مظاهر العظمة الحقيقية . فدييجول يفرض على الإنسان الإحساس بشخصيته الشاملة ، ومع أنه كان دائما سيذا مهذبا فى معاملة الآخرين - حسب تعبير مالرو - فإن المرء كان يشعر دائما أنه فى وضع الشخص الذى يتمتع عليه تقديم كشف حساب له . « لقد رأيت جنرا لا يجب الأفكار ويحييها فى الطريق تحية لا تكاد تحصى . . كل امرئ يشعر أمامه بالمسئولية لأنه كان يتحمل المسئولية فى مصير فرنسا . . هذا المصير الذى استولى عليه وملا حياته وتكرهه وكان لزاما عليه أن يكتشفه ويؤكده » . (لا مذكرات) .

ويقارن مالرو فى **اللامذكرات** بين دييجول ونابليون ليعين ما يقصد إليه فيقول : « ما أن يخلع الإمبراطور دوره ، بل وفى بعض الأحيان وهو يتقص هذا الدور - حتى يظهر نابليون السريع الفضب أو الممثل ، زوج جوزفين ومدير المقلب . وكانت الحاشية كلها تعرف هذا الشخص . أما الجنرال دييجول فى حياته الخاصة ليس متدعاهونه بالرجل الذى يتكلم فى الشؤون الخاصة ، ولكنه فقط الرجل الذى لا يحدث فى شئون الدولة . . لا يرضى لنفسه الانسياق وراء انفعالاتها ولا التوائى من ضبطها . وكان يتقبل من طيب خاطر فى أثناء الحفلات أو فى المناسبات التى يختارها

بنفسه أن يخوض في حديث سطحي ، ولكن ذلك لا يبدو ما تعلمه عليه الكياسة التي لاتنفصل عن شخصه ... نابليون قد أفزع جاراته ، أما الجنرال فهو في رأى جاراته متباعد وجذاب (جذاب معناها يحسن الاصغاء) لأن هذا الرجل حتى وهو يحدثون عن أطفالهن لا يزال هو الجنرال دييجول ... » . بل أن مالرو يذهب إلى إبدع ذلك للتدليل على قوة شخصية دييجول كرجل أعمال حين يمزو إليه أنه هو وحده الذي كان قادرا على انتشار فرنسا من هذتها ومن الاضطراب السياسي والتخبط الذي وجدت نفسها فيه ، وأنه كان يريد حقيقة - وحده - أن يقف في وجه الدول الشيوعية بفرنسا أخرى قوية ومستقلة ، ويعترف بأن الناس لم يكونوا يملكونه ، وبخاصة في المستعمرات ، « فهو لم يضع شيئا لاستمالة قلوبهم ولا حتى معرلتهم ، وكان يمتلك من الهبة أكثر مما يمتلك من الشعبية » .



في الصفحة الأخيرة من رواية « الفيل الإنسان » يقول جيسور موجها حديثه إلى ماي : « أنت تعرفين هذه العبارة (لابد من تسعة أشهر لصنع إنسان ، ويكفي يوم واحد لقتله) . وقد عرفنا - أنا وأنت - مانطوى عليه هذه العبارة من صدق بقدر ما يمكن أن تعرف ... ماي ، اسمعى : أن الأمر لا يحتاج إلى تسعة أشهر فحسب ، بل لابد من خمسين عاما لصنع إنسانا ... خمسين عاما من التضحيات .. ومن الإرادة .. ومن ... أشياء كثيرة ! وحين يتكون هذا الرجل ، وحين لا يعود فيه شيء من الطفولة أو المراهقة .. وحين يصبح رجلا حقا - لا يصلح عندئذ إلا أن يموت » . (ترجمة فؤاد كامل) وحين نضج مالرو واكتملت رجولته وتفكيره وكتاباته ، جاهد الموت في نوفمبر ١٩٧٦ ، وهو في الخامسة والسبعين من عمره .

وفي روايته « الطريق الملكي » La Voie Royale يقول مالرو على لسان إحدى شخصياته « أن ما ينقل على هو - كيف استطعنا أن أقوله ؟ - قدرى الإنساني ، وقصوى وحدودي الضيقة ، وأنه لابد لي من أن تتقدمي السن وأشيخ ، وأن الزمن - ذلك الشيء الكريه - لابد من أن ينتشر في كيالي انتشار السرطان » - وقد انتشر السرطان بالفعل في رئة مالرو حتى قتله .

ومهما كانت الآراء في مالرو وأدبه وفنه وتفكيره بالذات في موافقة السياسة أثناء حياته ، فقد شعرت فرنسا والعالم أجمع بفداحة الخسارة حين مات ، وخسر مفكر فرنسا وأدبائها وفلاسفتها جميعا لتحية البطل الذي مات ، وشازنهم في ذلك مثقفو العالم . وخرجت فرنسا من بعض تقاليد العريقة لتحيتها حين أطلقت اسمه على المسرح الفرنسي الذي يقع أمام مسرح الكوميدي فرانسيز الشهير ، وهو إجراء لم يسبق له مثيل في الأغلب ، حيث تقضى التقاليد أن يمر خمسة أعوام على الأقل على موت أي شخص قبل أن يطلق اسمه على أي مكان عام ... ولكن مالرو لم يكن بالنسبة لفرنسا وللفكر والثقافة مجرد « أي شخص » .

ولقد كتب الكثير عن مالرو أثناء حياته ومنذ مات في أعام الماضي . والدراسات الأربعة التي تقدمها هنا قدم بها ن لأول مرة في تاريخ هذه المجله - أربع سيدات من التخصصات في الأدب الفرنسي الحديث ، وهذا آسهام جدي وجديديضاف الى تلك الكتابات العميقة التي ظهرت في مختلف أنحاء العالم حول الأديب الثائر المغامرفنان السياسي اندريه مالرو . وهي تحية من المفكرين والمثقفين العرب الى أحد رجال الفكر والثقافة العالميين الذي أتيح له ان يعرف من قرب بعض ملامح الحضارة العربية في بعض مراحل تاريخها القديم او الحديث وان يكتب عنها بعمق وفهم وتقدير .



نصحي عبد العزيز شيخه

أندريه مالرو التحول السياسي من الشيوعية إلى الديمقراطية

إن الطريق السياسي الذي سلكه أندريه مالرو لم يكن طريقاً سهواً ، ولم يظل في اتجاه واحد ، فالرجل الذي كان يعجل للمقيدة الشيوعية في الثلاثينات من هذا القرن لم يلبث أن أصبح من أكبر معارضي ، بل ومعاربي الشيوعية في وزارة الجنرال ديغول . هذا التحول الضخم لا يدل بأي حال من الأحوال على ضعف أو تهاون من قبل الكاتب الأدبي بل يأتي في إطار مرحلة تطور ونضج أعمق وأكبر .

لقد كان من رأى أندريه مالرو أن الوفاء المتحجر لا يمكن أن يعتبر دليلاً من دلائل القيم وذلك على حد قول الكاتب الفرنسي فيكتور هيجو الذي كان قد كتب في مؤلفه مذكرات أحد نوادر ١٨٤٠ : « أنه لئن باطل أن يقال من رجل أن اعتقاده السياسي لم يتغير منذ أربعين عاماً فهذا يعني أن حياته كانت خالية من التجارب اليومية والتفكير والتعمق الفكري في الأحداث . أنه كمثل الشئ على الماء لركوده ، وعلى الشجرة لموتها (١) » .

لقد كان لمالرو مكان ومواقف في كل منعطفات هذا القرن . فقد اشترك في الأحداث التي كانت نتائجها المرجوة لأحداث تغييرات هامة في مصائر الناس : « فقد كان في شنجهاي عندما

(١) فيكتور هيجو ، مذكرات أحد نوادر ١٨٤٠ - أكتوبر .

كان يتحدد مصير الكومنتنج ، وفي برلين لانقاذشالان وديمتروف . وكان في ميدلين مع الطير الجمهوري ، وكذلك في تولوز داخل أحد معتقلات الجستابوحيث أطلقت القوات الفرنسية بالداخل سراجه . وكان في الأزاراس على رأس كتيبة الأزاراس لورين التي كان قائدا لها المشاركة وحرس على المحافظة على الكنائس وقتل ، وأخيرا كان مع دييجول عندما شنت حكومته (٢) » .

يعتبر اندويه مالرو الوحيد من بين المفكرين الذي لم يكتب بالكتابة دفانا عن قضية يؤم بها ، بل عمل أيضا في سبيل هذه القضية .

لقد أراد مالرو أن يقاوم ما اعتبره عبث الوجود الإنساني ، والذي يتميز به مصير الحياة ، والذي يحده الموت وينتهي . وقد كان مالرو دائم التفكير في الموت ، وقد كان ذللا شغله الشاغل . فقد خيم شبح الموت عليه طيلة حياته إذ رأى الموت يختطف كل من أحبه فقد ماتت أبوه منتحرا في عام ١٩٣٠ ، وقتل شقيقاه كلود ورولان في عام ١٩٤٥ ، كما قتل ولده في حادث سيارة في عام ١٩٦١ .

وقد نتج عن انشغاله الشديد بالموت أن حاول مقاومته بشئ الطرق والوسائل ووجد أن الإنسان أثناء بحثه عن وسائل مقاومة الموت يستطيع مثلا أن يلجأ إلى الدين والأيماء لمساعدته ، فمما قد يشكلان وسيلة فعالة في هذا المجال . لكن مالرو يرفض هذا العون من قبل الدين فهو يريد أن ينقذ الإنسان من مصيره المحتوم بواسطة وسائل بشرية .

انغل الكفاح في أعمال مالرو اشكالاً لصوراً مختلفة ومتعددة فذكر منها كفاح الخفاف وكفاح الثائر ، وفي نهاية المطاف كفاح الإنسان الواعي بمصيره كإنسان . وفي روايته « الفزقة » اختار جارين (بطل الرواية) طريق الثورة لأنه وحده الذي يستطيع أن يولد الاحساس بالكرامة الإنسانية عند الجائعين البؤساء الذين يملأون المدن الصينية « والذين يقضى الموت على دهشتهم من وجودهم في الدنيا بعد أن هاتوا طيلة ثلاثين عاما من الاصابة بالجذام . والسل أو الزهرى وسط لا مبالاة لأحد لها من الآخرين (٣) » . كما تسمح الثورة بإزالة الاضطهاد الذي يحوم شخصية الفرد ، وفي نفس الوقت تساعد الثورة على خلق هذه الكرامة التي لا غنى عنها للإنسان .

« لكن هذا الطريق من وجهة نظر مالرو يعتبر مرفوضا ولا يجب التفكير فيه فهو - أي مالرو - وإن لم يكن يخشى المخاطر التي يجلبها مثل هذا الارتباط إلا أنه لا يوافق كلية على طرق العمل التي تترب عليه (٤) » .

(٢) BIOSDEFRE (Pierre de), Malraux, Editions Universitaires, Paris, 1969, 127 p. p. 70.

(٣) مالرو « الفزقة » ص ٢٨٠ .

(٤) MOSSUZ (Janine), Andre Malraux et le Gaullisme Paris, Armand Colin, 1970, 313 p. p. 17

التحول السياسي لانتديه مالرو من الشيوعية الى الديجولية

بعد أن اختار طريق مالرو الثورة في فترة ما من حياته نجده يرفضه في النهاية ، لانه لم يجد فيه الحل والملاج الناجع لمأساة الانسان أمام الموت القاهر ، ووجد أن الوسيلة المثلى للكفاح ضد هذا العدو القاهر هي أن يصر الانسان ويرشده ويوفيه بمصيره المحتوم . ويضع مالرو « الانسان نفسه في مواجهة الموت فهو - أى الانسان - بسبب وجوده وفكره كإنسان ينفى من نفسه حتمية مصيره » ويصبح « انسانا رافضا وعدوا قويا لقوى القدر (٥) » .

وتعتبر السياسة في نظر مالرو هي المجال الأمثل لممارسة الاعمال التي تمكن الانسان من التعبير عن نفسه وتأكيد وجوده . كما يعتبر ارتباطه بقضية الشيوعية في الثلاثينات ثم تحولها الى الديجولية اعتبارا من عام ١٩٤٥ مرحلتين متتابعتين لهذا المسلك الطويل في الكفاح ضد عدوه الموت وضد « موكب الضغوط التي تلازمه ، مثل الشر والاضطهاد والعبودية والتقيود المتنوعة (٦) » وقد اثار مثل هذا التحول من جانب مالرو دهشة الكثيرين ، كما أن الكثيرين اعتبروه تحولاً جذرياً ومتناقضاً من الشيوعية الى الديجولية .

وهنا نجد من الواجب علينا أن نطرح سؤالاً يتبادر الى اذهان الكثيرين وهو : هل كان انتديه مالرو بالفعل ماركسيا ؟ للإجابة على هذا السؤال الهام نقول أن مالرو في فترة الثلاثينات من هذا القرن كان زميلا للشواريشيويين ، وشارك في معاركهم وفتنى ببسالتهم وإثني على شجاعتهم في كل من الصين والمانياتوا في اسبانيا .

ففي آسيا كما هو الحال في أوروبا « كان الشيوعيون دائما أول المضطهدين وأول من يشترك في الماركة (٧) » وفي ذلك الوقت كان لزاما على كل مفكر وإع وملمز بقضية الحرية أن يساير الشيوعية اذا ما أراد أن يقاوم الديوقراطية البرجوازية او بالاحرى الفاشية « . (٨)

فمثل هذا الفكر يتبنى الشيوعية للوقوف في وجه البرجوازية التي تفوح منها « رائحة الموت » أو الوقوف ضد الاضطهاد الرأسمالي . وهكذا نجد أن جارين أحد أبطال مؤلف الغراء يقول « ومن المؤكد أنني لا أشعر تجاه البرجوازية التي أنتمى اليها الا بالاشمئزاز والكراهية الشديدة ... وأشعر في أمماتي باحقاد قديمة ضدها وهي السبب الأول في ارتباطي بالثورة (٩) » .

وفي رأى الناقد الفرنسي **روجه ستيفان** أن مالرو « لم يرتبط بالشيوعية الا بقدر ما كانت النظرية الماركسية لا تتجاوز مرحلة النهج الثوري وبقدر ما كان هذا النهج يبدو بالنسبة

(٥) Ibid, p. 18

(٦) MOSSUZ (J.) op.cit., p. 19

(٧) GAILLARD (Pol.), Malraux, Paris, Bordas, 1970, 224 p., p. 176

(٨) Id., Les Critiques de notre temps et Malraux, Paris, Garnier, 1970 191 p.

Article de Roger Ste phane, Les Silences de Malraux, p. 126.

(٩) مالرو : الغراء ص

له وسيلة فعالة من وسائل التصدي للتخريب الفاشي (١٠) « ولكن أندريه مالرو لم يعنق كيسة النكر الماركسي للثورة ونحن نعتبر أن رأي جايتان سيكون أكثر حسما في هذا الشأن فهو يؤكد أن « فكر مالرو لم يتوقف لحظة عند « الحقيقة الماركسية (١١) » فهو لم يستيق من العقيدة الماركسية الاتهام التفوق البرجوازي والتنبؤ بهذه « الساعة الجديدة التي سوف تكون صعبة للغاية » والتي سبق أن تنبأ بهارامبو (١٢) « وهكذا نجد أن الماركسية لم تكن تشكل في نظر مالرو ديناً ولا عقيدة ، وإنما كانت تشكل إرادة رفض عنيد ومتحمس للهزيمة . وكذلك تشكل أيضا إحدى الوسائل الأكثر فعالية لكفاح الإنسان ضد المهانة . وهذا يتفق مع ما يقوله كيو في رواية « قدر الإنسان » اعتقد أن الشيوعية سوف تعيد الكرامة وتجعلها ممكنة لكل من اناضل معهم « ويقول أيضا في تعريف الكرامة أنها « عكس لو نقيض المهانة (١٣) »

« فالشيوعية إذا تعيد للإنسان الإحساس بالكرامة والخصوصية (١٤) »

وقد اكتشف مالرو أثناء كفاحه ضد عبث الوجود الإنساني أن الإخاء الإنساني هو أقوى حصن يمكن أن يتقام صد عنه الفكر وهو حساس للعبث النفسي الذي تجلبه المشاركة في قضية مشتركة للإنسان الذي يعاني من مأساة العزلة .

فالشيوعية إذا في نظر مالرو لا قيمة لها إلا بقدر ما تقدم من قيم تحررية تمنح الإنسان الإحساس بمسئوليته وذاتيته . ولكن الأسلوب الذي تطورت به الشيوعية في الاتحاد السوفيتي في الفترة من ١٩١٧ - ١٩٤٧ جعلت مالرو يجزم بانفلاس الشيوعية على الأقل في هذا البلد . وتعلق على ذلك الناقد الفرنسي جانين هوسوز فتقول « لاحظ أندريه مالرو انحدارا مظلما جعل من الشيوعية نظاما استبداديا مطلقا . فهو إذا يقاوم بشدة النظام الستاليني (١٥) »

وعلى ذلك عندما خانت الشيوعية أرو الشيوعيون المبادئ الأساسية والإنسانية التي لفتته ، وكانت سر انضمامه لها ، اعتبر مالرو أن تضامنه مع الشيوعية قد انتهى وكان رد فعله غاية في العنف ضد ما اعتبره « خيانة للأمال العربية وتفيرا للطبيعة واستسلاما لإرادة الاستعباد » وهكذا حين أصبحت الشيوعية سلاح قمع ومدون وأداة للظلم ، وعندما بدت في صورة مضادة للفردية تمنع الإنسان من أن يعبر عن نفسه بحرية ، بل أكثر

Stephane (R.) op. cit. p. 126

(١٠)

FICON (Gaetan), Malraux par lui-memo, Paris, Editions du Souil, 1955, 192

(١١)

p. 91

Ibid., p. 92

(١٢)

(١٣) مالرو : قدر الإنسان ص ٢٤٢ - ٢٤٣

(١٤) مالرو : مقدمة عصر الاحتلال .

Mossuz (J.) op. cit. p. 108

(١٥)

من ذلك تجعله يحتقر نفسه ويملؤه الخجل ، حينئذ قطع مالرو كل علاقة له برفاق الطريق القدامى .



وتظهر لنا بسواد الخلاف بين مالرو والشيوعية من خلال أعماله الروائية قبل القطيعة النهائية بينهما . فقد بدأت هذه الروايات تشكل من قيمة القضية السياسية وعلى الأخص القضية الشيوعية وتظهرها وكأنها تمثل تهديدا للحرية الشخصية للإنسان . فنجد أن رواياته **الفزاة** ، **وقدر الإنسان** ، **والأمل** (١٩٣٧) تكون مجموعة من الأعمال تلمن كلها أن الإنسان لا يستطيع ، دون أن يقلل من قيمته كإنسان ، أن يحرم من حقه المقدس في الحرية .

وهذا ما يمكنه لنا حزن جارين وإساءة في قوله « عندما أفكر أتى كنت طيلة حياتى أبحت عن الحرية ... من يمكن أن يعتبر حرا هنا منظمة العمل الدولية أو الشعب ؟ أنا أم الآخرين (١٦) » أما في رواية « **وقدر الإنسان** » فنلاحظ أن آراء أبطالها حول قيمة الشيوعية متناقضة في أغلب الأحيان ، فمثلا يجد كيو في الشيوعية وسيلة للوصول إلى الكرامة الإنسانية ، وعلى النقيض من ذلك نجد أن كونج يعتبرها مرادفة للمهانة . ونجد أن كلا من بيني وهمرلش يرى في الشيوعية طريق الخلاص . بينما لا تجد فيها ماى إلا تعبيرا عن التعصب الفكرى . وينتقد مالرو أيضا من خلال أعماله الروائية استبداد الراى عند الحزب الشيوى وهذا بالضبط ما تفصح عنه كلماته فلوجين في رواية « **وقدر الإنسان** » حتى لو كنت من عمال شنغهاى فسيكون من رأى أن الطاعة للحزب هى الموقف المنطقى الوحيد . وفي روايته **(الوقت الاحتقاى)** يندد مالرو بوحشية أى سياسة استبدادية ، ولكن مساوىء الحزب الذى ينادى بتعطيل أى فكر فردى تظهر في رواية « **الامل** » فيقول أن كل الذين لا يبدون الاستعداد لامتناع ومسايرة السياسة الشيوعية محكوم عليهم ، كما يقول على لسان جلوكين « بالتغيير أو بالموت (١٧) »

ففى رأى مالرو أن الحزب الشيوى لا يتميز فقط بقتل الحرية الشخصية للفرد لكن بالإضافة الى ذلك فهو حزب انتهازى على الرغم من استبداده بالرأى . وتعكس رواية « **الفزاة** » ذلك فترى أن برودين لا يتردد في قبول أموال البرجوازية حتى يدفع لقواته روايتهم . وكذلك نجد في رواية **وقدر الإنسان** أن فلوجين يقر صراحة بأن الحزب الشيوى يستغل « **الكومنتج** » و **شمانج كاي** وشك ويضفى بالناسخين الشيوعيين في شنغهاى . وتظهر لنا نفس هذه الروح الانتهازية حيث نفهم من كلام فلوجين أن الفرصة سانحة أمام الحزب لاستغلال تشن في حالة ارتكابه محاولة اغتيال **شمانج كاي** شك ويبدو اذا أن الانضمام الى الحزب الشيوى يهدم كل مظاهر الاسالة في الإنسان .

ولا بد لنا أن نشير في هذا الوضع الى أنه على الرغم من إطار أعمال مالرو الروائية يدور حول الثورة فلا يمكن بحال أن يقال أن مالرو كان كاتباً ثورياً بالمفهوم الماركسى ، والدليل على

ذلك أن رواد حركة النقد الماركسي لم يتخلوا بكتابات مالرو . ففي عام ١٩٣١ كتب تروسكي بعد ظهور « الفواة » أن مظاهر التعاطف من قبل الكتاب تجاه الصين النازل لا يمكن التشكيك فيها ولكنها فسدت من المبالغات الذاتية والنزوة الفنية (١٨) « ويضيف تروسكي » لو تفهم وتشبع الكاتب جيدا بالماركسية لكان من الممكن أن يتجنب المغارقات الحممية التي من هذا القبيل (١٩) « وكتب عنه الناقد الفرنسي كلودرو فقال « أن فهم مالرو للماركسية غير عميق وأنه من السهل ومن العليل إذا استرجعنا الماضي أن نجد فهمه غير كاف لها ، والذي يريد أن يتعرف على ماركس من خلال أعمال مالرو فسوف يجهل كل شيء من تطور ونمو التحليل التاريخي ، وكذلك يجهل الطريق الذي أدى ماركس للتحول من المشاهد المذكورة في أعمال مالرو الى العمل الثوري نفسه (٢٠) » أما جاينان فيكون فيرى أن « الثورة الشيوعية مرتبطة في أعماله بالرمزية البحتة فقط وليس بالفحوى (٢١) »

وتقول جانين موسوز بعد أن بحثت عن الأسباب التي أدت بمالرو من زمالة الشيوعية الى القيمة الكاملة مع الفكر الشيوعي أن هذه الأسباب ليست معروفة معرفة أكيدة .

ويبدو أن الأسباب التي دفعت مالرو الى أن يقاطع الشيوعية لا ترجع الى التفكير في الآراء الفلسفية ، بل ترجع الى التفكير في العوامل السياسية والاقتصادية والدبلوماسية المحددة . فهذا التفكير أوضح له عمق الخلاف وبعد الشقة بينه وبين الشيوعية . واعتبارا من عام ١٩٣٧ أصبح كل مفكر حر يعرف أن الاتحاد السوفيتي البلشفي يتحول الى دولة ذات حكم مطلق تشمل نظاما معنويا وادبيا وطنيا ونظاما بوليسيا وتحقيقا تصفيا وتعديا وقتلا (٢٢) «

لقد بدأ الاستبداد الستاليني واضحا للعيان ، ومع ذلك فلم يجاهر مالرو رسميا بشيء ضد الشيوعيين أو ضد الاتحاد السوفيتي بل حتى يصل به الحال لدرجة أن ينصح النرويجي جيد بصلح نشر كتابه « العودة من الاتحاد السوفيتي » .

لكن سرعان ما تبدأ الحرب العالمية الثانية ودخلها الاتحاد السوفيتي منضما لمسكر ألمانيا النازية وأصبح الاتفاق السري بين الستالين وهتلر على تقسيم مناطق النفوذ واحتلال ستالين لدول البلطيق وفنلندا يمثل أسبابا كافية من وجهة نظر مالرو تعفيه من أي التزام ، وهكذا الفضي الاتفاق المضاد للفاشية بين مالرو والشيوعيين وأصبح مالرو حرا في أن يقطع ملاقاته مع الشيوعية .

TROSZY (Léon), La Revolution Etrangée, in p. GAILLARD, Les Critiques.....p. 38 (١٨)

Ibid, p. 39 (١٩)

ROY (Claude), Le Marxisme de Malraux, in p. GAILLARD, Les Critiques.....p. 118. (٢٠)

Interrogation a Malraux, in Esprit, Octobre 1948 (٢١)

STEPHANE (R.) op. cit. p. 127 (٢٢)

وقد قال مالرو شارحا التحول الذى طرأ على النظام السوفيتي وأسباب زوال

تعاطفه مع الشيوعيين « ان الإيدولوجية الاشتراكية في مقدمتها ماركس لم تلق بالعدل ابدا في سلة المهملات وعندما طلب مني الحزب الشيوعي ان اتوجه الى برلين مع اندريه جيد لتسليم احتجاجات أوروبا كلها ضد الحكم على ديمتروف الذي كان يرثى من جريمة حرق المجلس التشريعي الألماني فلم يكن الموضوع يخص البروليتاريا وحدها (...) ولم تكن تناضل لاستبدال الرأسمالية بهذه القوة الرابعة التي آل اليها بوليس الدولة (٢٣) »

وهكذا أصبح مالرو يرى في الخمسينات ان الخطر الحقيقي الذى يجب التصدي له ومواجهته قبل أى خطر آخر لم يعد الفاشية بل الستالينية ، أى الاستعمار السوفيتي ، الذى أصبح يهدد حرية الجميع . وكذلك من بين الأسباب الأخرى التي أدت الى القطيعة بين مالرو وبين الشيوعية موقف بعض الشيوعيين أثناء حرب المقاومة الفرنسية « فقد انتسب مالرو الشعور بأن الكثير منهم كانوا يحاولون الحصول من أعضاء المقاومة الآخرين على كل المعلومات التي يريدونها دون أى مقابل (أى دون مقابلة هذا الاجراء بالمثل (٢٤) » وهذا هو نفس ما صرح به الجنرال ديغول عندما قابله فيما بعد فقال له ان الشيوعيين يستفيدون من الموقف لصالحهم الخاص لكن دون الاشتراك فيه (٢٥) » .

لكن يجب علينا ان نلاحظ ان كل هذه التحفظات التي أبدها مالرو تجاه الشيوعيين الفرنسيين لا يمكن ان تمثل حكما إجماليا أو كليا فنجد أنه أحيانا كان يمتدح بعض الذين قابله منهم أثناء المقاومة وكان يقول عنهم أنهم رجال عظماء . وأحيانا كان يراوده الحنين حين يعود بفكره الى أخوة الكفاح القدامى ، وهذا يبدو فيما كتبه عام ١٩٤٥ عند رجوعه الى الجبهة « أثناء عودتي الى جبهة القتال (...) كنت أفكر في زملائي الشيوعيين بإسبانيا وفي أسطورة البناء السوفيتي على الرغم من البوليس السياسي وفي الجيش الأحمر وفي المنازعين الشيوعيين في الكورير لقد كانوا دائما مستعدين لاستقبالنا على الرغم من وجود الميلشيا ... » (٢٦) لكن هذا الحنين لرفاق الكفاح القدامى كان يتوقف عندما تصبح العلاقة ليستبين شخص وآخر ، بل بين مجموعة ومجموعة أخرى .

واعتبارا من ذلك الوقت بدأ مالرو حملة الهجوم ضد الحزب الشيوعي الفرنسي لأن الشيوعية لم تعد تمثل في نظره الا نقيضا للديمقراطية وهذا ما صرح به « لا توجد ديموقراطية عظيمة الا في البلاد الاسكندنافية وفي البلاد الانجلو - سكسونية أو بمعنى اصح في البلاد التي لا يوجد بها حزب شيوعي . » (٢٧) وأنه من الآن فصاعدا سوف يقف في وجه اقامة أى حكم

CITEPAR G. PICON, Malraux par Lui meme, p. 96

(٢٣)

MOSSUZ (J.) op. cit., pp. 49-50

(٢٤)

(٢٥) مالرو الاذكريات ص ١٢٩ .

(٢٦) مالرو : الاذكريات ص ١١١٨ .

Cito, Par MOSSUZ (J.) op. cit., p. 107

(٢٧)

شيوعي في فرنسا ، وانه سوف يقاوم التلاحم بين حركة التحرير الوطنية والجهة الوطنية « التي تسيطر عليها اقلية شيوعية حتى لا يصبح مجلس ادارة المقاومة المتحدة في ايديهم » (٢٨) ولتبع هذه السيطرة الشيوعية على حركة التحرير الوطنية في فرنسا بلذ مالرو اقصى ما يستطيع كمضو مجلس ادارة للوقوف ضد هذا التلاحم . وكانت العداءة للشيوعية في ذلك الوقت تعنى اولاً وقبل كل شيء العداءة للسيتالينية « بالنسبة لهؤلاء الرجال على حد قول مالرو فان السيتالينية تعنى تقيض كل المعاني والقيم التي كانوا يناضلون من اجلها » . (٢٩)

وفي رايه ان السيتالينية قد خالت القضية الثورية « ان ثورة أكتوبر حاملة الامل العظيم قد غرمتها لاند طويل موجة الحكم الاستبدادي » (٣٠) وتعتبر « دعوة الى المفكرين التي وجهها عام ١٩٤٨ من حزنه وخيبة امله » لم يكن متوقعا ان الفد المشرق سيصبح هذا المويل الطويل الذي ياتي من بحر قزوين حتى البحر الابيض ، وان غنائهم سوف يتحول الى اثنين المساجين « ان السيتالينية تعتبر اذا في نظره جريمة بشعة ارتكبت ضد الفكر الانساني . ومن لم فان الشيوعيين الذين يمثلهم في فرنسا الحزب الشيوعي الفرنسي يشكلون في نظر مالرو اخطر اعداء البلاد الذين يهدسون للوصول بها الى الهلاك والدمار . ان هذا الحزب الشيوعي يمثل خطرا كبيرا ، ومما يزيد من خطورته انه ليس حزبا كسائر الاحزاب الاخرى ، بل انه عميل لقوة اجنبية هي الاتحاد السوفيتي . ويمكن القول ان انتقاده للنظام والحزب الشيوعي وموجهه ليس له اسباب ايدولوجية فقط بل له اسباب اخرى ايضا اكثر خطورة . « فقد طرأ تغير جعل من السيتالينية ظاهرة تتمتع ب نطاق الحدود الروسية ذلك هو مولد قوة عسكرية سوفيتية حقيقية » (٣١) وعندما كان يفكر مالرو في هذه القوة العسكرية التي يتمتع بها الاتحاد السوفيتي محاولا معرفة قدراتها كان يشعر بشيء من الخوف من ان تصبح خطرا على فرنسا .

ويشاء على ما تقدم يمكننا القول بأنه في نصائله ضد السيتالينية لم يفكر الا في مصلحة فرنسا وانه لذلك سوف يتبع مبادئ **جائوسيا** أحد أبطال روايته **الامل** الذي قال « لا يمكن ان نتصور العمل الا مقرونا باساليب العمل ، فليس هناك لكترسياسي الا هند مقارنة شيء مادي بشيء مادي آخر ومقارنة امكانية بامكانية اخرى » (٣٢) ولما كانت الامكانية الوحيدة المتاحة لفرنسا في ذلك الوقت لمقاومة خطر اقامة السيتالينية هي الديجولية فقد انضم اليها مالرو بقوة وكتب من ذلك في **الامذكريات** « ان يستخدم الحزب الشيوعي المقاومة ضد الجنرال ديغول » .

حينما قابل مالرو الجنرال ديغول لأول مرة في يونيو ١٩٤٥ قال له « ان الحدث الاول في ميدان التاريخ خلال العشرين عاما الاخيرة هو اولوية الوطن » (٣٣) ونضيف نحن فنقول انه ان كان

(٢٨) مالرو : **الامذكريات** ص ١١٤ .

(٢٩) مالرو : **الامذكريات** ص ١١٦ .

(٣٠)

MOSSUZ (J.) op.cit. p. 114

(٣١)

MOSSUZ (J.) op.cit. p. 115

(٣٢) مالرو : **الامل** ص ٢١٦ .

(٣٣) مالرو : **الامذكريات** ص ١٢٦ .

التحول السياسي لاندريه مالرو من الشيوعية الى الديجولية

الحدث الاول بالفعل فقد كان ايضا الاكتشاف العظيم بالنسبة لمالرو نفسه ، والذي كان سببا في بدء التزامه بالديجولية .

ويمكن القول انه عند التحول من الشيوعية الى الديجولية مر بمرحلة انتقالية تمثلت في اكتشاف الوطن . وكانت المقاومة هي التيارات السبيل لهذه المرحلة الانتقالية فلم تكن حرب ٣٩ - ١٩٤٥ صراعا طبقيًا ولكنها كانت تضادًا ضد امبريالية اشد خطرا من غيرها لانها كانت في نفس الوقت عنصرية .

وهكذا امتزج التضال في سبيل العدل والحرية بالنضال القومي واشترك جميع المفكرين سواء منهم من كان من اليمين او اليسار في هذا التضال ضد النازية فعلى سبيل المثال نجد ان اوجون وهو من الكتائب الشيوعيين يتفنى ويقول « حزبى اعاد لي الوان فرنسا حزبي حزبي شكرا لدروسك » (٣٤) ويقول مالرو « اثناء المقاومة تزوجت فرنسا ولم اكن الوحيد » (٣٥) وقد بدت فرنسا في نظرة في هذه الفترة في اجمل صورها من الاخاء والتضامن « (.....) كانت فرنسا تتمثل في تلك الفلاحة التي تراك مارا وانت محاط بدورية المانية فتتصور انها سوف تنفل حكم الاعداء فتتقدم نحو خطوة وتنظر اليك فتشعر برمز الصليب في منطقة لا يذهبون فيها الى القداس (٣٦) . وقد ساعدت عدة عوامل على ظهور وطنيته الشديدة : اولها مشاهدته لوت زسلاء النضال والجنود الذين استشهدوا على ارض الوطن وكان من المستحيل ان لا يؤثر ذلك فيه تأثيرا بالغا » وتحول حب الوطن الى وفاء لهؤلاء الرجال وفناء للمتطوعين الذين حاربوا تحت قيادته « وكما كان لازما عليه حتى يلقي فكرة مواجهة الموت ان يضع من الآن فصاعدا الوطن قبل كل شيء » (٣٧)

ومن بين الاسباب الاخرى التي ساعدت على ظهور وطنيته ما شاهده اثناء زيارته لمانيا بعد الحرب ، وما رآه من مناظر الهدم ، فتصور يخوف شديد ما كان يمكن ان يحدث لفرنسا لو انتصر هتلر فقد كان من الممكن ان يصبح الوطن الحبيب « دُرا شاسعة للموتى » (٣٨)

وهكذا نرى ان خوفه وحرصه على وطنه زادا من ارتباطه به فلال مرة في حياته يحارب مالرو على الاراضي الفرنسية وفي سبيل وطنه فرنسا « في عالم اندريه مالرو سوف يبقى آثار هذا النضال الجديد ان تعني ايندا ، وسوف يكون لوطنه منذ ذلك الوقت قيجة اكبر لم تكن له من قبل » (٣٩) وسوف تبدو له نتائج هذا النضال اكثر فاعلية لانه كان يحارب لمصاحبة وطنه وليس لمصلحة الآخرين » .

ARAGON (Louis) La Diane Francaise

(٣٤)

(٣٥) مالرو : المذكرات ص ١٢٥ .

GABRIEL D'AUBAREDE

(٣٦) حديث أدلى به الى جابريل دوباريد .

Mosruz (J.) op.cit., p° 35

(٣٧)

Ibid, p. 36

(٣٨)

Ibid, Loc. cit.

(٣٩)

فهم مالرو فجأة في ذلك الوقت سبب فشل « ١٠ » لورانس في بلاد العرب وفشل بر مند قبائل موسى وفشل « جارين » في كاتون وفشل فانسان برجي في السهوب الأفغانية « ان التهجين لا يجدي مع الاجسام الغريبة فحتى اسبانيا الجمهورية اضطرت للانفصال القوات الدولية التي ساعدتها بكل بسالة وكان ذلك أمرا صعبا عليها وبعطينا كل من ثوار ٩٢ والثوار الصينيين والجمهوريين الاسبان نفس الدرس وهو وجوب العمل في وطننا نفسه قبل اي مكان آخر » (٤٠) وهذا نفس ما صرح به الكاتب لجانين موسو أثناء حاضرتهم بتاريخ ٢٢ أبريل ١٩٦٨ « لا يمكن صناعة وطن الآخرين » (٤١)

اذن فقد اكتشف مالرو وطنه ونظرا لحرصه على مستقبله فقد بدأ يتسائل عن القوى المتصارعة داخله وكذا عن مستقبل النظام السياسي الفرنسي . واعتبارا من ذلك الوقت فسوف يبدأ مالرو القتال والنضال في ميدان آخر ليس ميدان المقاومة او الجبهة بل ميدان السيد واصبحت فرنسا من الآن فصاعدا هي الأهم بالنسبة لمالرو ، واصبح للفكرة الوطنية والابحار بجانب شخصية بطل تمثل الأمة قيمة خاصة لديه فهي الوحيدة التي يمكن ان تدوم .

لقد اصبح واضحا لمالرو في عام ١٩٤٥ والامام التالية ان القوتين الحقيقيتين الوحيدتين المتسلطتين الفرصة لحكم فرنسا هما الديجولية والشيوعية . ولكن كما ذكرنا مالرو يرفض الشيوعية التي انحصرت في ذلك الوقت في الصورة السطحية فقط والشيوعية لا يمكنها انقاذ فرنسا بعد سنوات الحرب . ولكن الديجولية هي الوحيدة التي بوسعها انقاذها فالشيوعية تبغى صراع الطبقات ولكن الديجولية تهدف الى « تجميعها » .

والجنرال ديغول هو الرجل الذي يستطيع ان يفرض على فرنسا سياسة تتمثل في العزة والحرية وهي السياسة التي كانت تتبعها فرنسا على الدوام . فالديجولية اذا في نظر مالرو . وكأنها الأمل الوحيد في البقاء . وعلى هذا نراه يصرف الديجولية للجنرال ديغول فيقول « أثناء المقاومة كانت الديجولية في نظري شيئا يشبه الاهواء السياسية في خدمة فرنسا كتنقية انكرة فرنسا في خدمة الاهواء السياسية سواء كانت يمينية أم يسارية وبعد ذلك اصبح شعورا بالنسبة لي » (٤٢)

ولكن السبب الرئيسي لتفوق الديجولية في نظر مالرو هو انها كانت تمثل الاسطورة الوطنية فالديجولية ليست عقيدة من السهل تعريضها مثل الماركسية او الفاشية ولكنها « حركة وطنية » (٤٣) وإرادة وطاقة .

والديجولية كما تصورها أندريه مالرو « تجد مكانها في التقاليد الوطنية الثورية بعد ميشليه وبيجي وباريس والجنرال ديغول » تجد ان مالرو يتغنى بالثورة والوطن دون ان يفر

(٤٠) Gaillard (Pol) Andre Malraux, p. 190

(٤١) Entretien avec J. Mossuz, 22 avril 1968

(٤٢) مالرو : شجر الزمان الذي يطلع من ٩٥ .

(٤٣) Carrefour, No. 195, Mercredi 31 mars 1948

التحول السياسي لاندريه مالرو من الشيوعية الى الديجولية

بينهما « (٤٤) » وتعتبر أيديولوجيته الديجولية إيمانا منه بقدرتها على إقامة عالم أفضل ليس بمقدور أحد غير شارل دييجول أن يبنيه ، إذ بالنسبة لاندريه مالرو فإن الديجولية بدون دييجول « لا يمكن تصورها » (٤٥)

ربما يبدو مفيدا أن نتوقف قليلا للبحث عن أسباب هذه الثقة الكاملة من قبل مالرو نحو شارل دييجول ترى متى وكيف تقابل الرجلان ؟

لقد قابل مالرو الجنرال دييجول لأول مرة في باريس عام ١٩٤٥ وذلك على العكس من الحكاية التي روت أنهما تقابلا على جبهة الألزاس لورين في خريف عام ١٩٤٤ . وينفى مالرو نفسه هذه الرواية بقوله « أن المشاعر التي تربطني بالجنرال دييجول قديمة على الرغم من الرواية التقليدية حول مقابلتنا الأولى والتي هي من نسج الخيال ، فمن المؤكد أن الجنرال دييجول لم يقل عني في الألزاس العبارة الشهيرة التي قالها نابليون من جوفه (« أخيرا قابلت رجلا ») وذلك لسبب بسيط هو أن على جبهة الألزاس لم يحدث أن قدم الكولونيل برجييه (الاسم الحركي لمالرو) إلى الجنرال دييجول » (٤٦)

حقا تمت محاولة تقارب بينهما في نوفمبر ١٩٤٠ بعد هروب مالرو الأول من الأسر فقد كتب مالرو لرجل ١٨ يونيو (دييجول) يعرض خدماته كطيار ولكنه لم يتلق ردا على خطابه فامتد أن اشتراكه غير مرغوب فيه وذلك بسبب اشتراكه في حرب إسبانيا . ولكنه فيما بعد اكتشف أن خطابه هذا لم يصل على الإطلاق إلى الجنرال دييجول . ولكن في ذلك الوقت ورغم ذلك كان مالرو قد فهم نداء رجل ١٨ يونيو (دييجول) الذي جاء فيه : « مهما حدث فإن شعلة المقاومة لا يجب أن تخبو ولن تخبو » (٤٧)

ولكن قدر لمقابلتهم الشخصية الأولى أن تتم بعد ذلك بخمس سنوات أي في يونيو ١٩٤٥ . وقد تمت أول محاولة تقريب بين الرجلين باسم فرنسا ، وقد أعطانا مالرو شرحا تفصيليا لهذه المقابلة الأولى وللظروف التي تمت فيها ولل عوامل التي ساعدت على نجاحها وذلك في مؤلفه اللا مذكرات . ففي ذات مساء اتصل به تلفونيا شخص فامض لم يفسح مالرو عن اسمه أو شخصيته في روايته وأبلغه أن لديه رسالة شفوية هامة يجب أن يوصلها له وطلب أن يقابله مساء اليوم نفسه . وبعد مضي بضع ساعات وصل الزائر الفامض وسأل مالرو دون سابق مقدمات أن الجنرال دييجول يسألك باسم فرنسا هل أنت على استعداد لمعاينته « وعلق مالرو على ذلك بقوله « كانت العبارة غريبة » (٤٨) وقبل مالرو الدعوة وانتظر تحديد موعد المقابلة الأولى مع الجنرال دييجول .

Mossuz (J.) op.cit. p. 135

(٤٤)

Carrefour, No. 284, 23 Janvier 1952

(٤٥)

(٤٦) مالرو ، اللا مذكرات ص ١١٤ .

(٤٧) شارل دييجول ، خطابات وكلمات (١٩٤٥ - ١٩٤٦) ص ٤ .

(٤٨) مالرو اللا مذكرات ص ١٢٢ .

وقد كشفت **جائين موسوز** من شخصية هذا الزائر الغامض بقولها « يبدو أن الزائر الغامض لم يكن إلا جاستون بفلسكى الذى تعرف واعجب بالارو عند مقابلته عند كورنيليون مولينه » (٤٩)

وبعد ذلك بايام تلقى مارلو دعوة لمقابلة الجنرال ديجول في وزارة الحربية ، وتعاقد جائين موسوز على هذه المقابلة فتقول « من اللحظات الأولى ساد تفاهم حقيقي واتفاق عميق بين الرجلين » (٥٠)

وقد بدأ على الفور حديث غريب بين اندريه مارلو والجنرال ديجول ، فقد كانت كلمات الجنرال مختصرة وفي صورة أسئلة قصيرة كان يرد عليها الكاتب الفرنسى باسهاب ، ويبدو من وجهة نظرنا ان الجنرال كان يود معرفة « ماضى » هذا الرجل في الفترة التي لم يكن يعرفه خلالها والتي كان يتوقف عليها مصير ومستقبل علاقتهما بعد ذلك . ويبدو أن مارلو فهم ما يدور بخلد الجنرال فنراه يرد عليه يشبع فضوله ويرضيه قائلا : « لقد تطوعت في نضال من أجل العدالة الاجتماعية انصح القول او لاكون اكثر دقة لاعطاء الانسان فرصته » (٥١) وكان مارلو حتى ذلك الوقت قاد النضال خارج حدود فرنسا الى أن جاءت بعد ذلك « **الحرب الحقيقية** ثم بعد ذلك **لغتها التي لم تكن ككثيرين غيري تزوجت فرنسا** » (٥٢) . وكاننا نطق مارلو بالكلمة السحرية التي تفتح جميع الابواب وهي « **فرنسا وحب فرنسا** » ثم تناول الرجلان بعد ذلك بالحديث مسائل أخرى ، وأدى اتفاقهما في الراى وتلاقى وجهتى نظريهما الى زيادة قوة التفاهم بينهما .

لقد تحدث مارلو في هذا اللقاء بالفارضة في المواضيع التي تحتل المكانة الأولى في تفكيره ، وهي اكتشاف الوطن والشعبية وخطورتها وموقف المفكرين ... الخ ولم يكن ديجول يقاطعه بالمرة رغبة منه في اعطاء الكاتب الفرصة في التعبير عن نفسه ومن آرائه وتصوراته وآماله بكل حرية .

وبعد أن تعارفا وزال الجمود وذاب الجليد بينهما وتلاقت وجهتا نظريهما واتفقا في الراى بدأ يفكران معا في الموضوع الذى يشغلهما ويسبب لهما الارق وهو مستقبل فرنسا ، فقال ديجول « لقد اهدت الجمهورية ويجب عليها أن تعيد بناء فرنسا » (٥٣) ومنذ هذا اللقاء فصاعدا فسوف يعمل الرجلان بكل جهد لتحقيق هذا الطم المشترك .

شكل الجنرال ديجول وزارته في يوم ١٩ نوفمبر ١٩٤٥ وكان مارلو وزيرا للاعلام بها ونجد لدينا في الالامذكرات تعاقبة على هذا المنصب الهام والدور الذى لعبه فيقول : « لقد كانت مهمة مفيدة وكان المراد منها بصفة خاصة منع كل حرب من أن يستغل الموقف لصالحه » (٥٤) ولقد كانت مهمة

(٤٩)

Mosuz (J.) op.cit. p. 53

(٥٠)

Mosuz (J.) op.cit. p. 53

(٥١) مارلو : الالامذكرات ص ١٢٥ .

(٥٢) مارلو : الالامذكرات ص ١٢٥ .

(٥٣) مارلو : الالامذكرات ص ١٢٥ .

(٥٤) مارلو : الالامذكرات ص ١٣٦ .

شاقة وعسيرة في نفس الوقت لانه وديجول كاتاعلى وهي بهذا « التسابق بين الاحزاب على التفضيل » (٥٥) وهو التسابق الذى سبب تحطيم الحلم الجميل الذى كاشا بطلما به وهو الوحدة الوطنية .

وفى ٢٠ يناير ١٩٤٦ ترك ديغول الحكم وهويتهم « نظام الاحزاب بالتحيز » وكما كان متوقعا فان اندريه مالرو ترك الوزارة في نفس الوقت وتبع رجل ١٨ يونيو في عزله فقد كان محالا عليه ان يتصور الديمقراطية بدون بطلما شارل ديغول وقروالا يعود ابدا الى اعضاء الحكم طالما ان الجنرال ديغول لم يعد للحكم مرة ثانية ويتناول مصير فرنسا بين يديه .

ولحسن الحظ ان الديمقراطيين لم يفقدوا الامل ابدا ، ورفضوا البقاء في عزلة دون عمل او نشاط ، وكان هدفهم الذى وضعوه نصب امينهم هو اعادة الجنرال ديغول الى الحكم . وحتى يتحقق هذا الرجوع يجب عليهم ان يتحدوا في « حركة رائدة يجب ان تكون مختلفة عن التنظيمات الاخرى الموجودة وتكون مزودة بروح المقاومة ويجب عليها ان تحاول تجميع كل فئات الوطن تحت قيادة رجل واحد » (٥٦) .

كان هذا هو الحلم الذى يراود مالرو ايضا وللعمل على تحقيق ذلك نشأت حركة تجميع الشعب الفرنسى في يوم ٦ ابريل ١٩٤٦ وعين مالرو مندوبا للدعاية بها . لم يكن الصلاقان مالرو وديجول متفقين على طول الخط بخصوص الطرق والوسائل التى يجب ان يسلكها التجمع للوصول الى الحكم .

لقد حاول مالرو ان يطبق المعادلة التى اعطاها « لجارسيا » في رواية الامل وهي « لا يوجد فكرة سياسية الا عند مقارنة شيء مادي بشيء مادي آخر او مقارنة امكانية بامكانية اخرى (. . .) وليس بمقارنة تنظيم برغبة او حلم تفسير شامل » (٥٧)

وكان مالرو يمتني ان يكون التجمع باعثا على تغيير شامل جديد ، ومع ذلك فقد حلده ديغول حينما تقابلا لأول مرة عام ١٩٤٥ قائلا « لا تدع الامر يلتبس عليك فان فرنسا لا تريد ثورة بعد الان فقد مضى زمن الثورات » (٥٨)

لكن كان هدف مالرو ان يكون التجمع « حركة ثورية » تستولى على الحكم حتى لو اضطرت الى استخدام القوة واعنف وان تاتي بسياسة اجتماعية . ومن ذلك تقول جانين موسوز « كان مالرو يكرس التجمع ليستولى فجأة على الحكم وان يصر فرنسا المكبلة بالثيود » (٥٩)

(٥٥) مالرو : الامذكرات ص ١٢٦ .

(٥٦)

J. Mossuz op.cit., p. 64

(٥٧) مالرو : الامل ص ٢١٦ .

(٥٨) مالرو : الامذكرات ص ١٢١ .

J. Mossuz, op.cit. p. 67

(٥٩)

ولكن كيف يمكن الوصول الى الحكم ؟

هناك امكانيتان يمكن استغلالهما للوصول لهذا الهدف ولهما احتمال قيام الحرب العالمية الثالثة والتي يكون الاتحاد السوفيتي مسئولا عنها ، وفي هذه الحالة يهب الديجوليون الذين في الحكم لسد الطريق امام الشيوعيين . أما الامكانية الثانية فتكون بخلق موقف ثوري يهيئ السبيل لانقلاب يقوم به الديجوليون .

لكن تجمع الشعب الفرنسي جاء مخيبا لآمال كل من مالرو وديجول ، وبالتالي ابتعد عنه مالرو تدريجيا . أما اسباب انفصاله عنه وروال المحبة تجاه هذا التجمع فهي عديدة . منها ان مالرو لم يتخل نهائيا من حلم العدالة الاجتماعية ، وكان يتحتم على التجمع في تصويره ان يرفع القيم التي يدافع عنها حزب اليسار بوجه خاص ، كما كان مالرو بالاضافة الى ما سبق يحلم بنظام ديجولي كريم وبرجال ديجوليين في خدمة الانسان ، وكان يحلم برؤية الجنرال ديجول ملتفا حوله الرجال الذين قابلتهم منذ سنوات في صفوف المناضلين ضد الفاشية الذين حاربوا في مقاومة الكوريز وكل من كانوا يكونون في نظره شعبا بأكمله (٦٠)

هذا التجمع بعد ان غمرته اقلية من حزب اليمين اصبح هو نفسه تجمعا لليمين . وسبب آخر لنفور مالرو ولخيبة املة وهو غياب المفكرين الذين كان يحلم بتجمعهم حول ديجول . وفي عام ١٩٥١ رفض مالرو ان يكون ممثل تجمع الشعب الفرنسي في الانتخابات التشريعية وبذلك الرفض عبر عن ارادته ورغبته في قطع كل الصلات بينه وبين تنظيم لايرجو منه شيئا .

وفي عام ١٩٥٣ حل ديجول التجمع وسمح لزملائه بحرية التصرف كل حسب مايراه وهكذا انتهى عمر تجمع الشعب الفرنسي . وعندما تكلم عنه مالرو بعد ذلك بعدة سنوات لانه لم يخف مراره قال « منذ ان بدا فيه التجمع تصرف كحزب مشابه للأحزاب الاخرى فقد كل معنى له في نظري » (٦١)

ان اشتراك ومساهمة مالرو في نشاط هذا التجمع ، وكذلك جهوده التي قام بها لانجاحه تستحق منا كثيرا من الاهتمام . فقد كان مالرو بصفته كاتباً الى حد قول جاثين موسول « اليسيط الامثل بين الجنرال ديجول ومجموعة من القراء المجهولين » (٦٢)

وقد حدد مالرو لنفسه المهمة التي يقوم بها، وهي الكفاح لنشر الديجولية وفي نفس الوقت فضح الشيوعية وسوف تتولى المجلة الشهيرة تحقيق هذين الهدفين اللذين سوف يكمل بهما التجمع وكانت هذه المجلة تسمى « حرية الفكر » وكان العنوان وحده يمثل برنامجا ومجاهرة بالعقيدة . ولكن للأسف لم تدم هذه المجلة واختفت نهائيا عام ١٩٥٣ .

Mossuz (J.) op.cit., p. 89

(٦٠)

(٦١) جاء في جريدة الحدث « L'Evenement » الصادر ١٤ مارس ١٩٥٠ .

Mossuz (J.) op.cit., p. 74

(٦٢)

التحول السياسي لاندريه مالرو من الشيوعية إلى الديجولية

وبصفة مالرو مندوبا للدعاية عن التجمع فقد أراد أن يرتبط بالديجولية في مظاهرها « التاريخية » والمظلمة وكان تجمع الشعب لفرنسى يهيم بوجه خاص لأنه يبدو كتعبير وفتى للديجولية « (٦٣) » كما يجب على الديجولية أن تمثل « مدرسة طاقة » (٦٤) لكل الفرنسيين .

من أجل ذلك كان على التجمع أن يسلك طرقا مختلفة عن طرق وإساليب الأحزاب الأخرى تتميز بأنها مجردة تماما من الشبهة والدنائة . ولكي يعمل على إيجاد اتصال مباشر بين الأمة بأسرها والرجل الذي سوف يمثلها بدأ اندريه مالرو حملات « السلام العام » التي كان يهدف من وراءها إلى إثبات متانة وقوة الروابط التي تجمع بين الجنرال ديغول والشعب الفرنسي .

لكن كما ذكرنا من قبل لم ينجح الشعب الفرنسي في أداء المهمة المحددة له طبقا لآحلام وآمال كل من الجنرال ديغول وصحبه من الديجوليين ، وبدأ اندريه مالرو يكس وقته كله لكتابة أعماله الفنية العظيمة التي كان قد بدأ العمل فيها عام ١٩٣٥ . واستمر كذلك حتى عاد ديغول إلى الحكم في مايو ١٩٥٨ فأسرع مالرو بالحضور إليه من فينيسيا وقال له ضاحكا « لدى شعور بأنى ذو فائدة » .

وللمرة الثانية نجد مالرو يقص علينا في **الأمم** تكررات لقائه مع الجنرال ديغول في باريس في فندق لا روز . وشرح عودة ديغول إلى الحكم فيقول « لم تفارقه أبدا العزلة الشديدة التي تركها ليبدأ المفاوضات ، وكذلك ليتولى مصير فرنسا الذي كان يلاحقه منذ سنوات طويلة . لم يطرأ أى تغيير على حديثه الرصين مع هذا الظل . وفى هذه الأيام التى كان يعتبر فيها الأشخاص الذين يطالبون بعودته بشدة فاشيين والتي كان فيها أكثر من بهاجمونه هم الشيوعيون والتي كانت فيها فرنسا محكوم عليها بتلاحم الأحزاب المستبدة لم يكن يفكر هو إلا في إعادة بناء الدولة » (٦٥)

ولقد استمر اندريه مالرو وزيرا للثقافة في حكومة ديغول حتى عام ١٩٦٩ . وظل التزامه بالديجولية يتسم بنفس الدرجة من الأمانة ولاخلاص النادرين والحق أن إخلاصه كان تاما فلم يحاول أبد خيانة التضامن الذى يربطه بالحكومة على الرغم من أنه لم يكن يوافقها على طول الخط « ولابد أن سكونه في بعض الأحيان وكذلك في بعض المواقف كان شاقا عليه » . (٦٦)

كذلك أصبح مالرو المدافع الكبير عن الديجولية التى سوف تملك « سياسة التاريخ » والتي تمثل في نظره قيمة أكبر من « سياسة رجال السياسة » . (٦٧)

Mosuz (J.) op.cit., p. 78

(٦٣)

(٦٤) جاء في جريدة التجمع . Le Ressemblent عدد ٥٢ ، السبت ٢٤ أبريل ١٩٤٨ .

(٦٥) مالرو : **الأمم** ص ١٢٩ .

Gaillard (p.) Andre Malraux, p. 183

(٦٦)

(٦٧) جاء في جريدة التجمع Ressemblent ، عدد ١٤٨ ، السبت ١٨ فبراير ١٩٥٠ .

وظل مالرو يبذل ما في وسعه جاهداً لهدم الادعاءات التي يسوقها اعداء الديجولية . وكان يرد على الذين يتهمون النظام بالفاشية ورئيس الدولة بأنه دكتاتور بقوله « ان الجنرال ديغول ليس فاشيا والدليل على ذلك انني معه ، ولدي أربع عشرة أصابة في سبيل الحرية » . (٦٨)

ولقد أدرك مالرو ببعده نظره وشفافيته ان سبب هذا الاختلاف بين الفاشية والديجولية يعود في المقام الأول الى عدائهما للشيوعية. ومن ثم فقد عمل على وضع تمييز بين هذين النظامين ، فقال ان كلا النظامين عدوا مشتركا هو الشيوعية ولكنهما يحاربانه لاسباب متناقضة « فالنازية تحاربها لكونها شيوعية أما الديجولية فتحاربها لانها الستالينية » . (٦٩)

فنعندما تكون الديجولية هي الحاكمة والسائدة فان ذلك يشير ببدء عصر جديد هو عصر الأمل ، وسوف تولد فرنسا من جديد وسوف تعود الى صورتها الحقيقية. ولكن لكي يتم تحقيق ذلك كله فيلزم كما أوضح مالرو ان يتصالحوا الفرنسيون ويتكاتفوا ويتحدوا ويجمعوا صفوفهم حتى يبدأوا بناء وطنهم من جديد ولقا لاسباب العالم الحديثة .

لقد ظل اندريه مالرو في الوزارة بجوار الجنرال ديغول بصفتة وزيرا للثقافة وذلك حتى عام ١٩٦٩ . لكن عندما سقط ديغول في الاستفتاء بعد أحداث مايو ١٩٦٨ ترك الحكم . ومثلما حدث في المرة الأولى تبعه وزيره وصديقه الحميم في منزله دون أي تفكير او تردد .

وهكذا ينتهي فصل من حياة ديغول الحافلة ويسدل الستار على تدخله في تاريخ فرنسا بعد ان ترك بصماته وآثاره التي لن تنسى . وشرح ديغول بنفسه الدور الذي لعبه بالنسبة لوطنه فيقول « لقد كان ببنى وبين فرنسا عقد (. . .) لقد كان عقداً دون ما سند من حق ورأى وبدون استفتاء وبدون أي شيء على الإطلاق ، لقد كتب على ان آخذ على عاتقي الدفاع عن فرنسا وكذلك الدفاع عن مصيرها ، ولقد استجيت الى نداها الصامت والأمر الذي لا يحتمل الرفض » . (٧٠) لقد كانت فرنسا متسلطة على ديغول ، كما كانت البروليتاريا متسلطة على لينين وكما كان الحال بالنسبة لماو والصين ونهرو والهند (. . .) . لقد تزوج ديغول من فرنسا قبل زواجه من إيفون لاندرو » . (٧١)

ربما يفسر لنا ما سبق السبب الرئيسي لهذا الاتفاق القوي الذي لم يشهد أي صدع ولم يمر بفترات فتور والذي جمع بين الرجلين العظيمين لمدة تجاوزت العشرين عاما والذي بدأ منذ مقابلتهما الأولى في عام ١٩٤٥ . ولعتقد جانين موسوز ان مقابلة الرجلين كانت أشبه ما تكون بمقابلة « رجلين يشعرا بالوحدة والعزلة ، رجلين يميز بينهما وبين سواهما توفر موهبة التنبؤ لدهيم ، رجلين استبعدا بسبب ذكائهما التنبؤي . لقد كان ينتاب كلا منهما شعور غير

(٦٨) محاضرة ألقاها مالرو في ساو باولو ، يوم ٢٦ أغسطس ١٩٥٩ ونشرت بجريدة لوموند يوم ٢٨ أغسطس ١٩٥٩ .

(٦٩) مالرو ، شجر الزمان الذي يقطع ، ص ١٩ - ١٨ .

(٧٠) مالرو ، شجر الزمان الذي يقطع ، ص ١٩ .

(٧١) مالرو ، شجر الزمان الذي يقطع ، ص ٢٠ .

مادى بالمظلة ، وكانا يبحثان على الدوام عن هذه المظلة وبفضل ذلك كانا متشابهين « (٧٢) وينسب « بيردى بواديفر » أسباب هذا التوافق والانسجام بين الرجلين الى ما اسماه « مزلة متشابهة وشغف متشابه بالانفعال التي تنسم بالمظلة » وكذلك الى تمتع كل منهما بنفس قوة الإرادة وقوة الاحتقار . (٧٣)



على ضوء ما تقدم يمكننا اذا القول بان المزلة المشتركة هي التي قرنت بين الرجلين .
فمن جهة كان شارل دييجول يقف وحيدا في عالم التاريخ وربما كان نداء ١٨ يونيو « بمثابة اعلان لهذه الوحدة القاه الى كل من يريد ان يضمهم الى عالم التاريخ هذا » . (٧٤) ومن جهة اخرى كان اندريه مالرو يقف وحيدا هو الآخر حتى عندما كان في وسط الزحام وهو يتنافس مع الآخرين ، وحول هذا المعنى تقول جاتين موسوز « ان انضمامه الى هذه الماركة كان يحتوى على صفة ميتافيزيقية ملحمة كان الهدف من احكام نفسه في قضية اجتماعية هو ان يتحدى الموت وينكره وينقلب عليه . وهكذا نظرا لعدم استطاعته ان يمزج اهدافه باهداف الآخرين فقد ظل وحيدا وسط الجماعات الأكثر تشامسا ، والحشود الأشد ازدحاما » (٧٥) وعلاوة على هذه الوحدة التي جمعت بينهما يمكننا ان نضيف صفة اخرى مشتركة ايضا بينهما هي الحلم بالمظلة والرغبة وهي صفة تعتبر من اشد عوامل تفاهمهما . ومصدقا لذلك نجد ان مالرو كتب في الالامذكرات « الذي يهمني (. . .) في اى رجل عظيم هي الوسائل التي توضح عظمته وطبيعة هذه المظلة » (٧٦) .

لقد فتن كل من الرجلين بقوة شخصية الآخر ، كما وجد كل منهما لدى الآخر نفس الموقف الاخلاقي تجاه الاحداث التي دافع عنها بقوة . وحول ذلك تقول جاتين موسوز ان « كلا منهما قد جعل من الإرادة التي بمفردها تساعد على الفعل مبدأ أساسيا » . (٧٧)
لقد وجد كل من دييجول ومالرو عند الآخر تجسيدا للأمال والاحلام التي كان ينشوها دون الوصول اليها .

وتضيف الكاتبة الفرنسية فنقول « لقد قابل اندريه مالرو رجلا (تقصد دييجول) على الرغم من انه كتب فاته قد نجح في فعله وأوصله الى النهاية المرجوة (. . .) ومن ناحية اخرى فقد قابل دييجول رجلا افعال استطاع ان يجعل من أعماله الروائية عالما مطابقا لعالم القرن العشرين » (٧٨)

Boisdeffre (p.de) op.cit., p. 7

(٧٢)

Mossuz (j.) op.cit., p. 55

(٧٤)

Ibid, Loc. Cit.

(٧٥)

(٧٦) مالرو ، الالامذكرات ، ص ٢٠ .

Mossuz (j.) op.cit., p. 55

(٧٧)

Ibid, p. 56

(٧٨)

لقد بدا ديجول بالنسبة لمارلو منذ أول لقاء بينهما كرجل استطاع ان يحقق احلامه « أما بالنسبة لمارلو فقد اكتشف رجلاً عظيماً » . (٧٩)

ولم يقتصر الامر على ما سبق ذكره فقد مرنا نقاد آخرون قاموا ببعض أسباب التفاهم التام بين مارلو وديجول الذي كان مثاراً للاعجاب الى موقفهما الموحد ضد الشيوعية أو الستالينية.

ويجدر بنا ان نذكر هنا جزءاً مما كتبه موريالك في جريدة الفيجارو : « عندما كان باريس (BARRES) في الخامسة والعشرين من عمره ممثلاً لحزب بولنجيه بمدينة نانسي كان دوره يتلخص في ان يقوم باتباع حصان اسود ورجل ذي لحية شقراء يرتدى الزي العسكري ، أما مارلو وهو في عنفوان الشباب فنجدته يرتبط بقائد يعتقد انه ليس بقادر على تغيير المصير الفرنسي فحسب بل أيضاً على منع تحقيق طمع ستالين في أوروبا .

في الواقع ان كفاح هذا الرجل الذي يمكن ان نقول عنه انه مثل سيدنا داوود غير مرتبط بأي سن او زمان كان كفاحاً موجهاً قبل كل شيء ضد ستالين العظيم . لقد كان يحارب ستالين اكثر من انه كان يحارب مع ديجول .

هل ينبغي ان اقول ما افكر فيه صراحة ؟ انني اعتقد ان اتدبره مارلو كان يتميز بشيء من الكبرياء لدرجة انه يعتبر ديجول وثقة تضعف لحيته » (٨٠)

هذا ورأي نقاد آخرون في الماونة بين فالسان برجييه (Vincent Berger) وآتفر باشا في رواية « شجر الجوز في اللاتنبرج » تجسيدا مسبقاً لما سوف يكون عليه التعاون بين مارلو وديجول بعد ذلك .

ف نجد برجييه يقول في رواية « شجر الجوز في اللاتنبرج » « انه من الصعب علينا الآن نظراً لقوات الوقت ان نؤثر على الاحداث لهذا لا يمكن الا استخدام رجل ، وهذا الرجل لا يمكن الا ان يكون آتفر باشا » . (٨١)

ويعلق جايتان بكيون على ذلك قائلاً « علينا ان نستبدل اسم آتفر باشا باسم ديجول وربما سوف نتوصل الى فهم شخصية وتفكير مارلو بالاسم » . (٨٢)

اما بيير دي بوادفر فيقول ان مارلو تبع الجنرال ديجول كما تبع « برجييه » آتفر باشا ، وذلك لكي ينتزع من ايدي افراد مقاومة سبتمبر ورجال السياسة في الجمهورية الرابعة فرنسا التي كانت مفككة ومشتتة التفكير » (٨٣)

(٧٩) Ibid, loc. cit.

(٨٠) Mauriac, article parudans le Figaro, cite par Gaillard (p.) Les critiques.- p. 14

(٨١) مارلو ، شجر الجوز في اللاتنبرج ص ١٤٦ .

(٨٢) Cite par Gaillard (p.) Les critiques.....p. 109

(٨٣) Boisdreff (p.de) op.cit., p. 20

وبالنسبة لجورج مونان فمن رأيه أن مالرو قد وجد في ارتباطه بديجول والتزامه بالديجولية الفرصة التي كان يحلم بها لكي يلعب الدور الذي قد يتمناه فكتب « وهو نفس مالرو الذي أعطى الى بركن في رواية الأمل تلك المرخة الصادرة من شخصية انسان ذي طموح يسكاني : « أريد ان افرك اثرا على هذه الخريطة » والذي يمكنه ان يفهم شخصية الرجل العسكري الذي كانت كلمته الأخيرة في مؤلفه حد السيف تمد مدحاً وتعظيماً لاصحاب الطموح الكبير الذين لا يجدون سبباً للحياة سوى ان يتركوا آثاراً بصماتهم على الاحداث » . (٨٤)

ويذكرنا هذا التوافق الفكري التام بين الرجلين بأساطير التسرون الوسطى الشهيرة وبالصدافة التي تربط الأمير بشاهسه والمسيديفارسه . وسوف تغلب الصداقة والتفاهم المتبادل بين دييجول ومالرو على جميع العقبات ، وسوف تواجه الفشل وخيبة الأمل والمصائب بشتى أنواعها ، ولسوف يقلل مالرو وفيها على الدوام لديجول ، وكان الأخير وثقا كل الثقة أنه اذا تخطى عنه الناس اجمعين فسوف يبقى مالرو على الدوام بجانبه ولن يتخطى عنه أبداً .

لقد قرن مالرو ودييجول مصرهما معا ، وذلك لانهما ارادا ان يجسدا مصر فرنسا ، وفي اعتقادي ان السبب الحقيقي للصداقة والتفاهم والترابط بينهما يكمن في هذه الظاهرة . وهذا يوافق ما عبر عنه مالرو نفسه عندما كتب بعد زيارته الطويلة لديجول في كوابسي في ديسمبر ١٩٦٩ « أياها الليل ابطط ببطط تحوطك زوينة الثلوج . هذه هي نهاية زمن هذا الرجل وزمني . نهاية زمن مسيرة غاندي نحو المحيط ليجمع الملح ، ومسيرة ماو نحو التبت ليستقبل الصين » (٨٥)



اذا خطر لنا ان نحاول اكتشاف الجنرال دييجول في أعمال مالرو لوجدنا أنه ظهر فيها ثلاث مرات ، ونجد ان الكاتب حاول في كل مرة ان يحدد ملامح القائد وتصيراته ويسجلها ، وهكذا اكتملت لدينا صورة حية للجنرال دييجول من خلال ثلاث فترات متباعدة . كانت المرة الاولى خلال اللقاء الاول بين الكاتب و « رجل ١٨ يونيو » في عام ١٩٤٥ . وجاءت المرة الثانية بعد ذلك خلال المقابلة الثانية التي سجلها الكاتب في الالامذكرات عام ١٩٤٨ . اما المرة الثالثة فقد وقعت في ديسمبر ١٩٦٩ . ونلاحظ ان النقاد قد اطلقوا اهمية كبيرة لصورة دييجول في أعمال مالرو وذلك باعتبارها انعكاسا لصورة الجنرال في مخيلة الكاتب ، وحول هذا الموضوع يقول بول جيايار « كان الجميع يرتقبون الصورة التي سوف يبدونها دييجول في كتابات مالرو ولم يخيب الفن فقد بدا بسيطا للغاية ووقورا ودقيقا لا يقبل اي تجاوز » . (٨٦)

وفي الفترة التي امتدت من لقاءهما الاول في عام ١٩٤٥ وحتى عام ١٩٦٩ تكتمل الصورة وملغى لنا نموذجا للجنرال دييجول في صورة حية ومعبرة وجذابة في نفس الوقت .

Mounin (Georges) article in P. Gaillard, Les critiques.....p. 109

(٨٤)

(٨٥) مالرو ، شجر الزمان الذي يقطع ص ١٤٩ .

Gaillard (P.) A. Malraux, p. 151

(٨٦)

قبل اللقاء الأول بين الرجلين لم يكن ديجول في نظر مالرو إلا بطلا لاسطورة ، ولكن بدون ملامح محددة ، وفيما يتجسد بطل الاسطورة امامه فاراد مالرو لأول وهلة أن يثبت كل شيء بواسطة الكلمات فكتب بعد اللقاء « لقد كنت احتفظ في ذاكرتي بصورة محددة من وجهه نحوالي عام ١٩٤٣ اراي وفائيل (Ravanel) وهو احد قادة المجموعات غير النظامية صورة له ، وكانت صورة نصفية وصلتنا بالبرقيات ولم تكن تصرف أن الجنرال ديجول كان طويل القامة لهذه الدرجة (. . . .) فعنى عام ١٩٤٣ لم تكن تصرف وجه الرجل الذي نحارب تحت قيادته » (٨٧) لقد نظر الكاتب الى وجه القائد ولم يغيب شيء من نظره وبعد مفاجأة اللحظات الاولى حاول مالرو أن يكتشف الشيء الذي يميز وجه الجنرال فكتب « لم أكتشفه ولكني كتشفت الشيء الذي يجعله مخالفا للصورة ، فقد كان الفم في الحقيقة أصغروا الشارب أكثر سوادا ونجد أن الذي أثر بشدة في نفس مالرو هو النظرة النفاذة المركزة » . (٨٨) لم ترداد الصورة اكتمالا بإضافة بعض التفاصيل الصغيرة بعد المقابلة الاولى بعدة سنوات وذلك في المقابلة الثانية التي تمت في عام ١٩٥٨ فنجد أن مالرو يعود بذاكرته الى ديجول الذي قابلته في المرة الاولى ويلاحظ على الفور التغيرات التي طرأت على ملامحه فكتب بعد ذلك يقول « لم يكن شارب له الذي ظهر فيه الشيب واضحا وكان فمه ممتدا بتجاعيد عميقة حتى الآن » ثم يضيف مالرو « ربما يجلب التاريخ قناعة معه » (٨٩) فقد ترك الزمن بصمته على ملامح القائد هذه الملامح التي زودت بمسحة من « الطيبة الظاهرة ولكنها ما زالت وقورة (. . .) . كانت كلماته وتعليقاته تنم عن الدوق وأحيانا من روح الدماية وعندئذ كانت العين تصفر وتلمح وتستقبل النظرة العميقة لبرهة وجيزة بعين القليل بآبار » (٩٠).

لم يتم الجزء الثالث من صورة الجنرال ديجول نتيجة المقابلة التي تمت في ديسمبر ١٩٦٩ فقد كتب مالرو عنها قائلا « أن عناء الأيام الأخير من الحكم قد اخفى (. . .) كانت قامته الطويلة التي انحنت قليلا الآن تملأ فراغ الجبهة الصغيرة التي كانت تدفنها النار المشتعلة في المدفأة » (٩١) لقد كان مالرو ملاحظا لأدق التفاصيل ولم يفترسه ونجده يضيف « لقد اكتشفت وأنا اخذ على يده الى أي حد كانت بدا هذا الرجل الطويل القامة صغيرين ودقيقين » (٩٢) وقد جعله هذا الاكتشاف يتذكر الزعيم الصيني ماوتسي تونغ إذ حسب قوله كانت « أيدي ماو المحترقة من الماء المغلي تبدو كأنها أيدي شخص آخر » . (٩٣)

وهكذا فما بين اللقاء الأول في عام ١٩٤٥ الذي سجله مالرو في **الاذكريات** وحتى اللقاء الأخير عام ١٩٦٩ نجد أن ملامح ديجول وصورته تفرض نفسها علينا حية ومثيرة للمحبة .

(٨٧) مالرو : **الاذكريات** ص ١٢٥ .

(٨٨) مالرو : **الاذكريات** ، ص ٢٥ .

(٨٩) مالرو : **الاذكريات** ص ٢٤٢ .

(٩٠) مالرو : **الاذكريات** ، ص ١٥٥ .

(٩١) مالرو : **شجر الزمان** ، ص ٧٧ .

(٩٢) مالرو : **شجر الزمان** ، ص ١٧ .

(٩٣) مالرو : **شجر الزمان** ، ص ١٧ .

هنا ولم يكتف مالرو بتحديد وتسجيل ملامح رجل ١٨ يونيو ولكن أراد أن يعرفه لنا كما مره هو واجبه فتجده يكشف لنا عن جوانب شخصية دييجول من خلال اقواله عموما ومن خلال صمته خصوصا الذي يبدو أكثر لباقة ، وهكذا يكشف الجنرال دييجول عن نفسه بنفسه ، وكما حدث بالنسبة لصفات الجنرال الجسمية فسوف نجد أن طباعة وأخلاقه هي الأخرى سوف تتطور من لقاء إلى آخر أو على الأصح من حديث لآخر .

نجد في هام ١٩٤٥ أن شخصية دييجول فرصت نفسها على مالرو بسبب ما أسماه « شكل صمته » (٩٤) ففي أثناء هذا اللقاء لم يتكلم دييجول بل كان يوجه الأسئلة ولكن ليس بالأسلوب الفاسر العابر الذي يميز الاستجابات بأسلوب آخر متميز قال عنه مالرو « أنه يجب دقة الفكر ويمكن أن نتكلم بخصوص دييجول من نوع من البعد الداخلي لم أجده فيما بعد إلا عند ماوتسي تونج » (٩٥) لقد كان صمت الجنرال يبدو وكأنه تسأل موجه إلى محدثه . وقد ثبت في ذهن مالرو منذ اللقاء الأول ذكرى هذا البعد الداخلي فكتب عنه يقول « هذا البعد القريب كان يبدو وكأنه ليس فقط بينه وبين الشخص الذي يتحدث إليه ولكن بين قوله وطبيعته هو أيضا » (٩٦)

لم تكن أقوال دييجول تكشف شيئا من حياته الشخصية ، وكانت شخصيته القوية تفرض نفسها على محدثيه وتحدث ما أسماه مالرو بالحضور المركز وهو ما لم يجده إلا عند « الشخصيات الدينية العظيمة (...) ولهذا السبب فكرت في المتصوفين عندما تحدث (دييجول) عن الثورة » (٩٧) كان دييجول يفرض « الشعور بشخصية كاملة وكان لكلامه « الوزن الذي تعطيه المسؤولية التاريخية لبعض التصريحات البسيطة جدا » (٩٨) .

إن كل هذه التعليقات التي دولها مالرو بعد اللقاء الأول لا تكشف شيئا من ذاتية دييجول، فهي لم تكشف له الناحية الشخصية من هذا الرجل الأسطوري .

لقد تمكن اندريه مالرو من خلال الميشة لمدة طويلة بهوار القالد أن « يعود على بعض السياقات الفكرية وعلاقة دييجول نفسه بالشخصية الرمزية التي يسميها دييجول في مذكراته أو بالأصح التي كتب مذكراتها حيث لا يظهر شارل أبدا (٩٩) فقد حرص دييجول على أن يخفي حياته الشخصية ، وعمل على أن يظل دائما الجنرال دييجول الرجل الأسطورة وذلك حتى بالنسبة لأقرب المقرين اليه من زملائه وأموانه ومساعديه، فلم يكن باستطاعة المحيطين به أن يبدوا أبدا أنهم يعرفون « الرجل الخامس » الذي يمكنه أن يتحدث عن موضوعات شخصية ، إذ لم يكن يترك أبدا شخصيته الأسطورية أي الجنرال دييجول . ومن ذلك الأمر يقول مالرو في الالامذكرات « لقد كان يبدو للجميع فيما هذا أفراد أسرته كصورة مهذبة لشخصيته الأسطورية (١٠٠) ولقد حدثت

(٩٤) مالرو ، الالامذكرات ، ص ١٢٤ .

(٩٥) مالرو ، الالامذكرات ، ص ١٢٤ .

(٩٦) مالرو ، الالامذكرات ، ص ١٢٤ .

(٩٧) مالرو ، الالامذكرات ، ص ١٢٤ .

(٩٨) مالرو ، الالامذكرات ، ص ١٢٥ .

(٩٩) مالرو الالامذكرات ص ١٥٠ .

(١٠٠) مالرو الالامذكرات ص ١٥١ .

ملذكراته الى استبعاد شخصية شارل كلية ولم تظهر الا دييجول فقط ، والسبب في ذلك في رأى مالرو يسترعي الانتباه فهو يقول « لان الحياة هي التي شكلت شارل أما القدر فهو الذي شكل دييجول (١٠١) » . فشارل اذا انسان عادي صنعته الحياة يطوها ومرها كأي انسان آخر ، أما دييجول فهو شيء آخر مختلف تماما ، فهو الرجل الأسطوري الذي أهدى القدر وشكله ليتحمل المسؤولية الفخمة مسئولية تغيير مصر فرنسا واتقاذها .

لقد لاحظ مالرو أثناء مقابلته للقائد عام ١٩٥٨ أن دييجول يمتاز بالروح العسكرية التي تتبناها فكرته من الفعل . وفي رأيه أن تكوينه العسكري قد أثر على فكره والدليل على هذا أنه ينظر الى الحكومة « كأداة نضال في سبيل تنمية فرنسا » (١٠٢) ثم يسوق لنا الكاتب دليلا آخر يتميز به غالبية الرجال العسكريين المتمرسين بالحياة العسكرية وهو سرعتة في صنع القرارات « لأن القرار التاريخي لا يمكن فصله من الوقت الذي صنع فيه » (١٠٣) . نستخلص من ذلك أن حياته العسكرية قد لعبت دورا هاما في تشكيل شخصيته كقائد اسطوري .

ثم يلتقي الرجلان وجهها لوجه : رجل كان له تأثير ضخم في التاريخ لا يمكن أن ينسى ، وكاتب كان دائم الاخلاص له وكان يعتبره القائد والفدوة والمثل الذي يحتذى ، وظل على رأيه هذا طوال حياته ، ويحاول مالرو في هذه المرة الثالثة والاخيرة أن يسجل هذا اللقاء أيضا في عمل أدبي لا ينسى يقول عنه الكاتب والناقد الفرنسي جان جروجان « أن هذه الصفحات تكشف أكثر من أي اعترافات من دييجول من الداخل نرى فيها جوانب فكره وروحته كما كشفها لصديقه وهو يتقدم نحو نهايته » (١٠٤) . وسوف يؤكد لنا مالرو ذلك شخصيا وذلك في مقدمة كتابه « أن كل ما يقوله الجنرال دييجول هنا يكشف عن شخصيته وأحيانا من نواح سرية (١٠٥) لقد أراد مالرو هنا أن يصور لنا لأول مرة دييجول الرجل وليس دييجول القائد وذلك على خلاف سابق نهجه . لقد أراد كما صرح فيما بعد « أن يعطي صورة من الجنرال دييجول داخل التاريخ وخارجه ... لم أهتم بصورة فوتوغرافية لقد حلمت بعمل للجريكو ، ولكن ليس عملا من جريكو يكون الموديل فيه من صنع الخيال » (١٠٦) .

تعتبر هذه المقابلة الثالثة التي رواها لنا مالرو أكثر الألفه ، فقد كشف فيها دييجول جانباً أكبر من طبيعته الذاتية ومن حياته الخاصة عندما كان يسترجع بعض الذكريات الماثلية ، ورغم كل ما ذكره دييجول نجد أن مالرو يستخلص في نهاية الأمر أن من المستحيل معرفة جوانب شخصية شارل الخاصة من خلال الحديث مع دييجول فيقول « لقد كان يمر من مصر فرنسا وكان لا يزال يعبر من هذا المصير حتى عندما كان يطن عن انفصاله عن هذا المصير . أن الألفه مع دييجول

(١٠١) مالرو الالذكريات ص ١٥٢ .

(١٠٢) مالرو الالذكريات ص ١٥٥ .

(١٠٣) مالرو الالذكريات ص ١٥٥ .

(١٠٤) .

Grojoen (Jean) Les Chenes qu'on a bat Preface.

(١٠٥) مالرو ، شجر الزمان الذي يقطع ص ١١ .

(١٠٦) مالرو ، شجر الزمان الذي يقطع ص ١١ .

لا تعنى جواز التحديث من شخصه لأن ذلك يعتبر موشوسوما محرما على العكس من الحديث من فرنسا (. . .) أو الموت » (١٠٧) .

لقد قال مالرو يوما لصديق له « ان قوة الجنرال دييجول تكمن فيما فعل وفيما يفعل » . ان جزءا كبيرا من هيبة وقوة الجنرال دييجول يأتي من أعماله وقت الحرب والمقاومة وهو ما يسميه مالرو « ما فعل » .

لقد حافظ مالرو طوال حياته على تسجيل هذه الناحية الهامة من شخصية رئيسه ، ولقد اعتبر الجنرال دييجول قدوة ومثلا للبطل القومي الذي يجب ان يحتذى ، فهو وحده الذي استطاع ان يواجه العدو بجسارة وشجاعة دون خوف او مواربة ، وهو الذي استطاع على حد قول مالرو ان يقول « لا للعدو وللخيانة دون تباطؤ أو مراوغة منذ اليوم الاول » (١٠٨) .

لقد أحس مالرو بحساسيته وشغافته منذ اللقاء الاول بينهما عام ١٩٤٥ أنه قد اكتشف أخيرا الشخصية الحقيقية التي كان دائما يطمع لبقاها ويتطلع الى العمل بجوارها . لقد كان دييجول يمثل وقتئذ أسطورة الوحدة الوطنية لمعظم الفرنسيين ، وكان بالنسبة لمالرو يمثل شيئا أكبر ، وفي ذلك تقول جانين موسوز من دييجول « كان يمثل أسطورة ولكن لديه أيضا سمات الابطال الذين فتنوا مالرو طسوال حياته » (١٠٩) .

لقد رفض دييجول الاحتلال والعدوان الألماني من اليوم الاول وهب بشجاعة منقطعة النظر للدفاع من وطنه الحبيب فرنسا الذي كان يشتر من ضربات العدو المجرم . لم يقبل دييجول ان تموت فرنسا أبدا فكيف تموت وهي غنية برجالها من حوله . منذ الأيام الاولى للاحتلال جمع كل الفرنسيين الذين « يريدون ألا تموت فرنسا » .

ولكى يتمكن من تحقيق هذا الهدف النبيل الذي كان يعد حلما في ذلك الوقت فامر دييجول بكل شيء وضحي بالنفس والنفيس في سبيل وطنه . لقد كانت فرنسا على الدوام هي شغله الشاغل ولا شيء غيرها ، لقد تزوج دييجول من فرنسا على حد تعبير مالرو المفضل وكان دائما يمثل مصرها .

لقد تجسد امام مالرو أثناء اللقاء الاول مآذره بوضوح في الالامذكرات حول دييجول فوصفه بأنه « الرجل الذي أراد أن يتحمل مسؤولية مصر فرنسا وهو رجل تسيطر عليه فكرة ثابتة . رجل يشغل فكره فقط هذا المسير الذي استطاع أن يكتشفه وأراد أن يعبر عنه » (١١٠) وهكذا من نص كلام مالرو نكتشف بسهولة ويسر أن مصر فرنسا قد اقترن بمصير الرجل الذي التقى

(١٠٧) مالرو ، شجر الزمان الذي يقطع ص ١١

(١٠٨) مالرو ، خطابات تالين ص ٣٦

(١٠٩)

Mossuz (j.) op.cit., p. 271

(١١٠) مالرو ، الالامذكرات ، ص ١٢٥ .

به في أول لقاء بينهما عام ١٩٤٥ ولقد كان هذا اللقاء بحق لقاءً تاريخياً انمكست آثاره على الصداقة التي ربطت بينهما بعد ذلك .

لم تمضِ الأيام والسنوات مليئة بالحن والخطوب ، ها قد مضى ما يربو على العشرين عاماً على اللقاء الأول وبنه الصداقة بينهما فنجد مالرو يتسامل عما يمثل ديجول ليس للفرنسيين فحسب بل للعالم الثالث أيضاً ، ثم يجيب أن ديجول كان يمثل بالنسبة للفرنسيين الذين استجابوا وانضموا له والتفوا حول رأيه « أحد الرجال الذين بدونهم تكون فرنسا مختلفة عما هي عليه ، أما بالنسبة لشعوب العالم الثالث التي تكافح الاستعمار وتطلع إلى الاستقلال فقد جسد ديجول الاستقلال (٠٠٠) لقد أعاد فرنسا إلى مسورتها التي أحبتها في الماضي دول كثيرة (١١١) لقد بدأ ديجول بالنسبة للاروكت تحقيق للأمان التي كان يعلم بها كل الفرنسيين ، فهو بطل من أبطال التاريخ كما أن « مجده مرتبط بالماضى التي جمعها » (١١٢) .

يتضح لنا من أعمال مالرو القيمة أن ديجول كان وأمياً تماماً لنفسه ولقيمة عمله فنجد أنه يقول لمالرو « لم يكن ما أقوله هو المهم بل كان الأمل الذي أحمله معي هو المهم لقد أمدت وجود فرنسا لأنني أمدت أمل العالم في فرنسا » (١١٣) ومن هذا المنطلق فقد سمي ديجول الجزء الأول من مذكراته « مذكرات الأمل » .

لقد كان شادل ديجول يمثل دور المنقلب بالنسبة لفرنسا الذي حمل مسئوليتها كما سبق وحملتها البطلة الشهيرة جان دارك وكما حمل كل المنقلبين مسئولية إيمانهم . ولقد بدأ هذا الرجل وكأنه رائد لحركة دينية فقد أعاد بناء فرنسا ابتداءً من العقيدة ، وفي ذلك يقول مالرو « أن أي عقيدة تشتمل على إرشاد رباني في مسيل المسيح أو في سبيل فرنسا تعتبر معدية للغاية ، أن إيمانهم بفرنسا لم يكن كافياً ليصبح الجنرال ديجول ولكن بدونه لكان منتصراً دخيلاً على المنتصرين الحقيقيين ، أو مهزوماً تميز بشيء من البسالة » (١١٤) .

أن رجل ١٨ يونيو يبدو في نظر أندريه مالرو مثلاً للمفكر صانع الأحداث الذي استطاع أن يفكر ثم يحقق عملاً عظيماً ، وقد تطابقت أفعاله مع أفكاره ونجد أن « الرجل ذو الشخصية » الذي يتحدث منه ديجول في كتابه « حد السيف » هو نفسه الذي سيصبح قائداً لفرنسا الحرة بعد ذلك .

أن اصحاب مالرو بديجول كان لا حد له ، كان ديجول يمثل أعظم شيء بالنسبة له وفرنسا فقد جاء فيه في مؤلفه « شجر الزان الذي يقطع » أنه « آخر رجل عظيم سوف يشغل فرنسا » (١١٥) وهو يجد مكانه في صفوف أعظم رجال العالم ولقد كثر مالرو عدة مرات مكانة ديجول بين الرجال العظماء في العالم فيقول مرة « كان الجنرال ديجول الرجل الوحيد الذي يمكنه

(١١١) مالرو ، شجر الزان ، ص ٤٠٠ .

(١١٢) مالرو ، شجر الزان ، ص ٤٠ .

(١١٣) مالرو ، شجر الزان ، ص ١٢٢ .

(١١٤) مالرو ، شجر الزان ، ص ٢١ .

(١١٥) مالرو ، شجر الزان ، ص ١٥١ .

التحول السياسي لاندريه مالرو من الشيوعية الى الديمقراطية

أن يأخذ مكانا بعد غاندى وماوتسى تونج وآخرين فهو وحده الذى يمثل الأسطورة القومية» (١١٦) وهذا الشعور نحو دييجول هو ما أحس به مالرو منذ البداية . ففي عام ١٩٤٨ عندما كان يعمل مالرو مندوبا للدعاية لتجمع الشعب الفرنسي كتب في جريدة التجمع « منذ ثمانى سنوات واجه رجل تسيطر فرنسا على فكره جميع الأصوات التى أصدت أنها أصوات الواقع والعقل واجهها بقوله « لا » التى تحدد من بعدها تاريخ بلادنا » (١١٧) وأخيرا نجد في اللمذكرات بعد لقاءهما الأول ما أحس به مالرو وأعجب به وفده يرباط لا ينقسم الى دييجول فيقول « لقد كان مطابقا لأسطوره » (١١٨) .

إن الشيء الذى كان يضايق دائما العديد من قراء اندريه مالرو الذين كانوا في وقت ما من أشد المهجيين بأدبه وأعماله الروائية هو انضمامه لتجمع الشعب الفرنسي R.P.F. من اشتراكه في حكومة الجنرال دييجول التى كانت بعيدة في نظرهم كل البعد عن اليسار . ونسوق هنا بعضا مما عبر عنه إيمانويل مونييه Emmanuel Mounier في مجلة الفكر عام ١٩٤٨ عن هذا الموضوع فقال « حقا إذا كان مالرو كما يؤكد في كل مناسبة وكما تدل قيمة أعماله ما زال مخلصا لعقيدته السابقة فإن موقفه اليوم ليس سهلا (١١٩) . لقد كان الاعتقاد السائد في فرنسا وقتئذ أن مالرو قد قطع الصلة بما كان يعتبره قدوة ومثلا في سنوات شبابه ، وكذلك قطع الصلة وتخلى عن الأفكار التى جعلته يشترك في كفاح المناضلين بالصين وأسبانيا ، ومن هنا جاء الاتهام الموجه الى مالرو بأنه قد تحول بسهولة من اليسار الى اليمين وأنه انضم الى « الحرب المضاد » وكان اليمين قاسيا ومتطرفا في حكمه على مالرو الى حد أدائه بالاتجاه في طريق نهايته المحتومة وهي الفاشية . والأثر القريب الذى زاد من قسوة اتهامهم له هو أن اندريه مالرو لم يحاول من جانبه قط أن يدحض هذه الافتراءات والشبهات التى حامت حوله ، ولم يحاول أبدا أن يرى نفسه أو يدافع عنها وهو ما نراه غريبا في رأينا .



بعد هذه الدراسة التفصيلية للفكر السياسي عند اندريه مالرو يمكننا القول بأن التطور الابدولوجي عند الكاتب يمكن أن يتصف بالاتصال وليس بالتقطيع كما ادعى البعض من أعدائه . وذلك لأن الاتجاهين اللذين سلكهما في التزامه السياسي وهما اليسار ثم اليمين يحتويان على أوجه تشابه لا يمكن تجاهلها وانكارها ، فإذا ما قمنا مثلا بمقارنة مبادئ الشباب بمبادئ فترة النفج الفكري نجد أن هناك أشياء كثيرة تدل على الإخلاص الفكري لمبادئه فعندما أصبح اندريه مالرو المتحدث (الشاعر) باسم تجمع الشعب الفرنسي ونظمه ، وعندما انضم كلية للديمقراطية لا يصح أن نقول أنه قد قطع اتصاله بمبادئه . ونجد أن اليساريين الذين كانوا في فترة ما رفاق طريقه وعلى نفس دربه لا يفهمون جيدا مغزى عمله وتماونه مع الجنرال دييجول . ويعود سبب هذا الفهم الخاطيء الى الصورة غير الصحيحة التى كانت مأخوذة منه واعتباره رجلا ثوريا في البداية ثم شيوعيا انضم الى صفوف الماركسيين وانخرط فيهم .

لكن في رأينا أن اندريه مالرو على وجه اليقين لم يتوغل أبدا في طريق الماركسية العظم فهو لم ينضم مطلقا الى الحزب الشيوعي الفرنسي وعندما وقف يوما يناضل بجوار بعض الأفراد خلال الثلاثينات كان هدفه هو مقاومة الفاشية فقط .

(١١٦) مالرو ص ١٥١

(١١٧) جريدة التجمع Le Resseignement عدد ٦٢ ، ٢٦ يوليو ١٩٤٨ .

(١١٨) مالرو ، اللمذكرات ص ١٢٥ .

Cite par Moossuz (j) op.cit., p. 264

(١١٩)

لم يكن مالرو أبداً خائناً لعهد قطعه على نفسه تجاه الشيوعيين كما أنه لم يبحث أبداً بهذا العهد وعندما صار دييجوليا لم يتخل عن ماله وأمانه التي عبر عنها في أعماله « قسدر الإنسان » و « الأمل » . وفي رأي أن جابتان يكون كان محققاً في قوله من هذا الموضوع « في حالة مالرو تبدو لي القطيعة مع الشيوعية وكأنها توصل إلى الوحدة والمخاطرة وليس السهل (. . .) فلقد كان مالرو مع الشيوعيين في الوقت الذي كان فيه من الصعب على المرء أن ينضم إليهم ، ولقد تركهم في الوقت الذي كان فيه من السهل على المرء أن ينضم إليهم » (١٢٠) .

إن محاولة مالرو للشيوعية لم تكن في يوم من الأيام صدى أو انعكاساً لليمين الكلاسيكي فلقد انفصل هو نفسه من تجمع الشعب الفرنسي عندما أصبحت تسيطر عليه أغلبية من اليمين . كما يمكن القول أن محاربه الشيوعية لا تشبه محاربة « القوة الثالثة » لها ولا يمكن أبداً تلخيصها في مجرد إدانة الحرب الشيوعي الفرنسي . ويرجع السبب الرئيسي لمعاداته للشيوعية إلى أنها لم تعمل على تحرير الإنسان كما كانت تلمى ، فقطع صلته بها أي أنه قطع صلته بأيدولوجية لم يعد لها معنى بالنسبة له ولكنه في نفس الوقت لم يتخل أبداً عن مبادئه الأساسية وظل محافظاً عليها ومتمسكاً بها .

وهكذا يبدو لنا أن أفكاره في مرحلة الشباب لا تتناقض مع أفكاره في مرحلة نضجه بل تكملها ومن ذلك نقول جانين موسوز « من وجهة نظر مالرو تبدو الأيدولوجية في صورتها التي يشعر بها وبدافع منها وكأنها تحقق ثلاثة مطالب هي الحرية والإخاء والسلطة (. . .) فالأيدولوجية هي وحدها التي تسمح بإقامة الحرية الحقيقية (. . .) وتعني الأيدولوجية الإخاء أيضاً (. . .) الإخاء بين المواطنين المتحمدين والمتجمعين في صورة شعب واحد . وأخيراً فالأيدولوجية كما يتصورها مالرو هي ظهور السلطة في المكانة الأولى على مسرح الأحداث ، وإن السلطة التي تعطي لرجل هي الوحيدة التي يمكن أن تكفل حرية الأفراد ، وهي الوحيدة التي يمكن أن تقدم المثل الأعلى الذي يجب أن تعمل من أجله كل الطاقات (١٢١) إذا فقدت له الأيدولوجية وكأنها الصيغة الوحيدة التي تستطيع أن توجد وتحافظ على الإخاء بين أفراد الشعب الفرنسي ، وقد بدأ دييجول لمالرو كالرجل الوحيد القادر على « إعادة بناء فرنسا » إذا فلم تكن الأيدولوجية إلا مسيرة الإخاء التي تجمع رجالاً أحراراً بقودهم قائد إلى تحقيق هدف عظيم . أما في مرحلة كفاحه ضد الاستعمار والتي أثارت جدلاً كبيراً فقد كان هدفه في الهند الصينية وفي كفاحه ضد الفاشية في فرنسا والمانيا وروسيا هو دائماً خدمة قضية الحرية ، ولم يكن هدفه أبداً الدفاع عن النقاد المتطرفة التي كانت تسمى بكل قواها للسيطرة على العالم . إذ لم يعتنق مالرو وبنيتي الأيدولوجية الماركسية وحول ذلك يقول جانين موسوز « لقد كان التزامه محدداً بقيمة ثمرة هذا النضال وهي الحرية التي كانت تهددها الفاشية وليس العقيدة الشيوعية التي كان يتبنى إليها بعض المناضلين » (١٢٢) وعندما سافر إلى برلين مع ألفريد جيف André Gide بصفتها مندوبين عن الحزب الشيوعي الفرنسي للدفاع عن ديترتوف لم يكن الدافع وراء عمله هذا مساندة الشيوعية بل كان هدفه الدفاع عن حرية الإنسان . وكذلك عندما سافر إلى موسكو بعد سفره إلى برلين بضعة أشهر مدعواً من قبل مؤتمر الكتاب السوفييت لم تكن الكلمات التي قالها في هذه المناسبة تتضمن مديحاً للنظام القائم في الاتحاد السوفييتي ، بل كانت تتضمن مطالبة عنيدة مصرّة بالحرية .

PIGON (G.) Le Rupture avec le communisme, in P. Gaillard, Les Critiques.....p. 110

(١٢٠)

Mossuz (J.) op.cit., pp. 244-245

(١٢١)

Ibid., p. 246

(١٢٢)

التحول السياسي للندرية مالرو من الشيوعية الى الديجولية

لسوف تبقى الحرية دائما بالنسبة للاروجها مصبرا ونبيلا لا يمكن أن يمحي بأى حال من الأحوال . ومن أهم مظاهر هذه الحرية حرية الفكر للأدياء وهذا النوع من الحرية غير موجود في الاتحاد السوفييتي . فالنن مثلا خاضع للنظام الستاليني وعندما يفسر الفنانون أن يصمتوا على مفسى أو يفضعوا للتوانين الثلاثة خوفا من الهلاك نجد أن مالرو يتور بسم الحرية .

وهكذا نرى لزاما علينا ألا نشوه أو نتجاهل الدافع الإنساني والتحررى الذى كان على الدوام الطابع المحل للالتزامه السياسي ، وسوف يجد هذا الالتزام فائلته المنشودة في الالتزام بالديجولية التى تبدو وكأنها على حد قول جاتين موسوز « نهاية المطاف لبحث طويل » (١٢٢) ويبدو وكأنه وجد أخيرا « نجمة الثابت » الذى كان يبحث منه وهو الجنرال ديغول . وبناء على ذلك فإذا اعتبرنا هذا المبدأ نقطة انطلاق لا يمكن أن ننظر الى تحوله نحو الديجولية وكأنه نقطة ضعف في خط سير فكره السياسي ، فقد كانت الديجولية كما انضج لنا تلبية لمطالب مالرو الأساسية والمستمرة وهي الحرية والإخاء والسلطة .

بناء على ما تقدم يمكننا أن نستخلص أن التزام أندريه مالرو السياسي بالديجولية لم يكن دليلا على الإخلاص لمبادئه السابقة فحسب ، بل يمكننا أن نعتبره انتصارا لها . فلأول مرة لم ينتهج مالرو منهجا فكريا وسياسيا لبضعة أشهر أو سنوات قارئة في حياته بل اعتنق والترم الديجولية كنهاية لمطافة الفكرى والسياسي ، وعندما وجد فيها بفتته نجد أنه تعمل بشجاعة

مسئولية هذا الالتزام واشترك اشتراكا فعليا في الحكم الديجولي . ولكن يجعل هذا الحكم العجيبه الى نفسه فعلا وحتى يجعل الديجولية من المطالب الأساسية الثلاثة الحرية والإخاء والسلطة حقيقة واقعة كان لزاما على مالرو أن يساند على طول الخط الرجل الذى يجسد بالنسبة له الاسطورة القومية .

لقد كان مالرو يناضل على الدوام في جميع مراحل حياته من أجل قضية نبيلة كانت لها أهمية أساسية في نظره وهي قضية الإنسان . ونجد هذا واضحا في التصريح الذى أدلى به في عام ١٩٤٦ حيث قال « أن المسألة التى مطرح نفسها علينا الآن هي معرفة ما إذا كان الإنسان قد مات أم لا على هذه الأرض القديمة أوروبا ... أن الإنسان اليوم يجد نفسه مضطرا ليس فقط الى الأجابة على ما أراد أن يفعل وليس فقط ما يريد أن يفعل بل أيضا على ما يمتد أنها طبيعته » (١٢٤) ويمكننا القول أن مسيرة مالرو الفكرية والسياسية لم تكن إلا محاولة منه للإجابة على هذا السؤال .

• • •

أخيرا ونحن بصدد ختم مقالنا لا نجد أبداً من أن نسوق للقارى عبارة لجاتين موسوز نستشهد بها على صحة رأينا فيما رأيناه من أن تحول مالرو من الشيوعية للديجولية ، ثم التزامه التام بها كان استمرارا لطريق ومنهج اختطه لنفسه طوال حياته فتقول « أن الديجولية التى انضم اليها انزعير مالرو لا يمكن اعتبارها انشقاقا ، ولكن كالتزاماته السابقة محاولة للتوصل الى مثل لا يتفرق الا وهو ايجاد الإنسان الحر في عالم الإخاء . لقد اتخذت محاولات مالرو صورا مختلفة وبدأت أحيانا ذات وجهين لكن لم يتغير مغزى بحثه ومغزى إرادته الاكتشاف منه » (١٢٥) .

Mossuz (J.) op.cit., p. 273

(١٢٢)

Ibid., p. 286

(١٢٤)

Mossuz (J.) op.cit., p. 287

(١٢٥)

قائمة بأسماء الأراجع التي ورد ذكرها في البحث

I. Oeuvres de MALRAUX :

أولا - أعمال مالرو

1. *Les Conquérants*, Paris, Le Livre Moderne Illustré, 1933, 189 pages.
2. *La Condition Humaine*, Paris, Gallimard, 1946 284 pages (Collection Folio)
3. *L'Espoir*, Paris, Gallimard, 1937, 505 pages (Collection Folio)
4. *La lutte avec l'Ange*, I-*Les Noyers de l'Altenburg*, Editions du Haut Pays 1943
5. *Autimémoires*, Paris, Gallimard, 1967, 605 pages.
6. *Les Chênes qu'on abat*, Paris, Gallimard, 1971, 151 pages.
7. *Oraisons Funèbres*, Paris, Gallipard, 1971, 139 pages.

II. Etudes consacrées à Malraux :

ثانيا - أبحاث من مالرو

1. Biosdoffre (Pierre de), André MALRAUX, Paris, Editions Universitaires, 1969, 127 pages (Classiques du XX^{ème} siècle)
2. Gaillard (Pol) André MALRAUX, Paris, Bordas, 1970, 244 pages.
3. Id. ; *L'Espoir de Malraux*, Paris, Hatier 1970, page (Profil d'une oeuvre)
4. Id. *Les critiques de notre temps et Malraux*, Paris, Garnier, 1970, 191 pages, Cette ouvrage comprend des articles de :
 —Berl (Emmanuel) *L'Intellectuel et La Révolution*.
 —MAURIAC (Francis) *Le Romantisme au pouvoir*.
 —Picon (Gaston) *La Rupture avec le Communisme*.
 —Bor (Claude) *Le Marxisme de Malraux*.
 —Stéphane (Roger) *Les silences de Malraux*.
 —Trotsky (Léon) *La Révolution Étranglée*.
5. —Harris (G.T.), André Malraux, *L'Éthique comme fonction de l'Esthétique*, Paris, Minard, 1972, 153 pages.
6. —Mossuz (Janine) *André Malraux et le Gaullisme*, Paris, Armand Colin, 1970 313 p.
7. —Picon (Gaston) *Malraux par lui-même*, Paris Editions du Seuil, 1955, 132 pages
8. —Id. André Malraux, Paris, Gallimard, 1945, 127 pages.

چوزين جودت عثمان

مالرو، سنجور وحضارة الانسان

اندرية مالرو ، وليوبولد سيدنر سنجور

قد يتساءل البعض عن العلاقة التي تربط بين هذين الاسمين ، وما مدى اوجه الشبه او الاختلاف بين اديبين يتمتعان بمكانة خاصة في تاريخ الفكر المعاصر .

فالى اى حد تصل المقارنة بين اندريه مالرو وليوبولد سنجور ؟ اسمان يبدوان على التقبض في اول وهلة . فقد يبدو من المجيب ان نتحدث عن نقاط الالتقاء او حتى مجرد التشابه بين مؤلف « الظن الإنساني » (١) اى مالرو وبين مؤلف « الغاي القلقل » (٢) اى سنجور .

ذلك ان مالرو كاتب فرنسي بمعنى انه اوروبي ، أما ليوبولد سنجور فهو شاعر افريقيا السوداء الناطق بالفرنسية .

ولكن يقرب بينهما أكثر من عنصر ، مما يجعل المقارنة بينهما هامة ومشيرة ، الأمر الذى سنتناوله في بحثنا هذا .

لم تنجح الكثير من الناس في التنازع - تلك الفرصة التي يتحدث عنها الشاعر الفرنسي « شارل بودلير » ألا وهي : « أن يعيش المرء حياته بقرن فيها العمل بالخيال » .

فالعمل والخيال اقترنا بالفعل في حياة وإنتاج مالرو ، كما اقترنا في حياة وإنتاج سنجور وهناك أكثر من لقاء بين الكاتبين ، لقاء فكري أيديولوجي (Ideologique) ولقاء فني استيتيكي (Esthétique) وآخر أخلاقي روحي (Ethique) .

١ - الانتقاء الالهي الفكري : الذي يركز على الإيمان المطلق بالفريقا الغد ، والإعجاب الشديد بشخصية الجنرال شارل ديغول .

٢ - الانتقاء الفني الاستيتيكي : الذي يقوم على مفهوم معين للفن ، ألا وهو أصدق وسيلة لتحقيق الذات للنفس البشرية من خلال الحضارات . ووسائل التعبير الفني عند مالرو أساسا هي : الرسم والنحت ثم الموسيقى والرقص ، وعند سنجور هي : الموسيقى والرقص والنحت ثم الرسم . ولكن اللقاء هنا يأتي من أن كل عمل فني هو خلود للإنسانية ووسيلة مقدسة لتحرير عقبات القدر وإطلاق الإنسان .

٣ - الانتقاء الروحي الأخلاقي : الذي يتلخص في موقف سنجور ومالرو تجاه مفهوم معين للإنسان الحديث ، والتمسك بقيم اجتماعية مثل الأرباط الأخوي ، والانتماء إلى الجماعة التي نعيش فيها ، والامتناد في ضرورة مرج الحضارات المختلفة لخلق حضارة القرن العشرين وهي الحضارة الإنسانية (٢) . فالحضارة في المجتمع المعاصر لا يمكن أن تكون إلا حضارة قائمة على مرج الحضارات المختلفة للإنسان عبر المصنوعات المختلفة وعبر الأجناس والأديان والقارات ، مما يؤدي بالضرورة إلى إيجاد موقف أخلاقي معين يسلكه الإنسان أينما كان تجاه أخيه الإنسان في أي مكان وزمان .

• • •

١ - الانتقاء الأيديولوجي :

« أن المرء ليس ما يظن وإنما المرء ما يفعل » .

للك المبارة وردت على لسان (Vincent Betger) « فانسات بيرجييه » بطل قصة مالرو « أشجار الجوز في الكنتيرج » (١) ويقصد مالرو بهذه العبارة ، أي بلفظة « الفعل » : أقدام المرء

(٢) كلمة الإنسانية Humanisme توضع وتعمل معنى اعتبار الإنسان وكلنا رئيسيا في الفلسفة وهي - تختلف عن كلمة الإنسانية (Humanité) التي استعملها معظم المترجمين ونحن متفقون مع الدكتور محمد غلاب استنادا للفلسفة بالجامعة الإلهية عندما استعمل هذه الكلمة فيما كتبه من علاقة الإسلام بالنقطة والإنسانية في عدد ١٩٥٩ من مقال « هذا هو الإسلام » (دار الشهاب) .

على فعل الحدث نفسه ، فالفعل عند مالرو هو الذى يحدد الإنسان تماماً ويميزه عن غيره من المخلوقات .

ذلك هو مفهوم مالرو الذى مارسه فعلاً في حياته كما مارسه في إنتاجه .

إن حياة مالرو معروفة للجميع ، كما نعرف أيضاً نشاطه السياسي وشغله لمناصب وزارية وثقافية هامة ، وكلنا نعلم الدور البطولي الذى لعبه هذا الكاتب الديجولى في المقاومة الفرنسية أثناء الحرب العالمية الثانية .

وإذا ما عدنا بالذاكرة الى سنوات ما قبل الأربعينات وأبنا : مالرو شاباً فتياً أى في الثالثة والعشرين من عمره ، بكثرت من رحلاته الى الشرق الأقصى وبنظم حركات تضامنية تحررية مع شباب الهند الصينية المعروف آنذاك باسم « آنام الفنية » لبلاد الآنام هذه - وهي جزء من الهند الصينية - كانت خاضعة للاستعمار الفرنسى . فقاوم مالرو هذا الاستعمار بل استنكره وندد به في أعماله وبفكره .

وهكذا يبدو لنا منذ بداية حياته أن تلك الحياة ما هي إلا استجابة لأحداث توالى عليه . كما أن إنتاجه الفني ما هو إلا تلبية لنداءات ومعاولة أجابة عن تساؤلات في فترة تتميز بكثرة الأحداث الفنية والسياسية التي اشتد فيها العمل وبطريقة إيجابية . نعية مالرو كما يعلم الكثير منا - تعتبر مسيرة من تاريخ ميساسي الى تاريخ الإبداع الفني ، وإنتاجه الفني ما هو إلا لقاء الإنسان بالقدر . بمعنى أن كل ما كتبه أندريه مالرو هو تعبير حقيقي وفعل نتج من موقفه وفعله تجاه الأحداث التي طرحها عليه القدر . وأعمال مالرو الأدبية تحليل شغوف للمسير البشري الذي طالما راود فكره فكتب عنه الكثير ، ولا تكون مقالين لو قلنا انه كتبه .

يمكن ان ننسى أنه مؤلف « القدر الانساني » .

ودور مالرو الذى لعبه بجانب الوطنيين الاسبان في المقاومة الاسبانية يظهر لنا بجلاله في بعض أعماله الأدبية خاصة روايته « الأمل » (٥) .

وأخيراً لا يقل نشاط مالرو في المجال الثقافي والفني البحث من دورة في المجال النفساني .

فاعمال مالرو الفنية تكاد تكون لاحصر لها . ونذكر منها أهمها : -

- اللامذكرات : (٦) .

- العجل والغيران : (٧) .

L'Espoir	(٥)
Les Antimemoires	(٦)
La Corde et les souris Hotes de passage Les chenes qu'an abat Tele d'Obsidienne Lazare	(٧)

- الذى يتجزأ الى : -
- زوار ماريق .
- اشجار الزان التى تقطعها .
- رأس السبع البلورية .
- حازد .
- مرفسات (٨) .
- افراد الغرب (٩) .
- عطارذ (ساتورن أو بحث من الرسام جوياس) (١٠) .
- اموات الصمت (١١)
- المتحف الخيالى (ويشمل عدة أعمال فى الفنون التشكيلية) (١٢)
- تحول الآلهة (١٣) ويشمل : مايمد الطيبة
- اللاواقعية (١٤) .
- اللازمى (١٥) .

وفضلا من كل هذه الأعمال فهناك نشاط ملحوظ ومستمر للاردو فى المجال الثقافى نفسه ، فما أكثر ما كتبه من أبحاث ومقالات ومعارضات من مفهوم الثقافة ودلالاتها ودورها فى حضارة القرن العشرين ، وما يمكن ان تقوم به من دور خطير فى تحديد معالم الانسان المعاصر ؛ **فلا انسان فى مفهوم مالرو انسان شامل متكامل ومزيج من مختلف حضارات البشر .**

وهذا المفهوم هو بعينه منهج شاعر اقارة السوداء ليوبولد سنجور ، ومفهومه من الثقافة والانسان .

وليوبولد سيندار سنجور وان كان غنيا عن التعريف (١٦) فهو شاعر ومفكر اولا وقبل ان يكون سياسيا ناجحا وزعيما متاعصلا . فترى جمهورية السنغال لم يقتصر على النضال من أجل

Oraisons funebres	(٨)
La Tentation de l'occident	(٩)
Saturne (Essai sur Goya)	(١٠)
Les Voix du silence	(١١)
Le Music Imaginaire	(١٢)
La Mitamorphose de Dieux	(١٣)
L'Fuie	(١٤)
L'Intemporel	(١٥)

(١٦) ولد ليوبولد سيندار سنجور يوم ٩ أكتوبر من عام ١٩٠٦ فى القرية « جوال » على بعد حوالي مائة كيلو متر من جنوب العاصمة السنغالية دكار . وبعد أن حصل على شهادة الاجريجاسيون من باريس بدأ حركة نضال من أجل استقلال بلاده من الاستعمار الفرنسى واستقلال دول افريقيا كما ناضل من أجل مكانة الرجل الاسود فى العالم المعاصر وخلق هو ورفيق نضاله وفكره الشاعر المارتينيكي ايميس سينير - مفهوم « النوجية » Negritude « كما اشترك سنجور أثناء الحرب العالمية الثانية مع المقاومة الفرنسية ضد الغزو النازى .

تحرير بلاده واستقلالها الذي ناله عام ١٩٦١ وأنا كرس كل جهوده في تعريف ونشر قضية الزنجي الحديث (Negre Nouveau) الذي هو اساسا عضو هام في المجتمع المعاصر فهو يشغل مكانة لها أهميتها في الانسانية الحديثة حيث الانسان مزيج من مختلف الحضارات من بينها حضارة افريقيا السوداء .

وبعبارة أدق فالانسان الجديد في مفهوم سنجور هو تطعيم الرجل الابيض الذي يضعف وتتلشى فيه قيم ومعان حضارية بدأت تضمحل تحت تأثير حضارة الآلة والتكنولوجيا الحديثة تطعيمه بدم الرجل الاسود ، دم القارة الغنية الذي سيحيى البشرية بقيمه وتراثه الحضارى الاصيل .

يجوز لنا ان نقول من مالرو كما نقول من سنجور ان كليهما « شاعر » مناخل وفنان مؤمن بالانسان كما سنرى في بحثنا هذا . فلا عجب في ان نرى مالرو يكتب اول مكتب من مؤلفات سنة ١٩٢٠ بحثا معنونا « اصول الشعر التكميبي » (١٧) ، ولا عجب ايضا ان نرى الشاعر الاسود يعمل بالمقاومة ويناضل طول حياته من اجل استقلال الشعوب السوداء لكل مافعل ومكتسب محوره هو تكامل الحضارات والجناس واحياء امجاد وتراث الجنس الاسود من طريق استرداد الرجل الاسود لمكانته الحقيقية في المجتمع المعاصر . كل هذا يظهر ويتلخص في شعر سنجور في فكرة العودة الى الوطن الأم - (افريقيا) .

ولكن الذي يقرن اعمال سنجور باعمال مالرو عاملان : -

اولهما : نظرية تكامل الحضارات ومزج الاجناس لخلق الانسان من جديد .

وثانيهما : ايمانهما برسالة الفن كمعصر اساسي يركز على المجتمع .

فان سنجور عندما يتحدث من تجربته الشخصية يتفنن ايضا بكل آمال وطموح والام ابناؤه جنسه ، وبالتالي فهو يعبر بصديق من تجربة حقيقية تعرض لها : الا وهي بحث الانسان من ذاته ومن حريته وتحقيق مجتمع مؤمن بالقيم الحضارية الاصيلية ، وهذا فعلا - كما سوف نرى - ما يصبو اليه مالرو من خلال تجاربه في الفن والسياسة والحياة .

فكلاهما مولع بالفن مؤمن برسائله الحضارية القيمة كمعصر اساسي يركز على مجتمع القرن العشرين المتفتح لكل الحضارات والمؤمن بالقيم الثقافية العريقة التي تخلق الانسان ، بمعنى ان الانسان هو الذي يسيطر على العالم ولا يخضع لسيطرة الآلات وعبودية الايديولوجيات المزيفة في المجالات السياسية والاجتماعية .

وتركت الحرب بصماتها الاليمية على مالرو وعلى سنجور فقد مارسا التجربة المروعة التي جعلتهما بمجتمع السلام والبناء والقيم الحضارية بدلا من مجتمعات الخراب والدمار واستغلال الشعوب بعضها البعض نتيجة لهذه الايديولوجيات المزيفة التي تجعل قلة قليلة مسيطرة ، ودكتاتورية تتحكم في مسير البشرية جمعاء وتديفهم المهانة والذل فتتمحو من وجوههم ومن قلوبهم الامل

الإنسانية . ويؤكد مؤلف « الاملذكرات » هذه الحقيقة في إحدى مقالاته وذلك عندما يطرح بجديّة هذا السؤال : « ماهو الفن ؟ »

فان السؤال الثاني يأتي على الفور ألا وهو : « ماهو الإنسان ؟ »

فمفهوم الفن اذن عند مالرو هو تعريف للإنسان ، ودلالة على كيانه البشرى الذى يصنع القدر ويتردد عليه حينما يخالف معايير ومقاييسه وطموحه لتحقيق ذاته .

الفن اذن ليس خضوعا للقدر ولكن بغضله يتغلب الانسان على القدر وعلى المصير المحتوم ويخلق العالم طبقا لطموحه وآماله ، وبذلك يصبح هذا الفن السلاح المقدس الذى يغزو به الإنسان العالم وإن لم يستطع الغزو الفعلى المادى للموس فعلى الأقل يتحرر من الاغلال والتقيود والسيطرة أيا كانت ، وينطلق انطلاقا الحرية معبرا من ذاته فى أعماق أصماقها ؛ وماعمل مسجور الشعرى إلا صرخة انطلاق .



لقد كانت أول مقابلة بين مالرو وسنجور فى بداية عام ١٩٦٦ وفى مدينة دكاك بالسيفال وقد ترك هذا اللقاء فى نفس مالرو انطباعا من شخصية سنجور ومن أفريقيا عامة ، أوضحه مالرو نفسه فى مذكراته حيث يقول فى أحدهما : (١٨) .

« دكاك مارس سنة ١٩٦٦ .

قدم الرئيس ليونك سنجور ، رئيس جمهورية السيفال فى دكاك المبع مجموعة من النحت الافريقى الموجود فى أفريقيا ، وهى تتكون من ستمائة قطعة .

وهناك أيضا قالب القناع الشهير الذى يظهر الفن الافريقى لكل من دورين (١٩) وفلامينج (٢٠) ولتنتان كثيرين غيرهم . وقد أقيم المعرض فى المتحف الجديد المصنوع من الزجاج والصلب الذى أتم الرئيس بناءه مؤخرا .

ولقد ذهبت أسس الى المعرض لاثني أعرف بالخبرة انه لا يمكن رؤية شيء أثناء الافتتاح ولا اعتقد اننى شعرت يوما الى هذا الحد بمدى تحول الآلهة حتى عندما كنت أعمل فى المتحف الخيالى للنحت ؛ أن متحفنا هذا للإنسان وماهو إلا معرض لعلم الأجناس وفيه تقص الآلهة لبعضها البعض قصة الزهيتهم وعلى بعد بضعة كىلوس مترات من هنا توجد قرى كثيرة وغريبة وهى تتميز بالاكواخ المخروطية الشكل .

(١٨) زوار مرين هوتو de passage

(١٩) رسام فرنسى ١٨٨٠ - ١٩٥٤ (Deraix) .

(٢٠) رسام فرنسى ١٨٧٦ - ١٩٥٨ (Vlaminck) .

ولاصبح الالهة ابدا تماثيل بهذه الدرجة الاخاذة الا بعد تجردها الكامل وهؤلاء فضلا عن ذلك يكونون عادة من الاجداد ، ان للغرب قديمة وللصين موتاهما اما افريقيا فلها اصنامها ؛ وقد اشتركت منذ بضع سنوات في احتفالات تحرير السنغال ومن قبل كنت قد طالبت باسم الجنرال ديجول التحرر لبلاد افريقيا الاستوائية القديمة من السيطرة الفرنسية ...

... تشاد ، جمهورية افريقيا الوسطى ، الكنفو ، وجابون ، وقد كانت افريقيا الاستوائية هي افريقيا قلب الظلمات كما وصفها جوزيف كونراد - وهي ايضا الادغال تتروصد للمواسم . وفي تشاد ... في فور لامي عند رحيل ليكلارك كان عدد السكان ستة ملايين نسمة ، ولكنهم أصبحوا الآن خليطا من خمسين الف نسمة ، وعندما اردنا الرئيس تومبالباي وأنا الذهب من قصره الى عربته الكاديلاك وطولها ٢٠ مترا ، كان علينا اختراق مجموعة من الراقصين العراة الذين طلوا اجسادهم باللون الأزرق ، وفي الميدان الكبير كان - هناك عشرة آلاف من المنتهين الى القبائل يهزم نفس الرجفة ...

سوف تفتح قريبا الجمعية الوطنية - ما لم يجب هذا التناقض بين افريقيا الماضي وافريقيا اليوم ! ومن حولنا كانت تشاد ما قبل التاريخ وافريقيا اللانهائية التي رايتها من الطائرة والشمس تشرق فوقها .

وهاهي رقصة « الرجال الفهود » تقام في وسط دائرة من النساء يحملن على رؤوسهن الجرات .

بالاسم كانت كلمة تشاد تعني بعض الوظائف المتناثرة في عزلة الصحراء البعيدة ، أما الآن فتشاد تعني كل هذه الجموع التي لا أدرى من اين أتت . ويبدو لي هنا في افريقيا الظاهرة نفسها التي شاهدتها في آسيا من قبل فمن أي سافانا برزت هذه الجموع التي منذ الآن وصاعدا تبدو كأنها جاءت من كل مكان ؟

وكان على الرئيس تومبالباي أن يقيم دولة من هؤلاء الراقصين ، المطيعة اجسادهم باللون الأزرق ، وحاملی الأقنعة والفرسان الكارو لنيجين (٢١) اسلام افريقيا السوداء ونيثتها وعلى امتداد الطريق من ذاكار الى برانفيل ترتفع المباني الحديثة لتشاد الجديدة ، هذه المباني التي تملو الرقص العريق وتصد الاسم الصاخبة بقيام الدولة ...

... كان وفاقى يرقبون انزال علم فرنسا ورفع علم تشاد بنفض مالوف لم أشاركم فيه . فقد انسقت الى الثورة كما كانت مفهومة سنة ١٩٢٥ بدافع من كراهيتي للاستعمار الذي هرفته في الهند الصينية .

أحد المحافظين الفرنسيين الذين حكموا تشاد في الأونة الأخيرة ويدعى مارسيل دو كويت كان ليبراليا وقد دعا الكاتب « أندريه جيد » لزيارة تشاد . وكفني هنا يوميات جيد : « توجد بعض المستشفيات ولكنها لم تستطع أن تعوض المشاريع ذات الامتيازات الكبرى » ، ويرجع

لنا الفضل نحن التيجوليين في أن كل هذه الأعلام القومية تعرف على سماء أفريقيا فقد نفذنا ما وعد به مبثا خصوصنا منذ أمد طويل ، وإذا كان أسلافنا قد انبهروا بالابراطوريات فقد انبهرت أنا بالمغامرة التي قادتنا الي الميادين الأفريقية اللامتناهية حيث يصرخ الراقصون العظيمة اجسادهم ، قادتنا أيضا الى الحدائق التابعة لقصور رؤساء الجمهوريات حيث يتحدث الرجال السود بعضهم البعض أمام المنفرجات المنبهرات في زرين القومى كما يحدث في قرطاجنة (٢٢) .

فكما راينا بأدى ذى يده هناك لقاء أندريه مالمرو بأفريقيا السوداء فمالرو تعلم أن يكتشف أفريقيا من خلال زيارته لها .

« قبين الزيارة البرونوكولية للرئيس سنجوريين افتتاح متحف الفنون الزنجية بداركار، ذهبنا الى منطقة كازامانس ، اذ كنت أحلم بها منذ أمد بعيد ، ربما بسبب تقنى سنجور بهذه المنطقة التي تعرف بمنطقة الجوز » (٢٣) .

• • •

وفعلنا هناك قصائد عديدة للشاعر الأسود تقنى فيها بجنوب السنغال أى الكازامانس . تلك المنطقة الشبه استوائية ذات الخضرة الخصبة والمستنقعات العديدة والغابات الشاسعة، وخاصة غابات - النخيل الذى هو الشجرة المفضلة عند الشاعر الأسود ؛ وعلى سبيل المثال نذكر هذه المقطعات من ديوان « حبشبات » وعنوان القصيدة : « رسائل الى الاميرة - الماركية دانييل دى بيتفيل » (٢٤) :

« وصلتنى رسالتك يا اميرتى، في قلب البلاد العالية بين غامبيا وكازامانس حيث مكثت عند الاجناد القدامى ... » .

ولكننا لانستطيع أن نتحدث عما كتبه سنجور عن أفريقيا ، لان كل ما كتبه سنجور هو «فريقيا» فهي الامل والطموح والواقع والحاضر والمستقبل ، منبع الحياة وموطن الجمال ، ورمز الامومة والاثونة والحب في مؤلفات شاعر أفريقيا الأسود .

ويستطرد مالمرو حديثه قائلا عن القارة الشابة العربية : -

« ولكن من وراء كل هذا بدلا من المركبات الصغيرة كانت هناك افريقيا الشامخة بمنظرها الخلابة : جزيرة جوريه التي توحى بأجمل اللحاحات الفنية ، ووحى بشهامة الماركيز دى بوفلير (٢٥) ومغامراته الماطنية المديدة ، والنساء امى سيدات المجتمع « السنثار » (٢٦) بعلايسهن

(٢٢) ذوات ماريين : Notes de passage

(٢٣) ذوات ماريين

(٢٤) وألمة زوجة الرئيس سنجور .

(٢٥) الماركيز دى بوفلير كان فارسا في القرن السابع عشر حين حاكمها بجزيرة جوريه من قبل فرنسا وجزيرة جوريه امام دكار في التحيد الاطسمى وهي مشهورة تاريخيا حيث كان العبيد السود يرحلون منها الى أوروبا وأمريكا .

(٢٦) السنثار : كلمة تأتي من اللغة البرتغالية بمعنى ميسنة من طبقة عالية .

انزاهية الجميلة ، والقمر الزاهي فوق الرأس الاخضر (٢٧) فنسيم جزيرة جورية الممتش كان يهتف على ليل افريقيا » .

وهذه الصورة بالذات تكاد تكون حرفيا في قصائد سنجور الا وهي « جوال » مسقط رأس الشاعر حيث يقول : -

« جوال » :

اننى مازلت اذكر

مازلت اذكر السيدات السينات في ظلال الشرفات الخضراء ، السينات ذات العيون البراقة الخيالية كضوء القمر فوق الشاطئ... » (٢٨).

وعندما يتأمل مارلو من بعيد منظر جزيرة جورية هذه التي تطل على شواطئه دكاك فهو يتذكر بالأحرى كل ماكتبه سنجور من تلك المنقطعة، فنافذة الشاعر في مكتب قصره بدكاك تطل على نفس المنظر ، وكمن مرة نظر الشاعر واستلهم أجمل ماكتب من تلك المناظر الأخاذة ...

ويحلق مارلو النظر لعله يعيش ثانية هذا العهد الذى أنطوى مع قرون مضت والذى طالما تحدث عنه سنجور وإثر على مارلو حتى أنه أصبح يرى افريقيا بعيون سنجور من خلال ماكتبه .

وتدلى على خاطره صور السيدات الجميلات بأطرافهن الناعمة التى تتألق تحت ظلال الشجرة الوارفة والورد الحمراء ، بملابسهن الهفافة الرقيقة ... ولكنه لا يصرح بخياله فقط وإنما يمايش أيضا من خلال اعمال سنجور وأقبح السنغال العالى، فيذهب ليكتشف بنفسه ماكتبه شاعر السنغال من الشائطي والغاية والبشر والقرية والتخضر والتأخر (إذا جاز لنا هذا التعبير بمعنى المنظر التقليدى للبلاد) فيعجب مارلو بالطقوس والعادات - والتقاليد في نظام اختيار وانتخاب زعيم القرية الذى لم يعد له سوى دور روماني ، وعن ملوك القبائل الذين يجتازون كل أنواع التحديات حتى يفوزوا عن جذارة بمناصبهم ... فمثلا يقرب حتى الموت ، فان نجح في الصمود يصبح ملكا ، أى أن هناك قيما ومقاييس للشجاعة والاقدام مارالت حبة وقوية في ادغال القارة السوداء تسترهم انتباه مارلو بل تثير إعجابه وتقديره .



ولفصة لقاء سنجور ومارلو ترجع الى امد بعيد ، ولكن الالتقاء هو أعمق ، وطلعا وجد في فكر وعمل كل من الكاتبين . فما أكثر لقاءات سنجور بمارلو الفعلية ولعل أهمها هو أولها ، حضور أندريه مارلو لافريقيا السوداء من أجل افتتاح أول مهرجان للفنون الزنجية الذى اقيم في دكاك عاصمة السنغال في سنة ١٩٦٦ بمناسبة أعياد استقلال السنغال .

(٢٧) الرأس الاخضر : رأس من الارض ممتدة في المحيط الاطلسي في منطقة دكاك .

(٢٨) من الثاني الفصل .

ويجب ان نتوقف لحظة عند هذه العبارة الأخيرة أى استقلال السنغال .

فقد يتساءل القارئ ، وما علاقة هذا بلده أى ما علاقة استقلال السنغال بالندرية مارلو ؟

الواقع ان هناك علاقة وثيقة بين الثقافة ورجل النضال الندرية مارلو في عهد شارل ديغول وبين مولد دولة ناشئة في إفريقيا السوداء السنغال فربطت نفس المبادئ بين قارئتين متناقضتين في الحضارة والثقافة والسياسة آنذاك ألا وهى أوروبا وإفريقيا .

وحدث هذا بفضل رجل واحد حقق الكثير من أجل بلاده : شارل ديغول وعلاقة مارلو بالجنرال شارل ديغول لا تخفى على أحد ، والدور الذى لعبه مارلو سواء في الكفاح مع ديغول في أحياء فرنسا سياسيا وعسكريا ، أو كوزير لديغول في المجال الثقافي ، فكان أندرية مارلو خير سفير لبلاده ليمثل احترام الحضارات وتقوية الصداقة والأخوة بين مختلف الأجناس والشعوب .

فما من أحد لا يعلم الكثير من وطنية الجنرال ديغول ومافعله من أجل أحياء فرنسا الممزقة المهزومة في مستهل الحرب العالمية الثانية ضد الألمان ، وامن أحد يمكنه ان يتجاهل الدور البطولي الذى قام به ديغول في صنع فرنسا الحديثة ، وامن أحد من قراء مارلو يمكنه ان ينسى ما فعله مارلو ، وكاتب **الأمل وأشجار الجوز باللاتيمبرج** في هذه الحرب الشمواء التى طالما مرقت وهددت كيان أوروبا وتسببت في قيام حركات النضال من أجل استرداد الحرية على الصعيد السياسي فكانت حرب المقاومة ، كما كانت كانت سببا أيضا في قيام حركة فكر واسعة الإبعاد عنها نشأت للفلسفة الميث مثل على أيدي البير كامو وأندرية مارلو وآخرين .

وعلى ذكر الميث ، فمن الميث فصلا أن نتجاهل فرنسا في الثلاثينات وما بعدها حقوق الشعوب السوداء في الحرية والاستقلال في تقدير سنجور .

فرنسا بلد الحرية التى طالما كافحت من أجل تحقيق العدالة والمساواة والحرية ، بلد الفكر والعقيدة الحرة ولذلك فكانت هناك على حد تعبير ديغول ومارلو نفسه حماية تاريخية واجتماعية تحتم على فرنسا التى تحمل مشعل الحرية أن تنرك لبلاد إفريقيا السوداء حق تقرير المصير ، ولذا أيضا وعلى يد شارل ديغول كان اللقاء التاريخي بين سنجور وديغول الذى اثمر عن استقلال السنغال .

أما احباب الرئيس الشاعر سنجور وديجول فيمكن ان تلخصها من خلال رؤية لشخصية ديغول نفسه والذي أطلق عليه الشاعر الاسود اسم « الجبلوار » أى الفارس الهمام يا حدى اللغات السائدة في السنغال وهى الولوف .

وترجع قصة سنجور مع ديغول الى عهد الحرب العالمية الثانية حيث أسر سنجور كجندي في الجيش الثاني للفرق الأجنبية التى كانت تحت اللواء الفرنسى ضد الألمان ، وأصبح الشاعر أسير حرب في معسكر مدينة أمان بفرنسا لمدة ثلاث سنوات تقريبا ذاق خلالها ألوانا من العذاب هو وأمثاله من الرجال السود الذين على حد تعبير سنجور نفسه « قدموا أنفسهم قربانا لكى تعيش

فرنسا . وكان هذا الموقف ينجم عن امجاد سنجور الشديد بشخصية الزعيم ديجول الخارقة الاسطورية ، فينتما رفضت قوات ساحل الساحل تحارب مع فرنسا ضد الالمان ، دخلت السنغال الحرب وضحت بجنودها ودماها ابنائها الشهداء الذين يصنفهم سنجور في ديوانه « القرايين السود الذي ظهر في عام ١٩٤٨ في قصيدته المعنونة : « Assassinate على هذا النحو : -

« هاهم ممددون على طريق الاسر ، على طريق الكارثة .

هؤلاء ، اشجار الحر المشوكة .

تماليل الالهة السوداء ملتفين بفلاف براق من الذهب .

هؤلاء شباب السنغال الاسرى الممددون تحت تراب ارض فرنسا »

كتب هذه القصيدة في معتقل رقم ٢٢٠ اثناء الحرب العالمية الثانية حيث اسر سنجور مع وفاقه السود عندما اقتحم الالمان فرنسا .

وبناء على ذلك نجد ان في الاتزمات والشذائ يقف الجميع صفا واحدا ، ويساند المرء اخاه ، فالكمل يقف وقفة واحدة ويذا واحدة في مواجهة الصواب .

وربما يظهر هذا الموقف جليا في موقف سنجور تجاه الزعيم شارل ديجول في قصيدته الشهيرة « الى الجيولار » التي كتبها في معتقل اميان في عام ١٩٤٠ وهي استجابة من سنجور ورفقائه لنداء الجنرال ديجول لتحرير فرنسا مقابل وعد منه لتحرير بعض دول افريقيا السوداء من الاستعمار الفرنسي الشيء الذي تم فصلا في حضور مالرو نفسه ! .

« جيولار » ! (٢٩)

لقد نصتنا اليك ، واستمعنا اليك باذن قلوبنا ، وانفجر صوتك براقا في قلب ليل السجن الذي نعيش فيه ، دوى صوتك مثل صوت ملك الفاب وكم انتفضنا حرارة واستجاسة في ذل السجن ومهاتته ! .

انا كصفار المصافير الذين سقطوا من مشهم ، اجساد محرومة من الامل تتعرض للادى .

حيوانات متوحشة لكنها مقطومة الاظافر ، جنود بغير سلاح رجال حراة .

وها نحن نتخبط ونسوء كالحرير الذي لا يجد الايدي التي تصامده .

اشرف الاشراف قد ماتوا : لانهم لم يقدر واطى ابتلاع خبز العار في الاسر .

(٢٩) كلمة الجيولار : وهي إحدى الكلمات اللاتينية التي استخدمت في القرن التاسع عشر في حفاة افريقيا السوداء بخاصته وشهائته في الحرب على حماية الكرامة والظلم والشيخ وهو افطرس الكوار الذي يتحمل به كل شعب في البليدة والمشيخة ويؤمن ان يصل اليه في الشجاعة والكرم ونبل الاطلاق .

وها نحن واقفون في الفخ ، في قبضة يدوحشية تبدو فيها كالحشرات ، فالجسد العربات
المصفحة والدبابات وقنابل الطائرات .

لقد بحثنا من مأوى ، من سند ، ولكن كل هذه الآمال كانت تنهال كتلال الرمال لقد بحثنا
عن زعماء وقد كانوا غائبين ، وبحثنا عن وفاق ولكنهم لم يعودوا يعرفوننا ولم نستطع أن نتعرف
على فرنسا .

ومرشنا ليل الأمانا ، ولكن ما من صوت أجابنا . أسياذ الكنيسة قد التزموا بالصمت
وأسياذ الدول قد أشادوا بمظلة الضياع الحثير .

هل هذا هو وقت الزنوج ؟ أهذا وقت الرجال ؟ لا ! فالآن ما من شيء يهم سوى
أوروبا !

جيولار !

ان صوتك ينطق بالشرف والأمل والنضال ، وترفرف أجنحته في أصفاء صدورنا .

ان صوتك سيملن لنا الجمهورية التي سوف نشيدها في مدينة المستقبل في اليوم
الأزرق . في مساواة الشعوب الشقيقة وهذاذن نرد عليك :

« نعم يا جيولار ! ها نحن بجوارك وهرن اشارتك ! »

ولعل هذه القصيدة تعبر أصدى تعبير عن إعجاب سنجنور بديجول ومن موقفه كصديق
وكأخ رفيق للكفاح ضد مستعمر ظالم ، جهور ، وحشي ، ففسى أرضي الوطن الحبيب .

لنصدق لا بد أن يسعف صديقه في وقت الشدة . ولعل اصدق مثال على ذلك هذا البيت
من شعر شوقي في تصديده « دمشق »

« كنا في الهيم شرق »

وهكذا سمع ديجول النداء ووفي بوعده وتحمرت السنغال وعلى أيدي مارلو نفسه !

ولكن إعجاب مارلو لافريقيا لا يقف عند كونها قارة المستقبل وانما هو شديد الإعجاب
بترائها التي السخي المعبر ، وبدا نصل الى نقطة أساسية تجمع بين سنجنور ومارلو ، أي الانتقام
الاستيتيكي (الفنى) :

• • •

٢ - الانتقام الاستيتيكي :

كثيرا ما يتعرض مارلو لأمر يرجعه الى حد كبير ، فهو يروى أن التي في المجتمع الإسلامي
أصبح ذهنيا ، أي أننا عندما نرى في أي متحفناى تحفة فنية نراها بعيننا فقط ، ونسبها

بمقاييسها الجمالية التي اعتدناها وأخذناها معايير لقوانين الجمال ، ولكن أين معناها الحقيقي ؟ أين جوهرها الذي يتضمن المعاني العميقة ، والفلسفة دينية كانت أو روحانية التي من أجلها خلقت هذه التحفة ؟ .

إن الأمر يختلف تماما بالنسبة للفن البدائي أو الفن في أقصى الشرق والحضارات القديمة وأفريقيا السوداء ، حيث إن الفن كما يشرحه سنجور ما هو إلا تعبير عن ذات الإنسان البدائي بغض النظر عن المعايير الجمالية والمقاييس الاستتيكية . ولذا يخلق المرء العمل الفني من خلال رؤيته هو للواقع ، فالنمادة وتعبير وليس أداة جمالية وإنما أداة للوصول إلى المقدسات وعالم الأرواح والاتصال بالعالم العلوي . وعلى هذا الأساس فالعمل الفني مثل القناع أو التمثال أو الأصنام أو أي تيمة من هذا القبيل إنما هو في حد ذاته تعبير واتصال روحاني مع الآلهة والأسلاف والأجداد ومن ثم فصانع التيمة أو القناع لا يصنعها طبقا لمقاييس جمالية أو معايير استتيكية ، ولكن يجعلها تحمل معاني ورموزا معينة تعبر عن فلسفة محددة ومفاهيم معينة لأناس ينتمون إلى قبيلة أو عشيرة لها معتقداتها ومقدساتها ، وبالتالي فإن هذا العمل الفني يعبر عن مشاعرهم تجاه تلك المقدسات والمعتقدات ويصعد الكارهم وأحاسيسهم .

والفن في أفريقيا السوداء كما يقول سنجور ملتزم ، بمعنى أنه لا يوجد هناء فن جمالي بالمعنى الكلاسيكي . ولكن الفن له شكل وظيفي أي أنه يقوم بوظيفة معينة يؤديها من أجل غرض معين وكل إنسان في القرية فنان ، وإن كانت هناء درجات مهارة تتفاوت في الأداء . ولكن أي شخص في القبيلة يستطيع أن يخلق قطعة فنية أو تيمة أو قناع أو يقوم برقصته ، لأن المقصود من أداء العمل الفني هو الاتصال بالأجداد والآلهة وجعلهم يتأثرون ويعتقون الأمانة المطلوبة من البشر ، ثم يملون رغبتهم عليهم بدلالات معينة تبدو للبشر من طريق العمل الفني نفسه ، فالن إن مشاركة وجدانية وعاطفية قبل أي اعتبار آخر . فالزنجي يلبس ويصنع العالم المحيط به من طريق حواسه التي يعبر عنها في كل عمل فني .

وهنا يتقابل فكر مارلو بموقفه سنجور الذي ما زال يعيش فعلا ما تعناه مارلو ، أي إعادة الأبعاد القدسية والمعاني العميقة لكل عمل فني .

وهذا هو سر الصداقة والاعجاب الذي كان يربط مارلو بالرسماء الهائي بابلو بيكاسو Picasso الذي يعتبر أيضا صديقا للشاعر ليوبولد سنجور ، فعلاقة سنجور بيكاسو وطيدة وقديمة نذكر منها هذه القصيدة المهداة لبيكاسو من ديوان « أغاني الظلال » وهنأنا « قناع زنجي - إلى بابلو بيكاسو » :

« نائمة هي هادئة فوق طهارة الرمال .

كومياتام (٣٠) نائمة تستر نغيلة خضراء شعرها الأحمر وجبينها النحاسي

الجفن مقلق والحاجب والمقلة إلى الأبد .

هذا الهلال الرقيق ، هذه الشفاه السوداء الرقيقة أين منها الآن ابتسامه الاثنى المتواظنة الحنون ؟

ورقة الخد ، ورقة الدخان ينشدان توافق الغبط والرسم في متحف

يا لك من رأس نحاسية كاملة يصقلها الزمخ

لا تعرف دنس المساحيق ولا احمرار ولا تجاميد ولا علامات للدموع او للقبلات .

يا لك من وجه خلقه الله قبل ذاكرة الزمن .

وجه فجر العالم ، لا تنفج بحنان حتى لا تثير شهوى .

اننى اميلك يا جمال بمين « أحادية الوتر »



اكتشف بيكاسو الفنون الزنجرية في حوالي الثلاثينات ومن هنا نرى تشابها الى حد كبير بين أسلوب بيكاسو واسلوب الفنون الزنجرية . فاولا يعتبر بيكاسو شديد الاحساس بأشكال قديمة للغاية مرت بحضارات عريقة نذكر منها « جيممة الموتى » « عنكبوت الكابوس » و « ثورة الشمس » و « جواد الموت » ونستطيع ان نرى هاتين الأخيرتين في لوحة بيكاسو المشهورة « جرنليكا » Guernica .

وبذلك فان أعمال بيكاسو تنادى عبر القارات تلك الأقنعة والتماثيل المقدسة بأدغال إفريقيا التي تجلبنا بسبب ما لا نعرفه عنها تماما مثل تماثيل الآلهة في مصر القديمة التي لم تعد بالنسبة اليها تجسيدا لموتى اختفوا ، ومثل آلهة سومر التي لا نعتقد فيها الآن ، أو آلهة الهند أو المكسيك أو الشرق الأقصى أو حتى القديسين الذين لم نعد ندعهم ، أو الأقنعة والأصنام التي لم تعد بالنسبة اليها أرواح الأجداد ، ان كل هذا الآن لا يعمل لنا المعانى نفسها التي كان يحملها لأولئك الذين ابتنعوه ، ولكن يكمن في كل عمل فنى مما ذكرناه هنا ، يكمن شيء ما زال يحيرنا ويستمرى أعجابنا .

وفى بيكاسو يتماهى بل يلتقى مع الفنون البدائية ، فبيكاسو يعيحى تلك الفنون من جديد ويقترب منها لانه أساسا يحطم يفنه كل التقاليد ، ولا يعترف بأن هناك شيئا يسمى استمرار أسلوب أو مذهب . فيقول مالرو على لسان بيكاسو (٣١) :

« فليست الأسلوب اهل كان لله أسلوب ! ان الله خلق القيثارة والكلب والقط والبطم واليام ، مثل . والفيل والحوت ، نعم ، ولكن الفيل مع السنجاب ؟ انما خلق الله ما لم يكن موجودا ، أى خلق من العدم ، وها أنا أيضا اخلق من العدم ، وخلق الله أيضا فن الرسم ، وأنا أيضا . »

وبذلك وعلى يد بيكاسو وكما هو الحال في الفنون الزنوجية فان الخالق الفني يأتي من أعماق
أعماق اللاشعور ، وباطن الانسان بكل ما هو قريب منه اعتاد عليه والله ، وبكل ما هو غريب
يجعله الانسان ، ومن هنا يأتي الشعور بشيء مالا نعرفه ، أو بفراغ كانت الحضارة الغربية تحاول
أن تملأه بمعتقدات أو تقاليد أو مقاييس ولكن بقي هذا الفراغ الروحاني في القرن العشرين بل
ترديد . فبينما ناشد الفن الكلاسيكي سعادة الانسان في الطبيعة والتوازن بين المرء والأشياء
وجمال الكون ونظامه ، وبينما تأسف الفن المسيحي عموما رضاء النفس بما منحه الخالق ،
نرى الفن في القرن العشرين بحث الانسان على التمرد على الاوضاع وتدمير المعتقدات الزائفة
والتقاليد الخائفة ويدعو الى التعبير الصادق لما يعرّفه من قلق وغضب وتوتر من موقفه المهدد
بالحرب والدمار في عالم دون موعنة الله .

ولعل سر أجمل عمل فني هو قابليته للتغيير ، بمعنى أن كل واحد يرى فيه شيئا
يختلف عما يراه الآخر . وكل مذهب أو مدرسة فنية تكتشف فيه إبداعا جديدة وأسارا جمالية
أو فلسفية أخرى ، قد تعارض مع الاكتشافات السابقة ولكن يستمر العمل الفني ويفرض نفسه
فرضا على الزمن وعلى المفاهيم والنظريات المختلفة التي تكسبه كل مرة بنظرة جديدة .

فهو يحمل بداخله معانيه ، وبالتالي فهو قائم بذاته مستقل عن الذي خلقه وعن الذين
يشاهدونه عبر الأجيال والمصور .

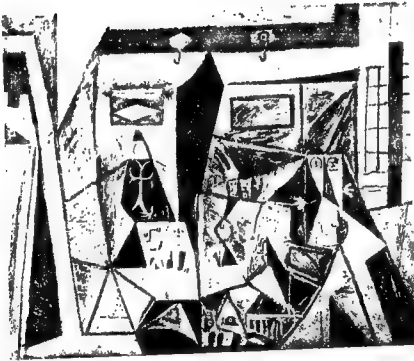
ويضرب مارلو أمثالا عديدة في هذا الشأن نذكر منها الآتي : -

إن الرسام الهالبي « رامبرانت » (١٦٢٧) مثلالم يعد يفهم ويقيم بعد رؤية « فان جوخ » (١٦٣٢)
لم يعد يفهم بنفس الطريقة التي كان يفهم بها ويقيم في زمن دولا كروا (١٦٤٤) إذ أن دولا كروا
كان يرى فيه المقاييس الرومانسية التي كان هو نفسه متأثرا بها ، أما فان جوخ فقد رأى فيه كل
عناصر المدرسة التأثيرية التي ينتمي هو نفسه اليها .

ويعتقد مارلو أن ميزة الفن الحديث أنه لا يحاكي الطبيعة ولا يسرد ولا يحكي مثل الفن
الكلاسيكي أو الرومانسي ، وإنما هو يحطم الشكل المألوف ويمرر من رؤيته الخاصة للعالم الخارجي
ولاحساس الفنان شخصيا ، ومن هنا يلتقي بالفن البدائي ، فالفن الحديث حطم الشكل
التقليدي وخلق لنفسه مآبيرا شخصية للإبداع للفني ، مثلما هو الحال في فن بيكاسو مثلا .
وكما هو مبين في نفس اللوحة التي رسمها الفنان الأسباني الكلاسيكي Velasquez « فيلا سكوير »
وبعدما رسمها بيكاسو والسما « الكين » (١٩٥٠) .

ويتضح اختلاف الأداء في أسلوب الرسم في معالجة نفس الموضوع .

Rembrandt	(١٦)
Van Gogh	(١٧)
Delanox	(١٨)
Les Menines	(١٩) الكين : كلنا نسمى كل سبعة مصاحب اثبات اسبانيا توصيفات الشرف أو مربيات .





ويقول سنجور لصديقه مالرو :

« شاء القدر لييكاسو يوما ما أن تهتم لمشاعره أمام قناع باوليه (٣٦) Beaulieu ، كما شاء القدر أيضا لابولينيير أن يفتنى باصنام الخشب الزنجية كي يشق القرب نظره للفن ويوافق بعد ألفي عام أن يترك محاكاة الطبيعة على حسب المعايير الكلاسيكية التي ليس لي دراية عميقة مثلك يا صديقي بتاريخ تطور الفن ، ولكنني اعترف أن فننا الزنجي هذا إنما أثبت عنه فنون قبله ، فمهدت له الطريق ، فبشرت حضارات قديمة أخرى من قدمه ، حضارات لها ميزة خاصة في اكتشاف كل ما هو وراء الطبيعة من الطبيعة ، وكما تكون أفريقيا منطلقا في التعبير الفني بالنسبة لمدرسة بيزنطة التقليدية ! فنحن ونحن فقط هم الذين استجدلوا بمنطق الرؤية منطق اللبس » (٣٧) .

وهكذا يتفق مالرو مع سنجور على أنه يرجع الفضل لأفريقيا السوداء في إيجاد فن معبر قبل أن يكون خافعا لأي معيار جمالي آخر ، وهذا الفن شديد الحرية في التعبير إذ أنه يجسد الواقع على حسب حواس الزنجي وعلى حسب منطقته ولسفته للأشياء المجاورة ، معتمدا كل الاعتماد على كل حواسه وليس على قوانين وتقاليد فنية معينة أو مذهب أو مدرسة ، فلا أضاعة خاصة ولا أحجام ولا خطوط ولكن رموزها معاييرها ومفاهيمها ودلالاتها المختلفة منذ كل رجل زنجي عندما يرى هذا العمل .

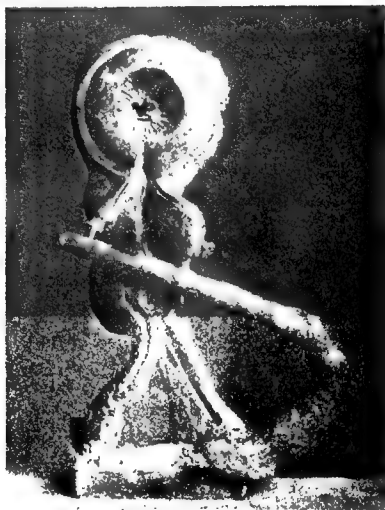
والمدرسة التكعيبية والريالية الفرنسية قد فهمتا كل هذا ، بل ادركتا أيضا أن أهم سمة للرسم الحديث على قرار الفن الأفريقي يكون التعبير والانفصال ولعل سر نجاح المدرسة السريالية بمختلف تسمياتها وأسمائها اللامعة يرجع أيضا إلى هذا الانجذاب في الانفصال بالواقع أولا ثم التعبير عنه بالتحرر المطلق من الخطوط والألوان والأحجام التقليدية .

وهكذا يدعي الفن الواقع تحميرا كي يسيده بناء العالم على حسب الرؤية الداخلية للفنان ، ومن هنا تبدو أهمية الفن الأفريقي بالنسبة للفنون المعاصرة . فالن فن منذ اكتشاف القرب لفنون أفريقيا السوداء في بداية القرن العشرين لم يعد أسلوبا فقط أو حتى مدرسة أو مذهب ولكنه هو فن مجرد بلا أي تعريف آخر . أن الفنانين السرياليين تأثروا كل التأثير بالفن الزنجي لأنهم رأوا مثله في ما وراء الطبيعة ، أي كل الأبعاد المقدسة والخفية التي تربك الواقع بما وراء الواقع ، أو أن شئت هذا الذي سماه القديس بولس على حد قول مالرو : « بداية الذي لا نراه » . فكل الأشكال للفنون المعاصرة كما يوضح مالرو (٣٨) أصبحت طليقة ليست حبيسة الأشكال التقليدية كما هو مبين في هذا التمثال الخشبي الذي نحتته ييكاسو مثلا . وقد أسماه ييكاسو « الحاصد » (Le faucheur) كناية عن تلك التي تحصد رؤوس العباد مثلا ، والملاحظ هنا تجريد العمل الفني من أي معايير تقليدية للنحت كلاسيكية كانت أو رومانسية أو غيرها ، وإنما يقترب أشد الاقتراب من الفن البدائي وخاصة الزنجي .

(٣٦) باوليه : البيلة من أفريقيا السوداء ذات حضارة عريقة مشهورة بهناتها في النحت وصنع الأبنية التكعيبية .

(٣٧) « لوداف ملين » ص ٣١ .

(٣٨) دانيال سبيج البلورية .



من هنا يلتقي هذا الاتجاه الحديث في الفن بفكر المقدسات فيبدا بينهما الحوار ، وهذا ما يبحث بالفصل في الفن الزنجي . فالنن يأتي بمقدساته أيضا وهي كامنة فيه مستقلة به لأنه يحمل الحقيقة الداخلية لكل إنسان ، ولكن ميزة الفن الزنجي أنه لا يؤدي إلى العزلة بل يؤدي إلى الاتصال بالآخرين فيبشما يعبر تصوير الأشياء الطبيعية في الفن الأوروبى فقط عن مقدرة الفنان في الرسم فان تصوير الأشياء في الشرق الأقصى يكشف لنا عن الحياة ، لماذا لا لأنه كما يوضح مالرو سواء كان في الشرق الأقصى أو في إفريقيا فالأشياء تعبر عن رؤية الفنان لها وعن احساسه بها ، بمعابرها المقدسة له ، وبذلك يلتقى بالمظهر الخارجى للأشياء ويبدله بعملية خلق من جديد بكل إبداءه المقدسة . وكما يوضح مالرو ، بل كما وضع مستجور مراداً نفس الفكرة ، هناك عملية مشاركة وجدانية ومشاركة كلية بين خالق الشيء أى الفنان ، والشيء نفسه حتى أنه يصبح هناك أيضا في المرحلة التالية عملية سيطرة وتلك من قبل الأخير على الشيء ، فالفنان عندما ينحت التيمة أو القناع إنما هو يسيطر بخلقه هذا على القوى الخفية التى وراء هذا الشيء ومن ثم يسيطر على عنصر من مظاهر الطبيعة المحيطة به فيفتظب عليها ، ومن هنا أيضا تأتى المعتقدات الكثيرة حول مقدرة السحر في الفنون في أفريقيا السوداء وفي أقصى الشرق وهند فلما العربيين .

فكما رأينا فان مالرو شديد الإعجاب بكل فن بدائى لأنه معبر ولأنه يمد الإبداء المقدسة لعملية الإبداع الفنى . وربما هذا هو الذى شذبهو الفن الزنجي بالذات الذى غير مفهوم الفنون في القرن العشرين . ورأينا كم كانت نظرة سنجورولتقى بأمال مالرو بالنسبة لمقدرة أحياء الفنون الحديثة بحيث تحقق للمرء الوصول إلى الجمال فحسب ولكن التحرر من الرؤية التقليدية ، وبالتالي إعادة تكوين العالم الخارجى على حساب أعماق أحاسيس ورغبات الإنسان . ومن ثم فهي عملية سيطرة الإنسان على الطبيعة لا خضوعه لها ، ورأينا أيضا سر الفنون الزنجية واقتناعها للعالم الحديث . فالفن في إفريقيا طالما يعبر عن مدى اتصال المرء بالعالم الخارجى والعالم الخفية ، يعمل معه قدرته الفريدة في الدوام ، ويحمل معه أيضا إبداءه الدنيئة ، فالفنان مثل رجل الدين يتجاهل الواقع أو يتنقص من قيمته لأنه مثله والفق بأنه يحمل في نفسه مصدر الخلود ، وإن كان طبعاً خافضاً إلى حد ما لحضارته ومجتمعه وتاريخه ، ولكنه يتخطى كل هذا بل يسبقه في عملية تغيير الواقع وإعادة صياغته من جديد . وهناك صلات خفية تربط بين كل فن صادق في التعبير عما يبحث عنه الإنسان في أى مكان في عملية الخلق هذه ، بل هناك حوار خفى يربط بين كل الفنون عبر القرون والحضارات ، فلا عجب إذا رأينا تشابها كبيرا بين تماثيل بيكاسو الفخارية وبين تماثيل قبيلة البنان (٣٩) ، ولا عجب أيضا أن نرى عمل كراسي الملك العجوز للفنان « روه » (٤٠) يشبه إلى حد مدهل ملوك الداهومى في أفريقيا السوداء .

واللاحظ بالنسبة لمارو كما هو الحال بالنسبة لسنجور أن هنالك أيضا نقطة تشابه كبيرة على النمطين الستاتيكي (Statique) التاملي والديناميكي (Dynamique) الحركي عندما يتاملان أي عمل فني .



١ - النمط الديناميكي :

إن الشيء الغريب والهام الذي يجمع بين مالرو وسنجور في هذا المجال هو انهما كليهما يتخذ الفن وسيلة للأقدام على الفعل ، على الحدث في الحياة ، ويؤمنان بأنه بفضل الفن يقبل المرء على الأقدام على الفعل (الحدث) في صنع التاريخ . فبالنسبة لمارو رأينا كيف لعب الفن دورا في حياته ورأينا كيف ذهب الى أقصى الشرق كي يتعرف على حضارة الصين والهند الصينية العريقة ، وطاف العالم بحثا عن معرفة الحضارات والفنون المختلفة . وهذا يبدو واضحا في « الطريق اللكي » (٤١) مثلا حيث نرى البطل كلود فانيك (Claude Vannec) يفامر بحياته بحثا عن تحف فنية في الأدغال ، تلك التماثيل التي ترجع الى عهد بعيد في حضارة الخمير (Khmer) بالصين .

اما بالنسبة لسنجور فالمعروف انه كرجل اسود لا يتخذ أي خطوة الا عن طريق فن من الفنون . فكما ذكرنا من قبل فان كل تعبير أو انفعال للزنجي انما هو اتخاذ موقف في الحياة من خلال الفن ، أو بعبارة أدق كلما يحتاج المرء الى الفعل أو الحدث مبر من هذا في عمل فني ، نحت أو رقص أو شعر .

وإن رجال الشعر هو أكثر الفنون للرجل الأسود وهناك العديد من أنواع الشعر كالرثاء والمدح والتفاخر ونحت الشباب الى الصيد ، والحصاد ولعب الرياضة والأقدام على الحرب ، والتشبه بالأجداد .

وكل هذا ينعكس في شعر سنجور نفسه الذي يترجم كل حدث الى شعر غنائي أو حماسي

حقا يمكننا أن نقول أن الزنجي يفنى حياته » (٤٢) .

ويضيف سنجور متحدثا الى مالرو :

« هل تعلم يا صديقي أن فلانينا في السنغال اخترعوا رقصة لخطبة التثنية وأن موسيقانا تصاحب دائما الاحتفالات والمسابقات الرياضية أوفي النهاية أستطيع أن أقول أن كل فن زنجي ليس إلا شعرا » (٤٣) .

من هنا يمكننا أن نقول أن الفن الزنيجي أساسا وقبل كل شيء حوار . فهو حوار مع العالم الآخر ، وحوار مع المشاهد له ، وحوار مع الحضارات المختلفة الأخرى لأنه أساسا وقبل كل شيء مخاطبة للوجدان ، وللأحاسيس البشرية في محاولة لسيطرة الإنسان على الطبيعة وصورها في قالب يناسبه ويجعله يتوادم مع واقع حياته .

إن الموسيقى والرقص شيئين في دم كل زنيجي يولد بهما وتجريان في عروقه ، ويستطرد الحديث بين سنجور ومالرو في هذا الصدد على النحو التالي فيقول سنجور لمالرو :

« إن اندريه جيد يقول إن أغانيكم الشعبية بالنسبة لأغانينا تبدو في غاية الفقر والبداية ، وأذكر أن القس المسكين الذي كان يعلمنا التراويح الدينية في صبتنا في الكنيسة ، بآله من مسكين ! أنه كان يتغلب ! لأنني أنا وأصدقائي كنا بالفطرة نرقص ونشرب ونلهو على أيقاع الأيدي وأنغام الجاز ! .. »

والآن بدأت أوروبا تكتشف أسرار ومزايا الآلات الموسيقية الزنيجية الإيقاعية مثل الطبول والتام تام الذي سبق كل آلة في الوجود .

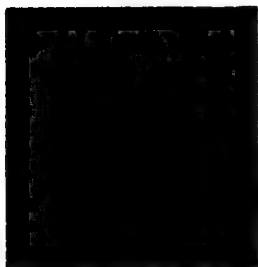
هل تعرف ما هو روح الموسيقى فنذا ! انه الايقاع بالضرب بالأيدي أولا ! .

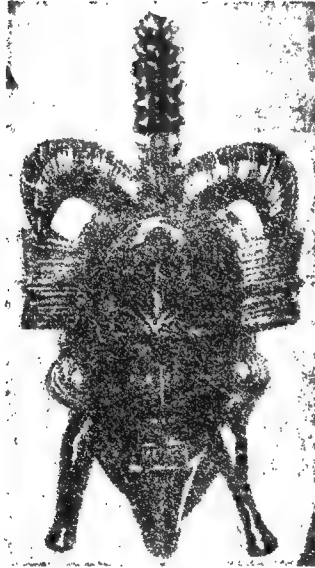
ويكمل مالرو الحديث قائلا : -

« إن لديكم أيضا موسيقى غطت العالم بأسره أعني موسيقى « البلوز » في الولايات المتحدة تلك الموسيقى الوليدة لأجيال من الألم والصلاب للجنس الأسود .

ويجب علينا هنا ملاحظة أن كانت كل الفنون تتساوى طالما هي تعبر عن الفرض الذي من أجله وجدت ، هناك فنون غير معروفة على الإطلاق مثل الرسم الذي لا يعرفه سوى الفن الحديث في إفريقيا مثلا ، أما الفنون التقليدية التي تعبر عن التراث الحقيقي لإفريقيا السوداء فهي كما نعلم الرقص والموسيقى والنحت ، وخاصة نحت الأصنام والأقنعة .

وهنا لكل مناسبة قناع ، فللرقص والحرب وللأعياد والمواسم يلبس أفراد القبيلة قناعا معيناً ملائماً للمناسبة ويشترك في الاحتفال فيتخذ هذا الاحتفال شكلاً دينياً يتمص فيه الفرد بشخصية ومعالم القناع الذي يلبسه ، كمن يتغلب على صعوبات الطبيعة ، مثل الجفاف أو الكوارث الطبيعية أو المرض أو القم أو ما إلى ذلك ، وبالطبع هناك أقنعة لأرواح شريرة كما هناك أقنعة لأرواح خيرة وأقنعة لألهة الشر والخير والقيم المختلفة . فكل قناع له معانيه وفلسفته وشكله ومعانيه ويتخذ شكل القناع أحجاماً مختلفة . فمنها الذي لا يبلغ طوله إلا بضعة سنتيمترات ومنها ما يبلغ طوله بضعة أمتار ، وأحياناً يظهر القناع وحده ، وأحياناً يركب القناع على جسد تمثال بأكمله كما هو مبين في هذه الأشكال في فن قبيلة الدوجون (Dogon) في وسط إفريقيا السوداء .





فالقناع حاضرموجود في كل مناسبهتقليدية لانه يعتبر الاداة الرئيسية في الاحتفاء بهذه المناسبة ، ومن « اغاني الظلال » نذكر مطلع هذه القصيدة للشاعر الأسود : « يا اقنعة يا اقنعة !

انت ايها القناع الاسود وانت ايها القناع الاحمر ، وانتم الاقنعة ذات اللون الابيض والاسود ايها الاقنعة في الانحاء الاربعة الي تفتح منها الروح تحيا اليكم في السكون .

تحية اليكم في السكون !

وتحية خاصة اليك يا جدى ايها القناع ذوراس الاسد « (٤٤) .

ففضل القناع اذن نامى روح الجدد ونطق في علامات ودلالات معينة يكشف عنها عراف القرية الساحر عن ارادة الجدد باخذ موقف معين تجاه مناسبة معينة او حل نزاع او اسكال او ما يعادله ، تفضل القناع اذن يعيش الموتى مع الاحياء ويفرضون احترام ذكراهم وارادتهم .

وهناك انواع عديدة من الاقنعة فمنها الذى يصور الاسد او الثور او المساح ، اى حيوانات مقدسة لها ميزتها كطلمس فى القبيلة ، ومنها ما يجسد شكل احد افراد الاسرى الموتى القدامى ، ومنها الذى يجسد فكرة الجمال او السر او الخضوبة او الحصاد الخ ...



قناع « دوجون » يمثل لوما من انواع القزبان المسنة



فنانون من الكويت

فنانة نيرة من الكويت خاصة براسم الكون



فناع خشبي يمثل « نانيا لاية السيدات الحوامل في الريتيا
السودان »

وهنا يلتقي نكرا مالرو وسنجور حيث أن مالرو كثيرا ما كان يتحدث عن المعنى الحقيقي للقناع ، ذلك المعنى الذى يبدو واضحا كما رأينا في إفريقيا السوداء الذى افتقدناه في الحضارة الحديثة ، إذ أن في كل متحف نرى الأقمعة العديد من أقصى الشرق ومن أذغال إفريقيا ، ولكن نشاهد من الخارج بنظرة ذهنية فقط وليست عاطفية ، أو بمباراة أدق متعاطفة مع القناع نفسه مثلما هو الحال في المكان الذى صنع به القناع ، وكثيرا ما تحدث مالرو عن هذه النقطة بالذات في **التحف الخيالي** وفي أصوات الصمت فأشار الى المعنى الاساسي للقناع بالنسبة للذى يشاهده ، وأشار الى المقاييس الجمالية التي يخضع لها صنع القناع ، بل تناقش مع سنجور نفسه من هاتين النقطتين .

وهذا الموقف يتقابل مع حضارات أخرى مثل حضارة الشرق الأقصى ، حيث أن الفن اساسا مشاركة وجدانية وعاطفية وانفعالية مع الفنان وتعبته ، أو بمباراة أدق وماخلق . فلا يوجد في إفريقيا فن جيد ولن ردىء ، وإنما هو الفن بمعناه القديس المطلق ، أى تصوير الواقع من خلال رؤية مقدسة . ونفس الشيء يحدث في حضارة سومر القديمة وفي الشرق الأقصى ، فهي عملية الخلق بعينه، على فرار الخالق سبحانه وتعالى وماخلق . ولذا فكل عمل فنى قديم يحمل معه ويشق منه هذا الظهر القديس وهذا العمق الديني الذى يجعله يوهي للإنسان المعاصر بمعان خفية من الروحانيات والأبعاد التى ترتقى بالإنسان الى أسماى وأعلى معانى الرؤية الجمالية ، فإن كانت اللامع تختلف تماما والمقاييس الفنية تكاد تتعارض من الناحية الجمالية والاستيتيكية عامة فالتحفة الفنية في هذه الحالة تخلق مناخا واحدا، وينبثق منها احساس واحد مثلما نستطيع أن نتأكد منه من خلال هذه الاشكال المختلفة لفكرة الخصوبة ، التي تبعد كل البعد في هذا الشكل الوضع اذناه عن المعايير الجمالية المعتادة ، ولكننا نحس بمعناها العميق من خلال التركيز المناطق العصبية في الوراثة كالبطن والخصية .

رأينا كيف أن النحت يعبر في مظهره السائد في افريقية السوداء أى أن نحت القناع ونحت التعاليل له فلسفته وله أهمية بالغة في حياة القبيلة .

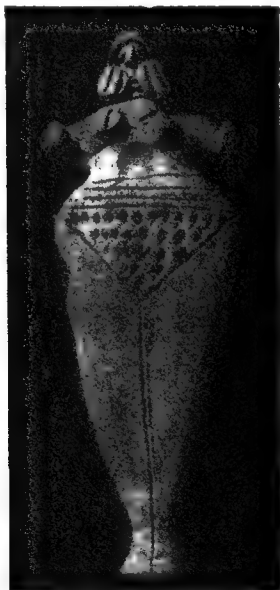
ورأينا أن لكل مناسبة فنها الذى هو لغتها وميلها . كتعبير ، مثل الميلاد والحصاد والطهور والزواج والموت والحرب ، وهذه المناسبات لها موسيقاها وقصتها الخاصة .

حتى أن الشاعر الأسود يقول في هذا الصدد شعر صار خالدا :

« اننا رجال الرقص ، الذين لا تثبت خطاهم الا اذا ضربوا الأرض ضربة قوية بأقدامهم فتنتطق ! » (٤٤)

(٢) - **النمط الستاتيكي التاملى** : هناك شيء آخر وهو موقف الفنان نفسه من أى عمل فنى آخر ومدى تأثيره به ، وهو الوضع التاملى المتعمق الذى تحمله التحفة الفنية ، فلدينا

بالنسبة لمالرو كما رأينا أعمال عديدة من فلسفة الفن والتأمل ، أهمها سيكولوجية الفن (٤٥)
 بالبعد حيث يحدد ويتفحص مالرو كل تحفة فنية يراها أو يتخيل أن توجد بالمتحف الخيالي
 من تحت ورسم وقطع زجاجية ونسيفساء وصور فوتوغرافية ... الى آخره ... ومن هنا نمره
 انتاج مالرو في فلسفة الفن وإيجاد العلاقات والصلات بين مختلف الفنون عبر القرون .



ربة الخصوبة في حسارة ما بين التهرين القديمة
 (منظره الفرائى الطالى)



نفس القطعة مكبرة

كذلك الحال بالنسبة لسنجور الذي كثيرا ما يامل القطع الفنية فتوحي له بالتراث الد
والتفاخر مثلما نراه بشاهد القناع الذهبي الشهير « الباولية » حيث يتغنى الشاعر في قعال
بالخطوط والرموز والابتعاد لهذا القناع المشهور .

ويستطرد مالرو قائلا ان علاقتنا بالنفن منذ اكثر من قرن لم تتوقف عند كونها ثقافة بعد
فتتخذ الانجاء الذهبي البحث اكثر فاكثر .

فمعلوماتنا اكثر من احساسنا الفني التلقائي- وبالتالي فالزائر الذي يقوم بزيارة لمتحف ال
مثلا يعلم تماما انه عندما يشاهد رسومات جويا ، او مايكل انجلو فهو لا يشاهد سوى تحفة
من اعمال هؤلاء العباقرة وانما وجدانيا وعاطفيا ، فهو لا يشعر بتلك الرهبة الرائعة والانفعال الم

الذى احس بهما الفنان نفسه عندما خلق هذه التحفة مجرد صورة تعكس اول انطباع فقط للأحاساس الحقيقي الذى حاول أن يعبر عنه الفنان والمشاعر العميقة التى هزته حينما خلق هذا العمل المبدع ، وهناك كثير من الأمثلة لمثل هذا الموقف نذكر منه مع مالرو نفسه الأحساس بالرهبة العظيمة والتقوى التى تملكت الفنان عندما قدم لنا « المسيح التقي » المعرض بمدينة برينيوه بفرنسا والتابع لمدرسة كولونيا للفن .

وهنا نستطيع أن نلمس الى أى حد يمكن للفنان أن يعبر عن أحساس صادق ، وكيف ينتقل هذا الاحساس البنا نحن الذين يشاهدون هذه التحف الفنية من خلال القرون والاجناس والثقافات المختلفة .

وكلنا نشعر بالعجاب ونشترك سويا في دنيا الفن للمتحف الخيالي وان كلمة أعجاب لا تكفى وانما نستطيع ان نقول أننا نشارك وجدائيا وعاطفيا هذا الذى يعبر عنه الفنان العظيم .



أن مالرو شديد الإحساس بالرسم والنحت. أما سنجور فهو شديد الإحساس بالموسيقى وبالنحت. ولكن الذى يجمع بين الاثنين هو الرّبط بين الإحساسيس والانطاعات التى تنتج من رؤية منظر معين فى الطبيعة فيترجم كل هذا الى إبداع فنى بمعالجة فنية ترتكز على تأثير كل منهما للفن من الفنون أو لأكثر من فن ، فالحياة عامة ترى من خلال هذا الفن ، ومن زاوية معينة تخدم مقوماته .

ونستطيع أن نأثي بمثل لما نقوله من رواية « الأمل » لمالرو عندما نرى أن أحد الإبطال وهو لويس (Lopez) النحات لا يرى الواقع إلا من خلال فنه ، حتى أنه عندما يصف رجل الكنيسة يستمرى الانتباه فيه أنه مهمل المنظر ، لحيته يضاء قببح المنظر ولكن « يتمتع يبدین يستحقان الرسم » .

والحرب بالنسبة لنفس « لويز » تمنى فرصة المراء لى يسخر الفن فى خدمة النضال الوطنى فيقول : -

« لقد نعطى الجدران العارية للرسمين ياصديقى وهيا أرسوم وارسم ، أن الذين يعرفون أمام هذه الجدران ونحن نتحدث اليهم ، يحتاجون الى الحوار . لا يمكن أن يخلق فى جماهيرى عندما لا تجد شيئاً نقوله للجماهير . ولكننا يمكن أن نناضل سوياً ونفعل حياة سوياً نضغ أسسها معاً ، وفى هذه الحالة يكون لدينا كل شيء نقوله سوياً » .

أما موقف سنجور من الفن فما علينا إلا أن نذكر أن كل مظاهر الحياة بالنسبة للشعائر الأسود هى فن ، فالرقص والموسيقى والنحت جزء لا يتجزأ من حياة كل زنجي ، فهو يعبر عن كل مظاهر الحياة بهذه الفنون ، حتى أن طول التام تام نفسها تعتبر لفة قائمة بذاتها ، يتحدث بها سكان الأدغال من فوق الجبال والوديان .

وعندما نتحدث سنجور عن الموسيقى والرقص الزنجي أو يتأمل أيا من الأعمال الفنية ، زنجية كانت أو من حضارة البحر الأبيض المتوسط العريقة التى طالما تفاخر بها سنجور على أساس أن هذه المنطقة منبع الحضارات والمدنية، نستطيع أن ندرك الى أى مدى تتقارب أفكاره مع أفكار مالرو ، فالتحف الفنية تلعب دوراً هاماً عند هذين الكاتبين حيث تجعلهم يتأملون طبيعتها ومعدنها ومدى صلتها بالفنون الأخرى أو بتراث آخر .

ومن ثم يكون الفن بالنسبة لهما ذا طبيعة تأملية هامة ، فيتأثران به وينفعلان معه ويوحى لهما بملاقات بعيدة ومشعة بين مختلف الشعوب، ومن هنا تأثي عملية « فلسفة الفن » عند مالرو وعند سنجور التى تؤدي بهما الى مواقف مميزة تجاه الحضارة عامة .

أن الفن فى مفهوم سنجور ومالرو طبق ليس حبيساً أو مرتبطاً بمنهج سياسي أو اى انتماء آخر غير انتمائه للقيمة الذاتية النابعة منه نفسه ، يمكن للفن أن يخدم فكرة أو مذهباً أو فيما برجوازية أو اشتراكية أو شيوعية أو ما الى ذلك .

وطالما أن الفن يعبر عن ذاته فقط ، وينفعل الى أبدى مؤمنة بقيقه بل مؤمنة بقدسيته وبحتره الحرفيون المهرة المؤمنون بما يفعلون فإنه فن بمعنى الكلمة ، وفن نحت يستحق إعجابنا وتقديرنا

ومحاولتنا لفهمه وهذا هو الحال بالنسبة للفن المصري القديم وفن الصين وسومر والفن الزنجي ، لاننا نستطيع ان نرى ان الابداع الفني يلتصق فيه كما راينا من قبل باسمى معانى العبادة في الدين ، بل الفن نفسه يضع الطريقة المقدسة الوحيدة للوصول الى الروحانيات والمقدسات في محاولة لاكتشاف اسرار الكون .

لما الفن المسيحى في تقدير مارلو الا البحث عن الله من القرن الحادى عشر الى القرن الرابع عشر .

وما الفن الزنجي الا البحث عن الانسان في وسط الكون ، اما اذا اخضع الفن الى عوامل اخرى مات واضمحلت وفقد معانيه .



هذا هو الذى حدث بالنسبة لفن النحت ابتداء من القرن السابع عشر حيث فقد النحت اتجاهه الديني المبرر واتخذ الشكل الاكاديمي الذى كان يخدم قضية سياسية واجتماعية وهي تخليد لويس الرابع عشر مثلا . تماما كالرسم الذى سلك نفس المنهج ، والأمثال عديدة تحت قلم مارلو حتى يصل الى الفن المسخر في خدمة البروليتاريا ، اللتزم بمبادئ الاشتراكية المتطرفة أو الشيوعية فتدخل الرقابة والسياسة والسلطة وتحد من حرية الفنان وترسم له بالأمر خط الالتزام الذى يجب ان يتبعه . كذلك هناك عنصر آخر هو ظهور الإنتاج التزايد بالجملة والرغبة في الارضاء لرغبة العميل الذى يشتري الفن بالمال .

وهناك فرق شاسع بين الابداع الفنى وبين الإنتاج الفنى الضخم الذى يرضخ الفن بسببه لمتعضيات مادية واعتبارات اجتماعية غيرت مجراه في أوروبا قرونا طويلة ، حتى ظهر الفن الحديث السريالى فماد بالفن الى أصالته فاصبح لا يرضخ لشخص معين ولا لنظام معين ولا يوافق ولا يتلقى العظماء من رجال الدين ورجال السياسة وسيدات المجتمع ، ولا يحاكى الطبيعة فيقبل عليه عامة الدواقة ، وانما يعبر اصدق تعبير عن مأساة الانسان الحديث وبأسلوب يبعد كل البعد عن الأساليب المتبعة في الفنون حتى هذا القرن ، وبذلك يستعيد الفن أصالته ويتصل مباشرة بكل فن بدائي لتلقى زنجي كان أو غيره يعبر عن نفسه مجردا من كل شيء آخر سوى رؤية الفنان البحتة . ويستطرد مارلو في شرحه لنظريته هذه قائلا « انى لا اقول ان برال (Braque) (٤٦) يكمل النحت السومرى ولكن بقدر ما يجعلنا نتدارك تلك السمات المميزة للفن في حد ذاته فانه بأسلوبه التهرورى امداد لبعرنا ذلك النحت السومرى الذى كنا قد افتقدناه . وكذلك الحال بالنسبة لبيكاسو كما راينا .

ان زمن الفن لا يطابق زمن الأحياء . فالوقت يقهر الفنان نفسه ولكن عمله لا يفنى عبر الدهر والأجيال ، ولكن هناك شيئا هاما الا وهو ان الفنان بصفته رجلا يفنى ولكن بصفته فنانا لا يرحل أبدا من هذه الدنيا لان عمله يخلد . ويوجد الحوار بينه وبين الأجيال والأجناس ، فمابكسل

« النجلو » و « روفائيل » و « ووبلدلي » و « ييكاسو » و « مالرو » نفسه وغيرهم أن كانوا رحلوا عن هذه الدنيا فبفضل أعمالهم يعيشون ويخاطبون الشر، وهذه هي أهم وأسمى رسالة للفن ، أي إيجاد الحوار على أعلى مستوى ، وهو المستوى الوجداني والعاطفي في الإنسان مع نفسه أولا ومع الآخرين ثانيا .

وكما يقول الشاعر شارل بودلير :

« أن الروائع ، والألوان والأصوات تتقابل » على أساس أن كلا من حواس الفنان تستجيب الواحدة للأخرى ، وتجمله أكثر حساسية لنوع معين من مظاهر الطبيعة ، فبالنسبة لمارلو اقتران رؤية الشجر بمجموعة من الأحاسيس والأنفعالات التي تعود به إلى الوراثة في حياته هو أو في حياة البشرية جمعاء يجعله يستعيد دائما المواقف في ذاكرته بنفس القوى والتمعق ، ولشدة حساسيته يفن الرسم مثلا .

كثيرا ما يتوقف مالرو عند انطباعه من انعكاس الضوء على منظر الأشجار . فالضوء سواء كان ضياء الشمس أو أضواء جانبية يشغل مكانا هامانا في تحديد النظر في كل رؤية ، ويؤثر كل التأثير على البطل بحيث أنه يتخذ القرار أو يقدم على الحدث تحت تأثير مشهد انعكاس الضوء على الأشياء الجاورة .

فمن خلال الضوء تكتسب الأشياء والمناظر شكلا جديدا يختلف عما تظهر به في واقعها ، فمثلا في رواية « الطريق المكس » (٤٧) تمكن الشمس نوعا من الضوء الباهت على شاطئ جزيرة سومطره فتبدو المياه مكسرة وتبدو أشجار النخيل من بعيد كأنها سور رهيب من الوحوش المتقرسة السوداء ، فبعلا النفوس كابرة ووهبا .

ونفس الشيء بالنسبة لضوء القمر الذي يلعب دوره في تكوين الأحداث ، وهكذا نرى أن الضوء هو طريقة المعالجة الفنية الأساسية في إبداع اندريه مالرو الروائي .

ويأتي النحت في المرتبة التالية ، فاندريه مالرو شديد الأحساس بحركة الأيدي بهيئة الجسد ، كما يشده دائما إحساس عميق بشكل الأشياء . أما بالنسبة لشاعر « أغاني الطلأل » فأحاسيسه بالضوء لا يعتبر أهم معالجة من الإبداع الفني ولكن هو الأحساس بدفء الضوء ، أي بحرارة الشمس مثلا وانعكاسها على الألوان ، ألوان طبيعة المنغال من خضرة النخيل وحمرة زهرة الكانا المقترنتين دائما باصفرار زهرة الكاسيا ورمال الصحراء وحمرة الورد التي تتألق مع بريق الشمس على أرض أفريقية ، يأتي الأحساس بالنبات قبل مظهره وأساسا برائحته لتحديد المكان وتغير الفصول بين الحياة والموت أي بين الجفاف والخصاد .

فالرسم لا يسترعى انتباه سيجور في المقام الأول وإنما الذي يستند عليه في معالجته الفنية هو أولا الإيقاع وتضمن بالإيقاع إيقاع الطبيعة في الدرجة الأولى مثلا كالإيقاع الشائلي الليل والنهار ،

وللجفاف والخصوبة ، ايقاع المواسم الدائري ، ايقاع الفلك الذي تدور فيه العوالم فضلا عن ايقاع التحفة الفنية ، فهناك ايقاع اللمس والشكل واللون بجانب ايقاع الموسيقى بمعناه الضيق وايقاع الشعر والنغم وما الى ذلك .

ويقول الشاعر نفسه : « الصورة والايقاع تلك هي المقومات الأساسية لكل فن زنجي وكل زنجي يعيش العالم الخارجي بفضل الصورة والايقاع لانه يجب ان يتأثر بحواسه لا بمنطقه ولا بعقله » .

وأخيرا فهناك قيم مستمدة من مناظر الطبيعة نفسها مثل : الايمان بالنبات ، وحب الأشجار التي تربط الانسان بالبيئة وتوصله بالجيال مضت ويواقع مشحون بالاحاسيس والانفعالات يتجاوب فيها البطل أو الشاعر مع الاحداث .

وتجد نفس الشيء في معظم روايات مالرو : -

وأكثر من هذا نجد ان هناك ارتباطا وثيقا بين البطل وباقي اشخاص القصة ، وبين منظر الاشجار التي توحى اليهم باحاسيس معينة . وفي كل الحالات فهم لا يمكنهم ان يتجاهلوا هذا المنظر .

وعلى سبيل المثال : يظهر هذا الارتباط في قصة « القدر الانساني » : حيث نرى ان جيروور (Gisore) والد البطل كيو Kyo بمسودة ابنه لا يستطيع ان يتحمل الالم ، ولكن الشيء الوحيد الذي يساعده على الصمود أمام مآسي الدهر هو جمال الطبيعة والاستماع الى الموسيقى ، بينما لم يستطع ان يهرب من الحياة بالفرق في مناهات الافيون الذي يتناوله ولكن ينسى جروحه وفشله في الحياة . ومنظر الطبيعة هو ما يمكن ان يراه من خلف النافذة من اشجار النوبر التي تنشأ اشودة الريح بالرغم من أن كل شيء فوق المدينة حزين .

وبذلك نجد ان هناك تشابها في كل افكار مالرو وسنجور من ناحية ارتباط الانسان بالمكان الذي يعيش فيه ، فالتبيعة لتتصق به ولا يمكن ان يعتمد عنها أو يتجاهل وجودها .

وفضلا من هذا الارتباط فهناك أيضا ارتباط ولبق بين مظاهر الطبيعة وبين جميع الفنون الأخرى التي تترجم في معظم الأحيان رؤية الفنان للطبيعة الموجودة حوله .



وطريقة مالرو والمسلك الطبيعي الذي يسلكه في قصصه هو تجميع للاحاسيس العام في احساس معين مركب يتجسد في لحظة وينطبع على المشهد كما يظهر في المشهد المذكور تماما .

وبهذه الطريقة نجد ان كل عنصر من عناصر السرد مرتبطة بالآخر بحيث يشكل بنانا متكاملا ويجب كل عنصر منه على الآخر . فهو يختار الاشخاص والابطال - في عملية الخلق الأدبي تبعا لتطور الأحداث وطبقا لما يعطى له الواقع من منظر ومشاهد ، ولكن الشيء الذي يهنا هو أن كل بطل يمايش العالم . عند مالرو كما كان سنجور - في الشعر من خلال احساسه ومشاعره الخاصة . فكل من مالرو وسنجور يتمتع بهذه الحاسة الفريدة التي تجعله مثل الفهد أو النمر أو الأسد يشم من على بعد كبير ، ويرى بريق الضوء ويحس بالحدث قبل وقوعه .

ويمتاز مالرو أساسا بهذه القدرة الفائقة على خلق الجو المناسب للبطل وإيجاد هذه الأساسيس والانفعالات التي تملى المناخ المطلوب لتابعة القصة ومعابضة الأحداث من وجهة نظر البطل أو الشخصية التي يسلط عليها الضوء .

أما سنيجور : يمكن أن ينسى أنه ابن الأدغال ؟ وأنه لا يصف الشيء إلا من خلال أحاسيسه المتربصة اليقظة دائما ؟ ! ربما يكون هذا هو الربط الحقيقي بين الإنسان والطبيعة ، فالأشجار مثلا هي الصلة الوثيقة التي تربط بين الإنسان وبين البيئة التي يعيش فيها ، ففيها يرى الماضي بتاريخه ، والحاضر بقوته ، والقدشئالة .

فعندما يقف الكولونيل بيرجييه (Berger) الذي هو مالرو نفسه ويتأمل ، يحس أن كل شيء تحت الأشجار « من يدور ، وخشب ، وجلد ، أو قش » فراحة الطبيعة تفرض نفسها فرضا على بيرجييه وتنقل إلى أعماقه ، وحفيف أوراق الشجر يجعله « يسمع حفيفا يأتي من تحت هذه الضفيرة الخصبة الغلابة » ، فيأتي أيضا بهدير من أجيال مضت ، آية من أعماق الظلام الحالك ، . وربما هذا يعني قدرة الأشجار على الاستمرار في الحياة من الجذع حتى القمة ، تعمل معاني كثيرة بين أوراقها وفروعها . وأول هذه المعاني الصلابة ولانها الجمال ، وثالثها الصبر والجلد .

وهكذا نرى أن شجرة الجوز المتقلص كما تبدو لا تحمل ثقل الدنيا وإنما « تترمرع » وتردح في حياة لا تنقطع .

وهناك أيضا ذلك المنظر الذي يراود فكر مالرو فيظهر لنا مرتين الأولى : في الالامذكرات ، والثانية : في الأمل ، وهذا المنظر هو دائرة من الفاكهة الناعجة المتناثرة حول شجرة ، ويرمز قطعا إلى إمكانية تطور ، أو نهضة ، فهذا المنظر يقترب بوجود القس على منبره بالكنيسة وهو يردد في صلاته : -

« وإني الموت لكل شيء ، وإني مولد كل شيء وإني مسكون الأشياء الخفية ... »

وإنما هذه التراتيل كان البطل بيرجييه يفكر في حلقة الفاكهة ، حلقة الجوز الملقى حول الشجرة في منطقة الألزام ، وكان يبدو له وكأنه حلقة أناس أحياء ملتصين حول جسد يحترق ببطء يمنح الحياة ...

ويستمر دائما في مخيلة مالرو - أو بمباراة أدق لبطل روليت مالرو هذا الاقتران الوثيق بين منظر الشجرة والطبيعة عامة بمواقف معينة تتلمق بأحداث تعهد بموقف أناسها ، وهكذا يستمر دائما هذا الربط بين الطبيعة والإنسان ، بل كل عناصر الطبيعة بالإنسان .

فمثلا أن صرخة الغراب تأتي من أعماق الهند حينئذ يسرع الكاتب بفياله عبر المحيطات فيعيش لحظة مشاهدة الأشجار المقدسة التي يلتف من حولها الرجال مثل منقود الفاكهة الذي

سبق ان تحدثنا عنه ، ويجول فكر المؤلف تاروق بيناريس لتخيل هذا المنظر المألوف لديه ، وتارة يعود به الخيال الى سبورج بالاتانبرج بالانزاس حيث تبدأ للحياة اول البراعم من فوق الجوز الميث منذ الشتاء الماضي .

وهكذا نرى ان هناك عند الانسان هذه الرغبة في الدوام وفي الاستمرار وقهر الزمن وتحدى الطبيعة . ويرمز الى ذلك منظر اشجار الجوز بالاتانبرج واشجار التفاح ايضا في رواية الامل وحتى منظر الرجال اللتفين حول حلقة النار بيناريس في الهند تدل ايضا في هذه الحركة الدائرية التي تكون هي ، وفي الوقت نفسه تتغير في كل دائرة جديدة ولكنها محتفظة بنفس الشكل الدائري ، تدل ايضا مثل مشهد تاج الفواكه الذي يطوق الاشجار ، كل هذا يدل بالطبع على طبيعة الاشياء القابلة للتغيير بصفة مستمرة ولكنها في جوهرها كما هي ، وهذا هوس الحياة التي تعود وتجدد دائما .

ويبدو هذا واضحا في مشهد آخر من نفس رواية اشجار الجوز بالاتانبرج حيث نرى احد البطل « مولبيرج (Mollberg) يتحدث بحماس بالغ مع الآخرين بينما يستمرع انتباهه بريحه فجأة بالخارج منظر بعض الرجال يحملون جذوع اشجار الجوز تماما مثلما قام جده منذ اربعين عاما بنفس الحركة امام مبنى البلدية بالمدينة بالانزاس ولكن هذه الحركة ايضا لم يكن يفعلها ايضا رجال القرون الوسطى في القاعة المقدسة بينما كانت النافورة في وسط المدينة بمياهها تنعش المساء ؟

وهذه الجذوع ، والخطايون والنافورة انما تجسد بالنسبة الى والد البطل هذا الشعور باللا مبالاة الذي يحمله الانسان تجاه مسرور الزمن ،

نفس الحركة انما تكرر منذ قرون مضت واجيال سلفت وستكرر في المستقبل .

وهكذا تصبح القرون الوسطى حاضرا مستمرا وتنتقل لذكر الدوام البشري من الجذوع الى الاشجار المليئة بالحياة ، اشجار الجوز التي تسيطر على القرى من فوق علوها بالاتانبرج فيصفها الكاتب على النحو التالي : -

« ان كثافة الاشجار العريقة تنبثق من كتلتها الممتلئة ، ولكن هناك احساس بجهودها المستديمة لاستخراج فروعها بأوراقها الخضراء من هذا الخشب المعوج القديم ، الثقل الذي يبدو وكأنه يفرس غرسا في باطن الارض ويثبت فيها لا يخرج منها هكذا . يعطى الاحساس بالارادة القوية اولا ، وبالتغيير المستمر ثانيا ، فيجسد شجر الجوز لفنان بيرجيه الرغبة الاساسية بلوغ الاندية .

ونفس الشيء يتكرر في رواية الامل ، في مشهد اثناء النزول من الجبل حيث يتوقف البطل ويتأمل شجرة التفاح فريد على خاطره ان ثمرات التفاح لم تكن بعد ، ولكنها وقعت وتلف من حول ساق الشجرة كالخلخال السميك يدوب شيئا فشيئا مع النجيل . وكانت شجرة التفاح فقط هي التي تنبض بالحياة في وسط الحمى والحجارة التي تكسو الجبل ، فالنبات وحده ينبض بالحياة التي طالما تتجدد ومن حوله هذا الجمود الجيولوجي للجبل .

ويتحدث الشاعر الأسود بدوره عن ذلك المدار الدائري للطبيعة وبالأحرى المدار الدائري للنبات الذي يرتبط بالإنسان ارتباطاً وثيقاً، بل يبدو هذا أوضح وأهم في شعر سنجور حيث الإنسان الأسود تقترن كل حياته بمظاهر الحياة الطبيعية - وترتبط ارتباطاً وثيقاً بحلول الفصول أولاً وقبل كل شيء .

فدائرة الفصول هي التي تتحكم في حياة الأفريقي لأنها مرتبطة بالحياة الدائبة القريبة من حياة القرية حيث رأى النهار . ولذلك فمعنى الطبيعة وخصوصاً انعكاس مظاهر الطبيعة على النبات يرمز إلى معانٍ كبيرة بالنسبة للشاعر الأسود الذي يرفض أن يكيف حياته على النظام الأوروبي ويرتبط بهذا النظام « الطبيعي » (إذاجاز هذا التعبير) الذي يعيشونه في إفريقيا .

وعلى أية حال فما هو أبيض في أوروبا يكون أسوداً في أفريقيا ، والعكس ، بمعنى أن فترة الجفاف في أوروبا ، أي جفاف البرد القارس توازي فترة الخصوبة في إفريقيا السوداء ، وبالعكس ففترة جفاف الأمطار في إفريقيا توازي فترة الخصوبة أي الربيع والصيف في أوروبا . والشاعر حساس للغاية لكل مظهر يشير إلى اختلاف الفصول وقدموها في مادها الدائري .

ولذا نراه يحس بقدوم الربيع بمجرد شمه رائحة الخضار : خضار الأوراق والتجبل من قبل أن تورق الأشجار أو تظهر البراعم ، فهو يسمع ويرى ما لا يسمع ويرى الآخرون ممن الأوروبيين .

فقدوم الربيع مثلاً يأتي له وهو في أوروبا على هيئة هففة النسيم القادم ببشائر القارة السوداء الدافئة فيعيش بأحاسيسه دفء أفريقيا حيث الشمس الحارة وموسم الحصاد بينما مازال البرد والصقيع والثلوج تغطي أوروبا ، ولا نبأ له عندما تؤكد أن كل حياة ومشاكل وأحاسيس سنجور تحكمه وتتحكم فيها هذه الحركة الدائرية للفصول الأربعة .

فكل مناسبة هامة أو حدث أو أحساس مرتبط بموسم الحصاد أو موسم الجفاف أو موسم الرياح حتى أنه عندما يحدد ميعاداً يصل به إلى أنه لا ينظر إلى المفكرة الأوروبية المألوفة المكتوبة في جيبه أو على مكتبه ولكنه يتحدث عن مفكرة الحصاد .

وأحاسيس سنجور بالنبات يكاد يكون محور كل ما كتب وتحدث عنه لأنه يقرن دائماً النبات بالمرأة بتربة أفريقيا عامة في فكرة الخصوبة والانجاب والتفتح ، فالبلور تنبت وترمرع وتثمر وتحصد ، والأرض تثمر وتستقل فتزرع وتمرق بطنها ، أي لوتها الخصبة بعمل الرجل الذي يستغلها ويجعلها خصبة ومنتجة تماماً مثلما يقترن الرجل بأنثاه في فكرة الحب والانجاب والخصوبة المثمرة . كل هذه الصفات موجودة في النبات عامة ولكنها تتضح أكثر في الأشجار . لكل شجرة تلخص معاني كثيرة وتوحي بفلسفة الحياة بينها .

ويرمز النبات عند الشاعر الأسود للأمل والصبر والتكاتف والقوة . فضلاً عن أنه يمثل أيضاً الغلال والحياة في المناطق الصحراوية الشاسعة في لوزن: الستفال .

فالأشجار أولا معنى التفاف الجماعة من تحتها في النظام القبلي للقرية السوداء ، فالرجال يجلسون أسفلها للتشاور في أمورهم في رطوبة المساء وسكونه ، ومن هنا يأتي الارتباط بين الإنسان والشجرة . فهي بمثابة الشاهد الذي يسمع ويرى ويحضر كل القرارات الهامة التي يتخذها زعماء القرية وأهل القبيلة لتقضاء وتسوية أمورهم اليومية ، ومن هنا تأتي المكانة الخاصة التي تلعبها الشجرة في حياة أفريقيا السوداء . حيث نجد أن كل قرية بها شجرة تسمى « شجرة المشورة » يجتمع تحتها أهل القرية .

والشجرة أيضا معنى الجمال : بقامتها الفارعة المشوكة كالنخيل والحر ، أو بفروعها الممتدة كأشجار الجميز والصنن والزنان والبلوط ، أو بقوتها الجبارة كأشجار البوابب المعروفة في أفريقيا السوداء والتي هي دلالة مميزة للمناطق الاستوائية والمدارية في القارة السوداء .

والشجرة أيضا معنى الخضرة أي الحياة لتلك المناطق الموحشة المحرومة من الخضار وتحت ظلها يستقر ويستريح الفرد من قسوة الصحراء وحرارة الشمس المحرقة .

والشجرة أيضا نحصل منها على الثمار ، فنتطعم ونرطب ونروى ، فبالإضافة إلى قيمتها الجمالية فهي ذات قيمة انتفاعية .

وأخيرا - وهذا هو الأهم - فالشجرة توحى بفلسفة في الحياة فعلى حد تعبير الشاعر الفرنسي « بول فاليري » . (Paul Valéry)

« الصبر .. الصبر
الصبر في الأفق الأزرق

فكل ذرة من السكون
فرصة تفتح زهرة ونفج فأكمة ... »

فالنبات أيا كان يوحي بالصبر الأزلي طالما عرفه الإنسان : فهو يزوع ، ثم يروى ويتبع الزرع حتى يجنى الثمار . وهذه هي الحكمة الكبرى في حياة البشرية وهي حكمة النبات الذي يمثل دقة الطبيعة في مدارها اللاتري الذي لا يخلف المهاد .

وحكمة النبات تنجلي أيضا في استقرار الحياة ، منذ الجذور الممتدة في باطن الأرض وحتى القمة الشامخة التي تشق زرقعة السماء .

وسنجد كغلاف ، يتبع بهدوء وباهتمام بالغ تفتح الزهور ، وعطر الورود وانطلاق الشجرة وحفيف الأوراق ، وكل نوع يوحي إليه بأحاسيس معين ، فأشجار الجوافة رائحتها تغيث بالأنوثة وكذلك أشجار المنجر ، والجمال المشوق يتمثل في النخيل السنخالي وفي شجيرات اللورا البيضاء والوردية .

وكثيرا ما ينطبق منظر الأشجار على أحاسيس الشاعر نفسه ، فإذا كان يعيس فيحس بأشجار البوابب الضخمة تتلوى من الألم ، وإذا كان - يرتجف من البرد في أودوا فيرى الأشجار ترتجف بردا ، أما إذا كان سعيدا منتعشا فإن الأشجار تضطك معه .

وهكذا نرى أنه بينما يشد مالرو منظر معين في الطبيعة كما رأينا في مشهد الأشجار فالأحاساس بمظاهر الطبيعة وخاصة بالنبات يتبلور في ذهن مستجور في حاسة الشم والوتران اللون الأخضر والأحمر والأصفر أي ألوان مظاهر الطبيعة في الاستفال نفسها . وهنا نقف لحظة لنأمل ماذا نقصد من عبارتنا هذه ، فهناك بالنسبة لكل فنان تطابق بين مختلف مظاهر الفنون بعضها ببعض وبين مخيلته هو . وملكته الفنية النابعة من بيئته الأصلية بمعنى أن كل فنان يخلق لنفسه في عمله الذي يقدمه لنا مناخا معيناً يستوحى منه الإلهام ويخلق الجو والمناخ المناسبين لما يتحدث عنه ، وقد تحدثنا عن فلسفة الفن والان لتتناول دور الفن في فلسفة الحياة : فالفن عند مالرو كما هو عند مستجور موقف أخلاقي يؤدي إلى سلوك الإنسان المعاصر تجاه أخيه .



٢ - الانتقاء الأخلاقي (Biblique)

وهناك يأتي على الفن أن يقول :

« أنى لم أجىء كي أعطى لكم الجزء الإلهي الذي أتمتع به ولكنى جئت كي يسترد الإنسان مكانته الصحيحة في الكون وبصوت أهدس له بمظهره » .

إن الفن الحديث سمح لنا أن نرى كل الاشكال في العالم المحيط بنا بحرية تامة لانتفضع لأي اعتبار آخر سوى رؤية المناخ الذي ينبع منه ويترعرع فيه عبر تراثه الثقافي .

فالفن في مفهوم مالرو هو اللاقدورية لأنه المجال الوحيد لاختيار الإنسان ، اختيار ماذا ؟ اختيار موقف أخلاقي ومعنوي .

اختيار تقرير مصير كل إنسان ، أي رفض القدرية والمحتوم والتحرر من فكرة المكتوب علينا الذي نستسلم له لأن الفن يعتبر تجربة وانطلاق من كل مايجول في النفس البشرية ، من كل ما هو كامن ومكتوب وموقف الإنسان من القدر فإن فكرة الإنسان ماتت بعد فكرة موت الله وكان على الإنسان أحياء نفسه من جديد .

ويعتبر عمل مالرو « سيكولوجية الفن » (٢٩) محاولة لإبراز أعظم مظاهر الإنسان . ويطرح مؤلف سيكولوجية الفن عدة أسئلة في هذا الشأن ولعل أهمها السؤال الآتي : « كيف يمكن للمرء أن يتفق مع العالم الخارجي » سؤال حير البشرية من قبل ، أما اليوم فنزج إليه سؤال آخر كيف يمكن للمرء أن يتفق مع نفسه ؟ على مدى التاريخ نرى أن الإنسان يتفق مع نفسه من خلال هذا الذي يتخطاه دائماً ، فإذا كان المرء اليوم يعتقد أن لشيء يتخطاه ، وأن الإله لم يعد أي شيء سوى أثبات لقدرته الفائقة في الإبداع فكان لزاماً عليه إذن أن يجد في نفسه ، ونفسه فقط ، هذا التوافق بينه وبين نفسه .

فإن آلهة المتحف الخيالي في مخيلة مارلوهو « الممكن » (Le Possible) وأهم ما يتسم به هذا المتحف هو التفكاح من أجل الحياة ، النضال ضد الموت وتقصده هنا مع مارلو الموت بمعنى الفناء وليس الموت المحتم على نهاية كل إنسان يرحل عن الدنيا .

فالفناء هنا يعني العدم ، العدم الذي يلاحق البشرية فيقتضي على كل سماتها الإنسانية ، ولكن الامر الذي يعنيه مارلو هو ذلك الشعور بالانفعال الأساسي الذي ينتاب المرء أمام الحياة ، بادئا في أول الامر بحياته الذاتية أمام الخلود .

« لماذا يوجد شيء على شكل هذه التحفة الفنية بدلا من العدم ، بدلا من ألا يوجد شيء ؟ » ذلك هو السؤال الذي حير مارلو أمام الحضارات القديمة التي تلاشت عبر العصور ، أو بمباراة أدق انقرض الذين عاشوها ورحلوا ولم يعد لهم أثر سوى هذا التراث الفني يفرض نفسه فرضا على الدهر وعلى القدر ويرمز دائما الى البقاء . فضلا من انه يحيي لنا هذه الحضارات بكل معانيها ، بذلك تصبح المشكلة الحقيقية في تقدير أندريه مارلو هي ليست توارث الحضارات وتداولها ، ولكن كيف وصلت الينا كل حضارة بتراثها الانساني وكل ثقافة بمعاملها الخاصة بها وتوصلت الى اذهاننا بتراثها الانساني وعواطفنا ووجداننا بأعمق معانيها السامية الجمالية والروحانية .

بمعتقد أندريه مارلو الذي يرفض معونة الأديان وخاصة المسيحية أن عظمة الإنسان ومجده هي في أن يتوصل الى حل مأساة وجوده وحده بدون أي استناد الى قوى دينية . كيف نجعل المرء يدرك أنه يمكن أن يقيم عظمته أي معونة أخرى غير تلك التي تنبع من نفسه .

ويصبح في وجه الصحفيين :

إن الإنسانية لا معنى أن نقف ونقول :

« أن الذي فعلته لا يمكن لأي حيوان في العالم أن يفعله » .

لا ، بل إن الإنسانية هي أن أرفض ما يمكن في نفسي من حيوانية وأن أقول أنني أصبحت إنسانا بدون عون الآلهة :

ولكن مازالت المشكلة الأساسية غير محلولة بالنسبة له ألا وهي « من هو الإنسان وما جوهره ؟ وهل هناك أي دالة أو مفهوم يمكن أن نرسي أو نقيم عليه تعريفا للإنسان ؟ وكل إنتاج أندريه مارلو الفني والأدبي بل وكل حياته أيضا وما حقق في مجال السياسة والثقافة ما هو إلا محاولة إيجاد حل ورد على هذا السؤال المطروح يشغف بل يقلق شديد من كاتب « القدر الإنساني » .

هل مات الإنسان حقا ، ألم يبق منه ما يشير الى معانم الإنسانية ؟

ففي محاضرة ثقافية في قاعة السوربون يصبح فينا مارلو محاكيا لـ Nietzsche الفيلسوف الألماني الذي تحدى العالم في يوم ما حينما صرح « الله مات » لم يعد هناك رب فهل الإنسان قد مات بدوره ؟ ألم يعد هناك إنسان ؟

وهذا التساؤل المحير في الواقع لا يقتصر على أندريه مالرو ولكن كثيرا من الكتاب يتساءلون بنفس الطريقة ، والمقصود بهذا السؤال طبعاً القيم الإنسانية التي لم تعد لها ميزة للبشر تحت تأثير التطور والحضارة الحديثة حضارة القرن العشرين التي خلقت للانسان مع التقدم والرخاء كثيرا من المتاعب والمشاكل ، بل الآسى ، مثل الحرب واستعباد الآلهة للانسان الذي لم يعد يعرف هل يمكنه الاستقرار في الحياة ككائن حر مدركا واهيا .

وهنا يتأمل مالرو مصير القارة الأوروبية فيقول انها تحتضر ، وانها مهددة بالفناء وتراجع نفسها في قيمها مما يؤدي الى انشقاق فظيع بين الانسان والحضارة ، والفن المعاصر ما هو الا التعبير الحقيقي من هذا الانفصام .

ان القرن العشرين مبصوم ببصمة «القدرة» على النقيض من القرن الذي سبقه ، ولكننا وصلنا الى نقطة بلغت بنا هذه القدرة الى حد يعتمد عليها ان نسيطر عليها ما ان نستسلم لها فنموت» .

فيما مضى كان مالرو يؤمن بمثل أعلى واحدهو « بروجميتوس » Prometheus بطل أسطورة الأفريق الذي سرق سر النار من الآلهة فوجع له الفضل في تقدم البشرية .

والمقصود هنا بروجميتوس هو الانسان الماركسي المعاصر الذي يصنع التاريخ ويغير وجهة تنمية امكانياته المادية والتكنولوجية فقط ، ولكن فيما بعد لم يعد مالرو يقتنع لا بالذهب الشيوعي ولا بالماركسية لانها لم تشبع متطلبات اخرى روحانية في افعال نفسه ، ولذا توجه الى نواح اخرى : لبدأ يعجب بالأساطير والتاريخ، والثقافة والفن وبالتالي بدأ يقترب من « أبولو » - (Apollon) اله البطل الاسطوري الأفريقي الاخر على النقيض من بروجميتوس ، ومن ثم فرجل أبولو هو الذي يشور على استعباد الآلهة والتكنولوجيا الحديثة ، وهكذا يصل المطاف بأندريه مالرو في أهم مراحل فكره الى ردع حتمية التاريخ ، بالتركيز على سيادة الروح والفكر ، وهذا هو أهم مظهر يؤكد عظمة البشرية .

ولكن إيا كان الانسان المعاصر ، بروجميتوس كان أو أبولو فمامن شك ان المنطلق واحد عندهما الا وهو تأليه الانسان ، هذه الفكرة التي وردت على لسان أحد أبطال مالرو :

« ان كل رجل يحلم بأن يكون الها » (٥٠) .

ومن هنا جاء المألوم الجديد المفهوم الإنسانية الحديثة في عمل وانتاج مالرو .

فلم تعد النظم السياسية والمذاهب أينما كانت تكفى لتغطية الإنسانية في النفس البشرية ، كذلك الحال بالنسبة للذوق الفني الذين يكتفون بتقييم التحف من الفنون بالنسبة لحضارتهم هم فقط . الأمر تفر وأصبح يشمل مضمون كل البشرية في اتجاه الكرة الأرضية على مختلف الأجناس والبلاد والأديان والقارات ، وبالتالي كلمة « حضارة » الآن يجب ان تعني شمول الحضارات وكل مظهر من مظاهر الفن والحضارة في العالم عبر عن الانسان في أي ركن من الدنيا .

ويتساءل الكولونيل « بيرجيه » (٥١) الذى هو الكاتب نفسه :

« فما الذى يراود فكرى منذ عشر سنوات وأنا أكتب سوى الانسان ؟ ان ابنى لم يكن اكبر منى سنا بكثير عندما بدأت هذه الفكرة تسيطر عليه ، فكرة لفر الانسان التى تسيطر على اليوم والتى تجعلنى ربما ابداً فى فهمه ، وهناك شيان جملا فنسان بيرجيه (او ان شئت مارلو) يفهم البشرية ، اولهما ايجاد قيم انسانية (٥١) جديدة ترد على هذه المشكلة المطروحة التى لخصها مارلو فى هذه العبارة « ان مشكلتى الآن هى ان اجعل المرء يعى ويدرك مدى انسانية اليوم » ، وثانيهما ايجاد حوار الفن والانسان .

١ - البحث عن القيم الانسانية الجديدة :

ما من شك ان المرء حبيس كما هو فى مصيره الذى يخضع له تماما ولكنه يتطلع فى نفس الوقت الى متطلبات تصمد به دائما الى اسمى وأعلى ، هذا المرء يجب عليه ان يخلق لنفسه قيما انسانية جديدة وصورة للانسان يمكنه ان ينظر اليها فلا يرى تلك الصورة التعيسة لمصره الآن ، ولكن صورة تسمح له بالسمو وبالتوصل الى مجال اقوى من المصير نفسه ، ولذا كان لزاما على المرء فى عصرنا هذا ان يحاول صنع اسلحه تسمح له بالتغلب على القوى المفسدة التى تثقل عليه فى العالم الحديث ، ونستطيع ان نلخص مشوار مارلو فى الفكر بأنه انطلق من العدمية الى الانسانية .

وما هى تلك القيم الجديدة التى يمرضها كاتب الأمل للانسان ؟

يسردها مارلو سردا فى منتهى الوضوح فيقول ، فى خاتمة رواياته الفسفرة : (٥٢)

« نعلن ان القيم هى : -

ليس اللاشعور بل الإدراك والشعور ،

ليس الهجرة بل الإرادة - ليس شبح الرؤوس ولكن الحقيقة

وأخيرا الحرية كل الحرية فى الاكتشاف » .

كل هذا لا تكمله بهذا السؤال : « الى اين » لاننا لا نملك شيئا من هذا ، ولكن نتساءل من اين نبدأ تماما كما يحدث فى العلوم المعاصرة فأمام العدمية التى تهدده فى كل مكان يتحتم على المرء ان يختار : خلق موقف أخلاقي جديد لنفسه او الانتحار . والمقصود بالانتحار اما الانتحار الفعلى او الانتحار بوسائل اخرى : الدهنى او الروحانى الذى يفرض على المرء ان يقبل مدلة مصيره فيخضع للقديرة او ان يهرب منه لينخلق لنفسه اللهو عنه بشئى الطرق ، ولكن مارلو يترك اللهو ويترك الانتحار ويختار وضوح الرؤية بشجاعة تامة لمواجهة الحياة وهذا يتجسد فى شخصية « بيركن » (Perkin) فى الطريق الملقى .

وبعد كتابة ست قصص أى بعد أكثر من عشرين عاما تكلم مالرو مرة ثانية بوضوح بطريقة مطولة وبأسلوب واقى من مشكلة الغرب وفى هذه المرة لم يكتب بعرض مجرد بل ويضع النقط على الحروف .

وقد أبرز مالرو فيما كتب « أصوات الصمت » و « سيكولوجية الفن » تدهور الحضارة الغربية خلال القرن السابع عشر الذى كف فيه الإنسان عن التوجه الى الوجود وخلال القرن الثامن عشر والتاسع عشر الذى شاهد كل آماله أولا فى آلهة المنطق ثم آلهة السياسة حتى أدركته أخيرا اللحظة التى انهارت فيها كل مقدساته السالفة فتحقق هو من حقيقة واحدة أنه لا شيء ، أو يكاد لا يساوى شيئا ، وهنا بدأ دور الثقافة الغربية الحديثة فى التساؤل عن مفهوم الإنسان وعن البحث عن قيمه .

ولكن فضل مالرو يرجع الى أنه لم يكتب بطرح هذه المشكلة التى ظهرت فى أماله الأولى بل أعطى ، أو على الأقل ، عرض حولا من خلال أعماله .

فالإنسان عندما يقدم على الفعل يحل مشكلة لا وجوده ، والفعل هنا لا يقف عند اقدام على صنع الأحداث فقط بل يشمل الفعل الفنى أى الإبداع . فالن وحده إذن ، ولا شيء سواه ، هو السبيل لاسترداد الإنسان الحديث لإنسانيته .

وفى الإبداع الفنى سبيل أعمق لاتصال الإنسان بأخيه عبر العصور والمجتمعات المختلفة ، لذا كانت الثقافات والحضارات تنهار أو تختفى هناك القطع الفنية نفسها التى تحفظ التراث ويعبر منه ، وأخيرا وهو الأهم ثبت لنا دائما استمرارية قدرة الإنسان الخلاقة بالرغم من العدوانية والشراسة التى تحيط به فى العالم الخارجى .

كيف يعيش الإنسان فى عالم هابت به ، ليس له أى معنى ؟ بل يعيش الإنسان كى يعطى لهذا العالم معنى ولا يترك العبث يلعب به وأهم رسالة للإنسان الماصر هى أن « يعطى معنى لlamعنى » على حد تعبير الكاتب الفرنسى الشهير « مونية » (Brouniet) .

ويبدأ مالرو من البداية حيث يبنى نظريته على المدمية كمنطلق لكل انسان ومن هذا المنطلق الذى يقدمه الى اقدام على الحياة ، على فعل الحدث ، فيعطى معنى لحياته ، تبلور فكرة الانطلاق من المدم للوصول الى الإنسانية التى هى الإيمان بالقيم الإيجابية للإنسان فتترك وراءنا مالميا بأكمله من معتقدات وأفكار وتصرفات وايدولوجيات ، ولتواجه أمانا مصيرنا عاريا مجردا من أى اعتبار آخر . والملاحظ هنا أن تركك القيم الحضارية والفلسفية مصحوب دائما بالنسبة لا بطلان رواياته ، أن مالرو نفسه ترك أوروبا أى الغرب وذهب الى أقصى الشرق للبحث عن مجهول يبنى به الإنسان قيمه وماله الجديد . فمالرو نفسه هرب من فرنسا كى يتأمل فى حدوده وفى أمجباب هوالم أخرى ، والملاحظ أيضا أن إبطاله على قراره هم يبحثون عن أنفسهم ، فهم لا ينتمون الى حضارة الغرب التقليدية المألوفة لديهم ، ولا ينتمون أيضا الى حضارة الشرق أو البلاد الغربية عليهم أينما كانت ، فلا سبيل إذن لخلق قيمهم لأنفسهم بعد أن يواجهوا مصيرهم بشجاعة وبقطة ووضوح رؤية تجعلهم يدركون أنه لا مفر لهم سوى الاعتماد على أنفسهم فقط كغير .

ومن ثم أصبح لزاما على المرء ان ينظر لمصره نظرة متفائلة بناءة من لحظات ياس شديد ، وتمرد على القدر ، وبالرغم من كونه يعلم جيدا ان مصره بكاد يكون لعبة يلعب بها القدر ، صار لزاما عليه ايضا ان يعتقد في دوام البشرية المهددة دائما بالزوال كما يراها مثلا لينج (Ling) أحد أبطال القدر الانساني فيقول :

« انكم تعتقدون ان هناك فيما تسمونه الانسان دائما لا يوجد على الاطلاق » بل يوجد هذا الشيء . ومارلو يفكره يؤكد هذه الحقيقة ، فهو لا يؤمن بدوام الانسانية في العاصم وفي المستقبل فحسب بل يؤكد بها بالنسبة للماضي في كل حضارة قديمة وفي كل مظهر من مظاهر الفنون العريقة .

وبكل احساسه وجوارحه يبحث مارلو مع ابطاله من هذا الشيء الذي يحقق دوام البشرية ويؤكد معالم الانسانية منذ بداية الحضارات ، هذا الشيء الذي قهر الزمن والموت والتهديدات المختلفة وصمد عبر الأزمنة والأجناس حتى انتقل الانسان من الهلاك ، فهذا الشيء هو الايمان المطلق بقيم ايجابية نابغة من الانسان نفسه ، ولا تستند على أي شيء آخر سواء بقدراته وامكانياته لمجابهة واقع مصره ، وهكذا تؤدي فلسفة الصدم الى فلسفة الايمان بالانسان أي الانسانية .

هناك بين كل الثقافات التي سبقتنا ترابط وثيق فنحن نعلمنا الآن ان نرى بأعيننا وبأذهاننا وبكل مواطننا ، وبفضل فكرة التحف الخيالي لكل الفنون نستطيع ان نقارن ونقيم ونكشف الصلات والصلات بين مختلف الثقافات والحضارات ، فنوجد لها لغة مشتركة » وهذا الاجتهاد واضح كل الوضوح في رواية الطريق الملكي حيث يسترد البطل كلود فانيسك (Claude Vannet) حديثه في هذا الشأن قائلا :

« ان المتاحف بالنسبة لي انما هي اماكن حيث تصبح كل الاعمال الفنية الماضية اساطير ! تمام حياة تاريخية طويلة في انتظار ان يوقفها الفنان من جديد ويأتي بها الى الحياة الحقيقية » .

فنكون كالكلوفين اذ لا نرى اسام هذا المشهد ما تحمله هذه الاعمال الفنية من قيم حضارية وانسانية تشكل لنا الانسان الجديد بالمقارنة والوصول الى المعنى العميق لكل الفنون فنصل الى الفن العالمي ومنه الى « الانسان » مجرد من المكان والزمان والحضارة الخاصة به .

ولكن متفتحا الى العالم بأكمله ملدوب خصائصه في خصائص كل البشر .

وهنا تنسع فكرة الأخوة والجماعة وتشمل أخوة المجتمعات باشمها ومحاولة التعمق في العلاقات الانسانية عبر الحضارة ، وهكذا يصل الانسان الى جوهر الاشياء لا الى مظهرها بفضل هذه النظرية الى الفن العالمي والى الحضارات المختلفة التي تجمع في معنى واحد هو تعبير المرء من جوهره بفضل تعبيره الفني الصادق ، ولعل هذا الذي يسميه مارلو « الانسانية العالمية » انتصار الانسان على القدر ، بمعنى ان الفنان ، والبطل والقديس يتخللون « بفعلهم » على القدرية ، ومن ثم يؤكدون انفسهم كبشر في المجتمع المعاصر .

وكلتا التجريبتان للارو وستجود لتلقيان في نفس المجال : المايضة لأحداث الحياة - فالن من الثورة كل منهما مجال شامع اى حقل واسع النطاق الى ابعد الحدود . فهناك صورة ثامى من الفن وهناك صورة ثامى من الحياة ولكنهما لتلقيان ولتتصقا التصاقا وثيقا في مخيلة المؤلف .

ولناخذ مثالا على ذلك في رواية الامل : ولذكر كيف ان « مانويل » (Manuel) اى البطل كان أثناء تجوله على طرق اسبانيا يصطحب كلبه الكبير كما صوره مالرو « كان ذات الجسد الممتد مثل الرسوم البارزة على المباني العتيقة ويمشي على الطريق مثل حركة الشجر الارضية منذ بدأت هجرة المسيح الى مصر » .

ومثل آخر من قصته : **اشجار الجوز بالانبرج** « هو الذى يعبر من فرحة جموع المساجين والصحة وعلامات السعادة التى كانت تبدو على وجوههم مثلما يبدو تملأ هذا الشعور في رسومات يروى (٥٣) » .

ويأتى هنا دور المتحف الخيالى كما كان يروق لمالرو ان يتخيله . فأتى متحف في العالم هو من أكثر الأمكنة التى تعكس عظمة الإنسان . فهو يفرض على المرء ان يتساءل من معانى هذه التحف الفنية التى تعرض في المتحف ، ومدى علاقتها ببعضها ، ومن ثم فيتساءل المرء من رسالة الفن نفسه .

والمتحف الخيالى الذى بدأ في مخيلة مالرو بدأ فعلا بجسده قبل وفاته من طريق افتتاح متحف يجمع بين مختلف الفنون التشكيلية مثل النحت والغراف .

والمتحف المثالى هو الذى يشعل كل الفنون بشكل يجعل تداول الحضارات مستمرا ويسيرا من مختلف العصور والاجناس ، مهمته الاساسية الرد على التطلعات الجمالية المختلفة الكامنة في أعماق البشر والتي تعبر من تراث هريق في كل مراحل البشرية ، وهل هناك اجمل واسمى من تعارف الشعوب من طريق الفن ؟

وكل انتصارات نابليون بوناپرت في ايطاليا لم تستطع ان تحضر الى فرنسا سقفا فيه الفاتيكان الى اللوفر - بينما ان مجرد عرض الموناليزا (اى الجو كونا) (ليوناردو دافنشى في اللوفر مثلا جعلت حفارة النهضة الإيطالية تزهو وتزهو في عقول الفرنسيين عبر الاجيال حتى يومنا هذا بفضل هذا العمل الفنى مثلا .

وتضيف هنا نحن مثلا آخر : ان ما تركه معرض فوت غنخ آمون المتنقل في أوروبا واربكا منذ سنوات قليلة من تأثير واهجاب وتقدير في نفوس كل الذين شاهدوه أكثر بمراحل من دوى اى انتصار عسكري ، او حتى ما يعمل النشاط الاعلامي والسياسي على الصعيد الدولي من أجل معرفة مصر ، ومتابعة قضايها .

(٥٣) بروجيل (بير) (Purro Brueghel) رسام فلاندى من القرن السادس عشر مشهور بالآله للوحات الجمالية التى تعبر عن مشاهد ليلية ودهية تخيف فيها جموع البشر .

ان الفن اذن يلعب وحده دورا هاما وخطيرا في العلاقات الانسانية وانطباعات البشر بعضها من بعض وبالتالي فرسالة الفن هي اسمى معاني الرسالات ، وتأتي في تقدير مارلو في المرتبة الاولى قبل الديانات السماوية وقبل الايدولوجيات السياسية ، لانه اصديق تعبّر حضارى من العمق الانساني في البشرية .

ولذلك يتعين ان يكون الفن الحديث حلقة تربط بين مختلف الفنون ومختلف الحضارات كي يصل الى المفهوم المصري في تكامل الحضارة العالمية .

فنظرنا الحديثة للثقافات المختلفة يجب ان تكون نظرة احترام وفتح وامحباب لان كل مايعبر بمصدق من يبنثه يستحق ان يعامل باحترام وتقدير وهذا هو الاهم ، يستحق ان نقف عنده لنأخذ منه ونعطى له في حوار مثمر أخوي مثير انساني .

ان كل ابداع فني يكشف عن امكانية البشرية في تخطي المصور وتجاوز الزمن وحتى لو ان الحضارات اختلفت او ماتت فان فنها لم يموت . فمثلا كما يقول مارلو اننا لا نعرف شيئا عن الفلاح المصري القديم او الفراعنة لكننا نعلم الكثير ونتجولب فعلا مع الفن الفرعوني القديم ، فنجد التماثيل المصرية في متاحفنا بفرنسا » .

وهكذا نرى على حسب نظرية مارلو ان الفن يخلق لنفسه قيمة الانسانية بل لقيمة المطلقة . ولعل اهم هذه القيم هي كما ورد مواردا على لسان مارلو قدرة الفن على تحدى القدر .

فالنن يرفض العدم والعبث الذي يهدد الانسان في العالم الحديث ويعطى للانسان فرصة تغيير الواقع والاشياء في عالم جمالي مستقل ، متماسك ومميز .

وهكذا فان الفن ما هو الا بحث وهو الشيء الوحيد الذي يمنح للانسان في هذه الدنيا فالقدر بكر ، والزمن يغير ، اما نحن البشر لنبذل الفن فنختار ونلدوم فتحيا أنفسنا من جديد خلال ايماننا الفنية

ان الثقافة في تقدير مارلو في اوسع نطاق لها هي تراث فكري فني وخلقى ويصفها مارلو كالآتي :-

« ان كل ثقافة عميقة عندما تصبح عالمية تبدأ في الظهور لنا في شكل مفامرة تماما كعلم الفيزياء الذي هو مفامرة لغزو العالم الحديث . فلنذكر ان علم الفلك حاض قرونا بأكملها بينما قيل في قليل من الوقت ان الارض لا تدور ، كذلك الحال بالنسبة للثقافة العالمية التي ولدت لنا تساؤلات موجهة تنبع منها ارادة قوية اني ازيد عدد ارك الانسان لعنى حياته على الارض » (٥٤) فالانسان هو الفلز الاساسي في الكون .

ويمكننا أن نقول أن مالرو قطع أكثر من نصف الطريق بحثاً عن الإنسان ، أما سنجور فقاطبه في النصف الآخر الذي قطعه هو كى يلتقي بالوجه الآخر للإنسان المعاصر الإنسان الغربي فأكد سنجور « بالفعل » ما نادى به مالرو بالفكر .

معنى اعتقاد الشاعر الأسود أنه لا يمكن أن تقوم حضارة إلا إذا كانت شاملة متكاملة تجمع بين كل الحضارات وخصوصاً تلك التي نمرقها بالحضارة الغربية والتي على شبه النقيض من الحضارة الأفريقية ، ولكن هذا هو سر الكون نفسه الذي يقوم على نظرية التكامل والتعارض ، فالإبيض على النقيض من الأسود ولكن لا بد من وجودهما في الحياة سوياً

والليل مكنس النهار والشمس على النقيض من القمر ولكن كل هذه العناصر المضادة لازمة لتكوين الكون في مداره وفي فلكه وفي حركته ونستشهد هنا بالآية الكريمة : -

« لا الشمس ينبغي لها أن تترك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون » (٥٥) .
(صدق الله العظيم) .

وهذا بالضبط ما يمتد فيه ليوبولد سنجور حينما يتحدث من نظريته ، أي المسكينة التي يسبح فيها الفلك ويدور فيها العالم .

فانزنجي بطبيعته كالرجل الشرقي لا يعرف القلق والضياع في الدنيا لأنه يتلازم مع الطبيعة المحيطة به ولا يعرف سوى التسبيح والتكبير لهذا الذي خلق السموات والأرض وكل ما عليها وإن كان يحدد بالضبط اسم الله سبحانه وتعالى باسم « مونو » الأعلى ومونو يعرف عند الرجل الأسود بكونه أعظم رجس وأكمل الرجال خلقاً وشكلاً ولهذا فهو يستحق العبادة وهو أقوى الكائنات فخلق كل شيء وكل شيء في مكانه ويؤدي وظيفته على خير وجه . فلا لمرد ولا انشقاق ولا قلق في حضارة الرجل الأسود حتى جاء اليوم المشسوم الذي سحق فيه الرجل الأبيض كل شيء وأفتح البلاد واستغل أخاء الأسود أسوأ استغلال عرفه تاريخ العالم الحديث ، فندس المقدمات وحطم الحضارات ورفض الحوار .

ولكن لا بد للظلم يوماً أن ينجلي ولا بد من نقطة شعوب أفريقيا حتى تحقق الحرية وتسترد الكرامة وتوجد الحوار ، فتبنى الحضارة الجديدة للإنسان المعاصر هذا هو بعينه خط سر الشاعر الأسود حتى يلتقي فكره بفكر صديقه مالرو وكيف كان هذا ؟

إذا كان أتدريه مالرو قد رحل كثيراً مبداً من بلاده باحثاً عن مفهوم جديد لحضارة الإنسان المعاصر فإن الجواب على بعثه يوجد بأفريقيا حيث تعلم أن الفن يعبر عن الإنسان ، حيث تعلم الإنسان أن يجد لنفسه فلسفته وحكمة وجوده في هذه الدنيا .

« لا يجب أن يبدأ نحاتوننا في نحت أقمصة حديثة على ذوق أوروبا ، أنك على حق ولكن الشيء الذي يجب أن يكون هو أن يحس نحاتوننا أنهم في منتهى الانطلاق ، في مجال الفن العالمي

بطريقتهم ، ويجب ايضا ان يدركوا أن قوة الانفعال والتأثر بالشيء (التى هى اصدق تعريف للكلمة افريقيا نفسها) قد منحت لهم وهذا سر تفوقهم ، نقطة امتيازهم عن الآخرين فى مجال الفنون . ان الألقمة سوف تموت يوما ولكن افريقيا سوف لا تخضع أبدا الى الفن الاوروبى الحديث .

اننا نعلم تماما ان هناك فى الطبيعة وفى كل بقعة بها وجود للانسان وستتوصل يوما الى الامساك به ! » (٥٦) .

« فى ذات يوم انزعج سرطان البحر (٥٧) المعجوز « كو كروفو » من زوال الحكمة فى العالم ، فلا أحد يمر لها الاهتمام الكافى ويتبع ارشاداتها ولذا قرر « كو كروفو » ان تجميع كل الحكمة ويضعها فى حبة قرع كبيرة لم يصعد بها الى اعلى شجرة عالية حيث يخفيها عن الناس ويحكي الاجداد انه بعد قليل من الوقت تعب « كو كروفو » من الصعود وتضايق من حمله الثقيل ومن مجهوده المضخم ولذا فالتى بحبة الفرع من فوق الشجرة فاكسرت الحبة وتبشرت فى ارجاء العالم كله ولذا فهناك اناس اكثر حكمة او اقل حكمة من الآخرين ! » .

هذه هى اسطورة زنجية تملل درجة حكمة الشعوب ورفيها وأصالة الحضارات بين مختلف الاجناس .

والحكمة عند ليوبولد سنجور تتلخص فى امرين : -

اولهما العودة الى الوطن الام افريقيا ، والايمان بالانتماء المطلق الى ارض الاجداد والى تراثها العريق هذا من ناحية ، والبحث عن الحكمة عند مختلف شعوب العالم لكى يكمل الحكمة المطلقة التى هى مزيج وخليط من الحضارات لكل الشعوب من ناحية اخرى .

ثمولوج سنجور من الحضارة المعاصرة ينقسم الى شقين : -

الشق الاول : الانتماء الى الاصل العريق للانسان الأسود بكل مظاهر هذا الانتماء الساسى ، الفنى والفلسفى .

الشق الثانى : هو ايجاد الحوار مع الحضارات الاخرى لبناء المجتمع العالمى المعاصر . وراينا ان كل ما كتبه سنجور هو افريقيا ، أى ان انتمائه مطلقا على الصعيد السياسى ، والايدىولوجى ، والوجدانى والفنى ...

ويوفاء مطلق استمر الشاعر الأسود على مدى أكثر من أربعين سنة فى نشر حجته ، غير مهال بالمفاخر ولا بتقلبات الدهر - فهو يحب مجابهة الحقائق وكم هى مريرة وصعبة ، المواجهة فى بلد متخلف وفى قاره فتية خضعت قرونا طويلة للاستعمار الاوروبى : فكيف اذن الكفاح ضد الفقر والجهل والمرض والتخلف والامية ، والأمر من هذا ذل الاستعمار ؟ كيف يكون استرداد

الكرامة وتم استعادة الحرية وأحياء التراث للقارة الشامخة ؟ لا سبيل إلا في الثقافة أولا ،
فالثقافة سلاح الرجل الأسود ولكن إية ثقافة ؟ الثقافة التي تعتمد على تكامل وشمول الثقافات
وبالتالي إيجاد الفرصة للرجل الأسود لاسترداد مكانته الصحيحة في المجتمع العالمي المعاصر الذي
يطعمه الكثير ولكن أيضا يستفيد منه أكثر .

فلا يمكن لاجتمع يناشد العالمية حيث المنظمات والهيئات الدولية المختلفة مثل هيئة الأمم المتحدة
ومجلس الأمن وما إلى غيره أن يتجاهل الغرب مثلا وجود العالم الثالث التي تعبر القارة الأفريقية
أهم عنصر فيه . هذه القارة التي حتما ستلعب دورا هاما في مسرح التاريخ القادم على الصعيد
الحضاري كما تنبأ بهذا ألفريدو مارلو نفسه (٥٨)

« .. الآن من يسمع هديرا هائلا مدويا يأتي من أركان الأرض سوى أوروبا ... » وفي نفس
الوقت يعلن عن جنائز عالم قديم ترى هل ينسحب بقدم أفريقيا ... ؟

أفكر في طائرتي عام ١٩٥٩ التي كنت أجوب بها فجرا مستنقعات التشاد الشاسعة ؟ أفكر
في الجندي الأسود المجهول تحت شمس باريس المتواضعة بميدان الكونكورد ، حيث احتفلنا
يوم ١٤ يوليو بتوزيع أعلام اتحاد دول أفريقية المستقلة ... أفكر في الرئيس سنجور - وفي
التوجيه التي كان يعلنها على الملأ ...

... أن سنجور إيفانتيبا للدور الذي سيلعبه العالم الثالث على مسرح التاريخ في عام ٢٠٠٠
هل سيقف العالم الثالث أمام الحضارة التي تفرو القمم وتضيغ شيئا فشيئا بها ؟

إن مارلو إذن مثل سنجور لا يمكن أن يتجاهل الحقيقة الجلية للقرن العشرين ألا وهي
تكامل الحضارات ومزج الأجناس المختلفة التي فعلا تنادي بعضها البعض بسبب هذا التناقص .

إن عظام الحضارات المتبادل يساعد على ازدهارها وفتحها ويوجد السكينة والسلام في
سير مشوار العالم القادم على غرار مسيرة الكون نفسه التي طالما تفنى بها سنجور في شعره ، لم
يعد من الممكن ما يعتقد سنجور أنه حتى على الصعيد الداخلي لاى بلد أن نتجاهل بعض
الحقائق الخاصة بالإنسان المعاصر .

« ... أن ندرك الإنسان في ماهيته فقط فلا نعود إلى أصله وجنسه وتاريخه ويشتبه
وجغرافيته ، فهذا موقف خاطيء ومائع وضيقى أن كارل ماركس عرف الإنسان على حسب
نظرية العلم الحديث بأنه حيوان على المستوى يفعل نفسه ويتكون في الطبيعة ويواظبها في
المجتمع المحيط به ويواظبته . » (٥٩)

ويرجع فضل سنجور فيما كتبه وأخذ به دائما في أنه يعيد للرجل الأسود على كل
المستويات إلى الجماعة الأساسية التي ينتمى إليها ثم يعطيه فرصة التفتح الكامل تجاه

الحضارات المختلفة وخصوصا حضارة الرجل الابيض الذي كان العدو الاول والذي أصبح أهم صديق . وبذلك تتحقق في افريقيا نفسها أولا ما ينادى به مالرو وما حلم به وحققه سنجور اى « الافريقانية » (L'Africanite) خليطا سعيدا موفيا بين الزوجية (Negritude) والعربية (Arabite) والخطوط التالية هي تفتح القارة كلها الى العالم الخارجى فتعطى وتأخذ بدلا من ان تعطى وتمنع دائما حتى ايماننا المعاصرة نفس الثروات البشرية والاقتصادية التى سلبها المستعمر الابيض من ارض افريقيا .

آن الاوان اذن ان تمتنع افريقيا الان بثروتها أولا على الصعيد الاقتصادى والسياسى والفنى ، تزدهر فنونها العظيمة لتعرف للعالم اجمع انها اصدق تعبير للانسان في البحث عن ذاته ومن وضعه في العالم ، ثم تأخذ من الحضارات الغربية ما يلائمها وما يتواءم مع تكوين الرجل الاسود وبيئته ولا تحاكي ولا تقلد تقليدا اعمى ، ولا تخضع لعبودية جديدة تحت ستار « الثقافة » ان اُبشع انواع الاستعمار هو الاستعمار الفكرى ، الذهنى الذى يعرف الآن بالاستعمار الجديد . »

وكثيرا ما يعطى سنجور الشباب الاسود بل شباب افريقيا كلها من الوقوع في هذا الفخ الربيع الذى ينسب له لنا ثقافة الاستعمار الغربى . فالثقافة وان كانت مفتوحة الى كل التيارات وهذا شيء طبيعى بل مرغوب ، لا يمكن ان تأتى من الخارج فتطبخ علينا لطخا بدون صلة ولا ارتباط لتقاليدنا الدينية والاجتماعية والاخلاقية ، ولا ترمى البيئة والظروف التى نعيش فيها ولدا - يصبح الرجل الاسود عبارة من مجرد دميه هزيلة تقلد تقليدا اعمى كل ما يفعله الغريبيون ولا يمكن لها ان تصبح انسانا بمعنى الكلمة لان جوهرها لا يتلدم مع هذه الحضارة . ثم ان هناك شيئا آخر يجب ان يؤخذ في الاعتبار وحتى اذا حدث ان قلد المرء شخصا آخر من حضارة وثقافة مختلفة تماما عنه فان هذا الشخص لا يحمل له الا الاحقار والتسفيه والاستخفاف به ، لان الذى ينسب اصله لا اصل له على الاطلاق ، وبالطبع يصبح موضع سخرية واحتقار للجميع ، فلا مكان له لا في مجتمعه الاصلى ولا في المجتمع الجديد الذى يحاول ان يجد فيه مكانا دون جدوى .

والحقيقة ان هذه الظاهرة حدثت بالفعل لكثير من السود بعد حركات الاستقلال في افريقيا ، ولذا فقد ادرك سنجور هذه الظاهرة الخطيرة وقد نجا هو شخصيا منها عندما تدارك الموقف في سبناه وحسن بشدة انجذابه الى فرنسا وكل ما يأتى من فرنسا وخصوصا ثقافتها العالية وحضارتها البراقة ولكنه كان دائما يتذكر ايضا انه اسود وان موطنه الاصلى السنغال وقد عانى الكثير لكى يخرج منتصرا من هذه التجربة الصعبة التى تلخص في الآتى :-

ان سنجور شاعر اسود ورجل ثقافة فرنسى ...!

والثقافة هي شغل سنجور الشائسل فهو مؤمن تماما بان الثقافة هي التى تصنع الشعوب ، وتكون الرجل ، وبالتالي يصنعها الانسان وانتصر بالفعل سنجور فجمع واشتق من الحضارة الغربية ما يعجبه وما يلائمه فقط ورفض منها الآخر ، وتذكر انه ابن السنغال قبل كل شيء ولذا احتفظ باصانته « وطعمها بثقافة الفرنجة » وربما هذا الذى اتقده هو أولا الاعتزاز باصانته

ولتانيا فتحة المطلق على كل حضارات العالم فهو مؤمن تماما بان « الزنوجية هي انسانية » (٦٠) حتى انه تجنب الكثير في هذا الشأن .

ولقاء الانسان بالانسان يكون أولا مع أبناء الجنس نفسه ولكن يمكن لعنى الأخوة ان يمتد فيشمل وفائق النضال في مأساة واحدة ومسدعو واحد وهذا يبدو اكثر وضوحا عند مالرو مثلما نرى في هذا الموقف من روايته « المصير الانساني » فلا يحتاج المرء ان يقدم نفسه للآخر ولكن يتم لقاء الأخوة في همسة أو لمسة يد ، وهذا هو مانراه في قصيدة سنجور : البحر الابيض المتوسط : (٦١)

« واردد اسمك : ديا ليو !

وبذلك تشد على يدي ، وافكارنا تتلاقى في نصف الليل ، ليك ، ليل لفتينا الشقيقتين .

كنا في البحر الابيض المتوسط ، ملتقى الاجناس الفاتحة وزرقته لم تر عيناى مثلها في المحيط وابتناسته على مليون شفة من الضوء الناصع ...

... وكنا نتحدث عن افريقيا وكان النسيم الدافئ ياتي لنا برائحة الخلابة أكثر دفئا من روائح المرأة السوداء

كنا نتحدث عن الوطن الاسود في المساء على الجبال وكنا نتجاوزان في اخوة ومحبة لكانت افريقيا تعيش هنا على مرمى الافق بوجهها الاسود المضيء ... وكنت اردد اسمك : ديا ليو .

وكنت تردد اسمي : سنجور »

ان فكرة الأخوة في افريقيا السوداء هريقه منذ الازل ، وهي مرتبطة بالتراث المعنوي والديني والروحاني ومفهوم الأخوة في الشرق الاوسط او بمعنى اصح في البلاد العربية توغل من طريق الفتوحات الاسلامية الى اعماق افريقيا السوداء وهذا المفهوم مرتبط بنظام الحياة البدوي القبلى ، فالانتماء الى القبيلة يقوى روابط العلم والخال والقريب والنسب ... ، واكثر من ذلك فمجرد « المعرفة » بمعنى التصرف على شخص بمجرد ان يذكر انه ينتمى الى شخص آخر معروف لدينا . فالتفاخر بالنسب والانتماء القبلى والارتباط الاسرى والاحساس بالاخوة وكل معاني الرجولة والشهادة ، والسعى لنجدة الآخرين في وقت الشدة في كرم : كل ذلك يعتبر من الملامات المميزة للتراث الحضارى الافريقى وكثيرا ما تغنى شاعرنا سنجور بهذه الصفات الحميدة : فعندما يخاطب زميل الصباورفيق الكفاح : الشاعر ايميه سنرير (٦٢) يقول له في قصيدته الشهيرة : **خطاب الى شاعر :**

S : La Nigritude est un humanisme

(٦٠)

g : Hostes Norics (Mediterrance)

(٦١)

.(S : Chants d'Ombre Letter a un poete)

(٦٢) ايميه سنرير :

« الى الاخ الحبيب والصديق ... تحية وسلام جاد واخوى ... »

سأنتظرك - »

ان معنى الاخوة يتخذ اقصاه عند سنجور حيث يشعر الشاعر بانتمائه الى ابناء دمه في المحنة ، بل يمتد هذا الشعور فيشمل كل اصدقاء الاسر ايا كان لونهم او جنسهم او عقيدتهم .

فالتضامن الانساني لمواجهة موقف صعب او محنة هو الذي يربط بين المرء واخيه ، وهو الذي يعزل الانسان عن الحيوان ، فالاخوة يمتد احساسها الى كل مظلوم ومقهور ومفهوم تحت قبضة عدو غاشم أو نظام قانع غاشم : ولذا فيرى سنجور في معنى الاخوة اعمق الابداد فيقول من رفاق الاسر -

« مختلfi الملامح والهبة والملبس والمعدات واللغات ، ولكن في همق الا من نفس انشودة الالم تحت الجفون المريضة .

فالكافر والتكايل والصومالي والموريتاني والغاني والفيني والبابايرة واليوبي - والمالدياجو اخوة .

وليد الرعاية وعامل المناجم والفلاح والحر في والطالب والقناص وكل العاملين البهيش في النضال اخوة .

وها هو ذا عامل المناجم بجبال الاستوري ، وعامل الميناء يلينريول واليهودي والمشر من المانيا ودويون ودويوي وكل ابناء سان دوني « (٦٣) نفس الموقف الانساني ينجلي ويتبلور في اعمال مالرو بشكل ملحوظ يوضحه لنا موقف كيوتشين (٦٤) في السجن .

فعلما مات كيو على ايدي قوة الصينيين عرف كاتوي معنى اليأس والرهب فكان يتخيل الموت البشع مصرع رفيقه البشع .

وكان يعلم ايضا ما بشاعة مصيره هو ايضا والزلاء الذين التقى بهم في هذه الزنزانة الكثيبة السوداء الضيقة فبدأ يشعر بالوحدة المريرة ولكنه ايضا تداركا للموقف الرهيب اراد أن يفعل شيئا من أجل هؤلاء الذين يتقاسمون معه نفس المصير والذين لا يعلم عنهم شيئا ولكن يحسن بوجودهم من انفسهم المضطربة فقط . فكان يرجع انه ما زال منهم على قيد الحياة وسط اشلاء الجثث الملقاة في الزنزانة ولذلك قرر أن يتقاسم معه كل ما تبقى له لانقاذ نفسه من المصير المحترم الا وهو جريمة الزنيخ التي كان يحتفظ بها لنفسه لينتحر قبل ان ياتي للجنود

لفينفلوا فيه الحكم ، وبما انه كان لا يستطيع الحركة خوفا من أن يوظف انتباه الحارس لهمس لسوان وهو الوحيد الذى كان يعرف اسمه قائلاها ياسوان ضع يدك على صدرى برفق وخذ منى جرعة الزرنيخ الخاصة بى فور أن تصل يدك الى جسدى كن حذرا فليس عندى الا لاثنين فقط » .

وهكذا ضحى كانوى بنفسه فى سبيل انتقاد النين من التعذيب المهين والهلاك لتقديم نفسه للهلاك بدلا منهما وأعطى لهما فرصة الانتحار بدلا منه لانه يؤمن بروح التضامن . التى تربط بينهم فى مثل هذه الظروف .

وهناك فرق كبير بين المذهب الايدولوجى وبين معاشية حياة الجماعة . ولذلك فما اكبر الفجوة بين الشيوعية كمذهب وبين حياة الشيوع أى مشاركة الجميع فى كل موقف وهذا وحده هو الذى يجعل معنى الأخوة مطلقا وملبوسا .

فبينما يرى « كيو » (Kyo) فى الشيوعية نوعا من الوصول الى الكرامه نجد أن هذه الشيوعية نفسها تعنى بالنسبة لـ « كوينج » وهو بطل آخر فى نفس القصة - المادلة والاستبعاد وبينما يرى الإبطل الآخرون « بيه » و« هماريس » فى مذهب الشيوعية هذا وفى الاتحاد السوفيتى طريق الخلاص والامان . فترى « مى » أن هذا المذهب لا يعنى الا ضيق الافق والتعصب الفكرى . فالشيوعية لا تعنى الجماعة ، والمذهب - السياسى لا يعنى الاستقرار الاجتماعى . فالنرد مرتبط بجماعة معينة وليس بمذهب سياسى .

ولذلك فالواقع بالنسبة لبطل قصة « زمن الاحتجاز » (٦٥) ليس له الا وجه واحد هو الحياة الجماعية وليس تطبيق الشيوعية ولذلك فهو عندما يضرب الحادث فى سجنه فلا يكف عن ضرباته حتى يسمع نداء أخويا يأتى اليه من أى مكان ، ولذلك أيضا نستطيع أن نقول أن تلك الضربات إنما ترمز الى إيمان مطلق بالأخوة البشرية .

وعندما يسمع فانتسان بيرجيه (٦٦) رجال الأعداء يتحدثون فى الظلام فأصواتهم لا تعنى بالنسبة اليه أصوات الألمان ، ولكن تعنى صوت البشر أجمعين .

« لأول مرة فى هذا الظلام الحالك ، سمع أبو الشعب الألماني الشعب فقط ، وبما الرجال أى البشر » .

فالدمد الذى يربط بين الذين يتحدثون والذين ينصتون ليس دم قومى وإنما هو دم خفى يظهر وقت القتال وتلاشى أمامه كل حجة وكل مصلحة وكل حرب ليحل محلها انطلاق عميق ينبت منه شعور الثقة وشعور الأخوة معا ولتقيا دون فصل بينهما بانطلاق الى أبعد الحدود يأتى من أعماق أعماق الدهر » .

وبهذه الطريقة يكشف لنا مارلو عن مفهوم الصداقة او الاخوة التى يلتقى فيها الروح باخييه فيشعر انه انسان امام لا انسانية القدر . ويتمثل ذلك فى هذه الرواية (اشجار الجوز بالانتبرج) فى اطلاق الفازات السامة على الصدف وهذا الشعور يصعد ويتخطى الامم والشعوب والزمن ، وهامنا نجد الرمز القوي الذى يرمز الى صلابة الشعور باخوية الانسان يتجسد لنا فى شجاعة اشجار الجوز التى تعرض قامتها الهائلة متحدياً بذلك كل التحديات ولذلك نجد ان بطل الرواية - فى نفس اللحظة - يتذكر تلك الاشجار المريقة التى تحيط به - فى الريف - من كل مكان والتى تكسب دائماً صفة الابوة حيث انها لا يتحددها بالسنوات فهي نفسها تحمل علامات الدهر ولكنها لا تخضع له وان كانت تحتفظ بلمسات الرقق عليها . فالاشجار عامة ، وخاصة اشجار الجوز تحدى الدهر فى شموخها ومناحتها وتعيش الاجيال تلو الاجيال .

ويقول مارلو من ناحية - معلقاً من موقفه من الصداقة والاخوة التى تربط بين بنى الانسان :

« اريد الولاء فى الصداقة حتى النهاية وليست الصداقة المعلقة على مجرد موقف سياسي » .

ونفس الشيء يحدث بالنسبة للشاعر الأسود سنجور الذى يرى ان معنى الاخوة ليس فقط رباطاً وثيقاً باهله وابناء جنسه وانما هو رباط بكل البشر فى شتى انحاء العالم وذلك يبدو واضحاً فى موقفه وعمله السياسي وخصوصاً شعره حيث نجد اكثر من قصيدة تحمل هذا المعنى للأخوة كما رأينا .



ان الفن وحده هو السبيل الوحيد فى اعتقاد سنجور ومارلو لتحقيق الذات وعلان تلك المظاهر التى تجعل البشرية انسانية تتحدى القدر والزمن والنظم ، والظلم والعبودية ، فالنم لفة الشعوب جميعاً ، تربط بين كل حضارات الكرة الأرضية ، فتكمل بعضها البعض لتجعل المجتمع الحديث مجتمعاً ثقافياً متحضرًا وإنسانيًا .

وبالتالى تستطيع القول انه اذا كان عمل مارلو الفنى يسعى كما كان يحلو له ان يقول « باللاقدرية » اى انه التعبير الوحيد من حرية الانسان فى مجال حياته التى تخضع للقدر فى معظم ظروفها فان الشاعر الأسود هو الآخر يثير الفن المخرج الوحيد بل المنطلق الوحيد للرجل الأسود منذ الازل للتعبير من ذاته ، فالزنجى كما نعلم جميعاً وكما يقول سنجور دائماً « بنى حياته » « ويرقص حياته » ، بل ينحت حياته فكل مظاهر الفن فى أفريقيا السوداء ما هى الا انعكاس مستدير لمظاهر الحياة اليومية .

الفن موقف واختيار وتعبير - ان الفن فى اعتقاد مؤلف التحف الخيالى (٦٧) هو بالدرجة الاولى مع العالم ، فالفنان عندما يخلق تحفته فى اى من الفنون التشكيلية : نحتاً كان ام تصويراً ،

أم موسيقى فأنها هو يوجد الحوار مع كل ما يحيط به ، بل أن هذا الحوار يمتد إلى الإنسانية جمعاء من خلال هذا العمل الفني ، فإن هذه التحفة تصبح تحفة لكل إنسان في كل مجتمع ، فهي نفسها فرضاً ، أي كانت المعايير والمقاييس التي تخضع لها من ناحية الشكل والحجم والملمع فكل منا يحمل في أعماق أعماقه هذا النداء الشديد نحو الجمال الفني ، نحو جمال الإبداع بصرف النظر من قيمه ومن حضارته وعن تكوينه الشخصي الذي قد يختلف كل الاختلاف بل يتعارض أحياناً مع الحضارة التي ينبع منها ويتشعب بها الفنان الخلاق الذي منحنا هذه التحفة الفنية .

ويعطى مالرو أمثالا كثيرة في هذا الشأن منها تحفا فنية من مجاهل إفريقيا السوداء ومن حضارات آشور وبابل وسومر والهند والشرق الأقصى ، وحضارة يزنطية وأمريكا الجنوبية فكل هذه المناطق على اختلاف الأجيال والعصور والحضارات تعطي لنا تحفا لا يمكن للبشر الاختلاف في أنها تحف ، والكلمة يجمع على قيمتها الجمالية الاستثنائية وخصوصاً الذين لا ينظرون إليها إلا من الناحية الجمالية فقط مثل مالرو نفسه . فإن العالم الذي تخلقه لك هذه التحفة يكشف لنا من لغة مختلفة تماماً من لغتنا الفنية ومن التراث الذي خلقه لنا الأجداد ، ولكن هذه التحفة تحدث إلينا وتتكلم لغة جديدة هي نفس لغتنا لأنها تتجه إلى نفسنا العميقة التامية ، وبالتالي تصل إلى العمق البشري فينا وتحرك فينا أسس المشاعر أي الأحاسيس بالجمال أمام روعة ما خلقه الفنان والأحاسيس بالجمال وإن كانت معاييرها تختلف من حضارة إلى أخرى .

بل في خلال حضارة واحدة تختلف عبر القرون مثلما حدث في معايير الجمال عند الإغريق لمقاييس ربة الجمال نفسه فينوس تصبح الآن شبه مضحكة في الحضارة الأوروبية الحديثة - إلا أن هناك شيئاً لا يختلف عليه وهو الاعتراف بمقدرة الفنان في التعبير من ما يجول في نفسه وما يخطر في مخيلته ، وهنا يأتي دور المتحف الخيالي الذي يجمع في ذهن كل منا كل أنواع التحف الفنية العالية بحيث يجمع حضارة فنية مثالية متكاملة تشمل كل ما ينتجته الأحاسيس البشرية في مختلف الأزمان والقارات .

إن الإنسان موجود بفضل الحضارة ويترك بصماته في العالم حيث هو ملقى بمجرد الصدفة بين زحمة الكون وترامم المادة وتوالى الكواكب ، وفي سجنه هذا ترجع عظمة الإنسان إلى أنه يستطيع أن يستخرج من نفسه صوراً تبلغ من قوتها اتكاراً للعدم والباطل للوجود الإنسان ؟ ملاح عظيم غامر بحياته تاركاً قارة أوروبا القديمة متجهاً إلى العالم باحثاً عن أخيه .

إننا نعيش جميعاً في هذه السنوات الأخيرة عملية التطعيم أو المرح هذه التي يتكلم عنها سنجور فمن مثلاً لم يتأثر بالثقافات الغربية وبحضارة أوروبا ؟

ولكننا نحتفظ بالتراث العربي والأفريقي الذي يجري في مروقنا ، وبالتالي فنحن نحقق يومياً ما كان الأمل المألوف وما هو الحقيقة لسنجور ، ولي الشاعر الأسود نداء « بلد النيل الرطب والأغاني » (١٨) كما يسمى فرنسا ، وسبع مؤلف القدر الإنساني دقات طبول التام التام في أعمال إفريقيا . فالكلمة والتحفة والعمل الفني خير سفير لكل إنسان يود أن يبدأ الحوار ويرسي حجر الأساس لحضارة عالمية جديدة ، حضارة الإنسان .

BIBLIOGRAPHIEI—OEUVRES :

de SENGHOR : *Poèmes* (chants d'Ombre 1945 - Hosties Noires 1948) - Ethiopiques 1956
Nocturnes 1961 - *Poèmes Dicars* - Traductions).

Ed. du Seuil - PARIS 1964.

de MALRAUX :

...Des origines de la poésie Cubiste in *La Connaissance* 1ère année no 1 janvier 20

...Les Conquérants - Paris - Grasset 1928.

...La Voie Royale - Paris Grasset 1930

...La Condition Humaine - Paris - Gallimard 1933.

...Le Temps du Mépris à Paris - Gallimard 1935.

...L'Espoir - Paris - Gallimard 1937.

...Les Noyers de l'Altenberg - Lausanne 1943

...La Psychologie de l'Art - Genève - Skira 1947

...Saturne, Essai sur Goya - Paris - Gallimard 1950

...La Voix du Silence - Paris - Gallimard 1951.

...Le Musée Imaginaire de la sculpture mondiale - Paris - Gallimard 1952.

...La Métamorphose des Dieux - Paris - Gallimard 1957

...Discours au Congrès pour la liberté de la culture - Paris 1952.

...Les Antimémoires : Paris - Gallimard nf. 1968 réédité dans

...Le Miroir des Loimbes - Paris- Gallimard 1975

...Antimémories

...La Corde et les Souris

Hôte de Passage

Les chênes qu'on abat... Lazare

La tête d'Obsidienne

- Oraisons funèbres - Gallimard 1975
- La Tentation de l'Occident - Paris - Gallimard 1975.
- Saturne, essai sur Goya - Paris Gallimard 1975
- Les Voix du Silence - Paris - Gallimard 1975.
- Le Musée imaginaire de la sculpture mondiale - Paris- Gallimard 1975.

La Statuaire

Des bas-reliefs aux Grottes Sacrées.

Le Monde Chrétien.

- La Métamorphose des Dieux - Paris - Gallimard réédité en 1975.

Le Surnaturel.

L'Irréel.

L'Intemporel

II — OUVRAGES CONSULTÉS :

- Pierre de Boisdeffre : André MALRAUX (Ed. Univers. Paris/Bruxelles 1955
- Pol Gaillard Les Critiques de notre temps et Malraux - Paris Garnier 1970
Malraux - Présence littéraire 801 - Bordes 1970
- Gaston Picon : André Malraux m.f. - Gallimard 1945.
Malraux par lui-même - Ecrivains de toujours - Le Seuil 1955
- Pascal Sabourin : La réflexion sur l'art d'André Malraux : origines et évolutions.
Klincksiek 1972.
- G.T. Harris : André Malraux : l'Éthique comme fonction de l'Esthétique -
Lettres Modernes - Situation 27 1972.
- Joseph Hoffmann : L'Humanisme de Malraux - Ad. Klincksiek 1963.

الفعل الثوري في رواية الأمل

حينما نشبت الحرب الأهلية الإسبانية في ١٦ يوليو ١٩٣٦ لم يتردد أندريه مالرو في الذهاب إلى هذا البلد بعد مرور يومين من اندلاع الحرب لينضم إلى صفوف الجمهوريين .

ولقد أكد الكاتب مرارا على هذه النقطة ، إذ أنه ذهب إلى أسبانيا من تلقاء نفسه وقبل أن تقرر الدولية الشيوعية إرسال متطوعين للاشتراك في الصراع .

وكان الجنرال فرانكو FRANCO يسيطر في هذه الأثناء على جنوب البلاد ويشرع في الرحف على مدريد مدعما بقوات مغربية وبالفصائل الذين انضموا إليه .

ولقد تبين لمالرو - خلال بضعة أيام - أنهن المستحيل تنظيم جيش من الجمهوريين بينما انضحت إمكانية الحصول على طيران يتيح لهؤلاء تدمير الطرق وإعاقة زحف طوابير فرانكو ، واستطاع مالرو بواسطة طائرات اشترت تقريبا في أسواق « المخلفات » ويفضل طيارين من مختلف الجنسيات من تكوين سرب « أسبانيا » ESPANA ، وهو السرب الذي سيطلق عليه الضباط ، بعد ثلاثة أشهر ، سرب « أندريه مالرو » .

واشتراك مالرو في ٦٥ مهمة جوية وحارب ضد طائرات موسيلنى الحديثة « سافويا » Savoia وطائرات هتلر « دورنيه » Dornier وحضر الهجوم الذى شنه الجمهوريون ضد قوات فرنكو فى « مدلين » Medellin و « طليطلة » Toledo و « مدريد » Madrid و « جواد لخرافا » Guadalupe واشترك أخيراً فى موقعة « ترول » Teruel التى تحطمت خلالها إحدى طائرات السرب ، غير أن مالرو تمكن من انقاذ اثنين من الحادثة وأرجعهم سالمين .

ولقد لعب سرب « أندريه مالرو » دوراً هاماً فى الحرب حتى ديسمبر ١٩٣٦ ، ويمكن القول أنه بفضلته قد تمكن الجمهوريون من إمالة زحف قوات الجنرال « فرنكو » على مدريد وثبتت القوات الفاشية على مشارف العاصمة مدة ثلاث سنوات .

ويعد أن انهار السرب الذى لم تستطع طائراته الصمود أكثر من ستة أشهر ، قام « مالرو » ابتداء من مارس ١٩٣٧ بدعوة اعلامية فى الولايات المتحدة حيث التقى المعاضرات وجمع الاموال والسماعات والتأييد لصالح الجمهوريين .

أن حرب اسبانيا التى أثارت كثيراً من العواطف والمشاعر ، أثرت أيضاً على الاوساط الادبية والفنية المعاصرة لها ، ولعلنا نذكر مثلاً ان التدمير الفاشى لمدينة « جرنیکا » Guernica قد ألهم « بيكاسو » Picasso إحدى لوحاته الشهيرة و « أربال » Arabal إحدى مسرحياته ، بل و « اليوار » Eluard الشاعر السريالى إحدى قصائده . وهى أعمال تحمل جميعاً اسم المدينة الباسقة الصغيرة وأثرت هذه الحرب كذلك فى « برنانوس » Bernanos الذى احتل موقف الكنيسة الإسبانية فكتب « المقابر الكبرى تحت ضوء القمر » Les Grands Cimetières sous la lune و « همنجواى » Hemingway الذى نشر بعد الحرب « ابن تعلى نوافيس الموت » For whom the bell tolls و « سارتر » Sartre الجدار de Mur ومالرو ، بالإضافة الى نشاطه الدعائى ، روايته « الأمل » L'ESPOIR .



وفى الفترة التى نشرت فيها رواية « الأمل » كان مصر « جمهورية » اسبانيا لم يحسم بعد ، ولقد أثار هذا الكتاب ، الذى ظهر خلال شهر ديسمبر ١٩٣٧ ، ردود فعل عنيفة اختلطت فيها الاحكام السياسية بالاحكام الادبية : إذ أن بعض الناس اعتبره لونا من اليوميات الحزبية لمناضل متطوع ، وبعضهم هذه مؤلفاً من مؤلفات « العناية الشيعية » لو نوعاً من التقارير الصحفية المتأثرة وليس من شك فى أن الاحداث التاريخية التى يورد ذكرها بدقة فى هذه الرواية تقرّبها من هذا الشكل الاخر من اشكال التعبير ، ولقد رد مالرو ، على « ايف سالج Ives Salgues » الذى لاحظ ذلك بما يلى فى عام ١٩٤٨ :

« تقرير صفى ، أجل : ولكن بالقدر الذى التزمت فيه بصحة الوقائع ، ومن ثم هذه الوفرة من الاخبار . ولكن هناك أيضاً التفسير الفلسفى للاحداث إذ أن الحرب الإسبانية تعد بمثابة

الضربات الثلاث التي تملن من مأساة أوروبا: فهي حرب تجريبية بالنسبة للفاشست ، وحرب جس نبض حذر بالنسبة للسوفييت ، واخيرا حرب الوهم الشاعري بالنسبة للجمهوريين . . .

ويضيف الكاتب :

« هذه الحرب كان كل فرد يخوضها من أجل الجميع ، ولا فرد من أجل ذاته ، ولم تتألق البطولة قط مثلما تألقت في فوضاها التي تذكرنا بلوحة « البوراكوس » لفيلبا سكيل . . . (١)

تقرير عن الأحداث وتفسير فلسفي لها إذن ، ويمكننا أن نضيف إلى ذلك « المعنى الميتافيزيقي » الذي تتخذه هذه الأحداث بالنسبة للإنسان ، إلا أن مالرو حينما يذكر لفظة تقرير لا يقصد بذلك التقرير الصحفي بالمعنى المألوف ولكن التأكيد فقط على صحة الأحداث التاريخية التي يسردها في روايته وهذا ليرد - بلا شك - على النقاد الكثيرين الذين اتهموه بالتحيز للقوميين . وفي هذا المعنى نذكر ، على سبيل المثال مكتبته « أندريه روسو » في جريدة « الفيجارو » :

« إن مالرو لا يعد نفسه مخلصا للثورة الإبتسخير قلمه لها ، وهذه هي نقطة ضعف رواية « الأم » التي تظهر للقارئ في صورة كتاب من كتب الدعاية الشيوعية . في هذه الرواية نرى كل الشعب الإسباني وهو يدافع عن نفسه ضد مضطهديه ، أما أتباع فرنكو فيظهرون كمجموعة من « الإلهاء » المفلولين . ولا نجد بجانب الجمهوريين إلا إبطلا وشهداء ، أما من جهة الفاشيين فلا نجد إلا مغاربة مرتزقة وإيطاليين وألمانا . . .

وحيثما شرع « فرنكو » في ضرب مدريد من الجو فإنه قصد الإحياء الفقيرة وتجنب الأحياء الفنية . الخ . . . يمكن القول بأنني لا أريد في هذا كله تعيين الحق من الباطل هذا ببساطة لا يحسب له حساب ولا قيمة له بالنسبة لتاريخ الحرب الإسبانية وهو أيضا يقصد ثلاثة أرباع الرواية . . . » (٢)

وليس من شك في أن السياق التاريخي يحتل مكانا هاما في رواية «الأم» وهو أمر مرده إلى

(١) راجع : GALANTE, Pierre - Malraux, Paris, Mon, 1971, p. 237

والبورازوس « Borrazhos » هم السكاري ، وهذه هذه القوحة من أشهر لوحات فيليبا سكيل Velasquez في متحف البرادو Prado بمدريد .

(٢) ROUSSEAU, Andre - Un anarchiste total in Le Figuro, 1er Janvier 1938

وهذه الدراسة عن مالرو قد مالتها الكاتب من جديدهت عنوان : ANDRE Malroux,crivain revolutionnaire in A. Rousseau Litterature du XX siecle, t. II, ed Varietes, Montreal, 1944, pp. 53, 54

وراجع كذلك طائفة : BRASILLACH, Robert- Lauserie Littéraire in L' Action Francaise, 6 Janvier 1938 حيث قام « براتيلاك » بتوجيه نفس الملاحظات « روسو » ختم كلامه بقوله : « يسمى مالرو قصته « الأم » وهو باس ، ويهديها إلى زملائه في « ثول » في الوقت الذي سيطرت فيه « ثول » .

الظروف التي كتبت فيها . ومع ذلك لم يقصده « مالمو » قط كتابة حوليات او تاريخ هذه « الحرب التي هزت العالم ... » (٣) ، إلا أننا لاحظ من وجهة النظر التاريخية ، ان الكاتب يغفل من ذكر بعض الأحداث التي وقعت في الفترة المعاصرة لموضوع الرواية بينما يتبين ان كل ما يشير اليه حقيقى وصادق (٤) .

واما بالنسبة لفيثاب اى تعليق على « ايدولوجية » المسكر الآخر ، فان ذلك يرجع الى رغبة الكاتب ، من الوجهة الادبية في تركيز اهتمام القارىء على المشكلة الاساسية التي يثيرها في كتابه الا وهى انتصار الفعالية والتنظيم على « الحلم الفوضى » . ولو كان من مقاصد الكاتب تصوير اتباع « فراكتو » ما كان ليتخرج من فعل ذلك وفقا لمطامعهم الحقيقية وهى القومية .

« الاصل » ليست اذن وثيقة ، بل عملارواليا الفة الكاتب على ايقاع الأحداث التي دارت في اسبانيا بين يوليو ١٩٣٦ ومارس ١٩٣٧ ، أى خلال الأشهر الثمانية الاولى من الحرب الاهلية اما الوقائع التي يذكرها « مالمو » فهى : فشل الثورة في « مدريد » و « برشلونة » و سقوط « مالا » Malga وهجرة سكانها ، استرداد « بريويجا » Brihuega بواسطة الجمهوريين وانتصارهم في « جواد لخر » Guadaluja . وهذه المجموعة من الأحداث التى تكون هيكل الرواية تنقسم الى ثلاثة اقسام ، اما القسم الأول فهو ذو اسم معبر « الوهم السامى » L'illusion Lyrique وهو يعلن بوضوح عن الموضوعين الرئيسيين لرواية « الأمل » : التنظيم و « الأبركانيس » أو الحلم (٥) وصراعهما . لعل يستطيع حلم الاخوة الثورى ان يحقق النصر بمفرده ! وفى القسم الثانى « المنزائريس » Le Monzanares يتطور الصراع ويتغير

HUGES, E. Y. - The War that Roused the World : (٢) ارجاع مقالات :

In Life, New York, 18 December 1961 and 1st of January 1962

(٤) راجع بالنسبة لهذا الموضوع :

WILHELM, Bernard - Hemingway et Malraux devant la guerre d'Espagne. Porentrua (Suisse) La Bonne Presse, 1966, pb. 83-94,

حيث يبرهن « فيلهلم » على ان الحقيقية التاريخية للأحداث قد بقيت احترام « مالمو » إلا انه يلاحظ بعض التناقضات الزمنية بين الواقع ورواية « الأمل » .

والقارىء من هذه التناقضات - كمعج مثلاً حادثتين في زمن واحد - هو تكليف المؤلف « الاسوى » ليظل الرواية . ونرى من جانبنا ان دراسة « فيلهلم » تصالح استنتاجات « الفنى » في الرواية مثل « وصف العمليات والإسالة » ، « الملاحظات الجغرافية » و « الزمنية » ... الخ .

(٥) كلمة معناها الاشتغالي : « الوعى » وهى تكون : L'APOCALYPSE

عنوان الكتاب الأخير من العهد الجديد ، كتاب القديس حزائيل الذى يشمل مجموعة الأحداث التى أوجبت اليه وخاصة من نهاية العالم وحلول ملكوت الله ، والكلمة تأخذ في رواية الأمل معنى « الثورة » ، التى تعد الإنسان بالحرية والكرامة والأخوة وكذلك معنى « كشف الصداقة والأخوة » - ولقد أبرز مالمو في كتابه : « التذكريات LES ANTIMEMOIRES » لفصلية لكتاب القديس حنا ويستشهد ببعض نصوصه ، لذلك لا يعد اختيار هذه الكلمة اختياراً عشوائياً لأن لها دلالة شبه روحية بالنسبة للكاتب .

اذ ان البطولة وحدها لا تكفي حتى ولو تميزت بالفعالية ، واذا ان الدفعة الثورية لا بد لها - لكي تنجح - من أن تنصب في تنظيم . وفي القسم الثالث والاخير يتحد العلم والتنظيم ليولدا الأمل « L'Espoir » وهو عنوان هذا القسم . وبما ان الكتاب يركز على الصراع وليس على حله ، فان هذا يكشف لنا التفاوت في الطول الذي يميز الأقسام الثلاثة . فمن الطبيعي أن يكون « الوهم الشاعري » أكثر الاجزاء طولاً اذ أنه يعرض موضوع التنظيم وموضوع الحلم وصراعهما ، والجزمه الثاني متوسطاً فهو الذي يوضح الصراع ، والجزء الثالث قصيراً لانه يبرز قصور كل حل للصراع ويظهر طبيعته التي لا تخرج من نوع من التوازن المؤقت الذي يصعب الحفاظ عليه .



من وجهة النظر الميتافيزيقية ، وبالنسبة لجعل العمل الروائي للكتاب ، تقوم رواية «الأم» منذ البداية على تمجيد القيمة التي تجلت في عمله الروائي الآخر « زمن الاحتجاز » Le Temps du Yopris ، الا أنه بينما يقبل البطل « كاستر » Kasser الثورة برمتها ، نرى معظم المحاربين في « الأم » يتساءلون عما اذا كانت العقيدة الماركسية لا تتعارض مع الطامح الأولية التي أملت عليهم تطوهم . أو بمباراة أخرى لسان الوسائل التي يستخدمها التنظيم الثوري من أجل الوصول الى غاية محددة كثيراً ما نستلهم بالدفعة الاخوية التي حدث هؤلاء الأبطال على الانقسام الى « القضية ؟ » وانطلاقاً من هذه الملاحظة يقوم هؤلاء بالثورة قضايا المياسة والأخلاق ، والنظام والحرية وقضية الفصل الثوري : هل يسمح للإنسان بتحقيق ذاته أو الهروب من حتمية قدره ؟

على النقيض من روايات مالرو السابقة التي كانت تصور لنا بعض الأبطال الواضحى الفردية - خاصة بالنسبة لمفهومهم الحياة - فان « الأم » تقدم لنا جميعاً من الشخصيات لا يقل عن واحد وستين . ولا شك أن كل واحد منها يحمل هوية ، فهو إما فوضوي ، كاثوليكي ، شيوعي ، مثقف أو مرتزق ... ولا يهنا إلا بدوره الوظيفي الجماعة التي ينتمي اليها . ولكن بالرغم من كونهم في الغالب ، المكاساجوليا لشخصية جماعة مجردة (١) فانهم سرعان ما يكشفون لنا من شخصيتهم الفردية المؤثرة . ومن بين هذه الشخصيات العديدة ، يمكن اعتبار « مانويل » MANUEL . أكثرها أهمية ، نظراً لبروزه دائماً في الصف الأول وتواجده من أول الرواية الى آخرها ، أما بقية المناضلين فانهم إما يقتلون أو يختفون مؤقتاً من الساحة ليظهروا مؤخرًا . كذلك يعد « مانويل »

GOLDMAN, Lucien

(٦) هذا التعبير لوسيان جوليمان :

Pour une sociologie du roman, Paris, Gallimard, 1965, p. 220

ولكنه يعبر أيضاً عن وجهة نظر جديد من الكتاب ، مثل لويس جيليت

GILLET, Louis- L'Espoir in Les Nouvelles

Littéraire, 8 Janvier 1938

الذي يقول : اننا لا نأمل جيداً ، لسوء الحظ ، بين الشخصيات :

أريد أن أعرف شيئاً عن تاريخهم ، أريد أن أعرف على جراسيا هذا ، على هرنانديز ، على مانيان أو أرميندز ، ولكن المؤلف يستبعد مراسيم التقديم ويوجز في التعريف ولا يتجلى لنا إلا مجموعة من الخطب المجردة ، والأحداث الباهتة ، الآلية من أقصى العالم » .

المناضل الوحيد الذى يتضح نهجه الثورى تمامافى رواية « الأمل » فنحن نناصر فعلا تطوره التدريجى منذ كان شابا يقلد عادات « مونبرناس » MONT-PARNASSE لوربا عاطفيا مليئا بالحماس، الى ان صار ضابطا يقود فرقة من الجيش الجمهورى لم شيوميا ملتزما يسيطر على مواطنه، ان هذه الشخصية تبرهن على نظرية الرواية وهى التطور الحتمى من « الوهم الشاعرى » الى النظام كما توهم البنا بالفزى الميتافيزيقى لهذا التحول .



أولا : « وحى الأخوة »

« ان الرجال اذا اتحدوا بالامل والفعل وصلوا » مثل الرجال الذين اتحدوا بالحب ، الى ميادين لا يصلون اليها مفرقين . « (الأمل ص ٢٧٩) .

ان الأخوة الحققة تتدفق منذ الصفحات الاولى لرواية « الأمل » وتجد لها وسائل تعبير عدة مثل المصافحات اليدوية وكلمات التحية التى يتبادلها المحاربون والشعب :

« وانطلقت السيارة بين الأيدي التى تربت على الاكتاف والأيدي المرفوعة بالتحية وكلمات السلام ، وهكذا كان الليل ليل الأخوة . » (٧)

وفى مكان آخر من الرواية :

« كان النقيبون يتصافحون بالأيدي ويصيحون : « السلام » وكان هذا الجمع المنتصر يبدو متحدا بفضل هذه الصيحة كما لو كان كورسا مستمرا وأخويا » (٨) .

وكذلك :

« كانت التحية الملحة ، المهجورة ، المعتادة ، المتكررة أو الضائعة بين الحين والحين تجمع بين الليل والناس فى أخوة الهدنة » (٩)

وكان هذا الالتحام بين الجموع وبين الجمهوريين ، وهذا الاتحاد المباشر بين الشعب والمحاربين يظهر خلال الرواية كلها ويشكل خلفية الأحداث الرئيسية . وسوف نرى هذه الجموع

(٧) الأمل ص ١٧٠

L'ESPOIR, Paris, Gallimard, 1967

(٨) موضوع الجموع الذى نراه فى معظم الروايات الثورية للكاتب ، يكتب كل معناه فى رواية « الأمل » . ويطلب على هذا الجانب من الرواية :

« يوجد فى كتب الفترة الثورية أكثر من اهتمام بين البطل والشعب ، يوجد مزج بين تمجيد البطل وأسطورة الشعب » .

راجع : FICON, Gaetan Malraux par lui-meme, Paris, Le seuil, 1953, pp. 46,46

(٩) رواية « الأمل » ص ٢١٠

وهي تحتل الصدارة عندما يعود الطيارون الذين سقطوا فوق الجبال معبرين بذلك اروع تعبير عن هذا الالتحام الذي نشير اليه ، ولنا عودة الى هذا الموضوع .

ولا شك ان هذا الحماس الاخرى الذي يلهب احاسيس الجموع ينعكس ايضا المواقف الفردية للإبطال ، فلا الخلافات الفلسفية او السياسية التي توجد بين المحاربين بقادرة على كبت الشعور الذي يوحدهم ولا شيء يمكنه ان يقف امام وحدتهم التي يملها الجهود والكفاح المشترك . وعلى هذا النحو نرى ان القوضوي « بويج » Buig الذي يكره دماء المسيحية يتفجع له حينما تجعله الظروف يحارب بجوار الضابط الكالوليكي « كسيمانز » XIMENS ان الاشتراك في الفعل او النضال يلقى الكراهية ، ما دمناراهما : « اليوم وهما يحاربان معا في اخوة غريبة »

وهذا الشعور بالاخوة يوجد أيضا عند المرتزة ، وكثير منهم مثل الروس « سيبيرسكي » SIBIRSKY طلبان يحارب شهرا باجر وشهرا بلاجر « حتى لا يتقسم النقود ولا الاخوة » (١٠) . اما الألماني « شراينر » SHREINER - الطيار القديم في سرب ديشتون - فانه بالرغم من تحطيمه طائرة أثناء الانطلاق الى الجو لا يجد من زملائه الا صداقة لا حدود لها . وهكذا يبدو انه اذا « كانت الحرب تجمع بين المرتزة والمتطوعين في اطار الابداع الخيالي » فان الطيران يوحد بينهم كما توحد الاممة بين النساء (١١)

وبالنسبة لهذه العاطفة القوية التي توحد بين الطيارين فاننا نلاحظ تكرار ذكرها في الرواية ، اذ بينما كانت الطائرة التي يقودها « مانيان » Magnin تحاول خلال مهمة في مايورك ان تتفادى الانوار الكاشفة والقذائف المادية تبدو « صداقة السلاح لها كأنها - تهي جسدها بهذه الاضواء المهددة » ويلاحظ قائد السرب « انه لأول مرة منذ انطلاقهم بدأ هؤلاء الرجال يرون بعضهم بعضا » بالرغم من الظلام وما أجمل أيضا هذا الموقف الإنساني : فلقد كلف « لوكير » بتدمير طابور مدرع للفاسست ولكنه رجع الى قاعدته بلخيرته وحينما سأله قائده عن سبب ذلك تبين أنه فر هاربا وحينما حاول أن يبرر موقفه وبدلا كطفل العزيز متملشا فان قائده « فارجاس » VARGAS يلمه « مثالا لمحاولته تبرير الموقف كطفل تسلق مدرسته هربا مع طعمه ان « لوكير » لم يكن قط جباناً » (١٢)

وتجلى هذه الصداقة التي تربط بين المحاربين في مشهد آخر بين « مانيان » Magnin و « اتينير » ATTIGNIES: إذ ان هذا الأخير ، الذي يفشى من فقدان ثقة زملائه نظرا لفاسسية والده المعروفة ، يتلقى ردا رائعا من « مانيان » حينما يحاول ان يستنكر أفكار أبيه ، يقول له مانيان :

(١٠) « الامل » ص ١٢٥/٠

(١١) « الامل » ص ٦٨/٠ و ٦٩

(١٢) الامل ص ٢٤٥/٠

« الصداقة ليست في أن تكون مع أصدقائك حينما يكونون على حق، أنها حينما تكون معهم حتى ولو كانوا على خطأ » (١٣)

وفي موقف « مانويل » MAGNIN الذي لا يحتقر الفارين من « طوليطة » بل ويحاول تنظيم صفوفهم معرضا حياته للخطر ، أنه يكاد يكرر أمامهم قول « مائيان » :

« ليس من الصعب أن تكون مع أصدقائك وهم على حق بل حينما يكونون على خطأ » (١٤)
 أن صداقة السلاح ، كما يبدو لنا فلي « الأمل » تتوفق مراها بسرعة وسهولة ، هكذا لا يفترق « سيري » SIRRY و « كوجان » KOGAN منذ أن التقيا في الفسقة الدولية ويقول كوجان في هذا الصدد قولته الرائعة : « لم تربطني صداقة برجل قط في مثل هذه السرعة » (١٥)

ولا شك أن النضال يوحى للجميع بهذا الشعور ، الأمر الذي يدفع « جرسيا » GARCIA الى قول :

« أنما نسمعه مبرر الناقله ، ياسيد مائيان ، أنما هو من وحى الأخوة ، وهو جد مؤثر واثق لأنهم ذلك : هذه الأخوة أعظم الأشياء تأثيرا على سطح هذه الأرض وأتينا لأن نراها الآن نادرا » (١٦)

ولكن ما هو المعنى الحقيقي للأخوة ؟ أنها أكثر من شعور جياش يتيح للإنسان قهر وحدته ، أنها قوة ترفع الإنسان وتسمو به الى ما فوق وضعه . هي ليست ملجأ ضد الخزي ولكنها تتيح للإبطال الذين يناضلون مجتمعين ضد قوى الإذلال والاستعباد من باوغ أسمر وأكمل المشاعر النبيلة التي يحملونها بين أحضانهم ، والتي ماكانوا ليحصلوا بها لو ناضلوا فرادى . وبعبارة أخرى أن الأخوة قوة تسمو بالبشر أكثر منها قوة موحدة لهم ويقول زارع الكروم المجوز « باركا » BARCA في هذا الصدد الى « مانويل » MANUEL

« هذا هو ما أريد أن أقوله لك ، تقضي هذا ، أي الإذلال - كما يقول - ليس من العدالة في شيء . أن الفرنسيين قد فهموا حتما شيئا وعبروا عنه في كتاباتهم السخيفة على جنود مكاتب البلدية : لتقضي المضايقة هو لا شك ، الأخوة » (١٧)

إذا كانت المضايقة هي الأخوة ، فإن « كيو » KYO يطل روائية « القدر الإنساني » La Condition Humaine يعلن الى « كوينج » KONING : « الكرامة تقضي اللذة » .

(١٣) العمل الرابع قوة الأمن أن الصداقة التي تصعد أمام أخطاء الصديق ليست بصداقة

ALAIN, Props, Bibliothèque x.f. de la pleiade, 1960, p.235

(١٤) « الأمل » هذا القول يوضح مثالة « كاتو » HEMELRICH CATOH الى « هيرليخ » : « لا يجب أن نقابل الرفاق بالكر من طائفتهم »

LA CONDITION HUMAINE

(١٥) « الأمل » ص ١٨٥/

(١٦) « الأمل » ص ١٧٧/

(١٧) « الأمل » ص ٨٩/

وهكذا نرى أنه بتقريب هاتين الجملتين الآخرين يتحد معنى الأخوة مع معنى الكرامة وتصور الأخوة نفسها محل الكرامة . وهذه العلاقة بين الأخوة والكرامة يعبر عنها أيضا مؤرخ الفن « سكالي SCALI حينما يوضح « الفيار » ALVEAR أن الرجال إذا اتحدوا بأمل والفعل وصلوا ، مثل الرجال الذين اتحدوا بالحسب ، إلى ميادين لا يصلون إليها مفرقين . أن ههنا السرب في مجموعة لأعظم وأنبيل من كل فرد من المراده على حده » (١٨) .

وعلى هذه الشائكة نرى المأذوم « مورينو MORENO الذي يعرف السقوط واحتقار الذات حينما يحسبه الفاشست ويحكمون عليه بالإعدام . إلا أنه حينما يتمكن من الفرار والالتحاق بزملائه يصور لهم نفسه قائلا : « أنك ، أيها الإنسان ، مثل رجل التزم بمهود فصارت كل حياته ماضيا ولكن هاهي ذي الحياة تنفر فجأة فتتغير الحقيقة التي تنتمي إليها » ، وفي الوقت نفسه الذي يكتشف فيه هذا الوجه الجديد من الحياة بالكلف « مورينو » مع كل من يحيط به . وإن ههنا الالتلاف لقوى بمكان أن غلذلان الماضي والموت لا وزن لهما في حساب القدر بالنسبة للبطل :

« هناك شيء لم أظن اليه وأنا أقدم شابا بماركسيا ، إلا وهو الصداقة التي لا توجد إلا في الجانب الآخر من الموت » . (١٩)

ولا يكتفى « مالرو » في « الأمل » بتجديد الأخوة بين الرجال ، ولكنه سيحدد خاصية هذا الشعور وسيعرف سماته في الوقت نفسه الذي سيطلقنا فيه على تطور فكرة الأخوة ، وتحت هذا المنظر ، يمكن القول أن هناك تطورا في فكرة الأخوة نفسها ، ففكرة الأخوة كواقع لم تعد تقدم فقط كقيمة أو طريق نجاة ، مثل ما كان الأمر في رواية :

La Condition Humaine « القدر الإنساني »

Le Temps du Mepris « زمن الاحتقار »

بل إن الأخوة لتبلغ ، بفضل وجود الجماهير ، بعدا جديدا كما كان الأمر في حال نزل الطيارين الجرحى من الجبل :

استطاع فلاح من منطقة « البارسين » ALBARRICIN اجتياز خطوط العدو وأعلام هيئة أركان حرب الجمهوريين من وجود مطار فاشي ، الأمر الذي يتيح لانيان وأعضاء سربه من تعليم مستودع وقود و ١٦ طائرة ، إلا أنه في العودة تقوم طائرات الماتية من طراز « هاينكلز » HEINKELS بمطاردهم وتنشب معركة جوية فوق « ترويل » TERUEL وكانت النتيجة أن استطاع « مانيان » MAGNIN وموروس MOROS العودة سالمين إلى القاعدة أما طائرة « جارديه » GARDET فتتحطم بعد اصطافها ويقتل « سمدي العري » SAIDI ويخرج كل من « تايفير » TAILLEFER و « ميرو » MIREAUX و « سكالي » SCALI و « بوجول »

PUJOL ويشو « جاردية » GARDET . ولقد استطاع « مانيان » MAGNIN أن يحدد بصوبة مكان سقوط المصابين ثم انطلق مع فرقتين المتطوعين لاتخاذهم ..

وتم الانقاذ محاطا بمظاهر رائعة حقا ، فلقد كان الفلاحون يسرون في موكب خلف طابور الطيارين المصابين وهم ينقلون من « فالديليينارس » VALDELINARES الى قرية « لينارس » LINARES الصغيرة ، الأمر الذي عمق الالتحام - كما سبق ان اشرنا الى ذلك - بين الشعب الاسباني والحاربين الأجانب . ان العطف الساذج الذي أبداه أهل الجبل نحو الطيارين والاحترام الدني الذي احاطوا به « النقات » كانا من احدي هذه المظاهر المؤثرة التي يصعب تلخيصها ، فلنرجع الى النص :

« كانت النساء وقد انقلتها وطاة السنين تؤدي علامة الصليب عند رؤية الدم . ثم رجع رجل يده نحو « جاردية » و « بوجول » ، وأشار بذلك الى الأجساد الممددة فارتفعت جميع السواعد في صمت وهي تشير الى الطائرة المحطمة والى الأجساد التي كان ينهبها الفلاحون قد هملت » .

وأوقف « مانيان » MAGNIN نقالة « جاردية » GARDET لحظة ليتأكد من ان صديقه لم يفقد بصره وحينما يجيبه هذا الأخير انه يبصر .. يشمر « مانيان » برغبة في معانقته وهزه ، ثم :

« عادت النقالة الى التحرك وقد غاب نصف قرية « فالديليينارس » خلفها . وحينما جاوزت نقالة « سكالي » SCALI مكان « مانيان » MAGNIN تقدمت امرأة عجوز مشلوبة الرأس في مندبل اسود واعطت للجريح حساء في فتجان . كانت هذه المرأة تحمل سلة بها زجاجة حافظة « ترموس » وفتجانا يابانيا قد يكون انغمض مامنها . وتغفل مانيان فجأة حافة الفتجان وهي تندس تحت ضمادات « جاردية » وقد رفعت لذلك . فقال للمرأة : يستحسن الا تعطي من حسائها الى من جرح في وجهه . وأجابته هذه بوقار : ان هذا يمثل الدجاجة الوحيدة المتبقية بالقرية » (٢٠) .

ووصل الموكب أخيرا الى « لينارس » :

« كان حاملو الجرحى مشغولين بأحجار الطرقات وامكانية تآكل الجرحى بسببها .. من جراء اهتزاز النقات يسرون وليدا في خطى منتظمة ومتباطئة عند كل لفة ، وكان ارتفاع السير من شدة ملاعته للألم على طريق جد طويل كما لو كان يبلأ هذا الأخدود العظيم ، حيث تصبح بأعاليه المصافير المتخلفة . بضربات متتالية على طبول في موكب جنائزي . ولكن لم يكن الموت هو الذي يتلأم في هذه اللحظة مع الجبال ، انما كانت ارادة الرجال وكانت مسيرة هؤلاء الفلاحين المستمر والنساء الغالبات الرؤوس في مناديل لا يعرف لها عصر تبدو مختالة كموكب نصر جليل أكثر من اتخاطها في اعقاب جرحى » (٢١) .

و في « لينارس » وإمام وجه « جاردية » المشوه ولع الفلاحون إيديهم — تماما مثل فلاحى فالينارس — في صمت .

• • •

في هذه اللحظات لا يسمنا إلا أن نشر الكتاب جانباً حتى نتغلب بفكرنا هذا المشهد وقد نقله « مالرو » إلى السينما ... ولنحاول أولاً أن نقدم موجزًا عن الفيلم الوحيد الذى أنجزه مالرو وهو « الأمل » ليقدّمه تحية إلى الأخوة .

أنجز هذا الفيلم في برشلونه عام ١٩٣٨ ، (٢٢) أى في خلال سنة بعد ظهور رواية « الأمل » إلا أنه ليس تطويراً للرواية نفسها ولقد أطلق عليه « مالرو » تمييزاً له من الرواية اسم « سيرا دى ترويل » SIBARA DE TERULE ولقد منعت عرضه في عام ١٩٣٩ حكومة « دالاديه » بفرنسا وحاول الألمان بين ١٩٤٠ و ١٩٤٤ العثور عليه لتدميره (٢٣) ولا يظهر هذا الفيلم إلا أبان حكم دييجول عام ١٩٤٥ ، ويطلق عليه لأسباب تجارية والاستفادة من نجاح الرواية اسم « الأمل » . وموضوع الفيلم هو تقدم القوات المغربية في أول الحرب الأهلية نحو قرية لينارس . ويحاولون مناضلو القرية المجاورة « ترويل » إرسال ذخائر إلى الفلاحين المهتدين ، وكان هؤلاء قد حاولوا صنع بعض القنابل اليدوية ... ويتقدم مزارع إلى اللجنة المحلية ويقدم مطبوعات هامة عن الأراضي المعادية فيقوم القائد « مينوز MUNOZ » القابل لمانيان MAGNIN في الرواية) بتجميع الطيارين ويشرع سرب المتطوعين الدوليين في تدمير القاعدة الفاشية ، وتتحطم طائرة منذ العودة فيخرج سكان قرية من قرى الجبال لجمع المصابين ونقلهم إلى الوادى .

وإذا كنا نصحب إلى اليوم لهذا الفيلم فلا يرجع هذا إلى روعة تمثيل الممثلين ، إذا استثنينا « خوربه لادو » JOSE LADO في دور المزارع .. ولكن إلى القيمة المالية للفيلم . أن الحرب التى خاضها الجمهوريون ضد الفاشست لا تكاد تذكر في الفيلم والبسوا ثم دفعت الكناضلين إلى حماية الوطن لا يشار إليها إلا إماماً ، على العكس من هذا يركز المؤلف جل اهتمامه في الفيلم على الأخوة التى تتولد في الحرب بين الرجال وعلى موقف الفرد أمام الموت وتأثير ذلك على جموع الفلاحين . (٢٤)

(٢٢) راجع بالنسبة للصعوبات التى لاقها مالرو لتصوير هذا الفيلم أثناء الحرب

MARION, Denis Comment fut Tourné le film Espoir in Magazine Littéraire No. II. Octobre 1967

(٢٣) إذا فشل الألمان في تدمير هذا الفيلم فهم قد نجحوا في تدمير الجزء الثانى من مخطوط مالرو .

La Lutte avec l'Ange الذى لم يماود كتابته .

(٢٤) إذا كان تمثيل الرئيسين لم يكن مثقلاً فإن دور الجموع الذى قام به فلاحون وفلاحات إسبان حقيقيون كان رائعاً . ولقد قال أندريه جيت في هذا الصدد عام ١٩٤٥ لقد اكتسب هذا الفيلم الآن طابعاً ونوعاً من السوفار الواقع المأسوى . فليس به أى تناكك للوق الجموع أو كإيسلى ويجب . أنه يتميز من خلال الأحداث النادرة لإبطال الناس من خلال مواقفهم وصبراتهم وجوههم ومن خلال السهولة الجيدة لتصوير بهذا الشعور (الكائن بكرامة الإنسان ، وهذا الشعور يؤتى فيها بالتدريج الذى يفسد النساء فتراد لا ينفصلون من الأرض التى يزرعونها ، في داهين بنبالة حوقهم . اتهم فلاحون متواضعون ولكن خيرة الطائفة تردهم إلى مربية الأبطال » والشهداء » .

راجع :

GIDE, Andre-Andre Malraux, l'Aventure Humaine in Terre des Hommes, 1er December 1945

ونلاحظ أن الكاتب لم يستخدم في سيناريو الفيلم إلا حادثة واحدة من حوادث الرواية وهي الفارة التي قام بها الجمهوريون على مطار العدوالخفي والتي تبعتها حادثة سقوط الطيارين الجرحى على الجبل . أن المشهد المنقول إلى السينما يقارب في قوته التأثيرية المشهد الروائي ويثبت تماما في مخيلتنا ، إذ أنه بفضل اللونين الأسود والأبيض والتناقض اللوني بين الطيارين والجموع من جهة وجدران القرية القائمة من جهة أخرى ، ثم مسيرة الفلاحين وهم يحملون الجرحى ، كل ذلك يتخذ أماننا طابع الأبدية : « وكان يبدو أن الكوكب يفر من صمت الجبال الغريب بصوت قباقيب بين صرخة الكواسر الأبدية وصوت النواح الخفي » (٢٥) .

إلا أنه بصفة عامة ينقص هذا الفيلم بعض الأبعاد الفلسفية التي ترفع من شأن الرواية وألتي يستحيل تحقيقها خلال الزمن المتاح للفيلم ، وهذا ما لاحظته الكاتب حينما كتب في « محاولة في سيكولوجيا السينما » : « يبدو أن الرواية تتميز عن الفيلم بميزة عظيمة وهي القدرة على استكشاف سرال الشخصية » (٢٦)

وأنه ، بلا شك ، من طريق اكتناه بواطن الشخصيات يستطيع الكاتب في رواية « الأمل » أن يكشف لنا عن « ثنائية » الفعل ، لأنه إذا كانت الثورة تتيح لأبطالها هذه الدلعة الجياشة التي تغير من شخصهم وتسو بها ، فهي أيضا حركة سياسية لابد لها لكي تصل إلى أهدافها ، من تنظيم ومن خطة لا علاقة لهما بمصير هذا البطل أو ذاك .



ثانيا : من الحماس إلى النظام

« أن أي فعل لا يمكن أن ينتج إلا باتفاق مثله ، وحينما تصدق مؤيديهم إلى أقصى درجة فإنهم لن يتفكروا إلا على التنفيذ السريع للأوامر ولن يكون لأي تابع أمكانية الحكم أو المناقشة » . (آلان : أجايت ، ص ٦٢)

إن عالم الإجناس « جرسيا » GARCIA يعبر لأول مرة في رواية « الأمل » عن ضرورة التنظيم العسكري . وكان « جرسيا » قد صار رئيسا للاستخبارات العسكرية بعد مرور شهر من الحرب وأخذ يناقش الأحداث الأخيرة مع « فارغاس » VARGAS ، و « مانيان » MAGIN أنه يقول لقد أحرز « الدوليون » نصرا عظيما في « ميدلن » MEDELLIN وخسر الجنسالات المتمردون محاولة انقلابهم بسبب البطولة التلقائية للشعب . . ولكن بالرغم من ذلك ، وبينما كان سرب « مانيان » MAGIN ، يلقي على « بداخوز » BUDAJOS أملاما تحمل ألوان الجمهورية استغل المفارقة فرصة حماس الجماهير ونشوتها للاستيلاء على المدينة ، ومن ثم شرع « جرسيا » GARCIA يؤيده « فارغاس » VARGAS ذو الخبرة الفنية ، يشرح للقائد أن حركة شعبية مثل حركتهم لا يمكن أن تستمر إلا إذا دخلت في إطار تنظيمي ، ويضيف موضحا :

« نحن نمثل الشعب ، أجل ، ولكن الثورة ، لا ، بالرغم من أننا لا نتحدث إلا عن هذا . اننى اسمى ثورة نتيجة تمرد تقوده كواد (سياسية . غنية . وكل ما تريد) تمرست بالنضال وقادرة على الحلول محل الكواد التى حطمتها » .

باختصار ، يختم « جرسيا GARCIA حديثه بقوله « من الآن فصاعدا ، لا يوجد تحول اجتماعى وبالأحرى ثورة من غير حرب ولا توجد حرب من غير فن أو تقنية (٢٧) » ، وحينما يحتج « مانيان MAGNIN قائلا بأن « القوى المعنوية » ضرورية وأن حماس الشعب بشكل جانبى ايجابيا يرد عليه « جرسيان » بأن « دفعة الأخوة » لا شك من اعظم الأشياء المؤثرة في العالم ولكنها غير قادرة على الحفاظ بالنصر إلا بواسطة تقنية تقابل وسائل العدو :

« وهى الأخوة يريد كل شيء وفى الحال ، ولكن الثورة لا تحصل الا على القليل تدريجيا وبصعوبة . والخطر المائل هو ان كل رجل يحمل في قلبه رغبة أو باعنا على الأخوة ، إلا ان هذا الشعور يمكن مع مضي الوقت ومع استمرار النضال ان يكون مصدرا هزيمة لسبب بسيط هو ان شعور الأخوة ، كشمور في حد ذاته ، لا مستقبل له ، حتى ولو زعم انسان ان له مستقبلا . ان وظيفتنا التواضعة ، يا سيد « مانيان » ، هو تنكيم هذا الشعور » (٢٨) .

الإخلاص والسياسة – المتفانون والفعل

« اذا هاجم الثورة « مثقف » ثورى ، فهذا يعنى دوما وضع السياسة الثورية موضع التساؤل باسم اخلاقيات » . (الأمل ص ٢٢٤)

على شعور الأخوة اذا أن يتحول « والا لفي عليه بالفناء » ، أى عليه أن يتجسد في قوانين التنظيم الثورى . ربما ان الثورة فعل ، « فالفعل لا يمكن تصويره الا في إطار الفعل (٢٩) » . وهكذا ففي اللحظة التى يقرر فيها الإبطال النضال ضد الفاشية ، يجب أن يكون همهم الوحيد هو قيادة النضال بأكثر الوسائل فعالية . وبما أنه « لا توجد خمسون طريقة للكفاح » ولكن واحدة وهى « أن تكون منتصرا » (٣٠) ، فإن الإبطال عليهم أن يختاروا حتما اما التضحية بالفعاية في سبيل المثل الأعلى واما بالمثل الأعلى في سبيل القعاية .

وفى بعض الأحوال ، يكون ، الاختيار صعبا ، وخاصة بالنسبة للمتقنين لأنهم رجال يحسون « بالفروق الدقيقة ، بالكيف ، بالحقبة المجردة وبالطابع التركيبى للأشياء » (٣١) ولهذا السبب كثيرا ما يرفضون الانخراط في الثورة لأنها – فى نظرهم – لا معنى بالقيم « الأساسية » للإنسان .

(٢٧) الأمل ص ١٠٤/٠

(٢٨) الأمل ص ١٠٧/٠

(٢٩) الأمل ص ١٨٧/٠

(٣٠) الأمل ص ٢٣٩/٠

(٣١) الأمل ص ٢٣٥/٠

يعبر « ألفيار » ALVEAR المعجوز ، في المشهد الوحيد الذي كرم له ، على موقف المثقف ، إذ حينما يحاول « سكالى » SCALI مكلفا من قبل ابنه « جيم العيار » JAMES ALVEAR أن ينقله من مدريد ، يرفض المعجوز مغارقة كتبه ففقد عاش حياته كلها في الفن ومن أجل الفن ولا يقبل لاية قوة أن تنتزعه من ماله هذا ، وإذا حاول المغاربة أو فيما بعد الجمهوريون قتله ، فإنه لن يقاومهم « احتقاراً » كما يؤكد ذلك لسكالى . ويقول لمنقلده أيضاً : أنهم سيجدوننى مثل الآن في مكتبى ، و « هل من الصعب حقاً ، يا سيد سكالى ، أن نتنظر الموت (الذى قد لا يأتى) ونحن نشرب في هدوء ونقرأ أشعاراً بديمة » ، ثم يتناول ديواناً لكييفدو ويقرأ بصوت عال :

« ماذا تريد هذه الخشية ، خالية التمثل ، هذه الخشية التى تتولد من تفاهات الحياة ، والتسى تغدبهما الروح بتقواهما » (٣٢)

ان « ألفيار » غريب عن الثورة بالقدر الذى يعتبرها تقوم هى أيضاً على التعصب أو على عقائد لا تقبل الجدل ، فهو يقول لسكالى : ما فائدة عبودية اقتصادية أقل إذا اضطر الانسان لتحقيقها الى تقوية العبودية السياسية والدينية والبوليسية ؟ (٣٣) ان الحرب تبدو للرجل المعجوز كما لو أنها خلقت لتنزح أوهام المحاربين : فالثورة ، بالنسبة لكثير من الناس ، للعب نفس الدور الذى كان يلعبه قديماً العالم الآخر أو الحياة الأبدية .

« ان بداخل الانسان أملاً فظيحاً وعميقاً ، أمل الذى ادين ظلماً ، أو الذى لم يلق الا هباً وجحوداً وجبناً في هذه الحياة ... انه يود أن يعيد الكرة مرة أخرى ... » (٣٤)

غير أن المناضلين سوف يلحظون ان عاجلاً أو آجلاً ان أى حل جماعى لا يعنى الانسان من المجهود الخلقى ، فمن الضروري ، كما يقول « ألفيار » ان تكون علاقات الرجال علاقات « انسانية » والا تكون محكومة بالموقف السياسى وان يكون الفرد « مسئولاً أمام نفسه » (٣٥) ، وليس أمام قضية مهما كانت سامية . ان « ألفيار » يفسح قبل الأحزاب والتفتيات والتنظيمات ضرورة المجهود المتجدد دوماً والذى يبذله الانسان للسمو بذاته :

« ان الأمل الوحيد الذى تعقده اسبانيا الجديدة على نضالكم ، انت وجيم وكثيرين آخرين هو أن يبقى ما حاولنا أن نعلمه للناس طوال سنين عديدة .. »

— ماذا تعنى ؟ سأل سكالى .

فالتفت المعجوز « ألفيار » وقال بلهجة الحصرة :

(٣٢) الأمل ص ٣٣٧/٠

(٣٣) الأمل ص ٣٣٧/٠

(٣٤) الأمل ص ٣٣٨/٠

(٣٥) الأمل ص ٣٣٨/٠

— قيمة الإنسان .. « (٣٦)

الا أنه اذا كان « الفيار » يريد الدفاع من القيم « الأساسية » ضد متطلبات الفعل الثوري
واذا كان لا يثق في الثورة فلا يرجع ذلك فقط الى أسباب أيديولوجية ، ان موقفه يتضح لنا
في آخر حديثه حينما يقطع « سكالي » كلام الأستاذ السن ويسأله : « هل تعتقد ان «جيم»
قد اخطأ في اختيار النضال ؟ »

فيرد « الفيار » : « ايه ! فلتكن الأرض غاشية ولا يفقد ابني نظره .. » (٣٧)

هكذا يتضح لنا ان موقف « الفيار » تجاه الثورة انما يرجع الى ان واقع الفعل الثوري
قد انتزعه من عالمه انتزاعا حينما أتت رصاصة على نظر ابنه في إحدى المارك . انه يشبه
شخصية « جيرور » Gisors في « القدر الإنساني » La Condition Humaine أي انه
يراقب الحرب من بعيد ولكن حينما تمسه الأحداث يفقد بصيرته ويدفعه الألم الى اساءة
الحكم ، ولقد أشار « مالرو » الى ذلك بطريقة غير مباشرة حينما أنهمنا أن « الفيار » لم يعد
يثق في شيء أو في أحد بعد ان فقد الأمل اذ حينما يخبره « سكالي » بأن الأطباء يؤكدون
امكانية شفاه ابنه — وجيم سوف يشفى فعلا — يصبح :

« انهم يكذبون على أي ضابط في هذه الآونة ! »

مخافة أن يقال عنهم انهم فاشست لو قالوا الحقيقة ،

هؤلاء الحمقى ! « (٣٨)

سوف يسيطر هذا الحوار مع « الفيار » على بلال « سكالي » طويلا ، اذ ان الجانب
الشمولي للفعل . الذي بدأت تؤكد تجربته الشخصية ، بدأ له كما لو انه يحقق تنبؤات
الرجل المعجوز ، ولقد أوضح من خواطره أمام « جوسيا » الذي قال له :

« لا أعرف أي كاتب قال : اننا مسكون بالبحث مثل مقبرة قديمة .. ونحن منذ أربعة
شهور مسكونون جميعا بالبحث ، أي سكالي ، جميعا ، على طول الطريق الذي يقود من الأخلاق
الى السياسة . اذ ان بين كل رجل بفعل وبين ظروف فطه صراعا دمويا ... وهناك حروب
عادلة — مثل حربنا في هذه الآونة — ولكن لا توجد جيوش عادلة وتوجد سياسة للعندالة
ولكن لا يوجد تنظيم عادل . » (٣٩)

ويعد أن فكر « جوسيا » في حالة « أونامونو UNAMUNO الذي يرفض التطوع
ويتفرع أمام الفريقين بالأوامر الخلقى ، يقول : « اذا جأني مثقف ، أي رجل وظيفته التفكير ،

(٣٦) الفصل ص ٢٨٠/

(٣٧) الفصل ص ٢٧٩/

(٣٨) الفصل ص ٢٨٠/

(٣٩) الفصل ص ٢٣٩/

ليقول لي مثل « ميجل » : « أنا أترككم لأنكم لستم عادلين » ساجد هذا الموقف لا أخلاقيا ، يا صديقي العزيز ! » (٤٠)

« معارضة » أونامونو « إذا معارضة خلقية » (٤١) . ومثله يوضح طبيعة الصراع الذي يوجد بين المثل الأعلى الثورى وبين الوسائل المستخدمة لتحقيقه : « وهى وسائل تستبعد تلقائيا الخلق من نطاق الفعل ، لأن الخلق بطبيعته ضد الشائبة :

« كل وسائل الفعل نتائية لأن كل فعل لئالى الطبيعة . وكل لورى لئالى وكذلك كل سياسى . » (٤٢)

وبعبارة أخرى ، ولكي تلخص وجهة نظر « جرسيا » نقول :

ان « الأخلاقية » بالنسبة لرجل ملتزم هى قبوله الظلم باسم العدالة ، او تخليه عن العدالة مخافة قليل من الظلم او لون آخر من الظلم ، وعلى الثورى الحق أن يخفض لمنطق الأحداث وأن يستفيد منها حتى ولو كانت هذه الأحداث تتعارض مرحليا مع مبادئه العقائدية .



الكيونة والفعل ،

« اذا اردنا ان تكون الثورة اسلوبا للحياة من اجل ذاتها فانها تصير حتما طريقة للموت . » (الأملى ص ١٧٦)

ما فائدة الثورة إذن « حينما لا تصلح من حال الناس ؟ » يتسامل بقلق القائد الكاثوليكي « هيرنانديز » HERNANDEZ فهو مثل كل أسباني يتعيب فكرة الموت ويخشى كل ما يعرّض فكرة « خلاصه » وخلص أمثاله للضياع ، ولذلك فإن ما يضعه موضع التساؤل هو بالذات قدرة الثورة على حل المشاكل الفردية للمحاربين . إذ أنه اكتشف أن الثورة « تجهل آلاف التمهيدات التى أخذتها على عاتقها » وأنه ليس على الرجال أن ينتظروا منها « حل مشاكلهم » وهنا يظهر جرسيا GARCIA من جديد ، حينما يمتزف له « هيرنانديز » بقلقه ، ليشرح ضرورة التنظيم الثورى وضرورة التفرقة بين المسائل الخلقية والمسائل السياسية :

« هيرنانديز » .. فكر فيما يجب أن يكون بدلا من التفكير فيما يمكن أن نفعله حتى ولو كان ما فى مقدورنا أن نفعله ضئيلا . ان هذا الموضوع سم بلا دواء - كما يقول جويا - وهو موضوع خاسر مسبقا بالنسبة لكل انسان وموضوع لا أمل يرجى منه يا صديقي الطيب .

(٤٠) الأملى ص ٢٢٨/

(٤١) الأملى ص ٢٢٧/

(٤٢) الأملى ص ٢٢٥/

اذ ان الكمال الخلقى ونباله النفس مسائل فردية لا تتدخل فيها الثورة بطريقة مباشرة وللأسف ليس هناك اتصال بين الاثنين بالنسبة لك الافكرة التضحية بذاكك » . (٤٣)

الا ان « هيرناندير » لن يقبل قط من ، جانبه ، ان يفرق بين ما يجب ان « يكون » وبين ما يستطيع ان « يفعل » . ولذلك حينما يحاصر الجمهوريون منطقة « الكوار » ويطلب منه قائد فاشي توصيل بعض الخطابات الى زوجة « موسكاردو » MOSCARDO يقبل « هيرناندير » هذه المهمة من طيب خاطر ، الأمر الذي يعجز زملاؤه .

غير انه يشرح لهم انه يفعل ذلك من كرم انساني لان زوجة « موسكاردو » مريضة .

وبعد ذلك نرى هذا البطل ، المسئول عن الدفاع عن مدينة « توليد » وهو يضمره الاسى حينما يرى الجنود يهرون امام هجوم القوات المهربة ، انه سوف يتحمل الى النهاية مسئولياته كقائد وسوف يسمى مؤخرته بواسطة مدافع رشاش :

« بدأت مؤخرة الجمهوريين تتقهقر بفيرانتظام بينما كان بعض زملائهم يداسون بالأقدام . اما « هيرناندير » فما عاد يفكر في شيء ، لقد اخل يشد مدفعه على كتفه وكان في تصام السعادة » . (٤٤)

واستطاع « هيرناندير » بفضل حركته الفعالة أن ينسى مؤقتا مأساته ولكنه سرعان ما يجرح ويؤسر ، وفي السجن لا تساء معاملته لانه تولى ارسال خطابات « موسكاردو » ، الأمر الذي يزيد من امتناضه .

ونراه بعد ذلك وقد تسلط عليه الملل والتشاؤم اللذان يحولان بينه وبين الهرب — مثل زميل له — حينما يقاد الى منصة الإعدام ، انه « متعب لا يرى للحياة طعما .. أيجري من جديد ... ومرة أخرى ... » . (٤٥) ان الموت فقط يمكنه ان يحرره من قلقه وعندئذ ينظر الى « الأرض بشهوة ويقول : اينها الأرض الميتة الا يوجد ملأ وسام الا لدى الأحياء .. » (٤٦)

وهكذا يجد البطل — بأسلوبه الخاص — « طريق خلاصه » . لقد بلغ المرحلة الوجدانية التي وصل اليها « جارين » بطل رواية « الطريق الملكي » في لحظة مفادته للصين : الثورة سستم او لن تتم ولكنه لن يكون أحد روادها . الا انه مع ذلك ، في لحظة الموت ، يعود بذاكرته الى محادثته مع « جرسيا » ويبدو انه يصبو رأى هذا الأخير : هل كان « كرما » حملته لخطابات العدو ؟ :

(٤٣) الأمل ص ١٨٧/٠

(٤٤) الأمل ص ٢١٥/٠

(٤٥) الأمل ص ٢٢١/٠

(٤٦) الأمل ص ٢٢٤/٠

« ما معنى هذا ، ما معنى تبالة الخلق في عمل مثل هذا ؟ الشهامة ؟ ... ان الشهامة هي ان تنتصر » (٤٧)

ان اسدام « هيرنانديز » HERNANDEZ الذي يختم به الكتاب الجزء الاول من روايته لبائع التمير لانه يجسد نهاية «الوهم الشاعري». فهذا الصراع بين الاخلاق والسياسة ، بين الغاية والوسائل ، بين الدفعة الثورية المشبعة بحب الناس لذاتهم ، وبين ضرورة تقييمهم بمعيار منفعتهم (٤٨) ، كل هذه التناقضات التي ولدتها ظروف المعركة نفسها تلتقي في احدى اسماء الجزء الثاني للكتاب وهو : « الكينونة والفعل » عنوان يذكرونا بصيغة « جرميا » GARCIA حينما قال :

« ان الشيوعيين يريدون فعل شيء ماء ، اما انتم المثاليون والفوضويون ، تريدون لاسباب مختلفة ، ان تكونوا شيئا ما ... » (٤٩)

واذا كان هناك جدال دائم بين الفوضويين واتباع « لينين » ، فذلك مرده الى ان الفوضويين يريدون الفكاهة من التزامات العمل المنظم الذي لا ياتي بنتائج ملموسة الا في المدى الطويل . بالنسبة لهم ليست الثورة الا انفصلا يسمح لهم بان يحققوا « كينونتهم » وبان يحصلوا في الحال على ما يتوقون اليه : الاخوة ، الكرامة والحرية . ولا يهمهم بعد ذلك النتائج السياسية للصراع ، فالهم هو التحمس ، هو هذه الشئوة التي توصل اليها المعركة . وعلى هذا النحو ، يحاول « النجوس » LE NEGUS ان يفسر الامور للمصحف الامريكي « شاد » SHADE بان هدفه « طليطة » :

« اذا كنا قد سحقنا هنا وفي « مدريد » ، فان الرجال قد عاشوا يوما بقلوبهم ، اتفهم ذلك ؟ فبالرغم من البغضاء هم احرار ولم يكونوا كذلك قط . اننى لا اتحدث عن الحرية السياسية ، وانما عن شيء آخر ! اتفهمنى ؟ » (٥٠)

وفي مكان آخر يضيف « النجوس » :

« لا داعي لنسج الروايات ، فالانظمة صنعت للرجال وليس الرجال للانظمة ونحن لا نود اقامة دولة او كنيسة او جيشا . اتنا نريد ان نصنع رجالا » (٥١)

صنع الرجال ، « الكينونة » ... افكار يعبر عنها أيضا « بويج » PUIG وهو متطوع من

(٤٧) الامل ص ٢٢٤/٠

(٤٨) لتلاحظ ان هذا الصراع كان موجودا في رواية « القزاة » اذ كان « جارين » يولم « بويودين » على معاملة الرجال كأنهم « الات » وعلى رابته في « صنع نواد كما يصنع فورد السيارات » :

(٤٩) الامل ص ١٨٦/٠ - لتلاحظ أيضا انه ، منذ رواية « القزاة » كان ماثرو يقارب بين التثاليين (تشينج - داي) وبين الفوضويين (هونج) : وكلاهما يكونان برغم اختلافهما متقبة امام التحرك الثوري .

(٥٠) الامل ص ١٧٥/٠ + ١٧٦

(٥١) الامل ص ١٧٨/٠

منطقة «كاثالونيا» . لقد قام «بويج» أثناء تمرد «برشونه» بدفع سيارة ضد مدافع العدو واستطاع أن ينجو من هذه العملية الجريئة ، وفي هذا الصدد كتب المؤلف :

« بالرغم مما كان يعرفه من باكونين ، كانت الثورة في نظره انتفاضة شعبية ، وتجاه عالم بلا أمل كان لا يتوقع من الفوضويين الا ثورات مثالية ، لذلك كانت كل مسألة سياسية تحل بالنسبة له بالجرأة ولبات الخلق » (٥٢)

ولكن الفوضويين حياتهم قصيرة ، ففي محاولة أخرى مثل الأولى ضد الحواجز الفاشية لتي «بويج» مصرعه ... وبذلك حقق ما يصبوا اليه : أن يموت « باسم طريقة ممكنة » بعد أن يعيش يوما « بكل أحاسيسه » ولا شك أن هذا الطمع العظيم بالنسبة للفوضوي نوحا من «اللا قدر» ويقول «لو نيجوس» وهو يفكر في «بويج» على الأرجح : « أن الرجال المصممين على الموت ، ينتهي بنا الأمر بأن نشهر بمروهم » (٥٣)

أن ما يمتبه «لويجوس» — التكلم باسم الفوضويين في الرواية — بالاختص على الشيوعيين هو بالضبط «خط» العمل الذي يحدده الحزب ، والذي يمنعه حينما تمنح الفرصة من إنجاز أعمال بطولية مثل عمل «بويج» . وفي هذا يقول حكمة : « أن الذي يخشى الموت ليس ضمهيه مطمئنا » (٥٤) .

أنه يعتبر الشيوعيين غير مخلصين للقيم التي يدافع عنها الجمهوريون ، بينما هم ، النوضيون ، لم يكفوا قط عن خدمة هذه القيم منذ ثورة «الأسستوري» - Les Asturias :

« أن يكون الإنسان ثوريا ، بالنسبة لكم ، هو أن يكون خبيثا . ولكن بالنسبة لباكونين وكرويتوكين لم يكن الأمر كذلك بالمرة . انتم اكلتم الحزب . اكلتم النظام : وبالنسبة للشخص الذي لا ينتمى اليكم لا تعاملونه بامانة أو واجب . انتم لم تمودوا مخلصين . اما نحن فقد قمنا منذ ١٩٣٤ ، بسبعة اغرابات للتضامن فقط مسح الآخرين وبدون أي هدف مادي » (٥٥) . ويرد «براداس» PRADAS الشيوعي مندثلملى «النيجوس» LE NEGUS قائلا : « بصراحة انه من الأفضل أن تكون غير مخلصين على أن تكون عاجزين » فالفوضويون ، في رايه ، حتى ولو كانوا « مستعدين للموت » لا يمكنهم أن ينجحوا الثورة الاسبانية لانعدام النظام بينهم . أما الشيوعيون فلقد ألبتوا ، حسب قوله ، أنهم الوحيدون الذين استطاعوا استغلال الظروف في « بناء » الثورة ، ويقول . مستندا الى حجج «جارسيا» GARCIA التي نمرها :

« لقد سيدنا دولة ثورية وهنا تكون الجيش عمليا يصفائنا الحميدة وبميوئنا والجيش هو الذي سينتقل الجمهورية والبروليتاريا » . (٥٦)



(٥٢) الأم ص ٢١٠

(٥٣) الأم ص ١٧١

(٥٤) الأم ص ١٧١

(٥٥) الأم ص ١٧٧

(٥٦) الأم ص ١٧٧

يتضح من هذا أن الحزب الشيوعي هو إحدى الوسائل التي يجدد استخدامها في الدفاع عن : قضية الجمهورية ، أنه إحدى الحقائق الواقعية التي تتبلور حولها الثنائية بين « الكثيونة » و « الفعل » . إلا أنه يتبقى مع ذلك الوسائل التي يستعملها هذا الحزب تشبه كثيرا ما قامت ضده الثورة ، ومن ثم سوف يتجاوز الصراع حول مفهوم العمل الثوري الخلاف بين الفوضويين والشيوعيين أو حتى بين المثاليين والشيوعيين ... وعلى هذا فالثورة ليست غير مكلفة بحل المشاكل الفردية للمناضلين فحسب ، بل إن كرامة هؤلاء تظل معلقة حتى تحقق الأهداف .

وهكذا نرى « مانيان » MAGNIN الواسي بدوره الرئاسي مضطرا إلى اطاعة أوامر المنظمة وطرد « شرايبر » SCHREINER الذي يشك في كونه مرشدا فاشيا . إلا أنه بالرغم من اعترافه بفعالية الوسائل الشيوعية يعتب بمرارة « آينريك » ENRIQUE أحد زعماء الحزب ، لا الإنسانية أوامر ، ويمتقد - كما يعتقده « النجوس » - بأن الرجال لهم الأسبقية على الحزب (٥٧) .

غير أنه في آخر الرواية سوف يحير جوابا أمام « جرسيا » GARCIA حينما يذكر هذا الأخير ، أثناء تقريره لنتائج الأحداث ، جملة « لجيرنيكو » GUERNICO : « الشيوعيون لهم كن فضائل الفعل - وهذه الفضائل فقط » ويضيف : « ونص في هذه اللحظة نحتاج إلى الفعل » (٥٨) .

إن « مانيان » لا يستطيع أن ينكر هذه البنية : « الفعل لا يمكن تصوره إلا في إطار الفعل ... » .

« فالفعل هو الفعل وليس المدالة » (٥٩) .

موقف « مانيان » MAGNIN تجاه الثورة يذكرونا بموقف « روبرت جوردان » ROBERT JORDAN في رواية « همنجواي » : « لمن صدق أجراس الموت FOR WHOM THE BELL TOLLS فهو مثل هذا الأخير يترك فكره » معلقا « (٦٠) إلى أن تنتهي الحرب ويمكن أن ننسب إليه ، ما يكتبه همنجواي عن بطله :

« كان تحت حكم الشيوعيين خلال فترة العمليات. وهناك أسبانيا كان الشيوعيون يعيشون الفصل نظام وأقلبه واسلمه لتابعة الحرب ولقد قبل قيادتهم لمدة العمليات لانهم ، في قيادة الحرب كانوا يشكلون الحزب الوحيد الذي يمكن احترام « برنامجهم ونظامه » (٦١)

إن المخرج الوحيد الذي يتبقى إذا أمام المحاربين هو تطوع أنفسهم لضرورات الفعل وقبول أوامر المنظمة والاعتراف بأسبقية النظام العسكري ... حتى ولو كان ذلك أيضا يناقض المبادئ

(٥٧) الأصل ص ١٢٨/٠

(٥٨) الأصل ص ٢٧٧/٠

(٥٩) الأصل ص ١٤٠/٠

(٦٠) همنجواي ، في طبعة فرنسية :

E. Hemingway. Pour qui sonne le glas, éd. Heinmann 1968, p. 218

(٦١) همنجواي ، الطبعة المذكورة ص ١٨٠/٠

التي دفعتهم الى التطوع . وكما سيكتب « مالرو » بعد ذلك في « الالامذكرات » Les Antimemoires « انه منذ اللحظة التي يتبنى فيها المناضل قضية ، فان هذا الاختيار يتضمن في حد ذاته قبول منهج ما وتنظيم ما :

« اذا كانت الحركة مربطة بالخلق ، فكل شخص يعرف ذلك ، الا انه قد لا يصرف ان الحركة تتضمن تنظيمًا خاصًا للفعل على السلي اختار النضال ان يقبله في نفس الوقت » . (٦٢)

البرور اذا من حالة الحماس الى النظام ، ومن القوة الشعبية الى التنظيم التكتلي يفرغ نفسه لنصرة قضية الجمهورية ، وليس الامر الآن ان يكون الرجال شيئًا ما ولكن ان يفعلوا شيئًا ما ، حتى ولو كانت الاساسة التي يشترك فيها الحاربون تتصل بماساة اخرى روحية . وهكذا يتكون الجيش الجمهوري ، جيش الشعب الذي لم يكن موجودًا في البداية ، من خلال الالام والتضحيات حتى يصير اداة علمية منظمة يتيح للجمهورية الانتصار في موقعة « جوادالخرا » GUADALAJARA . وهذا حادث جلل يصوب رأي الذين اختاروا تحقيق الحرية بواسطة النظام .

ولكن ما مصير العلاقات الانسانية في داخل الاطار التنظيمي للجيش ؟ والى اى مدى يبرر هذا النصر الاخير اختبار الرجال ؟ علينا في هذا الصدد ان نتبع « مانويل » في طريقه الثوري حتى نرى الى اى حد يمكن ان يلتقى الالتزام الواهي بالفعل مع السمي الميتافيزيقى او الروحى للمناضل .



ثودية « مانويل » واثار الفصلية .

« ان الشجاعة ابر ينظم ، يعيا ويموت ، وعلينا ان نعتي بها كما نعتي بالبنادق ... ان الشجاعة الفردية ، ليست الا مادة اولية طيبة للشجاعة القوات ... » (٦٣)

منذ الصفحات الاولى للكتاب ، يقدم لنا المؤلف شخصية « مانويل MANUEL » كشاب يوهيمى عين في وظيفة مساعد « لراموس RAMOS » سكرتير نقابة عمال السكك الحديدية ، في المقر المركزى للهاتف بالحطة الشمالية في مدريد . وكان « مانويل » قبل ان يخرط في جماعة الجمهوريين مهندس صوت في استوديو سينمائي اسباني ، موسيقيا هالما بفنه ورياضيا يمارس بانتظام التزلج على الجليد ، ونراه في بداية الحرب يقود حرب عصابات بطريقة رومانسية واضعة بجانب « راموس » و « باركا BARCA » ومثل جميع الحاربين نراه مفتونا بالاخوة الشامرية التي تفتق بين زملاء السلاح ، مكرسا كل همهم فكره الى قضية الجمهورية . واكبر دليل على مشامره الجياشة بالاخلاص هو تخليه الحزب من « سيارته الصغرة العزيزة » التي اشتراها ليهذب بها الى جبال السيرا حيث يعطرس هواية التزلج على الجليد ، وبفقده هذه السيارة التي

كان جم التعلق بها ، شعر فجأة بنوع من اللامبالاة نحوها : « لم تعد هناك سيارة ، وكان هناك هذا الليل المحمل بأمل غامض وغير محدود ، هذا الليل الذى يجد به كل انسان ما يشغله على وجه هذه الأرض » . (٦٤)

ولكن بسرعة ، ومع تدرجه فى السلك العسكري ، تعود « مانويل » أن يسيطر على « شعور الإخوة » وأن ينظمه ...

وهناك حادث فى أول الرواية يوم الينا بهذا التحول فى شخصيته : إذ بينما كان يشاهد منظر لفلّاح شاب وهو يخضب أصبعه بدم جندي مقتول ثم يكتب على جدار بحروف كبيرة « الموت للفاشيين » ثائر جدا واعتبر هذا المشهد نقطة تحول فى التزامه الثورى : « شيء ما تغير فى داخلى ، ولبقية حياتى ، قال لراموس ، شعرت ، أمام الشخص الذى يكتب على الجدار ، بأننا مسئولون » . (٦٥)

منذ هذا اليوم ، فهم أن بناء اسبانيا الجديدة لن يتم إلا بتضحيات جسام من هذا المعسكر وذلك .

وكان رقية العسكري سريعا ، إذ فى خلال شهرين من بداية الحرب ، يصفه حربه تحت قيادة الكولونيل الكاثوليكي « يمينز XIMENES » ليتعلم فن القيادة : وبدأ « مانويل » الذى لم يكن منظما من حب فى الطاعة أو رغبة فى القيادة ولكن بالسليقة واحساسا بالفعالية ، يتعلم كثيرا بفصل « النظام الفكرى » الذى يتميز به . أن « يمينز » وكان متشددا حتى فيما يتصل بمسئولياته الخاصة ، قد بدأ بتقنيته خط السير الضرورى للزعيم الثورى وطبيعة العلاقات التي يجب أن تربطه برجاله :

« قريبا سوف تكلف انت نفسك بتكوين شباط جدد . سوف يطلبون المحبة وهذا امر طبيعي بالنسبة للانسان ، ولا افضل منه ولكن بشرط أن تفهمهم هذا : أن الضابط يجب ان يحب لطبيعة قيادته - حينما يكون دقيقا ، فعلا وممتثرا - لا بسبب خصائص أو مميزات شخصية . انهمنى ، يا ولدى ، حينما أقول لك أن الضابط لا يجدر به قط أن يلجأ الى الجاذبية ! »

وفهم « مانويل » ، الذى كان يصنف باحترام ، أن « اعظم اقدار الانسان هو أن يحب من غير أن يلجأ الى الجاذبية » (٦٦) ، ولكنه سرعان ما تبين له أن هذا ايضا « من اصعب الاقدار » كما تنبأ بذلك « يمينز » .

ثم طفت عليه مشاغل القيادة الى أن صار « كولونيلا » ولم يعد يهتم بما « يكون الناس ، ولكن بما يفعلونه » (٦٧) ، وعلى هذا النحو أمر بأعدام جنديين من فرقته بتهمة التعاون مع العدو ، وأن كانت خيانتهم لم تثبت بشكل قاطع ، إلا انه لم يعد يستطيع أن يفكر بطريقة أخرى .

(٦٤) الاصل ص ١٩٠

(٦٥) الاصل ص ٨٢٠

(٦٦) الاصل ص ١٥٢٠

(٦٧) الاصل ص ١٤٧٠

ونراه حينما يخرج من المجلس العسكري وقد تعلق به المتهمان والتفا حول ساقيه طالبين العفو ، متخبطا بين شعوري التفات والاستنكار وغير قادر على القول أو الفعل : فهو لم يكن يقدر أن الحكم بالإعدام يقود الناس إلى الترجي والى الضغط على النفس ، بالنسبة للحاكم ، لمقاومة هذا الترجي ، وحينما يكشف له الضوء برهة من وجه مجهول إلى هذه اللحظة ، يبدأ بلمس فيه « الوجه الأبدى أن يدفع دائما . . . » - « إذن ، لم تعد تنطق حرفا من أجلنا » صاح الجندي (٦٨) . وتبين « مانويل » فجأة أنه طوال المشهد لم ينس بكلمة ، فهو « لم يشعر قط بحساسية الاختيار إلى هذه الدرجة بين النصر والشفقة » (٦٩)

لقد أهدم الرجلان و « مانويل » واثق من أنه أدى واجبه ، إلا أن ذكرهما وهما ملتفتين حول ساقيه ما زالت تعاوده . أنه لا يستطيع الرضوخ إلى الوحدة التي تفرضها عليه قيادته ويهتوف « ليمين » بقلقه :

« اننى اتحمل مسؤولية هذا الإعدام ، فلقد تم لانتقاد الآخرين . رجالنا ، ولكن اسمعنى : لم يكن هناك حد تجاوزته من أجل فعالية أكبر وقيادة أفضل إلا وإبعدنى أكثر من الرجال . اننى أשמع بأن كل يوم أقل إنسانية » (٧٠) .

ويحاول « يمين » أن يواسيه وأن يجد لمبررات : « الإنسان صغير جدا » لكن « يفعل ولا يفقد شيئا من الأخوة » ، ولكن هناك - لأشك - تعويض : « فإن ما يفرق بينك وبين الرجال يقرب بينك وبين الحزب .. » وكان « مانويل » يفقد هذا الاعتقاد ، ولكن يتوجس أحيانا نظرا لتجربته المريرة . « تقرينا من الحرب لإيجاد شيئا إذا بعدنا عن الذين يعمل الحرب من أجلهم » (٧١)

وعلى هذا يجيب « يمين » : « إيه ! ماذا تريد يا بنى ؟ أن تحكم بالإعدام وتبقى هادلا . . . ! إنك تعود حتى على هذا . . . » (٧٢) .

ويتدخل الجنرال الروسى « هيريج » HEINRICH لفض هذه المناقشات قائلا « لمانويل » :

« نحن نعمل على تغيير معنى الحرب . هل تعتقد أنه يمكن تغيير الانقياد من غير أن نغير أنفسنا ؟ فانك منذ اليوم الذى تقبل فيه قيادة في جيش البروليتاريا . ليس لك حق على نفسك . . . احساسك يمكنك أن تحتفظ به ، هذا أمر آخر . ولكن لا بد أن تفقد نفسك مثل ما فقدت شعرك الطويل ونفمة صولك » . (٧٣)

٦٨ (العمل ص ٣٣٢)

٦٩ (العمل ص ٣٣٢)

٧٠ (العمل ص ٣٤٧)

٧١ (العمل ص ٣٤٧)

٧٢ (العمل ص ٣٤٨)

٧٣ (العمل ص ٣٥٠)

وحينما يسأله « مانويل » عما يمتنيه ، وهو الماركرسى من « فقدان النفس » ، يوضح له « هنريخ » : « في كل حرب توجد خسائر . وليس فقط في ساحة القتال ... والأمر لا يجدد بك أن تشمر أبدا بالرحمة على رجل فقد » . (٧٤)

هذا التباعد التدريجى وهذه العزلة المتصاعدة من الرجال يعبران أيضا عن طبيعة العلاقات التي كانت تميز حياة « مانويل » الخاصة ، فنحن نراه في بداية الرواية يعترف « ليميتيز » بحبه العظيم (٧٥) لامرأة تفصلها عنه تربيته الدينية وتحول بينها وبين الزواج به ، الأمر الذي يؤثر عليه تأثيرا شديدا ... وبمذبذبة أشهر بينما كان مشغولا بتنظيم الفارين من « طليطلة » إلى إلى الضابط المجوز وقال له :

« لقد شاجعت في الأسبوع الماضى امرأة كنت قد أحببتها سدى خلال سنوات عديدة : وكنت أشعر برغبة في الدهاب ... وإلى لأسف على ذلك ، ولكنى اذا كنت أهجرها فلسبب : فنحن لا نستطيع أن نمارس القيادة إلا لأداء خدمة والا ... » . (٧٦)

وهكذا يتخطى « مانويل » عن حبيبته لأنها قد تشكل عقبة أمام حرية فطحه ، وبالنسبة له ، حتى المجندات ، ولهن فدايتهن في جانب معين من الحرب ، قد يؤثرن على عزيمته الرجال . (٧٧) « أن الحرب تولد الغمة » ، كما يقول (٧٨) وهذا يدننا إلى مسألة هامشية ولكنها هامة : فلقد اتهم « مارلو » بعداؤه للمرأة ، فالمرأة بالنسبة له وخاصة في أوائل رواياته مثل « الفسرة » Les Cinqmarques و « الطريق الملكى » La Voie Royale لا تمثل إلا « القطب الآخر » في لذة الرجل . إلا أن الكاتب يفسر هذا الموقف بأنه يتحدث من المرأة « الملعنة » وأن ذلك نغرضه طبيعة البيئة التي تدور فيها الأحداث ، أما بالنسبة لعدم أهمية المكانة التي تحتلها النساء في مؤلفاته فإن مارلو قد شرح ذلك « لبير جالانت » ورد هذه الظاهرة إلى نوع رواياته الذي يتطلب هذا اللون من البناء :

« في اللحظة التي تولج فيها - مثل همنجواي - قصة حبيبى نضال لورى فإننا نهوا بالناس ، لايك اذا كنت في قصة حب ان تكون في نضال لورى . واذا كنت « انه حينما قابل دانتون روبسبير في ردهات مجلس الثورة وقال له : « انت تخوننايا روبسبير » ! افهمه هذا بقوله : « يا احبى ليس في مقدورنا ان نضون ونحن نمارس الحب ... » . (٧٩)

وحينما نعاود قراءة بعض فقرات رواية « لن تلقى أجراس الموت » تتضح ملاحظة « مارلو » أكثر . إذ أن « روبير جوردان » الذى يفرم « بماريا » يعطينا أحيانا الاحساس بان أونيس

(٧٤) الأصل ص ٢٥٠/.

(٧٥) الأصل ص ١٥٥/.

(٧٦) الأصل ص ٢٢٧/.

(٧٧) الأصل ص ٨١/.

(٧٨) الأصل ص ٢٢٢/.

GALANTE, Pierre, op, cit., p.83, (٧٩)

يعمل مؤقتا التزامه بالنضال . وعلى هذا النحو يبدو لنا ، في فصل الرواية المسمى «بالحب الأرضي» وكأنما الزمان معلق بالنسبة للحييين :

وبالنسبة لها لم يكن يوجد إلا اللون الأحمر والبرتقالي . أو ذهب الشمس المشوب بحمرة على عينيه المنمضتين ، وكان كل شيء بهذا اللون ، نعم كل شيء : الشمول ، التملك ، الرضاء ، كانوا بهذا اللون وكان كل شيء يشع بهذا اللون . أما بالنسبة له ، فكان ممبرا مظلما لا يؤدي إلى مكان أو إلى شيء ، لا يؤدي إلى شيء ، ومرة أخرى لا يؤدي إلى شيء وهكذا بلا نهاية لا يؤدي أبدا إلى شيء . متكشا بمرققة على الأرض بلا هدف كان يطالع هذا المعبر المظلم اللانهائي وهو معلق طوال الوقت بصدمة لا مخرج منه ، هذه المرة ومرة أخرى إلى الأبد من أجل لاشيء ، الآن ، ٢٠١٠ ! لو لم تولد مرة أخرى من أجل لاشيء ، والآن عبر كل ما نستطيع تحمله إلى أعلى ثم إلى أعلى ثم إلى أعلى فإلى لاشيء . فجأة « النهار » ثم سعادة « علوية فاخفاء لكل ما كان مظلما وعدما ، أما الوقت فصار سكوتنا إبديا وكأننا هما الاثنان هناهما والزمان معلق يشعرا بالأرض تتحرك ثم تفوس تحتهما » . (٨٠)



وأضح إذا أن هذه القطة بمفردها تبلور ملاحظة أكتاب التي أشرنا إليها ، « فالرو » على المكس من « همنجواي » ، ولكي يبرز الجوانب المأسوية للفصل يركز اهتمامه على العناصر الأساسية التي تكون عالم الحرب وهذا يتناسب تماما في رواية « الأم » مع شخصية (مانويل) **فمن الطبيعي إذا أن البطل الذي صُحى بالقيم المباشرة في سبيل القضية الثورية يتعد عن الرواة الحبيبة حتى لا تشغل باله من عمله القيادي .**

وتلاحظ في هذا الصدد حداثا آخر في الرواية يدل على أن وجود المرأة عنصر ، بل وقابل بالنسبة للمحاربين . لقد شاهد « جرينيكو » و « جرميا » حوارا بين زوجة مناضل وزوجها تتردد فيه الزوجة من مفارقة مدريد كما يطلب منها زوجها : « يقول أنه علي أن أهاجر ، أخذت تندب حالها . يقول أنه لا يستطيع أن يحارب إذا كنت هنا . ولكنني لا أستطيع العيش إذا علمت أنه يحارب هنا . . . حتى ولو لم أعرف ماذا يدور . . . » ويطلق « جرميا » على قول الزوجة هذا ببرود : « كلين سواء . إذا رحلت فسوف تتحمله في كثير من الألام ولكنها ستتحمله ، وإذا بقيت فسوف يقتل (٨١) »

على النقيض مما يدور في روايات « الطريق الملكي » و « التقدر الإنساني » أو « زمن الاحتراق » ، يكاد يكون شعور الحب غير موجود في رواية « الأم » أو يمثل كعقبة في طريق المجهود الثوري . . . الأمر الذي يقودنا إلى ملاحظة التوازي الذي يوجد في روايات « مالرو » بين الحياة الخاصة للشخصيات ورؤيتها الشمولية للوجود ، ففي هذا الكتاب الذي يمجّد التنظيم العسكري نرى البطل الذي كرس نفسه للنضال المنظم لا يجد فرصة للتفكير في علاقات عاطفية من أي نوع كانت .

وإذا رجعنا إلى « مانويل » وجدنا أن تحوله كان شاملا . وليس الأمر فقط مجرد ميلاد زعيم ، أو نجاح خارق استثنائي ، أننا بصدد تحول جذري ، وهنا يكمن الفرق الجوهرى بين البطل فى روايات مالرو الكرسة لثورة الصينى وبين البطل الشيوعى فى رواية « الأمل » الكرسة للعرب الأسبانية . فبنما « جارين » GARINE فى « الفؤاد » و « كيو » KYO فى « القدر الإنسانى » (٨٢) يعرضان إلى النهاية الصراع يشور فى دخيلتهما ، ينتهى « مانويل » على العكس من ذلك بقبول ضرورات الفعل بلا نقاش :

« لما كان » مانويل « شيوعيا ، فإنه لم يكن يتعامل من سلامة أسس قراراته ، لم يكن يضع تصرفه موضع التساؤل ، وكل مسألة من هذا النوع كانت لا بد أن تنتهى فى نظره ، أما بتغيير أفعاله وهذا التغيير لم يكن واردا ، وأما يرفض التساؤل » (٨٣)

وبعض الملاحظات فى الرواية توحى الإنساب بالرغم - أو لنتقل - بفصل حزمة فى القيادة بأن « مانويل » كان محبوبا من قبل زملائه فى السلاح وكان هذا الحب صادقا من غير افتتان . لذلك لا يرى ، بعد حكمه بالإعدام على جنديين هاربين ، فى عيون رجاله الذين يستعرضهم الأمودة واخوة :

لم تكن هذه النظرات وهى تخرق نظره فى كل التقاء ، تتسم بالفوضى أو اللامبالاة : كانت اخوية باس ، مليئة بهذا الظلام (٨٤) .

بل وأكثر من الأخوة :

« كانت نظرات » مانويل « تلتقى بتلك النظرات ، الواحدة تلو الأخرى ، وهى تعقد معها تحالفا بالدم (٨٥) » .

بعد انتصار الجمهوريين فى « جواد لغرا » يحس « مانويل » الذى قطع - أثناء المعركة - كل صلة بينه وبين المنتمية الشخصية والذى أعلن « لجارتنر » GARTNER أنه لا يقدر الموسيقى ، بأن أهم ما يحتاج إليه فى هذه اللحظة هو سماع قطعة موسيقى ... فبسماعه سيمفونية لبيتهوفن كان يتكسب اليقين - حتى ولو شك أحيانا سبحانه بحمل فى طيات نفسه كل الإمكانيات الإنسانية سليمة وكاملة :

إمكانيات ألفى والرقه والحب ، ولا شك أن السلام سيعمها يوما ما فالمنتقبل كله ملك له :

« كان يحس بالحياة تفرخ حوله بالتنبؤات ، كما لو كانت تنتظره ، خلف هذه السحب الدائنية التى لا يهزها « المدلع » ، بعض الأقدار العمياء . كان الكلب - اللئب ينصت ممددا كما تصوره

(٨٢) فى رواية « زمن الاحقاد » Le Temps du Mepris : كان البطل « كاسنر » Kassner يمثل الصراع ضد كل ما هو « لا إنسانى » . إلا أن المسألة الخلقية - السياسية لم تكن مطروحة فى هذه الرواية .

(٨٣) الأمل ص ٢٤٨/٠

(٨٤) الأمل ص ٢٤٦/٠

(٨٥) الأمل ص ٢٤٧/٠

بعض النقوش البارزة . في يوم ما سيأتي السلام وسيصبح « مانويل » أنسانا جديدا ، مجهولا من ذننه كما كان يجعل مناظر اليوم الشخص الذي اشترى السيارة للتزجج على الجايد في جبال السرا .

ولا شك كان الأمر كذلك مع كل واحد من هؤلاء الرجال العابرين بالطرق أو العازفين بعناد أغنيات العنينة الحزينة والذين حاربوا تحت إغطية الرأس المدببة (...) أن الحرب لا تكتشف إلا مرة واحدة ، ولكن الحياة تكتشف أكثر من مرة .

كانت هذه النفقات الموسيقية التي تتوالى عبر الماضي تحدثه كما لو تحدثت إليه هذه المدينة ذات الماضي العريق ... وهذه السماء وهذه الحقول للأبدية ، ولأول مرة كان « مانويل » يسمع صوتا أهم من دم الرجال وأشد بأسا من وجودهم على البسيطة ، صوت الإمكانية اللا محدودة لقرهم - وكان يشعر في داخله بهذا الوجود متمتزا بهدير الجداول ، مختلطا بدبيب خطوات الأسرى ، متصلا عميقا مثل نبضات قلبه . (٨٦)

• • •

ثالثا : العمل الخوري :

(في عالم بلا أمل يصعب التنفس) « (الأم / ص ١٩٩)

هذا السطر الذي نستشهد به يختتم الرواية ، الأمر الذي يقودنا إلى رؤية الوجود ، كلها سلام وأمل ، كما وعدنا بذلك عنوان الرواية .

وليس من شك في أن هذا الكتاب نشر في فترة كان يتوقع فيها الجمهوريون نهاية موفقة لهذه الحرب ، وخاصة وأنه يشير من بين الأحداث الأخيرة إلى انتصارهم في « جواد لخرأ » GUADALAJARA إلا أنه يبدو لنا معبرا أن «الرو» احتفظ بهذا العنوان بعد الهزيمة السياسية للثوار . فمن الناحية الفنية « يمكن أن نذهب لمذهب « لوسيان جولد مان » LUCIEN GOLDMANN في تعقيبه على هذا الجانب :

« يرجع رفض الاهتمام بالأحداث اللاحقة على الرواية إلى ضرورة داخلية في بناء القصة : إذ أن رؤية الكتاب كانت مرتكزة على التضحية في سبيل النظام بكل القيم من أجل الفعالية ومن ثم فإن هذه التضحية ستبطل هزلية وغير مبررة إذا أدت إلى الهزيمة بدلا من النصر » (٨٧)

ومع ذلك فرواية « القدر الانساني » انتهت بنفشل سياسى وكذلك « كيو » KYO

البطل الثورى الاصيل يموت فى نهاية الرواية بالرغم من وجود فقرات عديدة فى الكتاب توحى بانتصار المناضلين « حتى ولو هزموا أو عذبوا أو قتلوا » ... وبالأمل فى حياة أفضل للجماهير الصينية . ونحن لو فحصنا رواية « الأمل » بهذا المنظور الميتافيزيقى لايقنا بمدى دلالة هذا العنوان وعدم جدوى الأحداث اللاحقة على معركة « جوادلخرا » فى تغيير مضمونه .

« إن القوة الكبرى للثورة هي الأمل » يقول مناغلو (٨٨) الحرب الإسبانية ، وهذا الشعور ، فى الواقع ، هو الذى يلهم ثورتهم ويتيح لهم التغلب على مخاوفهم أمام القدر ...

هذا الأمل هو أمل الفلاحين الذين عاشوا فى البؤس ويحلمون بالكرامة واحترام آدميتهم .

ولو فكر فى ذلك « مانيان » وهو يحلق فوق قرى إسبانيا :

« كان يتذكر الاراضى البور ، التى لم يكن من حق الفلاحين الموضع من البؤس ان يستصلحوها ... ان الفلاحين الثائرين كانوا يحاربون تحت امرته ليرنموا هذه الجدران الصخرة ، وهى الخطوة الاولى فى سبيل كرامتهم » . (٨٩)

كان الجميع يحارب فى سبيل تصور معين للإنسان وإذا كان المثل الأعلى الثورى هو الذى يوجب حماس الشعب فلانه كان يجسد لديهم « أملا غامضا وبلا حدود » (٩٠) ويرضى الرغبات ولطامح العميقة الكامنة فى كل فرد .

إلا ان الكاتب ، فى الوقت الذى كان يصف فيه قمة الالتزام الثورى ، كان يدين الثنائية الناتجة من الفعل : فالثورة ، كما رأينا ، كانت تصطبغ بالحماس الذى دفع بالابطال الى المحاق بها ، هذا الحماس الذى كان يجب الحد منه بجهنم فى سبيل النظام .

وهكذا فإن أفضل ما فى الإنسان ، أى ثقافته الثورية، هو الذى كان يدخل فى صراع مع ضرورات النظام العسكرية والسياسى ... وبهذه الصورة يشك فى قدرة الثورة على حل المسائل الميتافيزيقية للفرد . الامر الذى يرجع الى ان طبيعة المسائل السياسية وطبيعة المسائل الخلقية لا تنتمي الى نفس النمق كما يقول « باسكال » .

(٨٨) الأمل ، ص/٤٢

(٨٩) الأمل ص/١٩

(٩٠) الأمل ص/١٩

ومن ثم مجز الثورة من الارتفاع بمستوى الإنسان من لقاء ذاتها ... فلتنصت الى « جرسيا » :

« أي دولة وأى بناء اجتماعي لا يمكنه خلق نبالة الخلق أو رفعة الروح ، ومعظم ما يمكن توقعه هو ظروف ملائمة . وهذا كثير ... » (٩١)

ويوضح « مالرو » في خطابه من « الميراث الثقافي » :

« ان الثورة لا تعطى للإنسان إلا إمكانية كسب كرامته ، وعلى كل فرد ان يجعل من هذه الإمكانية حقيقة ... » (٩٢)

عظمة الإنسان لا تعتمد بلا شك إلا على جهده الخاص .. ولكن الرجل الملتزم يجد في الفعل ظروفًا ملائمة لتجاوز وضعه ببطل الفعل ما في طاقته ، وهنا يكمن الأمل الثوري ، فالبطل يلقى في صراعه من أجل الكرامة والحرية . معناه وتجارب تناقض القيم التي يناضل من أجلها ولكن إمله في المستقبل الذي يمكنه أن ييجاد صلة بين التضحية المؤقتة بهذه القيم وبين العالم الجديد الذي يحلم به .

إذ انه حين ينخرط كلية في فعل له معنى وهدف ، سوف يخرج من هذه التجربة وقد تفرج جلدريا ، ومن ثم تصبح الثورة أيضا لا قدرا شخصيا وهذا ما يلاحظه « مانويل » في آخر الرواية حينما يقول :

« ان حياة أخرى بدأت بالنسبة له مع المعركة ... » (٩٣)

وانه لفي ضوء هذا المفهوم تكتسب الرواية وعنوانها مضاه الكامل .

وانه لجدير بالذكر من جهة أخرى ان يكتب المؤلف ، بعد انتصار « جواد ليرا » بان الحرب قد بدأت (٩٤) ، مشيرًا بذلك الى ان مساردا أخرى قد لا تكون موفقة بالنسبة للجمهوريين ،

ولكن ... طالما ظل المجهود الثوري قائما كما يجب ان يقوم .. فان هذا المجهود سوف يؤكد الرجال « الإمكانية إلا معصودة لقتلهم » .

• • •

(٩١) الأم ص ٣٣٨

(٩٢) راجع :

L'Heritage cultural in Commune No. 37, 1936, p.9

(٩٣) الأم ص ٤٢٢/٠

(٩٤) الأم ص ٤٣٦/٠

خاتمة :

ان شعور الاخوة الانسانية ، الذى يبرز كثير من صفحات رواية « الفكر الانسانى » ويطلب على معظم رواية « زمن الاحتفال » يلقى على رواية « الأمل » أقوى تعبير له . الا ان قبول حقيقة هذا الشعور كواقع لا يجلب للانسان السلام التام ، اذ انه يتحتم على الانسان ان يؤكد بلا تردد على القيم المختارة ليطرد هواجس القلق...

ان الاحساس بالحياة الجماعية لا يكتسب الا قليلا قليلا ، لان الاخوة المتولدة من الانفصال المشتركة كثيرا ما تصطدم بالتزامات وضرورات الفعل ذاته .

وليس هناك شك فى ان « مالرو » يؤكد على ضرورة التنظيم كمعصر اساسى لكل جيش ، غير ان روايته تمجد ايضا قبول النظام ، هذا النظام الذى يفرضه الانسان على نفسه حتى ولو كان احيانا قاسيا او لا انسانيا ، اذ ان الانسان الذى يرهن على حريته بالنضال حتى ضد نفسه ، جدير من ثم بان يرفض الخضوع للأقدار . ومثال « مانويل » يرينا ان الانسان الذى تخلص من حتميات الوجود يمكنه بسهولة ان « يكتشف سرا مقدما وبسيطا » ،

الا وهو سر الحياة . (٩٥)

★ ★ ★

عزّه محمد هيكل

اندريه مالرو قدر الانسان

لودة في الادب

ينفصل القرن العشرون عن الاسلوب التقليدي للقصة المصطنعة تاليفا ، والتي تتنازع فيها الاجداد على وجه مضيق ومنطقي ، بحيث اصبح تناول الرواية التحليلية والرواية الاخلاقية بالطريقة المعتادة موضوع قضية مطروحة ويظهر من ثم خط جديد للرواية لا يقوم على الشمول الكامل ، وانما يركز على الموضوع والابهام . ويقول الناقد البيرس :

« ان رواية للظهير او لرولا كانت تحكى . ولكنك تعيش وتحيا **قصة الانسان** » (١)

وينمنا كان بلزالك وللوير وزولا يوضحون ويشرحون التطور النفسى لشخص من رواياتهم . . فقد كانوا يعرفون مسبقا نهاياتها . اما في اعمال مالرو فكل الشروح والتفسيرات ضمنية .

R.M. Albérès, *Histoire du roman moderne*. Editions Albin Michel, 1962. p. 130. (٤٢)
André Gide, *Journal* 10 Avril 1933.

ولا نعلم عنها شيئا أكثر مما يرى الأبطال ويشعرون به ويفكرون فيه ، ولا يتدخل الكاتب في السرد أبدا مجرد التوضيح والبيان .

وفي *لقعر الإنسان* لا تبدو الشخصيات في وضوح ، وإنما تشكل تدريجيا ثم تتحلل وتتكون من جديد محتفظة دائما بغموضها ، تماما كما يحدث في الحياة بالنسبة للأشخاص الذين نتقاهم ولا نسمعا التعرف عليهم حقيقة . فالأمر لا يتعلق بتقديم شخصيات للنسبة النهائية صورة منطقية واضحة لهم ، وإنما نجد فيهم تعقيدا غير قابل للتحديد ، وعلا متغيرا بالنسبة لكل شخصية وغير متكامل .

وفي *لقعر الإنسان* الذي اعتبر بالأجماع أشهر روايات مالرو ، وقد ظهرت في عام ١٩٣٣ وحصلت على جائزة جوتكور ، يقوم الموضوع على تكاليف في الأحداث وتركيزها في وقت ضيق وقد أشار الى ذلك ألفريد جيب في عبارة شهيرة :

« هذا الكتاب الذي أطلعت عليه خلال نشره مسلسلا في إحدى المجلات ، بدأ لي شديد الكثافة ويوقف لرائه الاستمرار في تلاوته ، وهو الى حد ما غير مفهوم ازاء غيرة تعقيداته . وقد لاح لي بعد قراءته كاملا ، أنه ظاهر الوضوح ومتسق في عدم انتظامه وعلى درجة كبيرة من الدكاء ورغم ذلك - أعني القول رغم الدكاء - فهو عميق التداخل في الحياة ومشوب بقلق غير محتمل » (٢)

ولأن الرواية مجزأة الى عدة مشاهد تتعاقب بلا اتصال أو تفسير بحيث تفتقر الى أية رابطة واضحة في السرد بين مشهد وآخر ، فيما هذا بعض البيانات المتعلقة بالتاريخ والساعة التي تعين القارئ على الفهم ، وتدل - بالعكس على أعمال متعمد للربط بين الأحداث . ولو نقلنا هذه البيانات يمكن لمس ما يبدو أنه خطة الكتاب .

الجزء الأول : ٢١ مارس عام ١٩٢٧ : بعد منتصف الليل بنصف ساعة ، في الواحدة صباحا ، في الرابعة صباحا ، في الرابعة والنصف صباحا .

الجزء الثاني : ٢٢ مارس ، الساعة الحادية عشرة صباحا ، الساعة الواحدة بعد الظهر الخ .

ويعد ذلك ونجاة في **الجزء الثالث** ، في ٢٩ مارس ، والأجزاء الرابعة والخامسة والسادسة ، في ١١ أبريل . وينقلنا الجزء السابع الى باريس في يوليو وتقع الخاتمة في كوبيه .

وهكذا بدلا من الاستطراد التقليدي للسرد ، فإن فصول الرواية تستمر وتتتابع مع تفاريف الشخصيات وفي مختلف الأماكن . ونمر بلاى تمهيد من حكاية الى أخرى . **ويؤكد النقاد أنه كان لأعمال مالرو سبق المبادأة في « خلق المفهوم الثوري للأدب »** ولم تعد الرواية للاستهلاك

(٢) *لقعر الإنسان* لأول مرة مسلسلا في مجلة *لافيلدي* الفرنسية في نواتل ١٩٣٣ ثم هجرت الرواية في كتاب بعد ذلك مباشرة .

الصرف وإنما هي تحقق تعاوننا في الانتاج بين الكاتب والجمهور الذي يلهم للمساهمة بجهود بناء لأقامة العمل الأدبي . « (٣)

وقد لمس مالرو بذاته عدم الاستمرار في معادلة وجيزة مؤداها : انه يمكن فهم كل فن من الفنون لهما ضمنيا لا تصريحيا . « (٤)

وغالبا ما قورنت طريقة مالرو بمشهد سينمائي واضح (٥) تمثل فيه الرواية بمجموعة من اللوحات ويوحى تتابعها وتباينها بالواقيع والثراء .

وتردد الكاتب باستمرار بين مشاهد الأعمال ومشاهد الفكر وبين التحقيق الصحفي والفلسفية : وينتقل الانسان فجأة من حالة الثورة الى حالة التمعن والتفكير . فبعد ان ارتكب تشين جريمة قتل اخذ يتسائل عن معنى ما اقدم عليه ازاء قيمة حياة الانسان . كما ان الحوار بين كيو وماسي الذي انصرف الى قيمة الحب قد انقطع بفئة يتدخل كلايك ومعه مستند لسرقة عتاد واسلحة على ظهر باخرة . وكذلك فانه بمجرد تركنا جيزور الذي يستلهم معنى الحياة والاتجاه الى المخدر وشعوره نحو ابنه ، نجد انفسنا نجاهة امام لوار يهاجمون سنيته .



التوازي بين الحياة والرواية

بينما نجد ان الطريق الملكي والفرقة بضمان على المسرح بطلين او ثلاثة أبطال فان قدر الانسان وفقا لما يتم منه عنوانه ، يحيا عالما واقعيًا على قيد الحياة وهو عالم الصين في عام ١٩٢٧ . وتلدور الأحداث اساسا في شنفهاى بين جماعات الثوار التي تعد للثورة . والحكاية هنا معقدة جدا الى حد القول بان هناك حكايات بقدر هذا الأبطال .

وتختلف الثورة الصينية وتباين تبعاً لأراد الأبطال وحسب ما يتصل الامر بتشين او كيو او جيزور او فيرال او هيمير ليتش او كلايك .. ويؤكد مالرو : « ان الإطار غير اساسي (...) ولكنه ايضا غير ماضى . واعتقد انه يوجد في وقت ما اماكن قليلة تتوافر فيها ظروف للبطلة .. » (٦)

(٣) Claude-Edmonde Magny, "Malraux le fascinateur," Esprit octobre 1948.

(٤) Malraux, cité par Henri Dumazeau, La Condition humaine de Malraux. Paris, Hatier (collection "Profil d'une oeuvre"), 1970. p. 68.

(٥) كان إرنستين سيمور سينماليا رواية قدر الانسان بموسيقى فوستا كوليتش ولكن حالت دكتورية ستاين دون تحقيق ذلك المشروع . ولم يتم أيضا المشروع الذي امدته هانسون في عام ١٩٧٠ . وفي فرنسا في عام ١٩٥٤ قام تيرى مونييه ومارسيل ناسا بتحويل رواية مسرحية كتب مالرو الفصل الاخير منها .

(٦) Lettre de Malraux a Gtém Picon (1934) reproduite en fac-simile sur la page de garde de Malraux par Les-mêmes de G; Picon, Editions du Seuil.

والسمة الأولى لروايات مالرو هي معاصرتها . ويستغرق الكتاب في العارة المعاصرة ويحاول أن ييسر للقارئ معاشتها . ولقد كانت مؤلفاته حتى عام ١٩٤٥ قريبة تماما من الأحداث ، الى حد أن بعض النقاد لم يروا فيها الا تحقيقا صحفيا آمينا للأحداث المعاصرة .

والصحيح أنه اذا كان مالرو قد كتب « **الفزاة** » و « **فقد الإنسان** » فإن ذلك يرجع الى أنه في عام ١٩٢٥ ذهب الى الصين التي كانت في أوج الحرب الأهلية . وهناك ، - ولبعض الوقت - يبدو أنه باشر منصب قائم مقام قوميسر الكو منتجات المكلف بأعمال الدعاية لدى بوروديني ممثل الاتحاد السوفيتي في اللجنة المركزية للحرب الشيوعي الصيني .

ولا جدال في أن أعمال مالرو هي نتاج لتجاربه ومؤلفاته الله . وفي هذا المجال فإن « سيرة حياته » تميز بين الصور الأدبية غير الشخصية لمؤلفات مالرو الأولى من الزلزال اللاحقة . ومنذ عام ١٩٢٦ (**أفراء الغرب) أصبحت مؤلفات مالرو « مذكرات خيالية » (٧) لمغامراته الخاصة . وتذكر إحدى شخصياته :**

« كيف تريد فهم الشيء من غير طريق المذكرات » (٨)

والواقع أن أغلب أبطاله من المفكرين أو السياسيين وهم يتماثلون تماما مع (خالقهم) في الأحداث والصرعات الحقيقية في كانتون (**الفزاة عام ١٩٢٨**) ، وفي شنغهاي (**فقد الإنسان عام ١٩٣٣**) ، وفي ألمانيا (**زمن الاحتشاور عام ١٩٣٥**) ، وفي اسبانيا (**الامل عام ١٩٣٧**) ، وفي فرنسا (**الصراع مع الله عام ١٩٤٣**)

وطالما أخذ على مالرو ، وعلى الاخص بالنسبة ل**فقد الإنسان** « القتال الوحشي والتدوق النموسي والتعذيب والميل الى البطولة السقيمة . » (٩)

وقام رد اندريه على مذاهب اليه النقاد في سطور واضحة :

« أنا لم اختر هذه الوحشية لاثني تلافيتيها . وكل انسان يستخلص من حياته ، واثني اطالب بهذه . » (١٠)

وفضلا من التفاصيل المتعلقة بتاريخ حياة مالرو فإن ما يميز روايته على وجه خاص هو التاريخ الذي يتداخل في السرد . فقد اشترك في بطولة الرواية تشانج - كاي - تشيك الذي كان

(٧) Georges Mounin, „Les Chemins de Malraux“, Les Lettres Françaises, 7 juin 1946.

(٨) André Malraux, *La Condition humaine*, Paris, Gallimard 1933. Edition consultée : Gallimard (collection Folio), 1946. p. 176.

(٩) Robert Brasillach „Le goût malsain de l'héroïsme“, *L'Action française*, 10 août 1933.

(١٠) André Malraux, „Réponse à Robert Brasillach“. Lettre du 23 août 1933. Ces deux textes figurent dans les *Oeuvres complètes de Robert Brasillach*, club de l' Honnête homme, Tome VII.

وقتل ذلك على رأس القسم المتمثل للكومينتانج ، ويورودين الذي كان في ذلك التاريخ المستشار الروسي للحكومة الصينية . ولعب كيو دورشواين لاي .

ولا جدال في أن الحياة الضائعة للبطل وموته من خيال المؤلف . ولقد ألهمت مالرو زوجته الأولى كلارا جولد شملت مشهد الاعتراف بالخيانة . واستطاع مالرو أن يضع نصب عينيه أندريه جيد عندما ابتدع شخصية جيزور ، وأندريه برتيلو عندما خلق شخصية فيرال . وأخيرا فقد صور الكاتب أصل كلايكت في « الألف كرات » على وجه دون شخصية الرواية .

وبالنسبة لعدد كبير من المؤلفين وعلى الأخص مالرو فإن العمل الأدبي ليس إلا انعكاسا وصدى للحياة ؛ ويسمى أن تؤكد أن العكس صحيح أيضا ، وغالبا ما حدث ذلك ، ويؤكد مالرو نفسه :

« أن العالم أخذ يتشابه مع مؤلفاتي » (١١)

وفي واقع الأمر فإن **قدر الإنسان** ظلت على مدى أربعين عاما رواية أحداث ملتبة . العالم الثالث والثورة والحرب الشيوعية والنزاع الصيني السوفيتي وموضوع الحرية ، كل ذلك الشغل الشاغل دائما ، وفي الدرجة الأولى ، لاهتماماتنا . وفي هذا الكتاب الذي قام على التنبؤ تكون بعض ما قدر المؤلف خطوطا للمستقبل . ومنذ صام ١٩٣٣ كان مالرو يعلن « أن قدر الصين بين يدي الحرب الشيوعي » ، (١٢) ولقد استيقظ « للأمة مليون من الصينيين منطلقين من سبات استمر ثلاثين قرنا وسوف لن يستولي عليهم النوم من جديد » (١٣)

وكان الكاتب قد تنبأ منذ سنوات سابقة بالتناقضات بين الحرب الشيوعية الصينية والشيوعية الدولية . وأعلن أيضا أن قدر الغرب ربما يتوقف على ذلك الحرب .



عالم الرجال

ذهب بعض النقاد إلى حد اتكار عنوان رواية مالرو **قدر الإنسان** واعتبروا أنه مغمض في شططه .

ويؤكد الناقد السوفيتي إيليا اهرنورج أن ما يعنى مالرو ليس هم الصينيون ولا مدينة شنغهاي وإنما ماحل بلربعة أو خمسة رجال في هذه المدينة في ربيع صام ١٩٢٧ . ويضيف

A. Malraux, cité par H. Dumazeau, op.cit., p. 24.

(١١)

(١٢) قدر الإنسان

(١٣) قدر الإنسان ص ٢٧٩ .

أهزبوج أن رواية مالرو ليست مؤلفاً عن الثورة وإنما هي « صورة راديو جرافية للكاتب
مجرة على مدة أبطال » (١٤) .

ويؤكد أيضاً آدموند جالو في مقال انطوى على الكثير من التقريظ والثناء :

« أن قلب الإنسان هو قدر معين لنموذج من الناس وخاص بالمسيد أندريه مالرو ، ونجده في
كل أعماله ، ويسمنا أن نطلق عليه اسم المفاهيم الفكر » (١٥)

ولو أن الموضوع الظاهر للقلب الإنسان في حقيقته هو الثورة الصينية ، فإن المسألة المعينة
في تصوير الحالة المأسوية للإنسان في مواجهة قدره : شعور الوجود ، والشعور الصيقي
بالوحدة ، والتعبية للقر ، وسيطرة فكرة الموت . . . ويرد تماماً الكتاب بعد ذلك على عنوانه ، بأنه يقدم
إنسانية مقددة خالية وعلى قيد الحياة .

ومع ذلك فثمة تحفظات يتعين إبدائها في شأن العالم الخاص كالرو . فهو يرسم علماً من
الرجال أساساً ، حيث تحتل المرأة مكاناً ضيقاً ، وتقول ماى بحق :

« كيو ، ما هذه الأفكار الخاصة بالرجال » (١٦)

وفي الواقع فإن تلك الأفكار ومسائل من إبداع الرجال ، وتشكل جوهر أعمال أندريه
مالرو .

ولقد كان عالم الرجال من مميزات روايات ستاندال . وبالرغم من تدخل الماطفة
الرومانتيكية ، قدم موريس باريس وهنري دى مونتران صورة لنشاط الرجال . وكان أرنست
بسيكارى رائداً لعالم الفعل ، وجاء بعده لورانسى في بلاد العرب وأرنست يونجر في الحرب والمغامرة ،
وسانت أجريبيرى وهو من رواد الطيارين .

ومحاكاة لكل هؤلاء السابقين استخدم مالرو الحركة كنقطة انطلاق للبحث من قانون أخلاقي
وعن معنى للحياة . وعالمه الإنساني « محدود بالفعل والدكاء الرجالي » (١٧)

ويركز جايتان بكون على غياب الطفل وندوة وأرتباك الشخصيات النسائية في رواية مالرو .
والواقع فكثيراً ما نرى أن ليس لأبطال مالرو نساء أو أطفال . ففي قلب الإنسان يشكو هيمر ليتش
من وجود زوجة وابن عليل يتعين عليه حمايتهما . وهذه العلاقات الأسرية تحول دونه « والسعادة

(١٤) Ilya Ehrenbourg "La condition humaine vue par un écrivain d'U.R.S.S." Texte écrit en mai 1933, publié dans *Vue par un écrivain d'U.R.S.S.* Gallimard, 1934.

(١٥) Edmond Jaloux. „Une puissance extraordinaire“, *Les Nouvelles littéraires*, 16 décembre 1933.

(١٦) قلب الإنسان ص ٦٩

G. Picon, *Malraux par lui-même* p. 49.

(١٧)

في أن تكون حواء ولتمنعه من المساهمة في الحركة الثورية . كما ان وفاة ذويه ستحقق الخلاص بالنسبة له .

ويكشف كاتوف ايضا في ذاته عناءة خبيثة « لا نساء ولا اطفال » (١٨) للحيلولة لدونه والحرية.

وبينما لا يضع مارلو على المسرح في الطريق الملكي وفي الفؤاة الا رجالا بلا اطفال وعملًا بلا نساء (فيما خلا ساره ومدام كلاين والدا هرات) ، ففي قدر الانسان لا نجد الا اثنين ماي وفاليري . ومع ذلك فان وجودهما يتصل ويرتبط بزميل كل منهما كيو وفيرال . وبما لما اشار اليه هنري ديمازو : « انها حالة وحيدة في رواية مارلو : » (١٩) كيو يحب ماي ، وهي تحبه . ولكنه كاتسان في الدرجة العليا لا يسمح لكل من الجنسين بالحري في التصرف في جسده ، وهو مبدأ مطلوب في الاوساط الثورية في ذلك العصر . ويبين له من ذلك انه ذكر فيه روح التملك والغيرة كالاخرين .

اما عن شخصية فاليري وكذلك المحظيات اللاتي تظهرن في الرواية ، فانهم يوضحن الاهمية التي يملقها مارلو على المشق الجسدي ، والتمييز الاساسي بين ذلك الاحساس وبين الحب . وليست فاليري بالنسبة لفيرال الا الجنس الاخر . ويكرر الكاتب في اكثر من موضع ان التعارض بين الجنسين يكمن في العلاقات .

« بلل من المرأة وتملك من الرجل » (٢٠)

« لم تكن المرأة الا احد قطبي متعة الرجل الشخصية » (٢١)

ولا يرى فيرال في فاليري الابمية وخضوعا والذلال . ووفقا لقوله « ان الرغبة في التعرف الى امرأة هي وسيلة لتملكها او الانتقام منها . » (٢٢)

ويبدى ايضا تشيئ احتقارا شديدا للجنس الكوث ويغفر « بأنه ليس من النساء » (٢٣)

وعلى ذلك فان التفرقة واضحة بين كل من الجنسين . ورغم ذلك فان مارلو يعرف نساء ويحبهن . وهو قد تزوج ثلاث مرات من سيدات مرموقات ، ولكنه كما يقول « ان المرأة بالنسبة لي كائن مختلف - وانا احدث من الفارق وليس من المستوى - ولا أستطيع ان انصور شخصية نسائية . » (٢٤)

(١٨) قدر الانسان ص ١٥٢ .

(١٩)

H. Dumazeau op. cit., b. 28.

(٢٠) قدر الانسان ص ١٠٣ .

(٢١) قدر الانسان ص ١٠٥ .

(٢٢) قدر الانسان ص ١٩١ .

(٢٣) قدر الانسان ص ٥٤ .

Malraux à d'Atiardo la Vigerie, L'Ereusement, août 1967, p. 60.

(٢٤)

ولو ان ماى في **فقد الانسان** قد وجدت الخلاص من العشق الجسدى وتعدت حالة المرأة الملوكة والمحترقة ، فانما يرجع ذلك الى مشاركتها زوجها في صراع الثورة . وهذه المرأة « المسترجلة » (٢٥) تتناقض في وضوح مع زوجة هيميرليتش والعاملة الصغيرة لكاتوف . ولم تكن بحاجة الى حماية المذكور . «هل مشيت كأمراة محمية ؟ (٢٦) ذلك هو السؤال الذى طرحه على كيو . انها مساوية للرجل ، واتحاد الزوجين يقوى ويشدد بالصراع الرجالى .



العنصر الباسكالى : يؤس الرجل بدون اله

تكن القوة والجمال في **فقد الانسان** في تطور الرواية على مراحل متعددة في ذات الوقت . فمن جهة تمر بالناحية السياسية مما يجعلنا نفهم كيف اعتبر ذلك الكتاب الممتاز وقيل كل شيء رواية ثورية ، ومن جهة اخرى نسلط الانسانية العميقة للمناقشات . ففي كل لحظة ، وعند اقصى عتف للإبطال ، فانهم يتساولون في لهفة عن مأساة قدرهم .

والذى يعطى العمل وحدة عميقة هو ذلك المجال المعنوى ، الذى يجعل للشخص قيمته . ومن خلال جيورز الفيلسوف الفرنسى العجوز ، نلمس وحدة الرواية اذ اليه يتجه كل الاشخاص ليناقشوا معنى وجودهم . ولقد ابدى تشين حاجته ليراه بعد ارتكابه جريمته .

ويتحدث اليه كيو عن قلقه ، ويبحث فيرأل من صحة جيورز ممجبا « بثقافته الفائقة » و « وضع ذكائه دائما في خدمة المتحدثين » . وكان يبدو لكلاييك ان « جيورز كان الرجل الوحيد الذى نفهمه » ، واما من الفيلسوف العجوز ذاته فكان يرى في نفسه ما يرى فيه اولئك الذين كانوا يأتون اليه .

ويقارن جوزيف هوفمان بين دور جيورز ودور المنشدين في المأساة القديمة لانه هو المكلف باستخلاص معاني الأعمال واقوال كل الابطال .

« هذا الشخص بين على وجه يستبعد كل غموض أين يمكن البحث عن الوحدة العميقة والتعريف بفقد الانسان » . (٢٧)

وهكذا ووفقا لشهادة مالرو نفسه فان العنصر الاساسي في **فقد الانسان** ليس هو « الاطار » وانما « العنصر الاساسي الباسكالى » (٢٨) لان مأساة مالرو مبنوية على الاخص . وكتابه يصور طبقا لما ذكر باسكال (مأساة الرجل بدون اله) . ويشير مالرو في اكثر من موضع

(٢٥) **فقد الانسان** ص ٢٨٠ .

(٢٦) **فقد الانسان** ص ١٧٢ .

(٢٧) Joseph Hoffmann, *L'Humanisme de Malraux*, librairie Klincksieck, 1963. p. 157.

(٢٨) A. Malraux, *Lettres à Gaston Picon*, 1934.

الى اثر باسكال على انتاجه . وفي الصفحات الاخيرة من « اشجار الجوز في الانتسبرج » يتحدث عن النص الباسكالي الشهير :

« نتصور عددا كبيرا من الرجال مكبلين بالأغلال ومحكوما عليهم جميعا بالموت ، وكان بعضهم يلعب امام الآخرين كل يوم ومن يبقى منهم يرى قدره في مصير المائتين له ... انها صورة قدر الانسان » (٢٩)

وبذكرنا ذلك المثال بمشهد اساسي في **قدر الانسان** يشكله المسجونون في ساحة السجن ، ومثلما هو الحال مع باسكال ، فان عبث العالم والقلق في قدر الانسان والانشغال الدائم بالمرء كل ذلك يكون الاسس في اعمال مالمرو .

وتسائل كل شخص الرواية عن معنى الحياة . ولقد اعتنق تشين - الذي تلقى بدماء التعاليم المسيحية الماركسية تحت تأثير جيزور . ولكن الميول السياسية ، عندما حلت محل الماطفة الدينية ، تركت فيه فراغا كبيرا . وتسائل الشاب في قلق .

« ما جدوى الروح اذا لم يكن هناك رب أو مسيح » (٣٠) .

ويقادح جيزور مفكرا في معنى الحياة بين القلق المؤلم لتشين والايمان البطولي لكيو . فبينما الاول يالس لان الحياة بلا معنى فان العمل السياسي لكيو وبالعكس « يجعل للوحدة معنى (...) وكان لحياة معنى »

وبالنسبة ليميرلتش فان العمل الثوري هو « الشيء الوحيد الذي له معنى في حياته الراهنة » ويفكر ليرال شأنه في ذلك شأن كل اشخاص الرواية ، وحتى الرسام المعجور كما يتأمل في معنى الحياة والموت . ويذهب الفيلسوف جيزور ، وهو هنا يروي عن مالمرو ، الى :

« انه من النادر ان يستطيع رجل تحمل (...) قدره الانساني » (٣١)

وفي محاولة للتغفل في سر قدر الانسان يظهر مالمرو كافة صور القدر ، أي كل ما نتحمله : الوحدة ، والصمت ، والقلق والموت ... هذه كلها مسائل هامة لقدر الانسان وهي ترتع كل الشخصوس وتوجد في كل صفحات الرواية .

ويستعيد مالمرو في ذلك الكتاب صورة الانسانية المحكوم عليها ، وكما قدمها من قبل في **الغزاة والطريق المكنى** ، وهي تمثل ذات الاسطورة القاسية والنموية من الشقاء والفشل والقدر ، وتشفى كل شخصيات قدر الانسان من وحدة مؤلمة . والفرد منفلق على نفسه ، وماجر عن الاتصال بالآخرين .

(٢٩) مالمرو شجر الجوز في الانتسبرج .

(٣٠) قدر الانسان ص ٥٨ .

(٣١) قدر الانسان ص ١٩٢ .

ولم يكن تشين قبل ارتكابه جريمته يعلم ، كما لم يكن قادرا على التمكن ، بما ينتظره . فقد كان يتأهب لاقتراف فعل كثره ، ربما كان على درجة اكبر من الاهمية ، ولكنه على اى حال يعتبر كاي فعل مادي ارتكبه حتى ذلك الوقت فقد كان يرى انه سيكون « بعد » هذه الجريمة شأنه كما كان « قبلها » ، وكما لو كان قد اتي بعمل مادي ، ولكن « المجهول » كان في انتظاره . ولم يكن باستطاعة ذلك العمل ان يدخل ضمن الاعمال السابقة .

« لم يكن هو الخوف ، لقد كان امرا مهولا وقاسيا في ذات الوقت ولم يعرف له مثيل منذ طفولته : لقد كان وحيدا مع الموت ، وحيدا في مكان بلا رجال ، ومسحوقا من البشاعة ومنظر الدماء » (٣٢)

كان هناك اذن « عالم الجريمة » الذي لم يستطع ان يتقاسمه مع الاخرين وحتى عندما يجد زملاؤه ، يظل تشين وحيدا « على وجهه غير هادي » ولما يتوجه الى جيزور ، سيده ، آملا ان يجد عنده شيئا من الراحة لا يستطيع الفيلسوف المعجوز ان يسدي اليه نفعا . وبأسف ذلك الاخير « لمزلة القاتل » . ولكن الذي لم يفهمه جيزور هو ان تشين ، الذي رأى من جديد شركائه في الجريمة ، « يبدو بعيدا تماما عنهم » ، ولكن ذلك الفموض يبدو فجأة كأمر واضح لتشين الذي يقول لجيزور :

« انت لم تقتل احدا ابدا . اليس كذلك؟ » (٣٣) ولم تكن وحدة تشين بعد جريمته وانزاله شيئا آخر غير وحدة كل رجل . وايا كان معنى الحب الذي يجيش بصدر جيزور لابنه كيو فان جيزور وحده امام ذلك الحب

« هذه الوحدة التامة وحتى الحب الذي كان يكتنه كيو لم يعرره » (٣٤)

وكما هو الحال مع تشين ، ولكن في مجال آخر ، فان موت كيو بالنسبة لجيزور هو « انفصال » حقيقي ، ووقف تام ليس له ما بعده . ولم يكن يعلم الى اى « تحول » يمكن للموت ان يقهر الرجل . « لم يعد للحياة معنى او وجود » وبعد سطور من الرواية يكرر جيزور :

« ليس موت كيو الألم وحده او التغيير وحده وانما هو تحول تام » (٣٥)

ان فيرال وحيد ومنطلق على « حياته الفردية ومنزل ومنفرد » وليس هناك ما يمكنه من ان يقهر حواجز ذلك الضمير الذي لا يعرف الاذاته وجسده . وفي العلاقات بين فيرال وغاليري او من خلال زيارة الماهرة الصينية يصطدم فيرال دائما بشخصه .

(٣٢) فقد الانسان ص ١٢ .

(٣٣) فقد الانسان ص ٥٢ .

(٣٤) فقد الانسان ص ٦١ .

(٣٥) فقد الانسان ص ٣٧٩ .

وخلافا لما يرى هنري ديماتزو الذي يؤكد أنه يوجد عند كل الرجال فيما عدا كلايك الاسم والوحدة ، (٣٦) فقد لاحظنا في تلك الشخصية ، وكذلك في باقي أبطال الرواية ، الإحساس المحزن بالوحدة المعنوية . ولم يستطع كلايك الذي نجح في الإفلات من كل ما يقيم عليه الرجال حياتهم كالحب والأسرة والعمل أن يتخلص من الخوف .

« كان الخوف يفره ويشمره دائما بوحده القاسية » (٣٨)

ويتساءل كيو في لهفة « ولكن من أكون بالنسبة لحنجرى ؟ »

وتظهر المسألة في قلد الإنسان في الكشف المفاجيء لسر ذواتنا ، ويدرك كيو مدى قربته . وتشغله هذه التجربة كثيرا ، ويظل يفكر فيها مرارا . وعندما يصرح ليايه عن متاعبه يرد عليه :

« لقد حدث أن وجدت نفسي لجة أمام مرآة ، ولم اعرف على نفسي » (٣٩)

وتستمر هذه التجربة الغريبة في ذهن كيو ويتذكر مرة أخرى عندما يترك ماي ويدرك حينذاك سبب الوحدة المؤلمة للرجل : ولا يمكن أبدا لاحد أن يكون لغيره مثلما يكون لنفسه . وفي كل كائن « غريب » (٤٠)

(لفظ يقدره تماما البير كمي) وهو غير معلوم وغير قابل للتعرف عليه .

وتربطنا على ذلك فإن التعبير عن الضمير مستحيل ، وليس للرجل أي طريق ليكن مفهومًا ولا يعرف أحد الآخر أبدا . وهذا هو الرأي الدائم للمألوف . ويؤكد الكاتب ذاته بهامش نصي جابتان يكون :

« كلمة معرفة التي تنطبق على الناس تجعلني أحلم دائما . واعتقد أننا لا نعرف أحدا » (٤١) .

• • •

والعالم الروائي المألوف بدون اتصال . وليس الحوار المتعدد بالكتاب في واقعه إلا حنيئا منفردا متتابعا حيث يتحدث كل شخص إلى نفسه ومما أجل نفسه دون مراعاة للمتحدث الآخر الذي لا يتأثر بصحبت الغير .

H. Dumazeau, op. cit., p. 49.

(٣٦)

(٣٧) قلد الإنسان ص ٢١٨ .

(٣٨) قلد الإنسان ص ٤٩ .

(٣٩) قلد الإنسان ص ٤١ .

(٤٠) قلد الإنسان ص ١٩١ .

Malraux in G. Picon, Malraux par lui-même p. 48,

(٤١)

ويلاحظ كيو في قلق أن « ماى بعيدة من فهمه تماما » .

ويقرر جيزور في أسى أن « أحدا لم يصدمرف الآخر » وعندما تنطبق لأول مرة العبارة التي كررها كثيرا « ليس هناك فهم لأحد » على أيه ، يسيطر عليه بالغ الإحساسات المؤلمة تهرق كل شخص **قدر الإنسان** . ولم يستطع تشين طوال سطور الكتاب وحتى وفاته أن يبرأ من « القلق الأولى » الذي كان يلاحقه حتى في أحلامه .

ورقم أن مارو يتقارب مع باسكال في الكثير من النواحي فإنه يختلف منه في وضوح في شأن الحلول المتعارضة التي يقترحها كل منهما من مشكلة القلق . هنا تتدخل وجهات النظر المتعارضة بين هادين المفكرين الكبيرين - وفي الوقت الذي يتييسر فيه لبسكال أن يجتاز قلقه لأنه يؤمن بالله ، فإن مارو الذي يرفض العقيدة الدينية يبدو غامضا في بأس عميق . ولا يستطيع جيزور بعد وفاة كيو أن يتغلب على الآلمه وإنما يأخذ يفكر في « الحظ المزمى الآخرين بصلواتهم وزهورهم الجنائزية » وكما قال الفيلسوف المجوز : أن الناس كلهم يتألمون لأنهم يفكرون .

« وفي الواقع فإن العقل لا يفكر في الإنسان إلا في الخلود ، وليس الشعور بالحياة إلا القلق » (٤٢) .

ومن هنا يبدو القلق الفظيع لكيو « من أن يكون مجرد رجل » . وطبقا لنظرية «إرادة القوة» لنييتشه التي تقول برلع الرجل إلى مرتبة السوبرمان (هكذا قال لوانوسترا) ، يؤكد مارو أن كل شخص يعلم « بالآفلات من قدر الإنسان » ، « أن يكون أكثر من رجل في عالم الرجال (. . .) وإنما إرادة الإلهية : أن كل رجل يعلم بأن يكون إلهيا » (٤٣)

ومن هنا يبدو عبث الوجود ، لأنه من اللحظة التي يستشعر فيها الشخص القلق من انهائي موت عادي - « ذلك الشقاء في أن يكون رجلا » - ويفهم حينئذ أنه أن كل بحث يؤدي إلى سراپ . ومهما كانت إرادته في الوصول إلى اللانهاي فإن جهوده مقضى عليها بنهاية الفرد . ولو بدا قدر الإنسان غير محتمل فمرجع ذلك أن مآل مشروعاته وذاته إلى الموت .

والرجل لعبة القدر الذي كان يرى أن يسيطر عليه لأنه عاجز أمام الموت . ويعترف جيزور بأنه :

« يمكن أن يخدع الشخص الحياة طويلا ولكننا تنتهي دائما بأن نجعل منا ما نحن عليه » (٤٤) .

وفي قدر الإنسان فإن الموت حاضر ومآل في صفحات الرواية . ويستهل الكتاب بالجريمة التي ارتكبها تشين وينتهي بأعدام الثوار . وكل شخصون مارو في شغل بالموت . ويبدو ذلك

(٤٢) قدر الإنسان ص ٢٨٢ .

(٤٣) قدر الإنسان ص ١٩٤ .

(٤٤) قدر الإنسان ص ٢٨٠ .

الموضوع بمق في الرواية الى حد انه يظهر في اسلوب الكاتب واستعاراته : فكيف في غيب « من شعور مجهول هدام كالزمن او الموت » .

وبعيدا من ذلك فان المؤلف يكرر :

« الشيء الوحيد في ذاته والذي كان قويا كالموت » كل تلك الصور الفنية بالفهم تعطي معنى للنص وتبرز اولوية ذلك الموضوع .

والفطرح في الموت انه « يحول الحياة الى قعر » . وبدعا من الموت ، لا يمكن تعويض أى شيء

وتلك الصيغة الشهيرة للعمل يوضحها احدشخص الرواية : « الشيء الرئيسى في الموت انه يجعل ماسبقه غير قابل ابدا للملاج : التعذيب والافتصاب الذى تبجبه الموت ، انه لاسر فظيع حقا . » (٤٥)

والموت هو الذى لا رجعة فيه . وعندما يصح نهاية للوجود بلاعودة فانه يعلى وجهها للظلود ان كان على قيد الحياة .

ولكن الموت لا يحل شيئا ، فهو ليس حلالا للمساءة في قدر الانسان ، وليس مفتاحا في البحث من قيمة الحياة ، كما انه ليس ردا على تساؤل الانسان .

ولو كانت حياة الرجل خالدة فهل تكون أكثر احتمالا ؟ لا ، يجيب جيزور ، لان الرجل يهفو الى القوة الكاملة لا الخلود . وما الموت الا احد اوجه القدر . وذلك الاخير هو الذى يسحقنا :

هناك ايضا بجانب الموت الوحدة والاذلال والام والتعذيب . . . وليس فقط الموت هو الذى يشقى كيو ولكنها ايضا الوحدة :

« من السهل ان يموت الانسان عندما لا يموت وحده » (٤٦)

ونلق كل شخص قدر الانسان ليس مبته الموت ، وانما في ان يكون محدودا بالتبعية والانتفاء

والذى يدفع جنود القطار المسلح الى الياس ، ليس هو الموت ، ولكنه التقيظ من عدم القدرة على الدفاع عن النفس ، والشعور بالشلل والتكبيد بالقيود .

وربما نتقبل الموت مثلما فعل المجوز جيزور كما يصح حتى ان نبغى الموت لذاتنا وليس لمن نحب ولا لاولادنا مثلا . ولقد كان جيزور متصلا بالرجال ومتعلقا بالحياة من طريق كيو ويمد وفاة ابنه تملكه حزن شديد .

٤٥) المارو العمل ص ٢٢٦ .

٤٦) قدر الانسان ص ٢٥٦ .

« لقد هوى الى ذاته ولم يعد للعالم من معنى » (٤٧)

وهكذا ، وبما مالرو ، فان الرجل مقيسنى عالم لا معنى له ولا يمكن الاغلات منه الى الخلود ، وهو فائد لكل سبب لمعنى وجوده . ولكن مالرو كرجل عملى لا يتبع فى التشاؤم . فهو يعمل ويقيم عملا ايجابيا يصبو الى السيطرة على القدر . وكان يلوح لكىو ، كما هو الحال مع خالقه ، انه « اذا لم يتمكن من ان يهيمن على الموت فانه يواجه حالة قاسية من اللعن »

ويرفض مالرو بشدة الخضوع للموت ، وليست كل مؤلفاته الا ارادة السيطرة على الانشغال بالموت والقدر . وقد قال جايتسان بيكون :

« لا شك فى ان سارتر كان محقا فى قوله بان الرجل فى رأى مالرو وكذلك هيدجر هو كائن الى موت » . ويصحح مالرو فى الهامش :

« وبدلا من القول الى موت نقول شمس الموت ؟ فان الظاهر قد يبدو متشابها » . (٤٨)

ونشير : بداية الى الحلول الخاطئة التى يعرضها جيزور . فالفيلسوف المجهز يرى انه يتعين نسيان القلق بالمخدر او العشق الجسدى .

« يجب تخدير الانسان (هكذا يقول) : ذلك لبلد بلد الافيون والا سلام الحشيش وفى الغرب المرأة . وربما يكون الحب على الاخص الطريق الذى ياجأ اليه الغرب للتحرر من قدره الانسانى » (٤٩)

ويوضح الكاتب عدم جدوى تلك الوسائل ، ولقد حللنا من خلال فىرال فشل العشق الجسدى الذى يعجز عن الانشغال بشيء آخر غير ذاته ، فهو ليس سوى رغبة فى اذلال المرأة ، ليشعر ذاته بان فىرال يعمل على امتلاك كائن آخر ، ويظل بعد ذلك منطويا على نفسه فى وحدته . والمخدر أداة اخرى للتهرب من الانشغال بالموت ولكن ذلك السبيل للاغلات من الواقع ليس الا وهما وليس هروبا حقيقيا . وعندما يلجأ جيزور الى المخدر ليتحرر من نفسه وينسى الامة يقول : « ثمة عوالم للتأمل بفعل الافيون او بدونه حيث كل شيء بلاية قيمة » (٥٠) .

وهناك وسيلة خاطئة اخرى هى المير الذى انتقاد اليه كلايك بالمخاطرة بحياته وعلى الاخص « بحياة آخر » يتمثل بحاسسات قوية يعجز عن ان يجدها فى حياته المتواضعة . ويدين الكاتب حين تلك الوسيلة التى لا تعرض المقامر الى خطر حقيقى ، وليست بالتالى الا « انتحارا بلا موت » .

(٤٧) قدر الانسان ص ٣٤ .

(٤٨) G. Picon, *Malraux par lui-même*. p. 75.

(٤٩) قدر الانسان ص ١٩٢ .

(٥٠) قدر الانسان ص ٥٠ .

وأوهام كلايك طريق ايضا لنفى وجوده . وحتى يتمكن من التذليل على تحمله الحياة يتعين عليه ان يتغيب عن حياته ويخوله كل شيء لذلك . الكحول والخيانة وتغيير الحالة المدنية ...

« كلا فلم يكن للرجال وجود طالما تكفى مسترة للأفلات من ذواتهم ، وللعثور على حياة اخرى في ميون الآخرين » (٥١) .

فليس هناك اذن سلام متاح في الهروب خارج قدره . ولا تتوانى عوالم فيرال وجيروز وكلايك من كشف فشلهم . وليس العشق الجسدى والفسق الا « جنات مصطنعة » .

ومن جديد يفرض نفسه هنا التقارب مع باسكال . وذلك المجهود المستمر واليائس للأفلات من ذاته هو الموضوع الاساسي للترفيه .

« الشيء الوحيد الذى نجد فيه العزاء من يؤسنا هو الترفيه وهو ايضا مبعث تعاستنا لانه هو الذى يمنعنا اساسا من التفكير في انفسنا ويجعلنا نلوى بلا ادنى شعور » (٥٢) .

ولا يتوقف مالرو عند تلك المرحلة اليائسة ، فهو يؤكد ان في الامكان دائما وجود سلام « لو كان الرجل قادرا على اجتياز حياته بقدره وتمدى قدره في الحرية بان يكون ذاته » .

ومعكس ذلك الترفيه الذى لا يؤدى الى نتيجةما والحلول الخاطئة ، يمارض الكاتب قيما حقيقية وخالدة . ولكي يقهر افراد اليأس لا تكفى ارادة الحياة ، لان الحياة للحياة بلا أى معنى . ويوضح الكاتب ان الامر لا يتعلق بالحياة فقط . . . وانما بالتغلب على كل ما يرهق الرجل : الوحدة والاذلال والهزيمة ...

ولكن الاحساس بالانسانية المقضى عليها لاحتمية الفشل ، بدلا من ان يجعل مالرو يرفض كل قيمة معنوية فقد دفعه الى الاعتراف بالبطولة والكرم والاخاء والكرامة



ولا جدال في ان تلك القيم الخالدة هي دعامة للدين وتجد تعبيراتها الاختازة في عدة تجارب دينية ، ولكن - وعلى سبيل التعديد - فان أهمية وطرافة كتاب مالرو تمثل في استعادة ذات القيم خارج كل دين واعطائها تفسيراً وبريراً جديداً ، لان الفضائل المعنوية لا قيمة لها الا بتماملها مع الاخلاص والمماثلة للانسان الذى يهبط منها . ولقد عبر الكاتب بنفسه بوضوح ودقة عن الوحدة المعيقة « واستمرار » مؤلفه وفكره . وهو يؤكد ان المسألة الكامنة في كل كتاباته تبدو في التساؤل التالي :

« كيف ننبه الرجل بأن يوسسه ان يقيم عظمتيه ، بدون دين ، على الفناء الذى يسبقه » (٥٣) .

ويحاول مالرو ، مثل نيتشه فيما مضى ، ان يجد خارج كل عقيدة دينية سبيلا لرجل لتجاوز ذاته واسترداد فكرة التقديس .

ويصور **قعدو الانسان** تماما ذلك البحث عن المطلق ، والبحث فيما هو اعلى من الرجل اى فيما يدعوه للحياة ، الامر الذى لا يختلف عما يدعوه للموت .

لذلك يجعل مالرو ابطاله يواجهون دائما الموت . ولكن اذا لم يوجد هناك الخلود فلماذا يكون الرجل متاهبا للمغامرة بحياته ؟ ويجب بطل **قعدو الانسان** على ذلك السؤال الاساسي : « ما قيمة الحياة لمن لا يقبل الموت من اجلها » (٥٤) وحالة تشين خاصة . فهو يبدو لنا للوهلة الاولى كبطل يفامر بحياته لقضية الثورة . وتبينت لنا فيما بعد البواش التي دفعته ليقول : انه مآخوذ بجريمة القتل . ويصبح الازهاب بالنسبة له امرا جذابا يفتنه . ويحاول مع ذلك التخلص من ذلك القدر المأساوى بمحاولة « الموت في ارفع مراتبه » وذلك الشخصية المعقدة « روح طموحه واضحة الى حد ما ومتفصلة بعض الشيء عن الرجال او مريضة » تحاول ان ترفع من شأن عمله وتعتزم ان تضحي بحياتها في سبيل قضية الثورة . لان لو كان قدرها هو الموت فيتمتع السيطرة عليه - لانتفاء الخلود الذى لا يؤمن به تشين وخالفه - والتأكد من مدة غير فترة الوجود الفردى . ويمثل انتصار تشين في ان يموت بمرأى وشهادة بي الذى يقول له :

« انت الذى تكتب ، سوف تقوم بالتفسير »

وليست شخوص مالرو بمغامرين عاديين ، فهم يريدون دائما ان يلحقوا الموت في بطولة تتماثل مع حياتهم . ولم يكن لكبر الا حلا واحدا وهو في سجنه وقد علم بالحكم بامداده : ابتغاء الموت بدل من تحمله : لان « الموت امر ملهى ، ولكن قتل النفس عمل ايجابى » ويبتلع البطل قرصا من السيانور الذى يحتفظ به كل مجاهد في جيب حزامه .

ويعد ان اعطى كاتوف السيانور بكرم الى اثنين من زملائه الفرعين ، يواجه بشجاعة فائقة الموت الفظيع الذى يفرضه عليه القائلون بتعديده ! ، وتقوم بطولة تلك الشخصية الخيرة على الرغبة في الموت بدلا من انتظار السقوط والاذلال .

ومدكرنا تلك البطولة غير العادية ، والى خدميين ، ببطولة كيو الذى لا يسمح برؤية مجنون يجلده حارس السجن في وحشية ويحول قسوة ذلك الاخير : الى شخصه . وبالنسبة لكيو مثلما هو الحال بكاتوف ، فان المبدأ واحد : ابتغاء الموت لا الاذلال .

وننتقل الآن الى موضوع رئيسي في كتاب مارلو وهو : كرامة الإنسان .

• • •

تأكيد كرامة الإنسان

لتقديم افضل تعبير عن ارادة الكرامة ، اقتضى الأمر ان يبدأ مارلو بتصوير الامتحان في احط درجاته الذي يفرضه رجل على آخر . ومبررات الاذلال في **قدر الإنسان** متعددة . ولا يذكر البؤس ابدا لدائه . فالكتاب يعمل على ان يبين آثاره على الوجود الانساني . فهو لا يؤدي الى الآلام وحدها ، والانهياء الجسدي ، ولكن آثارها اعمق واخطر من ذلك : فهي تلحق بالكائن ذاته وتسليه ماديا ومعنويا . ويقول الكاتب « هؤلاء الفزانون الذين يعملون ستة عشر ساعة يوميا منذ طفولتهم والشعب الجريح والرييض والجائع » (٥٥) .

ويبدو مارلو الذي كان في عام ١٩٣٣ لا يزال في عهده الشيوعي كأنه يتعامل مع موضوع من وحى كارل ماركس . ففي الصراع بين الطبقات لا ينصرف بحث البروليتاريا الى تملك الاموال المحرومة منها وحدها وانما تحاول ايضا الحصول على استقلال يقلل من شأنها الحرمان منه .

ويقول ماركس في **وثائق عام ١٨٤٤** :

« ان رفع الاجور (. . .) ليس الا سداذا لاجور اعلی للمبيد ولا يمهّد للعامل مستقبله ولا كرامته الانسانية » (٥٦) .

والكرامة التي لا يوجد بدونها كيان انساني حقاً لازمة أيضا للرجال لزوم العلاقات المادية لهم . ولقد كانت فكرة الكرامة هنا غرضاً اسامياً للثروة ومطلباً للعديد من المفكرين الذين اهتموا بالمسائل الاجتماعية . ويؤكد روجيه مارفان دي جاود :

« يجب ان يعطى الفرد ليس فقط نصيبه المادي في ارباح العمل وانما ايضا ذلك النصيب من الحرية والراحة من العمل والرفاة ، وبدون ذلك لا يستطيع ان يتشكل مع كرامته كرجل » (٥٧)

ويدين اراجون في شدة النظام الرأسمالي الذي لا يتروك للمحرومين الا « الموت والاذلال » (٥٨) .

وفي **التهاب لسانتر** ، يقسول اوريستلا بيجيت بين ضربتين من السيف .

(٥٥) قدر الإنسان ص ٢١

Karl Mar, Xennscrits de 1844.

(٥٦)

Roger Martin du Gard, Oeuvres complètes, Gallimard (Bibliothèque de la Pléiade), 1955. Tome II, L'Été 14 p. 371.

(٥٧)

Louis Aragon, Les Beaux Quartiers, Denoël et Stœl, 1936, p. 319.

(٥٨)

« من العدل أن تسحق أيها النذل القذر وأن تقوض إمبراطوريتك على أناس أرجوس ، ومن العدل أعمالهم الإحساس بكرامتهم » (٥٩) .

وكما هو الحال عند مالرو فإننا نجد من المذهب الماركسي للصراع بين الطبقات بينما تقدم رؤيته نقاطا مشتركة مع العديد من المفكرين اليساريين وحتى الشيوعيين المتطرفين منهم .

ومن مالرو فإن الصراع بين الثوار هو صراع قبل كل شيء من أجل الكرامة وإبعاد مرمى من أن يكون قهرا السلطة وانتقاما للضمير الذي طال المدى باذلاله والذي لا يسهه أن يتحمل أكثر مما احتمل من الهوان . ويحدد محاربو شنفهائ في *قصر الإنسان* « الذهاب إلى فزو عيشهم وكرامتهم » (٦٠) .

وبالمقابلة مع لوحة يؤس واحتقار المجندين الشيوعيين فإن الكاتب يقدم صورة لانحدار روسية ييشاء راقصة محترقة في « القط الأسود » واستقلالا عن كل الآراء السياسية ينمى الكاتب على هذه المرأة انقارها للكرامة شأنها في ذلك شأن المقاتلين التعماء وتقول :

« كان لجدي الأكبر أرض طيبة ولقد رحلنا بسبب الشيوعيين ، أليس كذلك ؟ وحتى لا تكون مع الناس كلها وحتى تكون محترمة :

هنا نحن الثنتان على المائدة وأربع في الغرفة

ويجب دفع الإيجار . محترمة » (٦١)

وكلما يستغرق هيمرليتش في ذكرياته يعترف في مرارة بأن حياته لم تكن إلا استمرارا للذل والهوان .

« تلميذ خائب بالمدرسة : بتغيب يوما كل يومين ولتتمكن أمه من أن تعمل في هدوء تجعله يقوم بأعمالها . والصنع : يدوى . روح شريرة في وحدته العسكرية ، ودائما في السجن . والحرب . فازت سامة . لمن ولأجل ماذا ؟ البلدة ؟ أنه لم يكن بلجيكا ، لقد كان بالسا » (٦٢)

وكما هو الحال في الصراع مع الشغل بالموت فإن شخوص *قصر الإنسان* تتبع طرقا مختلفة في السلوك وغالبا ما تكون متعارضة ، ففي الصراع ضد الإذلال يلتزم كل شخصية بالطريق الخاص بها .

وكان رد الفعل عند كوتيج قاسيا ومهينا . فقد خدم ابتداء في سيبيريا في الجيش الأبيض ، وعندما قبض عليه الشيوعيون قاموا بتمذيبه ، واحتلوا نقبا في كل من كتفيه ، وبكى أمامهم .

ولن يستطيع ابدا ان ينسى تلك الالهانة . ومنذ ذلك الوقت لم ينضم الى كومناتنج الا ليشار بقتل اكبر عدد ممكن من الشيوعيين .

ويعترف كلاييك بان رد الفعل القوي والعاصف لدى كونييج امر مألوف لدى اولئك الذين لحقت بهم اهانات بالغة .

« لقد شاهد خرابا خلفته الحروب الاهلية في الصين وسيبيريا بقدر يكفى ليعرف كم يدفع الامتحان الشديد الناس الى اكار العالم . وان الذى يسفك بعناد والمخدر والانهيار العصبي ، كل ذلك ينفذ مثل تلك الوحدة » (٦٣) .

ولان « الوحدة والتحقير التام » (٦٤) امران ملتصقان بلقب الانسان ، ويؤكد الكاتب في اكثر من موضع ، الصلة الوثيقة بينهما .

ولقد كان فيرال في حاجة الى احتقار الآخرين ليؤكد بنفسه « انه كان يحس بتبعيته لكل قوى العالم . ولكن كانت هناك « فاليري » التى لم يكن يتبعها » (٦٥) . ويقرر بعد ذلك ان يخضعها ويضعف عليها ويهينها . ولكنه ، وقد سخرت منه فاليري ، يحطم بمشاهد من السلامة والافتصاب والتعذيب التى كان يريد اجبارها عليها .

ويبقى تملك اول غانية يقابلها بفرض التخلص من الكبرياء الجنسى المردول الذى كان يحطمه . وعلى النقيض من الانفعالات السلبية الدنيئة التى بدلا من ان تحرر الانسان فانها تهبط به وتستميده اكثر فاكثر ، وقد عرض الكاتب امثلة عديدة ايجابية مصورا ارادة العز والكرامة .

ولو ان هيميرليتش قد اسهم بمنف في المعركة الثورية فقد كان ذلك لان الامر يتصل بالنسبة اليه بثورة الكبرياء الانسانية وباهانة يتعين محوها . ويصرخ في غضب عند الهجوم على العدو :

« كانوا سيقضون علينا طوال حياتنا ، ولكن ذلك الشخص سيمحو تلك الالهانة » (٦٦) .

وعند نجاحه في الافلات من اخماد شاتنج - كاي - تشيك للثورة يعمل منذ ذلك الحين كعامل بمصنع للكهرباء . ويفضل ذلك العمل الجديد يكتشف هيميرليتش اخيرا معنى لوجوده :

« انها اول مرة في حياتي اعمل فيها وانا اعلم لماذا دون ان انتظر الموت بفارغ الصبر . . » (٦٧) ويكون العمل بالنسبة للمارو جوهر الرجل ، والفعل الذى يتطور به دائما . وذلك التوافق التام بين الحاجة الى العمل وازدهار ما يؤديه موضوع اساسي لباسكال .

(٦٣) قدر الانسان ص ٢٢٧ .

(٦٤) قدر الانسان ص ٢٢٨ .

(٦٥) قدر الانسان ص ١٨١ .

(٦٦) قدر الانسان ص ٢٢٢ .

(٦٧) قدر الانسان ص ٢٧٧ .

- « سعداء أولئك الذين يحبون تماما وبحرية مايجب عليهم ان يحبوا بالضرورة » (٦٨) .
- وكم من المرات اشد زولا بالعمل الذي يعتبر بالنسبة اليه القانون الوحيد في العالم :
- « ليس لى الا عقيدة وقوة واحدة وهى العمل » (٦٩) ويثنى شابل بيجى على « ذلك الاصل العامل » (٧٠) ، ويمتدح اراجون ايضا « عقيدة العمل » (٧١) .
- ويرى مالرو في الرجل كائننا اجتماعيا يتشكل بنشاطه . ويؤكد بطل **فعل الانسان** :
- « ليس هناك كبرياء متاحا ولا حياة فعلية لرجل يعمل اثنتى عشرة ساعة يوميا دون ان يعرف لماذا يعمل . لقد كان يجب ان يكون لذلك العمل معنى ويصبح وطننا » (٧٢) .
- وفي الوقت الذى تنكيف فيه الحيوانات بجمال الطبيعة ، فان الرجال يشيرونهم ويتغفرون انفسهم . ولقد كتب كارل ماركس في **واسى المال** :
- « ان العمل فعل يتم بين الرجل والطبيعة في الدرجة الاولى » (٧٣) .
- ذلك الفعل بين الرجل والطبيعة صوره مالرو مرات عديدة يتناول موضوع « القوى الانسانية » في الصراع ضد الارض وذلك في **فعل الانسان** وكذلك في **اشجار جوز التنبؤ** .
- وطبقا للمفاهيم الماركسية يؤكد بيجى وهو الشيوعي الشاب في **فعل الانسان** ان دور العامل الحديث يقوم اساسا على عمله . ويتخصص حياة اكثر عملا دائما واكثر قوة واشعاعا في خدمة الانسانية ، يشعر بدوره كخلاق .
- « ان المدنية تتغير عندما يصبح فجأة لعنصرها الاكثر ايلاما - اذلال الرقيق والعمل لدى العامل الحديث - قيمة وعندما لا يعود الأمر متعلقا بالهروب من ذلك الاذلال ، وانما بانتظار امن لدائه ، والهروب من ذلك العمل حيث يجد فيه سبب وجوده » (٧٤) .
- وود الفعل ضد الاذلال شيء آخر عند الفكر** . فان كيو وقد ادمته خيانة ماي يثنى من الالم الذى الحق به اكبر اهانة (٥٧) . ولكنه يصل الى التقلب على غيرته وان « يثمر من جديد على حبه لزوجته » .

Emile Zola, Discours prononcé le 18 mai 1893.

(٦٨)

Charles Péguy, Oeuvres en prose 1909 - 1914.

(٦٩)

Gallimard (Bibliothèque de la Pléiade), p. 1109.

(٧٠)

Aragon, Les Beaux Quartiers p. 383.

(٧١)

(٧٢) فعل الانسان ص ٥٩ .

Karl Marx, Le Capital, Paris, Editions sociales, Tome I, 1948. p. 180.

(٧٣)

(٧٤) فعل الانسان ص ١٧٧ .

(٧٥) فعل الانسان ص ٤٥ .

كيو من أبوين مختلفي الجنسية ولا يتبع أصلاً مديناً وهو محترق من البيض وعلى الأخص من النساء (٧٦) ، واهتمامه الشيوعية مسألة شرف فقط « إرادة الكبرياء » (٧٧) . وليس الأمر بالنسبة إليه تنظيم العالم ولكن أن يكون نبيلاً ويموت (٧٨) . وهكذا يفسر كيو لكونيغ انضمامه إلى حزب الثوار :

« أرى أن الشيوعية ستوفر الممكن من الكبرياء لذلك الذين أحاربهم » (٧٩) .

ولقد كان انضمام المفكرين إلى جانب العمال الموضوع الاساسي لكل الكتاب حول عام ١٩٣٣ . ووقع عدد كبير منهم تحت اغراء الماركسية وتقايروا مع الحزب الشيوعي الفرنسي . لأسباب مختلفة وظروف متباينة . وأبدى اناتول فرانس الحاصل على جائزة نوبل في الآداب في عام ١٩٢١ تأييده للحزب الشيوعي الفرنسي وأشاد بالثالثية الدولية والسلمية للشيوعية .

وقام المفكرون الشباب الذين كانوا يديرون مجلة « كلارتيه » بترويجها نحو استنكار الحرب والثقافة البورجوازية ، ودفع الاحتجاج على القيم البورجوازية والرغبة في الثورة الكاملة من هم أكثر من السريالين إلى الانضمام إلى الحزب الشيوعي . ولقد كان تهديد الفاشية هو الذي شجع الكثير من المفكرين للانخراط ضمن ذلك الحزب في الوقت الذي كانوا يجهلون فيه كل شيء عن الماركسية . وفي الواقع فإن تهديد الفاشية وفيما بعد نجاح الجبهة الشعبية (عام ١٩٣٦) والحرب المدنية الإسبانية والمقاومة الفرنسية والصراع ضد الحرب في الجزائر ... كل تلك الأحداث أسهمت في إعطاء الحزب أهمية كبيرة لدى الأوساط الفكرية . وحدثت فسفط الأحداث التزام في مسلاية أندريه جيد وأندريه مالرو وجان بول سارتر وجان جيمونو وجان جيهينو - ونحن نذكر هنا كبار - جانب الشيوعيين . واشتركوا في أوجه الأنشطة الضخمة في ذلك الوقت وقدموا مراكزهم ونفذهم إلى الجانب الثوري كما وضعوا أحياناً أقلامهم في خدمة الحزب الشيوعي الفرنسي . وذلك النخبة من كبار الكتاب ، مع ميولهم للشيوعية ، كانوا على حذر ، ولم ينضموا رسمياً للحزب الشيوعي الفرنسي . والكثيرون وعلى الأخص مالرو (في عام ١٩٣٩) هجروا الحزب لقيام الخلاف على خط سلوكه ومذاهبه الثقافية .

والجدير بالذكر هنا أن كتاب مالرو الذي يتناول مع ذلك الثورة الشيوعية في الصين لم يتبع أي حزب يعني أو يساري ، ولقد منعت روايته الفرقة من الدخول إلى روسيا السوفيتية كما حدث أيضاً في إيطاليا الفاشية : ومن ثم فقد قامت دار النشر (جراسيه) بأعمال الدعاية لذلك الكتاب . ويمكن أن نطبق على قتل الإنسان ذلك الرأي للويس جيليه الذي أبداه من الأمم :

« أننا في دهشة الغياب التام لمسائل الفائدة والأجور وبالاختصار لكل ما في الفكر الماركسي » (٨٠) .

(٧٦) قتل الإنسان ص ٥٩ .

(٧٧) قتل الإنسان ص ٢٢٥ .

(٧٨)

(٧٩) قتل الإنسان ص ٢٤٢ .

(٨٠)

Louis Gillet, *Les Nouvelles Littéraires*, 8 Janvier 1938.

Louis Gillet, art. cit.

وشخصية تشين توضع تماماً هذه الناحية . ولو كان ذلك الشاب قد ساهم في العمل الثوري فان مرجع ذلك العوامل الشخصية المحضة . وإذا عمل على قتل شاتج - كاي - تشيك فان ذلك القتل كان حتمياً بالنسبة له وحده ، وكذلك فان المعنى السياسي والاجتماعي لعمله يتوارى تماماً . فهو لا يرى في جريمته إلا أداءاً لعمل بطولي وضروري لسد فراغ اليم لروح متعطشة للمطلق . ويبدو ان تشين قد وجد في لحظة وفاته ترضية كان يبغي إليها ، ومع ذلك نستشعر فشلاً لا يسع إنكاره : لقد دمر نفسه سدى . لأن عمله انصرف الى لا شيء ، ومستظل وحده بلا رجعة .

والاعمال الإيجابية الوحيدة هي تلك التي قامت فيها الثورة بتهرب الارهاب ، فتلك الاعمال التي تتمثل في سلام الشعب الصيني تعلو على المثل الأعلى الدالني .

وبالنسبة لبطل **قادر الانسان** كما هو الحال بالنسبة لمارلو فان اختياره السياسي مشروط فقط بالقيمة المعنوية التي يقدمها للعمل الثوري ، والصراع في جانب التوار لا يعنى بالنسبة اليه إلا « ان يهزم هنا كرامة ذويه »

وكل اعمال مارلو ليست إلا شذوذا مؤثراً لمجد الكرامة الإنسانية :

« كان لصياة كيو معنى يعرفه : ان يعطى كلام أولئك الرجال الذين افنتهم المجاعة في ذلك الوقت وكانها طامون بطيء ملكية الكرامة » (٨١)

تلك الكلمة التي غالباً ما يخطها قلم الكاتب تنوالياً تقريباً في كل صحيفة من صفحات الرواية وفي استطاعتنا ان نتبين عبارات عديدة تكشف عن أولوية ذلك الموضوع . ويقول كيو للمعال :

« طالما المصير الى الموت فلنمت لكي نصبح رجالاً » (٨٢) والمبدأ الأساسي لكيو هو الاتي :

« كل ما يجعل الانسان يقبل ان يموت من أجله يتجه في غموض الى تدمير ذلك القدر يجعله كرامة . » (٨٣)

وحتى يتفصح استخلاص ثقة الرجل في غيره ورغبته في حياة افضل تعين على مارلو ان يظهر لنا بطريق التناقض سحق وتعاصة كل الذين تحملوا الاحتقار الانساني . ذلك الهبوط الى الحجيم لازم لنهم افضل لاحتجاج اكبر لا يمكن اخماده من التوار ضد الظالمين . وتلك البشاعة القبيحة للسجون وبؤس المسجونين ، وانحطاط الضحايا ، كل ذلك صورته مارلو بكفاءة قلته ، وفرغ علينا تلك المشاهد التي تؤثر في ايماننا .

« ومع هذا ، وإيا كانت الاداة التي نقلتها اليها ، فان اللمر كان موجوداً - ليس هو الخوف ، ولكنه رعب الحيوان والرجال وحدهم تجاه الوحشية اللا انسانية » (٨٤)

(٨١) قادر الانسان ص ٥٩ .

(٨٢) قادر الانسان ص ١٢٢ .

(٨٣) قادر الانسان ص ١٩٤ .

(٨٤) قادر الانسان ص ٢٥٠ .

اندريه مالرو : « قدر الانسان »

ويشعر كيو حتى « بالرغبة في ان يتقياً الاذلال الذي يحس به كل رجل امام رجل يتبعه » (٨٥)

• • •

اشخاص غير عاديين

طالما اخذ على مالرو الوجه غير العادي لشخصه . وبلا شك فان ابطاله يسعدون لنا كرجال يبحثون باستمرار عن تجاوز انفسهم ، وينجحون في التفوق على ذواتهم بفضل ممارستهم الحرة . ويقول جان جييهنومن قدر الانسان :

« كل الشخص الذي يظهر هنا غير عادية ، وربما نترك كيف يجب ان نعيش بدلا من كيف نعيش » (٨٦)

ويضيف جوزيف هوفمان :

« بقي ان نتساءل دائما ، اذا كان قدر هؤلاء الابطال امرا غير عادي بدلا من ان يكون مثاليا » (٨٧)

وما يريد مالرو التمييز عنه في اعماله هي القيمة والمظنة المكنة للرجل وادائه في اقامة انسانية الفصل . من هنا تحفل اعماله الفنية بمشاهد البطولة والمديد من الامثلة من الكرم والاخلاص والاخاء وكل المشاهد الكبيرة عمله هي كما قال جايتان ييكون « تمجيد للاخاء » بينما الاحساس بالعزلة الفردية احدي المآسي الكبرى بالكتاب ، وانتصار كيو وكانوف وهيميرليتش وبني وماي في تضامنهم مع الشعب البائس الصيني ويمكس العمل الوجودي والموت بلا جدوى لنشين يمارض الكاتب انتصار بطولية كيو :

« ان موت كيو وسط مهمة اخوية لجموع من المتهورين حيث يعرف الكثيرون شهداءهم ، ومن خلال تلك الاسطورة الدموية يصنعون اساطير ذهبية » (٨٨)

وتظل المشاهد الشهيرة وهي اعطاء السيانور لرنانق النضال في ساحة السجن اكبر رمز لانتصار الاخاء ، ويقابل مالرو عدم التلاقي بين الناس بتألف كيو وماي بفضل تأكيد حبهما . وان قلقي كيو يعود الى شعوره المؤلم بتجاهل ماي وهو شعور خففه قوله « انا لا اعرفها الا بقدر ما احبها » .

وذلك التضامن اكثر تأليرا عندما يدغم وحدة الثوار . ومن خلال الانتماء الى ذات المثل الاعلى والاحساس بالمآل يتلاقى كانوف وهيميرليتش :

(٨٥) قدر الانسان ص ٢٢٦ .

Jean Guéhenno, t. ١, "Le Tragique et le quotidien" Europe, 15 Juin 1933. (٨٦)

J. Hoffmann, op. cit., p. 373. (٨٧)

(٨٨) قدر الانسان ص ٢٥٦ .

« يجب ان تفهمنى دون أن أقول شيئا . ليس هناك ما يقال » (٨٩)

وكل مؤلف مالمو يقوم على كتابة « أسطوره البرولينتاريا » والثورة فرصة مواتية لتخلق للرجال اسبابا بطولية ليعيشوا ونظاما للقيم قادر على تحويل الوجود وجعله أكثر نبلا . وموضوع الثورة هذا من افنى أعمال مالمو إذ تلتقى فيه كل موضوعاته الأخرى ... وبالنسبة للثوار في **قصر الإنسان** فإن الثورة هي الوسيلة الوحيدة لتحرير الرجل . ومن خلال المعركة يجابه الإبطال مختلف أوجه القدر : الميت والقلق والخطور والموت ... وبالتالي يتمين عليهم اظهار فضائلهم الإنسانية : للإرادة والشجاعة وروح التضحية : مثل كيو وكاتوف اللذين يبذلان في بساطة عطاء أكثر من حياتهما في سبيل انتصار قضيتهما .

وتمثل الميزة الكبرى لكاتب **قصر الإنسان** في توفيقه المثير للاعجاب بين الفعل والفكر . فهناك مناقشات ذهنية ومعارك شرسة تتوالى على لتعاقب . ولو كان الفعل في **الغزاة والطريق الملكي** يبدو عند مالمو قوة فكرية محضة ، وأحيانا مستلهما من نيتشه ، ففي **قصر الإنسان** ، يصبح العمل البطولي المحض ، الذي يكاد يكون بلا مقابل ، أكثر إنسانية . والأمر لا يتصل بالعمل المجرد العمل . وكل القيم المعنوية الرقيقة تحيي النص كله : إرادة وقضاضم وإخاء رجولى بين المحاربين اللذين يتصارعون ويتألمون لتأكيد كرامتهم .

ولقد أخذ أيضا على مالمو حواراه الطويل وآراءه اللذين يتحدثون فيما بينهم من معنى الثورة والقدر ، وكذلك مجموعة من الخطب المجردة للمفكرين اللذين يتساءلون عن قيمة أهدافهم وأعمالهم . ويؤكد هنرى دى مونترلان ، وهو مع ذلك معجب بذكاء وعمق كتاب مالمو :

« أخذ أحيانا على تلك المحادثات أنها تلمس الانتعاش وجيشا من المفكرين كما في روايات ما قبل الحرب حيث الشخصوس وبلا استثناء ذات ذكاء » (٩٠)

ويأسف مونترلان لأن مالمو لم يقدم في كتابه إلا إنسانية رقيقة ، متجاهلا من هم دونها . في حين أننا في الحرب كما في الحياة لا نختار الأشخاص اللذين نعيش معهم وبالتالي نقابل حتما « المغفلين » أو الرافلين اللذين لا يشاؤوننا حتما .

ذلك التعليق من مونترلان يذكر بالملاحظة الشهيرة التي وجهها جيد الى مالمو :

« ليس هناك مغفلون في مؤلفاتكم » ويرد مالمو :

« أنا لا أكتب لأصابق نفسى . أما عن الأشياء فالحياة تكفى » (٩١)

ومن لم يجب علينا ان نعتزف بان **قصر الإنسان** ، طبقا لمعنوايه ، يبحث في همق المسائل الأكبر أهمية والأعظم إثارة للقلق والتي تطرح على الرجل . ومع ذلك فإن تلك الرواية لا تقدم لنا

(٨٩) قصر الإنسان ص ١٧٨ .

(٩٠) Henry de Montherlant *Carnets* 1930 - 1944 (année 1938) Editions "Gallimard,"

1957.

Cité en marge du texte de G. Picon, *Malmou* par Luc-méme p. 44.

(٩١)

نوعيات انسانية مختلفة كما هو الحال مع بلزاك وتولستوى أو ديكتز مثلاً . فكل شخصيات مالرو واحدة « الكل يتشابه بمطابقة نظيمة واحدة وبأس فظيع واحد » . (٩٢) واختياراتهم دائماً واحدة وبذات المبنى : والكل يتصارع ضد سحق الرجل . ومن اليسير تفسير تلك « الرتبة الواضحة » (٩٣) فإن شخوص مالرو ليسوا الا صورة لشخصية الكاتب ذاته . وما يتميز به ذلك الصنف من الابطال الذى ابتغمه مالرو هو القدرة على العمل والثقافة ووضوح الرؤية وهي ليست صفات عميقة للكاتب ذاته .

وانها لعقلية مالرو التي نجدنا في شخصياتها وفي احاديثهم . وتماثل هؤلاء الابطال وتشابههم فيما بينهم يرجع الى أن ملامحهم هي ذات ملامح خالقهم . فلهم ذات الدوق في التفكير وفي العمل وهي الصفة الغالبة عند مالرو .

وكما أن شخوص الكاتب ليست إلا انعكاساً لذاته ، فإنه لا يرسم بالتالى إلا شخوصاً هو قادر على تقديرهم ، أو تحسب بمشاعر يسعه هو أن يحس بها . لأن « مالرو يفهم أكثر مما يصور » . (٩٤) ومثل ذلك الاتجاه يمنح الكاتب من تكوين شخصيات يستنكرها أو تكون غريبة عنه . وكما أوضح جايتمان يكون في تحليله فان كلاييك وجيزوراو فيرال ، لو كانوا قد قدموا بعض المظاهر التي يرفضها الكاتب فان مالرو لم يصورهم يوضحوا إلا أنه احس بمشاعر مشتركة في بعض الاوقات من وجوده : اوهام كلاييك والتهدئة بالآليسون وتذوق العمل للقرة عند فيرال — إذ هناك دائماً بين الكاتب وشخصياته الانفاق الكامل بين الخالق وبين مخلوقاته : وهو التفاهم .

وذلك التفاهم ذاته يمتقنه مالرو أيضاً تجاه معاصريه .

« لم يوقع أبداً الا على نقد يقوم على الإعجاب » (٩٥)

ولم يتحدث أبداً إلا عن كتّاب يقدمهم : نيتشه ، لاكلو ، فولكر ، جيد وبيرنانوس

ولما كان مالرو يرفض أن يصور شخوصاً لا يستطيع فهمها فإنه لم يصور أبداً الاصلاء . ويتقاتل كل نوار لندر الانسان في شراسة ضد أفكار مجردة ضد ظلال لم ترسم في دقة . فليس لجنود تشانج — كاي — تشيك ولا لمبنى كيوكوكاف أى وجود خاص بهم . ولم يمثّلوا في الكتاب إلا تبعاً للأبطال ، وليس لهم من دور الاظهار قيمة الابطال .

وبالنسبة لفيرال التابع للجانب المادى والذى يقاتل الثوار فان الكاتب يرسمه بحياد وموضوعية . ولمالرو الفضل في أن يحكم بانصاف وتفهم على هذا الشخص الذى يدينه مع ذلك .

Robert Brasillach, art. cit.,

(٩٢)

G. Picon, Malraux par Lui-même p. 49.

(٩٣)

Ibid., p.35.

(٩٤)

Ibid., p.30

(٩٥)

وخلافا لما ذهب اليه الكتاب المتزعمون المعاصرون ، فان مالرو يرفض تحقير العدو او امتعانه . في حين ان اراجون في رواياته يتخلموقفا متحازا في ثبات ، ويقابل صورا هزلية بتمجيد شخص مثالية . وبالعكس فان مالرو يبرر اعمال فيرال ويمنحه صفات معينة : الاستقامة ، ومعنى العمل ، وقوة الخلق . (٩٦) ولو كان الازدواج (Le manicheisme) للعالم الروائي لاراجون واضحا فان كل ابطال مالرو قد رسموا بطريقة اخاذة تبرر اعمالها ، لان لا احد ضد الازدواج اكثر من كاتب **قدر الانسان** . وهو يؤكد في **الامل** :

« ان المفكر الكبير رجل يبحث عن ملمس الدقة ، والمربة والصفة والحقيقة الذاتية . وهو طبقا لتعريفه وجوهه ضد الازدواج . - (antimanichéen) . » (٩٧)

ويمتحن مالرو فيرال ذات الذكاء اللامع الذي يختص به الثوار وعندما يدور الحوار بين فيرال وجيزور تكون اوجه النظر المخالفة والتي يتبادلانها صحيحة ايضا . واذا استطعنا ان نتثبت من ان المحادثات لن تؤدي ابدا الى حل تنتهي اليه فان كلا المتحادين يظل عند موقفه في النهاية . ونشبه كلود اموند ما نرى تلك المحادثات بمشاهد الفعل العنيفة والقوية .

« ان سلسلة الحوار عند اختلاف اوجه النظر تتلاقى كالسيوف » (٩٨)

وعندما يقول فيرال لجيزور :

الا ترى انه من الفبا المميز للجنس البشري ان رجلا ليست امامه الا حياة واحدة يفقدها في سبيل فكرة ؟ » (٩٩) هنا حقيقة لا يمكن انكارها . ويرد جيزور بحقيقة هي ايضا غير قابلة للانكار :

« من النادر ان يستطيع رجلا تحمل ماذااقول ؟ قدره الانساني » (١٠٠)



التركيب المزدوج للرواية

فن التناقض عند مالرو

كتب جان روسيه في مقدمة كتابه **الشكل والمعنى** :

« ليس هناك من شكل نشعر به الا حيث يقوم اتفاق او علاقة او خط للقوى او صورة

(٩٦) قدر الانسان ص ٧٦ .

(٩٧) الامل ص ٢٧٩ .

(٩٨)

Claude Edmonde Magny, art. cit.

(٩٩) قدر الانسان ص ١٩٣ .

(١٠٠) قدر الانسان ١٩٢ .

متكررة او صدى او شبكة للتجمع . ماسمى تركيبات كل تلك الاشكال الدائمة والعلاقات
تكشفا من عالم عقلى وكل فنان يبتكرها وفق حاجته . » (١٠١)

وانطلاقا من ذلك التعريف قمنا بدراسة التكوين الازدواجى **لقدر الانسان** الذى يفرض
نفسه فى وضوح فى كتاب مالرو ويبدو كأنه فكرة دائمة . ولقد راينا ايضا فى تحليلنا للنظام الذى
قام لوسيان جولدمان بتطبيقه فى دراسته من اعمال مالرو :

« ان دراسة كهذه تفتقر فى الواقع (...) القاء الضوء على عدد من التركيبات ذات المعنى
والقابلة لمراعاة الجانب الاكبر على الاقل مسن مضمون كتاباته وصفاته الشكلية » (١٠٢)

ولمة متوازيات فى **لقدر الانسان** ولقد سبقنا اشرنا الى ذلك التارجيع المستمر بين الفكر
والفعل .

« طبعاً ليس الامر مجرد اصطلاح ، ويعلو مضمون الرواية على ان يكون سرداً بحثاً لان تصادم الاحداث
الذى يشهه الكاتب هو الذى يسطى الرواية معناها . » (١٠٣)

ومن هنا تبدو الكثافة الشديدة للرواية تقنية تناقضات . وتسيطر على الكتاب المواجهة بين
المتضادين الكبيرين وهما : الانسان والقدر . وبشكل ذلك لتعارض القطبين الاساسيين للرواية .
وتتوالى هذه الانقسامات من خلال قدر الانسان كله حيث تتواجد فى كل مجالاته . ويتكون مضمون
الرواية من تمجيد عميق بين الثورة والثورة المضادة . ولو اعتنقنا الفكرة المثالية للثورة والجهود فى
سبيل تحرير المجموعات الصينية التى كرس لها ابطال مثل تشين وكيو وكاتوف كل جهدهم نجد
ان كلاييك ، وعلى الاخص ، فى اال ، من الاعداء . وذلك لآخر واسمالي ومن رجال المال ، ومصالحه
الكبيرة مهددة من الثورة .

ولقد سبق ان تناولنا فى مجال دراستنا التناقض بين الموضوعات المختلفة للرواية .
فلا احساس بعدم الاتصال والوحدة والانفصال المطلق من الآخرين يتقبله ويعوضه الحب الذى
يكنه كيو لماى وعلى الاخص التعاون القدس بين اخوة المعركة . وان التحقير والامتهان العميق
الذين يسمان يتجاوزهما ويقهرهما الصراع فى سبيل تأكيد الكرامة . وفوق ذلك ، وعلى النقيض
برى ، ان صورة الثورة على تحقير الانسان ذات اثر شديد . وان ايمان الثوار بعالم افضل يبدو
اكثر قوة ومعنا .

وذلك التقسيم الازدوج الوجود على مستوى الموضوعات الرئيسية يظهر ايضا على مستوى
آخر فى نفسية الشخصوس . ويتعارض فى وضوح وهم كلاييك وطريق نفى الوجود والهبوط بالحقيقة
الى العدم مع البحث عن المطلق الذى يتسلط على ابطال الرواية ومع بحثهم عن القيم الخالدة التى

(١٠١) Jean Rousset, *Forme et significations, Essais sur les structures littéraires de*
Cornille à Claudel. Paris, Librairie José Corti, 1962 pp. XI - XII.

(١٠٢) Lucien Goldmann, *Pour une sociologie du roman*, Gallimard, (Collection
Idées) 1964 p.61.

تعطى معنى لوجودهم . ونشر أيضا الى تضارب عالم كيو مع عالم فيرال . وتناقض افكار ذلك الاخير وآراء جيروز ، وتناقض الاهداف التي يرمى اليها الثوار مع افراض الكومنتانج . وبين ذلك ازدواج ايضا داخل الثور . وان بساطة شخصية كيو هي عكس تعقيد شخصية تشين . ويلاحظ جيروز التعارض الاساسي بين هذين البطلين ويتأمل في مصير كل منهما ويقارن بينهما (١٠٣) .

ونشر ايضا الى موضوع من الموضوعات بكتاب مالرو : **التفرقة بين الشرق والغرب** . ويصور مالرو ذلك التعارض من خلال قلق القس اللورتي ووعبه من المدنية التقليدية بالصين (١٠٤) . وبالعكس فان عم تشين - وهو من الباع كونفوشيوس يحذر ابن اخيه من تلقى العلم بالمدارس الارشالية وعلى الاخص فانه يحول دون ابن اخيه واعتناق فكرة جهنم التي كان يرهبها . ويقابل مالرو بين قلق القس الشديد وسلام المفكرين الشرقيين .

وفي **لقد الانسان** فان جيروز الفيلسوف الفرنسي المجوز هو الذي يمثل ذلك الرمز الصيني . لان الكاتب يريد التركيز بذلك على انه في الامكان من وراء مواجهة مدنيتين متصارعتين خلق الكثير في الرجل .

وبالنسبة لـ **جيروز** فان الانبيون هواذات الهرب من النفس والتعاون مع العالم جوهر الحكمة الشرقية :

« كان يرى الناس في طيبة ، والعالم بكل ماهو متاح ومستطاع » . (١٠٥)

ويتأكد باستمرار ذلك الانفصال الظاهري بين الشرق والغرب في رواية مالرو . والتفرقة صارخة في الحب مثل ما في غيره من الموضوعات . ويتعارض الخضوع التقليدي للمرأة الشرقية مع ثورة فاليري على فكرة سيطرة فيرال . « ان الحب المعنوي الفعلي والمبهد » (١٠٦) الذي ربط بين ماي وكيو وحتى بعد موت ذلك الاخير كان قريباً تماماً من جيروز :

« لقد احب يابانية لانه يحب الحنان ولان الحب في نظره لم يكن نزاهاً وانما التأمل بشقة في وجه محبوب ، وتجسيدا للموسيقى الصافية - وهو هدوية مؤثرة » (١٠٧) .

ولان ذلك الانسجام الكامل بين الجنسين يحكم علاقات الرسام الياباني كما وزوجته (١٠٨) فان مالرو الذي يبدو ، كما لو كان يشهد بالزوجين الشرقيين ، يعلم تماماً ان هناك بعض المبالغات المكسية في علاقتهما . وتدين ماي عبودية المرأة الصينية وتبلغ في كل ليلة من انتحار

Claude - Edmonde Magny, art. cit.

(١٠٩)

١٠٤) لقد الانسان ص ٥٩ .

١٠٥) لقد الانسان ص ٦٠ .

١٠٦) لقد الانسان ص ٢٨٠ .

١٠٧) لقد الانسان ص ٢٨٠ .

١٠٨) لقد الانسان ص ١٦٢ .

المحظيات ، ولقد انقلبت فتاة مسكينة كانت فداحوالت الانتحار بشسفرة في هودج الزفاف ،
وعندما علمت الأم بان ابنتها لم تمت صاحت « مسكينة انت ابنتها الصغيرة ! . ومع ذلك فقد
كادت تنجح لها فرصة الموت .. » (١٠٩) . وهو تعليق يفني عن أى مزيد من الشرح ويقدم لنا
صورة وافية عن حالة المرأة في ذلك الوقت .

ذلك التناقض بين الشرق والغرب ظاهره في جلاء في مجال الاحاسيس . ويبدو مالرو بذلك
رساما قادرا على تصوير الفربة . كما يتمتع برسم ملامح الصين التي عرفها جيدا .

ذلك الرواى ذو حاسة الشم القوية مثل شاول بودلير ومارسيل پروست يتميز بين الروائع
الخاصة بآسيا وأوروبا . ويفكر كيو في الاراضى المروسة بنبات النارديس المحترق (١١٠)
ويستنشق في مدينة هان - كيو رائحة الكافور واريح البساتين (١١١) .

اما عن كلايك الذى ارغم على ترك آسيا والذى يخشى العودة الى أوروبا فان أول ما ذكره
بتلك القاره حاسة الشم :

« تنبعث رائحة الشجر والفحم المتبل من الحديقة . ذلك الريح المريح الى أوروبا » (١١٢) .

ومع ذلك لا يجب ان يغرب عن البال ابداءه دراسة قدر الإنسان أن الكتاب مهما كان
ملتزما في مناقشات مذهبية فهو يظل قبل كل شيء فتاة كبيرة . ذلك الهاوى للفن يوضح على
لسان الرسام اليابانى كاما الفرق بين فردية الرسم الغربى وعالية فن الشرق الالصى .

« عندما ذهبت الى أوروبا شاهدت المتاحف . وكلما صنع رساموكم التفاح وحتى
الخطوط التى لا تمثل شيئا زاد تمبيرهم عن انفسهم . وبالنسبة لى فالعالم هو الالم » (١١٣) .

ويمنح مالرو جيورر « تدوqe النقى للفن . (١١٤) وعندما ينظر الفيلسوف المجوز الى
تشين وانفه المسحوق « كالنقار » (١١٥) يتذكر « صقرا مصرى من البرونز احتفظ كيو بصورته
لحبه لتشين » (١١٦) .

واوجه المشابهة مع الاعمال الفنية متعددة فى الرواية :

(١٠٨) قدر الإنسان ص ٤٢

(١١٠) قدر الإنسان ص ١٢ .

(١١١) قدر الإنسان ص ١٢٩ .

(١١٢) قدر الإنسان ص ٢٠٢ .

(١١٣) قدر الإنسان ص ١٦٦ .

(١١٤) قدر الإنسان ص ٦٠ .

(١١٥) قدر الإنسان ص ١٤ .

(١١٦) قدر الإنسان ص ٥١ .

« ان الصين المسفوفة بالدماء مثل قرابين البرونز » . (١١٧) وكان لاحد ضباط الصف الصينيين « كل ملامح الوجه طولا والجسم مقوس قليلا الى الامام مثل تماثيل العاج التي تأخذ شكل انياب الفيل » (١١٨) . وتجعل خادمة شقراء صلبة كلابيك يفكر في « لوحة من لوحات روبنس (. . .) ولكنها ليست تامة » (١١٩) .

وكذلك يملن مالرو في قدر الانسان فكرته الشهيرة عن الفن وهو عنده « ضد القتل » مثل البطولة وثورة التحرير والاخاء . ويؤكد فيما بعد انه الطريق الرفيع ليجاوز الرجل ذاته دون عنف وبالمناداة بالتعاون مع كل واحد في ابتداء لانهائي .

وقد ذهب ذلك الفنان الكبير احسانا عميقا بلعبة الاضواء ، ولاحظ جابتان يكون نظره المتفهمة للغة الالوان :

« لكل من كتبه لون ونور ، فهناك لون للفؤاة وهو غير ذلك الذي في الطريق المكي . ويترك لك قدر الانسان ذكرى متعارضة من الظلال والانوار ويجعلنا نشبهه بلوحة « فظائع الحرب » لجويا ، اكثر من اية رواية اخرى . والامل كتاب داكن واخضر غامق احيانا واحمر دموي احيانا اخرى » . (١٢٠)

وفي الواقع فان ما يصدد القارى قبل كل شيء هو التناقض الدائم بين الانوار القوية المبهرة للاضواء وبين الظلال .

ومنذ المشهد الاول في الرواية يرسم الكاتب « جدا اقل وضوحا من الخيال » (١٢١) وكنور وحيد « مستطيل كبير من الاضاءة الكهربائية الباهظة » (١٢٢) .

ولكن بعد تقديم تلك البيانات يعود اليها الكاتب عدة مرات في ذات الفصل مصرا في كل مرة على التناقض بين النور والظلام .

وحتى بالنسبة للتعبير عن المشاعر فان الكاتب يلجأ الى المقارنات المستعارة من مجال الاضاءة : « تلك اليلة المسحوقة بالقلق لم تكن الا نورا » (١٢٣) .

وبعد جريمة القتل تنخر اثاره الحجرية وتنسق الاضاءة الجديدة تماما مع الانقلاب العميق لتشين « في النور الثابت والصاحب » (١٢٤) .

(١١٧) قدر الانسان ص ٥١ .

(١١٨) قدر الانسان ص ١٢٥ .

(١١٩) قدر الانسان ص ٢٠٨ .

(١٢٠)

Ca'etan Ficon, l'Usage de la lecture, Mercure de France 1960.

(١٢١) قدر الانسان ص ٩

(١٢٢) قدر الانسان ص ٩

(١٢٣) قدر الانسان ص ١٠

(١٢٤) قدر الانسان ص ١٢ .

وثمة مناظر أخرى أكثر دلالة : « مهووزة من قلقة كان الليل يفلئ كدخان أسود هائل ملئ بالشر » . (١٢٥) ويقدر ما بهذا تنفس تشين قليلا « يخدم الليل وتظهر النجوم من خلال تمزق السحب » (١٢٦) وتوسع متابة تلك الدراسة الى مالا نهاية .. ولكننا تقتصر على الإشارة الى امثلة هي في نظرنا آيات على عبقرية التمارض .

وعندما يقدم لنا مالرو كيو لأول مرة من والدين مختلفي الجنسية ، من ام يابانية واب فرنسي ، يذكر الكاتب بفضل لقاء الضوء على مميزات هذين الاصليين اللذين يشاركان وجهه البطل :

« يُرجع الباب المعلق المصباح (. . . .) وعندما يمر المصباح فوق داس كيو يميز بوضوح فمه المشابه لما في اللوحات اليابانية . وعندما يمتد المصباح تنفر اماكن الظلال ، ويبدو وجه ذلك الموثد وكأنه وجه اوروبى تقريبا . ولما يكون تارجح المصباح في نطاق شيق يوح وجهه كيو اقل اختلافا » . (١٢٧)

تلك اللوحة اخذت الى حد انها تجعلنا نشعر بالدوار . ونشير مع ذلك الى وفيرة الظلام . فغلب المشاهد تقريبا تدور في الظلام . وتنشيل وجود اشخاص اكثر مما نراهم :

« ذلك الصديق الذي يكاد يكون ظاهرا » (١٢٨) وجوه ظاهرة الى حد ما في الظل » . (١٢٩) « لم يكن الظل يسمح برؤية تعبير الوجه » . (١٣٠) وخيال تشين « كان ينفصل في غموض » . (١٣١) واذا كان زميلاء بصعوبة قد شاهداه . ويضيف الكاتب جملة قصيرة أكثر دلالة من شرح أطول : « ومع ذلك كان يملأ الحجرة » (١٣٢)

ولقد كان النظر دائما غير واضح كالشخصيات : « منازل غير واضحة » (١٣٣) . الانوار المبهمة بملن الضباب » . (١٣٤) وكان الجو المليء بالضباب شبه مستمر ويتكيف تماما مع الظروف : « كانت الشمس ذات اللون الاصفر والبيئة بالضباب تجعل وجوه تشين وزميليه باهتة » (١٣٥) بعد ان فشلوا في مؤامرتهم يقتل تشانج - كاي - تشيك . (واعد من ذلك « كاتب السماء رمادية اللون وكانت هيمين هناك على ضوء رصاصي مثل ذلك الذي

(١٢٥) قدر الإنسان ص ١٢ .

(١٢٦) قدر الإنسان ص ١٢ .

(١٢٧) قدر الإنسان ص ١٦ .

(١٢٨) قدر الإنسان ص ١٢٩ .

(١٢٩) قدر الإنسان ص ١٢٢ .

(١٣٠) قدر الإنسان ص ١٣٣ .

(١٣١) قدر الإنسان ص ١٥٧ .

(١٣٢) قدر الإنسان ص ١٥٧ .

(١٣٣) قدر الإنسان ص ١٤٩ .

(١٣٤) قدر الإنسان ص ١٩٧ .

(١٣٥) قدر الإنسان ص ١٥٠ .

يسبق الرعد » . (١٣٦) عبارة مزدوجة المعنى لأن تشين في تلك اللحظة على الاخض يتخذ قراره بارتكاب جريمة الانتحار .

وبعكس تلك الانارة الهادئة وغير الواضحة والحزينة دالما فان لقوة الاضاءة مؤدى معنا . وعندما يتأهب الثوار للهجوم على السفينة تشاتج - تونج ، يخاطرون بالقبض عليهم من السفن العربية للاعداد: « كانت اضواء الكشافات تنتقل بسرعة من السماء الى الميناء وتتلاقى كالسيوف » (١٣٧) .

ويقتضي الامر ايضا الاشارة الى اهمية الشمس التي ندر ظهورها في الرواية . وتفسر الشمس انتصار الثوار ولكنه انتصار مؤقت « لا يستمر الا قليلا .

» الشارح ملء بالشمس (...) وكان كيو ينظر الى الرصيف الذي يلعب تحت الشمس المؤقتة » (١٣٨) .

وفوق ذلك فان الانارة الاخيرة رئيسية : « كان جيزور يتأمل الخليج الملء بالشمس » (١٣٩) . وكذلك فان تلك الرواية التي كانت مليئة بالضباب والظلام تنتهي على صورة مضيئة وترك شعاعا من « الامل » .

ومثل الانارة في رواية مالرو التي تظهر وتختفي فان تتابع الجلبة والسكون يقوم على تضاربهما وتناقضهما . والصفارات المتزايدة وآلات التنبيه وطلقات المدافع ودقات التليفون والاصوات البشرية الصادرة عن الالم ، كل ذلك يرن مثل صوت القدر وينفصل حتما في خلفية صامتة .

ومن الصحيفة الاولى للرواية يبدو ذلك التعارض حليا : « تنطق آلات تنبيه اربع او خمس مرات دفعة واحدة » . ثم « تسكن هذه المواجهة من الضجيج » . (١٤٠) ويستمر المشهد في صمت عجيب .

ويميز الرواية كلها ذلك التتابع الدائم للراباة والازعاج ويعطيها نسقا متهدجا متقطعا . ويظهر التعارض أكثر جلاء عندما يأتي في ذات العبارة :

« الصمت - الجماعة الصينية عادة من الأكثر برقا - كان يعلن من نهاية العالم » (١٤١)

(١٣٦) قدر الانسان ص ١٥٦ .

(١٣٧) قدر الانسان ص ٦٤ .

(١٣٨) قدر الانسان ص ١٠٨ .

(١٣٩) قدر الانسان ص ٢٨٤ .

(١٤٠) قدر الانسان ص ٩ .

(١٤١) قدر الانسان ص ٧٧ .

وكذلك « خلال الصمت كانت تسمع نغمات من الجيتار » (١٤٢) وحتى ينتهي ذلك الازدواج الذي يستنى لنا متابعته طويلا نذكر التعارضات المدينة التي توجد على مستوى الاسلوب .

لان الازدواج الذي يميز الموضوع يؤثر على الشكل وينعكس تناقض الموضوعات على التكوين الازدواجي للرواية . ونشير الى الملاحظات المزوجة العديدة التي تتكرر في صفحات الرواية . « هجر وسكون » . (١٤٣) « الصمت » فيما هذا الالم » . (١٤٤) ...

ولنذكر ايضا الكثير من التناقضات الثرية بالمعاني دائما : « كان (كيو) يموت بين اولئك الذين كان يريد ان يعيش معهم » . (١٤٥) وتقول ماي وهي امام جثمان زوجها : « حيائي » ... (١٤٦) ... ، « كانت هناك الوحدة أولا ، الوحدة الثابتة وراء كثرة الموتى » (١٤٧) ، وكاثوف « كان يشعر بأنه ملقى في وحدة شديدة ومؤلمة ، مع ان ذويه كانوا حوله » ، (١٤٨) وعندما يكتب المؤلف « البحث ا » (١٤٩) فان ذلك يعنى : « سيانور » ...



خاتمة

في ختام دراستنا عن قدر الإنسان نخلص الى ان تلك الرواية ، كامسال مالرو كلها ، « انسانية » في اساسها . والرجل فيها الشخصية ذات الصدارة . وكل ما كتب يتجه الى الرد على ذلك السؤال الجوهري :

« ايها الكاتب ، من حيث يى منذ سنوات عشر ان لم يكن هو الرجل » (١٥٠) .

وفي الواقع فان كل ماكتب مالرو يقوم عليه التعبير عن الامة في قدر الإنسان وقدر عصرنا . ولكن هل وجد ذلك الروائي الذي احاط بمشاكل الرجل حلولاً لها ؟

ويقابل النقد الوجودى رواية مالرو برواية جان - بول سارتر ويعمل على اظهار اتساق الفلسفة الساتريرية والتزود في فلسفة مالرو . وطبقا لما قالت جان ديكوم ، بينما فكر سارتر « يتقدم من الصدفة التي هي أصل الوجود الى العمل التحريري ، ومن اللامعنى الى المعنى

(١٤٢) قدر الإنسان ص ١٦٣ .

(١٤٣) قدر الإنسان ص ١٥ .

(١٤٤) قدر الإنسان ص ٢٥٢ .

(١٤٥) قدر الإنسان ص ٢٥٦ .

(١٤٦) قدر الإنسان ص ٢٦٢ .

(١٤٧) قدر الإنسان ص ٤٩ .

(١٤٨) قدر الإنسان ص ٢٥٧ .

(١٤٩) قدر الإنسان ص ٢٥٩ .

(١٥٠) مالرو شعر الجوز في الانتيرج .

والمؤدى ، ومن الوجود الى الجوهر فان فكر انغربة مالرو يسلك الطريق المضاد ، - من صوت العالم الى اصوات الصمت ، من العبث والوجود الى الشك فى الانسان « (١٥١) وتستطرد ج . ديبلوم قائلة انه لا يوجد عند مالرو « درجات للقدر » ، « ولا درجات للموافق » . و (لا درجات للأعمال » . (١٥٢) وعالم النسيان لجيزور صحيح ايضا كالبعث من الاجل لتشين وكلايك يتكافأ مع كيو ، من اجل ذلك كله فان روايات مالرو « بدون حل موضوعى او اخلاقى » (١٥٣) لان مؤلفها « لا يميز شيئا او شخصا » . ويشكو النقد الوجودى من عدم وجود رد على سؤال مالرو العلى الا اذا كان هو قلق الرجل الخاضع للقدر .

وعلى اى حال يتعين علينا الاعتراف بأن وجه النظر الوجودى حاسم ومتطرف . حقا ان الكاتب ، كما أوضحنا من قبل ، لا مكان عنده للعقد ، وان ارادة القوة لدى فيرال تساوى لهم التآليه عند كيو ، ومع ذلك فان للتمييز ملموس بين انتصار كيو ، وكاوف ، وهيميرليتش ، وفنشل تشين ، وفيرال وكلايك . . . لان الابطال الايجابيين فى الرواية يحاولون السيطرة على قدر الانسان بدلا من تحمله . وذلك الجذب الدائم بين الانسان والقدر يدل على الانسانية المأسوية عند مالرو . ويقول بيير دى بواذ فر وبعق :

« لقد عرف مالرو ان يعبر عن الحتمية فى عصرنا ، ولكنه لم يقدم حولا لها . وتظل انسانيته مغممة بالياس اذا لم يفتح نحو الحقائق الاكثر رعة » (١٥٤) .

فمالرو يرفض البحث عن حقيقته فى الايمان بالله . وابطاله عاجزون عن ذلك الايمان فى عالم لا يقيمه اليهم ، وهم مضطرون الى ان يجدوه فى انفسهم وحتى فى « الجانب الآخر » فيهم . (١٥٥)

ومن ناحيتنا ننضم الى العرامات التى تمت من وجهات النظر الدينية ، مثل دراسة جوزيف هولمان ، وبيير دى بواذفر ، وتؤكد مع ذلك الاخير انه اذا لم يستطع مالرو ان يربط بين الرجل والخلود . . فان سبب ذلك رفضه وجود الله :

« يؤله مالرو الرجل والتاريخ ولكنه لا يوفق بينهما . وللموامة بين الرجل وقدره ، يتعين الخضوع اليه اولا . وبعتبر مالرو القدر كحتمية عمياء بينما (المؤمن) يرى انه ايمان بالله : ذلك الايمان يجمع بين كل الناس ويقيم الاخاء ويمنهم بسلام مشترك » . (١٥٦)

J. Delhomme, op. cit., p.245.	(١٥١)
Ibid., p.152.	(١٥٢)
Ibid., pp.247 et 262.	(١٥٣)
Pierre de Boisdeffre, André Malraux, Editions universitaires (Classiques du XXe siècle), 1952 p.119.	(١٥٤)
J. Hoffmann, op. cit., pp.369, 370.	(١٥٥)
P. de Boisdeffre, op. cit., pp. 113 - 119.	(١٥٦)

من وحيء العلوم

عبد العزيز أمين

ما نصبو اليه نفسه تقريبا ، كما تأملت ما صنعته الانسان في البيئة من زرع وحرق وتشبيد وتعميد وري وعيد ، ثم وجدته يستأنس الحيوان ويستطفره لخدمته ويطوع الطبيعة حسب ارادته ، فرأيت أن ابدا بالكتابة عن علاقة الانسان بالأرض والماخ ، ثم انتقل الى طريقته في كشف المعرفة ، واهدافه ، وبعد ذلك اشير الى العلوم وتصنيفها ، والعلوم وجودهم ، وشيئا غير طويل عن تاريخهم ومعاناهم .

الانسان والأرض

أن الحضارة الانسانية هي ثمن التضامن الطويل والمستمر بين البشر والبيئة ، من

أردت بهذا المقال أن استعرض تفاعل الناس مع الطبيعة من أجل المعرفة ، وبخاصة في المجالات العلمية ، فأمسكت بقلمى لأدون مذكرات عما صادفني في حياتي العلمية ، مستلهما الموضوع من معاناة الأمة العربية في السنوات الأخيرة من تاريخها ، وما صادفها بعد ذلك من نصر بفضل توحيد كلمتها ، وجهود الأفراد والجماعات ، تحت رايات القيادات الرشيدة المؤمنة بالانتصار ، ونحن في أول طريقنا لاستعادة أمجادنا العلمية والأدبية والفنية . وذهب فكري الى ملايين السنين التي مرت على الأرض منذ نشأتها الأولى الى أن ظهر عليها الانسان العاقل ، فتأملت الطريق الطويل الذي سلكه الانسان حتى بلغ كل

مختلفة الوانها تشر الناظرين ، وان اوى
عشرات الالوف من القنوات والمجاري المائية ،
التي تجوس خلال الارض ، وتملؤها حياة من
نبات وحيوان .

ان الثروة الطبيعية ليست موزعة توزيعا
متجانسا في كوكبنا ، بل كثيرا ماتوجد مناطق
عنية بالموارد الطبيعية في صحراوات فقرات او
جبال وعرة او تحت سطح مياه آسنة او في
قاع المحيطات السحيقة العمق ، وعلى الانسان
ان يكد ليحصل على هذه الموارد اذا احتاج
اليها .

وعلى العلم ان يعرفنا اسرار هذه الطبيعة
وقوانينها وتفاعل كل من المواد والبيئة وكيفية
وسبب حدوثه ان امكن . وان يستخدم
الانسان العلم ليحقق الاهداف التي يرميها
يشبع احتياجاته . وهذا العمل هو الفن
التطبيقي (التكنيك) .

اننا لن نرضى او نقنع ابدا بحالة العالم
التي نعيشها ، بل علينا بلل الشطة جبارة
لنحدث مايلزم من تغييرات مستمرة وتطورات
صاعدة لتحسين وسائل المعيشة واساليبها .

ان السكين المعدني الذي تستعمله اليوم
مثلا لا يشبه اطلاقا آلة القلع التي استخدمها
الانسان منذ اكثر من عشرة آلاف سنة ، ولا
يشبه خام الحديد الذي استخرج منه ، بل
هو منحصلة عمليات وانشطة انسانية طويلة
وغيرات عملية اكتسبها آلاف الناس طوال
آلاف السنين .

ان الثمرة التي ناكلها اليوم القلبية بما فيها
من غذاء ورائحة وطعم لا تشبه الثمرة التي
كانت تنمو في البرية ، بل هي نتيجة تطورات
طويلة وبحوث مضنية عبر التاريخ . والثوب
القطن الذي نرتديه يختلف في ملامحه عن
القطن الذي كان ينمو منذ اقدم السنين .
حيث طول الثيلة ، وخوامس اهلون الخليفة .

يايسة ويصر وهواء وكائنات حية واجسام
حية . والانسان يجمع خبراته بنفسه
ويختزنها في ذاكرته القادرة على امتصاص
ماستقبله من حقائق ، ويعمل دائما على تحقيق
ما يريد بالدالب على العمل ، مستخدما فكره
الواهي ، ومعتمدا على الصبر والناة والارادة
والتصميم . ويعمل على تحسين احوال الارض
حتى يعيش في بيئة افضل دائما . ونحن نجد
في كوكبنا ، الارض ، ما نحتاجه من مواد ، ومع
ذلك فيه ايضا الصحاري القفرة والمناطق
الجليدية الواسعة ، ولذلك لم يكتف الانسان
بالرقعة المنزوعة من الارض بل اعاد النظر في
طبيعة الارض ، فاقام المشروعات الكبرى من
اجل رفاهية الناس . وبين يدي كتاب طريف
يعنون « الانسان يصلح كوكبه » مؤلفة
السوفيتي ايفان شيف . وقد ترجمته الى
العربية دار التقدم بوسكو . ذكر في مقدمته
اشارة لما يجب على مختلف بلاد العالم في شتى
الاقوات نحو الناس من اجل خيرهم . وكرس
الكتاب موضوعه للمشايخ الثلاثة التي تبدو
اسطورية ، والتي يتوقع المؤلف ان يتم
تنفيذها بعد العلماء والمهندسين ، مثل انشاء
نفق تحت بحر قزوين لرى الصحاري بواسطة
مياه جبال الثلج العالم ، وتحويل الانهار الكبرى
في سيبيريا ، وتدفئة تلك الصحراء الجليدية
الشاسعة في الاسكا وكندا وسيبيريا الشرقية ،
ومشاريع استخدام طاقة الرياح ، وتدفئة
الاماكن الباردة بالدفء الطبيعي الكائن في اعماق
البحار . انها مشاريع واقعية تستند الى العلم
والتكنولوجيا .

يبدى قدماء الكيمائيين انهم حضروا مادة
زجاجية سحرية ابان القرون الوسطى يرى المرء
من خلالها العالم كله في آن واحد . وليت هذه
المادة حقيقية وموجودة الان لارى الارض كلها
وما عليها ، او ليتنى استطع ركوب متن الفضاء
لارى روعة الارض وغناها وتنوع غاباتها
واحراشها وما بها من بحيرات هدية ، وسط
الحقول النضرة او الذهبية او المتلألئة بانهار

اشعة الشمس ويمتص العشب منها اربعة وسبعين في المائة . ان الانسان يكيف البيئة الجغرافية التي يعيش فيها ، كما يكيف الطبيعة كي تخدمه وتشيخ حاجاته .

وكانت حيوانات هائلة من ذوات الدم البارد تعيش على الارض قبل ظهور الانسان ب ملايين السنين مثل الديناصور وغيره من الزواحف التي يبلغ طول انواع منها اربعة وعشرين مترا ، وازن خمسين طنا ، وكان منها ما تطلق في الهواء باجنحة مكففة كالخفافيش ، وكانت درجة حرارتها غير ثابتة ، بل تتأثر بدرجة حرارة البيئة التي تحيط بها . كانت هذه الزواحف البائدة تجرى بالفايت ، وتطير في الهواء ، عند ما تسطع الشمس ، وتعا المكان بالليل ، ثم تختفي وتبيت بالبيات الشتوي عندما تنخفض درجة الحرارة شتاء ، لكنها لم تستطع مقاومة البرد الشديد وتلقب المناخ ، ولم تصمد في معركة الحياة ، وفوتت عليها الثدييات ذوات الدم ثابت درجة الحرارة (هومويوم) .

ان درجة حرارة جسم الانسان (٣٧ مئوية) هي المناسبة للتفاعلات الكيميائية الحيوية التي تحدث باجسامنا . ونحن قادرون على تنظيم التبادل الحراري بين داخل اجسامنا وخارجها بطريقة تلقائية وغير ارادية (بين درجتى ٣٥ و ٣٨ مئوية) وعندما يكون متوسط درجة حرارة الهواء المحيط بنا حوالي ٢٥ مئوية . وكان هذا بسبب استيطان الانسان والحيوانات الدافئة الدم بالاماكن الدافئة من العالم في شمال افريقيا وجنوبية العرب وايران والهند والصين واستراليا وفي مناطق عديدة من امريكا الجنوبية ، ثم انتقل الى مناطق اخرى اكثر برودة عندما هرب النار . وبني البيوت وحرف السماء ونظم حياته وكشف ميسه واهمية العمل للحصول على ما يقيم حياته ، فتمت معارله ، وراكمت خبراته وخبرات اسلافه ، وعرف الكثير من المواد النافعة كالامان والقمم ثم البترول ،

خشى الانسان القديم اخطار العواصف والرهود والبرق والامطار والتعرض للجوع والتجهد والهلاك والزلازل ، ففكر في سر هذا الكون ، وعرف خالقه بما اوتي من عقل قامن بربه ، ودأب على تحصيل المعرفة ، وسار العلم مع الايمان جنباً الى جنب في تلاحم عبر التاريخ .

الانسان والمناخ :

اننا ندرس علم الجيولوجيا ونعرف منه شيئا من تركيب الارض . وندرس القوانين الطبيعية ونعلم انها غير قابلة للتعطيل ، فهي تعمل ونحن نستطيع توجيه قوى الطبيعة حسب اراءتنا ونظومها لخدمتها . والارض والكواكب الشمسية الاخرى وتوايها تدور حول الشمس وحول نفسها ، وترتبط معا بقوى جذب متبادل مكونة المجموعة الشمسية . وتشرب الارض ثلث من الشمس ، وتبتمد منها تارة اخرى ، وتحدث الفصول الاربعة ويتعاقب الليل والنهار . ويشير الاشعاع الشمسي دوريا في كل منطقة بالارض على مدار العام ، فلكل منطقة نظام للطقس هو ما يسمى بالمناخ ، يتحدد بالواقع الجغرافي للمكان . ويتحدث المناخ عن نظام الطقس الطويل الامد . ويؤثر فيه عوامل جغرافية كالتضاريس وتيارات الهواء والبحر ، التي تحمل الدفء والرطوبة ، كما يؤثر الموقع بالنسبة الى البحر ان بعدا او قريبا ، وبالاارتفاع عن مستواه . ويؤثر ايضا طبقة الرمال او الصخور او الجليد او مياه المحيطات الشاسعة .

ودرجة حرارة الجو في مكان معين قد لا تكون مناسبة للحياة الناس . وهنا يأتي دور الطبيعة ليعمل بان يغير طبيعة الفضاء السطحي للارض . انك قد تدهش اذا علمت ان الماء يمكن خمسة في المائة فقط من اشعة الشمس بينما يمكن الثلج خمسة ولماين في المائة منها . ويمتص الزمل سبعين في المائة من

شأنهم أنفسهم . وهذه القوة الدافعة هي التي تجعلهم يستعرون في معلم حتى يجنوا الثمار الطيبة . انهم لا يلبثون طعم الراحة حتى تستفيد الملايين من مجهوداتهم . ويتعرض هؤلاء الى عاصفة من نقد المشككين الذين يقاومون كل جديد ، وعليهم ان يصدوا ويكافحوا ويثبتوا صحة آرائهم او فائدة اختراهم الجديد او نظرياتهم الجديدة .

ان العالم يسير في طريق التغير المصاحب لما نستخذه من مواد وطرق وآلات واساليب في حياتنا اليومية ، وعلينا ان نتكيف حسب هذا التطور والتغير ، وان نتقبل ما ثبتت نفعه ، ان الانسان يخشى بطبعه كل ما يجهل ، فزأه يتمسك باهذاب القديم ، ولن يثق بالجديد حتى يالفه . ان العلماء والمخترعين يجب ان يكونوا مهرة في اقناع الناس وعدم التهور في متاوراتهم عند الدفاع عن مستحدثاتهم .

وقد عرفنا من العلماء المشاركة ابا بكر الرازي الطبيب الكيميائي ، وعالم البصريات الحسن بن الهيثم ، وواضع علم الجبر الفولاذمي ، ثم جابر بن حيان صانع زيت الزاج ، كما عرفنا من علماء الغرب جاليليو ونيوتن ودفورد وسدم كوري واينشتاين والافنا غيرهم من الافئدة . ويزخر التاريخ بالمعانة والصبر والصمود والنصر . واخيرا نقدير الناس لامعالمهم في حياتهم واحيانا ياتي الاعتراف بفضلهم بعد وفاتهم بأعوام طويلة ، بعدما يصحو الناس ويروا نور الحق والمعرفة . ان لغوازية التي قطعت مقصلة الثورة الفرنسية رأسه أقام له الفرنسيون تمثالا تخليدا للذكراه واعترافا بفضلها في وضع أساس الكيمياء الحديثة . ويوسف بريستلي النفس الانجليزى الذي كشف الاكسجين وصاحب الفضل في كشف اكاسيد النتروجين لم ينتج في الافلات من الاجدام . كان ذلك في عهد الثورة الفرنسية . وكان القرن الثامن مثير ميدانا لجهاد كيميائيين

فلم يعد المناخ الرديء عقبة في طريق تقدم الشعوب . ان الشعوب التي ظلت متاخرة طوال سنى التدخل الخارجى قد نمت فجأة وسارت بخطوات سريعة في طريق التقدم بعدما حققت استقلالها . ومن اروع امثله هذه الشعوب الصين واليابان ، ثم الهند ، واخيرا وليس آخرا بعض دول من الامة العربية التي جولت ارادتها ارضها الصحراوية الى جنات ومنشآت عملاقة ومصانع متطورة ، وارتفعت معدلات الانتاج ومستويات المعيشة بها في سنوات معدودات بفضل العلم والتعليم واساليب التخطيط والتنسيق والتعاون بين الجميع بوحى واخلاص وايمان . وتأمل في المزيد من الازدهار للامة العربية وغيرها من الشعوب النامية .

طريق العلم وهدهد

لكرت فيما يجب ان يتصف به من يود الاسهام في تقدم العالم وأثناء ثروته الروحية ورفاقته ليشرح انه قام بدوره الحضارى ، فوجدت ان اول ما يجب ان نعرفه تلك النجاحات التي حققها الاسلاف وما صاحب اعمالهم من معاناة . وقبل ان اقلب صفحات تاريخ العلوم واستعرض معاناة العلماء من قتل او اضطهاد ، او نقد جارح الى غير ذلك مما يملأ صفحات تاريخ العلم ، وددت ان اشر الى ما يجب ان يتصف به الذى يريد الاشتغال بالعلم ، فوجدت الصفحة الهامة الاولى ضرورة قدرته على اختزان ما يتعلمه من المعارف في ذاكرته الممتازة ، ثم الإرادة القوية الصاعدة ، والقدرة الفالقة على الصمود ، والتغلب على ما يصادفه من عقبات حتى يترك اهدافه .

ان سمود « توماس اديسون » المخترع الامريكى في عمله وهو يخترع المصباح التوهج من اروع امثلة الصمود ، فقد جرب مئات المواد قبل ان يشر على نوع الفتيل المناسب . ان امثال هؤلاء الرجال الصامدين يعملون بدافع تحقيق نجاح يخدم الجماهير ويرفع

ولا يدنهم دافع قوى نحو المعرفة . وهؤلاء لن يصبحوا علماء حتى ولو حصلوا على درجات علمية عليا ، بل سوف يكونون متعلمين - اذا صح ان نصفهم بهذه الصفة - وسوف ينسون ما تعلموه بعد سنوات معدودات .

ان التقدم السريع في العلم والتكنيك يوجه اغلب الشباب الى دراسة العلوم الطبيعية والتطبيقية ، ولا يقبلون كثيرا على دراسة العلوم الانسانية ، حسب الاتجاه السائد في الحياة العصرية ، وفرص العمل ، لا حسب الميول والرياض الحقيقية .

واستطيع ايضا ان اوضح طريق رسم السبيل لحياة علمية منذ دخول التلميذ بالدراسة الثانوية وتقدمه نوعا ما بالدراسة في الصف الاول منها ، فانه بعد نفسه تجاه خليط من رغبات وميول ، وتوجهه بعض اتجاهات سائدة ، فتجده يتأرجح احيانا بين العلم والادب ، والواقع انه ينحصر بالرغبة في المعرفة ايا كان نوعها .

وحياتنا العصرية حافلة بانواع متباينة من الاجهزة والمخترعات والمعدات العلمية والآلات الميكانيكية والكهربائية ، ونفالات وسفن الفضاء ، وعتاد حررى . والعلم ليس مجموعة من التكنيك الصناعي تختص به جماعة من الناس تعمل في المختبرات ويرتدون الحافظ البيضا ، وقد اصفرت اناملهم من تأثير الاحماض ، وضعف بصريهم من كثرة القراءة والبحث ، ويحلون حياتهم الاسرية عادة أو ينسون الحياة الاجتماعية . ان هؤلاء في الواقع لا يتصفون بهذه الاوصاف الا في خيال بعض مفرجى الافلام او المسرحيات ، والعلم ليس كذلك ، بل هو طريق وقوة ذاتية ، لها معناها واسلوها وآثارها الخاصة ، والثقافة الحديثة تكمن في غمرة الآلات والصناعات والاسلاك والمعدات ، وبين القوانين الرياضية والرسوم البيانية ، والاجهزة الزجاجية ، وبين حيوانات التجارب ومع فسائل سلاسل نباتات وميكروبات ، الى غير ذلك مما يتناوله العلم والتكنيك في العصر الحديث .

يعملون بالبوقة والميزان والانبيق ، ويجمعون الحقائق ويقيمون فلسفة كيمائية عامة .

والاستغفال بالعلوم يعنى التكريس له والتعرض للنماء والالم احيانا . ولكن الامل بتحقيق بعد ذلك . ومن منا يجهل فضل عالم مثل لويس باستير كاشف الميكروب الذى بدأ حياته العلمية مدرسا وتقلبى المناصب العلمية حتى ارغمها ، وكذلك بيير كورى وزوجته مدام كورى فقد كشفا الراديوم والبولونيوم ، اما العالم الفولانييه فقد كشف نظرية الاحتراق وهدم النظرية القديمة المعروفة باسم الفلوجستون . ومن منا لم يسمع او يعرف فضل العالم الروسي متغيف الذى رتب العناصر الكيميائية ووضع النظام الدورى لها . عاش بعض هؤلاء حياة مليئة بالتأصب والالام والظلم والاضطهاد احيانا ولكننا نأسف الآن لما قاسوه في حياتهم ، نفتخر بانفسناهم ونخلد ذكراهم .

وكل يوم تظهر نظريات جديدة ومواد جديدة وطرق جديدة في التكنيك العصري ، فينشط الناس لنقدتها والتشكك فيها والتوجس من نتائجها ، لكن الحق ينتصر دائما على الباطل ويكسب الافضل معركة النضال الذى يكلف صاحب النظرية الجديدة أو الاختراع الجديد غير قليل من اعصابه وعصاة فكره ، ومع ذلك لا يبنى العالم من وراء كشفه العلمى جاها ولا مالا ، بل يعمل لاسعاد البشرية ويسعد ارضاء الناس .

وقد يتخطب الشباب اذا سئل عما يرغب ان يكون في المستقبل ، وقد يستطيع بعضهم تحديد اهدافهم بشيء من الدقة . والطالب الذى لا يعرف هدفه يستذكر دروسه دون هدف سوى النجاح في الامتحان ، وقد يستذكر مادة صعبة فيما يرى مثل الكيمياء ، التى يلقى البعض انها سرمة التطاير من المقل كما تتطاير الكحول ، انهم مخطئون فيما يزعمون ، ولا يشعرون برغبة في دراسة هذه المادة او تلك ،

وكذلك قد يكون مهتما بالآداب ثم يقابله تعليم من نوع آخر فيقتضى على هذا الاهتمام . أن المسرحيات الخالدة لكبار الشعراء أمثال شكسبير وجوته لا تزال تؤثر في العلماء وتبدهم ولو مؤقتا عن التفكير في العلم . وليس العلم حاسة خاصة أو فكريا معينا بل هو معنى واسع . أما « العقل المتخصص » فاصطلاح جديد مثل كلمة علمي (Scientist) التي اخترعها الإنسان حديثا .

وقد لا يقتنع العلماء بما يعرفون، بل يعتبرون أنفسهم أفضلا إذا قدرين على الايمان بالعجيب من المعرفة أو الاختراع ، مثل كشف الإلكترون والرادار واشعة الليزر واختراع أجهزة القياس الراديوي المستخدمة في علم الفلك الحديث ، أو أجهزة العلاج بأشعة جاما التي تنبث من الراديوم ، فالعلماء يفرون أسرار الناس وأساليب حياتهم كما تفتقر أحوال الناس بتأثير الآداب أو السياسة أو الرياضة . أن العلم والآداب يقومان بتبسيط طرق الحياة من أدوار الماضي ويفسحونه للسير في موكب التقدم في حياتنا المعاصرة بالقيم الجديدة ، ولكن الناس يتوجسون من كل جديد ولا يؤمنون به إلا بعد الاقتناع والممارسة .

ويستطيع محب قراءة الآداب أن يستمتع بقراءة العلم أيضا ولكنه قد يجد فيها بعض الصعوبة لعدم استيعابه لغة العلم ، وما بها من أرقام ومعادلات ورسوم قد لا يفهمها ، أو قد لا يحاول فهمها، فلنا منها غير مسورة الفهم .

وهذا يجعلني أعود بذاكرتي إلى أيام الصبا عندما كنت وأترابي نتردد على مكتبة البلدية بأحدى مدن الإقليم ، فكنيت أقرأ بغير هدف في كتب تتعلق بقررات الدراسة أولا ففى الجغرافيا وفي التاريخ ، ولكنني وجدت نفسي لا أقرأ إلا القليل من هذين العلمين ، وكان مدرس الجغرافيا بالصف الرابع الابتدائي يشرح درساً عن الهند ، فدفنني الفضول إلى

أنا نحصل على الثقافة من هذه المجموعات المتشابهة من المعارف ونحولها إلى لغة سهلة الاستيعاب . وقد تأثرت لغة المصر بالعلوم الحديثة ونقرأ عناوين الصحف وبها مصطلحات لم نعرف من قبل في لغتنا اليومية مثل « كسر حاجز الصوت » أو « أشعة الليزر » أو « الطائرة الإلكترونية » أو « الحياة على المريخ » . ويجب أن يعرف المشتغل بالعلوم شيئا من تاريخ العلم ليزوده بدعامة يبنى عليها لبنات التطور والتنمية العلمية . وقد يترك هذه العناوين فتدفعك إلى انعام معلوماتك في نوع معين من العلوم . وقيم التاريخ العلمي جسداً يستطيع محب العلم الوقوف عليه ليرقب العالم وليدرك معنى الحياة العلمية .

ويشعر الشخص العادي بوحدة العلم والآداب ، ويجمع ثقافته العامة من العلوم ومن الآداب . وتختلف وظيفة الفكر من وظيفة الشعور ، ولكن تكمل أحدهما الأخرى ، كذلك الآداب يكمل العلم . والبشر لا ينقسمون إلى مفكرين وشعراء مثلاً . و« صم » العلم فيما مضى بالبعد عن الروحية وقاومه رجال الدين ، واعتبر في القرن التاسع عشر هيباً ، فنرفع من تحصيله أهل الآداب كي يحتلوا مكانة رفيعة في المجتمع . واشتد الصراع بين العلم والآداب في عقول الشباب في القرن الماضي . ولكن العقول الناضجة تستطيع استيعاب العلم أو الآداب على السواء . فالعوامل التي تتميز بها الشخص اللاسع عن الخافي هي نفس عوامل الذكاء في المهتم بالعلوم الإنسانية أو المهتم بالعلوم الطبيعية . وعندما يمارس الناس أعمالهم ينقسمون إلى أهل علم وأهل أدب . ويظن البعض أنهم لا يطبقون فهم الموضوعات الرياضية أو الميكانيكية أو لا يدركون معاني الأشياء العددية ، والواقع أن كل عاقل يستطيع استيعاب هذه الأمور إذا أسمن الفكر ودرب العقل ، مثلاً يستطيع استيعاب الموضوعات الأدبية أو الإنسانية . وقد تجد الفرد مهتما بالعلوم الرياضية ثم يصادفه نوع من التعليم أو مدرس معين يقتل فيه هذا الاهتمام .

الترويجين واخترعت الطرق الصناعية لتخليق النشادر ، وصناعة الاسمدة الكيماوية ، مثل نترات النشادر ، كما صنع حامض النتريك واتواصمهم بالمرفقات كالديناميت الذي يستخدم في نسف الصخور وفتح الانفاق . هذه صور من كشوف ادت الى ظهور مواد جديدة نالمة ، فاساس العلم كشف حقائق جديدة وتوطيدها في المجتمع . ورجل العلم القادر هو الذي تمكنه رؤية الافاق البعيدة في مجال بحثه ويعرف الارتباطات والملاقات بين الظواهر .

وتشيد البحوث العلمية طبقات عليا من صرح العلم ، فيزداد سموا . ويمكننا العقائق الجديدة من كشف علاقات عامة وارتباطات متعددة بين الظواهر فتكشف القوانين الطبيعية العامة . واستطيع ان اورد مثلا من الكيمياء فقد ذكرت احدى دوائر المعارف في القرن الماضي ان اليورانيوم معدن قليل الفلدة قليل الوزن ، ولم ترد كثيرا من ذلك ولكن تبين بعد ذلك خواصه واكاسيده ومركباته ، ثم كشف الاكترون ، وعرفت بنية المادة واميط اللثام عن مكونات نواة الليرة . واصبحت كيمياء وفيزياء اليورانيوم من اهم دهامات العلوم النووية والطاقة النووية . ان الفيزياء قد جمعت معلومات وافرة في علم الكهرباء عن التوصيل الكهربائي للمواد . وكشف احد العلماء امكان تقسيم المواد من حيث توصيلها الكهربائي الى طائفتين : مواد تزداد توصيلها الكهربائية كلما ارفقت درجة الحرارة ، وطائفة اخرى تنقص توصيلها الكهربائية بارتفاع درجة الحرارة . وبدراسة طبيعة هذه المواد تبين اختلاف كبير في نمط البناء الوضعي للاكترونات في ذرات كل من الطائفتين ، فالمعلومات تتراكم ، كما تتراكم القوانين الطبيعية العامة حتى تصير اساسا لمفاهيم اوسع تربط الخواص الكهربائية ببناء الليرة .

ويمكننا ان نجد مثلا آخر من القوانين العامة التي تحكم المجتمع الانساني ، او قوانين تطور الحيوانات في العالم ، ان هذه القوانين لا تكشف

استعمارة كتاب من حياة الهنود ، كما جمعت بعض الصور من الهندوسن اشياء اخرى لا تتعلق بالتهج الدياسي ، ولما كتبت بالمرسة الثانوية استهوئني الاعيب كان يقوم بها احد التلاميذ الاكبر سنا ، مستخدما بعض الاحماض والقلويات وبعض التفاعلات قولمت بالتقليد ، وفكرت في اصل هذه المواد ، وقرأت عن الفيلسوف الذي فكر لأول مرة في بنية المادة ووضع فكرة الليرة ، كما استهوئني موضوعات اخرى تتعلق بالعلم كالتصوير الشمسي وصناعة الصايون المنزلي ، ثم تحول اهتمامي الى موضوعات . بعيدة البعد كله عن المقررات المدرسية .

قرأت من جاليليو وعن نيوتن ويكمن ، وكانت لي جملة من الاسدقاء المحبين للاطلاع ، وكثر اتصالنا وتبادلنا الافكار ، وامتزجت مشاربنا وتفاصلت افكارنا وتركرت في بعض الافكار الجديدة . وكان منا من يعتقد ان العلم لا يعيد الناس اذا كان لا يعود عليهم بالنفع المباشر . وكان منا من يؤمن بان العلم والادب معا يكونان اساس الحضارة والثقافة ، وانهما في الواقع مقترنان - ولعله قرأ هذا الرأي في كتاب - وكان ثالث يرى اننا نهلدي منكما نتحدث بفائدة الادب ، ويقول ان الجائع لا يهتم بالفن او بالادب ، ولا بالنظريات العلمية التي يشبع بها جوعه ، ان العالم يسأل ويطلب اجابة شافية على اسئلته . كان احد زملائي الاكبر مني سنا كثير التساؤل . وكان يسألنا عن اهداف العلم اذا لم تكن ابتداء اشياء تنفعنا ، واجابه احدنا بقوله ان العلم يميظ اللثام عن حقائق جديدة ، ويظهر الارتباطات بين مختلف الظواهر . وعلى الرغم من وضوح كلامه اردت ان يسوق لنا مثلا او امثلة لما يقول . وبدأ يستشهد بكشف تكوين الماء من عنصرى الاكسجين والهيدروجين ، وكشف الهواء ومعرفة انه يتكون من خليط غازي خمسه اكسجين واربعة اخماسه نيتروجين تقريبا ، ثم كشف عالم في الكيمياء خواص النيتروجين ، كما كشف خواص الاكسجين ، وعرفت اكاسيد

الآليات الصناعية الجيدة والرخيصة، فاحتلت بالتدريج مكانا مرموقا في الاقتصاد العالمي بطل الصوف الطبيعي وغيره من الألياف الطبيعية، كالقطن والكتان والحرير أيضا. فالإنسان يعيش في دنيا الموارد ويبدل قصارى جهده ليستبدل المواد الطبيعية بأخرى تخليقية، يعطوها وفق إرادته وحاجاته. أن العلوم الطبيعية تستطيع كشف المعلومات اللازمة لاجتاد الحلول لمشاكل الإنسان. وإذا تساءلنا عن كيفية سلوك الأشياء مسلكا معنا، كذلك إذا سألنا عن النظام الوضعي للحدوث في عالم الأشياء والترابط بينها وعن ترتيب الكون المحيط بنا فإن العلوم الطبيعية لديها الإجابة على هذه الأسئلة وهدفتها النهائي معرفة أسرار الطبيعة ونهملها.

وليس تقسيم العلوم إلى طبيعية وتطبيقية تقسيما جامدا، فالفيزيائيون الذين يدرسون قوانين انتشار الجسيمات، والكيميائيون الذين يدرسون تعظيم الروابط الكيميائية بين الذرات وعلماء الأحياء الذين يستخدمون الميكروسكوب الإلكتروني لمعرفة دقائق مكونات الخلية الحية للأوليات كلهم يجتهدون في ميدان كبير واحد هو العلم. أما الفيزيائي الذي يضع التصميم لمفاعل نووي، والكيميائي الذي يحسن خصائص أنواع اللدائن، وعالم الوراثة الذي يمسح لتحسين سلالة من الأبقار وافرادة الإدارة للحليب، فهؤلاء ينتمون إلى قسم آخر من العلماء هم العلماء التطبيقيون. ومع ذلك فمن سمات العصر الحديث أذابة الفواصل المتعطلتين أبواب العلوم التطبيقية، وأصبحت التفاعلات الكيميائية والمعاملات الحيوية والظواهر غير الحية كلها تدرس بنفس الطرق، وتبدأ من نفس الأوليات النظرية العامة.

بين العلم والبحث والتطبيق

وأعود إلى عهد الصبا عندما كنت أحرص برغبة في دراسة العلوم، ولكني لم أجد الفرع الدقيق الذي أفضل التخصص فيه. وبدأت أفكر في نوعين من الدوافع. بدأت بالسلبية

الابيلل الجهد وأجراء البحوث، أذكر أننا كنا نتجاذب أطراف الحديث، وكان من بيننا الطالب والمهندس والطبيب والفلاح والماسل بأحد مصانع الحديد والصلب، وكان اليوم ميذا، وتطرق الحديث إلى العلم والأدب والراحة والطب. وسأل أحدها عن امكان تحسين مواصفات الصلب وتخليصه من شوائب معينة. وسأل آخر أهذا النوع من العمل يدخل في نطاق العلم أم الفن؟ فرد عليه المهندس انه ينطوي على كشف حقائق علمية، وأن تحسين جودة إنتاج الصلب تدخل في نطاق خاص من العلم هو العلم التطبيقي. أننا قد وسعنا مفهوم العلم وفرقنا بين نوعين من المختصين بالعلوم: عالم أو مشغل بالعلوم. فإذا وصفنا الشخص بأنه عالم أو بأنه مشغل بالعلوم فإن هذا لا يعني أكثر من أن لديه كمية من العلم يستخدمها في البحث العلمي أو الكشف من المجول. وتنقسم الأنشطة العلمية إلى ثلاثة أسام: (١) العلوم التطبيقية (٢) العلوم الأساسية (٣) العلوم الطبيعية.

ويهدف أي بحث في العلوم التطبيقية إلى غاية عملية. فابتداع طريقة جديدة لتصنيع أو مواد جديدة أو وسائل أكثر سرعة في تصنيع المنتجات أو توفير راحة أو أسهل في النقل أو فريدة لخصوبة التربة أو تخلق أدوية جديدة، كل هذه أمثلة من أعمال علمية تطبيقية. ومن ثم فالفيزياء الهندسية والهندسة الميكانيكية والكيمياء الصناعية والزراعة والطب كلها علوم تطبيقية.

أما أبحاث البحوث في العلوم الطبيعية فواضحة، وتقومها متطلباتنا أو متطلبات الطبيعة. فالتناجد أن الاحتياطي من الطاقة أخذ في التناقص ويهددنا بالنفاذ، وهذا ما يدفع الناس إلى التطلع لاجتاد موارد جديدة للطاقة. وفعلنا نظهر الآن بوادر الطاقة النووية. وكذلك نظرا لتزايد سكان العالم، نزايد احتياجنا للصوف وأصبح لا يكفي متطلباتنا، فعمل العلماء يجتدوا واستنبطوا بدائل الصوف. وظهرت

القليل جدا من الذرات المتشطرة (جزء من مائة ألف من اللجرام) في السنوات الأولى من بحوث الطاقة النووية .

وكان استعمال الكهرباء في الماضي قاصرا على المصباح التوهج ، الذي اخترعه أديسون ، والتلغراف والجرس والتليفون والقبلة الزمنية ، أما اليوم فقد امتدت أيدي العلوم التطبيقية إلى الكهرباء ، وفتح آفاقا جديدة في هذا العلم .

إن السير مع تاريخ العلوم وأخبار العلماء ليبين روائع التراث في التطور الحضاري . ويكفي أن أذكر أسماء علماء مثل **كوبرنيكوس** و**كبلر** و**جاليليو** و**نيوتن** ثم **هرشل** و**اينشتاين** وهم من أعظم رواد أسرار الكون . فقد **كوبرنيكوس** نظرية العالم الأخرى **بطليموس** من الأرض التي ظن أنها مركز العالم . بعد أن لبنت في الأذهان منذ عشرات القرون ، وطلع على العالم بنظريته الجديدة التي تشير إلى أن الشمس هي التي في مركز المجموعة الشمسية ، والأرض أحد الكواكب التي تدور حول هذا المركز . وجاء « **كبلر** » فحدد شكل أفلاك الكواكب ، ورصد **جاليليو** الكواكب بالتلسكوب ووضع المبادئ الأولى للبحث العلمي . وجاء **اسحاق نيوتن** فأذهلنا بقوانين الحركة التي كشفها . ووضع قانون الجاذبية العامة . أما **هرشل** فبين أن المجموعة الشمسية جزء من مجرة هائلة بها ملايين الشمس . ووضع **اينشتاين** النظرية النسبية . كان هؤلاء رواد العلم وطلالغ الفكر الحديث من القرن الخامس عشر إلى العشرين . وعاش في نفس الزمن علماء آخرون اهتموا بفروع أخرى من العلم ، فمثلا تجد في الكيمياء **تريفيل** و**لافوازييه** وسوس وقد عاشا في القرن الخامس عشر وبعدهم **بشر** الذي عاش في القرن السابع عشر ، وكتروا رواد الكيمياء القديمة في أوروبا التي تبحث في صناعة الذهب وأكسير الحياة الدواء انشائي لجميع الأمراض . وكان القس الإنجليزي **بريستلي** كاشف الأكسجين أول رواد الكيمياء الحديثة

التي تصبى من فروع معينة من المعرفة . وكانت فكرة التخصص في التكنولوجيا قد انهارت أمامي منذ البداية ، فلم تكن بلادى قد بلغت مركزا ملحوظا في العلوم التكنولوجية ، فكان لزاما على من يود دراستها السفر إلى أوروبا . وكنت أضرع بميل إلى البحث الجاد من المعرفة ، واستخدم التحليل المنطقي للمشاكل التي تصادفني ، واستوتني دراسة العلوم وأنا بالمدرسة الثانوية مثائرا باستاذ معين ، وتخصصت في الكيمياء ، وتحولت إلى التطبيق العلمي عندما التحقت ببيئة التدريب بكلية الهندسة ، فالتجيت في بحوثي إلى استنباط طرق جديدة وسهلة لتحليل المعادن ومخاليط الأملاح والسيالات ، ولما التحقت إلى فرس السفر إلى الخارج التقيت بكثيرين من علماء الغرب ، وأني لا أنال أذكر أحد العلماء الفرنسيين ممن اشتهروا بالتنظيم العلمي ، وكان أحد تلاميذه يبحث أفضاه الموصلات الكهربية فتوصل إلى كشف أدى إلى وضع خطة لإجراء تجارب تلزمها أجهزة غاية . وكان الأستاذ يشكو من انقطاع المسولين بأهمية هذا البحث فلم يوافقوا على ترويه بالمال اللازم . وأذكر أيضا من تاريخ العلوم أن أحد الباحثين أراد قبيل العرب العالمية الثانية أن يجري بحثا على نواة الذرة . وكان البحث يستلزم استخدام أجهزة ومعدات غاية فلم يحظ بموافقة المسولين على تمويله . وقالوا أن النتائج قد لا تساوي المبالغ الباهظة المطلوبة . ونعلم الآن ما يجري في الدول المتقدمة المسماة « **التقني النووي** » من بحوث في الذرة والطاقة النووية من أجل السلام ، ومن أجل التسابق في أحرار أسلحة نووية حديثة .

إن العلم البحث يشهد أيضا الصناعة والتكنولوجيا كما يشهد الدفاع الوطني . والبحوث البحتة تقودنا إلى البحوث التطبيقية . إن القرن الألف الذي ينتج الحديد الزهر بمعدل نصف مليون طن في العام ، يتكلف نفس التكاليف مثل معجل سرعة الجسيمات النووية المسمى « **سيكوترون** » والذي يبلغ نفس حجم القرن العالي ، ومع ذلك فلا يتجاوز إنتاجه إلا

التأثير الكهرومغناطيسي سنة ١٨٢١ ، ووضع أيضا قوانين التحليل الكهربائي ، ولكن لم تظهر أهمية هذه الانتصارات العلمية إلا بعد ما اخترعت الآلات الكهربائية ، واستخدمت بعد عشرات السنين من كشف فراى لقوانينه . وكذلك كشفت الأشعة السينية والبيت « هان وشتراسمان » إمكانية اقتران نواة الذرة لملاحظة ان النيوترونات البطيئة تشطر نويات ذرات الهليوم ، وظلت هذه الأفكار خامدة حتى تحقق التفجير النووي ، بعد سنوات عديدة ، فى إيطاليا بمعرفة « أليكو فرمي وليزماينتر » .

كانت هذه البحوث الثمار الطيبة لجهود العلماء الذين عرفوا طريقهم وهدفهم ، وكانت الحقائق التي كشفوها كامنة بين طيات غموض الطبيعة حتى نضجت المعرفة ، وتركت في مجالات العلوم البحوث أولا ، ثم وجدت هذه الأشياء التي ظلت مجهولة ميونا بصيرة وعقولا وأمية لامة ، فتمكنت من ادراك هذه الحقائق والتقاطها من وسط الجحالة العميق ، ونظفتها من الادراك وهذبتها لم صقلتها ، حتى تمكنت من اظهارها للعالم ووضعها في خدمة المجتمع بالتطبيق العلمى .

مع التطبيق من الجديد والصلب الى اللينة :

يدفعنا الفضول الى البحث لغهم اسرار الطبيعة، ونحن نكشف المعرفة ونختزن الخبرات ونطبقها في التنبيه بالاحداث القليلة . وتقدم العلوم في كل فروعها في طرق متوازية ومتصلة بفروع جانبية في جبهة متماسكة قوية ، وتفرض تكافؤ الجهد وتوسع التقدم الحضارى ، وتفرض على طرق حياتنا بنور الهدى . والحق ان تقدم العلوم واجب من واجبات الدول ، لانها غذاء العقول ونورها ، وفروة وذخيرة ودعمه قويه تشيد الصروح الاجتماعية والاقتصادية والسياسية . ونحى الديار - وتمرز وتكرم الشعوب . فعلى كل دولة تخصيص الاموال للاتفاق على العلم والبحث النظرى والتطبيقى .

ان رغبة كل امة في النهوض يلزمها بالاهتمام بالعلم والبحث العلمى ، وتتصل الشروات

وعاصره لقوانينه الفرنسي كاشف نظرية الاحتراق وهادم نظرية الفلوجستون . وجاء كثيرون من بعدهم من علماء الكيمياء وعلى رأس قائمتهم جون دالتن صاحب النظرية الذرية ثم الفيلسوف السويدي برزيليوس وأخس الرموز الكيميائية الحديثة في شكل حروف الهجاء بدلا من الرموز القديمة التي كانت في شكل رسوم غير مفهومة . قضى برزيليوس على استخدام الرموز القديمة ملثما قضى لقوانينه على نظرية الاحتراق القديمة « الفلوجستون » . وظهر في القرن التاسع عشر الفوجاندر صاحب الفرض المشهور باسمه في دراسة الفلزات ومبتكر المصطلح « جزيئات » ، لم اعقبه « فوهلر » ، اول من حضر مركبا عضويا من مادة غير حية ، وجاء من بعدهم العالم الكيميائى الروسى مندليف ب « نبي الكيمياء » لانه وضع النظام السورى لترتيب العناصر وواضح جدول مندليف . وفسر « اوهينشويس » مسلك المحاليل الموصلة لتلياذ الكهربائي بالنظرية التي وضعها المسماة « النظرية الايونية » . ويختتم القرن الماضى الانتصارات العلمية الكبرى ببروغ فجر العلوم النووية ، وكشف البولونيوم ثم الراديوم والنشاط الاشعاعى ، بغسل المدرسة الفرنسية في السوربون على ايدي « بيير كورى ومدام كورى ثم هنرى بيكول ثم كشف الاكترون في الجائتسرا على ايدي مدرسة طومسون وذرنفورد ، ثم موصلي ونجميور ، وكلم من بناء العلوم النووية . ويظهر من بعدهم في القرن العشرين علماء كثيرون اسهموا في كشف اسرار نواة الذرة « والانفطار النووي » ، ومن بينهم « لورانس » صاحب المدفعية النووية الجديدة ، التي تعاصر نواة الذرة وتلك حصنها المنيع ، ثم اينشتاين وماكس بلانك اصحاب النظريات الجديدة في النسبية والكم .

والمتاد ان تظهر أهمية النظريات الجديدة والكشوف الجديدة بعد سنين عندما تنتقل من دور الكشف الى دور التطبيق . فنجد مثلا العالم الانجليزى هيشل فراىكاي واضح قاتون

(السبائك) ودرسوا تأثير الشوائب وتغيرها للأشكال البلورية وأضافوا 'الروابط بين اللرات' . فلهذه الشوائب وجد أنها تنتشر في بلورة الاصابة عندما يتعرض للجهدات ، وان البلورة تفقد خواصها عندما تتكاثر فيها المواقع المشوهة بها وعند تعرضها لقوى صغيرة . ان العلم والتكنولوجيا قد تعاونوا في نشر مصورات بيانية لانتشار أماكن العيوب في البلورات . وقد ابتكرت الطرق لتحديد أماكن العيوب ومشاهدة انتشارها في البلورة المفردة . تابع علماء الفيزياء وعلماء الفلزات هذه البحوث لإيجاد حل مشكلة زيادة الصلابة للصلب . والعرف ان الكميات الصغيرة من الكربون في الحديد الطرى تحوله الى صلب شديد الصلابة . كما وجد ان ذرات الكربون صغيرة الحجم تمنع ما يسمى **التشويه الموسمي** في بلورة الصلب ، وان هذه خاصية لا تنفرد بها سبائك الصلب الكربوني ، بل تشمل ايضا عناصر أخرى توجد في الصلب . فيمكن استبدال الكربون بها في صناعة الصلب .

انتشرت هذه الإنكار العلمية والتجارب العلمية وانتقلت من المعامل الى بيوت علم الفلزات (الميثالورجى) والى مصانع الحديد والصلب على مدى حقبة واحدة من الزمن . ان الفكرة العلمية تنتقل الى التطبيق العملى في مدة تتراوح بين سنة وعشرات السنين حسب الظروف .

ومن النوازل القوية لبحث العلمى البحث ،

وحدة الحرية والحاجة الموجهة . وهذا يتضح في قصة الطاقة النووية التي بدأت ببحث علمي نظري منذ عهد الاغريق لما ذكر **ديموقريطس** ان المادة تتكون من دقائق صغيرة لا تقبل التجزئة سماها ذرات **Atoms** . فهو واضع البنية الاولى للنظرية الذرية ، ثم تبعه علماء كثيرون الى ان جاء **دالتون** ثم **دلفورد** . وضع الاول النظرية الذرية الحديثة ، وكشف الثاني الإلكترون ، ثم حرفت أسرار النواة ومكوناتها ، فانقلبت البحث العلمى العرالى

التكنولوجية بالكشف العلمى . وعلى الرغم من بلوغ بعض مجالات التكنولوجيا مراكز عالية قبل العلم البحث ، ومعرفة الكيمياء الحديثة والفيزياء الحديثة بزمان طويل ، فان بناء الأهرام القديمة ، وصانعى الزجاج ، وصاهرى المعادن ، ومن شقوا صياغ البصر في سفن من البردى ، ومن جاؤوا الفياثى دون مساهمة من العلم البحث ، كانوا على دراية ببعض العلوم الطبيعية في شكل بدائي وغير مرتب . ويقول البعض ان صناعة الزجاج وصناعة الصلب لم تعتمد على القوانين الطبيعية عندما كانتا في مهبهما . ويقولون ايضا ان « **جيمس وات** » المخترع الإنجليزي لم يكن يعرف قوانين الديناميكا الحرارية ، بل اعتمدت هذه البحوث والاكتشافات الحديثة احيانا على التجربة في المواد الطبيعية النافعة ، دون استخدام التحليل الكيميائي لها ، او دراسة قوانين . وقد ساءل اهل الصناعة الاحتياجات والمشاكل التي دفعتهم للعمل ، وعملوا على حلها دون الاهتمام بالعلوم الطبيعية النظرية . ومع ذلك ، لما تدخلت العلوم في الصناعة تحققت مكاسب مادية كثيرة ، وتقلعت أفكار العلميين في التطبيق المستخلص من العلم ، حتى لم يسبق شيء من العلم دون استغلال . فنقد تطوّر التطبيق العلمى في السنوات الأخيرة بعمليات كبيرة .

ولم يسر تقدم صناعة الحديد والصلب بهذه المراحل الملهلة الا منذ السنوات الاولى من الخمسينيات الى القرن التاسع عشر ، بعدما احتاج الانسان الى صلب قاسى ، فابتكر عملية انتاج الصلب القاسى ، واستمرت محاولات الاختصاصيين من المهندسين والكيميائيين والفيزيائيين لا تقاس وزن الصلب وانقاص وزن الانشادات والاغلال من نسب الشوائب الضارة والمعدرة لخواص الصلب الجيد . اتنا بالصلب الجيد الذى يطابق مواصفات معينة نستطيع انقاص عشرة او عشرين في المائة من اجراء الآلة من حيث الحجم . وقد ابتكر العلماء النظريون أفكارا جديدة من صلابة الاصابات

الكتيب، وقاس نشاطها الاشعاعي ورقة ورقة،
ووجد خاتمة المشعودة . وجد معه صديقة
« ايلسون » ان احدى نتائج الانشطار مادة
مجهولة ، وكانت بالورقة الاولى ، تختلف تماما
من كل ما توقعناه ، فقد كانت عنصرا جديدا لم
يعرف اطلاقا في الطبيعة وسمى « نيتونيوم »
وهو عنصر ابتدع ابتدعا ، فكان اول عنصر
صنعه الانسان ، ووضع بعد اليورانيوم في
جدول مندليف . ثم انتج العنصر التالي وسمى
« بلوتونيوم » الذي كشفه سيورج سنة ١٩٤٠
وكان معه فريق من الزملاء **أوتو وال وجوزيف
كيندى وماكيلان** ، عندما قدلوا هدفا من
اليورانيوم بالنيترونات في سيكلون . وكان
ولن مانتج من البلوتونيوم في هذه التجربة
الاولى من الفسالة بحيث لم يتجاوز الجزيئين
من مليون جزء من الجرام . ولا يمكن ان يرى
بعين مجردة . وكانت مشكلة جديدة . فكيف
يستطيعون وزنها وادائها وخطها ، وهي في
نقطة من سائل ؟ ان هذه المشكلة تطبيقية تولدت
من الاصل العلمي البحث من اجل تحقيق هدف
هو البحث عن اسرار الطبيعة .

وشهد العلماء القرائع بحثا من امكان تخليق
عناصر اخرى اقل من البلوتونيوم يصنعها
الانسان بواسطة هذه التفاعلات النووية
المستحدثة، فانكر **بريس كنتنجهام ولوين فونر**
طرق دراسة كيمياء البلوتونيوم، فصنعا اجرة
وادوات لها لجة ومناولة الكيمايات افضلية جدا
من المواد ، التي يقل وزنها من واحد من مائة
مليون من الجرام . وصنعا انابيب شعيرة ،
تقيس حجوما صغيرة جدا من السوائل ، تبلغ
جزءا من مائة الف جزء من اللتر . وادت
هذه الاكتشافات والمبتكرات الى ظهور علم الكيمياء
الحقيقية Microchemistry وقد استفيد
منها في علوم اخرى مثل الكيمياء الحيوية
والكيمياء التحليلية الدقيقة وبعوث الهرمونات
وبعوث الوراثة ومعرفه خواص المبيدات
الحشرية وتأثيرها في الغلبة الجواء ، وارباض
هذه التفاعلات بعرض السرطان .

البحث من اجل استخدام الطاقة النووية في
اغراض حربية . وبعدما تحقق هدف الولايات
المتحدة ، والنصر بعد لقاء قبيلة هيروشيا
الحرية ، وما تبعها على نجاحها اجمعت بعوث
الطاقة النووية الى الاغراض السلمية ايضا .

وعرف البروتون ثم النيوترون وابتكرت
المدفعية اللرية . وكانت جماعة **الريكو فومي**
تبحث في روما امكان شطر نواة الليرة ،
واستخدموا في سنة ١٩٣٥ مدفعا نوويا يطلق
قذائف نووية هي نيوترونات تنبعث من الفايز
المشح المسى « رافون » وهو يشبه الراديوم
في كونه يشع جسيمات ألفية (نواة الهليوم)
موجبة الشحنة . اطلق جماعة فرمي قذائف
مدفهم النيوى على مسحوق فلزخفيف هو
البراليوم - الذي يشبه نوعا ما الألومنيوم -
فكانت القذائف تصيب نواة البراليوم بمعدل
ضعيف للغاية بلغ الواحد في المائة ألف ، وهندل
تتحد التقليدية بالنواة وهو تفاعل نووى ينتج
عنه ذرة كربون وينطلق نيوترون . كانت
الجماعة تعرب حقا ان الليرة تحتوى النواة في
الوسط وان أغلبها الساحق فراغ (٩٩٩ ٩٩٩
و ٩٩٩ في المائة من حجمها) وتتركز مادة
الليرة في نواتها . ومن ثم فكثافة النواة قيمة
استطورية (٢٤٠ x ١٢١٠ جراما للسنتيمتر
المكعب) . وكان نواة الليرة حصن منيع يكاد
يستحيل اقتحامه . ولكن **فريدي ورفاقه**
اقتحموه وشطروا النواة . وقامت بعوث عديدة
في الطاقة النووية بعد ذلك . حاول « **ادون
ماكيلان** » سنة ١٩٤٠ في بريكلي بكاليفورنيا
قياس المسافة بين اجزاء الانشطار النووى
لاليورانيوم ، فاخذ كتيبا من ورق لف لفائف
التنغ ووضع على اعلاه طبقة رقيقة من ثاني
أكسيد اليورانيوم ، على الورقة الرقيقة الاولى
وترك الاوراق الاخرى كما هي ، كي تكون حائلا
يمنع انتشار كسرات تحطيم النواة الذى سوف
يصيب ذرات اليورانيوم . ووضع الكتيب
وغطاه اليورانيوم في هدف السيكلترون
(مجل السرعة للجسيمات) معرضا الهدف
لقذائف النيوترونات . وبعد ذلك فصل اوراق

علاقات تنظيمية :

يتوقف من يعمل في مجال علمي او في البحث العلمي قليلا من عمله المعتاد ليتأمل ولو مرة كل اسبوع فيما قام به من عمل وما سوف يعمل في الفترة القادمة ، وما سوف يقرره هو وزملاؤه بشأن طرق المشاهدة والتجريب وما يجب ابتكاره من اجهزة قياس . ويضع الباحث التصميم لجهازه الجديد ويبحث به الى ورشة مركز البحوث لتنفذ بنائه ، ويقتضي العمل في البحث العلمي بعض التغيير من ان الى آخر . ورئيسي العمل هو الذي يحدد الوقت المناسب ليتخذ قرار التغيير ويقرر نومه . ففي الابحاث الكيميائية ، يقرر الرئيس متى يغير طرق الفحص ، من قياسات بصرية او كهربية الى قياسات راديو سيكتروسكوبية . ويحصل الباحث على نتائج قياساته ويوقعها بالرسم البياني في خطوط او منحنيات توضح النتائج بسهولة وسرعة ، وتشير الى اتجاه التفاعلات ، وتوصي بضرورة المراجعة احيانا للطرق المستخدمة او استخدام مواد جديدة .

والبحث يحتاج الى اموال . وعلى مدير المركز تدبير المال والقوة العاملة وتربية الاجيال ، التي تستطيع الاشراف على الاعمال الفنية والادارية ، وعليه ايضا المحافظة على استتباب النظام في خط موحد متناسق من حيث الاسام والافراد بالوحدة الواحدة ، وكذلك حسن الاتصال والتعاون بين خلايا البحث ووحداته بالمركز وبالشركات المعنية والمتصلة بالمركز . ويجب ان يعلم الباحثون ان الوحدات السبغرى ليست فويلات مستقلة ، بل اجراء او اعضاء في جسم كبير هو مركز البحوث على المستوى القومي . وقد يكون عدد افراد الفريق نسي الوحدة صغيراً او قد يعمل الباحث بمفرده ، ومع ذلك يجب ان يوطد ارتباطه بشكل ما بوحدة البحوث الاخرى .

وتتمايز الوحدة عادة بنوع او تخصص فريد ودقيق . ويلتزم بالسير في هذا التخصص

وقد ادى هذا التطور العلمى الواسع المدى الى اختراع الميزان فوق الدقيق للكيمات الضئيلة من مركبات البلوتونيوم ، مثل الميزان فوق الدقيق الذى ابتكره الاستاذ المصرى المرحوم الدكتور حامد البدرى وصنعه نسي ايرلنده ، ثم في الولايات المتحدة وهو الميزان المسمى فوق دقيق (Ultramicro — balance) الذى يزن مركبات البلوتونيوم بدقة بلغت ١٠×١٠^{-٨} من الجرام . ونشر بحثه بطريقة صنع ميزانه في المجلات المتخصصة .

لما كانت غرب أوروبا تزلج تحت سيطرة الفاشية في سنة ١٩٤٢ ، والحرب العالمية قد بلغت الذروة ، والتازية تستعد لغزو انجلترا ، وكانت قوات اليابان تهاجم سفن الولايات المتحدة بالمحيط الهادى ، كان اليونانيون يجلب من تشيكوسلوفاكيا الى المانيا النازية في سرية تامة . وكان الماء الثقيل ينتج باقمى طاقة . وكان في الولايات المتحدة فريق من علماء الفيزياء يقومون بتصميم قنبلة نووية . وقد اقتضى على معلمهم هامان كاملان . وكانت السرية تشمل بحوث البلوتونيوم ايضا . واقام مصنع في هانفورد بواشنطن لفصل البلوتونيوم على اساس انتاجى كبير اعتمادا على البحوث الاصلية التى اجريت على المستوى فوق الدقيق Ultramicro بطرق الكيمياء فوق الدقيقة . كان هذا البلوتونيوم اساس انتاج القنابل النووية . وكانت هذه التجربة التى مرت بها البشرية مثالا من امثلة الارتباط بين العلم والتطبيق . وهو سلاح ذو حدين ، فاما ان يسعد البشرية او يقودها الى الدمار .

ولعلنا نفكر في نتائج كارثة هيروشيما ، ونحد من استخدام الاسلحة النووية او نمنع استعمالها ، ونوقف استخدامها ونقتصره على اغراض السلام .

وتوزيع مخصصات مالية على مختلف مجالات العلوم حسب ما وضع في الخطة العامة من أولويات . ولا يستطيع رئيس العمل أو رئيس مركز البحوث رسم الخطط التفصيلية كما يفعل مدير المصنع الذي يستطيع تقدير إنتاجه الشهري والسنوي في الميزانية التقديرية التي يلتزم بتنفيذها . فقد يطلب من كل معمل تقديم خطته السنوية . ولكن كيف يستطيعون بيان ما سوف يحصلون عليه من نتائج ؟ ليس من الصعب أن نحدد ما يترجم القيام بعمليات القياسات وما نحتاجه من الأجهزة والمعدات وما نود إجراؤه من تجارب ، لكن الصعب تحقيق ما نرسم القيام به ، فالباحث قد تتراكم به أعمال نمطية مثل قياس درجة حرارة غاز أو كثافة سائل أو نقطة انصهار جامد . وقد يستطيع الباحث تقدير ما يحتاجه من الزمن لتصوير صورة بالأشعة السينية أو لرسم طيف خطي لمادة ، أو لإجراء عملية حسابية . ولكن من الصعب أن نقدر عدد الأسابيع التي قد يستغرقها العمل في بناء جهاز وفق رسم معين . إن البحوث الأصلية دائماً التغير والتطور ، إما البحث الذي يعتمد على أعمال نمطية فليس بحثاً . ولا معنى للبحث العلمي إلا إذا كان يكشف عن غامض من أسرار الطبيعة . والعمل التجريبي الناجع هو ما يستخدم فيه أقل ما يمكن من الأجهزة ويظهر أعظم ما يمكن من النتائج . والبحث الذي يبدو لنا لأول وهلة بسيطاً وسهلاً قد يتحول أثناء التجريب إلى درجة عالية التعقيد . وبالعكس قد تبدو المشكلة صعبة ومعقدة ثم تحل بغاية البساطة والسهولة . إنك تجد العلاقة بين الطاقة والضوء قد شغلت أذهان كثير من العلماء حتى حلها أينشتاين بالمعادلة البسيطة : $(E = h \times \nu)$.

(الطاقة = الكتلة \times مربع سرعة الضوء)

القراءة والبحوث :

يقول كثيرون أنه يجب على الباحث تتبع كل ما ينشر من المؤلفات العلمية والمقالات المتعلقة بالموضوع الذي يبحثه . ولكن يخالف

عدة سنوات بين الخمس والعشر سنين . أما إذا استمر العمل بها دون ما معايير واضح لمدة عشر سنوات فإن هذا يدل على كونها متوسطة الكفاءة وقليلة القيمة . ويمكن أن توصف بعدم استحقات تسميتها وحدة في مركز بحث كبير ، بل يمكن أن تحول إلى خلية بعض الأغراض الجانبية أو المساعدات لوحدة أخرى ، وبذلك تبسط وحدة أخرى سلطانها عليها وتستغلها .

ويذكر أن قائد الفريق يصدر قرارات بالخطة والخطوط الرئيسية التي يسعى بمقتضاها الباحثون في دراساتهم ، وهو الذي يحدد أساليبهم بالمعونة مع لجنة أو جماعة صغيرة العدد من الباحثين القلماء بالمركز . وقد لا يدل اسم وحدة البحث دلالة واضحة على نوع البحث الذي يجري بها ، بل يدل فقط على المجال العام له . ويجب أن تختلف وحدات البحث في خططها ومناهجها حتى ولو كانت تحمل نفس الاسم ، كما يجب أن تختلف أيضاً في أساليبها وفي اتجاهاتها نحو التجارب العملية . فقد تركز معمل جهوده في إنشاء أجهزة معقدة التركيب وإبتكار طرق قياس دقيقة ، بينما تفضل معمل أخرى شسراء الأجهزة ، وتبذل جهدها في تشغيل الأجهزة ، وتفسر النتائج التي تحصل عليها بواسطة هذه الأجهزة . وقد تختص معمل أخرى بمعالجة مشاكل واسعة التشعب ، فيلزمها مختلف أنواع الأجهزة والمعدات ، بينما تركز معمل أخرى الجهد في بحث تفاصيل مشكلة معينة .

وهناك عوامل هامة تشكل أسلوب الخطة والتابعة في البحث العلمي . ومن بين هذه العوامل المزاج الشخصي لقائد البحث وعقليته وانطباعاته بالنسبة للتطور العلمي العام ومدى تأثيره بالتقدم في العلوم المتصلة بمجال بحره ، وتأثره باهتمامات الهيئات والمنشآت الصناعية في البلاد إبان الفترة الزمنية التي تجري فيها البحوث . ويعتبر دور القائد حاسماً في وضع الخطط ، أما دور الدولة فهو المراقبة والتحكم ،

يكن « اقرأ » لا تمارض وتفند ، ولا تؤمن وتسلم ، بل لتزن وتفكر » .

وكذلك اختلفت بعض الآراء عن الاتجاه العام ، بأن معرفة اللغات الأجنبية ضرورية للباحث في العلوم . وعالم الكيمياء اعتقد أن معرفته الإنجليزية والألمانية من أهم الضروريات . ولكن أعرف من العلماء « فيلهلم أو ستفاله » الألماني الذي كان يؤمن بضرورة الإحجام عن دراسة اللغة الأجنبية لكنه كان يقصد اللاتينية لا اللغات الحديثة . أما « هيرت سبيسر » الفيلسوف الإنجليزي المادى فكان يعتقد أن تعلم اللغات يزيد احترامنا للمرجع ويوقن نمو ملكة الحكم المستقل . وأكد أن البحث فنى العصر الحديث يستلزم إتقان لغة أجنبية واحدة على الأقل .

واعتقد أن من الطرق الحسنة في البحث التدرج في مراحل معينة مبتدئاً بالقراءة فنى المراجع عن ما كتبه السابقون عن الموضوع ، ثم تتبع آراء السابقين بنظرة فاحصة ناقدة ، ولها خطوة جمع حقائق ميدانية - إذا كانت الدراسة ميدانية - أو حقائق في الموضوعات المتعلقة بالعلوم الطبيعية . وبعد ذلك تأتى مرحلة إجراء التجارب الأولية واختبارات الفروض اختباراً عملياً ، وبعدما نحصل على معلومات نعمل على تنظيمها وترتيبها وإيجاد علاقات بينها ، ثم نربط هذه العلاقات ببعضها ونحدد موضوع البحث . ونحاول التساؤل والإجابة الذكية بواسطة الفكر والفروض والبيات الفرض بالتجريب المضطط ، ثم اختيار أكثر الفروض رجاحة .

هل نتمتع على الصدفة في البحث ؟

يتعرض الباحث لعوامل نفسية كثيرة فهو يلاحظ ويفكر ويفرض فروضاً معينة ويحاول إثباتها بالتجربة . وهو يتصور ويستفيد خياله المبدع فيصمم النظرية ، ثم يستنبط منها قوانين عامة . وهو يتأثر بدوافع نفسية كالفضول . وكثيراً ما يعتاد على

بعض العلماء هذا الرأي . ويقولون إن كثرة الاطلاع أمر غير حكيم وأن قراءة أعمال السابقين تضيق زاوية رؤية الباحث في مجال ما ذكر في أعمالهم فلا يتفنت الدفن عن (سطحات) جديدة . ولا تظهر طفرات علمية أصيلة . ويحيد آخرون القراءة الكثيرة في المجالات العلمية العامة المتعلقة ببحث المبتدئ . والغريب أن كثيراً من مشاهير العلماء والمخترعين لم يدرسوا دراسة نظامية في نوع تخصصهم الدقيق ومع ذلك أحرزوا انتصارات رفيعة القدر . ومن أمثال هؤلاء « لويس باستير » الذي أثبت خطأ نظرية التولد الذاتي وأجرى تجارب التخمر الكحولي ، وكشف التعقيم المسمى « البسترة » وحل مشكلة انتشار مرض دودة القز ، ومرض كوليرا الدواجن ، وكشف التعقيم ضد الجعرة وداء الكلب . وهو مع ذلك كيميائى لم يدرس البكتريولوجيا ولا الطب . ويقول « بسمار » مكتشف طريقة لإنتاج الصلب رخيص التكلفة ما نصه « كانت لي ميزة كبيرة على الآخرين ممن عالجوا هذه المشكلة - إذ لم تحكم في فكري الأفكار ثابتة مستمدة من خبرات معينة ومألوفة منذ زمن طويل ، بل لم أحرص لفسر تلك المعتقدات السائدة بل أن أيسر في الإمكان أبدع مما كان » .

وكان كلود برنارد مؤسس الطب التجريبي يعتقد أن ما نعرفه هو الذى يوقنا وليس ما نجهله . ويقول « بيرون » لاكون مبتكراً حقاً يجب أن أكثر التفكير وأقرأ قليلاً . ولكن هذا مستحيل إذ يجب أن يقرأ الإنسان قبل أن يتعلم التفكير . أما برنارد شو فيقول : « القراءة تعطى العقل » .

ليست هذه الآراء قوانين عامة ، لأن القراءة من ضروريات التعليم وزيادة الحصيلة العلمية . وهى التى تعرفنا بأساليب السابقين . وعليها التأمل في أعمالهم وتقددها وعدم التمسك بالنظريات والأفكار القديمة . يقول « فرنسيس

والواجب على الباحث اليقظة والاهتمام بكل ما يلاحظه . وليس الأمر مجرد حفظ ، كما قد تنوهم ، فالحفظ والصدفة ليست قوة غيبية تؤثر في مجرى الأحداث ، بل الحفظ كلمة اخترعها الإنسان ليبرر فشله . والقدرة على الانتباه واليقظة وإدراك الانحرافات من المسالك الطبيعية ، والانتفاع بما شاهدها من انحراف هي أسرار العقول النافذة التي تستفيد من الأحداث العارضة . وقد تدعك ملاحظات بسيطة أدت إلى كشف مشورة ، والذي من يظهر مفرى ما كشفه ويربطه بالمعلومات الأخرى يستخدمه في استخلاص معلومات جديدة . أن الصدفة نادرة الحدوث ، ولا يجب أن نتمتع عليها وحدها في البحث ، فهي لا تأتي بصورة دائمة واضحة الدلالة ، بل علينا أن نعمل بجهد ومثابرة ، ولا تنصر عملنا على اجراء تجارب تقليدية نظمية وأدوات تقليدية ، بل علينا أن نبتكر الطرق الجديدة والأجهزة الجديدة المناسبة لعملنا المتطور .

حساسية الملاحظة :

وكثيرا ما يحتاج الباحث إلى ملاحظة الأحداث الفريدة بما أولى من حكمة وقدرة حساسة على الملاحظة ويقتطع وتنبه لكل ما يحيط به من أشياء محتملة أو غير متوقعة الحدوث ، وعليه تفسر الأحداث وإدراك أهميتها والاستفادة من التجارب الناجحة والفاشلة أيضا . لم يكن « **وليم هارفي** » أول من عرف وظيفة القلب كمضخة للدم . ولا « **انوار جنان** » أول من طعمَ بلقاح جدري البشر ليحسم الناس مرض الجدري . ولم يكن **فاون أول** من وضع فكرة التطور . ولا **كولومبوس أول** أوروبي رحل إلى العالم الجديد . ولم يكن **ياستير أول** من وضع نظرية الجروسة للأمراض ، بل كلهم مطوروون لأفكار قديمة ، وقد فرضوها علينا بقوة الإقناع والإيمان بصحتها في وقت إجماع الناس فيه عن قبول الفكر الجديد . وذائع هؤلاء من نظرياتهم حتى تقبلها الناس ، لكن من سبقوهم من العلماء لم يدانوا من الأفكار الاصيلة فطرواها النسيان ، كما طرواها .

معلوماته في علم تخصصه، وعلى التفكير والتأمل العميق وما تلعبه الصدفة في بحثه .

إن تاريخ العلوم حافل ببحوث لمبت الصدفة فيها أدوارا هامة . وسأذكر بعض الأمثلة على أثر الصدفة في تسيير دفة بحوث هامة .

توقف باستير أيما عن البحث في كوليرا الدواجن لما قام باجازه، ولما عاد وجد مستنبتات البكتريا التي كان يربيهافداصبت بالعمم، وحاول انعاشها ولو جزئيا بحساء ، ثم حقنها في دواجن . ولشد ما أدهشه عدم تأثير الدواجن بالحقن بالميكروب . وكاد يعمل هذه المستنبتات المستضعفة ، ولكن برقت فكرة في ذهنه ، فلغها على الفور . لقح الدواجن ذاتها بمستنبتات البكتريا غير المستضعفة ، فقاومت الدواجن التلقيح البكتيري الجديد . وأدنت هذه المصادفة إلى كشف « **التحصين بالتلقيح** » بجرثيم بعد استضعافها .

وكان « **كريستيان جرام** » الطبيب الدانمركي، يستخدم صبغة بنفسجية يعقها بمعالجة باليود ، لكي يصبغ نوى خلايا بطن قنوات دقيقة في الكلية وتلوها باللون البنفسجي ، أما بقية الخلية فكانت تصبغ بلون بني . ووجد جرام أن الكحول يزيل اللون بسرعة بعد المعالجة وأن بعض أنواع من البكتريا تحتفظ بلون أزرق قائم ، بسبب تعامل اليود مع الصبغة بطريقة لم تكن في حساب أحد ، لأنها كانت تتفاعل مع مادة توجد في أنواع معينة من البكتريا دون الأخرى . وكان ذلك بعض الصدفة ، فاستنبت صيغة للبكتريا وكشف أيضا اختبائها بسيطا عظيم المغالدة يعرفنا أنواع البكتريا . وعلى أساس هذا الكشف صنفت البكتريا إلى بكتريا جرامية إيجابية Gram Positive وأخرى جرامية سلبية Gram Negative ولعبت الصدفة أدوارا أخرى في كشف **دوتنجن** للأشعة السينية ، وكشف **فليمنج** بمسار البسليين المضاد الحيوى .

وقد يكون التفكير واعيا ومنظما أو حرا طليقا في مختلف الاتجاهات بغير ضابط . وقد يكون التفكير المنظم فعلا أو عديم الفعالية . فالمرء الذي يفكر ولا ينقد فكره عندما تطرأ على ذهنه نقدا كافيا لا فعالية لفكره . وقد يتسرع في النقد والحكم ويتعرض للخطأ . وينتاب الفكر أثناء نقده فكره بعض الشك ، ولذلك يجب أن يعمن التأمل والتفكير حتى يستطيع استخلاص النتيجة .

وقد يتعجل الفكر الحكم بعدما يفقد الصبر . والقلق النفسى هو الذى ينتابنا ونحن نشعر بالشك في الحكم . ومع ذلك فهذا الشك هو الذى يدفعنا إلى التمحيص والاستقصاء . فكلما أمعنا الفكر ازداد احتمال وشرح علاقات جديدة ، تربط لواحى متعددة في موضوعات البحث فنظهر الأفكار المتكررة ، وبخاصة إذا كانت حصيلتنا وخبرائتنا وافرة ، وذكرائنا متنوعة .

إن التفكير الواسع الوجه هام في البحث العلمى . وهذا ما ينادى به الفيلسوف الأمريكى « جون ديوى » . ولكن من الفلاسفة أمثال هاردنج (صاحبة كتاب قانون الفكر الخلاق) (سنة ١٨٩٨ - ١٩٦١) أن كل التفكيرين الضالعين حائلون . وقالت من الاستغراق في الإحلام أنه يمكن الأداة من تركيز اللهن سليبا على الموضوع بحيث يتابع تماكب الأفكار عند ظهورها ولا يوقفها إلا عندما تكون غير مثمرة ، وتتفرع عادة على مسجبتها حتى تتسحقن من بعض النتائج النافعة .

ولا غرو فقد ذكر العالم الألمانى ماكس بلانك أن الخطة التخيلية التى يحاول المرء بناء النظام عليها لا تتفك أن تنهار ، وعندئذ يتحم عليه تجربة غيرها . وبمثل هذا التصور والإيمان بالنجاح نصل إلى المألوف عنه . أما العقل وحده فلا مكان له هنا .

أما « جيمس كلارك ماكسويل » صاحب نظرية المجال الكهناطيسى فكان من عاداته رسم صور

وتتمثل الإرادة الذهنية في البحث العلمى في الفرض الذى يضعه الباحث ، لأنه يفتح أبواب التجارب التى تقودنا إلى كل جديد من مشاهدات تريح الستار من المجهول ، وتوضح الحقائق المستورة . ويجب علينا عدم الإفراط بالتعلق بأهداف الفرض رغم ما يناقضه من مشاهدات ، والا نحاول تفسير المشاهدات تفسيراً غير مقنع حتى تتماشى مع الفرض . ويجب علينا ألا نحكم على النتائج أحكاما غير موضوعية ، بل أن نعمل الفرض ليتلاءم مع المشاهدات ، ثم نرسم خطة تجارب جديدة لمحاولة إثبات الفرض الجديد أو الهدل أو التطور . ويجب علينا التزام الحياد في البحث والابتعاد عن أى تعصب فكري أو تمسك بالفكر ونظريات القدماء مهما بلغ شأنهم ورسوخهم في العلم .

ويتعرض الباحث لخطر الالتزام بحماية فرضه من النقد والهجوم ، لأن ذلك يؤثر فيه تأثيرا عاطفيا يوقعه في أخطاء في التفسير والحكم دون وعى . وكذلك قد يعرضه لاختطاف في المشاهدة . ويجب عدم التقيد بالفرض الخاطئ الباطل ، والا نفسر المشاهدات بالتلفيق أو التصحيح ، كي يطابق التفسير تلك الفكرة الخاطئة أو الزائفة . فهذه الأفكار هرقلت مسيرة العلم مئات السنين ، مثل فكرة احتواء كل المادى على عنصر الزئبق ، ومثل نظرية العناصر الأربعة ونظرية الفلوجستون ، واكسیر الحياة وحجر الفلاسفة .

التفكير العلمى :

إننا عندما نفكر تفكيرا واعيا ندرك أولا وجود صعوبة أو مشكلة فتشعر بالقلق النفسى الذى يدفعنا إلى محاولة حلها . وهكذا ينشط العقل ، ويحصن فكرة تبتثق في اللهن لحها . وقد يقبل العقل هذه الفكرة أو يرفضها . ويعاود الكرة بالفراض أو اقتراح فكرة جديد وهكذا حتى يتوصل إلى حل سليم للمشكلة .

ويعتاج الدهن الى استعراو تنبيهه كي يكون صاحبه من المفكرين او الباحثين صن المعرفة ، وقد يكون ذلك من تبادل الراى . وقد تخرج الآراء والاافكار والمعلومات فتظهر فكرة جديدة بين اكثر من شخص . لم يكن فى الامكان استنتاجها بفكر شخص بمفرده . ويكشف النقاش عيوب العيوب والاطفاء ، وينعش وينبه الفكر ، ويعورنا من التفكير المقيد . ويمودنا النقد الضملى البناء والنقة والاحترام بين الزملاء .

خطة البحث :

كان احد الاساودة يستمد للقيام باجازته السنوية عندما كان يضع لمسائه الاخرة فى بحث يقوم به احد طلاب الدراسات العليا للحصول على الدكتوراة فى علم الفيزياء الجزيئية ، فاخذ يعطيه آخر تعليماته لاجراء تجارب توضح كيفية نقصان سرعة عملية جزيئية فى بلورة جامد سا . وكانت هذه الباورات تأخذ فى الانحلال . وكان على الطالب ان يقيس معدل تناقص سير العملية الجزيئية وسافر الاستاذ وبقي طالب البحث بمفرده مع قياساته ، ولما عاد الاستاذ اطلع على الرسم البياني للنتائج التى حصل عليها طالب البحث ، وراعه انه وجد المنحنيات البيانية تتخذ اتجاهها بخالف ماكان يتوقعه ، لانها لم تشر الى نقصان معدل سير العملية ، بل الى تزايد اولاً ثم تناقصه ، وكان الباورات تعتاد العملية الجزيئية اولاً ، ثم تأخذ بعد ذلك فى الانحلال . وقد ادى هذا الكشف الى وضع خطة جديدة للبحث وكشف ظاهرة جديدة اعتبرت اضافة هامة فى فيزياء الجزيئات ، وحصل طالب البحث على درجة الدكتوراه بتقدير ممتاز .

ان خطة البحث فى العلوم الاساسية لايتبع على حال بل تتعرض دائماً للتبديل والتغير . وكلما ابتعد الباحث عن الخطة الاصلية اتت نتائجه بنظريات لها اسالتها وزورها فى العلم . والمعجب ان تطلب الهيئات الادارية فى بعض

ذهنية لحل المشاكل . وينفس هذه الطريقة اهتدى « كيكولى » الى بنية جزيء البنزين من صورة ذهنية لتمايين وجد ان احدها يمسك ذيله بفعه . ومنها ابتكر الفكرة ان جزيء البنزين على شكل حلقة ، فدارت صورة الثعبان فى مخيلته . ولا استيقظ من استغرافه ومغت فكرة الشكل البنائى لجزيء البنزين وميض البرق ، ولا يوجد غير الحدى الذى يساعد الشصور بوجود نظام ماوراء الظواهر . ان انتقال نيون من التفكير فى سقوط التفاحة الى الارض الى التفكير فى سقوط القمر كان فى الواقع من الاغيلة الوثابة التى قادت الى كشفه قانون الجاذبية ، وكذلك وضع دالتن النظرية الذرية دون تجريب ، بل بالخيال البسيع . وكان خيال السير همفردى ديفي غزيراً مما ادى الى كثرة كشوفه العلمية . وصب الخيال فراى فى افعاله الفلسفية . فالخيال يحفرنا المزيد من العمل والتجديد ، ويبين لنا ما تظهره الجهود الجديدة من النتائج . فالاحداث والاافكار فى حد ذاتها لاحياة فيها ، ولا يبعث الروح فيها غير الخيال . ويندر ان تحل المشاكل بالخيال وحده ، وهو مصدر الهام قوى ، لكنه قد يكون خطراً على احكامنا واستنتاجاتنا اذا لم نخضعه لقيود ونظام . فهو دالماً فى حاجة الى نقد وتقويم . ويجب الا نكبح جماح الخيال ، لانه ينقلنا من الواقع الى التجول فى غياهب وغللمات المجهول بفكرنا ، حتى نلمح وميضاً خافتاً لمعلومات غير واضحة المعالم ، لذا ما اخرجناها الى نور الحقيقة وفحصناها فى ضوء مالدنا من خبراتة نستزيد وضوحاً ، اذا لم تكن سوى سراب خادع . فقد يتخذ الخيال اشكالاً تخيب الامال .

وبدفعنا الفضول الى كشف العالم . ولا حد لفضول العلماء ، فهم يتدفون دوما نحو البحث عن الكيف . ويستعمرون فى بحوثهم منتقلين من نصر الى نصر اعلى شاتاً ، مضحين بجسالات الرؤىة لتفتتح الامانهم ، ويخرجون الافكار والنظريات الجديدة .

الطالب وهو على مفترق طريق حل المشاكل التي تصادفه في العلوم الطبيعية . انك تجد مثلاً اسماءاً هائلاً وتمعيناً في بحوث الالكترونيات وفي فيزياء الجسيمات الاولى في السنوات الاخيرة . ونجد ان البحوث ليست من اجل كشف اسرار الطبيعة فحسب، بل اصبحت تهدف الى غايات محددة . فبحوث كيمياء الجزيئات العملاقة لم تكن لتبلغ الشأن العظيم الذي حظيت به ، اذا لم تهدف الى غاية معينة هي تخليق اللدائن ، التي تستخدم كبدايل ل مواد تقليدية ، مثل المهادن والالياف الصناعية . فقد زاد الاهتمام باللدائن منذ الاربعينيات من هذا القرن ، وزاد البحث في بنية الجزيئات العملاقة وعملية التكتيف الجزيئي والبلورة . ويمكن العلماء من الاجابة على أسئلة واستفسارات هامة عن بنية اللدائن وخواصها والقوانين التي تحكم تخليقها وبناءها .

ويرغب الباحث في اشعار المجتمع بأهميته ونفسه لغيره . وان يحس باسمائه في حل مشاكل البلاد واخيراً وليس آخراً المشاكل العالمية . فهذا الشعور الطيب يجعل الرؤساء في معاهد البحث يهتمون بتمويل معاملهم بالمال الوافر ليحصلوا على كل ما يمكنهم من بلوغ هذه الاهداف النبيلة .

الانتماء للعلم :

يتأثر الباحث بكثرة معينة تشده الى العلم ولحفزه للعمل والبحث الدقيق، ليسهم اسهاماً كبيراً في تقدم العلوم ويرفع مكانة صاحبه . ان علماء الفيزياء النووية والكيمياء النووية مثلاً قد علت مكانتهم لانهم مهدوا لنا طريق البحث في علوم اخرى عديدة خلقت علوم البيولوجيا النووية وكشفت اسرار العمليات الحيوية في اجسام الحيوان والنبات .

وقلما يرغب الباحث في العلوم الطبيعية التحول عنها الى العلوم التطبيقية . فهو كالفنان أو كالشاعر اذا طابته بأن يسلك مسلكاً ليناسب

مراكز البحوث من رؤساء الوحدات تحرير استمارات تمليحة تمهيداً لرسم الخطة السنوية العامة للمركز، وتطلب تحديد بيانات يستحيل ان يتكهن بها رئيس الوحدة ، مثل عدد الصفحات المزمع طبعها ، او عدد الساعات التي يستغرقها البحث ، او عناوين البحوث والنتائج المنتظرة . ان هذا امر مستحيل حتى لو كان البحث نظرياً . فقد يقوم العالم بعمل نظري وهو في بيته او مكتبه ، ولا شأن للخطة بترتيب وقت الباحث . وقد يتمكن المركز من تحديد عدد صفحات كتاب علمي دراسي ، وليس من الحكمة التحديد في البحوث بهذا الشكل . ان الاكاديميات العلمية تنشر تقاريرها عن الابحاث الرئيسية التي تظهر فعلاً ، وقبل نشر مقالات لا تتجاوز صفحاتها عدداً معيناً وبها نتائج قد تكون استغرقت السنين من الجهد البدني والعقلي ، وكم من بحث متوسط القيمة لا يساوي قراءته ! وكم من رسالة ضخمة يتصفحها الاستاذ فقط ولا يقرأها بعناية لأنها لا تستحق القراءة ! .

وينصح محررو المجلات العلمية بالابحاز في كتابة المقالات فلا يكتب بها غير المهم بالبحاز واضح . حتى لا تضيق المعلومات الجديدة الهامة في زحام الحشو الاجوف .

وتجرى البحوث في المعاهد وفي الكليات العملية تحت اشراف اساتذة لديهم الحرية العلمية في اختيار الموضوع ، ولو أن الافضل ان تعطى فرصة الاختيار لطلاب البحث .

والواقع أن الغرض الرئيسي من بحوث الطلاب بالدراسات العليا هو التدريب على اجراء البحوث واستخلاص النتائج، والتدريب على التفكير العلمي . وعلى الاستاذ القيادة والتوجيه والمحاونة والتدريب والمساعدة في وضع خطة عامة للمعهد أو الكلية . ويتأثر المخططون بمطالبات العصر وهم يفكرون في اختيار موضوع بحث للمبتدئين . وتأثر حرية الاختيار بثورات نفسية ومادية تحت

متحدثين وإلى ضيوف من مختلف البلدان في حلقات البحث عندما يقرأون تقاريرهم عن النتائج التي قام باستنتاجها الزملاء . ويتوقع المتحدث نقداً ، ويسمع نصحا . فقد يغير هذا النقد أو النصح اتجاهه ، فيخطو البحث خطوات واسعة وسريعة إلى الأمام .

وبعد ما تتاح الفرصة للباحث لتقديم أكثر من تقرير في حلقات المناقشة دون التصريح لهجوم أو تهكم ، أو أن يوصف بحثه بعدم الأهمية أو التفاهة ، فإنه يمتز بقدرته ويملاء الرضا والاعتزاز بالنفس ليستمر في عمله العلمي بكل اطمئنان وثقة .

وتنحى ، المستمعين ، ندون ملاحظات من كل جديد مما نسمعه في هذه اللقاءات فتعكس هذه على اهتماماتنا ، وتوحى إلينا باحتمالات جديدة في التطبيق العلمي . «الحق أني أشفق على الباحث البتداء وهو يجمع المعلومات المنشورة عن موضوع اختاره للبحث ، ويتابع كل ما نشر أولا بأول ، وهذا كثير للغاية . كان علماء القرن الماضي يتابعون المنشور عن موضوعات بحولهم بسهولة في المراجع العالية التي كانت محدودة العدد . فكانوا يكرسون سويحات من وقتهم كل شهر للقراءة في أمهات المجلات العلمية ، وفي تقارير الجمعيات المتخصصة وكان للعالم فرصة طويلة ينتظرها حتى يأتي موعد العدد الجديد من المجلة العلمية . ان تلك الأيام قد ولت . والان اتسعت مجالات البحث وتمددت المجالات العلمية . قد أصبح عدد الباحثين أو العلميين الآن يقصد باللايين في العالم . وسوف يزدادون إلى مئات الملايين في القرن الثلاثين . وتكون جيوش العلماء نتاليج أعمالهم في مجالات علمية يبلغ عددها الآن قرابة الخمسين ألفا ، وليست صناعة نشر العلم متعزكة ، بل تصالج المجالات المختلفة نفس الموضوعات أحيانا في مختلف الدول . وتتداخل الموضوعات في أكثر من مجلة . وقد يكون لنفس الموضوع أكثر من عنوان مناسب . فمثلا يمكن ان ينشر مقال بعنوان : «دراسات في طيف

ميوله رفض بكل أباه . ولمهنة العالم الطبيعي قوة تدفعه وكأنها السحر ، تدرى في جسده صاحبها فلا يجد لنفسه خلاصا منها ، بل يشعر برغبة جامحة في الكشف عن المجهول تملا صاحبها رضاء وانسراحا .

ان حب المشرفين على البحوث العلمية قد يندفعهم إلى التجرد للتمولع عن طريق التعاقد مع دور الصناعة للعمل على حل مشاكل صناعية معينة ، ويستطيعون دعم معاملهم بالاموال التي تنفقها البيوت الصناعية راضية . ويستطيعون إلى جانب البحوث الصناعية إيجاد الفرص المتاحة لاقتناء أحسن المعدات والأجهزة والحصول على كل المساعدات التي تمكنهم من السير في بحولهم بالعلوم الاساسية أيضا .

الاتصالات العلمية :

ولابد من اتصال العلماء ببعضهم لتبادل الافكار ، وهذا الاتصال يغذى البحث ويثري التفكير المنظم ويقوى النقد البناء ، وتعتبر الاجتماعات الدورية في مراكز البحوث والمعاهد وكذلك اللقاءات العلمية وما بها من حوار ومناقشات كالنسيج الضام لمختلف خلايا الجسم الحي في كيان العلم . اما الباحث المنفرد او الذي يعمل مع افراد قليلي العدد فلا تتسع افكاره ، وعليه الاتصال بأخريين من المهتمين بالعلوم . ويتائر الباحث الذي يعمل منفردا بخط فكري واحد ، قد يستر مجال رؤيته للأشياء الهامة يستار كثيف من الجيود الفكرى فيسلك دروبا تعمله ، وتجهده من بلوغ أى نتيجة مرجوة ، أو قد توصله إلى شيء سبق ان كشف وكأنه يدور في بحثه في حلقة مفرغة او يسير في طريق مسدود .

وقد يكون الاتصال العلمى بواسطة قراءة الكتب والمجلات المتخصصة ، ولو ان هذا لا يقتنى من الاتصال الشخصي ، فالراجع لا تنشر الا المساولات الناجحة في البحوث والكشوف الجديدة . ولستمع عبادة إلى

وتقبل المجلات المتخصصة في بلاد غير ناطقة بالانجليزية نشر البحوث فيها بالانجليزية .

ويتطلع العلماء الى استخدام آلات الكترونية لتزويدهم بالمعلومات . ويتوقعون ان المستقبل سوف يجعلك تضغط على زر ، وتوجه سؤالك للجهاز الالكتروني في ميكروفون صغير ، فيخبرك الجهاز بكل المعلومات التي يدخها من موضوع سؤالك ، ويكتب على آلة كتابة كل ما تريده من اسماء المقالات والمؤلفين واسماء المجلات وأرقام الصفحات والتواريخ الى آخر هذه البيانات التي يتم بها الباحث .

وتقوم المؤتمرات بتنسيق البحوث وتساعد على وضع خططها ، وتقدم هيئات علمية بالامداد والتنسيق لأعمال المؤتمرات ، وتحدد مواعيد وأماكن انعقادها ، وتشكل لجنة للنظام لتقرر المكان والزمان وترسل الدعوات للمختصين من الأفراد والحكومات والهيئات ، وتطلب تقديم ملخصات للأبحاث التي ستعرض بالمؤتمر وتقرأ البحوث العامة أمام ما يسمى بالجمعية العمومية للمؤتمر ، ثم يفضل انعقاد جلسات فرعية متخصصة بالفروع المختلفة من العلم ، ويفضل ان يكون المؤتمر في مكان يحب الاعضاء زيارته ، حتى يقبلوا على الحضور ، فيضمن له النجاح . ويسعد الاعضاء بقاء زملاء لهم من مختلف دول العالم ويناقشونهم بقضايا اجتماعات ولقاءات غير رسمية خارج الردهات أو بالمدينة المجاورة ، أو أثناء الرحلات الخارجية ، التي يزور فيها الاعضاء بعض معالم المنطقة كالتحف ، والمنشآت الكبرى . ويكفي اغلب الاعضاء بقرائة التقارير العامة وينشغلون الجلوس في الردهات والتحدث مع الزملاء بدون جدول أعمال وبحرية كاملة من موضوعات المؤتمر ومن غيرها من الاجتماعات الفكرية

الأشعة تحت الحمراء لبلورات الهيموجلوبين . ان مقالاً بهذا العنوان تقبل نشره عدة مجلات علمية منها ما يختص بفيزياء الجوامد أو الفيزياء النظرية أو التجريبية أو علم البصريات أو الاطياف أو التصوير البلوري أو الكيمياء العضوية أو الحيوية أو الفيزياء الحيوية . ليس هذا كثيراً ؟ وكيف نستطيع متابعة مثل هذا الموضوع في مختلف المجلات وفي مختلف بلاد العالم المتحضر .

ان الطريق الوحيد للتغلب على هذه الصعوبة هو اللجوء الى قراءة الملخصات في مجلات مختصة بذلك ، فتلدنا على الموضوع والمؤلف ومكان النشر وتاريخه ، وتصور هذه المجلات دورياً وبها الآف التعاون والطلاقات . وعلى الباحث ان يدون ما يترامى له من اسماء الموضوعات والمؤلفين وأماكن النشر ، اذا كانت لهم ، كي يرجع اليها بالتفصيل عند الحاجة .

وتمهّد أحياناً حلقات للمناقشة العلمية - كل شهر أو كل ثلاثة شهور - فيما ينشر من بحوث خلال الفترة ، وتساعد هذه المناقشات الباحثين في أعمالهم وعمودهم على تقاليد المناقشة وآدابها . وتوجههم الى طريقة تلخيص أعمال الغير ، وتدريبهم على الكتابة العلمية . والتحدث في هذه الحلقات لا يتعرض للحرج أو الإرتباك لأنه غير مسئول عن ما يعرضه من نتائج وأفكار ، فالمسئول هو صاحب البحث نفسه وهو عادة غريب من حلقة المناقشة .

ولإعداد متابعة البحوث المنشورة صعوبة من عام الى آخر بسبب التقدم السريع في العلوم . ومن الصعب متابعة كل البحوث بصفتها: اللغات ، ومن لم يتم اغلب الباحثين بنشر بحوثهم الأصلية باللغة الانجليزية لكثرة انتشارها بين رجال العلم في العصر الحديث .

الممارسة ، ويتبادلون الآراء والأفكار والنقد . وبعد عودتهم الى اوطانهم يتراسلون ويتبادلون التهانى بالاميد ويتبادلون الرسائل العلمية المنشورة .

الوالمات والتوجيه العلمى

نعرف كلنا علم الوراثة الذى وضعه قانونه الاول جريجورى مندل . ونعرف كيف عالج هذا العلم انتقال الصفات الوراثية من الوالدين الى الابناء والاحفاد . ويتحدث العلماء المحذون عن علم جديد من العلوم البيولوجية يسمى علم الوراثة الجزيئى . اى انه علم يبحث فى التركيب الجزيئى لمعاضى النووىك ومشتقاته الكيميائية، ومن بينها المعاضى النووى الدياكسى ريبوزى المسى بالحروف الاولى من اسمه باللاتينية (د ن ا) DNA ، والمعاضى النووى الريبوزى المسى بالحروف ر ن ا RNA) فقد تعمقت بعوث كيمياء نواة الخلية الحية ، حتى تناولت سر شفرة الوراثة، وتطلع العلماء الى يوم نستطيع فيه فحص الخلية الحية بالميكروسكوب الالكترونى وغيره من اجهزة سوف تبتكر ، فنرى التفاصيل المتناهية الدقة بداخل الكروموسومات (حاملة الصفات الوراثية) فنقرأ بها صفات ابناء المستقبل من بنية الجزيئات العملاقة التى بالخلية ، ونستنتج ما سوف يشب عليه ابناءنا من صفات وميول وقدرات وراثية حتى نستطيع تحديد نوع التعليم المناسب لهم . ولكن هيهات ان يتحقق هذا الحلم البديع ، فالشخص بعدما يتم تشكيله قد يسلك مخالفا لصفاته المكتسبة وراثيا . ونحن نعلم ان التعليم والتدريب يغيران طبائع البشر . انك تستطيع ان تدرّب حيوانا على السير على رجله الخلفيتين فقط ، او ان تدرّب لاهب السرك على السير على يديه ، راسه الى اسفل ورجلاه الى اعلى، ولكن هذا السلوك يخالف طبيعة الحيوان او

طبيعة لاهب السرك . ولا اعتقد ان احدهما يستمتع كثيرا بهذا المسلك الشاذ . ولكنه قد يسلك مسلكا يميل اليه من تلقاء نفسه ، فاذا اردنا تحديد افضل عمل يناسب شابا فعلىنا مراقبة تصرفاته ومسلكه ، وهناك بعض الاختبارات السلوكية التى نتعرف بها على الميول الطبيعية ، ونسمع من ام من الامهات ان ابنها سوف يكون عالما لانه كثير الاكتئاب على الكتب . ان هذا راي سطحى ، فالقراءة لا معنى الكثير بالنسبة لتكوين الشخصية . وقد تقول ام اخرى ان ولدها اجتماعى ، يحب الناس ، ولا يطبق الوحدة ، بل دائم الاختلاط بأقرانه فقد يكون هذا المسلك نقطة بداية تنم من ميوله الطبيعية . وقد تكون قوة الملاحظة غير واضحة فى طفل ولكن تظهر فيه الصفة الهامة بوضوح اذا ترك وحده ليفكر ويتأمل ، فاذا احب هذا الطفل التامل فقد يصلح لان يكون عالما . ويجب ان نتيج الفرصة له ليستمتع بالالعاب الرياضية والاشتراك فى المباريات واللهو البرىء الذى جانب العمل حتى يستطيع ان يكون من اهل العلوم التطبيقية ، كان يكون طيارا او مهندسا . اما الذى يظل منفردا مع كتابه ، او مع جهاز لاسلكى قديم ، او ماشابه من اجهزة ، ويستمتع بهذه الوحدة فيجب ان يشجع على هذا الانفراد بالكتاب او بالجهاز ، حتى يتدرب على التفكير الحر ، فمال الجيل القادم يجب ان يكون حر التفكير ، محبا لمرونة عقله فى الاشياء ، ومستقصيا للتفاصيل . ان فضول الطفل يدفعه الى التساؤل من اشياء كثيرة ، ولكنه عندما يتدرب على التعامل والتفاعل مع البيئة تنقص تساؤلاته بالتدريج . اما اذا لاحظنا استمرار فضوله وازدياده فان هذه علامة طيبة يجب تشجيع انماها بالاجابة على اسئلته ومنحه فرص التفكير . والا لم يستطع الوالدان الرد عليه باجابة صحيحة فانه سيبحث من الاجابة

اتجاهه العلمى سوف تؤدي ، ولا ريب ، الى بلوغ القاية والوصول الى مكانة مرموقة في العلم . ان مثل هذا الشخص الذى يبدأ متوسط القدرة ، ثم يكرس الجهد ويصمد سوف ينتج ويبدع وسوف تكون متعته بالابداع العلمى اكبر مئات المرات من مساهمته العقلية في العلم .

ويجب ان يلاحظ الوالدان صفه اخرى في ولدهم ، فيجب ان يكون مجباً للتفكير الخلقى الواضح ، وان يكون قوى الذاكرة . وهاتان صفتان قد لاظهران بجلاء انهاء الدراسة اذا كانت المدرسة ضعيفة .

ويكون الطريق العلمى للفنى والفتاة مامون العواقب اذا نشأ الفنى في اسرة اكاديمية وكان اصداؤه من اوساط تقارب وسطه، واهواؤهم ومشاريعهم متشابهة . ان العصر الحديث يتطلب الى الاستزادة من دراسة العلوم ، وإلى الشباب الراغبين في الدراسات العليا، ومستقبل هؤلاء محدده الجامعات ومراكز البحوث . والمهم في تشكيل هؤلاء قوة الاساتذة بالكلمة والمثال والعمل ، فالحاضر الضعيف او الخالى البال من العلم قد ينفر الطالب عن العلم ، ويأبى العلم بعد البيت في العلوم الطبيعية ومعرفته ورغبتهم ومواهبهم ، ويمكن اظهارها في المقابلة الشخصية بين الطالب والاستاذ ، وكذلك باختبارات نفسية والتدقيق الشديد لمعرفة جهد المرشح ومثابرته .



ولا تخلو حياة من يكرس نفسه للعلم من الآلام والامال والطموح . وقد يعمل باحث في نفس الموضوع الذى يعمل أنت فيه ويحصل على نتائج اكثر دقة من نتائجك وينشرها قبل

الصحيحة بنفسه لدى الجيران او الاصدقاء او في كتاب ، فإذا لم يجد الكتاب المناسب ، قاته يبدأ التأمل وتصور اجابة يفتريها ، ثم يحاول التحقق من صحتها بالفحص ويطرق من ابتكاره . ان التأمل والفضول سمتان من سمات محب العلوم ، ودعامتان لمن يود ان يكون عالماً .

ويعد التأكد من ان الصغير يصلح ان يكون عالماً ، باثبات دور التعرف على المجال العلمى الذى يناسبه . وقد لايجد اختباراً يمكن ان يجرى لتعرف منه اى نوع او فرع من العلوم انسب له . ايصبح رياضياً او فيزيائياً او كيميائياً او مؤرخاً ؟ ان اختيار مهنة التخصص نجده عادة بمحض الصدفة . ومع ذلك ينقسم الافراد حسب ميولهم الطبيعية الى اقسام مختلفة . فإذا كان الشاب يهتم باقدار الناس والعلاقات الانسانية ويومر مركز الانسان في المجتمع او بالحياة الروحية للافراد المخلصين له في المجتمع ، فان هذا يشير الى حسن استمداه لان يدرس العلوم الانسانية ، اما اذا كان يهتم بطرق صناعة الاشياء ، وكيفية استعمالها فان هذا يركبه للسعى الى اتجاه دراسة العلوم التطبيقية ، اما اذا كان يهتم بالطبيعة ذاتها فان ذلك يؤهله للدراسات الاكاديمية ، وان يختص في العلوم الطبيعية كالفيزياء او الكيمياء او الفلك او الجيولوجيا .

وقد يشك الوالدان في مقدرة ابنهم عندما يبدأ مهنة معينة ، لان مقدرة متوسطه ، ولكنه شديد الرغبة في دراسة العلوم . والواجب في هذه الحالة عدم مقاومة رغبته ، بل علينا ان نبذل قصارى جهدنا لتجنيب العلم ، فسوف تظهر القدرة نفسها متأخرة قليلا حتى لو كانت متوسطة او اقل من المتوسطة . لان تكريس المرء لعمله وحبه له ، وقوة ارادته وصموده في

المعرفة في طفل معاصر . فإليك تجد بين فلاسفة اليونان، أرسطو وديموقريطس ، ونجد التفكير البسيط الواضح في فلسفة ديموقريطس يقارب في روحه فكرنا المعاصر . لكن لأرسطو النموذج آخر في الفكر ، كانت الثقة في المعنى الداخلي للكلمات التي يقوم على أساسها تفكيره ، كما تميز عقلية بريئة لطفل . وكانت فيزياء أرسطو لا تتجاوز في نظرنا كونها قراءات قديمة . ويمكن استعمال أفكار ديموقريطس ، إلى حد ما ، من بناء المادة وكأنها فرض جديد لأساس العلم .

وقد احتضنت المسيحية تعاليم أرسطو غير مربية ، واستخدمت المنطق والبرهان في العلوم الدينية التي ظلت متمسكة بالمذهب القومى - الذى وضعه الإيطالى توماس اكويناس - ممثلا أساسا دينيا لدى الروم الكاثوليك . وأحيا الناس الفكر اليونانى القديم وطبقوه في مجالات أمنت بصلة للدين .

وجاء عصر النهضة في أوروبا وحول الفكر من الأمور الدينية إلى دنيوية تتعلق بالإنسان وسميت الدراسات الفكرية « بالإنسانيات » وانطلقت روح البحث في القرن الثالث عشر واصطدمت الآراء الجديدة بالمعتقدات القديمة ، وكسب الفكر الجديد الحركة رويدا رويدا محمولا على أجنحة الفكر المستنير إلى القرن السابع عشر فالثامن عشر ، بعد ازدهار الإنكار الجديدة . وكان علم الفلك من العلوم التقليدية التي لم تعمل إبان عهود الظلم والظلام ، وزيمنا كان هذا بسبب حاجته رجال الكنيسة إلى علم الفلك في التقويم وتحديد مواعيد الأعياد ، أو لاتقنادهم في رؤية الطالع . ولما فجر القرن الخامس عشر بنور العلم والاختراع واخترعت آلة الطباعة ، وترجمت التوراة وطُبعت ، وترجم بربانخ Purbach كتب بطليموس في سنة

ان تقوم أنت بنشر أبحاثك . وهذا يضع قيمة عملك وجهتك . وهذا ما يفتنه كثيرون ممن يتكاثرون في النشر ، اما لتشككهم في أعمالهم أكثر مما ينبغي أو لعدم قدرتهم على صياغة نتائج أعمالهم في شكل قابل للنشر . ان هذا الضياع الذى يشعر به من فاته فرصة النشر يصيب صاحبه بالصدمة ، لكن الصامد هو الذى يتحمل الصدمة ويثابر ويعاود البحث حتى يصبح في كشف جديد . وعندئذ لا يمكن وصف ما يناله من السرور والانشرح والرضا عندما يظهر بحثه الجديد بصفحات إحدى المجلات العلمية واسمه تحت عنوان الموضوع ، يشير إلى قدرته العلمية ، وكأنه ينادى صاحبه ، ويهتف له مشيدا بجهده الذى كرسه ، وفكرة المستنير الذى أدى إلى هذه النتائج المنشورة . ومع ذلك ، قد لا يشعر به زملاؤه ، بل وقد لا يقدرون جهده ، وربما لا يلاحظون مائسرا اطلاقا ... وتم سنوات قليلة . ويظهر اسم صاحب هذا البحث بالراجع العلمية . ثم تتكاثر الأشادة بنتائج البحث ، فيحس صاحبها بالاعتزاز ، لان الناس يقرؤون أعماله ، ويستفيدون منها ، والإنسانية تستفيد من عمله . عندئذ يحس الباحث بإسهامه في تقوية جبهة العلم وبالمساعدة كل السعادة التي تفمر كل مشاعره .

• • •

مع تاريخ العلوم

يتحدث علم الجين من مبدأ استعادة جين انسان تاريخ تطوره Recapitulation غير ملايين السنين موضعا التطور من نقطة لمعلقة ، إلى أن يبلغ طور الانسان سيد الكائنات جميعا . وطبيعي أن أحاول فاقارن تطور الفكر منذ أيام الاغريق القدماء إلى عصرنا الحديث بتطور

العصر الحديث ، التي تعتمد على مشاهدة الظواهر وتفسيرها بوصفها أولا . واهمل جاليليو سبب حدوث هذا النوع من الحركة أو ذاك ، وكان ما يعنيه هو التساؤل من كيفية حدوثها ، فالمشكلة ليست في تفسير الحركة ، بل في وصفها . وكان يبدأ بالملاحظة لم يستنتج منها التعميم أو البديهيات ، بدلا من طريقة القدماء الذين كانوا يبدأون من عموميات مفترضة . وكان يعتبر الملاحظة العملية الأساس لكسب المعرفة ، وقال لا قيام لتعميم إلا بتكرار الفحص للأحداث ، وإعادة فحص النتائج بتجارب أخرى من أنواع جديدة . وأن التعميم لن يكتمل إلا إذا صلح في كل الظروف ودعمته ملايين المشاهدات دون استثناء . فلو حدث تناقض واحد بين هذه الملايين فإن ذلك يستلزم تعديل الاستنتاج . فالتشكك يصاحب كل نظرية بقدر معين ولو بنسبة ضئيلة ، ولا يقين تام مهما بلغت أعداد التجارب من الكثرة .

وقد أصبح مبدأ عدم التاكيد (Uncertainty) حجر الزاوية في الفلسفة الحديثة ، التي لا تدعى الصدق الكامل ولا الشك التام ، بل أن تنتهي الصدق يخلو من المعنى ، إذ لا توجد ثمة طريقة تجري المشاهدات فيها بأعداد كافية بلوغ الصدق المؤكد حتى يصبح في منتهى .

وعلى الرغم من اعتماد العلوم - الفلسفة الطبيعية الجديدة - على الملاحظة والاستنتاج فهي في الواقع فلسفة ، وتمنع الجامعات درجة الدكتوراة في الفلسفة في مختلف العلوم كالرياضيات والكيمياء والفيزياء والفلك والاحياء . ويتسم هذا العصر بمبدأ التعاون والاتصال بين العلماء . ولم يكن التعاون واضحا في فلسفات القرون الوسطى بل اعتمد كيميائيو

١٤٥٠ ، وتمكن الراهب البولندي كوبرنيكوس من دراسة الكواكب ، هاله ما رآه في المريخ من القلب الكبير في حالات اشراقه بأوقات مختلفة . ولم يأنس لما كتبه بطليموس عن النظام الفلكي الذي يقول أن الأرض مركز الكون ، وأن الشمس والكواكب تدور حولها . وأحسن بدم توافسق قول فيثاغوراس وأرسترخس مع ما شعره شخصا فزع أن الشمس هي التي في مركز الكون وليست الأرض ، وأن الكواكب ومن بينها الأرض تدور حول الشمس . أهمل الناس نفس هذا الزعم ، الذي زعمه فيثاغوراس وأرسترخس من قبل ، لأنهم كانوا متمسكين بأراء بطليموس حتى جاء كوبرنيكوس وأيد زعمهما . وكان نفوذ الكنيسة قويا جدا . وكانت عقيدتها تقتضي أن تكون الأرض موطن البشر ومركز الكون وأن تكون ساكنة . وحاول كوبرنيكوس طبع كتابه ونشره ، لكنه خشي المصادرة وخاف من العقاب . وكيف لا يخاف وقد كان أسقفا متدينا ورعا ، وعالما يعرف معنى الحرية ، لرفع كتابه إلى البابا . وكتب في مقدمته .. « أرفع بحثي هذا في موضوع أقدمه إلى قداسكم ثم إلى أعلام الرياضيين ليحكموا عليه ... »

ولزمت بديهيات الفيلسوف في القرن التاسع عشر على اثر تمديدات علماء الرياضة كسائر اثرات اعمالهم في الفكر العلمي عندما ابتكروا « هندسة لاقليدية » مفترضين فروضا جديدة . فأصبحت العلوم الحديثة تصدور العالم بشكل عقلاني . وفار جاليليو تورمه (سنة ١٥٦٤ - ١٦٤٢) على الفلسفة القديمة . وأسس علم الفيزياء الجديد على أساس التجريب . ولكنه لم يتم يقينا بتجارب عملية ، الا أنه وصف التجارب الممكنة . واستخدم الطريقة العلمية التي نستخدمها في

تلك القرون على التفتيل أحيانا في كتاباتهم في الكيمياء القديمة ليحتفظوا لانفسهم بأسرارها.

وظهرت جماعات وجمعيات علمية في القرن السابع عشر في أوروبا وأهمها (الجمعية الملكية) بلندن التي بدأت بجامعة من المولعين بالطرق العلمية التي اقام جاليليو أساسها وكان أعضاؤها علماء قد سبقوا عصرهم ، فلم يحفل بهم معاصروهم في أول الأمر ، حتى ظهر الفيلسوف الإنجليزي السير إسحق نيوتن (سنة ١٦٤٢ - ١٧٢٧) وأبدع أعمالا أصيلة غيرت مفاهيم الناس ولبثت وعيهم العلمي . فقد اطلع قوانين الحركة المعروفة باسمه وكشف قانون الجاذبية العالمية ، فأخذ الناس بعميد الاعتماد على التجربة والملاحظة والتحليل . ونبدلوا البات النظريات بالجدال والنتائج المعتمدة على الالفاظ ، وتطورت العلوم التجريبية وتداخلت وتشابكت ونمت على مر الأعوام حتى أصبح العلماء يؤمنون بالتخصص الدقيق الذي فرض نفسه على العلم الحديث . واستخدمت المعادلات الرياضية في حساب حركة الكواكب ومواهب ظهورها وأماكنها . وكان في مقدمة هذه البحوث حسابات « أوليفر ليفريه » . وقد كانت حركة الكواكب قد حسبت وافقت مع المشاهدات الفلكية ووصلت الكواكب في مواهبها المحسوبة بالدفقة إلى **يورانيوس** الذي لم يخضع لهذه الحسابات ، بل حاد أيضا عن قوانين نيوتن . واعتقد أن هذا الحيود غير معقول ، وكانت الثقة كاملة في تلك القوانين ، بعد أن اكتملت التجارب العديدة . وكانت الطبيعة لا تزال تخفى سرا من أسرارها .

وربما كانت من الصغر بحيث لا يؤثر في الكواكب الأبعد منه عن يورانيوس ، واعتبر أنه يقع إلى جوار يورانيوس ، ويؤخر وصوله في الميعاد . وإذا صح هذا الفرض لنشأت مشكلة مكعبة ، ولأمكن حساب بُعد يورانيوس عن مساره الموصوف بالمعادلات التفاضلية . فهو يتعرف نحو اليسار عند تقطع بعينها ، ونحو اليمين عن نقط أخرى . وحسب ليفريه مسار الكوكب المزعوم ، وعين وقت ظهوره ، ومكانه في السماء . وفعلنا كشف في الزمان والمكان المحددين - في سبتمبر سنة ١٨٤٦ - وانضم نيوتن إلى المجموعة الشمسية . وكانت هذه الواقعة من النصح صفحات التنبؤ العلمي المستقبل . والرت هذه الواقعة في نفوس العلماء في جبل ليفريه . وكان طبيعي إجراء بعض التمديل في قوانين الحركة التي وضعها نيوتن ، واعتقدوا بوجود ظواهر خفية في مجالات أخرى من الفيزياء كال بصريات تحتاج من يعيط عنها اللثام . ومع ذلك ظن بعض الفيزيائيين أن علم الفيزياء قد اكتمل ولم يعد به مجال للبحث عن أي جديد .

وضع الفيلسوف الفرنسي ديكارت مفهوم « الاثير » الذي يقول أن الطبيعة لا تحتوى أي فراغ بل يتخلل الاثير في كل حواء ويتشعر بكل الأرجاء . ونوقشت نظرية الاثير وافترض العلماء وجود أنواع معينة من الاثير . يختلف الظواهر ، فمثلا اثير كهربي وآخر ضوئي . وهذا فرض يناقض القوى الكهرومغناطيسية اللحظية الانتشار .

وتعاصر الفيلسوفان نيوتن وديكارت وجاء معهم **وويوت بويل** (سنة ١٦٢٧ - ١٦٩١) المعروف بقانونه المشهور الذي يمالج مسلك الغازات من حيث الضغط والحجم . ومالج

وفكر **للفريه** ، وقال باحتمال وجود كوكب مجهول ، يسير في فلك أبعد من يورانيوس ، ولم تدخل جاذبية هذا الكوكب في الحساب .

حتى انجب مولودا جديدا اضيف الى تاريخ العلوم . هو السير همفري ديفي (سنة ١٧٧٨) الذي صار استاذ الكيمياء بالمعهد الملكي بلندن في مطلع القرن التاسع عشر . عاش ديفي في اسرة رقيقة الحال . ولكنه كد وكافح لاعاشة أسرته . وتعلم الصيدلة والجراحة لدى سيدلاني عمل لديه وعكف على الدرس والتدقيق والاستفادة . ولخص كتبا كثيرة ، ودرس الكيمياء والفيزياء ودرس ابحاث نيوتن . وقرأ كتاب «اصول الكيمياء» الذي وضعه لفوازييه . وفحص ما به من علم بالتجربة وبحث الحرارة والفضوء والاشتعال والاكسجين والخصائص المخدرة لأكسيد النتروز . وحلل الماء بالكهرباء والبتان الماء يتكون من الأكسجين والهيدروجين وكشف الفلزات القلوية ، فهو كاشف البوتاسيوم والتحليل الكهربى ، كما كشف عناصر اخرى بنفس الطريقة ، مثل الاسترنتسيوم والباريوم والكالسيوم والمنسيوم . واثبت ان الكور احد العناصر بعدما كان يعتقد انه احد مركبات الأكسجين . ودرس خواص اليود ، وتعاون مع فرايداي في اسالة الغازات ، وكان **فرايداي** (سنة ١٧٩١ - ١٨٦٧) ابنا لحداد متنقل وعاش في فقر مدقع ابان الضائقة الاقتصادية الشديدة التي حلت بانجلترا . ولم يتعلم بالمدرسة بل كان يقضى اوقاته لاهيا بالبيت او الشارع . ولما بلغ الثالثة عشرة من عمره كان يساعد احد بائعى الكتب ، وتوصل الى الصحف للمشتريين . وتعلم تجليد الكتب . قرأ الكثير منها واستمع الى محاضرات عامة عن الفلسفة الطبيعية . رحل الى اوربوا بعدما الحق بالمعهد البريطاني معاونا وامينا للسير همفري ديفي . وتصادق مع اعضاء الجمعية الفلسفية . وسافر مع ديفي في رحلة الى اوربوا (سنة ١٨١٣ - ١٨١٥) وعرف علماء كثيرين وأطلع على ابحاثهم في الكهرباء مثل

بويل الكيمياء من ناحية فلسفية ووضع كتابه « **الكيميائي التشكك** » *The Sceptical Chymist* اوضح فيه خطأ مدرسة المشائين ، التي كانت تعتمد على فلسفة ارسطو ، والتي حكمت الفكر في اوربوا طوال القرون الوسطى . وظلت تؤثر فيه حتى القرن السابع عشر ، وكذلك خطأ مدرسة ليونفانوس التي انشأها هذا العالم القديم في القرن السادس عشر وهو المسمى باسم الشهرة « **براسكسوس** » . ونادى بويل بالاعتماد على الممارسة والتجربة .

وظهر في القرن الثامن عشر القس الانجليزى يوسف بريستلى (سنة ١٧٣٣ - ١٨٠٤) كما ظهر العالم الفرنسى لفوازييه (سنة ١٧٤٣ - ١٧٩٤) فبيل اندلاع الثورة الفرنسية . عاشا وسط أحداث جسام . دافع بريستلى من الثورة الفرنسية ، وهاجم الخطباء والكتاب الذين عارضوه في انجلترا فاقنعتهم الجمهور داره ، ومزقوا كتبه وحطموا ادواته ودمروها . وهسو العالم المبقرى مكتشف الأكسجين واكاسيد الازوت وصاحب البحوث القيمة في كيمياء الغازات . وكاشف ماء الصودا ومحضّر كلوريد الهيدروجين من ملح الطعام وزيت الزاج . اما **لفوازييه** فقد عاش في باريس بين الجماهير الهائجة . وكان يجرى تجارب بالوزن والقياس والملاحظة والاستنتاج فكشف **نظرية الاحتراق** وهدم **نظرية الفلوجستون** . فر بريستلى من انجلترا ، اما لفوازييه فقد لاحقه الحاسدون واوقفوا به ، وحوكم محاكمة سريعة واطاحت القصة برأسه ، وكان اعدامه من افزع ما قامت به الثورة الفرنسية .

ولما هدم لفوازييه نظرية الفلوجستين واقام مكانها نظرية الاحتراق ، نفخ في العلم روحا جديدة . وما كاد ينتهى القرن الثامن عشر

تعلم الفيزياء ونشر بحوثه المعروفة من ما سمي « كمات الإشعاع » *Radiation Quanta* التي أصبحت أساس الفيزياء الحديثة ، وحتى اللورد كلفن الفيزيائي الانجليزي الموهوب شبه علم الفيزياء بممارسة كاملة بديمة . وقال أن سماء الفيزياء لم يبق بها سوى فيوم قليلة ستنتشع سريعاً وتترك السماء صافية في القرن العشرين .

وكانت غيوم سماء الفيزياء في زعمهم ثبات سرعة الضوء وهي حقيقة كشفتها بالتجربة مايكلسون *Michelson* ثم ظهرت النظرية النسبية من بين حجب الفيوم المزعومة . اما الكشف الهام الاخر فهو العلاقة بين طاقة الإشعاع وطول موجته ، وهي نظرية تنبأ بان المنحنى الدال على هذه العلاقة يستمر في اتجاهه صاعداً ، فكلما نقص طول الموجة زادت طاقة الإشعاع الى أن تصل في النهاية الى ما سمي « الكاثرة فوق البنفسجية » . ولكن الرسم البياني العملي دل على خط منحنى ذى سنام ، فبعد بلوغ طاقة الإشعاع نهاية قصوى من الارتفاع تأخذ في التناقص بنقص طول الموجة . وقد انتجت هذه الظواهر « فيزياء الكم » وهي العلم الذي يتسبب الى واضحه العالم الالماني ماكس بلانك الذي نصح بالا يتخصص في الفيزياء .

ان هذا درس من تاريخ العلوم يحلرنا من التعرض الى الثقة الكاملة في العلم المصروف عندما يدعى انه بلغ الكمال ومنتهى الصحة . ويجدر بنا ان نراى ما ظهر في القرن الحالي .

الفكر الجديد مع النظرية النسبية :

لم تدم المفاهيم العلمية اثني شيدها العلم في القرن التاسع عشر طويلاً ، بل قدادت عندما أعلن اينشتاين نظرية النسبية سنة ١٩٠٥

الفرنسي امبير والانجليزي وليستون فلدرس الكهرباء وكتب فيها كتابه « تاريخ البحوث الكهرومغناطيسية وتقدمها » وأعلن نظريته من المجال الكهرومغناطيسى معتمداً على أساس متين من الايمان بالاثير . ولكن ما هو الاثير في اعتقاد القدماء ؟ ربما كان سائلاً خاصاً إذا حركة دوامية ، او مالمسا ساكناً تنبض به كرات اكثر منه كثافة . وكان من الضروري افتراض خواص للاثير كخواص الجوامد لتفسير الضوء لانه ينتقل على شكل امواج عرضية .

وفي نهاية القرن التاسع عشر ظهرت البحوث الدقيقة التي قام بها كلاوديوس *Clausius* وبولتزمان *Boltzman* وجيبس *Gibbs* موضحة قوانين علم الميكانيكا ونظرية الاحتمال على مسلك تجميعات كبيرة من الجزيئات ، وبخاصة الغازات . ولم يكن في ذلك الوقت لمة امل في دراسة العالم الدقيق للاجسام التي لا يراها الميكروسكوب . وادى هذا النقص الى عدم التعرض لبحوث الجسيمات وبنية المادة ، فقد ظلت هذه الموضوعات في راي القدماء من صميم الفلسفة . او من اباحات الميتافيزياء ، وانها خارجة من مجال العلوم الطبيعية . وكان المعتقد ان الجسيمات تتحرك حسب قوانين نيوتن . وظنوا ان كل مسائل الفيزياء تحل بالمعادلات .

تقول احدى دوائر المعارف التي نشرت بالقرن التاسع عشر كلمات قليلة من قوانين الديناميكا الحرارية وطرق قياس الحرارة . وكانت الحرارة معتبرة من طبائع الحركة ، وشجعت الفكرة القديمة ، التي تقول ان علم الفيزياء قد اكتمل ، علماء اواخر القرن الماضي الى ان يقول احدهم لتلميذه ماكس بلانك ناصحاً اياه بعدم التخصص في الفيزياء ، لان كل شيء قد عرف عنها ، لكن ماكس بلانك اصر على

سبب تعاقب الليل والنهار، وكشفت التجربة أن سرعة الضوء في الحالتين واحدة . وصعب هذه النتيجة مسلك الإلزام وهو عديم اللون - فيما يفترضون - والذي قيل أنه ينشر الضوء . وحاول كثيرون تصديق تجربة مايكيلسون باستخدام فيزياء القرن الماضي دون جدوى حتى سنة ١٩٠٥ لما حل اينشتاين هذه المشكلة برفع الحقيقة المفسرة إلى مرتبة مبدأ أو مفهوم أصاصي ، يتقبله الناس كحقيقة واقعة . وجميع البديهيتهن معا يتكون مبدأ النسبية .

والجميل أن ما يصدق على سرعة الضوء يصدق أيضا على مظاهر مختلفة للكهروديناميكية . وقد اعلن اينشتاين بناء على هذا التطور الذي جده في الفيزياء ألا وجود لتجربة فيزيائية تستطيع أن تميز مجموعة عن أي مجموعة أخرى من المجموعات الثلاثية العدد التي تتحرك بانتظام وعلى استقامة واحدة . فكل هذه المجموعات متساوية تماما .

وهنا قد نتساءل « إلى ماذا تقودنا هاتان البديهيتهان ؟ » ربما يدرس طلاب الجامعات بعد ألف سنة هذه النتائج على أسس تجريبية . بعد أن صعب على معاصري اينشتاين قبول فكرة كون الزمن نسبي وليس مطلقا ، بل يتوقف على حركة المشاهد . والحدث الواحد يقع بسرعات مختلفة إذا ما شوهد من نقط مختلفة . وقد يبدو ذلك غريبا وغير طبيعي ويناقض المألوف . فقد وجد أن الزمن كمية نسبية . وهذا يعني أن الحدث الواحد ازمان مختلفة إذا شوهد من نقط مختلفة . وواضح أن هذه النتيجة للنظرية النسبية تخطئ العقل . وقد يكون من الحكمة للمزيد من إيضاح النسبية أن نسأل أي مدينة أقرب من الأخرى ، باريس أم الاسكندرية ؟ فبالنسبة لقاطن

وهو في الخامسة والعشرين من عمره . نظرية نشرها في عشرات الصفحات ربط بها العلاقة بين بديهيتهن محطما المفاهيم التي كانت سائدة ، واضعا أساس الفيزياء الحديثة ومعتمدا على المنطق الرياضي والتعمق والدقة في كل ما افترضه . واجمع أهل الفكر المستنير على أن اينشتاين مبقري من أعلى مرتبة وأنه صاحب خيال وثاب ، تمكن به من قلب النظرية الكونية القديمة رأسا على عقب . فهو القائل في إحدى البديهيتهن « إذا كان مشاهدان يتحركان حركة مستقيمة ومنظمة كل بالنسبة للآخر فانهما في حالتين تامتي التوافق » . وهذا يعني عدم وجود طريقة تعين أي منهما يتحرك وإيهما ساكن . ولا معنى لأن نسأل « أيهما في حركة حقيقية ؟ » فالحركة نسبية ولا وجود لشيء يسمى حركة مطلقة .

وقد عرف مثل هذا المبدأ منذ أيام جاليليو في علم الحركة وهو ينص على أن كل التمييز بين السكون من الحركة المستقيمة المنتظمة . وهذا ما يتفق مع العقل . لذا جلمست في سفينة أو في طائرة ، وأغمضت عينيك يكاد يستحيل عليك أن تميز بين السكون والحركة المنتظمة .

أما البديهيّة الثانية فهي حالة أخرى . يعرف العلماء أن سرعة الضوء ثابتة بالنسبة لمختلف المشاهد من مهمما اختلفت سرعاتهم ، ومع ذلك فهم يعتبرونها حقيقة تجريبية غريبة تحتاج إلى المزيد من البحث . ولكن اينشتاين رفع هذه الحقيقة العجيبة إلى مرتبة البديهيّة . ونعلا كان فيليكسون وهولي قد كشفوا هذه الظاهرة منذ سنة ١٨٨٧ . وكرس الباحثون جهودهم للمقارنة بين سرعتي انتشار الضوء من الشرق إلى الغرب ، ومن الشمال إلى الجنوب . وهذا يشبه المقارنة بين نتائج قياسات في مختبرين أحدهما يتحرك مع كوكب الأرض بينما لا دور للآخر بالحركة اليومية إلى

القاهرة الإسكندرية هي الأقرب ، أما بالنسبة لمن يعيش في لندن فباريس هي الأقرب . ولكن بالنسبة لسكان المريخ - أن وجد به سكان - فالمدنيتان على بعدين متساويين تقريبا .

وقد نسأل أيضا « وما الزمن ؟ » إننا جميعا نعرف الزمن . . أنه ما نقيسه بالساعات . هذا أفضل ما نجيب به على السؤال . فالمعتاد إننا نحصل مسافاتنا معنا ونقيس بها زمننا الخاص بكل سهولة مثلما نقيس بها زمن الآخرين . ولكن هذا هراء ، أن الزمن واحد ليس كذلك ؟ وأرد بقولي لا ، أنه مختلف ، فالمسافران لكل منهما ساعته وإذا أراد أحدهما أن يضبط الوقت عنده ، فلا بد من أن يرسل كل منهما إشارة إلى الآخر . يشاهد أحدهما الزمن لحدوث شيء ما حسب ساعته ، بينما يرسل الآخر - المتحرك - اشارات تقول ' أن ساعته تبين الوقت عند بدء الحدث وعند نهايته . ويمكننا أن نستنتج أن الفترة بين الحدثين بقياس المشاهد الأول هي الأطول . والآن عندئذ تحدث من الساعات بينما تحدث عالم النسبية عن الزمن . وما هو الزمن ؟ وقد أجبت بأنه ما يقاس بالساعات . وقد يبدو لك أن في الأمر خطأ . وقد لا يقبل عقلك هذا الكلام . فالكفاح ضد المقول أمر عسير ، ولكن الأصعب منه أن نجادل مع شخص يغرب بالتفكير المنطقي عن ض الحائط ، من أجل التمسك « بحقائق يرى أنها مقبولة » . والأمر لا يحتاج إلى الإشارة إلى أن آلاف العلماء هللوا للنظرية النسبية تفرحوا بظهورها ، لأنها طورت الفكر العلمي ، وحللتهم بمعنوت الفكر فيها . ولم يجدوا بها نقصا أو ضعفا أو عوجا . وقد أثرت هذه النظرية تأثيرا ثوريا في العلم الحديث ، وعمقت في المفاهيم التي تتعلق بزيادة كتلة الجسم كلما زادت سرعته . وكذلك في مفهوم تكافؤ الكتلة والطاقة .

وألغت النسبية سهولة تأكيد زيادة الكتلة بطريقة علمية على الالكترونات . وأصبحت

معادلة أينشتاين هامة جدا في معالجة التحولات النووية وتفاعلاتها . ومن أحدث الاخبار التي حققت مباشرة زيادة الزمن في حالة جسيم يتحرك في ظروف المعمل . ويعتبر العلماء اليوم هذه التجارب تحقيقا للنظرية النسبية . وقد أصبحت مقبولة دون تحفظات وصارت أساسا للعمل اليومي في البحوث النووية . والرياضة الحديثة .

وللنظرية النسبية مغزى أعمق وأبعد بكثير من كونها قانونا جديدا من قوانين الطبيعة ، فقد جاءت بتغيير تدريجي في سلوكية الباحثين في العلوم الطبيعية ، بأن جعلتهم في غاية الوهي للنتائج العقلانية . وعلمتهم النظرية النسبية ضرورة بحث الموضوع من كل جانب . وقد وهو ما يستخدمونه من الالفاظ ، وهرقوا الالفاظ الجوفاء الخالية من المعنى . وأحسوا بالحاجة إلى إزالة جميع آثار الجو الارسطوي من العلوم . وعلمتنا النسبية أهمية السؤال عن كيفية قياس الأشياء ، والعلاقة بين الكميات القابلة للقياس ، باستخدام المعاملات المرتبطة بها . فإذا كانت طريقة قياس كمية ما معلومة ، أو كانت طريقة حسابها معروفة ، فإن هذا يكفي ، لأن الطبيعة شيء موضوعي يوجد في الكون ، ولا يتوقف على الباحث . وكل ما قام به المشاهدون للطبيعة أنهم افترضوا كميات طبيعية وأدخلوها في الفكر ليسهل وصف المشاهدات . وتحاول الكتب التخلص تدريجيا من التعاريف العلمية الجوفاء ، والكلمات المترابطة الخالية من المعنى ، وأدت النظرية النسبية إلى تعميق فهم دور النظرية في العلوم الطبيعية . ويقول العلماء أن النظرية تفسر وتوضح طبيعة ظاهرمعينة وتصورها وتكشف عملها . ولكننا اليوم نقول أن وظيفة النظرية التنبؤ بالظواهر . وقد أعطتنا النظرية النسبية نموذجا ميكانيكيا لتحلل المكان الذي تربعت

وعلوم الفضاء . وقد تطورت النظريات الرياضية بعد ظهور نظرية الكم والنظرية النسبية وكشف اشعة الليزر واستخدامها في المواصلات اللاسلكية والحاسبات اللازارية والتخليق الكيميائي والتصوير وتحديد المسافات وتوجيه سفن الفضاء . فظهرت علوم الليزر بعد العلوم النووية واستخدمت في فحص نظرية النسبية وفي قياس حركة الفانزات ودراسات الجو والسرعات . وتتقدم علوم الليزر الآن بخطى سريعة للتصرف على الحضارات في الكواكب الاخرى ولتطوير سفن الفضاء . وربما لا يمر وقت طويل حتى يصبح في الامكان السفر الى بعض الكواكب في رحلات منظمة لقضاء عطلات سنوية .

وان غدا لناظره قريب .

عليه نظرية « الأليز » وقد دثنته على الرغم من عظمتها القديمة وقيمتها التي مكنت علماء القرن الماضي من التنبؤ بكثير من الظواهر قبل أن يستطيع الناس مشاهدتها . ومع ذلك ليست النظرية النسبية وحدها التي أقامت صرح الفكر العلمي المعاصر ، فقد عاصرتها كثوف اخرى في عالم اللذة وقامت بأدوار كبيرة في بناء العلم الحديث والتطور الحضارى الذى نعيشه اليوم .



وأخيراً... اننا نميش الآن عصر التكنولوجيا المتطورة وقد اخذ العلم والتكنولوجيا يسيران معا في كل ميادين الانشطة الانسانية . ونشاهد الآن ظهور مخترعات كثيرة في الحياة اليومية والاعمال الصناعية تستخدم الالكترونيات

الراجع

- (١) فؤاد مروف : « أساطير العلم الحديث » الطبعة المصرية . دار الفانتازيا . القاهرة ١٩٦٦ .
- (٢) احمد زكي : « يواثق والتأنيق » قصة الكيمياء ترجمة عربية « للمؤلف برنارد جال » مكتبة النهضة المصرية - القاهرة .
- (٣) زكريا فهمي : « فن البحث العلمي » ترجمة عربية للمؤلف و . ا . ب . بارديج ، « الآلاف كتاب » بالشراف وزارة التعليم العالي . القاهرة سنة ١٩٦٢ .
- (٤) اداناشيف : « الانسان يصلح لكونه » دار التقدم . موسكو .
- A. Kitaigorodsky ; I Am a Physicist MIR, Moscow, 1971. (٥)
- Isaac Asimov ; The Intelligent Man's Guide to the Physical Sciences ; Pocket Books, Inc. New York, 1964. (٦)
- Ritchie Calder ; Science in our Lives ; New American Library, 1962. (٧)
- Jacob Bronowski, The Common Sense of Science ; Penguin Books. London, 1960. (٨)
- A. P. Rossiter ; The Growth of Science ; Penguin Books, London. (٩)
- Elaine Knorr ; A Visit to Transurania, MIR Publishers, Moscow, 1974. (١٠)

جوانب غير مطروقة في شერთوف

د . حاي مَرزوق

وشولى من أولئك النثر الذين عاشوا
للشعر ، لا يشغلهم عنه شافل ولا يعملون به
مجناً ، ولا يجالسه جالها مهما كبر في أمين
الناس .

قلى وان جميل القيسى مكانه
أبقى على التاريخ من مافيك

والخطاب هنا لدار الخلافة العثمانية ،
يكابرها بمجده الأدنى، ويعطو بشعره فوق جميع
ما أنفق السلاطين في الفتح ، ويلزم أولئك
النقاد وقد زين لهم القباء هذا الطعن عليه
بالتلقل والكذب ، والمباقرة لا يكذبون الناس،
لأنهم أرعد الناس فيما عند الناس ، يقول
للسلطان عبد الحميد عام ١٩٠٥ :

كثر الكاتبون في شولى حيا وميتا ، وكانما
المبقرية لاحساب لها في موازينهم ، فتعاقبوا
على الخفض به الى مراتب العامة في التزلف
وطلب الجاه .

وداب المبقرية ان أرعد بأصحابها فيما
يتماجد به أحاد الناس .

ولا نريد بذلك أن نملو بالرجل على خصال
البشر ، وإنما نريد القول أنها خصال متجاوزة
- ولا يد - في الواهب الشاخسة بأصحابها
الى مراتب الخلود، وليس وراء الخلود صارف
يمتدح المظماء من كثير من مواضع العرف
وقيم الحياة .

وقد أكد إعدام السود على العثمانيين هذا
النظم المتصل في حياة المسلمين ، وقد جاءهم
نابليون - وأوروبا من ورائه - بحضارة تقوم
منها الديموقراطية أو الحرية السياسية مقام
الاساس من البناء .

وقد رد وفاته الطغتاوي للناس هذه النظم
الديموقراطية يومذاك الى أمر واحد هو العدل
والإنصاف ، « فما يسمونه الحرية - كما
يقول - هو عين ما يطلق عليه عندنا العدل
والإنصاف ، لأن معنى الحكم بالحرية هو
إقامة التساوي في الأحكام والقوانين » . (١)

والناس يومذاك أحاط بهمسم النظم
والاستبداد ، فكانوا أذنا مصغية للدم ،
ورقابا مشرقة لكل انتقاد .

الا أن هذا النظم أو الاستبداد كان من
سوء العصر وعيبا من عيوب عامة الأمة
الإسلامية ، وليس من الإنصاف أن نلقى أوزار
العصر برمته في أمتاق الترك أو العثمانيين
دون العرب والمسلمين ، مهما كان اليهم الأمر
دون هؤلاء وأولئك ، فقيح إن نشرهم الفعل
ونفردهم بالعجب وكلنا في لهم شرق » .

على أن شوقي لم ينفصل - قط - هذا
النظم ولا أغضى عنه ، إلا أن الفارق عنده هو
الفارق بين حرب الظلم وحرب الخلافة برمته ،
وهو الفارق بين الثورة بالخلف ، والثورة
بمادة الحضارة الإسلامية ونظمها في الحياة .

والنقاد لا يذكرون بهذا الوجه الثائر ، ولكن
ياخذونه - دائما - بالمدح الذي قال ، وشوقي
في مدحه ودمه كان يمدح بحق ويذم بحق ،
دبدبن الفضلاء وأصحاب المواهب والرسالات :

فامدح على الحق الرجال ولمهمو . .

زهنت الذي في راحتك وشاقتي
جوائس عند الله مبتغيات

ومن كان مثلي (أحمد) الوقت لم تجر
عليه ، ولو من مثلك الصدقات

وهذا التشايع أو التأيي نقرؤه في المدح
الذي يؤخذونه به ، ويحاسبونه عليه ، ولا
أظن أحدا يطيب نفسا بمدح فيه هذا القول ،
فما بالك بخصال المنجبة المألوفة في الأثر
أو الخلفاء العثمانيين .

وقد نستطيع القول أن هوى الرجل أو
عثمانيته ، لا يدخل في المعايير الأدبية التي عليها
مدار المدح والذم ، وأنصار الفن للفن أول
من يشكرون هذا الطعن برمته ، لأنهم شاخصون
أبدا إلى طرائق التعبير ، ثم لا يعنيه ما وراء
ذلك الموضوع المستحب أو التعلق المألوم .

الا أننا نلتقي هؤلاء النقاد على تشخيص
هوى الرجل ولا بد ، وبيان مواقفه من الأمة
وقضاياها في السياسة وشئون الاجتماع ،
فكل ذلك - عندنا - من صميم الشاعر ، ومن
مناصر الرجل التي تجتمع عليها أطراف
شخصه المتفرق عليه .

لقد شامت دعاوهم في تعلق العثمانيين
واستغرقت الأسماع حتى لا مكان فيها لخبر
يقال ، والعثمانيون عندهم - بعد - شر أصاب
التاريخ ، وسوء أذى بالخلافة ، فاجتمعت
على الرجل سواتان : سواة التزلف ، وسوء
التزلف إليه ، وكان شوقي خسر الأولى
والآخرة ، فلا هو أمسك من المدح فأرضى
الناس ، ولا هو اتصفته السلاطين كما أنصف
سيف الدولة المتنبي في أسماء الناس
والتاريخ .

جواب غير مطروقة في شعر شوقي

ثم أن هذه الايات من الايات الاحيان ، على
سنة قوله المأثور .

زمان الفرد يا فرعون ولى ...

وبيت القصيد افضل في نفوس الناس من
القصائد الطوال ، لانه املق بالاثنية وأجرى
على الالسة ، فكانت العرب تكابر بالايات
الشوارد ، والامثال السوائر لهذه المآرب
والخصال .

وتسقط (أدنة) في اليونان ، غلب عليها
اليلغار في مطلع القرن (١٩١٢ م) ، فيجزع
شوقي أشد الجزع ، لانه رأى فيها تكبة
الاندلس ، وجرحا كبريها :

جرحان تمضي الأمان عليهما

هذا يسيل وذاك لا يلتام

فالاندلس أول الممالك الاسلامية يسقط
عنها لواء الاسلام في حرب أوروبا ، وأدنة آخر
الممالك على عهد شوقي تسقط في شرقها ،
وليس وراء ذلك ألم يؤلم وجدان المسلم ،
ويصيب كبرياء التاريخ :

كانت من الضرب البقية فانقضت

لعلى بنى عثمان فيه سلام

لقد انقلب بها وبشرها الهلال الاسلامي
الذى احاط بأوروبا من طرفيها في العصور
الوسطى ، الى هلال أوروبا - في العصر
الحديث - يحيط بطرفي دار الخلافة وممالك
المسلمين ، قول تويني ، وهذا أشد ما احق
شوقي على الخلافة العثمانية :

والدهر لا يألو الممالك متسلرا

فإذا غفلن فعلى عليه سلام

مقامك فوق ما زعموا ولكن

رايت الحق فوقك والقام

والناس منذ رفاهه على أن «الديوقراطية»
انفى للظلم ، وعاصم من الظلم ، فكانوا
حربا على الاستبداد أو الديكتاتورية وحكم
الفرد ، وكلهم شاخص بالوم والثريب ،
الى السلاطين العثمانيين والحدويين
المصريين ، وكان شوقي على رأس
القوم ، لا تعرض الفرصة الاحمل وصدق :

شر الحكومة أن تساس بواحد ... (٢)

قل للخلافة قول بك شمسها

بالامس لما آذنت بدلوك

يرميك بالامس الزمان وتارة

بالفرد واستبداده يرميك (٣)

ولا اظن هذا قول متزلف لسلطان أو مداهن
لخدوي ، وشوقي ليس تكرة - بسد -
فيمنع قوله غير محسوس به ، أو محسوب
عليه ، والمتربصون بالرجل كثر ، في عصر
ياخذ بالظنة ، ولا يفرغ التعريض ، ولا يريد
أن تستطرد فتروى للناس القتل والمؤامرات
تعاك على ذلك العهد في تركيا ويصلاها
الناقمون في اطراف البلاد .

ولا يقال هذا تعريض الخائف ، بدس البيت
في تضاميف الشهر ، فتخطئه العيون
والاسماع - لا يقال ذلك ، لان الرجل من
مذهب الشجر العربي ، لا يفرغ القول في باب
بخصوصه على النمط المعهود اليوم ، فالدم دم
والدمح مدح والرياء رياء ، وإنما هو المدالة
بين الأفراس جميعا ، ثم لا ندم فيها رأى
الشاعر ومواقفه من الحياة والأحياء .

(٢) - ج ١ ص ١٩٩ من الشوايكات

(٣) - ج ١ ص ١٩٨ من الشوايكات

الحرية الليبرالية أو الديمقراطية الغربية

وقد آمن الناس يومذاك أن الدستور والبرلمان عاصمان - ولا بد - من هذه المظالم والاستبداد ، فافرقوا في طلبهما لأنهم آمنوا كما آمنت الثورة الفرنسية أو أوروبا البرجوازية بأن الإصلاح السياسي هو رأس الإصلاح ، فهم شاخصون - أبدا - إلى الحكم الدستوري أو البرلماني ، فالدستور قيد على أهواء الحاكم وسلطان الفرد ، والبرلمان نمط من أنماط الشورى في حضارة الإسلام ، وكان الكواكبي فيما بين رفاعة وجيل شوقي مثلا للثلاثة : الثالين على الدولة العثمانية ، يريد خلافة عربية على هذا النمط الجديد من الحكم يقول :

« أن سبب الفتور (في الأمة الإسلامية) هو تحول نوع السياسة الإسلامية حيث كانت ثيابة ديموقراطية تماما فصارت بعد الراشدين بسبب تمادي المحاربات الداخلية - ملكية مقلدة بقواعد الشرع الاساسية ثم صارت أشبه بالملكية » .

والناس منذ رفاعة مأخوذون بالدستور الفرنسي وما شرعه من المساواة في حقوق السياسة وأهمل الاقتصاد ، وقد ترجم رفاعة هذا الدستور ، واختص مواد هذين الأمرين بالشرح والتعليق يقول :

« أما قوله في المادة الاولى : مسائل الفرنسيين مستون قدام الشريعة ، معناه سائر من يوجد في بلاد فرنسا من ربيع وضيع لا يختلفون في اجراء الاحكام ... حتى ان الدوى الشرعية تقام على الملك ، وينفذ عليه الحكم كغيره » .

وهذه المساواة بين الحاكم والمحكوم أو الشريف والوضيع لم تكن معبودة على عهد رفاعة ولا على عهد شوقي ، وكلاهما يعلم كما نعلم ان المساواة قائمة في الحضارة الاسلامية وأصل من اصول الاسلام ، وكانت

ثم لا يلبث أن يعنف بهم وبآرائهم وعاصمته سياستهم ، ويثور على أكتالهم وتخاذلهم ، وهو من وراء ذلك ساخط أشد السخط بما تلبسوا به من الغرور والاستئثار إلى المجد القديم :

زعموك هما للخلافة ناصب
وهل المالك راحة ومنصام

لو آثروا الإصلاح كنت لعرضهم
ركنا على هام النجوم يقام

صور المي شتى ، وأقبلهما اذا
نظرت بفر ميونيس الهام

فيم التضائل بينكم ووراكم
أم تضاع حقوقها وتضام

ودعوا التفاخر بالتراث وان غلا
فالمجد كسب والزمان عصام

ان الضرور اذا تملك أمة
كالزهر ينفى الموت وهو رؤام

لا يعدلن الملك في شمولكم
عرض من الدنيا بدا وحطام

ومناصب في غير موضعها كما
حلت محل القدرة الاصنام

وليس وراء ذلك ذم أو هجاء يقال .

يقول الدكتور هيكل : « وقد بلغ من حب شوقي للترك أن كان يعتبرهم مجموعة من الفضائل لا تشوبها نقیفة » .

ولا اظن هذه الآبيات المقلدة تشابع الدكتور فيما ذهب إليه ، وأغلب الظن أنها تنقض دعواه التي فتح بها أبواب التنقص من الرجل ، وسوغ بها تهمة التنصب الأعمى للترك في نفوس عامة النقاد .

« وحيثما كانت رسل العملات قائمة مقام الرعية ، ومتكلمة بلسانها - كانت الرعية كأنها حاكمة نفسها » .

وذلك هو حكم الشعب نفسه بنفسه كما نقول اليوم ، لا مجال فيه لنظام أو مستبد ، لأن الناس هم الذين تداولوا بنوايهم أمور أنفسهم ، وليس وراء ذلك مانع للنظم والاستبداد ، وعلى كل حال فالرعية مائة للنظم عن نفسها بنفسها » (١) .

امران - إذن - دأب الناس عليهما منذ مطلع هذا العصر الحديث : الدستور والبرلمان ، أو هما أمر يجمعهما مصطلح الحرية السياسية ، وكلاهما في قصاره قيد يمسك السلطة أن تجور على الناس وأن تنحيف حقوقهم المشروعة ، أو أن تثبت يمسك الحاكم أن يؤذي الناس في أرواقهم وعامة حياتهم ، والطفيان داء العصر يومذاك ، ناط به المصلحون والثائرون كل صنوف التخلف ، وما أصاب المسلمين من التأخر والجمود .

وتلك كانت جدوى هذه النظم « الليبرالية » أو التحررية ، فالعدل والإنصاف أقصى غاياتها في إهانة الناس يومذاك ، على غير الشائع المفهوم منها منذ ظهور النزعة « الرومانتيكية » في مصر ، ذلك بأن الرومانتيكيين أخذوا من هذه النظم بالحرية الشخصية حرباً على مواضع الناس في المشاعر أو الخيال والوجدان ، وآمن المثقفون بها حرباً على العرف والتصرف وتواعد السلوك ... أما السابقون فقد شغلهم الحرية السياسية فغلبت على ما عداها من النظم « الليبرالية » لللاسيات والنظم وظروف الطفيان ، فتنادوا بالدستور واشتد الأتراك بقوادهم ليطلبوه بالسيف ، فأمر به السلطان عبد الحميد ،

أوروبا بذلك كالنبهة للشرق وعامة المسلمين ، يقول رفاعة :

« فانظر الى هذه المادة الاولى فانها لها تسلط عظيم على اقامة العدل واسعاف المظلوم ، وارضاء خاطر الفقير بأنه كالمظلوم في اجراء الاحكام » (٢) .

ومعقب على ذلك بأن هذه القضية كادت تكون من « جوامع الكلم » عند الفرنسيين يريد أنها مبدأ متبع لا جدال فيه ولا خلاف عليه .

والمادة الثانية تنص على تقرير المساواة في الاضطلاع بالفرق أو الغرينة وبيت المال ، فيأخذ رفاعة العجب فيقول :

« ويمكن أن يقال ان (الفرد) ونحوها لو كانت مرتبة في بلاد الاسلام كما هي في تلك البلاد لطابت النفس ... ومدة اقامتي في باريس لم اسمع احدا يشكو من المكوس والفرد والجبايات أبداً » (٣) .

وداء الشرق - لا شك - كامن في اصطناع هذا التمايز والمفاضلة بين آحاد الناس ، فآمن المصلحون أن الدستور هو الدواء ، لأنه « الحكم التي ترضى حكومته » أو الحقبة المكتوبة يلتقى فيها الحاكم والحكوم على شرع سواه .

وتأتى المادة الخامسة عشرة بعبء الشورى ومجلس النواب أو « ديوان رسل العملات » كما يترجمه رفاعة ، وهذا الديوان أو المجلس هم وكلاء الرعية والمحامون منها ، حتى لا يظلمها ملك أو سلطان ، يقول رفاعة :

(٢) - التلخيص ص ١٢٨ .

(٣) - التلخيص ص ١٢٩ .

(٦) للرجع السابق ص ١٥١ .

وكان قد أمسكه بمد أن وعد به ، فكتب شوقي يقول :

بشرى البرية قاصبها ودانيها
حاطد الخلالة بالدستور حاميهها
أما ترى الملك في عرس وفي فرح
بدولة الراي والشورى وأهليها (٧)

ولا يقال شوقي تبع ، هلل وكبر - لدستور صدر في تركيا ، لأننا نقول : هو أول داع في هذه القصيدة لدستور لم يكن قد صدر في مصر يومذاك :

يا صعب عثمان من ترك ومن عرب
حيالك من بيعت الموني ويحييها
ما بين آمالك اللالي غفرت بها
وبين (مصر) ممان آتت لتدريها (٨)
والآمال هنا هي الدستور .

على أن الأمر ليس أمر سبق في القول أو تأخير به ، وإنما المول على منطق الرجل في القضية ، وإيمانه بالفكرة حلاً لازماً لقضية الحرية السياسية ، فانتصر الرجل للدستور كما فهمه الناس يومذاك ، وانتصر له على مذهبه هو في فقه الحضارة الغربية وحضارة الإسلام والمسلمين ، يقول :

وأما هي شورى الله جاء بها
كتابها الحق يعليها ويغليها (٩)

فقصارى الديموقراطية أو النظم البرلمانية عند شوقي أنها نمط من أنماط الشورى في الحضارة الإسلامية ، نزل بها القرآن فكان الرسول والخلفاء يستشيرون ويشاور عليهم ، ولم تعرف أية حضارة ما عرفه المسلمون من « أهل الحل والعقد » أو « أولى الأمر » أو « أهل الذكر » وما شابه ذلك من المصطلحات التي تدل على المشورة وطلب الراي من عامة الناس لا خاصة القواد والأمراء :

بنيت على الشورى كصالح حكمهم
وعلى حياة الراي واستقلاله (١٠)

أني أرى الشورى التي امتصموا بها
هي حبل ربك أو زمام لبيبه (١١)

ولا يقال ما جدوى ذلك ، لأننا نقول ذلك هو منهج الصراع الحضاري منذ رفاضة ، فالمسلمون لم يقبلوا - قط - من هذه الحضارة الغربية إلا ما لم يخالف « الشريعة والسنة » على حد تعبير رفاضة ، ولا يختلف اثنان على جمود الفكر يومذاك ، فكان الكتاب والأدياب مطالبين بإحياء الأصول الإسلامية واقتباس ما يتفق معها من حضارة الغرب ، وخرط القناد دون تسويغ هذه تلك في نفوس العامة ، والناس في عصر قريب العهد - يومذاك - بثورة الانتكشارية على السلطان سليم لانه فرغ من الملابس الفرنجية في الجيش ، فما بالك بما هو أحر منالا في أمور النظم وشئون الحكم . لقد اضطلع شوقي بهذا الصب ، فكان يستعين على أهواء الحكام وجعل السلاطين بأصول الإسلام ، ويستهوهم بالخلفاء الراشدين ،

(٧) - الشوقيات ج ١ ص ٢٨٦ .

(٨) - المرجع السابق ج ١ ص ٢٩٠ .

(٩) - المرجع السابق ج ١ ص ٢٨٧ .

(١٠) - المرجع السابق ص ١٦٨ .

(١١) - المرجع السابق ص ٢٨٨ .

الكتب والرسائل والأديان لطلبها
خزائن الحكمة الكبرى لوامعها

محبة الله أصل في مراتبها
وغشية الله أس في مبانيها

وكل خير يلقى في أوامرها
وكل شر يلقى في نواهيها

تصالح 'نفس معنى من مروءتها
بل المروءة في أسمى معانيها

تخلق الصلح مسعد في الحياة به
فالنفس يسعدنا خلق ويشقيها

لم يخص نفسه بالحدث ، والحدث هنا
داخل في صلب القضية ، لأن شوقي يطلعك
على دخيلة نفسه ، أو يفكر لك بصوت مسموع
كما يقولون ، يريد للناس جميعا أن يكونوا على
حدوه ومثاله في رياضة النفس على الإحسان :

الله يعلم ما نفس بجاهلها
من أهل خلقتها ممن يعاديها

لئن غدوت إلى الإحسان أصرفها
فإن ذلك أجرى من معاليها

والنفس إن كبرت رقت لحاسدها
واستغفرت كرها منها لشايتها (١٥)

ومؤدى هذا القول أن الإسلام لا يفتيق
باختلاف الأديان « ولو شاء الله لجمع الناس
أمة واحدة » ، ولئن اختلف المجتهدون في أهل

ليداول القول بينهم وبين هؤلاء ، ليستثير
فيهم نخوة التشبه وحمامة الاقتداء :

فكانك الفاروق في كرسية (١٢)

خلانة الله جر الدليل حاضرها (١٣)

جددت عهد الراشدين بسيرة (١٤)

والناس يزعمون - بعد - أنه المباح
التزلف ، وبشرون عرض الحائط بما وراء
المح من هذه الأعماق .

لقد اتفق شوقي من عبقرته ومن بالغ ذكائه
في قضية الدستور ما لم يستطعه شاعر أو
كاتب أو أديب ، وحسبك اختلاف الأجناس
والأديان في الدولة العثمانية حائلا يحول دون
المساواة التي هي صلب الدساتير الليبرالية .

ولا أظن رجلا غير شوقي يستطيع أن ينفذ
إلى لب القضية -وهمية الكفر مشرعة يومذاك-
فيسوغها في النفوس على هذا النحو الذي لا
يقدّر عليه إلا العارفون بحقوق أهل الكتاب
« لهم ما لنا وعليهم ما علينا » ، وإلا الواقفون
على أسرار الجبر أو مبدأ الإحسان في الإسلام
« لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوك في الدين
ولم يخرجوك من دياركم أن تبرؤهم وتسخطوا
إيهم » ، وعلى هذا الأساس يقول شوقي :

الدين لله من شاء الإله هدى

لكل نفس هووى في الدين داعيها

ما كان مختلف الأديان داميّة

إلى اختلاف البرايا أو تعاديها

(١٢) المرجع السابق ص ١٦٩

(١٣) المرجع السابق ص ١٧٠

(١٤) ص ١٦٩

(١٥) ج ١ ص ٢٩٠/٢٨٩ من التوقيعات

الذمة ، فإن التسامح أو مبدأ الاحسان فيه - عند شوقي - سمة مشروعة لأخوة الوطن ان تعدت أخوة الدين .

فانتصار شوقي - إذن - للدستور ليس انتصار تهليل وتكبير ، وإنما هو انتصار العارف بمواضع الشبه ومفان الخلال ، البصير بمواطن العظلة في الاسلام ، وهذا الدخول الى القضية من ابواب « الاحسان » لا اقول جديدا في ابواب الاجتهاد ، وإنما هو احياء بصير للفكر الاسلامي وحضارة المسلمين سبق اليه رفاعة الطهطاوى فلم يقف بالأخوة الاسلامية موقف التناقض من الاخوة الوطنية، لكل ذلك يجمعه وبعضه عليه قوله صلى الله عليه وسلم ، « وكونوا عباد الله اخوانا » يقول رفاعة : « ثم ان اخوة اليهودية التي هي التساوى في الانسانية عامة في حقوق اهل المملكة بعضهم على بعض ، التي هي حقوق العباد » ، يريد بذلك ان المبادئ على اختلاف عقائدهم اخوان في العبودية ، والناس على اختلاف مذاهبهم اخوان في الانسانية ، فالعبودية والانسانية عنده سواء فالناس جميعا خلق الله ، يتساوون من حيث هم عباد الله وخلقته ، ولهم حقوق على بعضهم البعض من هذه الجهة ، وتلك هي الحقوق الطبيعية التي طالما اشار اليها رفاعة في تفليص الأبريز والتي كانت تسميها الثورة الفرنسية على مذهب باسم « حقوق الانسان والواطن »

« وهناك حقوق العبودية الخاصة التي هي الاخوة الاسلامية » - كما يقول - وهي اكتسب ما يصير به المسلمون اخوانا على الاطلاق من اداء حقوق بعضهم على بعض ، كرد السلام وابتدائه ، وتعليم الاحكام الشرعية ونحو ذلك من شئب الإيمان ، فهذه هي التي اشار اليها صلى الله عليه وسلم بقوله : المسلم اخو المسلم ، يعنى أخوة دينية لأنهما يجمعهما دين واحد ،

وهي اعظم من الاخوة الحقيقية ، وقد قال الله تعالى : « انما المؤمنون اخوة » ثم يقول رفاعة : « ولا مانع ان يصم في مكارم الاخلاق » ، يريد ان نعم هذه الاخوة في اهل الوطن الواحد على اختلاف عقائدهم من باب حقوق الجار ، واهل المحلة الواحدة كلهم جيران او من باب مكارم الاخلاق كما سبق القول .

وهكذا تلتقى مكارم الاخلاق عند رفاعة مع مبدأ الاحسان عند شوقي وكلاهما اصل واحد في الاسلام ولا فرق ، وتقول هنا ما قلناه في كتابنا « جوانب من قضايا الامة العربية » :

« وحسب العقيدة الصالحة ان تنتصف لغيرها انتصاف الحق المشروع لا انتصاف التفضل والامتياز » .

وحسب الأديان الأخرى من الاسلام ان يجدوا نصابا يستكمون اليه ، وحقا مطوما يتقافونه مهما استبليت الأهواء ، واستحكم التعصب في نفوس المسلمين .

وحسب البشرية ان تقوم فيها أخوة في شئون المجتمع ومطالب الحياة ، عندما تمتنع أخوة الدين ، ووحدة المذاهب والمعتقدات .

مبدأ الشورى أو روح الديمقراطية

على ان شوقي لم ينفذ - قط - بالديموقراطية « الليبرالية » ، التي اغرق فيها الناس ما اغرقوا ، وتنادوا ما تنادوا ، باشكالها الدستورية والبرلمانية ، وهو شاخص - أيضا - الى جوهر الحرية أو روح الشورى ولبانها ، وما نحن الا الا نقرأ الكتاب - اليوم - من أم الدساتير والبرلمانات ، فيكتشفون لنا من مثالب الديمقراطية الغربية ، لأنها اخلفت الفن في نفي التسلط وتقرير الحقوق ، وحسبنا في هذا الصدد هولد لاسكى فيلسوف حزب العمال من زمن قريب . (١٧)

والذين يستهويهم الثورة وخصال العنف ،
لا يصدونها في الرجل ، فشوقي لم يشدد -
قط - شدته في قضية الشرير أو الدستور ،
فمنع بالسلطان **عبد الحميد** حين شاد الناس
في الدستور ، وحين حجه عن الأمة ليستبد
بالامر ، فناصر عليه **أثور باشا** وصحبه :

صبروا لدولتك السنين
وما صبرت سوى شهور

أوذيت من دستورهم
وحننت للحكم المبر

وغلبت كالتصوور أو
هارون في خالي المصور

فمنوا بضائع حقهم
وفشنت بالدنيا القصور

هلا احتفظت به احتفا
ظ ، مرحب فرح فرير

مرحبة الملك الرشيد
د وعصمة الملك الفرير (٢٠)

وقوله « وخالي المصور » هنا من باب اللمز
والتحقير لا التماجد والافتخار ، فرأى شوقي
في **هارون الرشيد** رايه في معاوية وعامة الخلفاء
من بعده ، صارت بهم الخلافة ملكا مفزودا
« على سنة الفرس والرومان » فتزحزحوا بها
عن سمت البيعة والانتخاب الى سنة التعيين
والتوريث :

وها نحن أولاء نرى الدسائير تشرع ،
والبرلمانات تقام ، والاستبداد آخذ - بعد -
بتلاييب الناس ، يقوم فيها بالواحد فيمنو له
التواب وتل له الجماعة :

وإذا سب الفرد المسلط مجلسا
أفيت أحوار الرجال مبيدا (١٧)
ويقوم فيها بالجماعة فتعنو لهم الأمة
ومتلل الشعوب :

وقام مقام الفرد في كل أمة
على الحكم جه يستبد فخبر (١٨)

ولا أظن وراء ذلك نفاذا الى مثالب هذه
النظم ، أو ما يسميه علماء السياسة باسم
« الدكتاتورية البرلمانية » .

على أن الاستبداد لا يذهب المستبد فيه
- عند شوقي - بجميع اللوم والتثريب ، وإنما
السيبل على الذين يستدلون له ، ويتلون على
ظلمه وطفانيه ، فالشعوب تخلق جلاذيتها كما
يقال اليوم ، وأهل الحل والعقد - عند شوقي
- هم داء الأمة بالتملق ، وهم سبب الحياة
بالاستخدام :

كم سبجوا لله في الروا
ح ، والهوك لدى الكور

ورأيتهم لك سجدنا
كم سجد موسى في المصور

خففوا الرؤوس ووسروا
باللؤلؤ أقواس الظهور (١٩)

(١٧) ج ١ ص ١١٢ من الديوان

(١٨) ج ٣ ص ٨٢ من الديوان

(١٩) ج ١ ص ١٤٥ من الديوان وقوله في المصور أي في حفرة الله تعالى في الوادي الكلداني شوى

(٢٠) ج ١ ص ١٢٢/١٢٣ من الديوان

رومتها من فيض الايمان بالمبادئ أو الصدق في المشاعر والوجدان ، ولم تسمع قط بعمل مكروء خلا من الطعن بالتقليد والاتهام بالمحاكاة .

ويوم تكون الثورة حرفة تصبح كالعمل الادبي المقصود ، يعمل فيها الوعى والتدبير فتلتوى بالناس الى قصد غير القصد وسبيل غير السبيل ، وثورة اتاتورك ماثلة يومذاك في الازهان ، جمعت الناس على الحرية وقصد الإصلاح ، وانتهت بهم الى « القومية » أو « الوطنية » مبدأ لم يخطر - قط - على اذهان المسلمين يومذاك ، لانه يقصر الولاء على القوم أو الشعب ، فوقع في المنهجية القبلية أو « شعب الله المختار » ، لا يابه الناس فيه « بالغير » الخارج على شاكلتهم في الجنس أو مفارقتهم في الاوطان ، ولا كذلك المسلمون ، لانهم نشأوا على ولاء أهم ، جاز بهم الإسلام حدود « الدم » و « الاقليم » « عصب » الدولة الحديثة « الى هذا الولاء الجامع بين الاسم وأطراف الممالك :

نظمت صفوف المسلمين وخطوم
في كل سفود جمجمة ورواح

جمعت على البر الحضور وطاما
جمعت عليه سرائر النواح (٢٣)

وقديما قال الشاعر :

ابى الاسلام لا اب لى سواه

اذا هتفوا بكبر أو تمصيم

وهذا الولاء الاسلامي الجامع ، كابر به « أنولك توييني » الولاء القومى ، الذى سارع اليه كمال اتاتورك ، فالقومية منه مرض من

ان الدين توارثك على الهوى
بعد (ابن هند) طالما ظلموك

لم يلبسوا برد النبى وانما
لبسوا طقوس الروم اذ لبسوك

وقصارى القول ان شوقى صار - اشد الثورة بالظلم والظالمين ، لا فرق بين حاكم أو محكوم ، وشوقى لا يخطئه مواضع الظلم ، يكون في السلطان ، ويكون في اولى الامر ، كما يكون في الزعمية وعامة الناس سواء بسواء . وهو في جميع ذلك حرب عليه اينما كان لا يحاشى أحدا من هؤلاء ولا هؤلاء .

والدين يستقلون شوقى من الثورة بالظلم انما يستقلونه من سياق العصر ، فالعصر الحديث كله ثورة متصلة ، وصراع حضارى منذ عهد « نابليون » الى يوم الناس هذا ، والادب الحديث في مصر وعامة العالم العربي يضطرب بعهده الثورة ولا يزال ، كما ذهب اليه هيكل (٢١) ، وشوقى بلا جدال « لسان مصر الناطق » كما شهد به الرافعى وكان الرافعى قبل من حساده وبمفاهيمه (٢٢) .

والدين يريدون ان يستقلوا شوقى من سياق العصر الثائر يصحزون ان يسرروا لنا وللتاريخ الادبى خلود الرجل في المشاعر والاذهان ، والحافظة اكبر لائقه رغم انف الناقدين . اللهم ، الا اذا فهمنا الثورة شربا من النواوة ولا غير ، وشق عصا الطاعة فحسب ، على سنة المخربين أو المحترفين .

ونريد بهذا التفریق ان الثورة الفرنسية فيض شعبي كاللوحه الفنية أو القصيدة الشعرية قامت على غير مثال سبق ، فاستمدت

(٢١) ثورة الادب .

(٢٢) دعى الظلم .

(٢٣) ج ١ ص ١١٥ من الديوان .

وخلاصة الامر ان شوقي شاخص الى الشورى الاسلامية او روح الديموقراطية لا ينخدع عنها بالنظم واشكال الحكم ، فالاستبداد - عنده - يقوم والنظم الدستورية - بعد - قائمة ، والديموقراطية تقوم والفرد على رأس الحكم ، فالعبارة - عند شوقي - بالانسان حاكما ومحكوما ، لان النظم لا تنهض بالأمم وانما الأمم هى التى تنهض بالنظم ، ونزوع شوقي الى الاخلاق ، اريد به الامة او تهذيب آحاد الناس ، وذلك غاية الاديب ، او تلك هى رسالته التى اراد أن يضطلع بها فى شعره كما قال فى مقدمته بحق ، لان الامة او المجتمع ما هما الا اجتماع الاحاد بعضهم الى بعض على سنة الفكر الاجتماعى فى القرن التاسع عشر يومذاك ، وفي تهذيب الفرد تهذيب الجماعة حقيقة .

يقول رفاعة رافع الخططاوى : اعلم ان (الفرنساوية) متفرقة الراى فترتين وهما الملكية والحرية ، والمراد بالملكية اتباع الملك القائلون بأنه ينبغي تسليم الامر لولى الامر من غير أن يعارض فيه من طرف الرعية بشيء ، والاخرى تميل الى الحرية بمعنى انهم يقولون : لا ينبغي النظر الا الى القوانين ، والملك انما هو منفذ للاحكام على طبق ما فى القوانين ، فكانه عبارة عن آلة ، ولا شك ان الرايين متباينان ...

فالفرقة الاولى امانة الملك ، والاخرى اضعافه وامانة الرعية ، ولاحاجة للملك أصلا ... وهذا هو حكم الجمهورية .

ومؤدى هذا القول ان النظم السياسية او نظم الحكم ثلاثة انماط ، ملكية مطلقة ، وأخرى مقيدة او دستورية قيدها الدستور ، والنظام الثالث هو النظام الجمهورى ، الامر فيه للمباينة او الانتخاب ، يقول رفاعة :

امراض الحضارة الأوروبية ، لانها من هوائى «الولاء الانسانى» الاعم ابتلى بها الشرق وأخذها على غير هدى أو بصيرة ، (٢٤) ولقد صدر شوقي عن مثل هذا السخط بالكمايين فكتب يقول :

شربوا على سر العدو وشردوا
كاليوم فوق جدارك المذكوك (٢٤مكرر)

فاذا أضفت هذا الى قوله :

هتكوا بأيديهم ملادة فخروهم ...

أدركت كيف شربوا على سر العدو ، وأنفلدوا له ما أراد ، فقطعوا أوصال الخلافة او الوحدة الجامعة للمسلمين بهذا الفكر القومى الطارىء على الفكر السياسى الاسلامى الموروث .

على أن الامر له وجهه الدستورى عند شوقي ، اذا جاوزنا العواطف او المبادئ الاسلامية ، فالكمايون طلاب الديموقراطية او دعاة الراى والشورى ، كانوا أول من استبد بهم هذا الولاء الاسلامى الجامع ، ولو قد صبح المزم وأخلصوا للديموقراطية لاستشاروا الناس ونزلوا على رأيهم ، ولكنهم افوا الخلافة على غير هوى الناس ، أو رأى المسلمين ، فكانت أول مثلية دكتاتورية تتراعى للناس فى تطبيق الديموقراطية الغربية فى دار الاسلام فكتب شوقي يقول :

الفرد بالشورى وباسم نديها
خلع الخليفة فى الظلام شريدا
خلعته دون المسلمين عصاية
لم يجعلوا للمسلمين وجودا (٢٥)

والدستور في قصاره قيد يفل يد الحاكم ،
أو حاصم من الاختلاف في تأويل الحقوق ،
يصطلح عليها المسلمون فيلتقي الحاكم وأياهم
على النزول عليها والاخذ بها .

ولقد أكر شوقي القيد الدستوري ، فالخلفاء
عنده رجلان ، رجل رشيد لا يضيّق بالدستور
ولا يضيّق به الدستور ، وخليفة فر ، فالدستور
حاصم له من الشطط والاستبداد :

هو حلية الملك الرشيد ، وعصمة الملك
الفرير .

على أن فريقا من الناس والكواكب على رأسهم
اشتطوا في الأمر فأبوا الفرد حاكما ولو عمر بن
الخطاب ، (٢٩) ولا يعني ذلك أن شوقي كان
دونهم ثورة بالفرد :

ان الزمان وأهلـه

فرغوا من الفرد الممين (٣٠)

الانصاف - إذن - أن ننسب الرجل الى
ادب الخطاب لا الى التزلف ومداهنة السلاطين
أو الحكام في مصر والأستانة ، وهذا خلق يتخلق
به صاحب الذكاء ، وشوقي كان فوار الذكاء
كما يقول مطران (٣١) ، لأن الذكاء يصل
بصاحبه الى غاياته البعيدة دون أن يضرم حرفا
وأحدا من آداب الجمالة والتعديت ، وبهذه
الغلة كان يمدح ويتمدح :

شديد صلب في الحق حتى

يقول الحق لينسا وأنداه (٣٢)

« وحرمة الاسلام التي عليها مدار الحكومة
الاسلامية مشوبة بالانواع الثلاثة المذكورة لن
تأملها ومرف مصادرها ومواردها » (٣٦)

وشوقي من رأى رلامة لأنه رأى الاسلام
غير منازع ولقد قامت الخلافة بواحد يجتهد
مختارا على سنة النظم الجمهورية في الاختيار
برأيه ، وقامت بهيئته ويشار عليه ، وقامت
به مينا أو مهوردا اليه ، وقامت به مياها
والانتخاب .

وقد امتدح شوقي الخلفاء والحكام بجميع
ذلك ، فالخليفة لا ينبغي أن يضار بالخلافة
ليستط منه حق الاجتهاد ، لأن الاجتهاد حق
لناس خلفاء وغير خلفاء :

الرأى رأى أمير المؤمنين اذا

حارت رجال وعلت في مرامها

وانما هى شورى الله جاء بها

كتابه الحق عليها ويظيها (٣٧)

ولا يأخذ الناس الرأى هنا مأخذ الدكتاتورية
لأن الاسلام لا دكتاتورية فيه فالحاكم المسلم مقيد
بالاسلام ومحكوم به أبدا ، أو هكذا ينبغي له ،
يقول رلامة :

« والأفرنج يمدون الحكومات الاسلامية من

قبيل مطلقات التصرف ، والحال انها مقيدة

أكثر من قوانينهم » (٣٨)

(٣٦) التلخيص ص ٢٥٢ .

(٣٧) ج ١ ص ٢٨٧ من الديوان .

(٣٨) أصول الفكر العربي الحديث عند الفيلسوف ص ٥٥ نقلا عن التوقيع الرسمية ج ٦٢٢ .

(٣٩) أم القري ص ١٢١ .

(٤٠) ج ٢ ص ١٢١ من الشوقيات .

(٤١) الشوقيات الجيزة ج ١ ص

(٤٢) ج ٢ ص ٩٨ من الشوقيات .

الشيخ محمد عبيد : « اظلت ولاية الاسلام ما بين نقطة الغرب الأقصى الى ... حدود الصين ، اقطار متصلة وديار متجاورة يسكنها المسلمون ، وكان لهم فيها السلطان الذي لا يغالب ، كان خليفتهم المباسي يتلق بالكلية فيخضع لها (ملوك) الصين ، وقرلمد فرائس اعظم ملوك اوروسا . »

ومن ملوكهم في قرونهم الوسطى مثل محمد الفزوي ، وملكشاه السلجوقي وصلاح الدين الايوبي ، وكان منهم في المشرق مثل يمسور الكركان ، وفي الغرب مثل السلطان محمد الفايح والسلطان سليم والسلطان سليمان العثماني .

اولئك رجال قضاوا ولم يطو الزمان ذكرهم ، ولم يمح اهرم (٣٣) .

ومن قبل اشد رفاعة الطهطاوي بالسلطان سليمان الثاني واعتد عصره « اعظم الاعصار » فقد بلغ بالدولة العثمانية « اوج الفخار » فانفتح الفتوحات العظيمة واملئ كلمة الله » (٣٤) .

والعثمانيون ، فوق هذا وذاك ، لا يعدون سيذا من السيادة ، ولا يحول اختلاف الجنس والوطن دون الصداقة وولاية الامور ، حكم الاسلام او شريعته النازلون عليها في التصرف والسلوك ، فيطلع علينا العصر الحديث وداود باشا على العراق ، وغير الدين واليا على تونس ، وعلى بك الكبير في مصر ، وكل هؤلاء عبيد ملك اليمين ، وقد استجلب الاوروبيون اليهم العبيد في امريكا صنييع الاتراك المتهمين ، فلم نسمع منهم الا الاضطهاد ، اتزولهم من المجتمع احط المراتب ، وختموا على انصافهم بالعرف المصطنع ، وهم صناع التقدم ، وشركاء الاوروبيين في اسباب الحضارة على نحو من اتحاء المشاركة يفرسه الانصاف .

فلسفته في مدح العثمانيين

على ان العثمانيين كانوا بالقياس الى شوقي تاريخاً وحضارة ، ولم يكونوا قط حاضراً يلو على الاتهام او النقد والتجريح .

اما العثمانيون آحاداً وخلفاء ، فما منهم الا ونشأ على الآداب الاسلامية في لغة القرآن فضلاً عن لفته التركية ، والاغلب منهم كان يحفظ القرآن ويخذ الاسئلة والملمين من الفقهاء وكبار العلماء ، وما اصطلاح « العثمانيين » الا شاهد على انهم ارادوا نسباً تسقط فيه القومية التركية او المنهجية الطورانية ، لتظل الخلافة خالصة للمسلمين .

واذا جاورنا هذا الفضل الى فضل الفتح والجهاد ، فحسبهم فتح القسطنطينية عاصمة الرومان او الدولة البيزنطية ، وكانت خطراً اتصل حبله منذ ابي تمام والتمني والمتنم وسيف الدولة ، وقد تأتت من قبل هذا وذاك على معاوية بن ابي سفيان .

وهذا الفتح في موازين الحضارة اخطر منه في تاريخ الحروب ، لان الحضارة الرومانية انتقلت برمتها الى روما ، ودخلت القسطنطينية برمتها في الحضارة الاسلامية او دار الاسلام ، وليس ذلك بيسر .

وجاء سليمان القانوني فامتدت بدار الاسلام الى اسوار فينا في القرن السابع عشر ، ودخلت اوروسيا الشرقية بالغلب دولها في حوزة دار الاسلام او خلافة المسلمين ثلاث قارات من العثمانيين ، وليس قليلاً في التاريخ ان تنتظم اوروسيا الى غرب اسيا الى شمال افريقيا ، حتى بلغت الامبراطورية العثمانية حداً لم تلبسه امبراطورية قبلها ، فكانت فخراً لا يسقط من حساب المادحين والقادحين على السواء ، يقول

(٣٣) ج ٢ ص ٢٧٧ من تاريخ الاستلا الامام .

(٣٤) الاصل الكلمة لرفاعة ج ١ ص ٤٦٦ نشر وتعليق محمد صبرة .

كان العثمانيون - إذن - بالقياس إلى شوقي تاريخاً وحضارة ، أو أن شئت كانوا مجداً إسلامياً ، وبطولة متصلة في تاريخ المسلمين :

قد غلنى الاحى نعلقت من الهوى
وركبت متن الجبل اذ أطرك
لم ينقد الإسلام أو يرفع له
راساً سوى النفر الالى رفوك (٣٥)

ومن هنا لم ينظر شوقي - قط - إلى السلاطين العثمانيين إلا وهو شاخص إلى مآثر آياتهم الأولى منذ محمد الفاتح إلى سليمان القانوني إلى غيرها من أبطال الفتوح والحضارة الإسلامية :

سما بك يا عبد الحميد أبوة
للاولون حضار الجلالة غيب (٣٦)

حنيفية أو قد عررها وأمرها
للاولون ملكاً لاصون غرة (٣٧)

يا بن الخواقين الثلاثين الالى ... (٣٨)
عشرون خاقانا نوكد وعشرة ... (٣٩)

هؤلاء المأخوذون - إذن - هم مفتاح المدح عند شوقي ، وهم مادته التي صدر منها في التنفى بالسلطانين ، فهم جيل من أجيال الحضارة الإسلامية ، والحلقة الوثقى في تاريخ المسلمين :

المظهرين لنور بلدر بمدما
خيف الحاق عليه والاظلام (٤٠)

يقول الدكتور لويس عوض : « فمئذ اللحظة الأولى (من دخول الفرنسيين) أحس الجبري أنه إزاء حضارة جديدة أرقى من حضارة الترك والمماليك ، لا في مقوماتها المادية فحسب ، ولكن في كثير من قيمتها الاجتماعية ونظمها السياسية . (٤١)

ويخطئه الذين يزعمون هذا الزعم ، فالترك والمماليك ليسوا حضارة قائمة برأسها ، لأن المماليك ظاهرة إسلامية ، أو نظام حربي أنفسي إليه اجتهد المجتهدون على عهد صلاح الدين ، والمجتهد المخطئ له أجر .

والمماليك فوق ذلك آحاد مختلفون فيما بينهم ، لا ينتهون إلى وطن واحد أو قوم بخصوصه فينسبهم الناسبون إلى حضارة لحد أو لدم .

والأتراك هم الآخرون يفتقرون إلى ألف باء الكتابة ، فهم يكتبون بالحروف العربية ثم اللاتينية من بعد ، فكيف تستقيم لهم حضارة ، فيقال حضارة الترك أو المماليك ؟

وهم أنفسهم قد لبسوا « طوراً يتهمهم » وسموا بالعثمانيين وهم الفالبيون يومذاك على أمرهم في الإسلام ، شأنهم في ذلك شأن التتار ، غلبوا على دار الإسلام وغلبهم الإسلام في ميدان الحضارة والعقيدة جميعاً .

(٣٥) ج ١ ص ٩٥ من الشوقيات .

(٣٦) ج ١ ص ٤٢ من الشوقيات .

(٣٧) ج ١ ص ٩٥ من الشوقيات .

(٣٨) ج ١ ص ١٧٠ من الشوقيات .

(٣٩) ج ٢ ص ٢٢٨ من الشوقيات .

(٤٠) ج ١ ص ١٦٥ من الشوقيات .

(٤١) تاريخ النكر لعمري ج ٢ ص ٢٠٥ .

وموقعة أبى غير البحرية شاهد على ذلك بما كتبه « نكسون » في يومياته أو مذكراته (٤٣) باسمهم بينهم شديد ، وهم - بعد - جميع على الدولة العثمانية على سنة التحدى الحضارى في عرف آرنولد توينبى ، ويرجع توينبى يواد هذا التحدى الى ارتداد العثمانيين عن ليبيا في القرن السابع عشر ، وقد بلغ اقصاه حوالى مطلع هذا القرن العشرين ، وقد أدرك شوقي هذا القصد المبين من قبل ان يقول به توينبى لكتب قصيدة في مسجد ايا صوفيا تفضح هذا الصدا الكامن أو العقد الذى لا هوادة فيه :

لن يتسرك السروم عباداتهم
أو ينزل التترك عن السؤدد

ويريد الشاعر بعبادتهم مواطن العبادة وأماكنها من باب حذف المضاف ، ويريد بهذه المواطن أو الأماكن حامة البلاد التى جلب عليها الترك ، ونزعوا منها الحضارة الرومانية ليقيموا مكانها حضارة الاسلام والمسلمين :

فما لشار ينينا بسده
أقام لم يقرب ولم يبعد

باق كثار القدس من قبله
لا تنتهى منه ولا يبتدى

فلا يفرتك سكون الملا
قالشر حول الصارم الغمد

لن يتسرك الروم عباداتهم
أو ينزل التترك عن السؤدد

والرومان لا يختلفون موقفا عن التتار والأتراك ، انتصروا على اليونان بالسيف ، وانتصر عليهم اليونان في الحضارة وشئون الفكر ، والرومان أحق أن تكون لهم حضارة يرأسها من التتار والأتراك ، ولكنها دائما وأبدا مرجوعة الى الحضارة اليونانية .

لم يكن شوقي - إذن - من رأى استاذنا الدكتور لويس عوض ، ولا كان الجبرتي منه على التحقيق ، فالاسلام ولاء جامع يتجاوز بالمسلم ما عداه من ولاء الدم والأقليم ، فالحضارة الإسلامية علم على الميراث المشترك بين الأمم الإسلامية على اختلافها في اللون والجنس واللغة والأقليم ، يقول الشيخ محمد عبه : « هذا ما أرسدنا اليه سمر المسلمين من يوم نشأة دينهم الى الآن ، لا يمتدون برابطة الشعوب وعصبيات الاجناس ، وانما ينظرون الى جامعة الدين .

لهذا نرى العربى لا ينفر من سلطة التترى ، والفارسى يقبل سيادة العربى ، والهندي يلحن لسيادة الأفغانى ، ولا اشترئوا عند أحد منهم ولا انتباه ، وإن المسلم فى تبدل حكوماته ، ولا يأنف ولا يستنكر ما يعرض عليه من أشكاليها وانتقالها من قبيل الى قبيل ، ما دام صاحب الحكم حافظا لشأن الشريعة ذاهبا مذهبها » (٤٤) .

والغرب فوق هذا وذلك الب على العثمانيين متربص بشعوب الخلافة الإسلامية وكلهم شاخص الى هذا « الرجل المريض » يحتاجون دونه ، اسدقاؤه والأعداء لا إبقاء عليه وأنما اغتناما للظروف المؤامية التى تكثر فيها الضئمة ويقل فيها احتمال الحرب والخلاف ، فعملهم والدولة العثمانية كمثل قول الشاعر :

يفرقهم بفتنن وبجهمهم حقد

هذا لهم بيت على بيتهم

ما أضيف المسجد بالمسجد

فان يعادوا في مفاتيحه

فيا ليوم للورى اسنود

ولا اظن وراء ذلك تصويرا لامر الشرق وقد احيط به ، وها نحن اولاء لا نزال ياخذنا الشر صريحا وغير صريح ، والقوم لا يجهزون على عدو ، وانما يتكوه بين بين ، والبين بين دائما في حيص بيص ، فهو متوجس ابدا ، لا هو المنتصر فيفرح بالنصر ولا الالبم الهزيمة ليباس من النصر ، والباس احدي الراحتين .

فالشر حول الصارم المضم

اقام لم يقرب ولم يبعد

لا تنتهى منه ولا يتدى

والامر مناط يرمالك يحاضر مضعوف ، والأوروبيون ومن لف لفهم من العرب والمسلمين يحملون اوضاع كل ذلك على الاسلام وخلافة المسلمين ، لا يعنيهم ما يمتينا من مجد الماضي وعظمة التاريخ ، فالتاريخ تاريخ ، له ما مضى وعليه ما انقضى كما قيل يرمالك ، وانما العبرة بالحاظر فهم ياخذون الاسلام والمسلمين بما يزخر به الواقع من الظلم ومظاهر التخلف والجمود .

فكان على شوقي ان يغتبط خبطة ولفاعة وعبد الله باشا فكرى وعلى باشا مبارك والششيخ محمد عبده ، فيعارب في جبهات ثلاث صنيع طه حسين والفتاد ، فيصد منا الفوز الفكرى وينقض بهم القرب ، ويعمل على التهام الوروث ومقاهير التخلف والجمود ، وهو من وراء ذلك شاخص ابدا الى ماضي الحضارة الاسلامية يكاثر بها ، ويستحى بالناس قيمها ، يحفزهم على الاستمسك باصرتها ، والخلافة الاسلامية - بعد - حضارة متصلة في تاريخ المسلمين :

حسب انى طول الليالى دونه

نظمت صفوف المسلمين وخطوهم

جمعت على البر الحضور

لم يكن شوقى - يغافل - اذن - من سوء العصر ولا من تخلف المسلمين ، لكنه لم يكفر قط بحضارة الاسلام ولا بقدرة المسلمين على القوة والنهوض :

شعوبك في شرق البلاد وغربها

كاصحاب كف في عميق سبات

بايمانهم نوران ذكر وسنة

فما بالهم في حالك الظلمات

وذلك ماضى مجدهم وفخارهم

فما ضرهم لو يلمسون الاذى

والفارق بين شوقى وهؤلاء الناقمين كما اسلفنا هو الفارق بين الثورة بالظلم ومقابليل التخلف وبين الثورة بمامة الخلافة ونظم الاسلام والمسلمين ، او هو الفارق بين ثورة الشفيق باهله المؤمن بجدهوى حضارته، لمدمحه تحريض على الفضل وسخطه متاب على المثالب والميوب ، واصول الحضارة الاسلامية - آخر الامر - هي محك الرضى ومعيار السخط والعتاب .

علم القيم او المدنية الفاضلة عند شوقي :

هناك منهج في البحث ذو شقين سلكه « كولتجوود » في تعريف الفن وماهيته، الشق الاول منه : تحليل الفن من المدخل عليه ، وردة على قائله ، وهذا ما كان منا في امر شوقى .

على سنة هيپوليت تين أو الماركسيين، فشوقي يؤمن مع «كارلايل» أن التاريخ عربية يجربها الجهاد من الرجال كما يقولون، ولم يخطر له - قط - أن التاريخ يعض بالناس حيث يشاء على سنة هيچل في السعى إلى المطلق من الأفكار، ولا على سنة الماركسيين في الصراع الناشب - حتماً - بين الطبقات.

وكل هؤلاء المذاهب التاريخية يسلب الإنسان عظمتها في معترك الحياة، ويسخر من جدواه في سر الأحداث، ولا يثبتون له بعض شأنه إلا بالتمحل والتخريج في «الجدلية» أو فلسفة الصراع عند الماركسيين.

وشوقي يرى بالإنسان أن يكون ريشة في مهب التاريخ، تضي الأحداث إلى غاياتها، وهو بعد مسلوب الإرادة لا قدم له يقصده، ولا غاية يتفياها من عزم وتدبير.

والناقون على شوقي لا يصبرون على هذا المنهج في جدوى الفضائل وآحاد الناس في الإصلاح وسير التاريخ، لأنهم غارقون في المذاهب التاريخية، وفلسفتها في التحويل على الظروف والملازمات، وجاءت المادة الجدلية ومذاهبها في الحتمية أو الجبر التاريخي، فوقفت للناس بالجهد البشري أو الفضائل وخصال الأفراد عند حسب الخير و«الطوباوية» التي محمد أصحابها، ثم لا طائل من وراءها في إصلاح المجتمع وشئون الناس، لأن الموعول عندها في النظم وفلسفة المجتمع، لا في الخلق وخصال الناس، فالتناس تفسد بفساد المجتمع وتصلح بصلاحه، والإصلاح مقصور على المجتمع اللاتطبيقي الذي يزعمون أنهم بالغوه هذا أو بعد غد فتحسن الخصال، وتفضل أخلاق الناس دون جهد يبذل، أو تدبير مقصود.

أما المجتمع البرجوازي القائم فأسل الشر وجريمة الفساد، والغلاص منه أو الثورة به خلاص من الشرور والآلام.

وهذا القول يستقط من آحاد الناس مؤونة الجهد في تهذيب النفس، والاضطلاع بسبب الفضل ومسئولية الخلق أو خصال الاستعلاء.

وهذا التعريف «بالسلب» كما يسمونه تكن جدواه في تقريب الأذهان من غاية الصواب، لأنه يبيح في طريقها الأخطاء الشائعة، أو أذى الخلط وأفة الإدماء.

وإذا خلصت الأذهان من رائف القول، وتبهايت للحق، ونشطت لاستقبال الصواب، جادها الشق الثاني، أو التعريف بالإيجاب، ليقيم على إبطال الخطأ صرح العالم الإنساني أو الرؤية الأخلاقية، أو الشخصية الأدبية، أو الإبعاد الحفسارية لفكر الرجل، وهامة مشاعره ووجدانه.

فشوقي لا تقف عبريته عند دفع التهم، وإنما هو عالم من القيم أو الحضارة مستتم الاطراف، أن يجد فيه منفذا مشروعا لما ادعوه عليه من البهتان:

يقولون يرى الراحلين فويهمهم
أملت عند الراحلين الجوازي

أبوا حسداً أن أجعل الحي أسوة
لهم، ومثالا قد يصادف حاذيا

فلما رليت الميت أقضى حقوقه
وجلدت حسوده للرسات وشاتيا

فالرجل في مدحه، وفي رثائه، وفي عامة شعره شاخص أبنا إلى القيم الإنسانية العليا، يشتغلها من وقائع حياة العلماء وأحداث التاريخ، يستوى في ذلك الأحياء منهم والأموات، والقصريون وغير المصريين، والنصارى والمسلمون، فيكتب عن موسى وعيسى ومحمد، وعن بغداد وروما وباريس والاستانة وليبيا وبيروت ودمشق، وعن صلاح الدين ونابليون، وعن حافظ والمنظومي وشكسبير وتولستوى وهوجو، وعن مصطفى كامل وبطرس غالي، وعن المختار وأدهم باشا وسعد زغلول.

ذلك بأنه آمن أن الناس هم الأحداث، وهم صنع التاريخ، ولم يفهم قط أن الأحداث والتاريخ هما الثالبان على أمرهما في التطور بالناس إلى ما يريده أنصار الحتمية التاريخية

ولا كذلك شوقي :

والنفس من خيرها في خير هافية ...

فانما الأمم الأخلاق ما بقيت ...

على الأخلاق خطوا الملك وابنوا ...

صلاح أمرك للأخلاق مرجعه ...

وما السلاح لقوم كل عدتهم

حتى يكونوا من الأخلاق في أهب

وأذا ما أصاب ببيان لوم

وهى خلق فانه وهى أس

فالأخلاق عند شوقي عليها مدار التقدم في حياة الأفراد كما في حياة الأمم والجماعات ، فالأمم عنده قوامها الفرد وآحاد الناس ، تصلح بصلاحهم وتفسد بفسادهم ، وهو قول لا يسقط من الحقيقة ، وإن سقط في موازين الماركسية ، اللهم إلا إذا قالوا بالجلل بين الفرد والجماعة ، وهو جليل ينظرون فيه آخر الأمر إلى جهد الفرد في الثورة أو دفع مجلة التاريخ إلى المجتمع الفاضل الذي يتعدى فيه التمايز والطبقات .

والإنسان مهما طال بهم الجدل ، وتعلقوه بصفات البطولة هو - عندهم آخر الأمر - وسيلة لا غاية ، والأمر عند شوقي على الضد والخلاف ، لأن شوقي يكابر بالإنسان وجدواه في الفضل ، وجدوى الفضل والأخلاق في الحضارة ومدارج الرقي .

وهذا هو مفتاح الرجل ، أو مفتاح فكره وجدانه ، أو هذا هو مفتاح العالم الأدبي أو الصرح الحضاري ، أو ما شابه ذلك من المصطلحات التي تفضي إلى « الرؤية » الأدبية بلغة العصر .

وقد أصاب الذين وصفوا شوقي بأنه شاعر

الأخلاق ، إلا أن هذا الاصطلاح لا يوفيه حقه بحال ، لأن الاخلاق اختلطت في الأذهان بالاصطلاح المدرسي الذي يقف بها عند القواعد المقررة في العرف أو ضوابط السلوك ، وما يؤيده بالأخلاق عند شوقي أمر وراء ذلك بكثير ، فالصابرة لا ينشدون الكمال القائم في أذهان الناس بضوابطه وحدوده ، وإنما ينشدون « نوافل الكمال » حيث الفضل وخصال سمو والعظمة .

ولو اقتصر أمر شوقي على هذه الاخلاق التي يتوهمها الناس لما استحق هذا المجد والخلود ، لأن مقبرته لا تعدو - متدلل - نظم ما ينبغي أن يكون ، على سنة أبي العتاهية

أو صالح بن عبد القدوس .

وفرق شاعر بين نظم الأخلاق ، وشعر الأخلاق ، فشعر الأخلاق شاخص أبدا إلى ما وراء الكمال من مظنة النفس ، وسمو الشاعر والوجدان :

والنفس أن كبرت رقت لحاسدها

واستغفرت كرما منها لثانيها (٤٤)

فأرادوا لينظروا دمع فرعون وفرعون دمه العنقاء (٤٥)

متدرع صبر الكرام على الأذى

أن الكرام مشاغل السفهاء (٤٦)

وأرانا التاريخ فرعون يمشى

ولم يحل دون شره كبرياء (٤٧)

أتما يقرر الكرام كريم

(٤٨)

(٤٤) ج ١ ص ٢٩ .

(٤٥) ج ١ ص ٢٢ .

(٤٦) ج ٢ ص ٦ .

(٤٧) ج ١ ص ٢٥ .

(٤٨) ج ١ ص ١٨٨ .

جوانب غير مطروقة في شعر شوقي

بين واقع التصرف وأصطراع الناس في
السلوك ، وبين التأمل وآداب السلوك أو النزعة
الإنسانية التي تتسم بها حكمة شوقي ، فالتنبيس
في أقرب أبياته من الكمال ونوافله لا يعدو أن
يقول :

ترفق أيها المولى عليهما
فإن الرفق بالجناس متطلب

فلا يجعل الترفق بهم خالفا لوجه « البر
والإحسان » وإنما يجعله عتابا أو مقابا أن
شئت . »

ج - ألا أن فريقا من نقاد شوقي لا صبر
لهم على إطلاق القول ، ويضيقون بالمعوم الذي
لا اختيار فيه ولا مفاضلة ، لأن الاختيار
والمفاضلة يقتضيان التخصيص المنبني على الشاعر
وخاصة مذهبه في الأمور ، وذلك أدل على
موقف الرجل ، وعلى شخصه أو عامة فكرة
وجدانه .

ونسوق إلى هؤلاء موقف الرجل من موسى

كان شوقي كما يزعمون لا تصرف منه ، وهو غير
مضطر إليه ، ولكنها ببقية الرجل ونفاذه في
الصعب ، وشخصيته القادرة على المشكل من
الأمور :

ظن فرعون أن موسى له ولف
وعند الكرام يرجى الجراء
لم يكن في حساباته يوم دعى
أن سيأتي غد الجراء الجراء
لقضى الله أن يصق ولله نفي
لا لنفسه الأبيسرة

ومؤدى هذا القول أن المبادئ العليا تعصف
بالمبادئ الدنيا ، لأنها أقوى وأصلح للشرية على
سنة « الانتخاب الطبيعي » ، أو البقاء للأصلح
هند دارون وعامة التطورين :

ويشكك فيه فلا يكلف نفسه
غير الترفع والوقار نصلا (٢٩)
أفصيت فمنا يعرض أن الم به
وقد يروق العمى للحر والصمم (٥٠)
وإذا ملكك النفس فمت ببرها
ولو أن ما ملكك يدلك الشاء (٥١)
وإذا بنيت فخير نوح عشرة
وإذا ابتليت فدونك الأبياء (٥٢)
قوم وقار الدين في أخلاقهم

وقد نستطيع أن نجعم هذه العظمة أو
الفصل في المصطلحات الإسلامية التي جرى
بها التواتر أو جاء بها القرآن ، وفصلتها السنة
في كثير من الحديث ، ولعل « البر » أو
« الإحسان » أحقها بهذه المعاني ، أو تلك
الغايات ، « أن الله يامر بالعدل والإحسان » .

« نبي البر بينة طريقا »

« والبر منك لمة وفريضة »

وقد يزعم الزاعمون - وهم مغفلون - أن
هذه المعاني ممتدة في الأدب العربي ، والتنبيس
سبق إليها في حكمه ومأثوراته ، وأصح من هذا
الزعم أنها ممتدة في الأدب الإسلامية ، أو
حضارة المسلمين - وشوقي بلا شك هو الجانب
الإنساني من هذه الحضارة ، وأمنى به جانب
« الإحسان » أو ما قلنا من مصطلح « نوافل
الكمال » ، فالسبحة جراء السبحة كمال ولا شك ،
وأما المعنى ففوق الكمال أو هو كمال آخر
لا يفي بمعناه إلا مصطلح « الإحسان » .

« أن الأدب صامع ومداري »

خلقت كائنات هيدي حورام
على قلبى الضغينة والشامت

وهذا هو الفارق بين التنبيس وشوقي أو
الفارق بين الكمال ونوافل الكمال ، أو الفارق

(٢٩) ج ١ ص ٢١٢ .

(٥٠) ج ١ ص ٢١٢ .

(٥١) ج ١ ص ٢٦٠ .

(٥٢) ج ٢ ص ٨٤ .

العبادة بالصلاة المكتوبة ، ثم تأتى النوافل لا يزال الصمد يتقرب بها الى الله حتى يصبح يده التى يبطش بها ، وعينه التى يبصر بها ، وتلك رتبة عالية في عرف المتصوفة والمتصوفين

وكلا الامرين داخل في رتبة الفضائل أو نوافل الكمال ، لان الاحسان في مضمار الخلق والسلوك كالنصوف في العبادة ليس أحدهما فرسا مفروضا على الناس ، فالفضائل فيها معنى الزيادة لغة واضطلاحا ، والزيادة لا يشق الشارع على الناس بالتكليف بها ، وإنما تؤتى تطوعا واختيارا ، « فمن تطوع خيرا فهو خير له » .

فهى لا تستمد سندها من التشريع أو القانون ، وإنما تستمد من ربتها في السمو ، لانها غاية في ذاتها يسعى اليها أهلها ، ويستمسك بها الفضلاء من الناس ، وتلك هي رتبة الاخلاق بلا الزام كما يقول « جويو » والتي آمنت بها الحضارة الاوربية ، وتبشر بها الشيوعية اذا بلغ الناس المجتمع اللاتقي في تقديرهم ، فلا حكومة ايان ذاك ولا سلطان ، وإنما هي الفضائل التي يتكفلها الناس تكلفا في المجتمع البرجوازي أو الرأسمالي تصبح خلقا متاحا لكل أحد .

ولا كذلك الحال عند شوقي ، فالحياة هي الحياة ، مضت عليها آلاف السنين ، وهى بها لها :

أناس كما تدرى ودينها بحالها
وشصم رخي تارة وهسي

واحوال خلق شابر متجدد
تشابه فيه أول وأخير

الحال باقية كما صورتها
من عهد آدم ما بها تغير

وذلك بأن شوقي يؤمن بالدنيا دار ابتلاء واختيار ، وهو رأى الاسلام ، ولا معنى للابتلاء والاختيار اذا استقامت الحياة بالناس ، وجرت الطائع فيها على ستر الفضائل ولا غير ، فتلك رتبة « الجنان » الله ينزع الله منها سخائم النفوس فتتزع النفوس الى الكمال « ونزعنا ما في صدورهم من غل اخوانا » .

فما على المرء في الاخلاق من حرج
اذا رعى صلة في الله أو رحما

وليس وراء ذلك اصرار على ما قلنا من نوافل الكمال أو معاني البر والاحسان ، ورحم الله على ابن أبي طالب حين رقى لاحد الخارجين عليه في وقعة الجمل وقال : « قتله بره بوالديه »

ونستمت أطراف هذا العالم الادبي أو هذه الرؤية الفنية لتنعط آخر من انماط الكمال ونوافله أو انماط الجمال الفني في معناه ومبناه جميعا :

وردنك كوررا وسفرون حورا
وهل بالصور ان أسفرون بأمر

فقل للجانهين السى حجاب
اتحجب من صنيع الله نفس

اذا لم يستر الادب الفوانيس
فلا يغنى الحرير ولا التمسك

تأمل هل ترى الا جلالا
تحس النفس منه ما يحس

كان الضود « مریم » في سلور
وراليها حواري وقسس

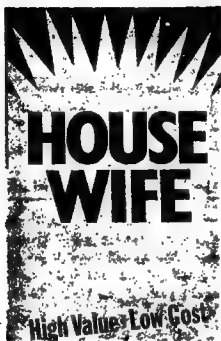
تهبها الرجال فلا ضمير
يسم بها ولا هيئ تحس

وليس وراء ذلك قداسة أو جلال يجعلك على السمو والاحتشام ، ولا يعمله مندى الا قوله في آكار القرائنة ، وروعة انس الوجود :

فاخفض الطرف واخلع النعل واخضع
لا تحاول من آية الدهر فضا

فانت هنا كما أنت هناك في حفرة الجمال
والجلال ، هذا عبقرية الفن والانسان ، وذاك عبقرية الطبيعة والحياة .

هذا قل من كثر ، أو قليل من كثير نخلص منه الى أن الاخلاق عند شوقي هي القيم الإنسانية الكبرى التي اريد بها « الاحسان » في حضارة الاسلام والمسلمين ، وهي أمر وراء القواعد والقوانين ، أو وراء الحدود والتشريع كالنصوف سواء بسواء ، فانت تستوفي أمر



ربة البيت

آن أوكللي *

عرض وتحليل المكتوبة عليه حسن حسين

الضوء على السمات والملامح التي تميز ربة البيت .

وتهتم الكتابة بتتبع دور المرأة عبر الزمن معتمدة في ذلك على تحليل نتائج البحوث التي أجرتها بنفسها لعدد من الحالات التي قامت بدراستها ، وكان الطابع الأثنوي غالباً على ذلك التحليل . وقد عارضت القيم التقليدية

بهتم هذا الكتاب بإبراز الخصائص المميزة لدور «ربة البيت» في المجتمع الصناعي الحديث .

ويدور المضمون الأساسي للكتاب حول نظرة المجتمع للمرأة بوصفها ربة بيت لا بوصفها زوجة أو أما . ويهدف الكتاب إلى بيان دور ربة البيت ، وتطور هذا المفهوم ، كما يلتقي

Ann Oakley, House wife, Allen Lane, London, 1974

(*)

(*) آن أوكللي ، باحثة في كلية يدفورد بلندن ، ولدت في لندن عام ١٩٤٤ وتلقّت تعليمها في كلية سومرفيل بكامبريدج، وحصلت على درجة الدكتوراه من جامعة لندن من موضوع «الاجتهاد للمرأة نحو العمل المنزلي» ، وفي عام ١٩٧٢ أصدرت كتاباً بعنوان : «الجنس والدكتوراة والآثورة» ، والجمع Sex, Gender and Society . وفي عام ١٩٧٤ أصدرت كتاب «ربة البيت» الذي تتناوله بالعربي والتحليل والنقد المكتوبة عليه حسن ، كما أصدرت آن أوكللي في نفس العام كتاب «سوسيولوجيا العمل المنزلي» الذي تقدم له أيضاً «الدكتوراة سانية حسن الساعاتي عرضاً تحليلياً وتعليقاً نقدياً له . (التحرير)

الظروف المناسبة لهم يمكنهم من القيام بأدوارهم الاقتصادية المنتجة وأن لم يتم بدور مباشر في عملية الإنتاج .

الثاني : كما أن قيامها بدور المستهلك الرئيسى في الأسرة يؤكد كذلك ارتباط هذا الدور بالحياة الاقتصادية . فعملية الشراء من السوق ، أحد أنشطتها الرئيسية ، تريد من حجم المبيعات فتتسبب عملية التسويق مما يؤدي إلى دفع عجلة الإنتاج بأطراد .

الثالث : أن عمل المرأة كربة بيت لا يدخل ضمن مفهوم العمل الحديث ، فهي تؤدي العمل المنزلي الخاص بالأسرة والمتعلق بتدبير الحياة المالية الخاصة . وهذا العمل لا يعد من الأعمال أو الخدمات العامة التي يتحتم أن تتقاضى عليها أجرا معينا ، كما أنها غير ملزمة بعدد من الساعات يحدد لها ، وليس هناك قانون يلزمها بهذا العمل ويفرضه عليها .

وعلى هذا يصبح عمل المرأة كربة بيت خارجا عن مفهوم العمل الحديث الذي يؤدي نظير الكسب المادى أو الأجر المحدد .

ولكن هل يعنى ذلك أن عمل ربة البيت يتعاقد بصورته هذه عن الحياة الاقتصادية وينقص منها أنقصا تاما ؟

إن طبيعة هذا العمل والصورة التي يتم عليها والحدود التي يدور في إطارها ، وأن لم تبرز ارتباطا ظاهريا ومباشرا بالحياة الاقتصادية ، إلا أنها لا تعنى الانفصال عنها . والنظرة الدقيقة المتفجرة لهذا الدور تؤكد مدى ارتباطها بالحياة الاقتصادية وبعيها في دفع حركة الإنتاج فلما مستمرا بتهيئة الظروف المستقرة للمتجعين من أعضاء الأسرة .

ثانياً : دور المرأة في مجتمع ما قبل الصناعة :

لقد اختلف دور ربة البيت في المجتمع التقليدى عنه في المجتمع الحديث ، ومنشأ هذا

التي تقصر العمل على الذكور دون الإناث ، والتي تؤكد أن دور المرأة ينحصر داخل المنزل فقط .

واتجاه الكتابة إلى الاهتمام بهذا النمط من النساء يرجع إلى قصور السوسيولوجيين في الاهتمام به ، ويتضمن الكتاب تسعة فصول تتناول الموضوعات التالية :

أولا : التصور بربية البيت وأهم ما يميزها :

إن ربة البيت هي المرأة التي تعمل في البيت ولا تتقاضى أجرا مما تقوم به من أعمال ، وإذا حاولنا تحديد التصور بهذا المصطلح من الناحية اللغوية فإنه يشير إلى كلمتين : بيت - زوجة . وهذا يعنى أن الدور الذى تقوم به ربة البيت هو دور عائلى وأثري معا ، كما يعتبر أجرا دورا خاصا داخل المنزل . ورببة البيت هي المسئولة من معظم الواجبات المنزلية ، كما تقوم أيضا بكافة الأعمال المنزلية سواء ساعدتها أحد أو لم يساعدها . . وهي بهذا المعنى ليست خادمة ، وإنما امرأة مباشر شؤون منزلها ، كما أنها سيدة البيت وزوجة رب العائلة . وقد لا تكون ربة البيت متزوجة ، فالزواج ليس شرطاً لكي تصبح ربة بيت .

ولربة البيت سمات وملامح تميزها تفرقها عنها ما شاع ويبرز في المجتمع الصناعي الحديث . فربة البيت من المسميات التي يقصد بها المرأة دون غيرها ، وتعنى هذه التسمية عدم استقلالها الاقتصادى ، ويعبر مضمونها عن الدور الأساسى الذى تضطلع به ويحدد مدلوله دائرة عملها ، ويبين مسئولتها الاجتماعية كأمراة غير عاملة . ومن الضروري ألا يفتونا ، ونحن نتحدث من ربة البيت ، أن نشير إلى علاقة دورها بالناحية الاقتصادية . فهذا الدور وإن لم يمثل نشاطا اقتصاديا منتجا بصورة مباشرة إلا أنه يرتبط به ارتباطا وثيقا ، ويتمثل هذا الارتباط في جوانب ثلاثة :

الأول : قيامها بضمة أفراد الأسرة وتهيئة

وبعد ذلك العرض الذي يكشف عن مدى الاختلاف بين مفهوم دور المرأة في المجتمع التقليدي والمجتمع الحديث نتحدث عن السمات التي تتميز بها دور ربة البيت في المجتمع الغربي خاصة في الفترة ما بين القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر .

١ - العمل : كان عمل المرأة في بريطانيا منعصرا في الزراعة والنسيج حيث كانتا الحرفتين الأساسيتين لأفراد ذلك المجتمع في تلك الفترة .

وحين عملت المرأة كمزارعة كانت تقوم بإنتاج احتياجات المجتمع من الطعام ومنتجات الألبان ، وكانت تتقاضى أجرا يقل عن أجر الرجل ، رغم أن جهدها في هذا المجال يفوق الجهد الذي يبذله الرجل . وهذا السدور يعتبر جزءا من دورها الذي كانت تنهض به داخل المنزل في المجتمع البريطاني التقليدي . ولم يكن عملها بالنسيج يختلف عن عملها في الزراعة حيث كان يتم أيضا في إطار العائلة باعتبارها وحدة العمل المنتج .

والى جانب تلك الأعمال قامت المرأة بالعمل في التجارة ، وخاصة تجارة الصوف التي لم تكن تقل أهمية عن الأعمال السابقة ، فالمرأة المتزوجة كانت تقوم بشغل ونسيج الصوف والكتان لفرضين : الأول تغطية الاحتياجات المنزلية المطلوبة من هذه السلعة . أما الفرض الثاني فهو المساهمة في زيادة دخل العائلة .

ولم يقتصر الأعمال التي قامت بها المرأة على ذلك ولكنها تجاوزتها إلى أعمال أخرى كمساحة الخبز والبيرة ، فضلا عن مساعدة زوجها في عمله وتحمل القيام بأعماله بسد وفاته ، وممارسة العمل أيضا في مجالات أخرى مثل التجارة القطامي ، وإدارة المحلات التجارية ، وكان البعض منهن يعملن بأصـة متجولات للحصول على الدخل اللازم لحياتهن .

الاختلاف إنما يرجع إلى الاهتمام بالصناعة ، واقتضى اتجاه المجتمع الحديث إلى التصنيع الاهتمام بعمليات الإنتاج على نطاق واسع غير محدود يتحقق في مؤسسات صناعية كبرى .

وهذا يعني أن العمليات الإنتاجية لم تعد تتم داخل المنزل وفي إطار العائلة كما كان يحدث في المجتمع التقليدي ، فالعائلة في المجتمع التقليدي كانت تمثل وحدة الإنتاج ، وكان العمل وبناء العائلة يمثلان جوارين من كل نقاني متكامل ، فالعمل إذن لم يكن منفصلا عن حياة العائلة ، ولم يكن هناك تقسيم واضح للعمل بين الجنسين داخل محيط الأسرة ، ولكن لكل يعمل من أجل استمرارها ووجودها . ورغم أن مبدأ تقسيم العمل بين الجنسين ، تبعا لطبيعة كل جنس كان معروفا ، إلا أن الأدوار في المجتمعات التقليدية كانت محددة بالنظر إلى المنزلة الاجتماعية لكل جنس من الجنسين . ولم يكن ذلك أبدا المعروف يمارس حتى في المجتمعات التي مرفته على أساس قاعدة ثابتة تحدد عملا للمرأة وعملا للرجل . فإلى بناء الاقتصادي والاجتماعي للمجتمعات التقليدية لم يكن يتبع وجود مثل هذا التمييز الدقيق في تقسيم العمل .

وان أدراكنا لمفهوم الدور الذي كانت تنهض به ربة البيت في المجتمعات التقليدية يوضح مدى التلاحم بين الحياة العائلية والحياة العملية الإنتاجية ، ويؤكد أنهما يمثلان معاً كلا متكاملًا .

وهذه صورة مخالفة للصورة المسائدة في المجتمع الصناعي الذي كان التمييز فيه بين الحياة العائلية والحياة العملية واضحا بينا .

فالتنمية الاقتصادية التي حدثت على مستوى العالم كان لها أثر واضح في تمييز أدوار العائلة وتحديد العلاقة بين العائلة والنسق الاقتصادي مما أسفر عنه التمييز الواضح بين الحياة العائلية والحياة العملية الإنتاجية .

وقد تبين أن هناك أسماءاً لنساء متزوجات مقيدات بسجلات التبادل التجاري ، وقامت الزوجة بإدارة أعمال زوجها كوكيلة لأعماله ، فضلاً عن الدفاع عن العائلة والمحافظة على الممتلكات في حالة غياب الزوج .

وكانت التقاليد النقابية في هذا المجتمع تبيع انتقال تجارة الزوج وامتيازاته إلى الزوجة بعد وفاته .

وبعد أن ادركنا الدور الذي كانت تنهض به المرأة في المجتمع البريطاني التقليدي يتأكد لنا أن المرأة كانت تقوم بدور العامل المنتج داخل المنزل وخارجه ، ولم يكن هناك ثمة تمييز في قوانين العمل بين الجنسين ، ولم تمنع المرأة من ممارسة أي عمل لكونها امرأة . وليس من بين ذلك كله ما يشير إلى التفرقة بين العمل المنزلي والعمل الانتاجي والنظر إليهما كمهنتين منفصلتين .

فهما يمثلان كلا متكاملًا ، ويكمل كل منهما الآخر . وهذه صورة مخالفة لما حدث بعد التفريعات الاقتصادية التي نجمت عن الثورة الصناعية . فقد طرأت تغيرات واسعة لمفهوم الدور الذي تنهض به المرأة ولطبيعة عملها كمرکز للحياة العائلية .

ثالثاً - المرأة والتصنيع :

أن دور ربة البيت في المجتمع الحديث يختلف من الصورة التي كان عليها في المجتمع التقليدي ، فاجتهد المجتمع الحديث إلى التصنيع والاهتمام بالصناعة اقتضى تغييراً واضحاً في مفهوم هذا الدور ، ولم يقتصر الأمر على تطور مفهوم دور ربة البيت بل تعداه إلى دور الرجل .

وهذا التحول أو التغير يتضح في انفصال العمل الانتاجي عن الحياة العائلية وقد أدى ذلك إلى أن أصبح دور ربة البيت محصوراً في النهوض بالأعمال المنزلية التي تفرغتها

ب - كان النمط السائد هو العائلة الممتدة ، وكان الزواج يتم من طريقها ولم يكن الزواج يعنى المرأة من الأعباء الاقتصادية ، فهي لا تعتمد على الزوج اقتصادياً بل تعتمد على دخلها من العمل الذي تمارسه في الزراعة والنسيج والتجارة ، وكانت تتحمل كذلك مسئولية الإنفاق على أطفالها ، ويساهم الزوج في ذلك أن كان دخله كافياً . فالمرأة في هذه الفترة كانت تعرض على التوفيق بين استمرار الحياة العائلية ورعاية الأطفال ، أما فيما يتعلق بالشؤون المنزلية فإنها كانت مسئولة مشتركة بين الزوجين .

ومن هنا نلمس مدى الاختلاف بين دور ربة البيت في القرن السابع عشر ودورها في القرن العشرين .

ومما يجدر الإشارة إليه في هذا المجال أنه رغم اعتراف القانون العام بشفوع المرأة للرجل في المجتمع الإنجليزي إلا أن ذلك لم يؤثر على العلاقات الاجتماعية ، حيث كان انبلاء وحدهم الخاضعون لهذا القانون العام ، في حين كانت الماديات والتقاليد تحكم العلاقات القائمة بين الأراعيين والحرفيين ، مما يؤكد مساواة المرأة بالرجل واستقلالها الاقتصادي عنه .

ج - المنزل الاجتماعية للمرأة في المجتمع

الإنجليزي التقليدي :

أن استقلال المرأة الاقتصادي في المجتمع الإنجليزي التقليدي خلال القرن السابع عشر قد اتخذ أشكالاً مختلفة :

فالمرأة التي تعمل بالتجارة وكانت تحصل على كافة الحقوق وتنهض بشئى المسئوليات التي كانت الرجل الذي يعمل بنفس الظروف ، ولها أن تلجأ إلى القانون في جميع الحالات للحصول على حقوقها ، ولها أن تشارك مشاركة تامة في أعمال الزوج وشؤونها .

والمرحلة الثانية وهي ما بين عام ١٨٤١ حتى عام ١٩١٢ .

والمرحلة الثالثة تمثل الفترة ما بين عام ١٩١٢ حتى عام ١٩٥٠ .

أما المرحلة الأولى : ١٧٥٠ - ١٨٤١

فهى تتميز بظهور المصنع وحلوله محل العائلة كمكان للإنتاج ، وعلى الرغم من ذلك لم تتخل المرأة من ممارسة الأعمال الإنتاجية التى كانت تنهض بها فى المجتمع التقليدى ، ولم يكن للصناعة أثر فى تغيير الأعمال الإنتاجية التى كانت تقوم بها من قبل ، وإنما ظهر أثرها واضحا فى زيادة الإنتاج وما تبع ذلك من زيادة فى حجم العمل وعدد ساعاته . فقد زاد إنتاج النسيج المنزلى بزيادة حجم العمل الإنتاجى الذى تقوم به ربة البيت رغم إمكانية هذه الصناعة . ولم يكن ذلك فى إنتاج النسيج فقط بل تمداه إلى إنتاج القطن .

وفى عام ١٧٨٠ التحق بمصانع إنتاج القطن كثير من عمال اليومية والتحق معهم المرأة وصاحب ذلك انخفاض فى الأجور . ولا يعنى انخفاق المرأة للعمل بمصانع إنتاج القطن الاستمرار فى مثل هذه الأعمال إذ امتنزلت الكثيرات من المتزوجات العمل فى المصنع فى أوائل القرن التاسع عشر .

فالزوجة الأم واجهتها مشكلة رعاية أطفالها أثناء انشغالها بالعمل فى المصنع ، مما أدى إلى اعتزالها ، وكان ذلك سببا فى انخفاض نسبة النساء العاملات فى هذا القرن أى القرن التاسع عشر .

أما النساء المتزوجات وليس لديهن أطفال فقد استمر عملهن فى المصنع وكان ذلك مساهمة للاعتقاد السائد من أن المرأة يجب أن تعمل وتعمل نفسها ، فكان استمرارها محاولة منها للاعتماد على نفسها ، ولذا كان للعمل فى

الحياة المالية دون الانخراط فى الأعمال الإنتاجية التى تتم خارج المنزل ، والتى تكون مقابل أجر نقدي ، فلم تعد المرأة تشارك فى عمل إنتاجى من أجل العمل ذاته أو من أجل الاستهلاك .

أما بالنسبة لدور الرجل فالمجتمع الحديث أفسح له العديد من المجالات ، فالتست دائرة عمل الرجل ومجالاته وأنشطته وعلاقاته فى حين ضاقت دائرة عمل المرأة واتجهت نشاطاتها إلى المنزل أكثر من أى مجال آخر .

وكان هذا التحول فى دور الرجل ملأما لذلك التطور الذى حدث فى المجتمع الحديث ، الذى كان اتجاهه إلى التصنيع سببا فى انفصال العمل الإنتاجى من الحياة المالية والانتقال بالعمل الإنتاجى بعيدا من المنزل إلى مؤسسات صناعية كبرى يؤدى فيها العمل نظير أجر نقدي .

والمجتمع الصناعى الذى يهتم بالمشروعات الاقتصادية والمشروعات الصناعية الحديثة يتميز بوجود هيئات متخصصة تقوم بالأنشطة الاقتصادية تختص أمامها العائلة كوحدة اقتصادية إنتاجية .

واستبعاد العائلة من النشاط الاقتصادى لم يستلزم تغييرا فى الإنتاج لحسب ، بل أنه استلزم أيضا تغييرا للأدوار داخل العائلة ، فربة البيت أصبحت غير عاملة وعليه فهى تعتمد اقتصاديا على الرجل الذى اختص بالعمل المنتج يتقاضى عنه أجرا نقديا ويتحمل العبء الاقتصادى للعائلة .

ويمكن تسميم المراحل التى مر بها دور المرأة منذ بداية مرحلة التصنيع إلى ما يأتى :

المرحلة الأولى وهي ما بين عام ١٧٥٠ حتى عام ١٨٤١ .

المصنع دور فعال في تحسين ظروف المرأة من الطبقة العاملة بوجه خاص .

ومن هنا ندرکه ما كان للثورة الصناعية من أثر واضح على كل النساء العاملات ، وخاصة المتزوجات اللاتي ليس لديهن أولاد ، وما كان له من دور في تحسين ظروف المرأة من الطبقة العاملة .

وقد اشارت احصاءات عام ١٨٤١ في كل من إنجلترا وويلز الى الاممال الاساسية التي كانت نهضت بها المرأة ، واوضحت مجالات نشاطاتها وهي تدور حول الخدمات المنزلية وصناعة القطن ، والزراعة وحياسة الملابس وكيفية ، كما انها مارست مهنة التدريس ايضا ، هذا الى جانب الاممال الاخرى التي نهضت بها .

والخدمات المنزلية والزراعية والتدريس كلها اممال تمثل الادوار التقليدية التي اختلفت بها المرأة في المجتمع التقليدي .

اما العمل في المصنع فقد كان مفضلا حيث يستغرق وقتا اقل ، والاجر المتقاضى منه يماثل الاجر الذي يحصل عليه الرجل . ولذا كان هذا العمل من اكثر الاممال التي اجتلبت النساء اليه الخدمات المنزلية ويأتي بعدها العمل الزراعي .

اما بالنسبة لبعض الحرف والاممال الاخرى التي كانت المرأة تراولها وحدها فقد انخفضت نسبة الاممال فيها ، هذا الى جانب ما احدثه انتقال العمل من المنزل الى المصنع من مشاركة المرأة للرجل في عمله .

كما ان النمو الاقتصادي السريع في الثروة ادى الى الاتقال من فرص العمل امام المرأة في مجالات الاممال الحرة فيما عدا تجارة القطن .

ومن تلك التغيرات التي حدثت في مجالات

العمل التي طرقتها المرأة العمل في الجراحة وطب الاسنان والعيون وكان للتخصص والنمو العلمي اثره في استمرار عمل المرأة في هذه المهن وكانت البداية اكثر الناس تأثرا بتلك التغيرات التي طرات على عمل المرأة .

الرحلة الثانية : الفترة ما بين ١٨٤١ - ١٩١٤

في هذه الفترة برزت في المجتمع الإنجليزي حركات اصلاح شملت مختلف المجالات . وقد تضمنت هذه الحركة تشريعات تخص النساء العاملات وتخص الاطفال كذلك .

ففي عام ١٨٤٢ صدر أول تشريع يحدد الظروف التي تعمل فيها المرأة ويحدد كذلك مجالات العمل التي تلتحق بها ، وينص على تحديد ساعات معينة للعمل .

ولم يقف الامر عند هذا الحد ، بل ان المرأة قد حصلت على امتيازات اخرى بمقتضى التشريع الذي صدر عام ١٨٩١ حيث نص على منع تشغيل النساء اثناء فترة العمل وقرر منحهن اجازة لمدة اربعة اسابيع قبل الوضع واربعة اخرى بعد الوضع .

وفي عام ١٨٩٥ صدر تشريع يقضي بمنع تشغيل النساء والاطفال ساعات عمل اضافية . ولهذه التشريعات اثر واضح في تحديد

المفهوم الحديث لدور ربة البيت ، كما ظهر اثرها في انخفاض نسبة النساء المتزوجات العاملات ، وساد الاعتقاد بان مكان المرأة البيت ، ودورها ينحصر في التزامها بالعمل المنزلي فقط ، وخاصة بعد انتقال الرجل الى العمل في المصنع وابتماده من المنزل ، الى جانب ما فرض من قيود على تشغيل النساء والاطفال .

ويضاف الى ذلك تلك المنافسة الشديدة التي واجهتها المرأة العاملة في الانتاج الصناعي من الرجال ، والتي دفعتها الى التقيد بالعمل المنزلي الذي تؤديه دون اجر يتقاضي عنه ،

عما حدث بعد الحرب العالمية الأولى حيث زادت نسبة النساء العاملات في الصناعة الى الضعف نتيجة لظروف الحرب .

وخلاصة القول ان التصنيع كان له دور في حدوث بعض التغيرات التي يمكن اجمالها فيما يلي :

— اعتماد الرجل عن الحياة الروتينية المنزلية بالانتقال للعمل في المصنع وترك العمل في المنزل .

— تحمل الرجل لأمهات المعيشة واعتماد المرأة عليه في ذلك .

— انفصال العمل المنزلي ورعاية الاطفال عن الاعمال الاخرى .

— التصنيع أدى الى تقييد ربة البيت وربطها بالمنزل ، وهذا قيد نفسي أكثر منه فسيولوجي .

وكان يمكن لربة البيت أن تترك المنزل لتتأخر عملاً تتقاضى عنه أجراً تقديراً ولكنهما مع ذلك تظل مرتبطة بدورها كربة بيت حيث انه الدور الأساسي لكل النساء على الرغم من انه قد يعوقها من توسيع دائرة نشاطها الخارجي .

رابعاً - وضع المرأة في الوقت الحاضر :

ان التمييز بين المرأة والرجل امر مالوف ويرجع هذا التمييز الى اساميين :

الاول : المرأة تهتم بشئون المنزل ، وهذا الاهتمام يحدد وضعها داخل الاسرة وخارجها .

الثاني : المرأة يوصفها ربة بيت يؤكد وجود التناقض بين القيم الثقافية الوجيهة لدورها في المجتمع .

خاصة وأن الرجل قد أصبح صاحب الدخل الاساسي في العائلة او الاسرة .

وبزيادة عدد ربوات البيوت ، ونتيجة لزيادة الدخل منذ عام ١٨٧٠ زاد الطلب على الخدم الى الحد الذي دعا الى ظهور مشكلة نقص الخدم في عام ١٩٠٠ .

وظهور هذه المشكلة يدل على مدى احتياج ربوات البيوت الى الخدم ، ويبرز ذلك التحول في دور ربة البيت الذي أصبح دوراً اشراقياً ، فربة البيت تقوم بدور المشرقة على العمل المنزلي وهو نفس دور ربة البيت العاملة في القرن العشرين ، فهي الى جانب كونها ربة بيت فهي أيضاً عاملة منتجة .

وقبل نهاية القرن التاسع عشر تحولت المرأة ربة البيت من مجال العمل في الصناعة الى مجال الخدمات حيث التحقت بالعمل في الصناعات الغذائية ومؤسسات غسل وكي الملابس ومختلف الأنشطة التي كانت تؤدي من قبل في المنزل . كما ازداد النساء اللاتي التحقن بالاموال الكتابية والصناعات الخفيفة . وقد احتلت ادارة شئون المنزل المرتبة الاولى بالنسبة للمرأة المتروكة، بينما احتلت الاعمال الأخرى المرتبة الثانية .

المرحلة الثالثة : وتمثل الفترة من ١٩١٤ -

١٩٥٠

تميز هذه الفترة بنمو الاتجاه نحو ربط دور ربة البيت بدورها كامثلة منتجة خاصة بعد الحرب العالمية الأولى . فقد ارتفعت نسبة النساء العاملات وزاد الطلب على العمل ، والتحقت المرأة بمجالات عمل جديدة في الإدارات الحكومية ، كما التحق كثير من النساء بالعمل في الهندسة الصناعية وإنتاج الأسلحة والذخيرة وقيادة السيارات ، ثم انخفضت النسبة مرة أخرى ولكن كانت العودة الى المنزل طوعية . ولم تختلف الصورة أثناء الحرب العالمية الثانية

الرجل فيها سواء أو شيئاً واحداً ، فالمرأة لها دورها الذي يختلف من دور الرجل ، والزواج لا يحقق المساواة بينهما .

والتمايز بين دور الرجل بوصفه ذكراً ودور المرأة بوصفها أنثى في الأسرة الحديثة ليس تمايزاً بسيطاً ، فالترتيب الذي تسيّر عليه الأسرة من ذكر اصطلاح الزوج سابقاً على الزوجة يوضح بناء متدرجاً ، ولا يختلف هذا الترتيب فيكون للانثى أن تسبق الذكر إلا حين يذكر الوالدان ، فيقال الأم ثم الأب وذلك لأن المرأة هي التي تقوم بتربية الأطفال ورعايتهم في الأسرة .

وقد كان للتنمية الاجتماعية في هذا القرن دور في زيادة أهمية الجنسين في الأسرة ، واهتمام المرأة بالشئون المنزلية فهو ما تختص هي به دون الرجل .

وقد أدى التصنيع الى ظهور الأسرة النووية ، تلك التي تقوم بتوفير كافة الاحتياجات المعيشية وزيادة الدخل . والتحسن في ظروف المعيشة وفي ظروف الأسرة كان له اثر في زيادة الابعاء المنزلية وظهور متطلبات جديدة ، مما زاد من أهمية العمل المنزلي .

وإذا كان للعمل المنزلي قد تآثر بظروف التصنيع فقد تآثر أيضاً دور المرأة ونسنى الزوجة الأم .

وقد ركزت التنمية على امرين أساسيين تعتمد عليهما الزوجة الأم في تربية الطفل ورعايته .

الامر الاول : ضرورة تزويد المرأة بالمعلومات اللازمة من تربية الطفل ورعايته ، فنجاح المرأة في دور الامومة يتوقف على ذلك .

والامر الثاني : وجود الأم بجانب الطفل ، حيث أن الطفل في حاجة الى استمرار وجود الأم بجانبه أكثر من حاجته الى الأب . فالأم

ولتوضيح الأساس الاول الذي يعتمد عليه في التمييز بين المرأة والرجل يمكن أن تتبع دور المرأة كراعية للشئون المنزلية داخل الأسرة وخارجها في الوقت الحاضر .

أولاً : داخل الأسرة :

حين نتحدث عن دور المرأة داخل الأسرة نعني بذلك دورها في المنزل أو البيت ولا نعني به مكان العمل .

فالمرأة في الأسرة هي التي تحمل الأطفال وترعاهم وتتولى تربيتهم ، وهي في المنزل ربة البيت .

وظيفة العائلة أو الأسرة - في مختلف المجتمعات - توجيه السلوك الشخصي ، فالشخصية لا تولد ولكنها تتكون من طريق التنشئة الاجتماعية ، والمرأة هي التي تنهض بهذه العملية ، وعلى ذلك يقع عليها عبء تكوين الشخصية الإنسانية .

وتكوين أفراد المجتمع الذي تتولاه الأسرة يشتمل على طريقتين :

الاول : تنشئة الأطفال اجتماعياً ، والثاني : صلب الشخصيات الثقافية في قوالب اجتماعية . فهي تهيم الأفراد للقيام بأدوار الزوجة ، الأم ، ربة البيت ، الزوج ، الأب .

وتكوين أفراد المجتمع لا يعد وظيفة جديدة للأسرة ولكنها أصبحت ذات أهمية كبيرة في الأسرة الحديثة ، حيث أن الأسرة الحديثة قد فقدت الكثير من الوظائف التي كانت تقوم بها العائلة في المجتمع التقليدي ، أي مجتمع ما قبل التصنيع .

إن محور بناء الأسرة الحديثة هو التمايز بين الجنسين ، فلم يعد دور المرأة ودور

التقليدى بين الرجل والمرأة ، فهذا التمييز لا يزال قائما والمرأة لا تزال ترتبط بأعمال معينة ، فهي تعمل فى مهنة التدريس وكذلك التمريض والسكرتارية والأعمال الكتابية والبيع فى المحلات والعمل فى المصنع ، هذه كلها مجالات مارست المرأة العمل فيها الى جانب نهوضها بالعمل المنزلى .

وفى انجلترا وويلز بلغت نسبة العاملات فى هذه المهن ٥٢ ٪ عام ١٩٧٠ ، وكذلك تركز عمل النساء فى هذه المهن فى كل من الولايات المتحدة والمانيا وايطاليا والنرويج والسويد .

ومع هذا الاقبال على المهن على انها اكثر ارتباطا بالرجل ، ومن التحقق بهذه المهن من النساء قد تخصص فى نواح متعلقة بالمرأة . فالمحامية تهتم بقضايا الزواج والطلاق ، وتهتم الطبيبة بأمراض النساء والولادة وطب الأطفال ، ولم يكن للتعليم وزيادة التخصص تأثير قوى على اختيار المرأة للمهن التى تعمل فيها .

وتوضح نتائج المسح القومى الذى أجرى فى بريطانيا أن نسبة ربات البيوت اللاتى لا يعملن خارج المنزل ١ - ٢ أما اللاتى لهن أطفال ويعملن فتتمثل ١ - ٣ ، وتشير تلك النتائج كذلك الى زيادة نسبة الأمهات اللاتى يخرجن للعمل عندما يبلغ أطفالهن سن ٥ سنوات وتقل النسبة كلما صغر سن الأطفال من ذلك .

ومن متابعتنا لدور المرأة كراعية للشئون المنزلية داخل الأسرة وخارجها فى الوقت الحاضر نخلص الى أن التعارض بين وضع الرجل والمرأة ليس ناجما من الدور البيولوجى الذى تقوم به المرأة فى الحمل والولادة وإنما ينتج من الدور الثقافى فى التربية .

فالأومة مثلا مثل رعاية الشئون المنزلية من الادوار التى تخصص بها المرأة وتميز بها عن الرجل . ومما يوضح ذلك

تهتم بتربية الأطفال ورعايتهم ، والأب يقوم بتوفير وسائل المعيشة لهم .

ومن كل ما سبق نرى أن الأسرة كنظام اجتماعى يميز بين دور الجنسين ، والمرأة فى الأسرة الحديثة التى تتألف من رجل وامرأة تكون فى المحل الاول زوجة وأم لطفل تقع عليهما كل الابعاء المنزلية ، مهما كانت الأعمال التى تقوم بها خارج المنزل مهندسة كانت أم طبيبة ، فالمرأة فى الأسرة خالقة المنزل ، ورعاية ومركز حياة الأسرة كلها .

ثانيا : وبعد أن أوضحنا دور المرأة كراعية للشئون المنزلية داخل الأسرة فى الوقت الحاضر نعرض للحديث عن دورها كراعية للشئون المنزلية خارج الأسرة أيضا .

ويتضح هذا الدور فى أهمية الأسرة فى توفير الحياة الاجتماعية والعاطفية لأعضائها ليكونوا أفرادا منتجين فى المجتمع الحديث .

لقد كان لانتشار التعليم والعمل خارج المنزل دور فى وضوح التمييز بين الجنسين ، والمحك فى ذلك اهتمام المرأة بالشئون المنزلية .

وبهذا ما تؤكدته الإحصاءات الخاصة بالقوى العاملة من المساواة بين الجنسين والتشابه بين الوظائف والأعمال التى يقوم بها الرجال والنساء ، إلا أن تلك المساواة وهبة ولا أساس لها فى الواقع الفعلى .

وقد ازدادت فى هذا القرن نسبة الإناث اللاتى يعملن خارج المنزل ويتضح ذلك فى بريطانيا خلال الفترة ١٩٥٠ - ١٩٦٠ . ويرجع ذلك الى قدرة المرأة المتزوجة على الجمع بين الحياة الأسرية والعمل ، وإلى أنها قادرة على أن تكون ربة بيت وعاملة ، وعلى العكس نجد نباتا فى نسبة العاملات من الزوجات الأمهات .

وهذه الزيادة فى نسبة العاملات من الإناث لا تشير الى حدوث تغيرات فى التمييز

بطريقة غير مباشرة تتمثل في رعاية المرأة التامة .

ومنذ ارتبط المفهوم التقليدي للانوثة بدور ربة البيت والزوجة والأم والمرأة تواجه صراها بين دورها في المنزل ومسؤوليتها في رعاية شئون الأسرة ودورها في المجتمع بوصفها كائنا حيا له قوى ذاتية تتيح له المساواة بغيرها دون تمييز .

ولذا فإن الصراع الذي يواجه المرأة الآن إنما هو صراع بين الأدوار المتغيرة للجنسين . والدور القائم على أساس الجنس يكون قائما على أساس بيولوجي يحدد سمات معينة للشخصية ، واستجابات سلوكية تتلاءم والشخص ذاته .

فالتاحية البيولوجية تفرض أن يكون أعضاء المجتمع ذكورا وإناثا ، والمجتمع الصناعي الحديث قد أوجد فرصا للمساواة بين الذكر والأنثى ، ولكن في نفس الوقت اختفى التمييز بين الذكور والإناث بوصفهم جميعا أعضاء في المجتمع ، ومع ذلك يعود المجتمع ليحدد لكل منهما مجالات للعمل ويخصص النساء برعاية الأطفال وتبدير شئون المنزل ، بل ورعاية الرجال أيضا .

فهذا الصراع الذي يواجه المرأة حديثا يفرض عليها أن تختار بين سلوك الانثى التقليدي وسلوك الذكر . فالرجل قد حصل على حقوق كثيرة كحق التعلم وحق التصويت ، كما أن له الحق في الحصول على وظائف معينة .

ولما كان المجتمع الذي امتزج للمرأة بحق المساواة بالرجل هو نفس المجتمع الذي أعطى للرجل النصيب الأكبر من الحقوق فإنه على الرغم من كل مناهاته المرأة من حقوق ، وخاصة حق التعلم ، فالحقيقة الهامة التي تنضج من ذلك هي أن المجتمع قد خص المرأة بدور يعتبر أكثر الأدوار أهمية ، إلا وهو

النظر إلى اهتمامات المرأة وتركيزها على اختيار المهن التي تتعلق أساسا بالشئون المنزلية والتي تربطها بالدور الانثوي . وهذه الاهتمامات من جانب المرأة يزيد الاختلافات بين الجنسين ، بل ويجعل من تلك الاهتمامات ملامح ثابتة نسبيا تختص بوضع المرأة وربما تكون من موانع تحقيق المساواة المهنية بين الجنسين .

وبعد أن انتهينا من الحديث عن الأساس الأول الذي يرجع إليه التمييز القائم بين الرجل والمرأة في المجتمع في الوقت الحاضر ننتقل إلى الحديث عن الأساس الثاني الذي يرجع إليه هذا التمييز وهو ما يتعلق بتناقض القيم الثقافية الموجهة لدور المرأة في المجتمع . وهذا التناقض يبرز من خلال الأدوار التي تقوم بها المرأة داخل وخارج المنزل . فالمرأة عضو من أعضاء المجتمع يختصها بأدوار تنفص بها . والمجتمع إذ يحدد لها الدور الانثوي التقليدي كربة بيت يحدد بذلك منزلتها الاجتماعية كزوجة وأم .

والمجتمع ، مع ذلك ، يدرك أن المرأة كائن حي له قوى ذاتية لا يختلف في ذلك عن غيره من الكائنات الإنسانية ، فلا تمة تمييز بينها وبين كل الكائنات الإنسانية في ذلك ، وهذا يحتم أن تتساوى مع غيرها في الحقوق والواجبات .

ومن هنا يظهر التناقض في تلك القيم الموجهة لدور المرأة . فالمجتمع إذ يربطها بذلك الدور الانثوي يعود فيقر لها بالمساواة مع غيرها في الحقوق والواجبات بوصفها كائنا حيا له قوى ذاتية .

ومن ذلك أن المرأة تتساوى مع غيرها في التعليم وفي القواعد القانونية الظاهرة ، وهي تحقق ذاتها على أساس مقدراتها ومواهبها هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى نرى حياتها في ارتباطها بزوجها وأطفالها وتحقق ذاتها

ان ربة البيت الحديثة تتمتع بشخصية متميزة ، وهذا التمييز انما ياتي من تعدد مجالات أنشطتها ، وكثرة الادوار التي تنهض بها .

فهي تقوم بدورها الانثوي كربة للبيت ، وزوجة وأم ، وهي في نفس الوقت تقوم بدورها كاملة تمارس مهنة معينة في اطار المجتمع الذي تعيش فيه ، ولذا كان لها كل خصائص الادوار الاخرى للعمل الا خاصة واحدة تتمثل في عدم حصولها على اجر تقدي نظير ما تقوم به من اعمال منزلية .

وفي ضوء ذلك اختلفت الآراء في تحديد وضع المرأة . يرى البعض أن الاهتمام بالثئون المنزلية ورعاية الأسرة ليس الا نوعا من العبودية والاستغلال للمرأة .

بينما يرى آخرون أن دور ربة البيت ليس الا اختيارا حرا لمهنة تعتبر مجالاً للإبداع الفردي والمهارة الخلاقة .

وهناك فريق آخر يرى أن ربة البيت انسانية مظلومة ، في حين يرى غيرهم أن ربة البيت انسانية حرة لا تخضع لروتين العمل والقيود التي تفرضها نظم العمل الصناعي .

وهكذا ندرله ماكان من اختلاف في الرأي حول وضع ربة البيت ومدى استجابتها للعمل المنزلي .

ويجدر في هذا المجال أن نعرض لآراء ربة البيت ذاتها لتتعرف على نظريتها لذلك العمل ومدى تقويمها لوضعها وتصورها للمسؤوليات التي تنهض بها ، وذلك من خلال الدراسة الميدانية التي تصل بنا الى الرأي الأصوب .

ومن واقع بعض المقابلات التي قامت بها المؤلفة ، ومن خلال المحادثات التي درستها يتبين :

الاهتمام بالأسرة ورعاية شئون المنزل ، وهذا يدل على أن التمييز بين الجنسين لا يزال قائما في مختلف المجتمعات خاصة في مجال التعليم والعمل .

وتوضح نتائج إحدى الدراسات التي أجريت في إحدى جامعات بريطانيا عن مجالات العمل والأسرة ، أن من الأسباب التي تجعل المرأة تحجم عن العمل في مجالات عمل الذكور انظر الى هذه الاعمال على أنها ليست أعمالا انثوية ، والمرأة تخاف أن توصف بأنها غير انثى اذا ما التحقت بهذه الاعمال .

وهذا نفسه ما حدث في الولايات المتحدة حيث كان تحليل المرأة لانخفاض نسبة المشتغلات بالهن الهندسية ، فالسبب الرئيسي هو خوف المرأة من أن توصف بأنها غير انثى . هذا بالإضافة الى أن والدين لا يشجعان بناتها على التدريب في مثل هذه الاعمال .

وخلاصة القول أن التركيز على المساواة بين الجنسين ليس الا خدما للنفس ، إذ إنه من غير الممكن أن تتساوى المرأة بالرجل في الحياة العامة او خارج المنزل في الوقت الذي لا تتساوى فيه بالرجل داخل الأسرة ، ورغم خروج المرأة للعمل والاستغلال ببعض المهن ، ورغم حصولها على حق التعليم العالي والتدريب في مختلف المجالات ، وما أتيح لها الآن من فرص ترحلها للدخول في المجالات السبائية والمهنية الا أن هذا كله ليس الا مجرد خيال بالنسبة لقالبية النساء في مجتمعاتنا .

خصائص ويات البيوت ودورهن في الوقت

التعريف

لا شك أن كل فرد في المجتمع يدرك من ربة البيت ، ويعرف ماهية هذا المدلول ، ولكننا نريد توضيح ماهية هذا المدلول في المجتمع الحديث .

والعمل المنزلي اتجاهان مختلفان :

الاول : ان تادية ربة البيت للعمل المنزلي يمثل جزءا من تصورها لحياتها .

الثاني : يفصل دور ربة البيت عن دور الأم ودور الزوجة .

والاتجاه الاول يمثل الاتجاه التقليدي الذي يسود بين ربات بيوت الطبقة العاملة ، ويرجع ذلك الى طول فترة التعلم وسن ترك المدرسة .

والعمل المنزلي يعتبر موضوعا شخصيا لغالبية النساء ، والرضا بقبوله أو عدم الرضا قد يكون بصورة غير مباشرة .

والمقابلات التي تمت لمجموعة من ربات البيوت . لوضع البحث الذي قامت المؤلفات بإجرائه تشير إلى رضا غالبية ربات البيوت من عملهن ، بل انها تشير الى أكثر من ذلك، فمن يعطين العمل المنزلي أولوية على الأعمال الأخرى التي يقن بها .

وكان تركيز المؤلفات على حالات أربع ، درستها دراسة مركبة ، تناولت فيها الحياة الزوجية، المسكن، الأثاث ، التعليم، المساواة، الزواج المبكر ، العمل بالأجر قبل وبعد الوظيف ذات المهارة المنخفضة . وتطرقت فيها الى اثر البيئة الاجتماعية في تكوين الاتجاهات نحو العمل المنزلي ورعاية الطفل.

وقد أسفرت نتائج تلك الدراسة التاريخية عن ان العمل المنزلي يؤكد ذاتية ربة البيت ، كما أوضحت مدى الاهتمام الذي حظي به العمل المنزلي، لكثير من ربات البيوت قد أقدمن على ترك الأعمال التي عملن بها قبل الزواج ، وخاصة بعد انجاب الأطفال ، كما أثبتت تلك الدراسة ان غالبية ربات البيوت يؤدين العمل المنزلي كما كانت تؤديه امهاتهن .

ان ربة البيت نفسها ترى ان اعظم شيء في العمل المنزلي هو عدم خضوعه لقيود العمل ومواعيده . فالعمل المنزلي يتيح لها حرية الحركة ، ولا يلزمها بالتقيد بمواعيد معينة .

كما تؤكد تلك الدراسة مدى ارتباط العمل المنزلي بالمرأة دون الرجل ، وعدم رغبة المرأة في مشاركة الرجل لها في الأعمال المنزلية.

وهذا انما يعكس الاعتقاد السائد عن وجود اختلافات طبيعية بين الجنسين ، ويؤدي بدوره الى التأكيد على ان لكل من الجنسين دوراً في المجتمع يختلف من دور الآخر ، فالذكر له دوره الذي يختلف عنه دور الأنثى . هذا الى جانب العوامل البنائية الاجتماعية التي تشكل ضغطاً كبيراً على المرأة لتتدرج سيكولوجيا مع العمل المنزلي .

فالقيام بدور ربة البيت لا شك يتطلب نوعاً من التدريب الذي يجب ان تهيأ له الانثى في فترة مبكرة من حياتها وتلك التهيئة وهذا الامداد يعتبر جزءاً من تنشئتها الاجتماعية .

ومما يؤكد أهمية هذا التدريب ، بل وأهمية ممارسته في فترة مبكرة واعتباره جزءاً من التنشئة الاجتماعية ما يلاحظ على ربات البيوت من قضاء وقت طويل في العمل المنزلي لا يختلف في ذلك عن امهاتهن ، على الرغم من توفر الأدوات التكنولوجية الحديثة التي تسهم في انجاز العمل المنزلي بصورة أسرع ، والتي تسهم كذلك في الافلال من الجهد الذي يبذل فيه .

ولا شك ان طريقة اداء العمل المنزلي والمستوى الذي يتم اتجاذه عليه تختلف باختلاف من ينهض به ، ولكن أسلوب العمل ينتقل أساساً من الأم الى الابنة ، وهذا كله يتحدد من خلال التنشئة الاجتماعية لربة البيت .

الاساس . ولما كان علم الأبيولوجيا يهتم بالدراسة البيولوجية للسلوك الاجتماعي (١) فقد حاول الأبيولوجيون من العلماء تقسيم أسطورة تقسيم العمل على أساس الجنس . فترتبط دور ربة البيت في نظرهم بالمرأة دون الرجل له جذور بيولوجية ، بل أنهم يربطون كذلك تقسيم العمل في المجتمعات الصناعية بين الذكر والأنثى بتقسيم العمل في المجتمعات التقليدية في الماضي والحاضر .

وإذا كانت نظرة الأبيولوجي ترجع إلى الطبيعة وتقوم على الافتراض أن نظرية الأنثروبولوجي قد جاءت على عكس ذلك ، فهي تعتمد على معلومات معينة مستمدة من دراسات للمجتمعات التقليدية وكان (ميردوك) واحداً من الأنثروبولوجيين الذين أقاموا الدليل على ذلك .

فالرجل يتمتع بقوة جسمية يتميز بها عن المرأة ، وهذه القوة تمكنه من القيام بأكثر الأعمال مشقة ، في حين تهتم الطبيعة الفسيولوجية للمرأة قيامها بالأعمال التي تتطلب جهداً أقل كجميع الطعام وإعداده ، وصناعة الملابس والنسيج .

وقد لوحظ ازدياد التخصص والتعاون بين الجنسين في كل المجتمعات الإنسانية على هذا الأساس البيولوجي .

واكتسب الرجل في ضوء ذلك بعض المميزات ، فالمرأة عليها أن تقوم برعايته ، فهي توفر له الطعام ، وتهتم الظروف المنزلية المناسبة لراحته ، إلى جانب ما تبذره من حب وحنان وعطف لتحقيق الرعاية العاطفية . إن الرجل لم يكتسب هذه الصفات لحسب ، إنه اعتبرها حقاً مكتسباً دائماً ، وعلى المرأة أن تنهض به وقد منح هذا الحق استناداً

سادساً - مكانة المرأة :

إن تحديد مكانة المرأة ، وقصر دور ربة البيت عليها وتخصيص هذا الدور بها إلى الحد الذي أصبح معه إحدى الميزات التي تكتسبها المرأة دون الرجل - لم يكن النقيض الصناعي وحده هو الذي أدى إليه ، بل أن هنالك قوى أخرى قد تدخلت في ذلك .

ومن هذه القوى مجموعة الأساطير التي نتحدث من وضع المرأة في المجتمع ، والإيديولوجية التي تتعلق بدور الجنسين وخاصة دور الأنثى ، وقصر اهتمامها على الشؤون المنزلية .

وقد ظهرت أسطورتان تحددان مكانة المرأة ستمرض للحديث عنهما لتبين ما كان لهما من أثر في تحديد تلك المكانة .

والأسطورة الأولى إذ تحدد مكانة المرأة تعالج ذلك في ضوء تقسيم العمل على أساس الجنس . أما الثانية فهي تحدد هذه المكانة على أساس الأمومة .

وتقوم الأسطورة الأولى أساساً على قصر دور المرأة على الاهتمام بالشؤون المنزلية والعائلية باعتبار أنه الدور الطبيعي في كل المجتمعات وعلى المرأة أن توضح هذا الدور للمجتمع الذي تعيش فيه .

وفي ضوء تقسيم العمل حاول بعض العلماء مناقشة طبيعة دور المرأة . ومنهم علماء الأنثروبولوجيا ، والسيكولوجي .

وعلمو الأنثروبولوجيا ، والأبيولوجيا ، والسيكولوجي تعتبر من المصادر العلمية التي قامت عليها أسطورة تقسيم العمل على أساس الجنس ، والتي تحدد مكانة المرأة على هذا

(١) الأبيولوجيا : علم يدرس العلاقة بين الإنسان والبيئة يهتم بأثر العلاقة بين البيئة والشخصية . وهذا العلم يدرس الخصائص الثقافية التي تميز جماعة من جماعة أخرى مثل مجتمع له شخصية اجتماعية مميزة .

الى الأساس الذى يرتكز عليه فى تقسيم العمل
الا وهو الجنس .

والملاحظ ان الاثيوبولجيا لم تختلف من
الانثروبولوجيا فى مناقشتها لموضوع دور ربة
البيت ، وقصر هذا الدور على المرأة ،
واختصاصها دون الرجل بالتهوض به ، بل
ان كلاهما يعتبر ذلك نمطا سائدا فى البناء
الاجتماعى لكل المجتمعات الانسانية .

وهذا الرأى يواجه معارضة ، اذ ان
تقسيم العمل لا يتم على أساس الجنس فقط،
وانما تمثل الاعتبارات الثقافية أساسا آخر
فى هذا التقسيم ، فالدور الفسيولوجى الذى
تنهض به المرأة ، والذى يتمثل فى الحمل والولادة
والرضاعة وتربية الأطفال ، ليس وحده الذى
يحدد التقسيم بين الجنسين فى المجتمع ،
بل ان القيم والمعتقدات السائدة عن الذكورة
والأنوثة دورا آخر فى هذا التقسيم .

لقد ارتبط دور المرأة فى معظم الثقافات
بل وفى كل أنحاء العالم بالدور الانتاجى
وخاصة فى فترة ما قبل التصنيع .

وارتباطها بهذا الدور الانتاجى كان
يبعدها الى حد كبير عن العمل المنزلى ويستنفذ
حيويتها ، ولكنه مع ذلك لم يتعارض مع دورها
الذى تنهض به فى رعاية الأطفال .

وكان يساعدها على أداء هذا الدور والد
لوجها او جماعة الأقارب ، كما ان أكبر
الأطفال سنا يشارك فى المساعدة أيضا .

والمرأة لم يقتصر دورها على العمل
الانتاجى وحده بل كان لها دور فى الصروب
فقد شاركت فيها قديما وحديثا ، فهذه
الملايين من النساء شاركت فى مختلف الأعمال
فى الحرب العالمية الثانية ، ونهضت بالعمل فى
الأعمال العسكرية بمختلف أنواعها ، وقامت
بالمشاركة فى أعمال البناء والزراعة وان ذلك
ليدل على ان المرأة نهضت بأعمال كثيرة خاصة
بالذكور فى كثير من المجتمعات .

وكل ذلك آتيا يهدم اسطورة تقسيم
العمل على أساس الجنس من أساسها ، حيث
قامت المرأة فى مختلف المجتمعات بالأعمال
التي تتطلب جهدا كبيرا .

ففى مجال الزراعة ، قامت المرأة
البريطانية بالعمل الذى تطلب جهدا كبيرا فى
هذا المجال . هذا فى القرن الماضي ، ولا تزال
تمارس مثل هذه الأعمال فى أنحاء العالم
خاصة فى افريقيا ، فها هي تعمل بالزراعة
بل وتعتبرها عملا نسائيا .

وتشير كثير من الدراسات
الانثروبولوجية الى قيام المرأة بأعمال شاقة
مثل أعمال البناء والتشييد والنقل ، كما تشير
الى انها عملت فى بعض المجتمعات بالتجارة ،
وتعملت فى سبيل ذلك الكثير من الشاق .

ومع اختلاف الثقافات فى نظرتها تجاه
الأعمال التى يقوم بها كل من الجنسين فان
هناك اتفاقا على ان رعاية الطفل تعتبر عملا
طبيعيا بالنسبة لكل النساء وخاصة فى
المجتمعات الصغيرة حيث تعمل المرأة الطفل
أكثر الأوقات ، كما تقوم بأعمال أخرى تلبى
فيها جهدا كبيرا .

ان اسطورة تقسيم العمل على أساس
الجنس والتى تمثل الحقيقة الواقعة بالفعل ،
قد سادت الثقافات الغربية الحديثة ، وقد
أدت تلك الاسطورة الى التعميم بأن عمل كل
من الرجل والمرأة يمثل نمطا واحدا فى كل
الثقافات ، بل انها تؤكد كذلك ان هذا التعميم
قائم على أساس بيولوجى ، مع وجود كثير
من الأمثلة التى تكشف من خطأ هذا التعميم .

كما أن القول بأن دور ربة البيت ليس
قائما فى كل مجتمع ، وأن وجوده يتوقف على
نوع معين من المجتمعات قول غير صحيح ،
حيث أن تعدد الثقافات لا يرجع الى التسمية
البيولوجية وحدها وإنما يرجع الى قهورة
الإنسان على الخلق والإبداع .

ان استمرارالنسق الاجتماعى فى الوجود، واستمرار العائلة كذلك امر حتمى ، واستمرار هذا النسق يقتضى تقسيما للعمل يقوم على اساس الجنس كما يقتضى تمييزا للدور فى العائلة ، وهذا يحتم أن تكون المرأة ربة البيت، ولما كان دور ربة البيت دورا عالميا فان اسطورة تقسيم العمل على اساس الجنس تعمى النظام الاسرى وتؤكد شرعيته .

ومن ذلك نرى ان اسطورة تقسيم العمل على اساس الجنس هي اساس اسطورة العائلة لكل مصدر من المصادر العلمية السيكولوجى والانثروبولوجى ، والايولوجى .

هذا ما يتعلق بالاسطورة الاولى التى تحدد مكانة المرأة على ضوء تقسيم العمل على اساس الجنس .

اما بالنسبة للاسطورة الثانية فانهما تحدد تلك المكانة على اساس الامومة .

والامومة هي دور ثابت فى كل زمان ومكان ، لا يطرأ عليه تغيير او تبديل فى حين يتغير دور ربة البيت ، بل ويتغير كذلك دور الزوجية .

وهذا الثبات الذى يتميز به دور الامومة يؤكد حاجات اساسية ثلاث :

الاولى : ان الاطفال دوما فى حاجة الى امهاتهم .

الثانية : وان الامهات ايضا فى حاجة الى اطفالهن .

الثالثة : ان الامومة هي العمل الاكبر الذى تقوم عليه حياة المرأة .

وهذه الحاجات الثلاث ، يكمل بعضها البعض ، وهي حقائق معروفة فى كل الثقافات وتحليل اسطورة الامومة يؤكد ذلك .

وهذه الحقائق تتضح فى عمليات التنشئة الاجتماعية حيث تتركز التنشئة الاجتماعية

بقي ان نتحدث من المصدر السيكولوجى الذى يعد اجد المصادر العلمية التى قامت عليها اسطورة تقسيم العمل على اساس الجنس . فالسيكولوجيون يؤكدون على الدور التقليدى للجنسين ويمتبرون ذلك اساسا لاستمرار النظام الاجتماعى وبقائه .

فالمصدر السيكولوجى اذن يعتمد على الانجذاب الوظيفى بتركيزه على اهمية الادوار التقليدية للجنسين .

فالمصدر السيكولوجى كالمصدر الانثروبولوجى والايولوجى للاسطورة يؤكد الافتراض القائل بان وضع المرأة فى المجتمع يتحدد بالضرورة بيولوجيا وعلى اساسه يتحدد مكان المرأة فى بيولوجيا العائلة انطلاقا من ضرورة وجود من يقوم برعاية الاطفال فى الاسرة . والام هي التى تنهض بهذا الدور، ودورها هنا دور اجتماعى حيث انها تنهض بهذه الرعاية من العمل والولادة ، وهي تهتم كذلك بشئون المنزل بل ورعاية الزوج نفسه فى الوقت الذى يكون فيه الرجل حرا منطلقا فى كثير من المجالات بينما تكون المرأة مقيدة بالارتباط بالمنزل .

وذلك كله يتطلب تبرا آخر فسير التبرير البيولوجى ، والتحليل السيكولوجى لبقاء العائلة يشير الى تأكيد القيم التقليدية لدور الجنسين ، ويفرق بين الدور المساند او المساند والدور التبعيى ، ويمتبر دور المرأة دورا تبعييا ، واساس ذلك الاعتبار ما تقوم به المرأة تجاه العائلة من تقديم الحب والحنان والاستقرار لها ككل ، وما تقوم به من تدعيم العلاقات بين افرادها . اما الدور المساند فان والد الزوج هو الذى يختص به .

ان السيكولوجى يؤكد ان دور الجنسين اساس لبقاء المجتمع فى صورته الحالية ، فدور المرأة - كاملة دون اجنبر ومربية ورعاية للاطفال وقائمة على خدمة الرجل توفر له حاجاته الاسرية والعاطفية - استثمار اقتصادى .

يخلق المشاكل التي تعوق المرأة عن رعاية الأطفال وتوفير حاجاتهم . والحاجات العاطفية لا يمكن لأحد غير الأم إشباعها سواء كانت تعمل خارج المنزل أم تقتصر ذلك على الأعمال المنزلية أو أى أعمال أخرى تشغل المرأة .

وحيث أن الأم ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالطفل ، خاصة في مرحلة الطفولة الأولى ، نطمح أن تصلح أخطاها وتعديل سلوكها ليكون سلوكاً مثالياً لما لذلك من تأثير في حياة الطفل . فالأخطاء التي قد تقع فيها الأم تتغلغل في حياة الطفل ، وعلى الرغم من ازدياد مشاكل الأمومة في المجتمع الحديث إلا أنه يمكن التغلب عليها وحلها .

ومما سبق يتضح أن كلا الأسطوريين، أسطورة تقسيم العمل على أساس الجنس وأسطورة الأمومة ، يمثلان عاملاً من العوامل الأساسية التي تؤكد ربط المرأة بالعمل المنزلي، بل يشير مضمونها أيضاً إلى ظلم المرأة وأسطعها .

أوردت المؤلفة في ختام كتابها فصلاً يعرض لكيفية تحرر المرأة من الأعمال المنزلية التي تستغرق الكثير من وقتها ، والتي تكلفها جهداً كبيراً ، بل وتستنفد المزيد من طاقتها .

وأساس اهتمام المؤلفة بهذا الأمر ماثراً من أن تحرر الأمة كلها رهين بتحرر المرأة ، وهي تعرض لذلك طرائق ثلاثاً وضعتها ليتبين وراها سبيلاً لتحرير المرأة من هذا العبء الذي يتقلى كاهلها .

الطريقة الأولى : تتمثل في إلغاء دور ربة البيت .

الطريقة الثانية : تتمثل في إلغاء العائلة

أما الثالثة : فهي تتمثل في إلغاء تقسيم العمل على أساس الجنس .

وفيما يخص الطريقة الأولى التي تستشهد بها المؤلفة باعتبارها واحدة من

الاهتمام في المرحلة الأولى على أعداد الأنثى لدور الأمومة كدور لكل الأنثى . وإن ابتعدت بعض النساء في الوقت الحاضر عن هذا الدور نتيجة لما طرأ على المناشط الانثوية من تغيرات ، فالمرأة تمهد إلى غيرها مسئولية تربية الأطفال لكي تتفرغ للأعمال الأخرى ، ومع ذلك يصعب على المرأة أن تهتم بعدم حجبها للأطفال أو بعدم رغبتها في رعايتهم .

إن الكثير من نتائج بحوث علم النفس تؤكد حاجة الأطفال إلى أمهاتهم . ويمكن تقويم الأمومة على أساس ما يمنح من العطف والحنان حيث يمكن للطفل أن يحصل عليهما ممن يقوم برعايته ، فالأم يتمدى ذلك بالنسبة لرابطة الأمومة التي تمثل ارتباطاً روحياً بين الطفل والأم . وهذا الارتباط الروحي بين الطفل والأم يؤكد أن أي رعاية يتلقاها الطفل من أي إنسان آخر خلاف أمه لا تساوى مطلقاً رعاية الأم . ولذا يتحتم على الأم أن تكون بجوار الطفل خاصة في مرحلة الطفولة .

ولا تختلف الإنهات العاملات من غيرهن من النساء في كل العصور والثقافات ، فهن يشاركن في مناسط الحياة الاقتصادية الإنتاجية في المجتمع ، ويقمن في نفس الوقت برعاية الأطفال ، وإنما يكون الاختلاف في نوعية الرعاية التي يحصل عليها الطفل ، واتجاهات الأم نحو العمل ، حيث إن تلك الاتجاهات هي التي تحدد نوع الرعاية التي يتلقاها الطفل وليس العمل ذاته هو الذي يحددها .

ولذا يكون الانتقاد السائد بأن عمل المرأة يتعارض مع وجود الأطفال اعتقاداً لا يزال غير صحيح . وما زال النقاش حول دور المرأة العاملة ومشاكلها قائماً ، ولم ينته بعد ، وليس معنى ذلك انعدام المشاكل بالنسبة للأم غير العاملة ، فإن لها مشاكلها التي تحد صرها من رعاية الأطفال ، وأما بالها المتزوجة قد تحول بينها وبين إمكانية توفير الاحتياجات المطلوبة لهم ، فخرج المرأة للعمل الذي يتحقق من ورائه الكسب المادي ليس وحده الذي

دبة البيت

فالأجر حينئذ تكون بمثابة منحة وليست اجرا ، فالأجر يقدم في هذه الحالة نظير قيام دبة البيت بتربية أطفالها ، وهذا لا يستقيم وما تقوم به الدولة من أنواع الرعاية للطفولة والأمومة ، وما يمنح من العلاوات الاجتماعية مند انحجاب الاطفال . فهي وان قلت قيمتها النقدية تظل قيمتها الاجتماعية كبيرة وخاصة بالنسبة للأم .

ان سعادة المرأة بالعمل المنزلي امر يحوطه الشك ، اذ ان التزامها بهذا العمل يفرض عليها ان تكون في وضع التابع في المجتمع ، والمجتمع كذلك ينكر أهمية العمل المنزلي لعمل منتج ، وكل ذلك يقف حاجلا دون أى مطالب تهدف المرأة من وراءها الى تحسين ظروف حياتها وتوفير أسباب الرضا لها .

وعلى الرغم من ذلك تشير كثير من نتائج البحوث الى ان المرأة أكثر رضا من الرجل ، وهي كذلك أكثر قلقا ، وخاصة أولئك النساء اللاتي يعملن طول الوقت كربات بيوت .

ان أهمية العمل بالنسبة للرجل تفوق أهميته بالنسبة للمرأة ، فالدور الأهم بالنسبة للمرأة هو دور الزوجة والأم ، والأكثر من ذلك أهمية قبول المرأة للوظائف التي تمثل قيمة بالنسبة للرجل .

وعلى ذلك فان المرأة عليها أن ترفض الرأي الذي يربطها بالعمل المنزلي وحده وهو الذي يرى ان المرأة تعنى دبة البيت .

ولا شك ان الدعوة الى إلغاء هذا الدور - دور دبة البيت - يتضمن الدعوة الى إلغاء الأسرة ، فالأسرة رمز للعمل المنزلي ولاوجود لهذا العمل الا بوجودها .

اما فيما يخص بالطريقة التي تستشهد بها المؤلفة كسبيل لتحرير المرأة فهي تتمثل في إلغاء العائلة أو الأسرة ، وأساس ذلك ان الأعمال المنزلية تمثل نوعا من الاستعباد

الطرائق المؤدية الى تحرير المرأة ، والتي تتمثل في إلغاء دور دبة البيت ، فانها تعنى التكريس على نوع العمل الذي تقوم به المرأة .

ان متطلبات هذه الوظيفة تفرض على كل النساء بلا استثناء ، وعليه فهي لا تتطلب استعدادا خاصا للنهوض بها .

كما ان هذا العمل لا تكنفه حواجز او دوافع تشعر المرأة مع وجودها بالرغبة في الإبداع او حتى محاولة التقدم في هذا العمل ، وهي كذلك لا تشعر بمنتهى ما في تأديته ، ولا يمكنها ان تحقق ذاتها من خلاله .

وقد تكون المسئولية الملقاة على عاتق دبة البيت حافزا من حوافز هذا العمل ، ولكن العزلة التي تفرض عليها للنهوض بهذه المسئولية تحول دون تحقيق الرضا لها أو التقدير من حولها .

وعلى الرغم من بطل الكثير من المحاولات لتحسين العمل المنزلي وتعديل الظروف المحيطة به لتسهيل مهمة دبة البيت وتمكينها من الممارسة الخلاقة المبدعة المحققة لادائها الا ان ذلك كله لا يؤدي الى تحريرها .

ان محاولة إلغاء دور دبة البيت أمر يحتاج الى مناقشة تنتهي برفضه أو قبوله .

فهناك بعض الآراء التي تتفق على ان تهئية الظروف المناسبة للنهوض بهذا العمل وتقدير اجر معين يمنح نظيره قد يؤدي الى اقبال المرأة عليه ، بل قد يدفعها الى التقدم فيه . واصحاب هذه الآراء يرون ذلك أولى الخطوات لتحسين وضع المرأة الاجتماعي .

وهناك آراء أخرى ترى ان الظروف كلها مهية لاسعاد المرأة في حدود الامكان وتتصدى للآراء السابقة التي ترى تقرير اجر يمنح لدبة البيت ، وانما تعارض تلك الآراء نظرا لانها سوف تضيف ظلما جديدا للمرأة ،

والطريقة الثالثة التي تستشهد بها
الؤلفة كسبيل لتحرير المرأة تتمثل في إلغاء
تقسيم العمل على أساس الجنس ، الحقيقة
أن كثيرا من الثقافات تؤكد شيوع هذا الذي
تلحق الحاجة إلى الغائه .

وان الدعوة إلى إلغاء دور ربة البيت
يؤدي ضمنا إلى إلغاء الأسرة ، ولكن ذلك
ليس كافيا ، بل لا بد من التنبيه إلى ضرورة
إلغاء التمييز بين الجنسين .

وهذه الطرائق الثلاث التي استشهدت
بها بامتنارها السبيل لتحرير المرأة قد
واجهت الكثير من المعارضة ، فالإلغاء دور ربة
البيت والأسرة وتقسيم العمل على أساس
الجنس كلها آراء لا يمكن ترجمتها إلى واقع
فعلي ، وتحقيقها رهن بتحديد وضع المرأة
الاقتصادي والسياسي والقانوني في المجتمع ،
هو أمر لم يتحقق بعد ، وتحقيقه يقتضي
أن يغير الناس أنفسهم أولا .

ولذا فالمرأة يمكنها أن تتحرر من العمل
المنزلي عن طريق :

١ - رفض أي محاولة لربطها بالعمل
المنزلي وتكرار تسميتها بربة البيت .

٢ - محاولة الحصول على كل ما تحتاج
من امتيازات لقيامها بتربية الأطفال . وعليها
الإعتماد إلى تعليم بناتها كيفية القيام بديون
ربة البيت ، وتقلع عن غرس ذلك في نفوسهن
منذ الصغر ، وفي الوقت ذاته يجب أن ترتبط
الإبناء بالعمل المنزلي دون أن يخصص الإناث
بهذا العمل وتقتصر عليهم .

٣ - محاولة التصرف في العمل المنزلي
وابتكار الأساليب التي تمكنها من إنجاز هذا
العمل في أقصر وقت ممكن ، وعلى المرأة فوق
ذلك أن تغير نفسها اعتمادا لكسب معززة
تحررها .

للمرأة ، كما أن هذه الأعمال لا تعدو أن تكون
مجالا تعليميا تجريبيا لا تستفيد منه المرأة .

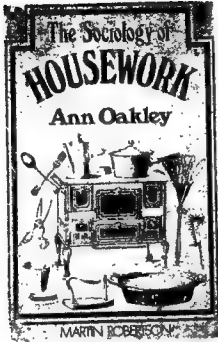
وتعتبر الأسرة رمزا للعمل المنزلي ،
حيث تركز هذه الأعمال أساسا على وجودها
والنهوض بهذه الأعمال لا يخرج عن كونه
عملية تعليمية الزامية بالنسبة للمرأة ،
فالمرأة تفرس في بناتها هذا الدور الثابت منذ
الصغر ويتم ذلك من خلال توحيد الأم بابتها
على عكس علاقة الأب بالأبن .

وهذه العلاقة تنشأ قبل ميلاد الطفل ،
فالطفل جزء من أمه وتظل الأنثى بعد الميلاد
جزءا من الأم .

وارتباط الطفل بالأم على هذا النحو
يؤدي إلى اكتسابه كل ما يريد أن يتعلمه
من الأم ، والأسرة ممثلة في ربة البيت تمثل
منقفا تجريبيا يمكن للأطفال من طريقه
ممارسة الحب وتكرار السلوك الذي قد لا
يكون منطقيا ، فالأم في نظر الطفل هي الحاضر
وهي المثل الأعلى للحب ، والهدية التي تقدمها
الأسرة للمرأة تتمثل في تهيئتها وتدريبها على
النهوض بدور ربة البيت ، ولذا فإن القول
بالغاء دور ربة البيت يعنى بالغيرورة الغاء
الأسرة ، حيث أن ربة البيت هي الزوجة وهي
الأم ، ومهما حدث من تغيرات في العلاقة
بين الرجل والمرأة على مر السنين فلن يغير
ذلك من دور المرأة التقليدي الذي يتمثل في
القيام بالعمل المنزلي .

وقد أوضحت نتائج البحوث أن الزوجة
العاملة تقصر في دورها كربة بيت ، وان أي
مكاسب تحصل عليها تكون على حساب هذا
الدور .

وان إيديولوجية المجتمع هي التي
تحدد دور الزوجين وبنات العائلة وهي غير
قابلة للتعديل . وعلى ذلك يكون استبعاد
للأسرة أو التقليل قول لا فعلا ، وتصورنا
حقيقة ما نحن عليه .



سوسيولوجيا العمل المنزلي

• آنت أوكللي

عرض وتحليل الدكتور سارة من الساعاتي

ويتناول هذا الكتاب قضية هامة وهي موقف علم الاجتماع التقليدي من المرأة . كما يعرض بين دفتيه موضوعات جديدة بالاهتمام مثل : نظرة النساء للعمل المنزلي ، ونظريتهن لانفسهن كربات بيوت ، ومشاعرهن المختلفة نحو العمل المنزلي ، واتجاهاتهن نحو الاعمال المنزلية المختلفة من طهي وتنظيف .. الخ . ومدة العمل المنزلي الذي تقوم به المرأة محسوبا بالاسبوع ومدى اهمية المعايير والروتين كطريقة للتأكد من ان العمل المنزلي يتم على وجه اكمل ، وكأسلوب على مكافأة الذات .

وقد حاولت الباحثة في هذا الكتاب وضع تقييم يكشف عما اذا كانت النساء راغيات او

تأني اهمية هذا الكتاب من انه يفرض قراءته على كل مهتم بقضايا تحرير المرأة ، فهو دراسة تتحدى النظرة التقليدية الى العمل المنزلي التي تحاول دالما التقليل من شأنه ، كما انها تتحدى اعمال السوسيولوجيين ، وبخاصة المتخصصين في علم الاجتماع الاسري وعلم اجتماع العمل ، للعمل المنزلي ، كموضوع علمي جاد .

لقد دأب الباحثون في علم الاجتماع الاسري على دراسة المرأة اما من خلال دورها الاسري كزوجة وام ، او من خلال دورها كعامل خارج المنزل ، لكن دورها كماملة داخل المنزل بدون اجر لم يحظ بدراسة جادة او منتظمة .

الذي أصبح يشغل عديدا من الباحثين المتخصصين .

وفي هذا الفصل تعرض المؤلف لوضع المرأة في المجتمع اليوم ، ذلك الوضع الذي تصفه بأنه معوق ومنقص من قدره . فعلى الرغم من كثرة التغيرات القانونية والتشريعية في صالحها ، ومن صغر حجم الأسرة ، ومن فرص التعليم والعمل التي زادت وتحسنت وانفتحت أمام النساء ، خلال القرن الأخير ، إلا أنه ما زال هناك تفاوت ملحوظ بين الأدوار الاجتماعية والاقتصادية للرجال والنساء ، وقد شكلت انبعاث نظرية المساواة بين الجنسين سياسيا واقتصاديا واجتماعيا ، في شكل حركة تحرير المرأة ، هجوما عنيفا على هذه الفروق والتفاوتات .

ويبدو أن الموقف الذي نشهده الآن ليس نتاج الدعامات البيولوجية لأدوار الجنسين وحدها ، ولا هو حصيلة التفاوت الذي تفرضه وتصر عليه نظم المجتمع ومؤسسته المختلفة فقط ، وإنما يرجع التمييز والتفرقة بين الرجال والنساء إلى الاتجاهات والمعتقدات الاجتماعية السائدة في المجتمع .

إن حقيقة وضع المرأة كما ترى المؤلف يمكن في أنه بتشكيل يوميا من هذه الاتجاهات .. أن النساء يصبحن على الوجه الذي هن عليه ، تبعاً للطريقة التي يتوقع منهن أن يكن عليها ، أو التي يفكر الناس فيهن على أساسها .

ولأسباب على ما تقدم فإننا لا نجد أن التمييز والتفرقة ضد النساء موجودان في المجتمع الكبير فحسب ، بل أن هذا التمييز وتلك التفرقة ينسحبان أيضا على الميدان الأكاديمي ويتضح ذلك بجلالة في علم الاجتماع ، العلم الذي يدورس أوضاع الاجتماع ، وحيث نجد فيه تحيزا واضحا ضد المرأة ، يمكن أن يلاحظ ذلك التمييز وتلك التفرقة الوجودية في المجتمع الكبير بحيث يمكن القول أن التحيز

غير راضيات عن العمل المنزلي ، ومدى الاختلاف في درجات الرضا بينهم . كما يتناول الكتاب أيضا الطبقة الاجتماعية ، وصلتها بالعمل المنزلي والرضا عنه ، كما تناقش الباحثة تأثير التنشئة الاجتماعية على الحياة المنزلية للمرأة ، وتحلل تقسيم العمل بين ربّة البيت وزوجها في المنزل ، وتتفحص صعوبات الجمع بين العمل المنزلي ، وواجبات الأمومة .

وعما د هذا الكتاب دراسة قامت بها الباحثة في سنة ١٩٧١ على أربعين زوجة من ربّات البيوت الانجليزيات الحضريات .

والباحثة توجه كتابها إلى فئتين مختلفتين من القراء ، الأولى تتألف من المتخصصين في علم الاجتماع والثانية تتضمن هؤلاء الذين يهتمون بموقف ربّة البيت اهتماما خاصا دون أن تكون لديهم معرفة بعلم الاجتماع ، لذلك فقد جاء الكتاب في جملته جليا واضحا .

وعلى الرغم من أن العينة التي يثنى عليها هذا الكتاب ، كانت عينة انجليزية ، فإن وضع الزوجة ربّة المنزل فيها ، ينطبق في أساسياته على الزوجات في مجتمعات صناعية معاصرة أخرى .

فصول الكتاب :

يحتوي هذا الكتاب على مقدمة ومقدمة فصول وخاتمة . وتكرس الباحثة **الفصل الأول** وهو في رأينا أهم الفصول على الإطلاق ، من وجهة النظر السوسيولوجية ، لقضية هامة ، وهي قضية التحيز الذكري في علم الاجتماع . ولا يثنى تبيينها لهذا الفصل على أنه أهم فصول الكتاب من أهمية موضوعه فقط ، بل لأن هذا الموضوع هو الفكرة الأساسية التي تتكرر في كل فصول الكتاب ، بل وفي كتب المؤلف الأخرى ولعل ذلك انعكاسا لأصدا موضوع التحيز ضد المرأة لا في علم الاجتماع بخاصة ، بل وفي العلوم الاجتماعية بعامة ذلك الموضوع .

ويعد التوجيه الذكري من وجهة نظر المؤلفة أهم المشكلات المسؤولة عن اختفاء المرأة وقلة ظهورها على مسرح علم الاجتماع ، ذلك ان التركيز الذكري المتجسد في تحديد موضوعات علم الاجتماع إنما يقابل من شأن المرأة ويفرد لها منذ البداية مكانا جانبيا ، ويعطى دائما موضوعا ثانويا ، ولذلك فإن التصنيف الحالي لموضوعات علم الاجتماع لا يعنى الكثير من وجهة نظر النساء في وضعهن الحالي .

فاذا ما تناولنا العمل المنزلي على سبيل المثال ، وهو عمل اسامى للمرأة ، نستجد ان اففال هذا الموضوع من ميداني علم الاجتماع الاسرى ، واجتماعيات العمل إنما ينقل بوضوح انطبعا محرفا ومشوها عن موقف المرأة الحقيقي . فليس هناك اهتمام بمسدى أهمية العمل المنزلي للمرأة ، لا من حيث مقدار الوقت الذى تنفقه في الأنشطة المنزلية والعناية بالمنزل من جهة ، ولا من حيث المعنى الذاتى للعمل المنزلي بالنسبة للمرأة الذى يمكن ان يختلف باختلاف المواقع الاجتماعية ، والطبقية من جهة أخرى .

ويعد ذلك تناقضا بين وجود المرأة في علم الاجتماع ووجودها الاجتماعى الحقيقى ، كما يعد أيضا دليلا على فشل علم الاجتماع في أخذ خبرات المرأة وواقع حياتها في الاعتبار . ويمكن أن يوحى ذلك بإعادة تصنيف موضوعات علم الاجتماع وميادينه بحيث تمثل كلا المنظورين الذكري والانثوى على السواء .

وتلمنى المؤلفة الى الفصل الثامن من الكتاب لتحلل العمل المنزلي بوجه عام ، وتصف البحث الذى قامت به بوجه خاص . وترى انه على الرغم من ان هناك ميلا ، يتزايد في السنين الحالية ، الى تقليل حدة الفروق النوعية بين الذكور والاناث في مجال العمل والمهن والوظائف ، فسيظل هناك دائما دور وظيفي اثوى برمته وهو دور ربة البيت ،

ضد المرأة في علم الاجتماع إنما يشكل الوجه الآخر للعملة للتمييز والتفرقة الموجهين ضدها في المجتمع الكبير .

وتحاول المؤلفة في هذا الفصل الهام ان تناقش موضوعين أساسيين ، وفيقي الصلة بالآخر : اولهما هو أعمال علم الاجتماع للعمل المنزلي كموضوع علمي جاد ، ولثانيهما وهو الأكثر شمولاً ويتركز في التحيز ضد المرأة في علم الاجتماع ككل .

ان علم الاجتماع علم متحيز ضد المرأة ، لانه علم موجه توجيهاً ذكورياً (Male Oriented) وتلمنى المؤلفة بذلك انه يمثل تركيزاً على أنشطة الذكور واهتماماتهم في مجتمع متمايز من حيث الذكورة والانوثة . ان الوضع الاجتماعى للرجل اليوم متناقض الى حد كبير مع الوضع الاجتماعى للمرأة ، من الناحيتين البنائية ، والإيديولوجية على السواء . كما نجد ان التسوق القمى السائد في المجتمعات الصناعية الحديثة ينطبع على الادوار الذكورية أهمية وقفراً أعظم مما يلقه بالنسبة للادوار الانثوية ، وبإخل نجد ان هذا التحيز وتلك التفرقة ينعكسان على علم الاجتماع ، الذى ينحو الى تبنى قيم المجتمع الأكبر . وعلى الرغم من ان الموضوعية التى تمثل مسلمة أساسية من مسلمات المنهج السوسيولوجي ، يمكن ان تقلل كثيراً من التحيزات الظاهرة في مجال علم الاجتماع ، الا انه يبدو انها لم تؤثر تأثيراً عميقاً في هذا التحيز المتأصل ضد الاناث في علم الاجتماع .

ان وضع المرأة كموضوع في علم الاجتماع يعطينا انطبعا محرفاً عن الواقع الاجتماعى الحقيقى لوضعها في المجتمع ، ذلك لان علم الاجتماع لا يعطينا صورة صادقة لدور المرأة وأهميتها ، وحجم تجاربها ، وذلك بهدف ان تنفق صورها مع الصورة المحددة لها سلفاً في علم الاجتماع ، والوجهة توجيهها ذكورياً في المحل الاول .

ذلك اذن هو التبرير الاساسى لدراسة العمل المنزلى ، فانه يمثل الخبرة اليومية المتكررة فى حياة معظم النساء اللائى يكون احصائيا قسما كبيرا بين السكان .

وتنتقل الباحثة بعد ذلك الى وصف دراستها ، التى تطلق عليها المسح الاستطلاعى الكشفى ، والسبب فى هذه التسمية يرجع كما تقول الباحثة الى ندرة البحوث والدراسات فى هذا الموضوع الذى صادف افعالا بالغا فى علم الاجتماع .

وتبدأ بتعديد اهداف دراستها التى تجعلها فى ثلاثة اهداف رئيسية ، اولها يتضمن وصف موقف العمل المنزلى ، واتجاهات ربة البيت نحو ذلك العمل ، والثانى يتناول فى فحص نماذج الرضا ، وعدم الرضا عن العمل المنزلى فى علاقته بعدد من المتغيرات التى تتضمن الطبقة الاجتماعية، والتربية والتعليم، وتقسيم العمل فى الزواج ، والاجهزة والمعدات الفنية ، ونماذج التفاعل الاجتماعى . . الخ . اما الهدف الثالث والاخير فينحصر فى اقتراح الفروض الممكنة والموجهة نحو تفسير الفروق

وعلى الرغم من انه ليس هناك قانون يمنع الرجال من القيام بهذه الوظيفة ، الا ان هناك ضغوطا اقتصادية واجتماعية وسيكلوجية تقف عائقا امام الرجل ، وتمنعه من الدخول فى رحاب هذه المهنة .

وتبدأ المؤلف هذا الفصل بتصريف ربة البيت ، ويرتكز هذا التصريف على مفهوم المسئولية ، وعلى ذلك تكون ربة البيت هى الشخص المسئول وحده (دون الخادم المنزلى) عن معظم المهام المنزلية ، او من الاشراف على الخادم المنزلى الذى يقوم بهذه المهام . وقد تكون ربة البيت متروجة كما قد لا تكون ، كما قد تكون عاملة خارج المنزل وقد لا تكون ، وقد اضعف ذلك المسح الذى قام به «هنت» (Hunt) عن ان تسمه اشعار النساء من غير الصاملات خارج منازلهن كن ربات بيوت متزوجات . كما كانت سبعة اشعار الصاملات خارج منازلهن من ربات البيوت . (١) وعلى هذا لا يكون دور ربة البيت دورا اثوريا فقط ، بل انه يعد الدور الوطنى الرئيسى للمرأة فى عصرنا الحالى ، لان مسئولية ادارة المنزل هى مسئولية مشتركة بين معظم النساء البالغات .

(١) تتلقى هذه النتيجة مع نتائج توصلت اليها باحثات مصريات ، جاء فيها ما يلى :

« يتضح مما سبق بالنسبة لتقسيم العمل الخاص بيشئون المنزل بين الزوجين فى الاسرة المصرية ان الزوجة العاملة فى معظم الحالات تقوم بعمل كل شئ يتعلق ببيتها بمدودتها من عملها ، وانه ليس صحيحا ما يدعى اليه البعض من ان الام المشتغلة لا تقوم باى عمل منزلى فى بيتها . ولقد تبين من استمراحتنا لما سبق من الاعمال المنزلية ، وسدى لسنا لاسطلاع الزوجة بالنسبة الاكبر فى الغالبية العظمى من تلك الاعمال جميعا ، وهذا هو الرغم من وجود الخادمة فى الكثير من الاحيان » .

انظر : سامية حسن السامى ، الدور الوطنى للزوجين فى الاسرة المصرية ، دراسة ميدانية فى الرف والخصر ، رسالة دكتوراه فى منشورة ، كلية الاداب ، جامعة القاهرة ١٩٧٢ ، ص ٤١ .

« ويتضح هذا مع ما وجدته « فوزية دياب » من تقصير النشاط المنزلى لعملة تبلغ الواحد والسبعين من الانهات الصاملات ومدى اسهامهن فى اعمال البيت . اذ تبين لهما ان الغالبية الانهات الصاملات ونسبتهن ٦٤,٨ ٪ من مجموعهن يقمن بكل الاعمال فى البيت بعد مودتهن من العمل ، وان الاقلية من هؤلاء الانهات الصاملات بنسبة ١٢,٧ ٪ من المجموع يقمن بالاشراف فقط على شئون البيت ، بينما تقوم ٢٢,٥ ٪ من المجموع بالاشراف والاشتراك فى بعض الاعمال » .

انظر : فوزية دياب ، دور الصاملة والجنس ، رسالة دكتوراه فى منشورة ، كلية الاداب جامعة عين شمس ، ١٩٧٠ .

التفكير الشعبي المعاصر : الفكرة الاولى تذهب الى ان ربة البيت عاملة مظلومة ، تستعبد في عمل محقر ، كره ، بغيض ، يتضمن بالضرورة انكارا كبيرا للذات . اما الفكرة الثانية فتري ان العمل المنزلي يعطى فرصة غير محدودة للقيام بمجهودات خلاقة مبدعة . ولا تنظر هذه الفكرة الى العمل المنزلي على انه عمل بل على انه صناعة منزلية يشكل فيها المنزول وزارة المالية .

وقد ظهر من خلال فحص الاربعين استبصارا ، ان هناك مفهوما واضحا للعمل المنزلي كعمل قد بدأ يبرز . فالتساءل في هيئة البحث يضيئ العمل المنزلي ، ويعرفته على انه عمل مماثل لذلك الذي يتطلبه أى موقف عمل ، وقد ارتبطت ملاحظات هؤلاء النساء ارتباطا واثقا بنتائج علم اجتماع العمل ، فقد كان لظاهر العمل المنزلي التي اطلق عليها انها مشبعة أو غير مشبعة ظلالا في عالم المصنع ، والكتب . ويتأكد هذا التطابق بوجود ميل لدى النساء لمقارنة انكسارهن نحو العمل المنزلي بخبرتهن في العمل خارج منازلهن .

وقد كانت هناك اسئلة تكشف عن ايجابيات العمل المنزلي وحسناته كما يفصح عن سلبياته ، ومساوئه . وقد تبلورت ايجابيات العمل ، كما عبرت عنها الزوجات في مظاهر كثيرة أهمها الاستقلال والدانية ، ووجود الاطفال ، وتوفير ظروف العمل الحر ، وعدم الاضطرار للخروج من المنزل ، ووجود الزوج ، وتوفير الحياة العائلية ، وقد قصصت هيئة الزوجات بالدانية والاستقلال ، التحرر من الرقابة ، والقدرة على تحديد ايقاع العمل المنزلي وسرعته . وقد استخدمت حوالى نصف الزوجات المستبصرات في اجابتهن من هذه الاسئلة عبارة « انك تكون رئيس نفسك » ليصنن شعورهن ازاء العمل المنزلي . وقد احتوت اجابات الكثير من هذه الاسئلة على

بين ربات البيوت فيما يختص بالجهاهاتهن نحو العمل المنزلي ، وموقف العمل المنزلي ذاته ..

وقد تكونت العينة من اربعين من ربات البيوت الانجليزيات والايرلنديات اللاتي تتراوح سنهن ما بين العشرين والثلاثين ، اثناء اجراء الاستبصار ، وكن جميعا من الامهات ولهن طفل واحد على الاقل عمره اقل من خمس سنوات ، وقد تم اختيارهن من واقع التقارير الطبية لاثنتين من الاطباء المعممين . وقد تم استبصار افراد العينة في اوائل سنة ١٩٧١ ، وكان معاد البحث استبصارا مقيدا باستبيان ، وكانت تلك الاستبصارات مسجلة على شرائط تظل مدة تصل الى حوالى الساعتين في المتوسط . وعلى اساس من اجابات الاستبصارات فتمت الباحثة مقياسا لقياس الرضا عن العمل المنزلي بدرجاته المختلفة ، كما توصلت الى اختبار مظاهر أخرى داخل موقف العمل المنزلي ذاته ، وتشمل الرضا وعدم الرضا عن العمل المنزلي والعناية بالطفل ، والزواج ، والعمل الخارجى بأجر ، كما كان هناك تقييم للرجة لتوحد المرأة مع دور ربة البيت ، وأهمية تحديد معايير للعمل المنزلي وروتينيته .

وترى الباحثة ان النتائج التي حصلت عليها من بحثها انما تنطبق على مجتمع العينة فقط ، لكنها تذهب ايضا الى انه ليس هناك من سبب يدعونا الى القول بان هذه العينة هي عينة غير ممثلة ، وبخاصة انه ليس هناك دليل على ان تلك التسمييلات لا تعكس الواقع .

وتعضى الباحثة في وصف دراستها ، فنقول ان نصف عدد النساء البالغ مجموعهن اربعين كن من الطبقة العاملة، اما نساء النصف الآخر فكن من الطبقة الوسطى .

١ - اما الفصل الثالث فيعطينا فكرة واضحة عن صبور العمل المنزلي وتبنيؤه المؤلفة بعرض فكرتين نمطيتين سائدتين عن العمل المنزلي في

وتصوره أخرى بقولها :

« ليس هناك أحد يمسك لي سوطا اذا لم اقم بالعمل المنزلى ولكنى اهرق ، اننى اذا لم افعل ، فقد سيكون على أن اقوم بضعف العمل ، ففى الحقيقة اننى اقوم بامساك السوط لنفسى » .

ان مسألة حرية العمل المنزلى يمكن اختزالها الى انها حرية من ، وليست حرية لفعل . انها حرية ربة المنزل من الرقابة ، لكنها ليست حرية لها لتختار ما تفعله من أنشطة .

وعندما سئلت الزوجات عن مساوئ العمل المنزلى تلبورت الاجابات بالتسريب فى العمل المنزلى نفسه ، والرتابة ، والتكرار ، ولزام ، والمسئولية المنزلية المستمرة والعزلة والوحدة ، وضرورة الانتهاء من العمل المنزلى والتقييد الشديد بالمنزل .

وعندما طُلب من الزوجات ان يقارن عملهن المنزلى ، بعمل أزواجهن ، كانت معظم الاجابات تشير الى انهن يمتدثن انهن يعملن اكثر من أزواجهن ، بينما ذهبت نسبة قليلة منهم الى أن الزوج يعمل اكثر ، أو أن هذه المسألة تتحدد بنوع الشخصية من جهة ، ونوع العمل من جهة أخرى . وقد صورت احدى الزوجات ذلك بقولها :

« لا شك أن ربات البيوت يعملن اكثر . ان زوجى يعود دائما من عمله ، ليقول لى : لقد جلسنا اليوم وتحدثنا فى كيت وكيت . او لقد كان يوما مسليا فقد ضحكنا ، وتسامرنا حول كذا من الموضوعات . اما انا فلا افعل ذلك ، انى لا اجلس لحظة » .

مقارنة مقدتها النساء بين العمل المنزلى والعمل الوظيفي خارج المنزل مثل :

« انك الى حد كبير تكونين سيدة نفسك . انك تستطيعين ان تحددى ما تريدن ان تفعلن وما لا تريدن ، انه شيء مختلف عن الوجود فى عمل وظيفي ، حيث يلقى أحدهم الجرس ، فتضطرين الى الصمود او الهبوط لتلبية طلبه ، أو حيث تجدين نفسك مضطرة لاتجاز هذا العمل . وذاك فى غضون نصف ساعة » .

وفى اجابة أخرى نجد تعبيراً آخر عن مظاهر الاستقلال والذاتية مثل :

« ان اعظم محاسن كونك ربة بيت . هو انك لا تضطرين الى الاستيقاظ مبكرا ، والذهاب الى العمل » .

وفى الحقيقة ان الذاتية والاستقلال فيما يتعلق بربة البيت هي امر نظرى أكثر منه واقعى متحقق ، فكونها رئيسة نفسها يفرض عليها واجبا ، هو انها لا بد ان تنجز العمل المنزلى وتتأكد من ان كل شيء فى موضعه ، ومسئولية العمل المنزلى هي مسئولية من جانب واحد فقط ، والفشل فى تحملها ، قد يكون له نتائج بعيدة المدى ، وبخاصة على الزوج والاولاد .

ان حقيقة كون الانسان رئيس نفسه يضيف الى الضغوط السيكولوجية لاداء العمل المنزلى أكثر من كونه يخفف منها . وتوضح احدى الزوجات ذلك بقولها :

« ان اسوأ شيء يتعلق بالعمل المنزلى هو انك تضطرين لادائه لجدد انك فى المنزل . وعلى الرغم من انى املك حرية الاختيار فى الا اقوم به ، فانى احسن انى لا استطيع ، لانه يجب أن اقوم به » .

لعملين ؟ وأجيب بأنى أم ، ولى أولاد ، وائنى زوجة ، فاتهم يهزون رؤوسهم باستخفاف قائلين : أوه ، مجرد ربة بيت ائنى لمعجب ... مجرد ربة بيت ! اشق مهنة فى العالم ... ينظر إليها بهذه الطريقة ؟ ! » .

ويتبين مما سبق أن مسألة التصنيف المهنى أو الوظيفى مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بصورة الذات ، لأنها تعكس كيفية رؤية الزوجات لأنفسهن كربات بيوت ، ولكن مهما كان مستوى توحده الزوجات الذاتى مع دور ربة البيت ، فيكفى أن الفكرة السائدة عنه فى ثقافة المجتمع هو أنه عمل ثاقف وضيح ، منخفض المكانة بالنسبة للأعمال الأخرى ، وهذا ما يخلع عليه أوصافاً معينة مثل العمل الملل ، أو العمل الثاقف ، وما يخلع على ربة البيت أوصافاً مثل الجملة ، والفتية ... الخ من الأوصاف السلبية وتصور أحد الزوجات ذلك بقولها :

« إلى المخرج من كتابة ربة بيت على أية أوراق رسمية ، أنى أفضل أن أكتب سكرتيرة مثلاً أو أية وظيفة أخرى ، فإني لها انكاسا أحسن ، أن معظم الزوجات ربات بيوت ، وهذا يبدو رتبياً مملاً . أنك لا تتوقع حينئذ إلا التنظيم ، والألوية ، والطبخ » .

تنتقل الباحثة بعد ذلك إلى نقطة أخرى جديرة بالاهتمام وهى مسألة الخلط بين الأنشطة المختلفة التى يتضمنها العمل المنزلى ، ومدى الحاجة إلى تعديدها ، وتصنيفها . أن العمل المنزلى فى رأيها هو مجموعة من الأعمال غير المتجانسة التى تتطلب مهارات متنوعة ، وأنواعاً مختلفة من النشاط ، فمسمح الأرضية يختلف عن الذهاب لشراء بعض اللحوم

وكثيراً ما يوصف العمل المنزلى بأنه « عمل لا ينتهى » ، ويلهب البعض إلى أنه عمل أكثر أرهاقاً من الناحية الجسمية ، من أى عمل آخر مأجور . وتلهب بعض السيدات إلى : أقول بأنه يأخذ جهداً عاطفياً أكثر من أى عمل آخر بالإضافة إلى الجهد الفيزيقي . وتشير بعض السيدات إلى طبيعة الأعمال المنزلية غير البناءة ، كما يلفتن الانتظار ، إلى الاحباط العاطفى الذى ينشأ من كون إحساس ربة البيت بأنها مشدودة إلى طاحونة ، أو ساقية ، يتطلب منها أن تؤدى العمل نفسه مراراً ومرة .

والزوجات بوصفهن العمل المنزلى ضمن الأعمال اليدوية ، يجعله بذلك فى مرتبة عالية من مراتب الأعمال . وقد كان هذا الدفاع عن العمل المنزلى ضرورى من جانب الزوجات ، إزاء الأعمال السالدة لهذا العمل ، وإزاء النظر إلى ربة البيت على أنها مدبرة منزل تعمل بحريتها ، ووفق ما يحلو لها .

وعندما سئلت الزوجات عن مشاعرهن إزاء كتابتهن لوظيفتهن كربات بيوت فى أية صحيفة أو أوراق رسمية . أجابت أكثر من نصف أفراد العينة بأنهن يستشعرن حرجاً ، ومشاعر بالانكسارية نشأت من أن العمل المنزلى عمل أقل من غيره من الأعمال ، وهن يعبرن عن ذلك بكتابتتهن فى تلك الأوراق : « مجرد ربة بيت » . أن هذه الكلمة مجرد ربة بيت أو ربة بيت فقط تعنى الكثير ، أنها تصور مدى شعور ربة البيت بتقليل المجتمع من شأن هذا العمل مقارنة بالأعمال الأخرى ، كما أن هذا يتضمن أيضاً تقليلاً من شأن أدوارها كزوجة وأم . وتصور إحدى أفراد عينة البحث هذه المشاعر أصدق تصوير حين تقول : « إلى أكره كلمة ربة بيت ، وعندما يسألوننى من أنت ؟ وملاذا

أقل بقضا إلى ربات البيوت من غسل الإطباق،
رغم أن كلا العاملين يتطلب إزالة القاذورات من
الأشياء .

ويعزى ذلك إلى أن هناك ارتباطا شخصيا
بالملابس . فالملابس التي تفضلها ربة البيت
تنتمي إلى زوجها أو أحد أبنائها ، أو إليها
ذاتها . يضاف إلى ذلك أن وسائل الاعلام تركز
على عملية الفسيل وتقلها بهالة جميلة في
اعلاناتها التجارية عن المنظفات المختلفة موحية
إلى ربة المنزل بأن تقام فسيلها وبياض لونه
هو أحد واجباتها الاساسية .

وجدير بالذكر أن استخدام الآلة بالنسبة
لمعملي غسل الإطباق وغسيل الملابس ، يقلب
اتجاه ربة البيت إليهما من كره إلى تقبل ، وقد
لاحظ ذلك بالنسبة إلى الكثير من المراسد
العينة (٢) .

أما التسوق ، كدور من أدوار ربة البيت ،
فأمره مختلف ، ذلك أنه دور أكثر اجتماعية ،
فهو يتطلب غيابا عن مقر عملها وهو المنزل ،
لذلك فقد ذكرت معظم الاجابات أن التسوق
من الاعمال المحببة لأنه يتضمن خروجا من
المنزل ، ومقابلة للناس ونوعا من التغيير من
جو المنزل . وقد ذكرت بعض السيدات أنهن
لا يحتجن للخروج من المنزل يوميا للتسوق ،
لكنهن يفعلن ذلك لجرد الخروج من المنزل ،
أو لاعطاء صغيرهن فرصة لنزهة قصيرة . ورغم
هذه المزايا المرتبطة بالدور الاستهلاكي لربة

والفائكة ، وطهي وجبة يختلف من غسل
الملابس ... الخ . واطلافا الاسم نفسه على
كل هذه الاعمال أمر يتضمن اتكارنا لوجود
اختلافات وفروق بينها . ففي الحقيقة توجد
بين هذه الاعمال ، أعمال أحب من الأخرى ،
وأعمال أقل رغبة وبعضا على الملل ، وأخرى
أكثر خلقا وإيجابية ، وهكذا . وجدير بالذكر
أن كل عمل من الاعمال التي تقوم بها ربة البيت
كالطهي ، وغسل الملابس ، وكثيرا ، وتنظيف
المنزل يمكن أن يشكل دورا مهتيا مأجورا .

ومن تحليل المؤلفات للامعمال المنزلية
المختلفة وجدت أن أهمها هي : التنظيف
والتسوق ، والطهي ، وغسل الإطباق ، وغسيل
الملابس ، والتي . وقد كانت هناك أسئلة من
أحب هذه الاعمال إلى قلب ربات البيوت ومن
أنفضها إليهن ، كشفت الاجابات عن أن أبغض
تلك الاعمال ، كان كي الملابس لأنه عمل مجهد
رتيب ، يتلوه العمل الخاص بفسيل الإطباق
لما فيه من قدرة ، وتكرار . أما تنظيف المنزل
فأبغض ترتيبه الثالث من حيث كراهية ربات
البيوت له ، ذلك لأنه عمل متكرر لا ينتهي ،
كما أنه على العكس من عملية التسوق ، عمل
يؤدي في مرلة وصمت ، لفنما تعمل المكتسة
الكهربائية فانها لا تستطيع تبادل الحديث مع
الأخرين ، يمسك ما يحدث لعملية الطبخ والتي ،
فيمكن لربة البيت تأديتهما وهي تتحدث إلى
صديقة مثلا . وتأتي بعد ذلك في الترتيب
الاعمال الخاصة بغسل الملابس والتسوق ،
والطهي . أما بالنسبة لفسيل الملابس فهو عمل

(٢) تتفق هذه النتيجة مع نتائج بحث مصري ، تقول فيه صاحبه :

« إن الزوجات أنفسهن أصبحن يتسابقن من أداء الاعمال الخاصة بالفسيل ، وغسيل الصحون بالطرق التقليدية لأنها
تضمن قدرا كبيرا من (الرضا) . ولكنهن يابتن عليها كلما أصبحت آتية . »

انظر : سامية حسن الساعاتي « المصدر السابق » ص ٥٤٢ .

لنقل الطهي من كونه عملاً إلى كونه عملية وقضاء وقت، وتعكس تلك المحاولة مثلاً واضحاً على الابتكار الاجتماعي لاعتبار العمل المنزلي عملاً بالمعنى الصحيح . ولكن إيجابيات العمل المنزلي الخاص بالطهي تفسده سلبيات منها أن الأرواح يطلبون الطعام في أوقات محددة ، وأن وقت طهي الطعام قد يتداخل مع الوقت المحدد لفصل الملابس أو تفسير الأسرة ، أو اطعام الوليد أو الصغير . ومن السلبيات الأساسية لعملية الطهي تلك المهمة الثقيلة التي لا تنتهي أبداً وهي التفكير الدائم في السؤال الخالد : ماذا نأكل اليوم ؟ .

ويمكن ن تلخص في آخر هذا الفصل الإيجابيات المتصلة بالأعمال المنزلية بعامة مرتبة حسب أهميتها في نظر الزوجات، وهي :
التمكن من محادثة الآخرين أثناء العمل ، واعتدال المزاج أثناء أداء العمل المنزلي ووجود وقت كافٍ له ، وإن تكون هناك خلفية جيدة للعمل وذلك بتوفر الأدوات الحديثة ، ووجود مقدار كافٍ من المال للمتطلبات المنزلية المختلفة وتوفر التقدير اللازم للعمل . أما السلبيات المتصلة بالعمل المنزلي ، فتمركزت حول المال والرتابة والتكرار، وعدم توفر الأدوات المناسبة لأداء الأعمال المنزلية ، وانحراف المزاج أثناء العمل ، وامتناع الأطفال طريق ربة البيت أثناء أدائها لعملها ، وعدم وجود الوقت الكافي لأداء العمل ، والعزلة الاجتماعية ، والاضطراب الدائم إلى التفكير في العمل المنزلي وترتيباته .

كما سبق يتضح لنا يتضح لنا إذن صدق ما ذهبت إليه المؤلفة من أن ربات البيوت ينظرن إلى العمل المنزلي على أنه عمل يماثل غيره من أنواع الأعمال الأخرى . ومن تحليل ملاحظاتهم من أحب مظاهر العمل المنزلي ، ومن أيقضها بالنسبة اليهن تبين أن التحرر من الرقابة كان

البيت، فإن هناك سلبيات لهذا الدور تنبلور في المصائب الفيزيقية . فاصطحاب أطفال أثناء عملية التسوق ترهق ربة البيت جسدياً وعقلياً ، فإن الجمع بين عملية التسوق وبين رعاية طفل أو أكثر أثناءها يجعل اهتمام ربة البيت موزعاً ، ويقلل من كفاءتها كمستربة كما أن الانتظار الطويل في بعض المجمعات الاستهلاكية ، أو المحلات أمر يبعث على الملل . وبلاحظ أن هناك فرقاً بين نوعين من التسوق : تسوق بشكل جزئي ، ويحدث يومياً تقريباً لشراء متفرقات بكميات قليلة ، وتسوق آخر كلي يأخذ شكل التخزين ويحدث مرة أسبوعياً أو كل أسبوعين . وهذا النوع الأخير من التسوق هو الأكثر كراهية من جانب ربات البيوت لأنه يتطلب جهداً مضاعفاً في شرائه وتوصيله إلى المنزل ، ولا شك أن وجود سيارة ، وهو أمر لا يتوفر للكثيرات ، يسهم في التقليل من حدة كراهية هذا العمل .

أما العمل السادس من الأعمال المنزلية الرئيسية فهو الطهي ، والذي اعتبرته جميع ربات البيوت اللاتي تضمنتهن العينة أكثر الأنشطة المنزلية قرباً إلى قلوبهن لأنه يمثل في رأيهن فناً خلاقاً، واستمراً في القدرة والمهارة. ولا شك أن نظرة ربات البيوت للطهي على أنه عمل فني خلاق ، يمثل انعكاساً للفكرة الثقافية السائدة عنه ، والتي تؤكد وسائل الإعلام والإعلانات ، والمجلات النسائية ، ودور النشر التي تخصص كتباً بأكملها لهذا الفن . والملاحظ أن معظم التوجيهات الثقافية في هذا المجال والتي تتناول الطهي بوصفه فناً ، واستعراض عضلات ، لا ترشد ربة البيت إلى كيفية صنع أكثر الوجبات فني بالمواد الغذائية المفيدة في أقصر وقت ممكن ، قدر ما تعلمها كيف تزين الاكلات المختلفة وتجعلها شهية . وهذه محاولة

في المقارنة بين بحثها وبين بحوث أخرى تناولت الموضوع نفسه ، واتخذت ذلك المحك التقليدي أساسا للدراسة .

ومن النتائج الجديرة بالاهتمام في هذا الفصل انه ليست هناك فروق طبقية في النوع وإنما في الدرجة فقط بين الطبقة العاملة والطبقة الوسطى من ربات البيوت ، اللاتي كان لهن عمل خارجي قبل الزواج ، في تفضيل العمل الوظيفي على العمل المنزلي على أساس أن العمل المنزلي يفقد المكافأة الاقتصادية ، ويتميز بالانزواء وقصص الاعتراف الاجتماعي بالمسؤوليات الملقاة على عاتق ربة البيت .

ومن أهم النتائج التي توصلت اليها الباحثة ، هو أنه ليست هناك فروق في الطبقة الاجتماعية بين الراشيات وغير الراشيات من العمل المنزلي ، فقد كان الاتجاه السائد بين الغالبية العظمى من المستجبات في هيئة البحث هو عدم الرضا عن العمل المنزلي سواء بين ربات البيوت من الطبقة العاملة أو من الطبقة الوسطى . أما من حيث اتجاه أفراد العينة نحو دور ربة البيت فقد كانت هناك بعض الفروق الطبقية ، وحيث كان اتجاه ربات البيوت من الطبقة العاملة بعامه أكثر إيجابية من مثيله بين ربات البيوت من الطبقة الوسطى . ومن هذا يتبدى أن ربات البيوت من الطبقة الوسطى أكثر ميلا لإدراك المكانة المنخفضة لدور ربة البيت من مثيلاتها من الطبقة العاملة . ولذلك فإن الشكوى من تلك العبارة الشائعة « مجرد ربة بيت » ، هي أكثر ترددًا بينهم منها بين نظيراتها من الطبقة العاملة .

وقد يبدو في النتائج السابقة شبيهاً من التناقض ، ولكن هذا التناقض يزول إذا ما أدركنا أن المؤلفنة تفرق بين الشاكر نحو

على رأس الصفات الإيجابية ، أما العمل المنزلي ذاته فكان في مقدمة السلبيات التي ذكرناها . وقد عزى العمل المنزلي بأنه عمل « حقيقي وشاق » ، وهي صفات أكدنها ليجابهن بها تلك الأفكار النمطية الخاطئة السائدة في ثقافتهن ، والتي تلحق على العمل المنزلي مكافأة وقيمة منخفضة . كما تبين من البحث أيضا أنه بينما تتناول تلك الأفكار النمطية الخاطئة الشائعة في الثقافة ، العمل المنزلي كنشاط منفرد ، فإن ربات البيوت ينظرن إليه على أنه عمل رئيسي يتضمن أعمالا وأنشطة فرعية منفصلة . وظهر من البحث أنه شاكر الرضا وعدم الرضا عن مختلف الأعمال المنزلية تأثر كثيرا بالظروف التي تتم فيها هذه الأعمال والتي تتعلق بمدى توفر الأجهزة والأدوات اليسرة والمخففة .

وفي نهاية هذا الفصل يمكن القول بأن الصورة التي رسمتها المؤلفنة للعمل المنزلي ولربات البيوت من خلاله ، من واقع النتائج التي أسفر عنها بحثها ، تتعارض مع الصورة السائدة عنه وعتم في الثقافة ، والتي تلعب إلى أن ربات البيوت يشكن طبقة مرفهة ، وأنهن لا يعملن شيئا طوال اليوم .

أما الفصل الرابع ، فيتناول موضوعا هاما هو العلاقة بين الطبقة الاجتماعية والأعمال المنزلية ومدى الرضا أو عدم الرضا عنها . ومفهوم الرضا عن العمل المنزلي في هذا الفصل مشتق من مفهوم الرضا عن العمل المستخدم في علم الاجتماع الصناعي ، وعلم اجتماع العمل فهو يمثل تقييما شاملا لدرجة الإيجابية أو السلبية التي تتناول بها ربات البيوت عملهن . وقد حددت الباحثة مفهوم الطبقة الاجتماعية على أساس مهنة الزوج ، وهو مقياس تقليدي ، وقد برزت الباحثة اختيار ذلك المحك التقليدي بأنه أكثر ملائمة

اختلافات عديدة بين ربوات البيوت في هيئة البحث بهذا الصدد ، وحيث كانت بعضهن تضع لنفسها معايير صارمة في أداء العمل المنزلي ، حتى انه يمكن تصنيفها بالولوجيا ضمن الحوازيات، بينما لا تتبع أخريات أسلوبا أو نظاما معيناً في أدائه . ولتحديد تلك المعايير وذلك الروتين وظائف عامة ، **أولها** إنها وسيلة لتوحيد أعمال غير متجانسة تكون العمل المنزلي في بناء وظيفي متماسك ، **وثانيها** أنها دليل على أن العمل المنزلي عمل له معايير وروتيته مثل أي عمل آخر ، وهذا في ذاته دفاع ضد من يقول أن المرأة في المنزل لا تفعل شيء ، **وثالثها** أن في تحديد تلك المعايير وذلك الروتين توسيع لجال العمل المنزلي ، وبخاصة أمام ربة البيت المتفرعة التي لا تعمل خارج منزلها، وأخيراً أن ربة البيت بذلك التحديد إنما تضع ميكانيزما تستطيع أن تكافئ نفسها عن طريقه في إنجاز العمل المنزلي . وتأخذ الكفاءة السيكلوجية التي تحصل عليها ربة البيت من تمسكها بمعايير أداء العمل المنزلي ، وروتيته المعين ، شكلا موضوعيا على الرغم من أنها موضوعة سلفا بواسطة ربة البيت كعامة . وتلعب وسائل الاعلام أيضا دورا في تحديد معايير العمل المنزلي ، كما تسهم في ذلك إلى حد كبير ، **التنشئة الاجتماعية** المنزلية السابقة لربة البيت وإعدادها للعمل المنزلي .

وتخصص **الوثلة الفصل السابع العلاقة**

بين **التنشئة الاجتماعية** لربة البيت وبين صورتها عن ذاتها . وفيه تبين أن العمل المنزلي، مثله في ذلك مثل أي عمل ، لابد أن تسبقه فترة تدريب مهني أو لعملة وظيفية . ولكن الأعداد الانثوى للدور المنزلي ، يختلف من الأعمال الأخرى في أنه لا يتخذ شكلا رسميا ، ولذلك لا ينظر إليه على أنه لعملة وظيفية .

العمل المنزلي ، وبين الاتجاه نحو دور ربة البيت . فربما أحست المرأة بإيجابية وقبول لدور ربة البيت ، ولكنها في الوقت نفسه تكره العمل المنزلي ، كما أن عكس ذلك النموذج يمكن تواجده أيضا ، فالمشاهير تجاه العمل المنزلي يتدخل فيها التعود على أداء هذه الأعمال والخبرة بها ، أما اتجاهها نحو دور ربة البيت ، فمسألة يتدخل فيها مفهومها عن ذاتها ومعايير الثقافة الفرعية التي تعيش فيها والخاصة بمظاهر سلوك الدور الانثوى ، وحيث تختلف اتجاهات المرأة نحو دور ربة البيت في الطبقة العاملة عنها في الطبقة المتوسطة، بينما لا توجد اختلافات بينهما فيما يتعلق بنشاط العمل المنزلي .

وفي **الفصل الخامس تناقش الوثلة**

ظروف العمل المنزلي ، وتتناول فيه الفترات التي يستغرقها هذا العمل ، والخلفية التكنولوجية التي يتم فيها . وقد تبين منه أن متوسط عدد ساعات العمل المنزلي لربوات البيوت في هذا البحث كان سبعا وسبعين ساعة أسبوعيا، وهو عدد يماثل تقريبا ضعف عدد ساعات العمل الأسبوعية للعامل الصناعي والذي يقدر بأربعين ساعة في المتوسط . كما تبين منه أن استخدام الاجرة والإدوات المناسبة في العمل قد يقلل من الشعور بعدم الرضا عن العمل المنزلي لكنه لا يحوله من عمل بغضى الى عمل سار محبوب . كما ظهر أن بعض الصلات الاجتماعية لربة البيت قد تقلل أيضا من ذلك الشعور بعدم الرضا .

وفي **الفصل السادس تلقى الوثلة الضوء**

على **المعايير المتعلقة بالعمل المنزلي** والتي على أساسها تتبع ربة البيت أسلوبا معيناً أو روتيناً معيناً في أدائه . وقد كانت هناك

الآخرين طوال الوقت - اننى امسقت الخروج
- اننى مسيطرة - اننى حاملة - اننى قلقة . »

وبهدف وضوح المقارنة فاناسوق اجابة
اخرى للاختبار ذاته ، لربة بيت من الطبقة
العاملة تكشف عن تصورها لذاتها :

« اننى ربة بيت جيدة - اننى اُجيد
معاملة ابنائى - اننى اُجيد العمل المنزلى
- اننى اُجيد معاملة زوجى - اننى اُجيد
الفصيل - اننى اشعر بالسام أحيانا - اننى
اشعر بالفضب أحيانا - اننى شديدة السعادة
بعملى - اننى سعيدة باولادى - نادرا ما
أكون نعيسة . »

وتتضح من المقارنة السابقة نتيجة هامة
اخرى ، تضاف الى النتائج سالفة الذكر
وتؤيدها ، وهي ان صورة المرأة من الطبقة
العاملة من نفسها يتضح فيها بشدة توحدها
بدور ربة البيت ، واقبالها على العمل المنزلى ،
بينما تظهر قدرة المرأة من الطبقة الوسطى
على رؤية نفسها ووصفها لها من منظور
الشخصية وسماتها .

وفي الفصل الثامن تبحث المؤلفات موضوع

الزواج ، وتقسيم العمل بين الزوجين من
وجهة نظر بعض المتخصصين في علم الاجتماع
الاسرى ، كما تتعرض المؤلف في هذا الفصل
الى وصف تقسيم العمل المنزلى بين الزوجين
وتحليله كما تبحث معتمدات ربات البيوت
من افراد العينة حول الادوار الذكرية
والانثوية .

وقد أجريت الاستبيارات مع الزوجات
فقط ، ولم تشمل الأزواج ، وقد طلب منهم
تقييم مدى اشتراك أزواجهم معهم في العمل

والسبب الرئيسى في ذلك هو ان اعداد المرأة
لتكون ربة بيت يختلط مع تنشئتها لدورها
الانثوى بالمعنى الواسع . وتفصح نتائج البحث
من ان جميع افراد العينة قد قررن انهن على
وهي بوجود صلة وثيقة بين طرفهن في اداء
العمل المنزلى وبين الطرائق التى كانت امهاتهن
يستخدمنها لاداء العمل نفسه . وفى هذا
تقول احدى افراد العينة :

« ان لي نفس المعايير التى كانت تتبعها
امى فيما يتعلق بأعمال المنزل . فقد كانت
تفعل كل ما ينهى عمله ، ولم يكن هناك من
يستطيع ان يتجول بمينيه في المنزل ليقول
ان هذا العمل او ذاك ينقصه شيء .. اننى
دائما احاول ان امثل بها . »

ومن النتائج الهامة في هذا الصدد ،
ان هناك فروقا طبقيّة بين ربّات البيوت فيما
يتعلق بصورة الذات ، فقد كان هناك ميل
لدى اللائى ينتمين منهن الى الطبقة الوسطى
الى ذكر احد دورى الزوجة ، والام او كليهما ،
دون الاشارة الى دور ربة البيت في تصورهن
لذاتهن . كما وجد ميل لديهن ايضا الى رؤية
انفسهن من خلال ادوار اخرى غير منزلية ،
كالادوار الدينية او السياسية ... الخ . اما
ربّات البيوت من الطبقة العاملة فقد كن يملن
الى اختصار دورى الزوجة والام تحت كلمة
« ربة بيت » ، وذلك في وصفهن لذواتهن .
وفيما يلي اجابة احدى ربّات البيوت من
الطبقة الوسطى على اختبار المشرجل ، الذى
يكشف عن تصور الذات ..

« اننى متقلة - اننى اعمل بجد - اننى
اتكلم كثيرا - اننى سعيدة معظم الوقت -
اننى امرأة راضية - اننى احتاج وجود

في هذه اللحظة فانه يقوم بتنظيف الحجرة الأخرى ، كما أنه ينظف النوافذ بانتظام ، ويقوم بتجفيف الأطباق ، وهو يعينني على الانتهاء من عمل المنزل لأنه يحب أن يجلس معاً سوياً بعد الظهر ، وهو يكرى ملاعبه أيضاً. وعندما تكون في المنزل معاً فانه يشاركني في رعاية الطفل ، فهو يحمله في المساء ويغفر له لفلقه ، وفي يوم العطلة يصحو له مبكراً في الصباح كي يعطيني الفرصة لنام بفسحة ساعات . »

وهذه صورة أخرى لزوج حصل على تقدير منخفض في المشاركة في كل من العمل المنزلي ، ورعاية الأطفال ، تقول زوجته :

« أنه لا يساعدني أبداً في الأعمال المنزلية ، ولا في شراء لوازم المنزل ، ولا في الطهي ، انه يقول دائماً : أنتي أعمل طوال اليوم ، وعندما أعود الى المنزل أكون مرهقا تماما . وهو لا يشترك في رعاية أبنائه أبداً . انه يحب الأطفال ، ولكنه لا يراهم . فقد كان على أن يؤدي واجب المواظبة منذ يومين ، ولكنه لم يدعني أذهب لأنه قال لي : أنا غير مستعد لأن أرى الأطفال الى حين مودتك . لذلك فانه اذا كان على أن أذهب لأي مكان لقضاء أحد شؤني فلابد أن تكون « ماري » أكبر بناتي بالمنزل . أنني أقصد انه يرفض مجرد الجلوس مع أبنائه لحين عودتي ، لا لأنه يكره الأطفال ، بل لأنه ببساطة قد ورث هذا الاتجاه من والده ودائماً ما يردد كلمته المأثورة : أنتي لا يمكن أن أقبل أن تدلني امرأة على ما ينبغي لمه . »

أما من حيث تحليل معتقدات ربات البيوت التي تدور حول الأدوار الذكورية والأدوار الأنثوية فقد ثبت من البحث أن معظمهن يلهجن الى أن مكان الرجل ليس في

المنزلي وفي رعاية الإبناء على السواء بشلالة محكات تتراوح بين عال ، ومتوسط ، ومنخفض ، وقد أوضحت إجابات الاستبيارات من ثلاث نتائج هامة :

١ - أن قلة من الأزواج فقط هم الذين يساعدون زوجاتهم بقدر مرتفع . فقد كان ١٥ ٪ من الأزواج فقط هم الذين حصلوا على تقدير عال في المشاركة في العمل المنزلي بينما حصل ٢٥ ٪ منهم على التقدير ذاته في المشاركة في رعاية الأطفال .

٢ - اختلفت نماذج مشاركة الأزواج لزوجاتهم باختلاف الطبقة الاجتماعية فقد كان اشتراك الأزواج من الطبقة المتوسطة في العينة ، أكثر انخفاصاً من اشتراك الأزواج من الطبقة الدنيا ، وذلك فيما يتعلق بالعمل المنزلي ورعاية الأطفال .

٣ - كان هنالك ميل أكثر من قبل الأزواج للمشاركة في رعاية الأطفال منه في العمل المنزلي .

ومن بين من حصلوا على تقدير عال في المشاركة في كل من العمل المنزلي ، ورعاية الأطفال نلتقي هذه الصورة لزوج يعمل في تجارة الملبات ، وكانت زوجته تعمل على الآلة الكاتبة قبل أن تترك بطفها :

« أنني أساعده في عمله ، فأطبخ له أوراقه ، وأضيف بعض قترات اذا لزم الأمر . كما أنه يساعدني في عملي أيضاً . انه طاه معتاز ، وهو لا يمانع في أن يأتي في نهاية اليوم ليطبخ وجبة . وفي الأسبوع الماضي مثلاً قام بطهي ثلاث وجبات . واذا حدث أن كنت أقوم بتنظيف حجرة بالكنسة الكهربائية وأقبل هو

ابنائها في ألوقت نفسه . ويريد رضاه ربة البيت من عملها المنزلي كلما ساعدها زوجها في أن يحمل عنها بعض الصعب في تربية الاطفال لانه عندما يحدث ذلك فان الضغوط الناشئة عن أداء دور ربة البيت ودور مربية الاطفال تخف حدتها .

ولقي الكتابة الضوء على دورى الزوجة كربة بيت ومربية اطفال معا ، وعلى المشكلات الناجمة من الجمع بين هذين الدورين . وهي ترى أن هناك تناقضا واضحا بينهما ، ولا ينجم هذا التناقض فقط من أن الاطفال مخلوقات فوضوية ، تفسد نظام البيت المنظم ، ولا من حاجتهم لأن تطعمهم الأم ، أو تلعب معهم ، أثناء أمدادها الطعام أو تنظيفها للحجرات ، بل أن هناك تناقضا أساسيا يكمن في طبيعة هذين الدورين ذاتهما . فترية الاطفال محل منتج ومثمر Productive ، بينما لا ينطبق ذلك على العمل المنزلي . فالعمل المنزلي عمل له أهداف وقتية ومتكررة ، فالمنزل ينظف اليوم ، وتماد نظافته في الغد ، وهكذا لمدة سنوات قد تروى على الثلاثين أو الأربعين . اما الامومة فان لها هدفاً وحيداً بعيد المدى ، فالأم تربي الابناء حتى يعتمدوا على أنفسهم ويستغنوا عنها بالتدريج ، ولذلك فقد كان أحد المحكات الأساسية في اختيار العينة أن يكون لدى كل امرأة طفل على الأقل في سن ما قبل المدرسة .

ونظر الكثير من الزوجات الى دورهن كربات بيوت ، ومربيات اطفال على انهما وجهان لعملة واحدة ، وغالباً ما يعتبرن تربية الطفل ، وتنظيف ملابسه ، وتربيته ، جزوا من العمل المنزلي ، كما أن المعايير التي يضعنها لانفسهن والمتعلقة بالعمل المنزلي ، غالباً ما تنسحب على تربيتهن لأطفالهن ، واهمها

البيت ، حتى وإن كن يعبلن مشاركة الرجل لهن في الاعمال المنزلية مشاركة أكثر . وبالمثل فإن من كانت تريد منهن أن تسهم بقدر أقل في العمل المنزلي فانها كانت تصابه بتلك الضغوط الاجتماعية الناشئة من المعيار القائل بأن المرأة تنتمى الى مملكة العمل المنزلي ورعاية الاطفال .

كما اسفرت نتائج البحث ايضا أنه خلال دورة الزواج تكون هناك فترات تتسم بالمشاركة أكثر من غيرها . فحين تخرج الزوجات الى العمل تزداد درجة مشاركة الأزواج لهن في الاعمال المنزلية ، وفي رعاية الابناء . وهذه النتيجة تتسق مع ما ذهبت اليه بحوث أخرى كبحث «هوفمان» Hoffman الشهير من النساء العاملات وتأثير عملهن على الأسرة ، ولكن ذلك لا يعني أن آراء الزوجين متحررة أو متنادية بالمساواة ذلك لانه عندما تكف الزوجة عن العمل خارج المنزل فان رغبة الزوج في مساعدتها تقل ، وبكس تقسيم العمل بينهما عندئذ نموذجاً تقليدياً واضحاً . ويبدل ذلك على أن معتقدات الزوجين الاصيلية عن الادوار الذكورية والانثوية لم تتغير .

وتعالج الكتابة في الفصل التاسع والاخير تربية الاطفال كوظيفة مرتبطة كل الارتباط بالعمل المنزلي . فمعظم ربات البيوت من الامهات ، وكل الامهات ربات بيوت . وقد ظهر من خلال هذا الفصل والفصول السابقة أن الاطفال يقررون في مدى الاستمتاع بالعمل المنزلي ، لانهم يعملون مساهمات العمل الاسبوعية اطول ، كما أنهم كثيراً ما يظهرون كسواً محبطة لربة البيت كعاملية منزلية . فدائماً ما يقطعون عليها عملها ، ودائماً ما تجد نفسها وسط اعمالها المنزلية الكثيرة ، مطالبة برعاية

بماحة . وتطرح عدة أسئلة أهمها : ما هو مدى وهي ربات البيوت - أو مدى الوعى الذى ينبى أن يكن عليه - بوقفهن كنساء ، وهل ينظرن الى أنفسهن كجماعة مضطهدة ؟ وهل تلاقى حركة تحرير المرأة مدى بينهن ؟ وإلى أى مدى نجحت حركة التحرير هذه فى توصيل إيديولوجيتها وأفكارها اليهن ؟ وما هي أنسب الوسائل ، وأنجع الطرق لتحرير ربة البيت؟ .

وتجيب الباحثة عن هذه الأسئلة اجابة مركزة فتقول : أن انتماء معظم النساء للأدوار التقليدية لربة البيت والزوجة والأم ، لا يمكن أن يعالج فقط بالنظر لواقعهن من بناء اجتماعى واقتصادي معين ، بل يجب أن تمتد لتشمل فهما شاملا للكيفية التى تستطيع بها النساء أن يتوحدن مع قهرهن . بمعنى آخر أن الأبنية والنظم التى تضطهد المرأة ، لا يمكن أن تتغير ما لم يوجد مسبق لدى المرأة لأهمية هذا التغيير ، وهذا هو دور حركة تحرير المرأة .



ثانياً - التقييم وتقدم :

نجحت المؤلف في إيضاح نظرتها الجديدة الى العمل المنزلي ، وفي تحليلها له كعمل يمثّل غيره من الأعمال ، كما أنها أظهرت زيف تلك الاسطورة السائدة في الثقافة الانجليزية ، وفي ثقافات أخرى كثيرة ، والخاصة بسلبية العمل المنزلي ، وسهولته ، وطبيعته بالنسبة للمرأة وآتى تتضح من أسئلة توجه الى النساء في عالمنا المعاصر مثل : هل مستعدين ؟ أم سبتقين في المنزل ؟ وكان البقاء في المنزل لا يتضمن عملاً . (٧)

معايير النظافة والترتيب . وتمتد هذه المائلة بين الدورين ، مجرد انعكاس لمعايير المجتمع ، والاتجاهات الاجتماعية السائدة في النظر الى المرأة ، والتي تلعب الى أن دور ربة البيت يشمل أدوار المرأة ، والزوجة ، والأم ونادراً ما تفرق بين هذه الأدوار ، أو تذكرها منفصلة .

وتنتهى الباحثة في هذا الفصل الى نتائج هامة استقتها من بيانات بحثها ، وهي أن الأم الماصرة تؤدي دورها في سياق اجتماعى لا يعبث على الرضا . ومنشأ عدم الرضا هو العزلة الاجتماعية ، والمسؤولية المستمرة ، كما وجدت أن الأم كعامل منزلية تواجه صراها بين المطالب المختلفة للعمل المنزلي بحيث يعد الطفل أحياناً وسط خضم هذه المطالب عائقاً في سبيل الرضا عن العمل المنزلي ، أما بالنسبة للطفل فيبعد الجمع بين مطالبه ومطالب العمل المنزلي شيئاً محبطاً له ولأم . وعلى الرغم من أن الرجل يحاول أحياناً أن يعالج تلك المشكلة بالتدخل في رعاية الأطفال ، فإن تدخله يكون غالباً محدوداً بأنشطة معينة مفضلة لديه كاصطحاب الأطفال للنزهة أو وضعمهم في الفراش ، لكنه يصعب عن الاشتراك في أنشطة أخرى لها مظاهر أكثر روتينية ، وأقل متعة في تربية الأطفال ورعايتهم . وهذا التوسع في دور الأب يعطى الأم الفرصة لإدراك بعض الأعمال المنزلية ، وتربيتها على ذلك فانه يعطيها مزيداً من الإحساس بالرضا عن العمل المنزلي .

وفي الخاتمة تركز المؤلفة على تلخيص

أهم نتائج بحثها . وكمرس الجزء الأخير منها لمناقشة مسألة مركز ربة البيت في المجتمع

(٢) هناك عبارات تشير الى ذلك في الثقافات المختلفة ، وفي الثقافة الأوروبية تجيب المرأة إذا سئلت عن هويتها (مجرد ربة بيت Just a House wife) وفي الثقافة المصرية تجيب (مجرد ست بيت) وتشير عبارات مصرية مثل (فلانة مش بتشغل) دي قاسية في البيت .. الخ) الى أن البقاء في المنزل يتضمن الجلوس وعدم القيام بعمل وغبرة « فلانة بتشغل وجوزها معها في البيت » تشير أيضاً الى أن البقاء في البيت راحة ، بعكس العمل الذي لا يكون إلا خارجه .

كان يصبح أكثر إيجاباً ودلالة على ما احتواه بين دفتيه من حقائق ومعلومات (٤) .

إن كتاباً عن سوسولوجيا العمل المنزلي، لابد أن يتضمن موضوعات سوسولوجية متخصصة من بينها : تصنيف الخلفيات الاقتصادية والاجتماعية التي يجري في إطارها العمل المنزلي في ثقافات مختلفة ، والمقارنة بوجه خاص بين الدول المتقدمة كتكنولوجيا ، وبين الدول النامية والمتخلفة ، من حيث طبيعة العمل المنزلي في كل منها . وتحليل دور ربة البيت وما يتضمنه من قوة تتمثل في تأثيرها في نماذج شخصيات أطفالها وسلوكهم فهي المنشئة الأساسية لهم ، بل أن مركزها المحوري في الأسرة يمكن أن يؤثر في صحة أفرادها ومرصهم على السواء . كما لابد أن يحتوى مثل هذا الكتاب على دراسة التفاعل الاجتماعي لربة البيت ، وتحليل عملها المنزلي كعمل يجعلها تتفاعل مع زوجها وأبنائها وجيرانها وأقاربها ، وصديقاتها ، ومعارفها ، والبالغين سواء من يذهبون إليها في المنزل ، أو من تذهب هي إليهم ، وتفاعلها مع الدولة والأسعار من طريق وضعها لميزانية الأسرة ، وتحديدها لخواصات السلع المتوقعة على مدى أقبالها أو احتياجها من شراء سلع معينة . وكذلك في اتخاذ القرارات اليومية المتعلقة بنماذج الاستهلاك والوفسات ، والشئون العامة ، وأهمية النظر إلى مطالبها التكنولوجية وكل ذلك يدخل في إطار علم الاجتماع الأسري وعلم الاجتماع الاقتصادي .

كما أن كتاباً عن سوسولوجيا العمل المنزلي لابد أن يشمل توضيحاً للعلاقة بين

وكان تعمق المؤلف في تحليل صور ربات البيوت من أنفسهن ، ومن اتجاهاتهن نحو العمل المنزلي وما يتضمنه من أعمال فرعية مختلفة ، ومدى شعورهن بالرغبة أو عدم الرغبة من عملهن ، ونفاذاً إلى طبيعة العمل المنزلي نفسه ، بما يستفرقه من وقت وما يتفرع إليه من أعمال ، والكشف عن المصاير التي تحكم اتجاهها ، كل ذلك كان عملاً جديراً بالاعجاب ، كما وفقت الكتابة في عرضها فكلها فاجدت فصول الكتاب منطقية مترابطة ، يسلم كل فصل منها إلى ما بعده في سلسلة ووضوح.

لكنني بالتعمق في دراسة محتويات هذا الكتاب لا أجد مبرراً لهذا العنوان البارز الذي اتخذته وهو (سوسولوجيا العمل المنزلي) فقد كان الكتاب ليما هذا الفصل الأول منه ، وأجزاء يسيرة من الفصل الثالث والسابع والثامن ، سيكولوجي النوعة قلباً وقالياً . فهو يلقى الضوء كله على مسألة الرضا أو عدم الرضا عن العمل المنزلي ، ويحل دور العاملة المنزلية من وجهة نظر سيكولوجية بحثة وذلك بالكشف عن صورة الذات ، وأحياناً يفرق في تحليلها بمنظور علم النفس التحليلي فيأتي ذكر (فرويد) في عدة صفحات من الكتاب . أما تحديد الباحثة للطبقة على أساس تقليدي وهو مهنة الزوج ، فلم يكن منطقياً مع اتجاهها التجديدي ، كما أنه لم يكن واضحاً الدلالات في فنياء الكتاب . ولا يشفع لها في ذلك ما برزت به موقفها ، من أن ذلك التحديد كان أكثر ملاءمة في المقارنة بين نتائج بحثها ونتائج بحوث أخرى تناولت الموضوع نفسه .

والخلاصة أنني أرى أن استبدال عنوان هذا الكتاب بـ (سيكولوجية العمل المنزلي)

(٤) ربما كان السبب في تلك التهمة السيكولوجية التي فلتت الكتاب هو أن المؤلف قد أدخلت أفكار هذا الكتاب وموضوعاته من رسالتها للدكتوراه التي فاجتها سنة ١٩٧٤ ، وكانت بعنوان « الاتجاهات نحو العمل ، واتجاهات الرضا لدى ربات البيوت » وهو عنوان ينهزم من منظور سيكولوجي .

Ann Oakley. "Work Attitudes and Work Satisfaction of Housewives", unpublished Ph.D. thesis. University of London, 1974.

بامرأة جاهرته بأنها لا تحب العمل المنزلي ولا تجيده . كما ان مفهوم العمل المنزلي نفسه لا يد وان يدرس في اطره الاقتصادية المختلفة ، فهو في المجتمع الزراعي الريفي غير في المجتمع الصناعي الحضري ، غير في مجتمع الرعي (٦) وهكذا .

العمل المنزلي ، وبين اختيار الشريكة في الزواج ، فكم من رجل فضل الزواج بامرأة معينة لاسباب من بينها انها تعيد الطهي ، او انها قدمت اليه اكلة مفضلة بطريقة مشوقة ، او لانها ممتازة في العمل المنزلي او « شغل البيت » كما تشيع الاشارة اليه في لغتنا الدارجة (٥) وكم من رجل عرض عن الزواج

(٥) انظر في ذلك نتائج البحث الذي قامت به باحثمصرية من الاختيار للزواج والتغير الاجتماعي ، وشاركت فيه بين جيلين : جيل الشباب من ريف وحضر ، وجيل آبائهم (اما المهارة في اداء اعمال المنزل (الشظرة في شغل البيت) فقد اتى ترتيبها الثالث بين مجموع الصفات المفضلة عنداختيار الزوجة ، وذلك عند كل من الامة المصريين والريفيين من السوا ، بل لقد كان هناك اجماع منهم على هذا الترتيب بلغ حد التطبيق .

ولقد كانت المهارة في اعمال المنزل ، امرا دائما وجوهريال اختيار زوجة المستقبل ل المجموعات الثلاث المكونة لعينة الانماء ، وهي المجموعة المصرية ، والمجموعة الريفي - حضرية، ومجموعة القراء الريفيين .

كما ان احدا من افراد عينة الانماء ، لم يقرر ابدا في اجابته بانه لا يرغب في توافر هذه الصلة في زوجته المستقبل .

انظر : سامية حسن الساعاتي ، الاختيار للزواج والتغير الاجتماعي، دار الانتاج بيروت ، ١٩٧٢ ، ص ٣٠٢ .

(٦) انظر في ذلك نتائج البحث السابق نفسه وفيه لتول الباحثة :

« وايضا ان الغلبة افراد عينة الانماء في مجموعات الثلاثريفيين بلا استثناء في ان تكون زوجة المستقبل دبة بيت ماهرة ، لكن مفهوم ربة البيت الماهرة هنا مفهوم نسبي ، لذلك وايضا ان نتعرف على اهم مقاصده الشاملة في حرف كل مجموعة من المجموعات الثلاث . وكانت اهم الاجابات الصائما هي :

(١) تهتم بشئون المنزل .

(٢) تعيد الطبخ .

(٣) مديرة .

(٤) توالد بين عملها ومسئولياتها المنزلية .

(٥) توالد بين واجبات كزوجة وام .

(٦) تعيد الحنن والحنن والحب وتربية الطيور .

وكان السبب الثاني اكثر تواترا في اجابات مجموعة القراء الريفيين ، اما السبب الرابع فكان اكثر شيوعا في اجابات الكلية الحضرين ، عليهم فئة الطلبة الريفيي - حضرين ، ولعل ذلك يتفق مع تعبير هاتين المجموعتين الظاهر لاشتغال المرأة خارج المنزل واختيار ذلك فصيلا معلمي بها .

اما السبب السادس والاخير فاقترن على فئة القراء الريفيين ولعلنا نلاحظ ان مفهوم المهارة لديهم واسع ، ويتطلب حداية بانوع كثيرة ومتشعبة . ولا غرابة في ذلك فلهذه (او شظرة البيت) كما يقول الريفيون ، من اولى الصفات التي ترفع قيمة العاطفة وتتحدث عنها النساء في القرية اذ يقن « ان بنت فلان » ناز وشراة » ، ولقبها حامي « اي انها سريعة في العمل » .

انظر : سامية حسن الساعاتي ، المصدر نفسه ، ص ٢٣ .

وانظر ايضا للباحثة نفسها تفصيلا لالامال المنزلية في الثقافة الريفية في الثقافة الحضرية في :

سامية حسن الساعاتي ، الدور الوظيفي للزوجة في الامة المصرية ، المصدر السابق ، الفصل الثالث عشر .

من لا تتمتع بعلاقات جيدة مع زوجها ، أو لا تتمتع بتقدير زوجها أو ابنائها لعملها فسوف لا تستشعر بدوافع الإبداع في عملها ولا الرضا عنه ، وينطبق القول ذاته بنسب مختلفة على ردود فعل أصدقائها وأقاربها .

وفي النهاية كان لابد وأن يتضمن كتاب من سوسيولوجيا العمل المنزلي تحليلاً وافياً لديناميات العمل المنزلي ، ودراسة لمسدى مشاركة آخرين غير الزوج والأبناء لربة البيت في العمل المنزلي وأنماط تلك المشاركة ، فهناك المشاركة المتبادلة ، وهي التي تحدث بين ربة البيت وجيرانها أو صديقاتها ، كأن يتبادلن المشاركة في أعمال منزلية معينة كطهي أطباق معروفة وشائعة في أوقات معينة كالاعتماد مثلاً ، أو كأعداد الخبز بطريقة معينة (٧) .

وهناك مشاركة طويلة المدى يقوم بها خدم دائمون ، أو مشاركة موقوتة يقوم بها خدم لساعات معينة من اليوم ، كما أن هؤلاء الخدم الذين يقومون بدور مساعد في العمل المنزلي قد يمتد دورهم أحياناً ليشمل رعاية الأطفال أيضاً ، أو أداء العمل المنزلي برمته وفي ذلك انعكاسات بعيدة المدى على العلاقات والتفاعلات الاجتماعية لربة البيت في أسرهما وفي عملها الخارجي أن كانت تعمل .

وقد أهتمت المؤلفة كثيراً بالجوانب الدائري السيكولوجي الذي تحصل عليه ربة البيت من خلال قيامها بعملها وممسكها بالمعايير التي حددتها ، والروتين الذي وضعت لنفسها ، ولكنها نسيت أو تناست إبعاداً اجتماعية غاية في الأهمية ، وتشمل الجوانب الاجتماعية التي تحصل عليها من خلال تعليقات زوجها ، وابنائها ، وجيرانها ، أو صديقاتها ، أو من مقارنة عملها بالأعمال المنزلية التي تصورها وبرزها وسائل الإعلام المختلفة من إذاعة وصحافة وتلفزيون وسينما . أن ربة البيت حين تعمل فانها لا تعمل في فراغ وإنما تعمل وهي تضع في ذهنها توقعات الآخرين منها ، وتتدخل علاقاتها مع هؤلاء الآخرين ابتداء من زوجها وأولادها وانتهاء بمعزلها ، فيمدى إقبالها على العمل المنزلي وتقبلها له ، أو إضرابها ونفورها منه . فالزوجة الحبيبة لزوجها ، والتي تتميز علاقاتها معه بالتفاهم والود ، تفكر في زوجها أثناء عملها المنزلي ، وتضع نصب عينيها أن تدخل السرور على قلبه حين يعود وأن تنجز عملها على وجه إرضاء وترقيته هي لاسماده ، كما أن ثلثه عليها ، ومكافأته لعملها بالتقدير يجعلها أكثر رضا وإقبالاً على عملها المنزلي ، ويصدق ذلك أيضاً على ابنائها وأصدقائها وجيرانها . أما



(٧) يشيع في القرية المصرية ، أن تتبادل ربات البيوت اليافيات ، المساعدة في الأعمال المنزلية لاعتماد الخبز بطرق معينة تستلزم عمليات شتى من هجن وهيز ، وأن يتبادلن المساعدة في الأعمال المنزلية في الأعياد والمواسم وبخاصة في العيد الصغير الذي يقيمن بعمل الكحك ويخلط ذلك شكل تجمعات متفائلة تشابه فيها العلاقات الاجتماعية بينهن بشكل واضح .

من الكتب الجديدة

كتب وصلت إلى أمانة المجلة، وسوف نعرض لها بالتفصيل في الإصدار القادمة

- Aykroyd, W. R., The Conquest of Famine, Chatto & Windus, London 1974.
- Johnson, Harry G., Technology and Economic Interdependence, Macmillan, London, 1975.
- Lawrence, Daniel, Black Migrants : White Natives, A Study of Race Relations in Nottingham, Cambridge University Press, 1974.
- Macguire, William, The Freud/Jung Letters, Routledge & Kegan Paul, 1974.
- McIntosh, Mary, The Organisation of Crime, Macmillan, 1975.



العدد التالي من المجلة

العدد الرابع - المجلد الثامن

يناير شباط مارس ١٩٧٨

قسم خاص عن :

أهل المعرفة

بالإضافة إلى الأبواب الثابتة

الخليج العربي	٥	ريال	سوريا	٣	ريال
السعودية	٥	ريال	المتاهرة	٢٥٠	ملياً
البحرين	٤٠٠	فلوس	السودان	٢٥٠	ملياً
اليمن الجنوبية	٤٠٠	فلوس	ليبيا	٣٥	قروشاً
اليمن الشمالية	٤٠٠	فلوس	مستط	٤٠٠	دراهم
العراق	٣٠٠	فلوس	الجزائر	٥	دنانير
لبنان	٢٠٠	ليرة	تونس	٥٠٠	ملياً
الأردن	٢٥٠	فلوساً	المغرب	٥	دراهم

الاشتراكات :

للاشتراك في المجلد يكتب إلى : الشركة العربية للتوزيع - ص.ب ٤٢٢٨ - بيروت

مطبعة حكومة الكويت

عالم الفكر

مجلد الثامن - العدد الرابع - يناير - فبراير - مارس ١٩٧٨

آفاق المعرفة

عالم الفكر

رئيس التحرير: أحمد مشاري العدواني
مستشار التحرير: دكتور أحمد أبو زيد

مجلة دورية تصدر كل ثلاثة أشهر عن وزارة الإعلام في الكويت في يناير - فبراير - مارس ١٩٧٨
المراسلات باسم : الوكيل المساعد للشئون الفنية - وزارة الإعلام - الكويت : ص.ب ١٩٣

المحتويات

٢

أفاق المعرفة

٢	بقلم التحرير	التعريف
١١	الدكتور عبد الحميد زايد	خصائص الفن المعري القديم
٧١	الدكتور علي المسلمي	التجاذبات الجديدة في الفكر التنظيقي
٩٥	الدكتور سامي عمران	منهج العمل
١٢٥	الدكتور محمد المصاوي	صورة الإسلام والمسلمين في الأدب الغربي
١٥٥	الدكتور أحمد كمال الدين حلمي	٢٥٠٠ عام من عمر إيران
١٨٣	الدكتورة نبيلة إبراهيم	الإنسان والزمن في التراث الشعبي
٢١٥	الدكتور أحمد أبو زيد	أشكالية السكالية
٢٢٧	الدكتور عبد الحसन صالح	ماذا يحدث في العلوم البيولوجية

★★★

عرض الكتب

٢٨٩	عرض وتطليل الدكتور يحيى فايز الحداد	طبيعة الفكر
٢٩٩	عرض وتطليل ياسر المهدي	المصطفى في أمريكا

المراسلات التي تنشرها المجلة تعبر عن آراء أصحابها وحدهم

آفاق المعرفة

تقديم

لعل أهم ميزة ينفرد بها الإنسان ويتميز بها على سائر الكائنات هي بحثه الدائب عن معنى الأشياء ، وقدرته الفائقة على إثارة التساؤلات ومحاولة الوصول إلى إجابة شافية لهذه التساؤلات ويبدو أن هذه الخاصية كانت صفة ملازمة للجنس البشرى منذ تاريخه المبكر ، كما أنها هي الخاصية التي تلازم الإنسان الفرد منذ طفولته المبكرة حين يبدأ الطفل يوجه انتباهه إلى ما يدور حوله من أحداث كما لو كان يريد أن يكشف سرها ويصل بالتالي إلى فهم غموض الحياة ، وتظل هذه الخاصية ملازمة له طيلة حياته مثلما لازمت الجنس البشرى كله خلال تاريخه الطويل . . وعلى الرغم من أن كل الأنواع الحيوانية المعروفة لنا والتي يصل عددها إلى حوالي مليون نوع تمتلك أمثالا من نوع أو آخر ، فإن الجنس البشرى كله - وبخاصة الإنسان المعروف باسم الإنسان العاقل HOMO SAPIENS كان هو النوع الوحيد الذي أُلح (منحه) في أن يتجه نسيجه إلى بالحضارة بكل مظاهرها ومقوماتها وعناصرها ومكوناتها المادية وغير المادية كما أن الفن - يتفرع ما نعرف

هو الوحيد الذى يدرك طبيعته تكوينه ونوع العمليات التى يقوم بها ، كما يدرك انه قادر على التفكير المنطقي ومدى هذه القدرة التى لا تكاد تجد لها حدود ، بل تكاد نقول ان **النفس** الوحيد الذى يدرك انه موجود وان عليه ان يكشف اسرار الكون بكل ما يحدث فيه من ظواهر طبيعية وحياتية ، كما ان عليه ان يكشف اسرار الانسان وما يعمل فى داخله من عمليات عقلية وعاطفية ، وما يصدر عنه من ظواهر اجتماعية وثقافية ، ويحاول ان يجد لها تفسيراً وتعبيراً مقبولين ، وان يربط بقدر الامكان ليس فقط بين الظواهر التى تنتمى الى طبيعة واحدة ، بل وايضاً بين الظواهر التى تبدو متباينة أشد التباين ، بحيث تنظم في آخر الامر في نسق واحد مفهوم رغم ما بينها من تفاوت واختلاف وتنوع .

والواقع ان خاصية البحث عن الحقيقة والارادة التساؤلات ومحاولة الاجابة عنها تشير الى عدد من الامور التى تستحق الانتباه فيما يتعلق بموقف الانسان من البحث عن الحقيقة .
 واول هذه الامور هو ان مجالات المعرفة واسعة الى ابعد حدود الاستيعاب ومتنوعة الى ابعد حدود التنوع ، وان امكانيات البحث فيها لا تكاد تتوقف عند حد خاص وان التوصل الى الاجابة من أى سؤال من التساؤلات من التى يثيرها العقل الانسانى تفتح في الوقت ذاته مجالات وآفاقاً جديدة للبحث ولرصد من التساؤلات .

والظاهر ان الانسان مدفوع الى ارضاء هذه المجالات الجديدة برغبتى اشباع فضوله الطبيعي للتعرف على اسرار هذا الكون ثم استخدام تلك المعارف المتنوعة في السيطرة على تلك الظواهر والتحكم فيها واستغلالها لصالحه الخاص . الا ان هذه الجهود المتكررة المتجددة للبحث عن الحقيقة والمعرفة هى دليل في الوقت ذاته على عجز الانسان عن اتمام بكل هذه المعارف وقصوره عن الاحاطة بها احاطة كاملة وان كان العقل الانسانى لا يتوقف عن ملاحظة هذه المجالات المتشعبة المتشابهة وارتدادها واحداً بعد الآخر . وهذا في الواقع هو البدا الاصلي للكامن وراء حركة الفكر وسير الحضارة الانسانية ، كما انه الصامل الاساسي للفصل الذى يدفع الى التقدم في كافة المجالات .

فالبحث عن الحقيقة اذن وطلب المعرفة امر شاق وصعب ويحتاج الى بلل الكثير من الجهود والوقت ، وطريق المعرفة طويل تكنفه الصعوبات ، وان كان بعض هذه الصعوبات هى من خلق الانسان نفسه ترجع الى موقف الانسان من المعرفة ومن الحقيقة . بمعنى ان الانسان وبخاصة في الوقت الحاضر ، هو الذى كثيراً ما يفرض على نفسه القيود والحدود التى تمنعه من الانطلاق في شتى المجالات وبالتالى الى الانحصار داخل قوقعة من صنعه يحدد هو نفسه اسمها ومجال التحرك فيها ، وذلك باسم التخصص الذى يعتبر يفرضك احدى السمات الرئيسية للعصر الحديث . فالدئ لا شك فيه هو ان التخصص يؤدى الى نوع من العزلة رغم ما قد يبدو في ذلك القول من تناقض . وهذا ينطبق على سائر المجالات ، سواء في ذلك المجالات العلمية او المهنية وكما يقول JOSEPH ROYCE في كتابه القصير المتع THE ENCAPSULATED MAN ان التخصص هو الذى يجعل عشرين (اخصائياً) مثلاً يشتركون معا في صنع حذاء واحد بدلاً من ان يقوم صانع واحد ماهر بصنع الحذاء كله ، كما كان يحدث في الماضي ، كما ان التخصص هو الذى يؤدى الى تقسيم المعرفة وتجزئتها بحيث تجد مثلاً ان حفاظ الان في صناعة البترول ١٩٧٥ عملاً مخطئاً ، وفي صناعة النسيج ١٩٨٥ عملاً مختصصاً . ويصل هذا الى حد تعتمد

معه الخطوات والمراحل التي يجب ان تمر بها السلعة الواحدة مثلا قبل ان يتم صنعها . وكل خطوة من هذه الخطوات تقوم على معرفة متخصصة ودقيقة أو على الاصح معرفة « ضيقة » تتوفر عليها اخصائيو بنقطتهم لها فلا يكادون يخرجون عنها ، وبالتالي لا يكادون يعرفون كيف يمارسون أى جزء من العمل غير ذلك الجزء الذى يؤهلهم له معرفتهم ، وبذلك لا يمارسون غيره ، بحيث تجد مثلا أن صنع سلعة بسيطة مثل الدبوس يقسم الآن الى ثماني عشرة خطوة متمايزة تتوفر على كل خطوة فيها متخصص بحيث أصبحت كل خطوة مجهولة تماما من العمال الآخرين الذين يشتغلون في نفس الصناعة ولكنهم يؤدون ادوارا مختلفة . وقد يصل الامر ان بعض هذه المهن لا يكاد يعرف معناها أو أهميتها الا الذين يمارسونها بالفعل . بل ان العامل الذى يقوم بأداء عمل جزئى معين كثيرا ما يجهل أهمية ذلك العمل ومكانه في نسق الانتاج كله ، وبذلك أصبح (التسلسل) معلى المسلسل الصناعى الذى يشترك العامل في انجازه نتيجة للمبالغة في التخصص من أهم مميزات نظام تقسيم العمل في المجتمع الصناعى الحديث .

وهذا نفسه يصدق على المعرفة في أوسع معانيها ، اذ يؤدي التخصص في آخر الامر الى الانفلاق داخل (كبسولة) أو قوقعة من صنع الانسان نفسه بحيث لا يكاد يرى الا جانباً ضئيلاً جداً من المعرفة الواسعة الرحبة المتشعبة العميقة ، وان ينظر الى الأشياء من تلك الزاوية الضيقة التخصص مما يؤدي به في النهاية الى العجز عن الاحاطة الشاملة بأى من المشكلات التي تعرض له ، أو ان يبالغ أى موقف معالجة عامة شاملة ، وان كان هذا لا يمنعه في الأغلب من أن يصدر أحكاماً عامة - غالباً ما تكون خاطئة - وتلك المعلومات الجزئية البسيطة التي اتيح له ان يلم بها .

ولقد ارتبط التخصص ارتباطاً قوياً منذ البداية بالثورة الصناعية في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، وهونفس الوقت الذى تفاقمت فيه العلوم بشكل قوى واضح لم يسبق له مثيل . وبدأت المعرفة تتفرع الى أقسامها الثلاثة الكبرى : العلوم الطبيعية والعلوم البيولوجية والعلوم الانسانية والاجتماعية ، بل بدأ كل مجموعة منها تدخلها كثير من التفرعات والتخصصات بحيث انسلخت علوم برمتها من كل علم من العلوم السابقة ، وبدأ كل علم فرعي يتفرع بدورته وفروعها عديدة بحيث أصبح من الصعير الاحاطة بكل هذه التفرعات مما اقتضى ضرورة لتخصص . وهذا وحده كفيل بأن يعطين فكرة من حجم المشكلة التي تواجه المثقفين العصر الحديث ، ونعني بها العجز عن الاحاطة بكثير من مجالات المعرفة وضرورة الاكتفاء بالتالي بأحد تلك الفروع الجزئية من مجالات العلم .

ولقد شغل كثير من العلماء أنفسهم بمشكلة الملاحة بين مختلف العلوم وتصفيتها وتسلسلها وترتيبها وتطورها . ولعل أشهر هذه الحالات هي تلك التي قام بها أوجيست كوت لتصنيف العلوم في كتابه الشهير « ديوس في الفلسفة الوصفية » Cours de Philosophie Positive الذى رتب فيه العلوم المختلفة في سلسلة واحدة تبدأ بالرياضيات فالنالك فالفيزياء فالكيمياء ثم البيولوجيا وأخيراً علم الاجتماع الذى كان يسميه في أول الامر « الفيزياء الاجتماعية » التي يدلل على طبيعة المنهج العلمى الذى يصيح أو يجب ان يصيح ذلك العلم . وكان أوجيست كوت في ذلك يذهب الى أن الرياضيات كانت اسبق العلوم جميعاً بسببها - في الوصول الى المرحلة الوصفية ،

بينما كان علم الاجتماع هو آخر العلوم وصولاً إلى تلك المرحلة نظراً لتقدمه وظهوره متأخراً ، بل أنه لا يزال في الواقع يحول الحقائق تلك المرحلة . وأوجيست كانت في ذلك إنما يمكن الوضع العام الغريب الذي ساد تطور المعرفة الإنسانية . فلقد اهتم الإنسان أول ما اهتم بالظواهر والحقائق الخارجية وقطع في دراستها شوطاً بعيداً بحيث بلغت هذه المعارف الخارجية عنه درجة عالية من التقدم والعمق قبل أن يوجه اهتمامه إلى الظواهر والحقائق الداخلية ومنها البيولوجية ثم السيكولوجية (مع العلم بأن كانت لم يغير علم النفس ضمن العلوم) وأخيراً الاجتماعية . وقد مرت هذه العلوم وبالتالي - المعرفة الإنسانية ككل - بمراحل ثلاثة ضمنها كانت قانونه الشهير باسم قانون الحالات الثلاث - والذي يقوم في أساسه على الاعتقاد بأن العقل البشري مر بثلاث حالات من حيث النظر إلى الأشياء وتفسيرها . ففي المرحلة الأولى كان العقل يفسر الظواهر من طريق ردّها لكائنات وقوى يمكن مقارنتها بالإنسان نفسه ، وفي المرحلة الثانية التي يسميها بالمرحلة الميتافيزيقية يفسر العقل الظواهر من طريق الرجوع لبعض القوى المجردة ، كالطبيعة ، وأخيراً تأتي المرحلة الوضعية التي يتنقح فيها الإنسان بملاحظة الظواهر وإقامة علاقات ورباط منتظمة بينها ، سواء في أي فترة محددة بالذات أو خلال الزمن ، ويسقط من اعتباره البحث من المبادئ النهائية التي تكمن وراء الأشياء والوقائع والحقائق ويكتفى بإقامة القوانين التي تحكمها . ومع أن العلوم المختلفة تمر بالضرورة أثناء تطورها خلال هذه المراحل الثلاث فإن ذلك لا يعني أنها تنتقل مما ككل من مرحلة لأخرى وفي نفس الوقت . وموقع أي علم من العلوم إلى السلسلة التصنيفية التي أشرنا إليها يحدد لنا وضع ذلك العلم من الوصول إلى المرحلة الوضعية ، أي أن هذا الترتيب هو في الحقيقة ترتيب لبلوغها الحالة الوضعية ، وبذلك تكون الرياضيات أسبق العلوم جميعاً في تطبيقها للمنهج الوضعي ، كما أن العلوم جميعاً سبقت علم الاجتماع في تحقيق هذا المنهج كما ذكرنا .

وإذا استثنينا علم الاجتماع الذي يعتبره كانت علماً طبيعياً كالفيزياء والكيمياء فإن كانت لم بشر في تصنيفه من قريب أو بعيد إلى أي علم من علوم الدراسات الإنسانية ربما لانها لا تخضع للمناهج الوضعية ، مع أن الدراسات الإنسانية تؤلف جزءاً رئيسياً من المعرفة الإنسانية . والتعارض بين العلم والإنسانيات تمارس هام جذب إليه اهتمام الكثيرين من المفكرين الذين حاولوا التداويل على ههنا الفكر الشاملة من عدم تداخلها واستحالة التقريب بينهما . ولعل أشهر من أن لم تكن أفضل هذه المحاولات هي محاضرة C.P. Snow من « الثقافتين » .

والمعروف أن الصراع بين العلم والإنسانيات يرجع إلى ما قبل عصر النهضة في أوروبا ، وهو صراع أفلح في أن يعرف رجال الكنيسة الكاثوليكية الذين اضطهدوا العلماء ورجعوا الفكر العلمي ، ووصل هذا الاضطهاد إلى حد اعدام عدد منهم - إلا أن هذه الفترة لم تلبث أن انتهت في القرن السابع عشر والثامن عشر (عصر العقل The Age of Reason حين أمكن التقريب بين (الثقافتين) ، أو على الأقل الملامة بينهما بحيث وجدت بعض العناصر العلمية سبيلها إلى الأدب ، وأمكن بذلك التعبير عنها تعبيراً أدبياً رائعاً ، وذلك قبل أن يبدأ عصر الثورة الصناعية الذي أدى إلى التباعد من جيلين بين الاثنين ، وهو تباعد اتخذ في أحيان كثيرة صورة الصراع .

ولقد انتبه « سنو » الى هذا الوضع المأساوي الناتج من ذلك التباعد بين العلم والانسانيات ، خاصة وأنه هو نفسه جمع في تكوينه الفكري بين الناحيتين باعتباره متخصصا في الفيزياء من ناحية ، وواحد كبار كتاب القصة في بريطانيا من الناحية الاخرى . وتعرض « سنو » في محاضراته التي اشرنا اليها الى تلك الهوة العميقة التي تفصل بين العلماء ، وبخاصة علماء الفيزياء وبين من يسمون أنفسهم (أهل الفكر) ، وبخاصة الادباء الذين يعتبرون العلماء فئة معجوبة من البشر ، يركبهم الغرور على الرغم من فراغ عقليتهم وعشيق المسق وسطحية تفكيرهم وان كانوا لا يتورعون في الوقت ذاته من اتهام (أهل الفكر) بقصر النظر واقتدارهم الى العقلية التحليلية العميقة . والادعى من ذلك - في نظر سنو - ان التخصص في فروع العلم المختلفة لا يكادون يتابعون منجزات زملائهم في الفروع الاخرى ، او يفهمون ما يقومون به من بحث ، فعلماء البيولوجيا مثلا كثيرا ما لا يعرفون سوى القليل من الفيزياء المعاصرة رغم اتفاق العلماء جميعا الى حد كبير في الاتجاهات والمستويات والانماط السلوكية والفروض والاساليب الفنية للبحث ، اي رغم اشتراكهم جميعا في (ثقافة) واحدة . ومن الطريف ان « سنو » يذكر انه اثناء الحرب العالمية الثانية كان عليه ان يختبر حوالي ثلاثين او اربعين الفا من العلماء والمهندسين والفنيين ، وأنه رغم إعجابه بخصائصهم العلمية في فروع تخصصهم فقد هالجهلهم بالثقافة الادبية ، وان كان يعترف في الوقت ذاته بان عددا كبيرا من خيرة العلماء على دراية واسعة بالادب والمشكلات التي تعرض لها الادباء والمختصون في الدراسات الانسانية بوجه عام .

وهذه ذاتها ناحية اشار اليها رجل مسن اكبر مؤرخي الفن في بريطانيا في الوقت الحاضر وهو الاستاذ جومبريتش R.H. Gombrich اذ يقول في مقال طريف في مجلة Daedalus (ربيع عام ١٩٧٣) انه حاصر الوقت الذي كان فيه جيل الاطباء والمحامين والموظفين العموميين ورجال المال يقرأون الكلاسيكيات على انها امر مسلم به في تربيتهم واعدادهم . ولكن يبدو ان ذلك العصر قد ذهب واقتضى ولم يعد العلماء يهتمون كثيرا بهذه الامور ، لان تخصصاتهم ادت بهم الى الانفلاق والانزوال .. ومن الطريف ان جومبريتش يرى ان الدعوة الى ضرورة اطلاع العلماء على ذلك التراث الثقافي الواسع المتنوع يحمل نياية التنبيه الى ان المجتمع لم يعد يقدس تراثه وقيمته القديمة ، وأنه طالما كان المجتمع والفا ومتأكدا من القيم السائدة في حضارته فان الاحساس بضرورة الاتصال بتلك الرموز والانوار التي تنتمي الى الماضي يكون احساسا قويا ولا يحتاج للمناقشة أو الجدل ، بل يتقبلها الناس كامر مسلم به وتصبح جزءا من تربيتهم وتنشئتهم الاجتماعية والعلمية ، وهو ما لا يحدث الان في كثير من الاحوال .

ولكن الطريف حقا في هذا الصدد ان جومبريتش يرى ان كلمة « المعرفة » بكل ما تحتويه من اتساع وتنوع تصدق على الانسانيات والعلوم الاجتماعية اكثر مما تصدق على العلوم الطبيعية المختلفة ، كما ان التخصص في فرع من فروع الانسانيات كثيرا ما يحتاج الى معرفة واسعة ببقية الفروع ، واطلاع واسع على منجزاتها . فلو اخذنا تاريخ الفن مثلا فسوف نجد ان كثيرا من الصور والرسوم التي رسمها كبار الاساتذة الفنانين من امثال ميكلا نجلو او تيسيان لن يمكن فهمها فهما عينا الا اذا كنا على معرفة وثيقة بالاساطير اليونانية القديمة ، لانها تسجيل لثقل هذه الاساطير ، اذ على الاقل نلحظ فيها بعض شخصيات آلهة اليونان على شكل مسوخ يصعب فهمها وتفسيرها الا في ضوء تلك الاساطير كما هو الحال مثلا في صورة

بتسيان عن « أوروبا فوق ظهر الثور » . والأمر يحتاج على أية حال الى دراسة تاريخ الرسم دراسة متممة لكي نفهم هذه الصور بقل ما يتطلبه معرفة الرموز التي كانت تسود حضارة من الحضارات .

الا ان المسألة مع ذلك ليست مجرد دعوة الى فرض الانسانيات على العلماء او اقيام بآية محاولة لادخالها الى عقولهم عنوة ؟ بقصد « تعديهم » ورفع مستواهم الفكري والثقافي — حسب تعبير الاستاذ ايزيا برلين Isaiah Berlin فالعلماء قوم اذكيا كما يقول « سنو » ، ولهم ثقافتهم الرائعة الصعبة حتى وان كانت هذه الثقافة تخلو من معظم الفنون باستثناء الموسيقى ، حتى وان لم تكن القراءة في الانسانيات تستويهم او تروق لهم . ولا حظ برلين ان هذا نفسه يصدق على الكثيرين جدا من الادباء والتخصصين في فروع الانسانيات بل والعلوم الاجتماعية ممن يأخضون على العلماء الطبيعيين جهلهم وضيق أفقهم مع انهم هم انفسهم لا يكادون يعرفون شيئا عن بعض النظريات الهامة السائدة في العلوم الطبيعية ، او حتى بعض المبادئ والقوانين الاساسية مثل القانون الثاني للديناميكا الحرارية ، وهو في رأي سنو احد البديهيات في العلم التي يمكن مقارنتها بقراءة أعمال شيكسبير عند الادباء بل ان « سنو » يذهب في تدليلاته الساخرة على جهل الادباء بالعلم الى حد ان يقول انه لو سأل هؤلاء الادباء سؤال البسيط جدا مثل ما الكتلة ؟ او ما هو انتسار ؟ وهو سؤال يعادل في العلم السؤال : هل تعرف القراءة ؟ فسوف تكون النتيجة مفعمة .

والواقع ان مشكلة الحواجز التي تفصل بين التخصصات العلمية الدقيقة والتي تغرق بين خاصة المثقفين شغلت بال عدد كبير من التربويين الذين يرون انه اذا لم يكن باستطاعة التعليم ان يزيل الحواجز القائمة بالفعل فانه يجب الا يعمل على زيادة سمكها وارتفاعها او تشجيع الانقسامات من طريق توجيه العقول والخيالات في قنوات ضيقة ترداد ضيقا طيلة الوقت بدوى التخصص الدقيق ، بل ان العكس يجب ان يكون هو الحال . بمعنى ان وظيفة التعليم في العصر الحاضر يجب ان تكون هي معاونة المتخصصين على الانفتاح على العلوم الاخرى ولهم مناهجها واساليبها والتعرف على منجزاتها دون ان يتعارض ذلك مع التخصص الذي هو بلا جدال سمة العصر . ويقول آخر ، فان ما يهدف اليه هؤلاء التربويين هو مساعدة الانسان رغم تخصصه على البحث عن الافاق الاربع للمعرفة ، وان الاستزادة من المعارف المختلفة كفيلا في حداثتها بتحقيق مزيد من انسانية الانسان وتوكيد لاداه .

واللاحظ ان كثيرا من الجامعات في الخارج تد انتبهت لهذه المشكلة . وكانت الوسيلة الطبيعية للتوفيق بين التخصص الدقيق والانفتاح على آفاق المعرفة هي محاولة الربط بين أكثر من مجال للتخصص في مرحلة الدراسة الجامعية ، كالجمع بين السياسة والاقتصاد والفلسفة ، او بين التاريخ والادب ، او حتى بين الفلسفة والفيزياء ، ولكن لا تزال هنالك مجالات اخرى كثيرة يمكن التقريب بينها حتى يتم تحرير العقل البشري من القيد الذي يفرضها عليها التخصص الضيق الدقيق .

ولكن هل يعني هذا مجرد الاكتفاء بتشجيع اصحاب التخصصات الضيقة على الخروج من قيود تخصصاتهم والاطلاع على نتائج العلوم الاخرى والاحاطة بها اهل هو يعني مثلا الاكتفاء

بتشجيع الفيزيائيين على قراءة التاريخ أو الفلسفة أو الكلاسيكيات ، وتشجيع الادباء والمؤرخين على التعرف على دقائق البيولوجيا الجزيئية أو طبيعة الجوامد أو نظرية الأعداد ؟ مثل هذا الاتجاه لن يؤدي في الأغلب إلى أية نتيجة قاطعة ، على الأقل لأن ضيق الوقت أمام أصحاب التخصصات الدقيقة سوف يمنعه من متابعة كل تطورات العلوم الأخرى ، فضلا عما سوف يبعثه ذلك في نفوسهم من السأم والملل . أن ما يمكن عمله هو شيء مختلف تماما من ذلك ، وهو أن نساعد العلماء والرياضيين مثلا على أن يفهموا الطريقة التي يصل بها المؤرخون أو نقاد الأدب إلى أحكامهم ، وما تتضمنه هذه الطريقة من استبصار وتخييل ، ونوع المنطق الذي يعتمدون عليه في تبرير تلك الأحكام حتى وإن كان هذا المنطق يختلف تماما عن منطق العلماء والرياضيين . ويتول آخران لب المشكلة يكمن في فهم العمليات الذهنية التي يعتمد عليها أصحاب التخصصات المختلفة وليس مجرد إقامة جسور سريعة بين الثقافات . وإن يتأتى ذلك إلا من طريق التربية الطويلة التي تبدأ منذ الطفولة وتستمر طيلة الحياة لتدريب الناس على رؤية العلاقات بين مختلف فروع المعرفة .

فكان المسألة تتعلق في المحل الأول بالتنشئة الاجتماعية . والعقل البشري يمتاز على المعموم بقدرته الفائقة على الاستيعاب والتكيف وفهم العلاقات . وسواء كان الهدف من التعليم هو مساعدة النشء على النجاح في حياتهم العملية ، أو تزويدهم بقدر كبير من المعلومات المتنوعة السهلة العملية الدقيقة ، أو مساعدتهم على الارتقاء بأنفسهم إلى مرتبة عالية من السمو النفسي والعقلي أو تربية العقل أو الخلق والشخصية فالهم هو ألا يكون الهدف من التعليم هو مجرد « حشو الدماغ » بمعلومات لا طائل تحتها ولا معنى لها ، بحيث لا تثبت أن تنسى ويذول أثرها تماما . ولن يتاح للمرأة ذلك إلا إذا توفر له منذ الصبا قدر معين من الأفكار الرئيسية التي تساعد على فهم العمليات الذهنية المختلفة ، مع العمل على تنمية ملكة البحث والارتداد عنده بحيث يتخذ موقفا معينا من العالم الذي يحيط به ويعيش فيه ، مما يدفعه دائما إلى استطلاع آفاق جديدة من المعرفة ، وسوف يساعده هذا كله على التخلص من أية محاولة قد يراد بها وضع تفكيره داخل إطار محدود ضيق متزمت من الإنكار والمعلومات . ولن يتسنى ذلك إلا إذا تغير أسلوب التعليم بحيث يصبح وسيلة لاكتساب المهارات الذهنية بدلا من اكتساب المعلومات واختزانها ، وبحيث يصبح الرجل المتعلم هو - كما يقول بترسون A.D.C.PETERSON الشخص الذي يفهم كيف يستجيب المؤرخ - مثلا - للماضي وليس هو الشخص الذي يكون على معرفة وثيقة بحقائق التاريخ وأحداثه ووقائمه . أي أن المهم في العملية التعليمية هو التركيز على تنمية القدرات ومساعدة الفرد على التفكير العقلاني مع تنمية إحساسه العميق الحقيقي بالجمال والأخلاق في الوقت نفسه ، وذلك عن طريق تنوع خبراته العقلية والانفعالية على السواء .

وسوف يؤدي ذلك به في النهاية إلى أن يشارك في التراث العقلي والعلمي والإنساني بحيث يحس بأنه عضو في مجتمع معين ، بل وأيضا في المجتمع الإنساني الكبير .

والدراسات التي يضمها هذا العدد تعالج موضوعات متفرقة قد يبدو لأول وهلة أنه لا يربطها رابط ، ولكنها تعطي في الحقيقة فكرة من المجالات الواسعة التي يمكن للعقل البشري أن يرنادها في بحثه عن المعرفة ، والتي يحاول بعض العلماء المرمعين بالتصنيف ردها إلى أربعة مجالات رئيسية هي المجال التحليلي (كما هو الشأن في الرياضيات) والامبيريتي (كما هو الحال في العلوم الطبيعية والاجتماعية) ثم المجالين الاخلاقي والجمالي . ولسنا نزعم ان هذه الدراسات تغطي هذه المجالات الاربعة كلها ، ولكننا نرجو ان يجد فيها القارئ ومرضا لبعض المشكلات الهامة التي تثير في الوقت الحالي كثيرا من المناقشات العلمية الهادفة ، مثلما نجد فيها شيئا من المتعة الذهنية الراقية . والدراسات كلها على أية حال قام بكتابتها علماء متخصصون تخصصوا دقيقا في فروع معينة من المعرفة ولكنهم يقدمونها معا كنموذج لما يمكن للمتخصصين ان يقدموه للمثقف الذي يحاول ان يكتشف اكبر مساحة ممكنة من آفاق المعرفة ولكنهم يقدمونها معا كنموذج لما يمكن بين تلك المجالات الاربعة الرئيسية ما يمكنه ذلك .



خصائص الفن المصري القديم

عبد الحميد زاهد

كل هذه الظواهر ، ساعدت المصري على ان يحقق غريزة المحافظة على الاشياء ، والتمسك بالتقاليد . كما ان انتظام فيضان النيل ، اذ يفيض في مواعيد ثابتة تقريبا ، ويفيض لسي مواعيد ايضا شبه ثابتة ، دعم لبات الفن المصري فترة من الزمن طويلة .

اثرت هذه الطبيعة الهادئة في نفسية الفنان المصري القديم ، فراح يبحث فيما وراء الطبيعة ، وما بعد الموت ، وخرج لنا بمفاهيم روحانية ودينية ، كان لها بالغ الاثر في بناء اطارات الفن عبر التاريخ القديم . ولم تسمح هذه المفاهيم للفنان ان يخطأها او يخرج عليها الا في انساق الحدود . وحدث توافق بين رجال الدين

الفن المصري القديم فن متعاسك ، ثابت المعالم ، نابع من التقاليد القائمة منذ الشعب المصري ، وهو يعكس في موضوعه القوي الحضارات التي قامت في المصور البعيدة في القدم . ونستطيع ان نقرر باطمئنان ان جميع المظاهر الثقافية التي ظهرت في العالم القديم ، غالبا ما تمثل اشكالا خاصة من طراز الفن المصري القديم ، وانها انفصلت منه بعد فترة من الزمن .

ان جفاف مناخ مصر ، وسماها الصافية اغلب ايام السنة ، والتي تتمتع برقة ناعمة ، وشمسها المشرقة دائما ، وما ينتج من ذلك من ضوء طبيعي صاف يترك لنا ابعاد الاشياء .

الملكة حتشبسوت في البر الغربي للنيل تجاه مدينة الأقصر ، تميز عن بقية منازل العبادة المصرية الأخرى بشرافاته البديعة ، وهو يعد قطعة فنية رائعة ، وكان للموقع أثره في إبرازه على تلك الهيئة . وإن إيهاء الكرنك بمدينة الأقصر أيضاً بأعمدها الضخمة الأوزيرية والنخيلية واللوية والبردية ، تفوق ما يتصوره العقل البشري . وفي أبو سمبل ، تبدو تماثيل فرعون مصر رمسيس الثاني المنحوتة في الصخر (المبد كله منحوت في الصخر) ، وكأنها تتطلع الى الأفق الترامى . هل يستطيع بعد ذلك أن يتحدث أحد من رتبة مملكة في العمارة المصرية خصوصاً إذا بدأ من المجموعة المعمارية الضخمة التي أقامها الملك لوسر في سقارة من ملوك الأسرة الثالثة الى المبد الذى بناه الإمبراطور تراجان في نهاية التاريخ المصرى القديم في جزيرة فيله بأسوان . وعلى الرغم من القواعد التقليدية التي كانت تحكم تصميم وزخرفة العمارة المصرية منذ بداية التاريخ ، في الطوب التي مما اصطلح على تسميته في العمارة المصرية بالدخلات والخرجات ، ثم آثار معبد (أبو الهول) بالجيزة ، والتي تتميز حوائطها ودعاماتها بظهورها من النقوش . ثم الأهرامات ، والتي تمثل خطوطها المستقيمة أروع ما وصل اليه فن الهندسة والعمارة . ثم مقابر كبار رجال الدولة ، التي غطيت بنقوش بارزة ملونة . ومعابد الشمس في الأسرة الخامسة . ومعبد منتوحب الثاني المؤسس الحقيقى للدولة الوسطى في الدير البحرى . ومعابد كبار حكام الأقاليم مثل معبد واح ك . ومعبد الملك سنوسرة الأول في الكرنك ، وأطلال معبد الإله آتون في تل المعارنة . ومنازل الولادة في نهاية العهد المتأخر . لقد تنوعت المناظر في داخل كل معبد من هذه الهياكل «واختلفت موضوعاتها في أجواء المبد الواحد، منها ما يخص الشعب ، ومنها ما يخص الكهنة .

كانت توجد قواعد مقدسة التزام الفنان بمراعاتها ، فلعلي أن يصور آلهته وملوكه في أوضاع مهيبه ، في صور مخلوقات أسمى من

والفن . وآمن الشعب بعقيدة الحياة الآخرة ، والتزم الفنان بمبادئه الدين .

ومع ان الفن المصرى نابغ من وحى الدين ، الا انه كان يخضع للنظام الملكى ، كما يخضع أيضاً للمبادئ التي يرسمها رجال الدين . وتمتع الملوك بالسيادة الفاعلة داخل المعابد . ولم يتم نزاع بين فرعون ورجال الدين الا في فترة المعارنة . وظل الفن المصرى عظيماً طالما كان الفراعنة أقوياء . وتدهور الفن حينما اهتز مرشش الفراعنة في المصرين المتوسط الاول والثاني ، وفي فترات أخرى .

ادعى بعض المفكرين أن الوحدة التي تميز بها الفن المصرى دفعت الى رتبة مملكة ، ووصفه البعض بأنه فن جامد . ولكن الحقيقة كما سنرى بعد قليل ، أن الفنان المصرى يتحرك وينشط ، وتتنوع أساليبه ، ويخرج لنا تماثيل لها أوضاع متباينة .

وحينما أراد الفنان المصرى أن يصور آلهته وفراعنته ، جعل لها قامة أعلى من غيرها من الناس ، وهو يريد من ذلك إبراز مظاهر القوة . كذلك الحال ، حينما أراد أن يقيم لفراعنته ، أو آلهته منازل للعبادة ، جعلها ضخمة ، تبعث الشعور بعظمة أصحابها ، مراعيًا في ذلك القواعد الهندسية الدقيقة . بينما نجد الإغارقة من ورثهم ، جعلوا كل شيء مقترناً من القواعد البشرية . على أن المصريين اجتهدوا في الإيهاء بالطلق اللامحدود ، والذي لا يمكن قياسه ، والذي يشمر الإنسان بالمظلة . والواقع أن الفن المعمارى المصرى ، وما يكمله من فنون أخرى ، كلن نعت التماثيل ، والنقش ، والتصوير ، كلها تتوافق مع منظر الطبيعة المصرية التي تمثل اللامحدود .

ان إرادة الفنان المصرى نحو إبراز العظمة ، لا يمكن أن ينتج منها شعور بالرتابة ، وذلك لتنوع وسائل تنفيذها ، طبقاً للموقع . وعلى سبيل المثال ، معبد الدير البحرى الذى أقامته

وتدل ملامح الوجه على أن صاحبها كان يتحلى بشخصية قوية (شكل ٣) . هذا العدد الوافر من التماثيل التي تصور ملكاً واحداً في كل مراحل حياته شيء عجيب فيه تجديد ، إذ لم يجرؤ أحد في عصر الدولة القديمة أن يصور ملكاً في مرحلة من العمر خلاف المرحلة التي يتمتع فيها بكامل قواه ، لأنه يعتبر في أثناء حياته الها لا تمل به الشيخوخة . واعتباراً من هذا العهد ، تفرقت المفاهيم المتصلة بالعالم الأخرى . وأصبح عامة الشعب يستطيعون من هذا الحين ارتياد المجالات الأوزيرية ، هذا فضلاً عن أن فرعون فقد امتيازاه ، وقد أشبه ما يكون بأدنى فأن ، ومن ثم نقص احترام الشعب له ، ولم يعد تصويره في شيخوخته ، وقد خللته قوته ، جريمة من جرائم انتهاك الحرمات المقدسة . ويبدو من جهة أخرى أن ثمة فكرة أتبعت تسمح بأن يصور الميت في جميع الهياكل والأوضاع ، وفي كل سني حياته ، وذلك حتى تصبح الحياة في العالم الأخرى أكمل وأكثر تنوعاً ، وحتى يستطيع المتوفى أن يختار الحقبة من حياته التي يرغب في أن يعاها ثانية بعد مماته .

ولدينا على الإخص تماثلان للملك أمنمحات الثالث ، يبرزان لنا بصورة جذابة السمات المختلفة للمرستين . ويعرض علينا التمثال الأول الذي وجد في هواره باليوم صورة ملك شاب ، جسمه مثال للأسلوب الأكاديمي ، ولكن رأسه النubile الوديعه الرصينة لها سمة من الجمال الهاديء تفوق في قيمتها تماثيل سنوسرة الأول التي عثر عليها في اللشمت والمحفوظة بمتحف القاهرة ، وتنسب هي الأخرى إلى مدرسة الشمال . استطاع الفنان أن يظهر امنمحات الثالث في هذا التمثال وسيما في مقبلت العمر ، مقبلاً على الحياة أقبالا فيه لون من ألوان السعادة وله آمال مريضة ، وفي نظراته البعيدة ما يدل على تفكير عميق نحو مستقبل باهر ملو بالتغير والرفاهية . أما التمثال الثاني لامنمحات الثالث ، كشف عنه في الكرنك ، فانا نجده

البشر ، تجلس على عروشها ، والزعمة أمامها تقدم لها آيات الإخلاص . ونظير الوجوه هادئة ، هذا الهدوء الذي يضي عليها المزيد من التبل . من أجل ذلك ، ظهر في فن نحت التماثيل الرسمية ، قانون اصطلاح على تسميته بقانون (خط الجبهة Frontalité) ، وهو يرمي إلى جعل جسم الإنسان مقسماً إلى جزئين متساويين تماثلين وذلك بافتراض وجود خط محوري وهمي مبتدىء من منتصف الجبهة وممتد إلى ما بين الساقين . هذا القانون لم يكن ليترك للفنان الحرية في استخدام أكثر من خمسة أو ستة أوضاع في فن نحت تماثيل الالهة والملوك وكبار رجال الدولة . وربما ان هذه القواعد كان لها اثرها على وجوه التماثيل فجعلت فيها رتابة في المظهر ، خصوصاً ونحن نراها اليوم في دور المتحف الحديثة . على أن هذه الرتابة الظاهرية التي ينسبها البعض إلى التماثيل المصرية ، لم يكن لها وجود في عين صانعيها الأول . وان الأسلوب التقليدي ، في أوضاع التماثيل يخفى مرياً اذا ما نظرنا في تعبيرات وجوه اصحابها .

أنا مدبنون على الأرجح لأحد فناني الجنوب يصنع تمثال للملك سنوسرة الثالث لم يبق منه إلا الرأس ، تم العثور عليه في المدامود بالقرب من الأقصر (شكل ١) . ونلاحظ على وجهه التمثال ذلك التعبير الحزين ، البادي الألم ، الشيء الذي سوف تلاحظه في جميع رسوم هذا الملك ، وعلى الإخص في أحد تماثيله التي وجدت في الدبر البحري ، وقد صور مكتمل الرجولة (شكل ٢) . وفي وضع آخر وقد تقدم به العمر ، وهو موجود بمتحف اللوفر جزء من رأس تمثال للملك سنوسرة الثالث من حجر الكوارتزيت محفوظ بمتحف المتروبوليتان بنيويورك بالولايات المتحدة الأمريكية ، ويبلغ ارتفاعه ١٦ سنتيمتراً . وتلاحظ تجميدتين خفيفين على جانبي الأنف . وغطيت الميئان بحاجبين نصف تغطية كان صاحبها ينظر إلى أسفل ، والآن مهشم ، أما الفم فرفيق .

حياته . إذ وضع في الرأس أن الرجل بلغ من العمر أرذله ، فقد استطاع الفنان الذي صنعه أن يصوره ومنهده احساس بقرّب أجله ، فظهر امنمحات الثالث ، وفي وجهه حزن عميق .

وبعد ، لقد استطاع فنانون عهد امنمحات الثالث أن يقدموا لنا قطعاً فنية رائعة ، صادقة التعبير لا عسر فيها ولا جمود ، اُرسِمت في محياها ابتسامة لطيفة، وهو في شرخ الشباب، بينما ظهر في تماثيل الحلقة الأخيرة من حياته ، حزن واضح ، ولعب ظاهر ، تعبر عنهما حينها الثقيلتان .

أما التمثال الخشبي للملك حور (شكل ٦) والمحفوظ بمتحف القاهرة والذي عثر عليه في دهشور ، فهو النموذج مدهش فيما يتألق به من شباب أنيق ورشيح لذلك الجمال الساحر الذي عرفت مدرسة الشمال كيف تحافظ عليه ، وبعد نصراً للأسلوب الأكاديبي المتأثر . ويمتاز هذا التمثال من الأمثلة النادرة التي عرفت إلى يومنا هذا (أن لم نقل أنه الوحيد) ، والتي تصور رأس ملك فوق جسد هار ، فيما عدا تمثال للملك بيبى الثاني وهو طفل . على أن تمثال الملك حور يصوره مكتمل الرجولة .



كان على النحات المصري أن يخرج تمثالا ، تعطي صورة وجهه شيها كما لصاحبها ، لأن المصريين القدماء يعتقدون أن (كا = روح) التي تتردد على القبر . وحتى تتعرف الروح على صاحبها ، لابد أن صورة الوجه في التمثال تتشابه مع الاصل . فإذا ما فنى الجسم حل التمثال محل الجسد . من أجل ذلك، تصف فن نحت التمثال المصري القديم بالواقعية . إلا أن هذه الواقعية تطورت في الدولة القديمة ، فقد تميزت مدرسة منف بالرصانة والتبل، وجعلت منها نمطا يكاد يكون مجردا مثل تمثال الكاتب الجالس القرفصاء بمتحف اللوفر (شكل ٧) وتمثال كاتب آخر جالس محفوظ بمتحف

على عكس التمثال الأول قويا وخشنا . فبروز الفك الأسفل ، والفم المتوتر الحزين ، يعيدان ذكرى الرافعية الطيبة ، وقد يولغ فيها إلى حد القوة المنيفة، حقا أن سن الملك المتقدم، من العوامل التي أسهمت في إبراز هذا المظهر، يبد أن كل مائي تقاطيع الوجه يشير إلى الخصائص الرئيسية للمدرسة الجنوبية . وأنا لنلتقي من جديد في رأس لتمثال عثر عليها في اليوم تمثل هذا الملك نفسه بمرجع موفق للغاية من سمات المدرستين . وأن ذلك التبل الرقيق الذي يتجلى على الوجه ، والجمال الصارم الذي يميز جانب الرأس ، ويكاد يكون كلاسيكيا، وذلك التعبير الذي يفصح عن العودة للتعبير الهادئة والمهيمنة في وقت واحد ، والتشكيل النهائي للتمثال حيث تتداخل المقاطع في توافق وتناسق ، كل ذلك يجعل من تلك الرأس عملا رائعا ليس هناك من سبيل إلى إنكاره . فإذا ما انتقلنا إلى رأس لامنمحات الثالث أيضا صنعت في الأيام الأخيرة من عهده ومحفوظة بلندن في مجموعة خاصة (شكل ٤ ، ٥) نجد في ملامح وجهه جميعها ، بما في ذلك العينين والدقن نظرة رجل امتلأت حينها بأسرار كثيرة، وسعد بما قدم من خير لذلك الشعب ، ثم هو بعد صارم حازم .

أما من تلك الرأس التي يحتفظ بها متحف برلين من حجر الشبان، فتمثل امنمحات الثالث مثقلا بأعباء الحكم وتنفيذ مشروعاته الضخمة، وفي جفون هينة ثقل واضح لرجل أثمبه السهر . كما نرى في تقاسيم وجه تمثال لعلى هيئة جسم أسد وجهه انسان محفوظ بمتحف القاهرة تصيرت تدل على الإجهاد . أما رأس تمثاله المصنوع من حجر الأوبسديان والوجود بمجموعة ملك جريهور وما فيها من تعابيد غائرة تمت عينيه ، وقمة الجامد الصارم ، يدل على شيخوخة عمرها كثرة المسئوليات . وأخيرا، يضع النحات المصري بين أيدينا خاتمة المطاف في حياة امنمحات الثالث في تلك الرأس التي بقيت من تمثال له عثر عليه في العرابية المدفونة ، يمثل في آخر مرحلة من مراحل

الخشبية الصغيرة ، وتمثيل نماذج القبور ، مثل تمثال (حاملة القرابين) المرن والمحفوظ بمتحف القاهرة (شكل ١٤) .



أما في النقوش ، فقد ظهرت البيئة المصرية بموضوعاتها النباتية والحيوانية وظهر الناس داخل الدور وخارجها ، في أوضاع متباينة ، تتناسب مع طبقتهم ورتبهم وحروفهم ، وتعدت الموضوعات ، واتسمت بالرونة . وتمثل هذه النقوش ، أجمالا ، جميع مشاهد الحياة المعتادة للمصري ، وعلى وجه الخصوص ، الحركات التي يؤديها من يطمعونه ، حين يقومون بتوفير مؤنته وإشباع مطالبه في الحياة الأخرى . ومن لم نرى المصري في تلك المشاهد وهو يصيد فرس النهر أو طيور الماء (شكل ١٥) أو غيرها التي يسقطها بمصا الرماية (البومارنج) ، أو هو يراقب خدمة المنهكين في صيد الأسماك أو الحيوانات البرية بالثيابه . ونراه بالمثل وهو يباشر تربية الحيوانات ، وزراعة الحقول ، وجنى الكروم ، وصناعة النبيذ ، ويشرف على أعمال الحصاد ، أو تشوين الفلال . ولم تغفل النقوش تصوير الحرف المختلفة التي يمارسها خدمه : كصناعة الخبز ، والجرارة ، وأشغال الصياغة ، والتجارة ، وصناعة الاحذية . ونرى في نقوش أخرى رجاله يبنون السفن ، ويصنعون السلال الخفيفة من نبات البردي ، أو يحاربه يبرزون فوق مراكبهم التي فرغوا من صنعها . وأخيرا نرى حرف الموسيقى ، والرقص ، والحفلات ، والرياضة البدنية ، والألعاب .

واستطاع الفنان أن يجمع الموضوعات بعضها لبعض ويبرزها أو يفصلها ، ويستحدث منها الكثير من الموضوعات غير المتوقعة الطريفة أو الفكاهية ، وإحيانا الهزلية . ومن الغريب أن هذه التفاصيل ، سوف تصبح عناصر تقليدية يسر على نهجها الفنانين . واستطاع

القاهرة (شكل ٨) ، وتمثال الملك خفسرع المشهور والمصنوع من حجر الديوريت ، والمحفوظ بمتحف القاهرة ، ويمد هذا التمثال الأخير من أجمل ما أخرجه فنانون الدولة القديمة من حيث جمال الصنعة وإتقانها ومعرفتهم النامة بمضلات الجسم . واستطاع الفنان أن يحمي رقبته التمثال من الكسر (لأن الرقبة تمد أضعف جزء في التمثال) ، فنحت في كتلة الديوريت من الخلف صفرا واسطا جناحيه ، وهو فوق حمايته لرقبة التمثال ، يرمز إلى إله الدولة الرسمي ، إله حورس . تمكن الفنان من إخفاء هذا الطائر خلف الرقبة بحيث لا يستطيع الناظر إلى التمثال من الأمام أن يراه . (انظر شكل ٩ يمثل صورا جانبية للنصف العلوي لتمثال خفسرع) . وتمثال اراع حتب وزوجه نفرة (شكل ١٠) ، يعبر وجهاهما من السور والرقبة ، وفي عينيها حياة وسحر وهلولة .

أما تماثيل الدولة الوسطى ، كما سبق أن أومضنا ذلك منذ قليل ، فقد ظهر على وجوه أصحابها من الملوك مسحة من حزن وألم ، وانعكس ذلك على وجوه الناس في ذلك الزمان . وفي الدولة الحديثة ، امتزجت الواقعية بمثالية رقيقة ، تتضمن نبلا وفننة أنيقة . بينما تميل فن العمارة بالسور في الواقعية ، حتى أصبح تصويرا كاريكاتوريا (شكل ١٢) . على حين أن العصر الصاوي ، وهو الحقبة الأخيرة في الفن الفرعوني الاصيل ، حينما كان يقوم الفنان بنحت رأس التمثال يحاول جادا أن يخضع سمات أصحابها لكثير من القواعد التي تلاخطها في رؤوس كبار رجالات ذلك العصر ، وعلى الأخص التدرب في الوجوه (شكل ١٣) يمثل رأسا لرجل هادي محفوظ بمتحف اللوفر ، أخلب الفن أنه من العهد الصاوي .

وإذا ما انتقلنا إلى تماثيل الأفراد ، نلاحظ أن الفنان تحرر في إخراجها ، خصوصا التماثيل

واستطاع الفنان أن ينحت من الحجارة والخشب والمعدن تماثيل للاشخاص والحيوانات والطيور والزواحف . وقد نبهتنا مجموعة التماثيل النحاسية للملك ييبى الأول وولده (انظر شكل ١٧ يمثل غالبا ابن ييبى الاول من النحاس) التى كشف عنها فى هيراكونبوليس الى التقدم فى صناعة التماثيل المعدنية ، كذلك تماثيل المعجول المنحوتة من الحجر الجبرى التى كشف عنها فى معبد جد كاربز اذرى بصقارة ، والاجزاء البازلتية لتمثال الكباش وعليها اسم خوفو والحفوفة بمتحف برلين ، وابو الهول الصغير وقد لون بلون اصفر ، والذي مثر عليه فى معبد جدف - ع بناحية ابو رواش . وتمثال ييبى الثانى (شكل ١٨) مصنوع من المرمر ، يمثل الملك وهو طفل ، وقد جرد من جميع ملابسه . كل ذلك يدل على وجود مجال واسع لمختلف اشكال التماثيل ، وكذلك استخدام مختلف المواد أكثر مما نصوره . ورأس الصقر الذهبى الذى كشف منه فى هيراكونبوليس يذكرنا بالتماثيل المنصوبة من المعادن النفيسة التى كانت توضع بدون شك فى مقاصير دور العبادة ، مثل تمثال (حى) ابن الاله حانصور ، والذي يخبرنا بسرد بالرمز أن نغراير كارع أمر بعلمه من أجل مقصورة خاصة بالملك سنغرو .

وحينها أراد الفنان أن يجعل الفن فى خدمة الحياة اليومية ، البت سهوة كبرى . نفسى الدولة الحديثة ، ولا اسمت رفعة الارض المصرية ، فكر الناس فى التمتع بمرات الجهاد الطويل . ومن تلك المنع ، اومية الرينة ، فاخذ الفنان يتجه اتجاها جديدا يلام العصر ، فعمل بمضا من الاسرى الاسيويين والجنوبيين ، كذلك الجوارى ، يعملون اومية الرينة والتجميل (اشكال من ١٩ الى ٢٢) كما مثلت بعضى الاومية على شكل حيوانات (شكل ٢٣) و (شكل ٢٤) بمشغل جارية تمشى على استحيا ، بين زهر البردى ، وهى تحمل قبثارة ، وعلى رأسها زهورات من لوتس يخرج منها تجويف مفرقة الرينة ، والتلحفة كلها

التصوير ، مثلما استطاع النقش ، التحرد من القواعد المعقدة لفن الرسم ، فمثلت الاجسام من الجانب دائما ، والاكتاف من الامام دائما ، والجلود من ثلاثة الارباع دائما (شكل ١٦) واستطاع الفنان ان يقدم لنا صنوف الحيوانات من طعام الماضي تتقدم فى سيرها بهدوء ، او تتدافع فى محيلة ، وقد ظهرت موجات فى جلودها . كذلك ، ظهرت الطيور بأوضاع مختلفة فى مستنقعات البردى ، وهى تظهر مرفرفة بأجنحتها . كما لم ينس الفنان تصوير الحيوانات البرية من نمور وثيران وحشية وقطط ، وهى تسير سيرا هادئا ، او وهى تتاهب لللوب على قريستها . كما صور جموع البط ، وهى تسير فى هدوء . كل ذلك ، يبدو وكأنه شيء حى واقعى .

ومع ذلك ، فاننا اذا درسنا تلك المشاهد ، وحللناها تحليلا حقيقيا ، ظهر لنا بجلده ان قتل فرس النهر ، وهو عمل كان الى عهد قريب من خصائص الملك الرسمية ، ليس الا قتل روح الشر التى قد تؤذى المتوفى . والامر كذلك فى مشاهد قبور طيور المستنقعات التى ترمز الى الشياطين ، ويتيح صيد الماء اصطيد سسمك البطلى التى تسكنها روح الميت بعد بمعا . ونستطيع بالمثل ان نفسر بعض المشاهد الزرامية : كجنى الكتان ، بل ومكافأة العمال ، الامر الذى يدل على ان اجدود قماش كتانى هو الذى سوف تحفظ فيه الوميام ابد الدهر . وكذا بلر الحبوب ، والحصاد ، وصناعة الخبز . كل هذا يتبع توسعا زخرفيا فى تصوير القرابين ، الشوه الجوهري لتأمين استمرار الحياة بالنسبة للميت بعد وفاته . وجدير بالذكر ، اننا لا نرى فى نقوش المقابر من الدولة القديمة مناظر دينية اصيلة ، وإنما نجد بالاحرى مناظر تتصل بالطقوس الجنائزية ، كادخال تمثال الميت فى المقبرة ، ومنظر حاملات القرابين التى ترمز الى شيمت المتوفى واملاكه وحاصلاته الزرامية ، واخيرا رحلات الصح النافضة فى المراكب الى المدن القديمة .



الفن الإغريقي والفن في معرفة أهمية إبداع قواعد التشريح في جسم الإنسان ، وكذلك اهتمامه بنقل الطبيعة . كذلك ، تميز الفن المصري ، كما تميزت الفنون الآسيوية السابقة من الفن الإغريقي بإبطائه على رموز تمثل وحدة الوجود ، فنجدته يمزج شكل الإنسان بشكل الطائر أو الحيوان في هياكل بشعة مثل جلعاش في الفن العراقي ، وحورس أحيانا في الفن المصري القديم يمثل برأس صقر وجسم إنسان . أو الآلهة سنحمة ، التي مثلت أحيانا برأس لبؤة وجسم إنسان . وهو في هذه الناحية ، يريد أن يبرز مفاهيم كهنوتية كان مضطرا لبرازها مخالفا في ذلك الواقعية .

الفنان المصري القديم :

سمى المثال منذ الدولة الوسطى (المحيي) (١) ، وهذا يدل على المكانة التي كان يتمتع بها الفنان . ومجد المصريون الشخصيات الفنية ، فقد سجل اسم إيمحتب وزير الملك زوسر على قاعدة تمثال للملك زوسر محفوظ بمتحف القاهرة . كما أنه المصريون إيمحتب لمهارته في الصمارة ، فقد أشرف على بناء الهرم المدرج وما حوله من أبنية . وكان إيمحتب طبيبا ممتازا وفيلسوبا وأديبا . كذلك ، أئتمنه إيمحتب بن حابو كبير مهندسي الملك إيمحتب الثالث . وتمتع بعض الفنانين بتراف كبير ، فهذا مثال ومصور كبير ، قاما (٢) بتفنيد قبر أمير من الأمراء على نفقتيهما . وفنان آخر (٣) من الدولة الحديثة يتباهى بأملكه . كما شجع الملوك الفنانين . وقام الملك اخناتون على تعليم الفنان (بك) ، لأن الملك كان نفسه فنانا .

مصنوعة من الخشب . كما اعتاد الفنان ، في هذا الميدان إبداع لغارف الزينة على هيئة فتيات سابحات تجردن من الثياب إلا من بعض الأقطعة حول الخصر ويزين الجيد ببعض الزينة . (شكل ٢٥) يمثل إحدى السابحات المعروضة بمتحف القاهرة ، وهي من خشب . وتمثل جارية ، طرحت على بطنها ، ومدت ذراعها لتضع فوقها تجويف مفرقة مساحيق التجميل على هيئة بطة تفتح فمها . (١)



استهدف الفنان المصري من وراء فنه النفع وليس الجمال . وإشاد الفنانون بجودة المواد التي كانوا يستخدمونها في الصمارة أو النحت . ولم نجد فيها ذكرا لجمال القوام في التماثيل . كما أنهم استهدفوا من وراء ذلك تخليد الصمارة أو التماثيل ، أو النقوش ، أو الصور . من أجل ذلك ، اختاروا لها أجود مواد البناء . حتى في الأشكال المعمارية ، اختاروا الأشكال التي تتميز بقاعدة أكثر لباسا كالأهرامات والمصاطب والمعابد المستطيلة الشكل ، والحدود المائلة التي كانت لها قاعدة أوسع من الطبقات التي تعلوها (انظر كسوة هرم دهشور المتكسر للملك سنفر) .

لم يستهدف الفنان الجمال في نحت التماثيل ، لأن القاعدة في نحت التماثيل ، هو أن يكون شبيها بصاحبه حتى تتمكن (الكا) من التعرف عليه . وحتى يبقى التمثال أكبر مدة ممكنة ، ولا يتعرض للتلف ، فقلوا اختيار الحجارة على الخشب في كثير من الأحيان .

وأخيرا ، نلاحظ أن الفن المصري سبق

(١) الفن « التجميل منذ قدماء المصريين » عبد الحميد زايد . مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، المجلد الثاني شهر ١٩٦٤ - ١٩٦٥ . من ص ٢٩ - ٣١ .

(٢) H. Schaefer, Von Aegyptischer Kunst. 3 Auflage. Leipzig 1930.S. 20

(٣) W. S. Smith, A History of Egyptian and Painting in the Old Kingdom London 1946, P. 352.

K. Sethe, Unkunden der 18 Dynastie IV, 130 ff.

كان الفنانون من طبقات الشعب الممتازة ، فبعضهم من أسرة حاكم مدينة الكاب ، ومنهم من حمل لقب الإمارة . ومن الأسر ، من كان يتوارث القاب الفنان الأعلى للأسرة . ومن الفنانين ، النحات ، والمصور ، والمصمم ، والمهندس . وكذلك اختلفت درجاتهم ، فمنهم من كان يحمل (رئيس النحاتين) . كل ذلك ، لان المصريين كانوا يقدسون الفن ويقدرّون الفنانين . ولا ادل على ذلك ، من ان الملك تحتمس الثالث قام بنفسه يرسم اشكال بعض الاواني وسلمها الى رئيس صناعة الاواني ليعمل على نظمها اوانيا اخرى .

بقيت نقطة هامة ، وهي ان اغلب الاعمال الفنية بمصر القديمة لم تهر بايدي اصحابها مثلما فعل الاغارقة او الرومان ، او ما يفعله فنانون أوروبا وغيرها من اقطار العالم الحديث حاليا . فهل يا ترى كان الفن جماعيا ؟ ، او انهم كانوا يعتقدون ان مجرد ذكر اسم الفنان في المقبرة التي قام بتنفيذ اعمالها ، ربما يعطيه هذا الحق في الانتفاع بالترابن التي تقدم للميت نفسه لامتقادهم ان الصورة بولسد الحقيقة ؟ كما ان من اسباب بقاء الفنان المصري مجهول الاسم ، هو ان المصريين كانوا يعتبرون ان الفنان عامل بسيط ، مثله مثل غيره من العمال . ولم يخلد اسماء الفنانين مثلما ذكرت اسماء الملوك وكبار رجال الدولة . وليس سوى القليل ، مثل (حوى) المصور و (تحتمس) و (يويوتى Joutouti) فى عصر الممارة .

ربما ان مجهول الاسم هذا كان يشمر بضيقه ، او ان هذا يدل على تكران اللات . وحتى يصبح حكمنا على هذا الموضوع واقعا ، لابد ان نقوم بدراسة كل عمل على حدة ، والظروف التي صاحبت العمل ، فهذا (ايرتيسن Irtisen) من الامرة العادية عشرة يعدنا

من مشدريه بممثل الانسان في عدة اوضاع . (ه) وعلى اية حال ، اننى اعتقد ان السبب الرئيسى في عدم ذكر اسم الفنان ، هو ان العمل الفنى في مصر كان عملا جماعيا .

تلقى الفنان المصري تعليمه في المدارس والمصانع التي تلحق بدور العبادة ، والتي كانت تختلف بنماذج تتنقل فيها أسماء المولودوالآلهة والبلاد (كل ذلك على لوحين من الخشب منذ الدولة القديمة) ، مثل عليهما ريزنر Reiser في الجيزة ، وصور مختلفة من طيور الماء مثل البط والاوز . وهذه كانت تمثل الحلقات الأولى في علم الرسم والتصوير . وأحيانا نجد الدروس مصممة بأيدى المدرسين بالممداد الاحمر . وبعض هذه الرسوم تقليد لامعمال فنية قديمة . واتضح من هذه الرسوم ، قيام الرسامين الكبار بتدريب الطلبة على كتابة الملامات الهيروغليفية ، والقيام بأعمال اخرى كتحط بعض عناصر معمارية . ومن هؤلاء ، من كان له خبرة في الصباغة ونحت الصلج والابنوس .

واتضح ان الفنان كان يستعين بخطوط ونقط او مربعات لتعديد نسب الاشكال ، وهذا يدل على دقة الفنان في اخراجه الموضوعات التي تطلب منه . على ان الفنان ، كان يتحرر أحيانا من هذه النقط او الخطوط معتمدا في ذلك على مواهبه وتقديره الفنية .

واستخدم الفنان أدوات في غاية البساطة مع صلابة الاحجار التي كانت تصنع منها التماثيل مثل الصبورة والجرايت والكواكزيت فلم يستخدم الحديد او الصلب أو الصلب أو حتى النحاس خصوصا في اوائل الفولة القديمة . وكانت أدواته عبارة من مدق من الحجر ، المصنع . واستخدم أحيانا المنشار

المعدن . وقد جاء على كثير من صفحات القبور المصرية الضخومات التي ابتهاها الفنان المصري في صناعة التماثيل . كما كشف في كل من جبانة منف بمنطقة الجيزة الأثرية ، وفي تل المماتية بمحافظة المنيا عن تماثيل ، استطعن أن نعرف منها القواعد التي كان يتبعها الفنان في صناعة التماثيل الحجرية ، إذ عثر على تماثيل بداها الفنان ثم تركها لسبب غير معروف (انظر شكل ٢٦) وهو عبارة عن رأس ارتفاعها ٢٢ سنتيمترا . ويمكننا ملاحظة الضغوط باللون الاسود التي وصفها الفنان ليبتدى بها في نحت تفاصيل الرأس . وواضح أن الناج كان يشكل جزءا منفصلا عن الرأس . وفصلت العينان عن الحاجبين ، واخذتا شكل لوزتين . وشحمت الألف واضحة ، واستطاع الفنان أن يظهر فتحة الفم بصفاه ونحت اللذن بدقة . والرقبة رقيقة وطويلة ومائلة الى الامام قليلا ، وهذه هي من سمات فن العمارة . والرأس حاليا معروض بمتحف القاهرة وواضح أن الفنان تركها دون أن يتمها ويضسح عليها اللمساة الأخيرة) .

إذا ما أراد الفنان نحت تمثال ، كان يعمل واقفا أو جالسا على مقعد ، أو جالسا على ركبتيه ، واختلفت جلسته باختلاف التمثال الذي يقوم بعمله . فعلى جدران أحد حوائط قبر الشريف (إي) من الدولة القديمة والوجود حاليا بناحيةدير الجبواوى مركز أنوبمحافظة أسيوط . يرى الماثلون في أوضاع مختلفة (شكل ٢٧) ، فقد وضع أحدهم قدمه على المقعد ، بينما يشاهد الآخر وهو يعمل واقفا ، وثالث يجلس على الأرض . أما عن المادة التي كانت تصنع منها هذه التماثيل الموضحة في هذا الشكل ، فغالبا ما تكون من الخشب ، لأن الأدوات التي استخدمها الفنان ، أدوات خاصة بعمليات النحت من قواعد أو مقاشر أو مدقات أو مطارق . وجاء في بعض النصوص التي صاحبت أعمال هؤلاء الفنانين غالبا ذكر للوجود التي كان يتقاضها الجالس بجوار أحد مثالي قبر الشريف (إي) . السابق

النحاس أو البرونزي أو الحديدى في المصور المتأخرة ، مع استخدام مساحيق من دمسل وخلافه يستعملين بهاملى كشط الاجزاء الزائدة . كما استخدم المثقاب الاتوبي من النحاس . أما عملية الصقل ، فتتم بواسطة مصاقل من حجر اشد صلابة من الحجر المصنوع (سوف نعرض لكيفية تنفيذ العملية بعد قليل) . أما التماثيل المصنوعة من حجارة رخوة ، فقد استخدم منحا من نحاس ومدق خشبي ، واستخدم المقشر في صناعة التماثيل الخشبية .

وفي التصوير ، استخدم الرسام والمصور اقلاما من الاسل . أما الفراجين ، فكانت تصنع من الياف الحشائش ، أو من جريد النخيل بعد أن تدق أطرافه . واستخدم الخيوط بعد غمسها في اللون الأحمر ، وذلك ليضبط بها الربعات لتحديد الصور .

وانتدل الألوان من المعادن والصخور بعد أن يقوم بتحويلها الى مساحيق ، ويخلطها بنوع من الصمغ أو زلال البيض .



المراحل التي ابتهاها الفنان في صناعة التمثال

سوف احاول في هذه النظرة السريعة أن اعرض صورة من النحت المصري القديم لا عسر فيه ولا جود . ولن استطيع في ذلك العرض الخاطف أن استوعب جميع التماثيل التي تذخر بها دور المتحف العالية ، وإنما سأكتفى بنماذج من ذلك النحت الزاقي في عصر الفرعونية .

وقبل أن اعرض للجوهر في هذا الموضوع ، ارى من الخير الإشارة الى الطريقة التي كان يتبعها الفنان المصري في اخراجه التماثيل من مختلف المواد بالاوزاع التباينة .

يختلف فن النحت أولا من حيث المادة ، وثانيا من حيث الموضوع . أما من حيث المادة التي كان يصنع منها التمثال ، فغالبا ما تكون من مختلف أنواع الحجارة أو الخشب .

كير لأبي الهول ، ومائدة قربان كبيرة . وهنا نرى أحد الرجال وقد جثا بزكته اليسرى على قدمي أبي الهول ، يثبت الصل على جبهته ، بينما وقف آخر منحنيًا يصقل لباسي الرأس (نمس) ، ووقف الثالث منحنيًا متكئًا بركبته اليسرى وممبكا بفرجون في يده اليسرى وبالييسرى إناه ، وغالبًا ما كان يقوم بتلوين التمثال أو ترميم جزء ضعيف في الحجر بجص مجهز وضع في الإناه . وإذا صح ذلك ، فلم يكن ذلك الذي يده فرجون وإنما أداة أخرى . أما الصناع الذين يقومون بعمل مائدة القربان ، فثلاثة بأيديهم أدوات من الحجر كبيرة لصقل المائدة تحت إشراف مشرف ، وظهر الصاقل الأيسر بهيئة نادرة وطريقة ، منحنيًا إلى أسفل .

وأما من مخلفات المصريين القدماء نحت بين الخطوات التي كانت تتخذ في صناعة التماثيل ، فقد عثر في الحفائر التي أجرتها البعثة الأمريكية تحت إشراف *Werner* بالعبد الجنائز المحق بهرم الملك سنكاوورع بالجيزة على مصنع للنحت مملوء تماثيل لم يتم صنع بعضها . إذ وجد أن بينها ما كان في الحلقة الأولى ، وبعضها تقدمت صناعته ، والبعض قرب من الانتهاء . واستطاع ريزر أن يعرف الخطوات التي كانت تتبع في صناعة التمثال ، ووجد لها نماذج حية ، فنظما تنظيمًا فنيًا حتى وصل بها إلى الحلقة الأخيرة ، ووافق على رأيه جمهرة من الفنانين . وانتظمت دراستي ثمانين خطوة (شكل ٢٤) .

أما يقوم النحال بتجنت قطعة من الحجر ، يجتد فيها الهيئة التي يرغبها للتمثال ، ويخبط بقلمه على الكتلة الحجرية بالماد الخطوط الرئيسية للتمثال . ويجدير بالذكر ، أنه عثر على تمثال لحاجير عليه بتجنت خطوط خنثولم .

أما قام النحال بتجنت الخطوط الرئيسية لرأس التمثال ، مما جعله يلائم الرأس المقدم به

الإشارة إليه ، ويشاهد هذا الصبي ملسكا بأوزة ، وكتب فوقها بالهيروغليفية ما معناه (هذه الأوزة سمينة جدًا) . فمن الجائر ، أنها كانت ضمن أجر أحد المثاليين ، إذ أن الإيجور في هذه العصور كانت بالتبادل . أو ربما كانت طعامًا يهيا للمثاليين .

أما عن مناظر صناعة التمثال في الدولة الوسطى ، فلم نثر حتى اليوم على مناظر تبين كيفية صناعة التماثيل في هذه الفترة ، فيما عدا بعض المناظر الموجودة على جدران مقابر بنى حسن من هذا العهد ، والتي تبين فقط الفنانين وهم يقومون فقط بتلوين التماثيل .

وحينما انقضت العمارة التي مورت على مصر من جراء استعمار الهكسوس انتعشت الفنون مرة أخرى أيام الدولة الحديثة . وأهم تلك المناظر ما وجد مصوبا على قبر وزير تحتس (رخمى رع) ، وفيها نرى مصنعا كاملا خاصا بتماثيل الملك نفسه (شكل ٢٨) . فمثل على أحد حوائط القبر تمثالان كبيران من الجرانيت ، يمثلان الملك تحتس الثالث ، ويظهر الملك في أحد التماثيل جالسًا ، بينما في الآخر واقفا . والتمثالان من الحجم الكبير ، دليل أن المثاليين كانوا يعملون على ما يسمى في لهجة المماريين (سقالات) ، فقام المشرفون على العمل بتنصيب كتل خشبية ليعمل فوقها المثالون . ولوحظ أن أحد المثاليين يقوم بتركيب الصل على جبهة التمثال الجالس ، بينما أخذ زميله في صقل لباس الرأس المسمى (نمس) ، ووقف الثالث ، من أسفل يمين القاعدة . وبلغ المثالون الذين يقومون بصناعة التمثال خمسة أشخاص ، جلس أحدهم على (سقالة) يصقل الناح الأيسر ، بينما يقوم آخر بتلوين النقوش الهيروغليفية الموجودة على ظهر التمثال ، ووقف الثالث على (السقالة) السفلى يمين صدر التمثال . بينما أخذ أحد المايلين اللذين رتقا على الأرض في صقل التمثال ، والثاني يقوم بتجنت النقوش . ويتوسط النظم التمثال

المشرف العام كان يلقي نظرة على هذه العملية لأنها هي التي سيتم بها عرض التمثال .

ويقبر الفنان (حوى) بطل العمارة منظر (شكل ٢٠) ظهر الفنانون جالسين على مقاعد بسيطة داخل مصنع أو ماسجيه الآن (استديو) . ومن الصورة ، يتضح ان السقف رفع على عمودين لهما هيئة سيقان البردى . وظهر رئيس المصنع في صورة أكبر من بقية العمال الآخرين . كما يظهر رئيس المصنع وهو يعمل في تلوين تمثال صغير للاميرة (باكة آتون) ابنة اخناتون . وإلى اليسار ، أحد العمال ، يقوم بوضع اللصقات الأخيرة لراس ممسكا ايها من الرقبة ، بينما يقوم حامل آخر بتهديب أحد اجزاء مقعد ، لملها رجل المقعد ، وذلك بواسطة ما يسمى بلغة التجاردين (قادوم) .

اما عن التماثيل الحجرية التي كانت تصنع من اكثر من قطعة ، فلدينا بمتحف القاهرة تمثال كامل صنع من الرمر (شكل ٢١) للملك سيتي الاول بالحجم الطبيعي تقريبا ، عثر عليه بمعبد الكرنك ، وجليد بالكرنك ، ان التمثال لم يكن قد انتهى بعد من نحت هذا التمثال . وهو يتكون من ست قطع (الساقان - اللذان - الجذع - الراس) . وقد حرق عهد اخناتون ، وألغى في تنفيذه الاساليب التي كانت تتخذ في صناعة التماثيل الخشبية منذ عهد الدولة القديمة (مثل تمثال شيخ البلد بمتحف القاهرة) . ولم تعرف هذه الطريقة على نطاق واسع في صناعة التماثيل الحجرية ، إلا في عهد الملك اخناتون . ومن الراجح ، انها عرفت ايضا في عهد تحتمس الثالث أو الرابع ، اذ عثر على قناع يمثل ملكا . وفي الواقع ، ان نحت هذا القناع ، وتفاصيل ملامح الوجه ، شبيه بوجه تمثال سيتي الاول الذي عثر عليه في الكرنك سابق الذكر . ولولا فقدان تعليم المعينين والحاجيين من تمثال سيتي الاول لظهر ملامح التمثال أكثر وضوحا . اما من

٣ - يظهر تقدم ملحوظ في الاعضاء السابق البدء في عملها في الخطوة السابقة .

٤ - تقدم في هذه الخطوة ، اذ لوحظ نحت الساقين .

٥ - يظهر في هذه المرحلة تقدم في نحت بعض التفاصيل .

٦ - تم هذه التفاصيل في تلك الخطوة .

٧ - لم يبق هنا غير صقل التمثال وحفر النصوص .

٨ - تحفر النقوش على التمثال (٦) .

وبذلك يستطيع عشاق الفنون القيام بدراسة خطوات الفنان المصري القديم في تماثيل الملك منكورع ، والاسلوب العلمي الذي كان يتبعه في نحت التماثيل . وفي يميني ، ان هذه التماثيل التي وجدت لمكورع ولم يتم صنعها كانت بمثابة نماذج يهتدى بها المتدربون من المتعلمين . وهذا يؤيد مذهبنا اليه ، من أنه كانت توجد مدارس ملحقه بالمعابد يشرف عليها كبار الفنانين ، وزودت تلك المدارس بنماذج حية من الاعمال الفنية لتكون تحت بصر طلاب الفن .

وبمتحف برلين تمثال للملك اخناتون جاثيا يقدم قريبا ، وعلى صفحة الحجر الخطوط التي تحدد اعضاء جسمه . وعثر ايضا على رؤوس واجزاء من تماثيل بمنطقة تل العمارة من عهد اخناتون ايضا تبين الخطوط التي كان يستخدمها الفنان ، وكذلك عثر على بعض تماثيل لاختنايون لم يتم صنعها بعد .

وبعد ان ينتهي الفنان من نحت التمثال ، يقوم بصقله صقلا جيدا . ومن الجائز ان

(شكل ٨) يمثل أحد الكتبة بمتحف القاهرة ويمكننا ان نضيف الى هذه المجموعة رأساً ضخماً للملك اوسركاف مؤسس الأسرة الخامسة، ارتفاعه ٧٥ سنتيمتراً من الجرانيت الوردي ، محفوظاً حالياً بمتحف القاهرة ، ويظهر وجنة صاحب التمثال مملوءة ، والانف كبيراً ، والفم واسماً ، وتحت المثال اللدقن بدقة وأعية . وان غياب اللحية المستعارة في التمثال جعلت الوجه معبراً تعبيراً صادقا . وبعد هذا الرأس في مجموعة عمل فنى ممتاز في حجر شديد الصلابة مثل الجرانيت .

كان فرعون مصر في الأيام الأولى من الدولة القديمة مؤلها . وحينما انطلقت الحريات في أعقاب الأسرة الخامسة ، لم يحاول الفنان مرة واحدة التخلص من تقاليد الماضي ، وإنما أخذ يرجع إليها ويتقنيس منها ، ويعاود ان يتجه بفنه اتجاهها لا أقول جديداً في موضوعه وإنما في أسلوبه .

وحينما رفع النقاب عما استتر في حواء الناس ، تأكدوا ان فرعون ماهو الا بشر كسائر خلق الله ، يمرض ويحيا ويموت ، وأنه نزل من السماء الى الأرض ليشترك الناس بنعيم الدنيا ، ويعمل كما يعملون . كذلك ، تأكدوا ان في الناس قوة لا يستهان بها ، وان سلطان الملوك يقوئ أمام قوة الشعب . وملا هذا الشعور نفوس الناس ، وامتد الى جميع أنحاء البلاد ، فاندك صرح الملكية ، ووقعت البلاد في فوضى . وياقل نجم الفنون في أعقاب الدولة القديمة فترة من الزمن . ومع ذلك كله ، ومهما عصفت بالبلاد المحن والشدائد ، فقد اقتص شعوب مصر بالصبر والثبات . والكفاح ، من أجل ذلك ، خرج من المحنة بما فيه . ولم يتخلف عن ركب الحضارة ، واستمر الناس في تمثيل ملوكهم على الصورة القديمة أيام الدولة الوسطى ، فهذه الإبتسامة الطيبة على وجوه تماثيل سنوسرة الاول ، ومن قبل ، صوت الآلام العادة ، والهموم التي ملأت عصر المتابعة

القطع الفنية التي عثر عليها من عهد اخناتون ، فاهمها تلك الرؤوس الحجرية لبعض التماثيل من عهده لها رقبة كانت دون شك تتركب في التمثال ، وكذلك لها تاج ، يوضع فوق الرأس ، مثل رأس الملكة نفرتيتى المحفوظ بمتحف القاهرة (شكل ٢٦) . ويمكننا ملاحظة الخطوط التي وضعها الفنان ليهتدى بها في نحت الرأس ، وواضح ان التاج كان يشكل جزءاً منفصلاً عن الرأس ، وأما من تفاصيل الوجه فواضحة تماماً ، فقد اخرج الفنان المئين على هيئة لونتين . والانف رقيق ، وفتحة الفم صافية ، واللدقن نحت بدقة وأعية ، والرقبة رقيقة وطويلة ومائلة الى الامام قليلاً ، وهذه من سمات فن المعاصرة .

أما عن استخدام المعادن في صناعة التماثيل فقد عرف المصريون صناعة التماثيل من هذا النوع منذ الدولة القديمة ، وأهم مثل على ذلك تمثالاً ليبيى الاول وولده بمتحف القاهرة ، وتمت صناعتهم بطريق الطرق على المعدن . و (شكل ١٧) يمثل التمثال النحاسى الصغير الموجود بجوار التمثال الكبير ليبيى بمتحف القاهرة ، والذي يرجع العلماء انه لولده .

• • •

عرض سريع عن نماذج من نحت التماثيل عبر

التاريخ

لم تستطع النهضة الكبرى التي شملت الفنون أيام بناء الأهرام ان تمثل الناس في غير التمثيل الدنىي المألوف سواء الجالس منهم أو الواقف ، ما كان منها خاصاً بالملك أو كبار رجال الدولة . ومثل الكاتب بهيمته المعروفة عند المصريين ، جالساً القرفصاء ، باسطاً قرطاساً من البردى على فخذه منتظراً ما يمليه عليه سيده . واستطاع الفنان ان يلقى على هذه التماثيل الأبهة والجمال ، فظهر فيها حدة التقاطيع ، وبضطة الملامح ، وروعة الإفواه ، إذ تعلموها إبتسامة لطيفة تتم من عمق في التفكير

الفترة من غايات الجمال والاتقان . وكان وجه التمثال معبرا بصدق عن طباع صاحبه ومزاجه، اذ نلاحظ في تماثيل الدولة الحديثة ملامح التأمل العميق، وفي بعضها جمال الشيوخوخة، ووقار السن المتقدمة ، كما تبين في عيونها الهدوء الواضح . وفي الواقع ، يعد النحت في هذه الفترة مرآة صافية نستطيع ان نرى فيها حياة الناس وما يدور فيها .

والى القارى طرفا ما زاجعته في كتاب مدام ديروسن نوبلور (Desroches Noblecourt) يجمع فن نحت التماثيل في عصر الدولة الحديثة بين الاتجاهين اللذين سيطرا على هذا الفن بالتوالى في العصور السابقة : واقعية مدرسة منف ، ومثالية عصر الإمبراطورية البطيية الأولى . وقد زاد على هذين المذهبين الأساسيين ، عناصر أخرى تبعت من واقع حدثين هامين : اولهما الفتوح في آسيا ، ومن شأنها ان تخلق في مصر ترفا لم يكن لها عهد به، من ذلك زخارف جديدة والوان اشد لظرة وزهوا ، ومفاهيم فنية حديثة بانهة . امسا الحدث الثاني ، فيتمثل في ثورة اخناتون التي فرضها هو نفسه ، والتي لم تلبث ان تسببت في قيام ثورة فكرية من شأنها ان تعمق العقليّة المصرية مشاعر أكثر عمقا وذاتية من ذي قبل، تنزع الى الظهور .

ومن ثم يكتسب فن نحت التماثيل ، نوق ما كان يتصف به قبلا من قوة وصلابة انافة وجاذبية ، ومرونة في الخطوط ، واحساسا بجمال القوالب التشكيلية لم يخبره احد من قبل . واخيرا الاهتمام بتصوير الحقيقة ، ومن لم يبدو فن نحت التماثيل في عصر الدولة الحديثة اشد تعبرا منه في أى عصر مضى ، بل واكثر تعبرا بالحياة ، وأكثر تعبرا ، يقدر ما

(عائلة منتوحتب) على وجوه تماثيلهم ، وفي قسبت وجوههم ، وظهرت عليها ابرادتهم القوية البناءة . وصورت اغلب تماثيل الملوك من فرانة الدولة الوسطى عليها تلك القوة البشرية الجبارة الهيبية ، والخشونة الصارمة (شكل ٣٣ يمثل جزءا من وجوه ستوسرة الثالث محفوظ بمتحف اللوفر) وهذا التمثيل لم يكن مألوفاً في الدولة القديمة، اما في تماثيل الافراد ، فقد ظهر لون جديد لم يكن معروفا أيام الدولة القديمة ، وهى التماثيل الجالسة المؤنزة واستمر استخدامها حتى الدولة الحديثة وما بعدها ، وهو منظر مألوف عند المصريين ، بل عند أهل الشرق الأدنى جميعا ، وليس مألوفاً عند الأوروبيين (شكل ٣٤ يمثل احد هذه التماثيل من الدولة الحديثة المحفوظة بمتحف فلادلافيا بأمریکا) .

ثم تصاب البلاد بنكسة مرة أخرى ، فيضغ الهكسوس أيديهم على كل شيء ، ويستعمرون البلاد ، ويعيش الناس في مصر قرنا ونصف القرن تقريبا تحت كابوس الاستعمار، وتتخلف دنيا المصريين القدماء فترة من الزمن ، ثم تالى الثورة الحمراء ، وينتشر الشعب المصري على الهكسوس . وتنهض البلاد نهضة لم نر مثيلا لها في الشرق كله ، نهضة سياسية وحرية واجتماعية وفنية . وكان تلك النهضة الزها في تغيير مجرى حياة الناس ، ويتطور التفكير السياسي والاقتصادي والحرى والفنى ، خصوصا بعدما خرجوا الى الشرق ، والى جزر البحر المتوسط ، وحاكوا بعض ما رأوا من فنون هذه الأمم ، فاقبضوا ما فيها من زخرف يتناسب مع الموضوعات المصرية القديمة . واستطاع الفنان ان يسجل مظاهر الترف واليسار ، كما تفنن في تمثيل تصفيف الشعر ومقصه . واقترب النحت في هذه

ذلك مقع بالجمال والاناقة . اما الرأس فانها تمثل نصرا للحقيقة السيكلوجية التي روعيت الى أقصى حد مستطاع . وتدل قسما الوجه الذى يشبه قليلا وجه القطة بنظرانها المستقيمة الحادة ، على كل الدقة والدهاء الخليقتين بالانثى ، وقد اقترنا بارادة لا تقهر . (انظر شكل ٣٥ يمثل رأسا للملكة وقد وضعت لحية مستعارة للششب بالرجال ومحفوظ بمتحف المتروبوليثان ولها نفس اللامع الموجودة فى التمثال المحفوظ بنفس المتحف) وانا لنجد نفس الصفات التعبيرية فى تمثال تحتسمى الثالث (شكل ٣٦) المحفوظ بمتحف القاهرة .

ولم نزل ، مع مجموعة التماثيل الفسحة التي تصور امنوفيس الثالث ووجهه فى نطاق مجموعة التماثيل التقليدية التي سوف ينالها ، اعتبارا من هذا العصر ، تغيير هام عميق (هذه المجموعة محفوظة بمتحف القاهرة) . وعلى أية حال ، يبدأ فى عهد امنوفيس الثالث على الاخص ، الازدهار الفنى العظيم لعصر الدولة الحديثة . وفى المتحف البريطانى تمثال بديع لوجه هذا الملك ، قوى التشكيل ، ومنحوت كله فى قطاعات متداخلة بهارة فائقة . وانا نلمس فى هذا التمثال امنوفيس الثالث : من ذلك العيون المشقوقة الصفات المميزة لتمايل العظام فى عهد على هيئة اللوز ، والتي تميل زواياها الداخلية وترتفع من ناحية الصدين ، والتم الذى ترسم عليه بسمه غامضة شاردة . ونجد نفس الصفات التعبيرية فى رأس للملك نفسه محفوظ بمتحف الألوفر (شكل ٣٧) .

وقامت حركة اخناتون والنزعات الفنية للحديثة التي اراد امنوفيس الرابع اخناتون ان يفرضها ، فتركزت اكارها على الاخص فى فن تحت التماثيل الرسمية والدينية . ولم يكن محاولة التخلص من القواعد الفنية الطيبة للتقنية لتجرى دون ان تقابلها بعض الصعوبات بسبب قلة الفنانين القادرين على خلق قواعد

تسمح به صفته الرسمية وسلطة الكهانة والتقاليد التي يفرضها مقتضيات الطقوس الدينية . ولا يثبت ان يصيبه فى الواقع ما اصاب فن الافراد من تعديلات . وكان لا بد لن تحت التماثيل من ان يعتم بكل تلك الثياب الجديدة التي حلت محل القديمة ، والاردية ذات الثنيات الطويلة البديعة ، والمعقود الريفى والجواهر ، واغنية الرأس الكبيرة . وفى الوقت الذي تستخدم فيه العمارة كتلا اشد واقرى ، نرى فى مقابل ذلك الاجسام وهي تستطيل ، والاوزاع والاشارات ترداد ليونة ومرونة ، والايدي والاقدام وهي تتال قدرأ من العناية اوفر من ذي قبل . حقا ان الانسان لن يلصق فى هذا العصر تلك القوة او الشدة التي انطبعت بهما صور الملوك فى مصر الدولة الوسطى . بيد ان فن تحت التماثيل سوف يكتسب من الحلاوة والسحر ما قد يفقده من القوة ، حتى تؤدي المبالغة فى هذه الصفات فى غضون الاسرة التاسعة عشرة الى التكلف ، فى حين تعود العمارة لتصبح قوية لدرجة الثقل .

وتدل اولى الاعمال الممتازة فى نواحي الاسرة السابعة عشرة على ان تقاليد مصر الدينية الوسطى ، والاتقان الفنى الذى بلغ حد الكمال فى المصانع الطيبة القديمة كل ذلك لم تختب معالها فى العاصفة الهوجاء ، فالتمايل الصغير للملكة احمس نفرتارى زوجة محبر البلاد الثالث احمس الاول ، يعرض بسجنت من الهدوء والجلال البسيط ، وعميقا تجريحيا قويا يثير كثيرا بقلوبهم لم يسبقوا لتحقيقه فى وقت قصير . وبمهاارة صمها ظهوره للروائع الفنية . يشهد بذلك عمل رالف لايبلى ، ذلك هو المصطفى البديع الملكة حتشبسوت ، للالهه ووجهها على عتبة المعبد فى التماثيل البحرية ، ويمثلها مشتملة لري فرعون وغطاء رأسه . والتمثال جاليسا محفوظ بمتحف متروبوليثان بنيويورك (وهو الجسم فى مظهر رجولة ، وعلى شيء من الصلابة ، ولكنه مع

جديدة . ولما اختاروا الى الفنانين الاهليين المتخصصين حتى ذلك العهد في الفنون الصغرى ، والذين كانوا يتمتعون بقدر من حرية العمل والمرونة اوفر من ذي قبل . ولقد اتسع هؤلاء الفنانون اسلوبا واقميا جديدا ، تتمثل اوضح انماطه في تماثيل امنوفيس الرابع الضخمة التي وجدت في الكرنك (شكل ١٢) . فاستهدفوا البالغة في ابراز الصفات التشريعية المميزة للملك ، حتى لقد صوريا برزوا فكيه ، وجميعته المصابة باستسقاء دمافي ، وبطنه المنتفخة ، واطرافه الهزيلة ، وانما في اسلوب نبيل المظهر الى حد ما . وتبدو قسمات الوجه خاصة جليلة معبرة . فالنم المكتوى والعينان اللوزيتان المرققتان بنظرة داخلية ، نظيرة الرجل الملهم بالحالم ، المتاهب لعمل كل شيء في سبيل نجاح مثله الأعلى ، وعظام الوجه التي تعكس الصلاب والام . وكان كل ما يبدو في قسمات وجه الملك يمثل ايمانا يحطم كل ارادة معادية ، ان لم يكن هذا الايمان متسما بوحى عاجل (شكل ٣٨) . (تفاصيل من شكل ١٢) .

وفي الواقع ، منيت هذه المحاولة التي استهدفت اقرار مذهب جديد بالفشل ، وبالتالي لم يقدر فن العمارة الدوام الا لما كان يتسم به من الجمال والحياة العذبة والالفة . وتجلت هذه الصفات حتى في التماثيل الملكية ، الشيء الذي لم يكن متوقعا . ونشاهد الملك لأول مرة ، ولاسباب عقيدية في الظاهر ، وهو ممسك بالملكة فوق ركبتيه ، يضمها في رفق او يمسك بيدها ، كما يبدو في المجموعة الصغيرة من الحجر الجيري المحفوظة بمتحف اللوفر . (شكل ٣٩) هذه المجموعة الساحرة التي يتجلى فيها الترف والالفة ، الامران اللذان يميزان الازياء الجديدة ، نشيت لنا كيف ان مذهب العمارة الاول قد خفت وطائه وركت شدته ، وتفتضح العودة الى الاسلوب الواقعي العذب الذي احس الفنانون الاهليون في طيبة بنزعة طبيعية نحوه ، من واقع علمين مدحشين : الاول منهما تمثال

نصفي الملك محفوظ في اللوفر ، وعلى الرغم من التشابه الذي لا مسيل الى انكاره ، فان آثار الانحلال البدني الذي اصاب الملك تبدو مخففة لدرجة عجيبة ، ويبدو الوجه مطبوعا بلمحة من الحزن والرقبة الخائلة . (اما الثاني ، فهو احد التماثيل النصفية للملكة ، وقد وجد في مصنع النحات تحتمس ، ويصور على ما يبدو الملكة نفرتي زوج امنوفيس الرابع . وان ما يتجلى في التمثال من رقة الوجه ، وبساطة وسلامة التشكيل ، وذلك التعبير اللذي ، وتلك النظرة اللطيفة ، والانف الرقيق الدقيق ، كل ذلك يتعاون في جعل التمثال عملا فنيا ربما يبدو أحدث هذا من التمثال النصفي المشهور لنفرتي المنحوت من الحجر الجيري الملون ، والمحفوف كذلك في متحف برلين . ولا ريب ان التي نراها في متحف برلين هي الملكة والودة (تي) الأكبر سنا ، وقد شاخت قسمات وجهها ، وزادت جمودا ، من اثر الحزن التي قاستها ، وربما ايضا بسبب الصخرة التي استثمرتها نتيجة لفشل الثورة الدينية . اما تمثال الاميرة الصغيرة المحفوظ في متحف اللوفر ، فانه على العكس من ذلك انموذج حلو للجمال المتمرد ، الوحشي بعض الشيء ، وللفننة الحرة ، هذا التمثال يصور ولا ريب آخر بنات (تي) المولودة في العمارنة . وقد اختفت البالغات في رسم اعضاء الجسم اختفاء يكاد يكون تاما في تمثال الملك سمنح كارع الموجود بمتحف اللوفر . واذا كانت هذه البالغات ظهرت ثانية بشكل اوضح في تمثال الرأس الخشبي البديع المحفوظ بمتحف اللوفر ، فلم يعد لها ذلك المظهر الكاركتوري . كل هذه التماثيل انما تمثل الفن الصماني ابرز تمثيل ، ذلك الفن الديني الذي بنى قبل كل شيء على مبدأ التأمل الباطني المعبر ، الذي يعيل مع ذلك نحو الجانب العاطفي والحنوي من الاشياء اكثر مما يعيل نحو الحقيقة المادية الخالصة . والواقع ان الفنانين الاهليين الذين نتج اليهم الملك درسوا بدقة الطبيعة ، الشيء الذي تؤكد سلسلة الاعمال الدرامسية ، والاقنعة

العليا . فلم تشبه كل اميرات ذلك العهد بالملك في شذوذه الجسمي . ويحتفظ متحف جامعة لندن بجلد تمثال لاميرة من هذا العهد صنع من الحجر الجيري وليس به أى شذوذ جسمي . اما عن اصل هذا الفن فهو مصرى صميم ، اذ لا نجد فيه أى تأثير اجنبى ، لان مذهب اخناتون الدينى مذهب مصرى اصيل .

واذا ما انتقل فنانون العمارة الى تصوير الحياة اليومية ، فبدلا من تصوير مظاهر العظمة والايهة التى كانت تحيط كبار الموظفين ، فبعد ان كان يرسم الوزير محاطا بالجلال والعظمة ، نجد صوره وهو يجرى بجوار حربة الملك . ثم نجد الفنان يصور الملك وبناؤه كلا على عربته ، تجرى بسرعة كبيرة ، وبحماس عجيب ، كأنهم في حلبة سباق .

كذلك ، فى لعب أطفال تل العمارة ، فقد اخلت فكرتها من العريات التى كان يركبها الملك . ويحتفظ متحف القاهرة بلعبة طريفة (I.B. 5302) تمثل حربة يجرها قردان ، وقردا ثالث يستحم القردين اللذين يجران العربة . ووقف الى جانب هذا القرد الاخر ، انثى القرد تحاول مداعبة القردين اللذين يجران العربة . وقد جمع القردان كما تجمع الخيول ورفضوا التزحزح من مكانهما . وفي يفتى ، ان الفنان كان يهدف تقليد عربات الملك والملكة وأطفالهما . ولعب الأطفال في كل زمان تعبر عن الاساليب التى تدور في حياة الناس . وأطفالنا في العهد الذى نعيش فيه الآن يميلون الى اللعب التى تمثل الحرب والمعارك الحربية والاحداث العالمية كالصعود الى القمر ، فتجد فيها الصاروخ والادبابة والطائرة ومركبة الفضاء . لقد استطاع فنانون العمارة ان يجروا (ان صبح ذلك) على ما كان يحيط الملك من هبة فمثلوه في لعبه على هذه الصورة هو والفراد اسره .

ويحتفظ الاسرة الثامنة عشرة بالتقاليد الخاصة بالرقة والجمال الساحر ، التى كانت

المصنوعة من الجص ، والقوالب التى وجدت في العمارة ، وعلى الاخص في مصنع تحتسى . وربما كان من ابداع هذه الاعمال التمساح الجنائزى (٢) ذو التفسير المفجع الخاص بامونفيس الثالث . وانتهت التجربة العمارة ، ولكن التأثير الذى طبعه الفن الجديد في ذلك العصر لم يكن شأنه ان يزول تماما ، فقد بقى منه تلك النزعة الفضولية الباطنية ، والميل الى انتاج الاعمال التى تتسم بالاناقة والرشاقة . وقد استمرت تلك الصفات حية حتى فنى الفن الملكى ، الذى يبدو انه قد تبنى بصفة نهائية الاتجاهات الحميدة التى اخص بها الفن الاثرى . ومما يبرهن على ذلك مجموعة التماثيل التى تصور آمون وهو يحيط ثوث عنخ آمون بحمايته ، وهو موجود بمتحف اللوفر ، وكذا التالوث المشوه الموجود بمتحف القاهرة الذى يمثل ثوث عنخ آمون بين آمون ومو . وبالمثل تمثال حورصحب البديع القسما ، الواضح فيه التأمل الروحاني ، المحفوظ بنيويورك .

اننا نفخر كثيرا برأس تمثال نفرتميتى الذى يحتفظ به متحف برلين ، والذي يعد من القطع الفنية الرائعة اخرجها فنانون تل العمارة بخطوطه التى تتميز بالرشاقة والميل الى تمثيل الملكة تمثيلا طبعيا مع المبالغة في انصدار الخطوط وإطالة الرقبة . فهل هذا الاتجاه كان اتجاها مصرى ، فى خطوطه المبالغ في انحدارها ، وفى السطح المائل ؟ وهل معنى ذلك ان هذه التماثيل أو هذه الرسوم (التى وجدت على جدران صفحات بعض مقابر تل العمارة أو عشر عليها فى بعض المقابر التى اجريت بالمنطقة) كانت تشبه التصوير الفوتوغرافى الذى يستخدم في مصرنا الحديث ؟ الواقع ان فن العمارة فن يميل الى الاسلوب الطبيعى مع اتجاه الى المبالغة والتشويه ، وهو يختلف من الاسلوب الواحد الى الذى شوهد عند ملوك الاسرة الثانية عشرة ، كما انه يختلف ايضا من التماثيل الهادة للدولة القديمة التى يمثل فيها المل

القديمة ، حيث بدأ يشعر الناس من حول فرعون بقوتهم ، فلا يجد الفئاتون في أنفسهم حرجا من تمثيل الناس جميعا بمين حرة طليقة .



نماذج من تماثيل مصرية غير مالوفة

بمتحف بروكلين بالولايات المتحدة الأمريكية تمثال صغير من الرمرر للملك بيبى الأول (شكل ٤١) مثل الملك جالسا على عرشه ، وظهر على ملامحه شيء من الرخاوة والطرأوة ، كما أن فيه مظهر الملك الهادئ اللطيف ، وهذه ترجمة صادقة للمصر الذى كان يعيش فيه ملوك الاسرة السادسة (الفترة الاولى منها) ، حيث هدأت حياة الناس ، من أجل ذلك ، عكسها الفنان على وجهه تلك الإيساسة الهادئة الرقيقة . مثل الملك في هيئة جنائزية ، إذ كان يستخدم التمثال في حفل يطلق عليه هيد (بسد) . وتدلى الملك برداء خاص بهذا الاحتفال يشبه العبادة . ثم بدأ الفنان في تغيير الأسلوب الفني دون أن يمس الروح الجنائزية التى كان يهدف إليها في إخراج هذا التمثال ، فنحت خلفه الطائر المقدس (حورس) على هيئة صقور ، لكنه بصورة أختلفت عن سابقتها ولا حققتها . فمن قبل ، مثل الملك خفرع جالسا ومن خلفه الطائر الصقر أيضا (حورس) باسما جناحيه ليحمي الملك حماية جنائزية وفنية (شكل ٩٠) . كما نجد بعد ذلك في تمثال الملك محفوظ بمتحف القاهرة (شكل ٤٢) . أما في تمثال بيبى الأول هذا ، فقد مثل الطائر حورس واقفا على ما نسميه واجهة القصر (سرخ) ، والتى كان يكتب فيها اسم الملك .

وبمتحف القاهرة تمثال صغير للملك بيبى الثاني ، ظهر فيه الملك في جلسة غير مالوفة على حيون القرب ، ولكنها مالوفة لدينا نحن الشرقيين ، ولا أدري لذلك من سبب إلا أن تكون حرارة الجو هي الدافع لذلك إذ كثيرا ما نجد هذا عند بعض الأطفال (وجديز بالدر

متبعة في نهاية الاسرة الثامنة عشرة . وإن أجمل الأمثلة لن نحت التماثيل ليتجلى فيها أيضا الدقة المتناهية ، مثال ذلك التمثال المشهور المحفوظ بمتحف تورين في إيطاليا (شكل ٤٤) ، الذى يصور الملك رمسيس الثاني ، ولكنه ينسب أحيانا إلى الملك سيتي الأول ، وفيه يعمل الجذع العلوى ميلا قليلا إلى اليمين ، ويتجلى فيه تعبير نبيل وهادئ إلى حد كبير .

برهن النحاتون المصريون ، في تمثيلهم للحوشى أو الحيوانات الأليفة ، على تمتعهم بنفس الصفات الممتازة ، فالأسد الرهيب الضلأ ، والسنائير ذات الشية الرقيقة المنة المكتومة الصوت التى تهدد الفرنسية ، ثم الكلاب الدلبيية (Chien Loup) ذات الحركة المرصدة الجديرة بالحرس الإمناء الأكفاد . والقرود الكبيرة بظهورها القور ، الذى يدعو أحيانا إلى السحرية ، كل هؤلاء يظهرون وحركتهم الخاصة بهم في واقعية صادقة ، تغلغوا من واقعية تمثيل الحيوانات المتوحشة الاسورية . وأظهر أمثلة على ذلك : تمثال البقرة حائض وهى ترضع الطفل أمنوفيس الثانى والمحفوظ بمتحف القاهرة . وتمثالا القرد المعروضان حاليا في قرية الاشمونين بمحافظة المنيا حيث كشفا في هذا المكان .

ذلك عرض خاطف لتطور فن النحت فسي مصر الفرعونية ، نعا فيه المصريون أسلوبا له أصالته القديمة ، كما تجيز من غيره من النحت السومري أو الاسورى أو البابلى أو الحيثى أو الفينيقي أو غير ذلك من الفنون المعاصرة . كما اتخذ لنفسه طابعا قويا في تعبيره الصادق الدقيق . وأبرز مظاهر العواطف التى كانت تشغول في النفس برسمها على معالم الوجوه . وكثيرا ما انطلق الفنان حرا ولم يتقيد بقاعدة من القواعد . ولو أن أكثر التمثيل شيوعا ، كان الواقف أو الجالس ، أو الكاتب صاحب الجلجنة المصرية الأصيلة . إلا أنه تحرر من تلك الأوضاع منذ الفترة الأخيرة من الدولة

التعرف على صاحبها ، فصور الملك مجرداً من
تمريض أجساد الملوك على هذه الهيئة . (وجدير
بالذكر أنه توجد تماثيل صغيرة لعمل يؤدون
بعض الأعمال جزواً من ليابهم ، وهذا يختلف
عن تمثال الملك حور ، لأن طبيعة بعض الأعمال
تستوجب خلق حوز كبير من الملابس ، أو
الملابس كلها . كذلك وجدنا أيضاً بعض
الجاربات وهن يرقصن في بعض الحفلات وقد
جردن من ليابهن تماماً) .

بمتحف اللوفر تمثال لأحدى الأميرات (غالبا
من عهد اخناتون) (شكل ٤٥) تضع طلي
راسها شعرا مستعارا ، وألقت بفصيلة
جانبية ، وهي آخر البتكرات الحديثة في فن
التجميل وتصفيف الشعر الحديث في عهدنا
الحالي . وإلى جانب تمثال المرأة ، تمثال
لرجل شد قميصه بحمالة واحدة .

ولم نر دور التمتع العالية بالعديد من
التماثيل التي لها أوضاع غير مألوفة . وقد قام
الأستاذ لاندبي G. Vandier بدراسة وإلية
للنحت الفرعوني في موسوعته عن الآثار المصرية ،
في الأذنان الرجوع إليها واستخلاص الكثير من
هذه الأوضاع .



تلك أمثلة من بدائع النحت المصري القديم ،
استطاع فيها الفنان أن يعبر عن شخصيات
اصحابها اصداق تعبير . والتثال المهر هو
الذي يستطيع أن يهضي على عمله للفنسي ،
وملامح وجوه تماثيله الكثير مما يجول في
خاطر اصحابها واخلاقهم وميولهم ، ويبتكر
ويختر في أسلوبه دون أن يمس الجوهر أو
الفترة العامة أو يخرج عليها . ولقد تلبست
هذه الروائع وحللت ولم ما مر بها من جنس .
والفعلت القوي ، ما كان ينتظر لها من كمال
وفي تلك ما أصبح لتمثال العبرى من وسائل
التمتع والتشبع والاضيق له

إن هذا الملك تولى العرش منذ نعومة أظفاره
إلى في سن السادسة) . ظهر يبيى الثاني
تجريداً من ليابه تماماً ، جالسا القرفصاء .
وعلى جبهته الصل . (شكل ١٨)

بمتحف القاهرة تمثال يجلس صاحبه
جلسة غير مألوفة في ذلك العهد (الدولة
القديمة) (شكل ٤٣) . إذ مثل الرجل جالسا
على ركبتيه ، قابضا على كفيه ، ونظرات عيونه
تدل على الانتباه والذكاء ، وعلى لمة ابتسامة
لطيفة ، وعلى وجهه مسحة من رقة .

تمثال الملك حور من الخشب (شكل ٦)
عثر عليه في دهنشور ، بمحافظة الجيزة ،
وحاليا محفوظ بمتحف القاهرة ، وغالبا ما
يُدرج من الأسرة الثالثة عشرة . مثل الملك
واقفاً ، وفوق راسه رمز الروح ، والذي ينطق
بالخير وقلبية (كا) ، على هيئة دراهم مرفوعين
على رأس التمثال . ووجه التمثال يعد مثاليا
في لحنه ، وقد طمعت المينان (شكل ٤٤) .
كما اتقن الفنان تحت الساقين . وكان في
السابق يغطي بعض أعضاء جسمه بصنالح
وتيقنة من الذهب . والتمثال ، نموذج بديع
للك بتألق شبابه ، أتيق ورشيقي ، وهو يمثل
الجمال الباسح الذي عرفت به مدرسة
التمثال ، وهن نصر للأسلوب الأكاديمي
المختار . والشيء الذي يميز هذا التمثال من
غيره من تماثيل ملوك مصر هو أن يظهر الملك
مجرداً من ليابه تماماً ، وهو أمر غير مألوف
مجد فراعة مصر . وفي يقيني ، أن التجرد
من الملابس تماماً كما هو واضح في هذا
التمثال ، لا بد أن له دلالة دينية جنائزية . فإن
التمثال لم يكن ليعرض على عيون الناس كما
هو حالها ، وإن مكانه الأعلى هو قبر من
القبور . فأنما لا إذا جرده الفنان من ليابه تماماً
بينما نجد جميع التماثيل الجنائزية للمصريين
التي وضعت في دور العبادة أو المقابر كانت
مغطاة لا لتفرض لذلك من سبب إلا أن يكون
فنان ذلك العصر آزاداً أن يسهل على المروء

الراجع

لم يستطع أن يقدم للقارئ الكريم سوى بعض المراجع العامة وذلك بسبب كثرة المصنفات التي كتبت عن الفن المصري القديم . منها ما كتب عن الفن بمصطلح عامة أو منها ما تخصص في بعض فروع ، ومنها ما نشر بين الاكتشافات الأثرية . وأخيراً تحت بعض القاريه الكريم مصنفات عامة ، وبعض المؤلفات التي أبرزت ناحية من نواحي الفن ، أو فترة معينة ، أو برزت حضارى معين ؟

1. Aldred (C), Old Kingdom Art in Ancient Egypt (LONDON 1949)
2. , Middle Kingdom Art in Ancient Egypt (, 1950)
3. , New Kingdom Art in Ancient Egypt (LONDON 1951)
4. Bénédict (G), L'Art égyptien dans ses lignes générales (Paris, 1923)
5. Boreux (Ch.) , L'Art égyptien, (Paris 1926)
6. , La sculpture égyptienne au Musée du Louvre (ed.) Galavao, Paris 1938)
7. Bothmer (B. V.) , Egyptian sculpture of the late period (Brooklyn, 1960)
8. Capart (I) , Lecons sur l'art égyptien (Liege, 1920)
9. Daumas (F.) , La civilisation de l'Egypte Pharaonique (Arthaud, Paris, 1965)
10. Daires, Frakfort, Glasirille and Wittamora, The Nural Paintings of el Amarna (Londón, 1929).
11. Daires (N. W.) , Ancient Egyptian paintings (2 Vol., Chicago, 1938)
12. Desoches Noblecourt
(Ch.), L, (Art égyptien au Musée du Louvre (Paris, 1941)
13. Le Style égyptien (Paris, 1946).
14. L'Extraordinaire aventure amarnienne (Paris 1960).
15. L'art égyptien (Paris, 1961).
16. Des trésors menacés (Paris, 1961).
17. Toutankhamon (Paris, 1963).
18. Denadoni (S.) Arte egizia (Torino 1935).
19. Drioton (Et.) La statuaire égyptienne, dans l'art vivant (Paris, année, 1930, pp.557 a 560).
20. L'art égyptien dans Histoire unwerwelle de l'art sous la direction de M. Aubert (Paris, 1931).
21. Edwards (I.E.S), Introduction guide to the collections in the British Museum, (London 1969).

22. Engelbach (R.) Introduction to Egyptian Archaeology, with special reference to the Egyptian Museum (Carlo, 1946).
23. Gianville (S.R.K.), The Legacy of Egypt (Oxford, 1953).
24. Hayes (W.C.), The Scepter of Egypt, I (New York, 1953), II (Cambridge, Massachusetts, 1959).
25. Iversen (E.) Canon and Proportions in Egyptian art (London, 1955).
26. Kees (H.) Aegyptische Kunst (Breslau, 1926).
27. Mekhitarian (A.), La peinture égyptienne (Geneve, 1954).
28. Montet (P.), L'Egypte Eternelle (Fayard, Paris 1970).
29. Murray (M.A.), Egyptian Sculpture (London, 1930).
30. Petrie Flinders, The Art and Crafts of Ancient Egypt (London, 1923).
31. Posener (G.), Dictionnaire de la civilization égyptienne (Fernand Hazan, Paris VI, 1959).
32. Schaefer (H.), Von Aegyptischer Kunst (Leipzig, 1930).
33. Smith W. S.) The Art and Architecture of Ancient Egypt (Harmondsworth, 1958).
34. , Ancient Egypt as represented in the Museum of Fine Arts, Boston (Boston, 1960).
35. Vandier (I.), Manuel d'Archéologie Egyptienne, quatre volumes (Paris 1952-1964).
36. Winlock (H.E.), Egyptian statues and statuettes (Metropolitan Museum of Art, New York, 1937).
37. Wolf (W.), Die Kunst Aegyptens (Stuttgart, 1957).



شکل (۱)



شكل (٢)



شكل (٢)



شكل (٤)



شكل (٥)



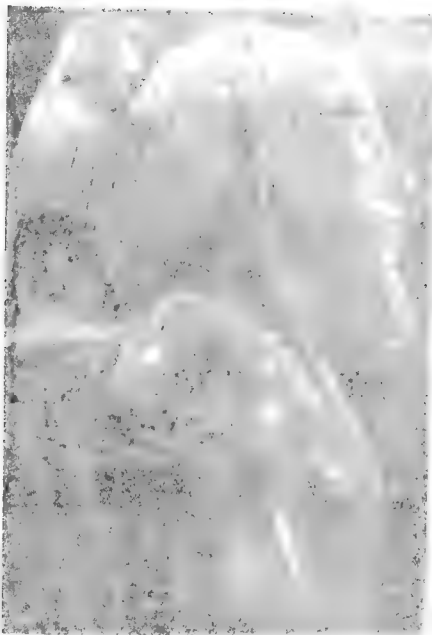
شکل (۶)



شكل (٧)



شكل (٨)



شكل (٩)



(1.) 162



شكل (١١)



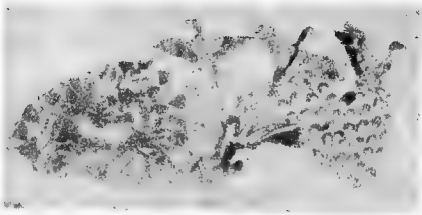
شكل (١٢)



شكل ١٣



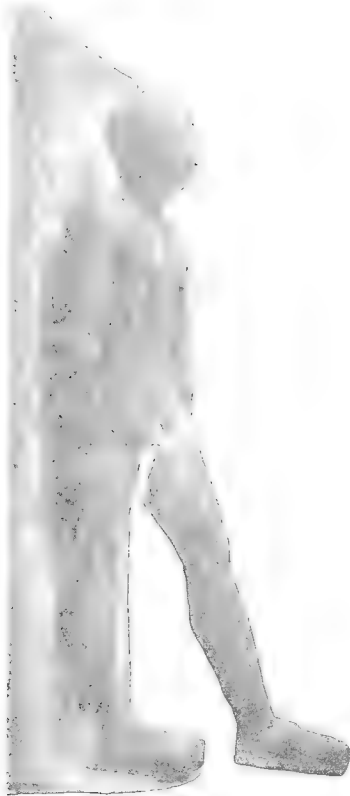
شكل (١٤)



شكل (١٥)



شکل (۱۶)



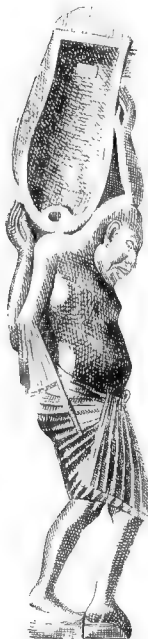
شكل (١٧)



شكل (١٩)



شكل (١٨)



شكل (٢٠)



شكل (٢١)



شکل (۱)



شکل (۲)



شكل (٢٢)

(۲۵)

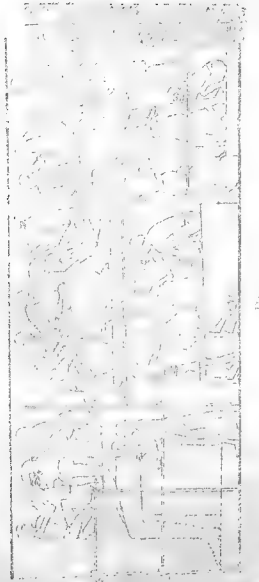




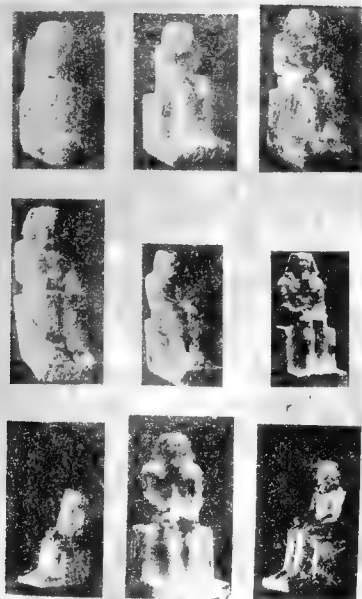
شكل (١٦)

شكل (١٧)





شكل (٢٨)



شكل (٢٩)



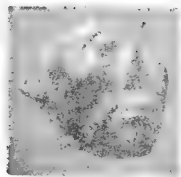
شكل (٢٠)



شکل (۲۱)



شكل (٢٢)



شكل (٣٢)



شكل (٣٣)



شكل (٢٥)



شکل (۲۶)



شكل (٣٧)



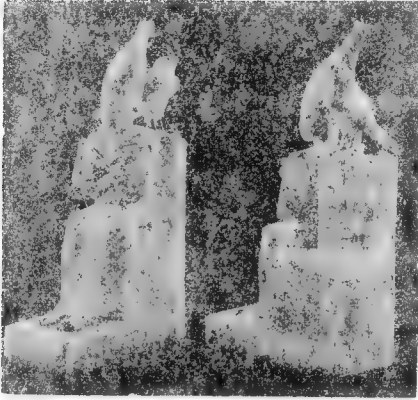
شكل (٣٨)



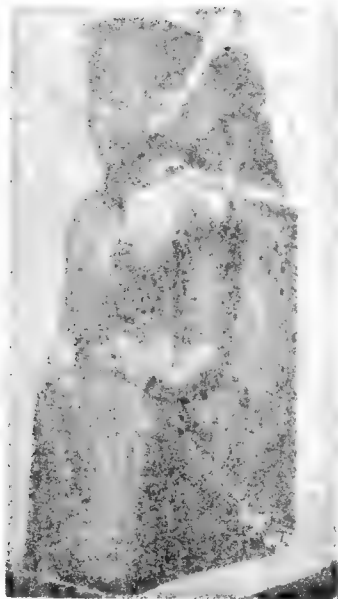
شكل (٣٩)



شكل (٤٠)



شكل (٤١)



شكل (٤٢)



شكل (٤٣)



شکل (۲۲)



شكل (٥٠)

اتجاهات جديدة في الفكر التنظيمي

علي السلي

وفي خضم النظريات المتصارعة حول تفسير الظواهر السلوكية في المنظمات ، ظهر اتجاه جديد يستخدم مفهوما مستوحدا بالنسبة للعلوم الاجتماعية وإن لم يكن كذلك بالنسبة للعلوم الطبيعية ، ذلك هو مفهوم **النظم Systems Concept** . وقد تربت على

استخدام هذا المفهوم ، كأساس لتحليل الظاهرة السلوكية في المنظمات ، أن وضعت صورة مقارنة تماما لما كان المفكرون الأوائل يروجونه حول محددات السلوك التنظيمي .

وهدفنا في هذا البحث التعريف بمفهوم النظم ، ثم عرض الأطوار العام لفكرة النظم

شهد الفكر التنظيمي في السنوات القليلة الماضية تطورات كبيرة في مجالات بحثه والأساليب المستخدمة للوصول الى حقائق علمية واضحة تفسر مايجرى داخل التنظيمات المختلفة من أعمال ، وتسهم في توسيع محددات الفعالية التنظيمية .

ولقد كانت مشكلة سلوك أعضاء التنظيمات من أكثر الموضوعات التي اجتذبت اهتمام المفكرين والممارسين في هذا الميدان ، وتبع على مدى سنوات طويلة العديد من النظريات التي تقاربت في بعض الأحيان ، وتباعدت أو تناقضت في أحيان أخرى .

© امتلاك مساعد إدارة الأعمال بكلية التجارة جامعة القاهرة ، ومعار للتدريس بكلية التجارة والاقتصاد والعلوم السياسية جامعة الكويت .

السلوكية باعتبارها من أحدث التطورات العلمية في الفكر التنظيمي الحديث .

مدخل الى مفهوم النظم :

يتجه الفكر الانساني عادة الى التفكير في الظواهر المختلفة التي يشاهدها ويمارسها على انها نتيجة لسبب واحد . فاذا واجه الانسان موقفا يعانى منه اقتصاديا مثلا فانه يميل الى اعتبار شخص معين وكأنه المسئول عن هذا الموقف . او اذا واجه الانسان مشكلة اجتماعية فانها تنشأ في ذهنه بفعل عامل معين . ومثل هذا التفكير يجاى الى حد بعيد طبيعة الامور التي يتضح منها تعدد الاسباب المؤدية الى ظاهرة معينة . فاذا نظرنا على سبيل المثال الى موقف طالب فصل من الجامعة بسبب فشله في تحقيق معدل الدرجات المطلوب للاستمرار في الدراسة ، فانه يلقي اللوم عادة على شئء معين كالاستاذ القائل بالتدريس ، او المرشد المسئول عن التوجيه حين اختيار المقررات او ماشابه ذلك من اسباب . ولكن حقيقة الامر ان هذا الموقف ينشأ عادة نتيجة لعدد من التغيرات والاسباب التي تتفاعل جميعا لانتاج الظاهرة المشاهدة . وهي فشل الطالب في تحقيق معدل معين للدرجات ، ومن ثم فصله من الجامعة . من ناحية اخرى ، فان مجموعة الاسباب او العوامل تلك تقوم بينها علاقات ذات طبيعة خاصة في كل حالة ، بحيث تلهم بعض العوامل من تأثير عوامل اخرى ، بينما تخفف عوامل ثانية من تأثير بعضها البعض . وهكذا نكتشف ان هناك لمة حركة تفاعلية بين مجموعة من العوامل يتحدد على اساسها نوع ومدى النتيجة النهائية وهي الظاهرة المشاهدة .

بالاضافة الى تعدد الاسباب وتفاعلها ، فان التحليل المنطقي البسيط يقودنا الى اكتشاف حقيقة ثالثة ، وهي انه في أى موقف تتفاعل فيه مثل تلك العوامل .. فإن بعضها منها ينبع من صفات وخصائص الانسان الذى يعانى من

الموقف ويميش احدا له ، بينما تصدر بعض العوامل الاخرى من طبيعة وخصائص الموقف او البيئة المحيطة بالانسان والظروف السائدة في تلك البيئة . بمعنى آخر ، ان بعض العوامل المسببة للظواهر التي يعيشها الانسان هي عوامل ذاتية يستطيع هو ان يتحكم فيها ويسيطر على اتجاهاتها . بينما البعض الاخر مفروض عليه من خارج ذاته ولا يستطيع بالتالى ان يسيطر عليه سيطرة كاملة .

لك الحقائق الثلاث تجعلنا نقترب الى حد بعيد من التعرف على مفهوم اساسى له شأن كبير في توجيه الفكر الانساني ناحية التحليل السليم للظواهر المشاهدة ، ذلك هو مفهوم النظم Systems . وعلى ذلك نستطيع تركيز الاسس التي يقوم عليها مفهوم النظم في تلك الحقائق السابقة وهي :

١ - تعدد الاسباب والعوامل المنشئة للظواهر المختلفة .

٢ - تداخل تلك الاسباب والعوامل وتفاعلها معا بدرجات متباينة لانتاج الظاهرة المشاهدة .

٣ - انقسام مصادر تلك الاسباب الى ذاتية تتعلق بالشخص (او الاشخاص) المتصل بالظاهرة ، وخارجية تنبع من طبيعة المناخ او البيئة التي تحدث فيها الظاهرة .

وحين نحاول تفهم السلوك الانساني فاننا نجد ان المنطق الذى يستند الى وحدانية الاسباب المنشئة للسلوك لا يصلح لتفسير المظاهر والانماط السلوكية المشاهدة ، بل ان الواقع يفرض علينا الاتجاه نحو مفهوم النظم لتتخذ اطارا ندرس من خلاله السلوك الانساني ، ونصل بذلك الى استنتاجات واقعية سليمة . ولذلك فاننا نخصص هذا الجزء من البحث لدراسة مفهوم النظم وخصائصها ثم نعود الى تطبيقه بالنسبة للسلوك الانساني .

البيئة المحيطة به ، ومن ثم فهو يتأثر بها ويؤثر فيها في الوقت ذاته .

خصائص النظام المفتوح :

تتميز كل النظم المفتوحة بمجموعة من الخصائص التي تعكس طبيعة وجودها وشروط استمرارها وحيويتها ، ولأهمية هذه الخصائص لدراستنا عن السلوك الإنساني نعرضها فيما يلي بدرجة من الإيضاح : (١)

١ - استيراد الطاقة أو المولدات الأساسية :

تعتمد كل النظم المفتوحة على اختلاف أنواعها على استيراد نوع من أنواع الطاقة من المجتمع أو البيئة المحيطة . فالخلية البسيطة في جسم الإنسان تحصل على الأوكسجين من الدم المحيط بها ، والجسم الإنساني ذاته يحصل على الهواء والغذاء من العالم الخارجي ، وتحصل المنظمات المختلفة على احتياجاتها من العمال والمواد ومصادر الطاقة الأخرى من المجتمع المحيط . وإذا نظرنا إلى السلوك الإنساني باعتباره نظاما مفتوحا هو الآخر ، فإن المؤثرات الأساسية المحركة والدافعة في هذا النظام السلوكي تستمد أيضا وبدرجة كبيرة من البيئة الخارجية .

وصفة عامة فإن خاصية أساسية من خصائص النظم المفتوحة هو اعتمادها على المجتمع وعلاقاتها التبادلية الوثيقة معه ، أي انفعالها وتأثيرها بالأوضاع والظروف السائدة فيه وذلك من خلال انعكاس تلك الأوضاع والظروف على نوعية الموارد (أو المؤثرات) التي يتمكن النظام من الحصول عليها .

تعريف النظام :

النظام System هو الكيان المتكامل الذي يتكون من أجزاء وعناصر متداخلة تقوم بينها علاقات تبادلية من أجل أداء وظائف وأنشطة تكون محصلتها النهائية بمثابة الناتج الذي يحققه النظام كله .

أي أن النظام هو « الكيان الكلي المنظم أو المعقد ، الذي يضم جميعا لأشياء أو أجزاء تتكون منها وحدة متكاملة » . (٢) ويشير مفهوم النظام إلى عديد من الظواهر المشاهدة منها على سبيل المثال النظام الشمسي ، ونظام الأنهار وغيرها من مظاهر الطبيعة . كذلك فالجسم الإنساني هو بذاته مثال جيد لفكرة النظام حيث يحتوى على مجموعة من النظم منها النظام العصبي ، النظام التنفسي ، والنظام الهضمي ، وأخيرا فإن حيواننا اليومية تحفل بمشاهد من النظم مثل نظام المواصلات ، والنظام النقدي ، والنظم السياسية والاجتماعية .

وحين نتأمل العالم من حولنا نجد أنه مكون من سلسلة من النظم العليا super systems تحتوي داخلها عددا من النظم الفرعية sub-systems التي تضم كل منها أجزاء ومكونات تفصيلية parts .

ومن أهم أنواع النظم ما يسمى بالنظام المفتوح open system الذي يتصف بوجود علاقة أساسية بينه وبين البيئة المحيطة به . وتركز هذه الصفة على أهمية التفاعل المستمر بين النظام المفتوح وبين الظروف والأوضاع

Johnson, R., Kast, F., and Rosenzweig, J.,

(١)

The Theory and Management of Systems,

N. Y. McGraw-Hill Book, Co., 1967, P. 4.

Katz, D. and Kahn, R. The Social Psychology of Organizations,

(٢)

N. Y. Wiley & Sons, 1966, pp 8-13,

٢ - الأنشطة الداخلية

تجرى بالنظام المفتوح أنواع مختلفة من النشاط تستهدف تحويل الطاقات والموارد (أو المؤثرات) إلى أشكال وقيم ومنتجات تمثل النتائج التي يصدر من النظام ويتوجه إلى المجتمع مرة أخرى . فالمنظمات الانتاجية مثلا تعمل على تحويل ما حصلت عليه من موارد إلى سلع وخدمات تتوجه بها إلى المجتمع في سعيها لتأكيد ضرورة وجودها واستمرار هذا الوجود . وقد تتباين الأنشطة الجارية في النظم المختلفة حتى وإن انحلت في الناية أو الهدف ، ولكن المهم هو حدوث حركة يثير تدفقها إلى حيوية النظام . وفي النظام السلوكي تجري أنشطة وعمليات مختلفة تعمل على استقبال المؤثرات الخارجية والدائية واستيعاب معانيها ثم تحويلها إلى اشارات واختيارات تنتهي إلى أداء وسلوك يشبع للانسان رغبة ، ويحقق له هدفا .

وتخضع الحركة في النظم المفتوحة لقواعد وضوابط تحددها طبيعة النظام وتكوينه الداخلي من ناحية ، وتوجيه الموارد (المؤثرات) وخصائصها في التفاعل .

٣ - ترابط الاجزاء وتكاملها

ينقسم النظام المفتوح إلى اجزاء وعناصر داخلية تختلف في عددها ومدى تطورها بحسب درجة تقدم النظام وتطوره . وتختص تلك الاجزاء بأداء الوظائف والأنشطة الأساسية في النظام وهي :

أ - استقبال الموارد (المؤثرات) أو السمي اليها .

ب - اعداد الموارد (المؤثرات) للاستخدام فيما يتجه النظام إلى انتاجه .

ج - تحويل الموارد (المؤثرات) إلى صور نهائية معدلة تتناسب وطبيعة أهداف النظام .

د - الحفاظ على النظام وصيانة وجوده وتأمينه في مواجهة التطورات والتفاعلات مع البيئة وعناصرها .

هـ - استثمار ناتج النشاط في اعادة الحصول على موارد جديدة (أو ليسر استقبال مؤثرات جديدة) .

وتتوزع تلك الأنشطة بين اجزاء النظام المفتوح في تناسق بحيث يختص كل جزء ببعض الأنشطة يؤديها متفاعلا مع الاجزاء الأخرى ومتكاملا معها ، بحيث أن النتائج النهائي لحركة النظام كله تمثل حصيلة نشاط كل الاجزاء . والصفة الأساسية التي تميز اجزاء النظام المفتوح هي صفة الاعتماد المتبادل Interdependence . ان القلب مثلا يمارس وظيفة أساسية في الجسم الإنساني تتعلق بتوزيع الدم والسيطرة على الدورة الدموية ، ولكنه لا يقوم بهذا العمل منفردا أو منعزلا عن الرئتين أو المخ مثلا ، بل هناك اتصال مستمر وتكامل بين وظائف تلك الأعضاء بحيث أن أي قصور أو تخلف في مستوى الأداء في أي منها يترتب عليه تأثير واضح في أداء الأعضاء الأخرى .

٤ - استثمار النشاط ودورته :

ويتميز النظام المفتوح باستمرار النشاط واتصاله بصفة دورية . ويأخذ النشاط شكل دورة cycle كاملة تفي نفسها أو تتكامل فيها البدايات والنهايات . فالواردات أو المؤثرات التي تثير حركة النظام تتحول إلى نتائج output يكون لها تأثيرها مرة أخرى في نوعية وكمية الواردات الجديدة الذي يستطيع النظام الحصول عليها وهكذا تستمر دورة النشاط .

وما يهمنا من هذه الصفة ، أنه بالنسبة للنظم الإنسانية والسلوكية فإنها تشير إلى تراكم آثار الأحداث والمؤثرات حيث أن حدوث حادثة معينة يكون لها دور في إثارة حادثة تالية تنشأ

٧ - الاتجاه الى التميز والاختلاف :

تميل النظم المفتوحة الى التميز والاختلاف بمضمونها من البعض . فكل نظام يبدأ عادة عند مستوى بسيط من التركيب والتعقيد بحيث تتشابه النظم جميعا تقريبا . ولكن مع تطور حركة النظام وتفاعله مع المناخ تتاح له الفرص للحصول على مزايا نسبية تفوق ما يحصل عليه غيره من النظم . ويكون لهذه المزايا آثارها في اذكاء روح التنافس والصراع بين النظم حتى تتمكن تلك الفقرة اليها من تحقيق مستوى من التميز يماثل ما تتمتع به النظم المتفوقة وتصل بذلك كل النظم أو أغلبها الى درجة متقاربة مما يدفع بالنظم الاولى الى البحث عن مصادر واشكال جديدة للتفوق تسمح لها باستمرار تميزها ، وهكذا تستمر دورة السباق بين النظم .



اجزاء النظام

يتكون النظام المفتوح من اجزاء رئيسية ثلاثة ترتبط معا في تكامل وظيفي . ولكل من هذه الاجزاء اهمية خاصة في حركة النظام الكلي وسلوكه . والجزء الاول في النظام هو المدخلات Inputs اي عوامل التأثير التي تستثير حركة النظام وتدفعه الى السلوك . وهذه المدخلات هي بمثابة الاسباب التي تحرك النظام وتنقل به من مستوى معين للسلوك الى مستوى آخر . وقد تكون المدخلات مستمرة كما في حالة نظام الانتاج في مصنع حيث يتوالى ادخال المواد الخام لتحويلها الى منتجات . ففي هذه الحالة تتدفق المواد الداخلة الى نظام الانتاج بشكل مستمر . وفي حالات اخرى تكون المدخلات متقطعة التوافد على النظام كما هو الحال في الموقف الذي يتقاطر فيه ورود الرسائل المشحونة من الخارج الى شركة للاستيراد . اذ لا تتخذ الرسائل الواردة شكل تدفق مستمر ، بل تكون في صورة شحنات متقطعة .

بسببها وتناثر بها ، وهكذا تتراكم الآثار وتدور الدائرة دورتها .

٥ - البقاء والاستمرار للنظام

يستطيع النظام المفتوح ان يصمد لموامل التغيير واحتمالات الفناء وذلك بسبب قدرته على استيراد الطاقة او تعرض نفسه للمؤثرات الخارجية . ولذلك فان هذه الصفة تدلنا على ان فناء بعض النظم المفتوحة (مثل النظم السلوكية) يمكن تصور حدوثه في معنى غير مادي وذلك حين ينزول النظام عن البيئة المحيطة ويتوقف عن التفاعل معها .

٦ - التوازن الحركي (الديناميكي) :

يهدف النظام المفتوح الى ان يكون دائما في حالة توازن . وتقصد بحالة التوازن هذه امرين : الاول تناسب وتجانس التركيب الداخلي للنظام وتوافق اجزائه وعناصره واقبالها على التعاون والتفاعل مما بلا تناقضات اساسية . والامر الثاني هو تكيف النظام مع البيئة او المناخ ومعايشه مع الاوضاع والظروف السائدة . ويتميز النظام المفتوح بوجود بعض الاجزاء الداخلية به تختص باستشعار الاختلال في التوازن وتعبير النظام كله لكي يتخذ من الاجراءات ما يكفل تجنب هذا الاختلال قبل حدوثه ، او استعادة التوازن مرة اخرى اذا وقع الاختلال فعلا .

وتشير حالة التوازن الحركي الى استمرار حركة النظام ولطوره ، فالنظام لا يتجمد او يتوقف عن الحركة ، بل هو يتفاعل دائما مع المناخ ويمارس نشاطاته الدائرية ، ولكن كل ذلك يتم في توافق بحيث تستمر العلاقات بينه وبين عناصر المناخ . كما تستمر صفة التجانس بين اجزائه منبه المستويات التي تحقق له الازدهار والبقاء .

الحركة وتوفير الظروف الملائمة لكي ينطلق النظام في سلوك معين . ومن هذا تضح لنا الأهمية الخاصة التي تتمتع بها المدخلات في أي نظام إذ يعتمد النشاط فيه على نوعية تلك المدخلات ومعدلات تدفقها .

أما الجزء الثاني في النظام المفتوح فهو ذلك المختص بإداء العمليات والأنشطة الهادفة إلى تحويل المدخلات وتغييرها من طبيعتها الأولى إلى شكل آخر يتناسب ورفيات النظام وأهدافه . ويمثل هذا الجزء في الإنسان مثلاً الأجهزة المختصة بالتفكير والتأمل والاختيار والمقارنة (أي المخ ومايجرى فيه من عمليات ذهنية) . وقيمة هذا الجزء من النظام أنه الذي يتولى ممارسة الواجبات والأنشطة التي ينتقل بها النظام خطوة نحو تحقيق أهدافه . وهو الجزء الذي يتمكن النظام بفضل من استثمار المدخلات والإفادة منها (أو التخلص من المدخلات غير المتوافقة مع النظام) . وفي هذا الجزء يستهلك النظام الطاقات المتاحة له ويستنفذ الموارد التي تمكن من تدبيرها .

ويمثل الجزء الثالث من النظام المفتوح في سلسلة الإنجازات أو النتائج المحققة من العمليات والأنشطة التي قام بها النظام ، بمعنى أن هذا الجزء الأخير يضم نتاج عمل النظام الذي يتبدل في أشكال وأنماط مختلفة تمثل مايقدمه النظام للمناخ في صورة مخرجات Output . وتلك المخرجات هي وسيلة النظام للحصول مرة أخرى على الموارد أو المدخلات اللازمة لاستمراره في النشاط . والشكل التالي يصور النمط العام للنظام المفتوح بأجزائه الثلاثة :

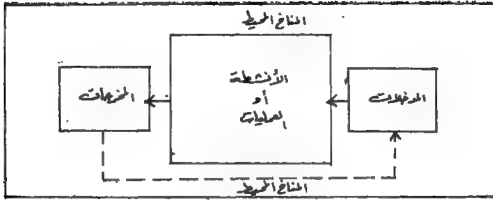
وفي أغلب الأحيان تأتي المدخلات من خارج النظام (٣) ، فمصدرها الأساسي هو المناخ المحيط وما يقسمه من نظم أخرى . فكل نظام مفتوح يحصل على الموارد الأساسية لحركته ويستقبل المؤثرات الحركية لنشاطاته من المناخ الذي يوجد به .

وتختلف أنواع المدخلات اختلافاً كبيراً بحسب طبيعة النظام والأهداف التي يسعى إليها والأنشطة التي يفتش بالقيام بها . ولكن يمكن تقسيم المدخلات إلى قسمين رئيسيين ، الأول هي المدخلات التي يسعى النظام إلى الحصول عليها بسبب حاجته إليها ، ومن هنا يخصص بعض أعضائه للبحث عنها وتدبير توافرها بالنظام واستمراره .

والقسم الثاني هو المدخلات التي تفرض على النظام من واقع المناخ المحيط وظروفه ولا يكون أمامه سوى استقبلها واستيعابها ومحاولة الإفادة منها . ومثالنا على القسم الأول من المدخلات المواد الخام والإمكانات البشرية والمادية والمعلومات وأنوع الخبرة والمعرفة التي يسعى النظام إلى امتلاكها وتأمين توافرها نظراً لضرورتها وأهميتها لحركة النظام واستمرار وجوده . أما النوع الثاني من المدخلات فيتمثل في أنواع التأثيرات في الظروف والأوضاع المحيطة بالنظام والتي يواجه ضرورة التكيف معها وإدماجها ضمن عملياته . ومنها أيضاً أشكال الموارد التي قد لا يحتاجها النظام ولكنها تفرض عليه في مقابل حصوله على ما يحتاج من موارد أخرى محدودة العرض .

وتؤدي المدخلات على اختلاف أنواعها وظيفتها الأساسية في النظام المفتوح وهي إدارة

(٣) في بعض الأحيان ينبع الإحساس بالمؤثرات التي تعبر عن دور المدخلات من داخل النظام ذاته . ومثال ذلك الإحساس بالمرحوم عند الإنسان ، فإن هذا التأثير ينبع من أوضاع طبيعية داخل الإنسان ولكنها تؤدي وظيفة الإدارة السلوكية شأنها شأن التأثيرات الخارجية .



شكل رقم (١) - أجزاء النظام المفتوح

٢ - نظام فرعي لتحليل المعلومات وتداولها بحيث تتجه الى اجزاء النظام التي تحتاجها في عملياتها .

٣ - نظام فرعي لاتخاذ القرارات والتوصل الى اختيارات بشأن بدائل السلوك المطروحة امام النظام .

٤ - نظام فرعي للرقابة والتأكد من سلامة العمليات التي تقوم بها اجزاء النظام وتناسقها .

٥ - نظام فرعي لاختران المعلومات والخبرات (ذاكرة) وتصنيفها بحيث يمكن للنظام او اجزائه استرجاعها والافادة منها في المواقف التي يتطلب الامر فيها الرجوع الى الخبرة الماضية . (٥)

• • •

من الشكل السابق تتضح لنا اجزاء النظام المفتوح ، كما نستدل على طبيعة العلاقة التداخلية بين المخرجات والمدخلات او ما يطلق عليه « ارجاع الاثر » *Feed Back* ويقصد بها احساس النظام بقيمة المخرجات ومدى تقبل المنشأ لها ، ومن ثم تأثير ذلك على ما يمكن ان يحصل عليه النظام مرة اخرى في شكل مدخلات .

وفي ضوء هذا التصور للنظام المفتوح ، نستطيع ادراك وجود مجموعة من النظم الفرعية *subsystems* يشملها النظام الاكبر ويختص كل منها بجانب من العمليات التي تتم في الجزء الثاني من النظام . واهم هذه النظم الفرعية مايلي :

١ - نظام فرعي يختص بالاحساس بالتغيرات التي تطرأ على النظام وقياس مداها وتوفير حلقة للاتصال بين النظام والمنشأ .

Kast, F. & Rosenzweig, J., „Systems Concepts ; Pervasiveness and Potential“ ()
in French W. & Hellriegel, (Eds.) Personnel Management and Organization Development : Fields in Transition. Boston. Houghton Mifflin Co. 1971, pp 3-15.

الفائدة التحليلية لمفهوم النظم :

يوفر مفهوم النظم مدخلا علميا سليما يساعد الباحث على تحقيق أهدافه في تفسير الظواهر والتنبؤ بها ، كما يسهم في تمكينه من السيطرة على مسارات تلك الظواهر وأنماط سلوكها . وتنبع القيمة العلمية لهذا المفهوم من الامكانيات التحليلية الهائلة التي يستطيع الباحث الاستفادة منها في دراساته . ومن دراستنا لمفهوم النظم نستطيع استنتاج عديد من الحقائق التي تصف الظواهر الطبيعية والانسانية المختلفة والتي تتخذ شكل النظام . ومن أهم هذه الحقائق مايلي :

١ - ان الظاهرة التي تتخذ شكل النظام ترتبط ارتباطا وثيقا بالمتناخ الذي توجد فيه . ومثل هذا الارتباط يفسر لنا كثيرا من سلوك تلك الظاهرة . واذا افصلنا النظمية مادة لدراستنا الآن ، يمكن ان نفهم الكثير من انماط ومظاهر السلوك التنظيمي من خلال تأمل العلاقة بينها وبين المتناخ . وبشكل عام فالمنظمة (او النظام عموما) ترتبط بعلاقة اعتماد متبادل بالمتناخ حيث تتأثر بالظروف والاضاع السائدة فيه وتلتزم بكثير مما يفرضه من قيود ومتطلبات ، كما تحاول التأثير في تلك الظروف والاضاع وتغييرها او اخضاعها لنظم العمل بها ومتطلبات حركتها ونموها . وتحدد ابعاد العلاقة بين الظاهرة والمتناخ في الاتي :

أ - تستمد النظم وجودها كله ومبرر استمرارها ونموها من حاجة المتناخ اليها والى ما يمكن ان تقوم على انتاجه .

ب - تستمد النظم الموارد والامكانيات اللازمة لها كي تمارس نشاطاتها وتحقق اهدافها من المتناخ المحيط بها ، وتتوقف كفاءتها الى حد بعيد على مدى مايسمح لها به المتناخ من تلك الموارد والامكانيات .

ج - يستوعب المتناخ مانفرضه النظم من منتجات مادية او معنوية (او بشرية) . وبذلك فهو المصب الرئيس الذي تتجه اليه مخرجات النظم ومن هنا يستطيع ممارسة اشكال من الضغط عليها من خلال قبوله او رفضه لتلك المخرجات .

وبصفة عامة فان المتناخ هو الذي يهيئ للنظام فرص الوجود والنشاط والاستمرار ، كما يستطيع ان يحجب عنه الامكانيات والموارد الضرورية لبقائه وفعالته . ومن ناحية اخرى ، فان النظم ومايجري بها من حركة وما يترام لديها من خبرات وقدرات تعمل من جانبها على تغيير المتناخ وتطوير اوضاعه بما يهيئ لها فرصا افضل للعمل والبقاء .

٢ - في ضوء دراستنا لمفهوم النظم نصل الى حقيقة هامة هي ان مايتحقق عنه من منجزات ونتائج (مخرجات) ان هي الا نتيجة حتمية لنوعية وكفاءة المدخلات والانشطة بالنظام . ومعنى هذا ان النظام لايتطيع انجاز وتحقيق نتائج تفضل نوعية مايحصل عليه من موارد وامكانيات ، او تتفوق على جودة مايتم به من أنشطة ، ان المخرجات هي حصيلة التفاعل بين المدخلات والانشطة ، ومن ثم فان اي تخلف او تدهور في ايها يسبب تخلفا وتدهورا فيما يمكن ان يصل اليه النظام من مخرجات . وعلى سبيل المثال اذا اعتبرنا الخريجين هم مخرجات الجامعة باعتبارها نظاما متفاعلا مع البيئة ، فان نوعية هؤلاء الخريجين ومستواهم العلمي تتوقف تماما على نوعية الطلاب الذين يلتحقون بالجامعة وكفاءة اعضاء هيئة التدريس ومستوى الامكانيات المادية والعلمية المتاحة للجامعة ، بالإضافة الى دقة وكفاءة العمليات التعليمية والإدارية والعلمية بها . والاستنتاج الهام الذي يعيننا هنا هو ان الرغبة في تحسين وتطوير النتائج تعتمد بالدرجة الاولى على تحسين الموارد وترشيدهم للانشطة وتطويرها .

الى خطأ توقع تشابه السلوك بين الافراد المختلفين الذين يخضعون لنفس الظروف أو يواجهون معلومات وحقائق واحدة .

٥ - ومن الحقائق الهامة التي يكشف عنها تحليل فكرة النظم ، ان ما يتحقق من النظام من مخرجات يعود ليؤثر في قدرته على استقطاب موارد الأنشطة . ولكي نتضح لنا هذه الحقيقة لننتصر مما شركة صنائية تقوم بانتاج سلعة ما ، ولكن سيارة . لا شك اننا نستطيع ادراك ان جودة السيارات المنتجة وسعرها ومواصفاتها الاخرى تحدد قبول المستهلكين لها (الى جانب عوامل أخرى) ، وان حجم المبيعات من هذه السيارات يحكم الى مدى بعيد قدرة الشركة على ايجاد مصادر الفيار وأداء كافة النفقات الانتاجية والإدارية اللازمة لكي تستمر في النشاط ومواصلة التمويل اللازمة لاعادة شراء المواد الخام وقطع الفيار وأداء كافة النفقات الانتاجية والإدارية اللازمة لكي تستمر في النشاط ومواصلة الانتاج والنظم كلها تتصف بهذه السمة الهامة ، وهي اعتماد النظم في مواصلة نشاطه على قبول المناخ لمخرجاته حتى يتمكن من الاستمرار في جلب المدخلات اللازمة . وبشكل عام فان هذه الحقيقة تشير الى تأثير المخرجات وكلنا الأنشطة المستقبلية للنظام . (٥)

٦ - وتلعب الاجراء المختصة باستقبال المدخلات دورا هاما وجيويا في كفاءة النظام كله . اذ تستطيع تلك الاجراء اذا أحسنت الاداء ان توفر للنظام المدخلات السليمة في التوقيت المناسب ، كما تستطيع افساد هذه المدخلات وتشويه خصائصها ، الامر الذي ينعكس على كفاءة الأنشطة والمخرجات كما أوضحنا من قبل . وعلى سبيل المثال فان ادارة المشتريات وادارة الإستلام في أحد

٣ - ولمة حقيقة ثالثة ندرها من تأمل فكرة النظام ، هي ان كفاءة الأنشطة ومستوى العمليات التي يمارسها النظام تتأثر الى حد بعيد بجودة المدخلات ووفرها . أي ان الأعمال التي يقوم بها اجزاء النظام تتحدد فعاليتها نسبيا بحسب نوعية الموارد والإمكانات المتاحة فترتفع الفعالية اذا كانت الموارد جيدة ، وتنخفض بانخفاض الجودة . ولعل مثالنا السابق من الجامعة خير دليل على هذه الحقيقة . ان كفاءة الأنشطة التعليمية ترتفع اذا كان الطلاب بالجامعة قد حققوا مستوى علميا وثقافيا طيبا بالمرحلة الثانوية يمكنهم مثلا من الدراسة باللغات الأجنبية والإطلاع على المراجع بتلك اللغات ، بينما تتدنى العملية التعليمية اذا انصرف هؤلاء الطلاب الى معرفة اللغات الأجنبية .

٤ - كذلك يتضح لنا ان المدخلات يمكن ان يتحقق منها مخرجات متباينة في المستوى والجودة وذلك تبعا لتباين كفاءة وفعالية الأنشطة . بمعنى ان المدخلات ذاتها يمكن ان ينتج منها مخرجات تختلف في جودتها من نظام لآخر ، وذلك طبقا لدرجة كفاءة الأنشطة في تلك النظم . فعلى سبيل المثال اذا كانت أنشطة البحث والتحليل العلمي على درجة عالية من الكفاءة في أحد النظم السياسية فانه يستطيع استنتاج مؤشرات وحقائق غاية في الدقة والاهمية من تحليل مجموعة معينة من البيانات أو الإحصاءات ، بينما لا يصل نظام آخر الى نفس النتائج رغم حصوله على البيانات ذاتها وذلك بسبب تخلف الأنشطة المختصة فيه . ولعل القيمة الرئيسية لهذه الحقيقة تكمن في كونها تشير بدقة الى خطأ الاعتقاد السائد بضرورة اتفاق المخرجات وتشابهها اذا اتفقت المدخلات . ولهذه الحقيقة اهميتها في الدراسات السلوكية حيث تنبه

(٥) سوف نستفيد بهذه الحقيقة الى حد بعيد عند دراسة النظم السلوكية حيث انها تشير الى ان السلوك النهائي للفرد (مخرجات النظم السلوكي) يؤثر في اختياره لآتواع المدخلات الجديدة (معلومات او قيم) كما يؤثر في طريقة تكبره وادراكه للامور وفي ذلكم العمليات السلوكية.

المدخلات والمخرجات يسهم في تفسير الظاهرة. كما ان دراسة علاقة الأنشطة بكل من المدخلات والمخرجات يوفر الأساس للتنبؤ بسلوك الظاهرة وبالتالي السيطرة عليها .

ماهية السلوك الانساني :

نحن نستخدم كلمة السلوك للدلالة على كل أشكال الحركة الانسانية ، فالأفعال والتعبيرات ومحاولات التأثير وغيرها من الأنشطة التي يمارسها الانسان خلال حياته كلها تدخل جميعا في نطاق ما نشير اليه بكلمة السلوك .

والسلوك الانساني في تصورنا يتمثل في سلسلة متعاقبة من الافعال actions وردود الافعال reactions التي تصدر عن الانسان في محاولاته المستمرة لتحقيق اهدافه واشباع رغباته المتطورة والمتغيرة . كذلك هي الافعال أو الاستجابات التي يصبر بها الانسان من قبوله أو رفضه لمحاولات التأثير الموجهة اليه من عناصر المناخ المحيط به سواء كانت عناصر بشرية أم مادية .

ان السلوك الانساني هو مصدر كل القيم في حياتنا البشرية ، وهو مصدر كل النشاط المنتج المحقق للغايات والاهداف الانسانية . وتعم آثار السلوك الانساني مختلف مجالات الحياة . فنحن نلمس ونشعر بتلك الآثار من حولنا في صور شتى . فالعلوم والفنون والآداب والثقافات جميعا هي حصيلة العمل الانساني . ومظاهر الحضارة المادية التي نستخدمها في اشباع حاجتنا هي الأخرى نتائج الجهد الانساني .

وللسلوك الانساني الى جانب آثاره الإيجابية البناءة . آثار أخرى مدمرة للقيم الانسانية ومعوقة لمسيرة الانسان على طريق التقدم

الصانع هي أهم اجزاء النظام حيث تعنى بتوفير المواد (المدخلات) واستقبالها وامدادها للاستخدام . فالذا انخفضت كفاءة تلك الادارات فان كفاءة المصنع كلها تكون عرضة للانهيار . وينفس المنطق فان ادارة الأفراد التي تقوم على اختيار العاملين (أحد عناصر المدخلات) واستقبالهم وتدريبهم يمكن أن تسهم بدرجة عالية في نجاح النظام اذا ادرت كفاءتها ، كما تستطيع أحداث اضرار بالغة به اذا لم ترتفع الى المستوى المناسب من الكفاءة والفعالية .

والانسان يعانى من نفس الحقيقة ، إذ يعتمد السلوك الانساني بدرجة كبيرة على دقة وحسن مراكز الحس والشعور عند الانسان وهى أدوات الإدراك واستقبال المؤثرات (المدخلات) . فالذا افقر الانسان الى حاسة الابصار مثلا فان قدرته على الإدراك تنخفض ومن ثم تتأثر العمليات السلوكية لديه وتنعصر أنماط السلوك الممكنة عنده في نطاق ما يمكنه ادراكه .

كذلك فان اجزاء النظام المعنية باظهار المخرجات والتعبير عنها وتقديمها للمناخ تلعب هي الأخرى دورا هاما في انهاء العمليات وتكليفها بالنجاح . وإذا عدنا الى الانسان فلا شك ان طريقتة في التعبير عن افكاره وأسلوبه في الكلام مثلا لهما أشد الأثر في قبول أو رفض مايقول . وقد يتخذ الناس موقفا معاديا ليس لان الانسان أخطأ في التعبير عنها .

ان مآذركنا من الفوائد التحليلية للمفهوم النظم يتلوه في نتيجة رئيسية ، هى أننا نستطيع تحقيق الأهداف التي يسعى اليها العلم اذا استخدمنا هذا المفهوم كأطار للبحث والتحليل . ان العلم يسمى الى تفسير الظواهر والتنبؤ بسلوكها المحتمل من أجل تحقيق السيطرة عليها وأخضاعها لأنماط سلوك محددة . وتحقيق هذه الأهداف من خلال تحليل النظم إذ ان تحليل العلاقة بين

عدد من العمليات الذهنية المستترة التي يستحيل مشاهدتها أو ملاحظتها ، ومن ثم لا بد للباحث من الاعتماد على بعض الأساليب المتطورة التي تسمح له بدراسة وقياسها .

ولكن خطوة هذه المرحلة من الدراسات السلوكية في أنها توفر الأساس الموضوعي للتنبؤ بالسلوك المحتمل دون انتظار لتحقيقه فعلا . ويسمح التنبؤ بالسلوك بأن يتخذ من الإجراءات والأساليب ما يوفر القدرة على السيطرة عليه والتحكم في مساره اعتمادا على الفهم المسبق لأسبابه ودوافعه الذي يحقق من دراسة عوامل أثره في الرحلة السابقة .

٣ - ويختص المجال الثالث للدراسة السلوكية بالبحث في أشكال وأنماط ووسائل التعبير عن السلوك ، أي عملية تحليل الأنماط السلوكية المشاهدة وتصنيف السلوك واستنتاج العلاقات المنطقية بين الأنماط المختلفة من ناحية ، والعلاقات بين تلك الأنماط ومسبباتها وبالظروف المحيطة بها من ناحية أخرى .

وتفيد هذه الدراسات في متابعة آثار محاولات السيطرة على السلوك وتبين مدى فعالية الإجراءات والأساليب المتبعة في أحداث التغييرات المستهدفة في سلوك الأفراد أو الجماعات المعنية .

ويلاحظ أننا اهتمدنا في تحديد مجالات الدراسة السلوكية على منطبق النظم فالجبال الأول وهو دراسة المثيرات أو المحددات السلوكية يختص بالداخلات في النظام السلوكي behavioral inputs ، أما المجال الثاني الذي يدرس عملية تكوين السلوك فانه يتعامل مع فكرة الانشطة activities في مفهوم النظام . ويختص المجال الثالث بدراسة أنماط السلوك المشاهدة وهي عبارة عن مخرجات النظام السلوكي behavioral outputs .

والخلاصة . فالعروب والغزوات العدوانية ، وتسخير طاقات العقل البشري لنشر الموت والدمار ، وأشكال الاستغلال التي يمارسها بعض البشر بالنسبة لغيرهم ان هي جميعا الاصور والآثار السالبة للعمل الانساني .

واذا كان العلم قد اتجه الى محاولة فهم ظواهر الطبيعة من أجل تحقيق ارادة الله سبحانه وتعالى في تسخيرها لخير البشرية ، فان جانباً رئيسياً من اهتمام العلم يجب ان يتجه في الأساس الى تحليل السلوك البشري والقاء الضوء على مآثاته النفس البشرية .

مجالات الدراسة العلمية للسلوك

تتجه الدراسة العلمية للسلوك الانساني الى مجالات ثلاثة هي :

١ - البحث في محددات السلوك وعوامل نشأته والأسباب التي تجعل الافعال وردود الافعال الانسانية امورا ملحوظة ومشاهدة . والتساؤل الاساسي هنا يدور حول عملية اثاره السلوك arousal . فالعلم يريد استكشاف المثيرات stimuli التي تحرك الانسان لكي يتصرف او يفعل او يستجيب respond .

وتتركز أهمية الدراسة في هذا المجال في انها تسمح للباحث بالفهم الموضوعي والتفسير السليم لمظاهر السلوك التي قد لا يستطيع المشاهد (وفي بعض الاحيان الانسان الذي صدر عنه السلوك ذاته) ان يجد لها تفسيراً منطقياً مقنناً .

٢ - اما المجال الثاني للبحث السلوكي فينتجه فيه الباحث للتعرف على كيفية تكون السلوك وتبلورة قبل ان يتبدى في الصورة الظاهرة . وعملية التكون هذه formation تمثل الجانب الاصعب في الدراسة السلوكية حيث تتم عادة في اللحن الانساني وتتمثل في

السلوك الانساني باعتباره نظاما مفتوحا

يمكن تصور السلوك في هيئة نظام مفتوح تنطبق عليه كل خصائص وصفات تلك النظم . وفي ضوء هذا التصور ينقسم النظام السلوكي الى اجزاء رئيسية ثلاثة هي :

١ - المدخلات السلوكية - وهي المثيرات stimuli الأولية .

٢ - العمليات السلوكية - وهي الانشطة الذهنية التي تتعامل مع المثيرات وتهيء النظام لاتخاذ قراراته السلوكية .

٣ - المخرجات السلوكية - وهي الاستجابات responses التي تصدر عن النظام السلوكي في مواجهة المثيرات .

كذلك يتضمن النظام السلوكي فكرة « ارجاع الاثر » feed back وهي عودة المعلومات مرة اخرى عن رد فعل المناخ بالنسبة للمخرجات السلوكية وتأثير تلك المعلومات في اعادة تشكيل المدخلات والعمليات السلوكية .

ونستطيع تمثل النظام السلوكي بصورة أوضح اذا تأملنا مع الشكل رقم (٢) الذي يعرض نموذجاً للنظام السلوكي باجوائه المختلفة :

المدخلات واستقبال المعلومات :

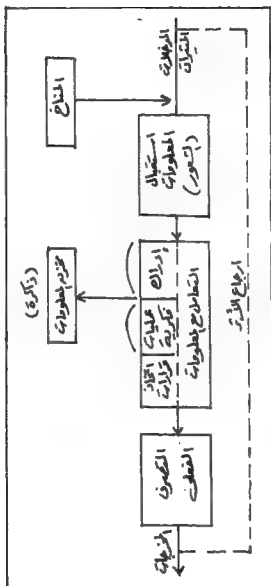
ان الشكل السابق يدلنا على خاصية هامة للنظام السلوكي وهي ان حركة النظام كلها تتوقف على ورود المدخلات واستقبال المعلومات . والنظام السلوكي يعاقل في ذلك كل النظم الاخرى . وحين تتأصل النظام السلوكي نجد ان الحركة السلوكية المتمثلة في عمليات مختلفة والمتبلورة في النهاية على

شكل استجابات محددة ، تبدأ عند استشارتها بتأثير مثيرات تصل الى النظام في شكل معلومات تتخذ رموزاً وانماطاً متعددة . وحين تصل المعلومات تستقبلها أجهزة الاحساس بالنظام السلوكي وهو ما يعبر عنه بعملية الشعور sensation وهي تتولى ارسالها في صور جديدة الى منطقة التعامل معها ضمن مجموعة العمليات الذهنية المختلفة .

وفي ضوء النموذج في الشكل رقم (٢) فان حركة النظام السلوكي تنشأ وتتطور بتأثير المدخلات او المثيرات ، وهي عبارة عن اشكال من المعلومات تتدفق على النظام السلوكي من المناخ المحيط به ، كما يحسها من تكوينه الداخلي ذاته . ونقصد بتعبير المعلومات information كل المؤشرات والرموز والدلالات والإيحاءات التي تعكس النظام السلوكي الأوضاع والظروف والاجواء المحيطة به ، وما يعتريها من تغيير وتطور . ان النظام السلوكي اذ يوجد في مناخ يضم نظاماً سلوكياً او مادة اخرى ، فانه يتفاعل مع تلك النظم ، ويتم التفاعل جزئياً من خلال استقبال النظام السلوكي للمعلومات من تلك النظم الاخرى من ناحية ، كما يتحقق عن طريق ارسال النظام السلوكي لاشارات منه تمثل معلومات تستقبلها النظم الاخرى بدورها .

ويستقبل النظام السلوكي اذن انماطاً مختلفة من المعلومات يمكن تصنيف مصادرها في الآتي :

١ - معلومات صادرة عن نظم سلوكية اخرى ، وهي تمثل افعال ومصروفات وانماط سلوك البشر الاخرين الذين يتعامل معهم الانسان سواء بشكل مباشر او غير مباشر .



شكل رقم (٥) - المكونة الأساسية للنظام المتكامل (٦)

(٦) استمدنا في هذا الشكل على :

Kolasa, B., Introduction to Behavioral Science for Business

N. Y. Wiley & Sons, 1969, p. 153

وسائل استقبال المعلومات

ان المعلومات أو الثمرات لا قيمة لها اذا لم يستقبلها النظام السلوكي . ومن ثم فان ادوات استقبال تلك المعلومات تمثل ركننا اساسيا من النظام كما اسلفنا . وفي النظام السلوكي تتركز عملية استقبال المعلومات في مدد من الاعضاء أو الاجهزة هي أعضاء الاستقبال الحسي sense receptors

وتختص هذه الاعضاء باستقبال المعلومات من التغييرات في المناخ المحيط بالإنسان وإعادة إرسالها في صور متطورة الى اجهزة التحليل والتعامل مع تلك المعلومات . وهذه الاعضاء هي :

البصر vision

ان جانباً كبيراً من المعلومات التي يستقبلها النظام السلوكي يتم من خلال حاسة الابصار . فالعين مجهزة من جهاز غاية في الدقة والتمتعيد . « ان الابصار عملية تأخذ اشكالا متعددة غير الشكل التقليدي الذي نعتقد به » (٧) . وفي الظروف العادية يستطيع عين الإنسان رؤية شملة هود ثقاب على بعد ٥٠ ميلا ، كما يمكنها رؤية سلك قطره ١/٢ من البوصة على بعد نصف ميل (٨) . والمثير الذي تتم رؤيته في النهاية في صورة ضوء هو في الحقيقة انعكاس لطاقة كهرومغناطيسية . ولا تستطيع عين الإنسان استقبال كل تلك الانعكاسات الصادرة اليها ، بل هي تستقبل فقط جزءا من تلك الطاقة التي تنتقل في شكل موجات متباعدة الأطوال . « وبين الضوء المابر الى العين باكثر من وسط قبل ان يصل الى خلايا الابصار في الجزء الخلفي للشبكية . فالضوء

٢ - معلومات صادرة من نظم مادية تعيش في المناخ ، ومنها أصوات السيارات ودقات الساعة ، وسرعة القطارات ، وأحجام المباني وأرتفاعاتها ، وحركة الآلات ووقعها ، الى غير ذلك من الاشارات والرموز الصادرة من آلات التومعات من النظم المادية التي يعايشها الانسان في كل لحظة من حياته ويستخدمها أو يستفيد منها بدرجة أو أخرى

٣ - معلومات صادرة من نظم معنوية تحتوي بداخلها مجموعات متباعدة من النظم السلوكية والمادية . ومثالنا على تلك النظم المعنوية المنظمات والمؤسسات المختلفة في المجتمع وما يصدر عنها من تصرفات وبيانات واجراءات ومحاولات تأثير مختلفة تستهدف الانسان بشكل أو آخر .

٤ - معلومات صادرة عن نظم طبيعية natural كالشمس والقمر والرياح والبحار والأنهار والمحيطات وغيرها من عناصر الطبيعة وما يصدر عنهما من أصوات وحركات ومؤشرات مختلفة .

٥ - والمصدر الاخر للمعلومات التي يستقبلها النظام السلوكي هو النظام ذاته واجزائه المختلفة . ان حركة اجزاء النظام وتفاعلاتها مع استهلاك الموارد والطاقت المتاحة للنظام ، ومن ثم تصدر عن تلك الحركة مؤشرات (معلومات) توجه النظام لضرورة تدبير طاقات جديدة . كذلك فان الحركة بين اجزاء النظام اذ تنتهي الى ناتج معين فانه يصاحب ذلك الناتج مؤشرات تنبه النظام الى ضرورة العمل من أجل التعبير عنه أو التصرف فيه .

(٧) عمر محمد جبرين ، الابصار - بعض آليات الحسية والتفسي - مجلة عالم الفكر المجلد الخامس - العدد الثالث - أكتوبر ، نوفمبر ، ديسمبر ، ١٩٧٤ ص ٢٠٦

الإبصارية acuity وهي قدرة الإنسان على تمييز الفروق الدقيقة بين المثيرات وتقاس بمقياس عبارة عن خريطة تحتوي حروفاً من أحجام مختلفة تمثل بعضها ما يستطيع الإنسان العادي رؤيته على بعد معين ، وتنسب القدرة الإبصارية للأشخاص المختلفين إلى هذه القدرة المتوسطة . (مثلاً المقياس ٢٠/٢٠ يعني أن الشخص موضح الاختبار يستطيع رؤية ما يراه الإنسان العادي على مسافة ٢٠ قدماً من نفس البعد ، أما المقياس ٢٠٠/٢٠ فيعني أن هذا الشخص يرى من بعد ٢٠ قدماً ما يراه الإنسان العادي على بعد ٢٠٠ قدماً) .

السمع Audition

يمثل السمع وسيلة ثانية يستقبل بها النظام السلوكي المثيرات الخارجية . ولا يقل أهمية السمع من عملية الإبصار ، بل أنه يزيد في الأهمية في كثير من المواقف التي لا تتوفر فيها الظروف المناسبة للإبصار السليم . وتتم عملية السمع بسبب التغيرات المادية في ضغط الهواء الناتجة عن اهتزاز الأجسام فينتقل الصوت في شكل موجات تستثير الأذن وتجعل النظام السلوكي قابلاً لاستقباله .

وتتميز المثيرات الصوتية بثلاثة خصائص هي التذبذب frequency ، والشدة intensity ، والتعقيد complexity . وتتميز خاصية التذبذب للتباين في الموجات الصوتية وتقاس بمقياس سيكل/ثانية cycle/second ، أما الشدة أو القوة فهي درجة ضغط الصوت . وكذلك تتصف الأصوات المسموعة بدرجات من التعقيد ، إذ أنه ينظر في الحياة الحقيقية أن نسمع صوتاً من

يعبر القرنية فالتجويف الأمامي للعين فبالعدسة لم يصل إلى التجويف الخلفي (الكبير) في العين (٩) وعند وصول الضوء إلى خلايا الإبصار تقوم في هذه الخلايا الضوئية عمليات كيميائية تنتهي بإرسال نتائجها بشكل إشارات كهربائية في اتجاه معاكس لاتجاه الضوء . (١٠) وترجم عملية الإبصار في النهاية داخل الجهاز الحسي إلى شحنات كهربائية رمزية يفهمها الدماغ الذي لا يفهم سوى لغة الكهرباء .

ومن العوامل الهامة التي تجدر دراستها عند تأمل موضوع الإبصار ما يلي : قدرة عدسة العين على تغيير شكلها لتتناسب مع نوع المثير الضوئي . وينتج من هذه القدرة دقة استقبال العين للمثيرات ، كما نتوقع أن يؤدي عدم انضباط عدسة العين إلى تشويه الصورة المرئية . من ناحية أخرى تعتبر درجة حساسية العين على مستوى بالغ من الأهمية إذ تعدد الحد الأدنى من الضوء الذي يمكن رؤيته ، والقدرة على تمييز الفروق الدقيقة بين ضوئين ، وكذلك تعدد فترة العين على التكيف مع حالات نقص الضوء (الظلام) . كذلك فإن حساسية العين بالنسبة للألوان تلعب دوراً هاماً في عملية الإبصار . أن الألوان جميعها تبدو رمادية في حالات الضوء شديد الانخفاض ، كذلك فإن الألوان تزداد وضوحاً أو غممة بحسب درجة الضوء . ونظراً لأهمية الألوان فقد استقر العرف على استخدام بعضها لنقل معان معينة إلى النظام السلوكي . فاللون الأحمر مثلاً ينقل رمز الإحياء بالخطر ، بينما يعني اللون الأخضر الأمان .

وتتلخص قدرة الإبصار بشكل عام عند الإنسان (وهي محصلة تركيب العين وكفاءة الأجهزة المختلفة بها) فيما يسمى القدرة

نفمة واحدة فهذا لا يحدث الا في معمل التجارب ، بل عادة نحن نسمع أصواتا معقدة مركبة من نغمات مختلفة .

ويجب أن نلاحظ أن الصفات السابقة للأصوات هي الخصائص المادية للمثير الصوتي، ولكن ما يسمعه الإنسان أو ما يستقبله النظام السلوكي فعلا هو أمر مختلف . أن النظام السلوكي يستقبل الانكاسات النفسية لتلك الخصائص المادية . فالذبذبة مثلا يقابلها من الناحية النفسية ما يسمى pitch أو الارتفاع ، كما يعادل القوة أو الشدة خاصية نفسية هي الضخامة loudness .

وتقوم الأذن بوظيفة تحويل الضغط المادي للموجات الصوتية إلى تجربة نفسية يستقبلها النظام السلوكي ويتعامل معها . وتتم هذه العملية من خلال مرور الموجات الصوتية قناة الأذن لكي ترتطم ببطلة الأذن Bardrum وبالتالي تسبب اهتزازها . وتنتقل تلك الاهتزازات إلى عظام الأذن الوسطى وتر بواسطة إلى الأذن الداخلية ومن ثم تنتقل في صورة نبضات عصبية إلى الدماغ .

ومن الواضح أن السمع وظائف حسية وأخرى نفسية . أن الإنسان يجب أن يسمع ما يدور حوله ، كما يجب أن يسمع نفسه . لذلك فإن حالات ضعف السمع التي قد تصل إلى الصمم تسبب ازعاجا نفسيا بالإضافة إلى التشويه المادي لقدرة النظام السلوكي على استقبال المثيرات وبالتالي تخفيض قدرته على الاستجابة لها .

الشم والتذوق

وهاتان الوصلتان في استقبال المثيرات تنتميان إلى مجموعة الحس الكيماوي .

وتعتبر عملية الشم من أكثر عمليات الاحساس دقة ومعقدا . وتتم عملية الشم حينما تثير التكوينات الكيماوية في الهواء أعضاء الحس الشمي في الأنف لدى الإنسان . ويلاحظ أن الإنسان حين يحتاج إلى التدقيق في الشم فإنه يبعد إلى استنشاق كمية أكبر من الهواء . وتفاوت حسية الشم لدى النظم السلوكية المختلفة ومن ثم تختلف قدرتها على استقبال مثيرات شمعية معينة مما يؤثر في درجة استجابتها لتلك المثيرات .

أما عملية التذوق فهي تتعلق باستقبال المعلومات من جانب من خصائص المناخ أو عناصره . ويعتمد تقسيم عملية التذوق إلى أربعة أجزاء هي تذوق العناصر الطوية (السكرية) والعناصر المالحة ، والعناصر المرة وأخيرا العناصر هدية الطعم . فكل من تلك العناصر أعضاء استقبال حسي خاصة بها في مناطق معينة في اللسان والحلق .

وبرغم أهمية الشم والتذوق إلا أنه من غير المعروف على سبيل التأكيد كيف تتم هاتان العمليتان . وكل ما هو معروف هو أن المثيرات تتحول بعملية ما إلى رموز بواسطة أعضاء الحس الشمي والتذوقي لكي ترسل إلى مناطق تحليل المعلومات والتعامل معها ضمن العمليات الذهنية المختلفة ومنها تخرج في صورة نبضات للمخاع يتم في عضولها التصرف أو الاستجابة . (١٢)

التشم

تحتوي طبقة الجلد التي تغطي الجسم الانساني على أدوات لاستقبال معلومات من نوع آخر من المثيرات . تلك هي الحرارة ، والبرودة ، والضغط والالم . ويختص بعض أدوات الاستقبال الحسي في الجلد بكل نوع من تلك المثيرات .

نخلص مما سبق الى اهمية وخطورة عمليات استقبال المثيرات الخارجية بواسطة اعضاء الاستقبال الحسى فى النظام السلوكى . وتتضح لنا حقيقة هامة هى ان الاستجابات التى تصدر من هذا النظام (المخرجات) تكون عادة نتيجة لتكامل عدد كبير من تلك المعلومات من المثيرات . وكلما كانت تلك المعلومات متناسقة ومتجانسة كانت الاستجابة أوضح وفى الاتجاه السليم . اما اذا تناقضت المعلومات المستقبلية بواسطة اعضاء استقبال مختلفة ، ففى تلك الحالة يعانى النظام السلوكى من اشكال الوهم المختلفة Illusion كما هو الحال حين ترى العين عصا مستقيمة فى الاصل على أنها مقوسة نتيجة لمر جزء منها فى الماء .

التعامل مع المعلومات

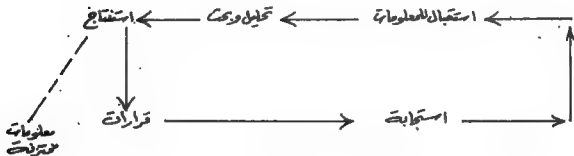
حين يستقبل النظام السلوكى المعلومات من المثيرات المختلفة ، يتم نقلها الى منطقة متخصصة لمعالجتها بالتحليل والبحث حتى يستخرج النظام منها الدلالات والمعاني التى يعتمد عليها فى اختيار انواع الاستجابات التى تصدر منه . وبالتالي فان تدفق المعلومات داخل النظام السلوكى يتم وفقا للتتابع الآتى :

وتقل المعلومات المتعلقة بتلك المثيرات فى اهميتها كمدخلات فى نظم السلوك الانسانى ، الا انها لاتزال تمثل أحد المصادر التى يتشكل السلوك جزئيا تبعا لها .

الإحساس بمرکز الانسان وتوازنه :

وثمة نوع آخر من المعلومات يلعب دورا هاما فى النظم السلوكية ، وهو معلومات الانسان من مركزه بالنسبة للأشياء الأخرى فى المناخ المحيط . وهذه المعلومات هى التى توفر للانسان الإحساس بالتوازن وبالتقدم التوازن . وتتمركز أجهزة استقبال هذه المعلومات فى الأذن الداخلية وهى لاتتصل بعملية السمع ، ولكنها تفتص بالإحساس بالتوازن Balance . ومن المعروف أن اختلال هذه الأدوات يؤدي الى فقدان الشخص لتوازنه وهى حالة مرضية شائعة ، كما ان استشارة تلك الأدوات بشكل زائد يؤدي الى الإحساس بالدوار كما فى حالة دوار البحر .

كذلك يستقبل النظام السلوكى معلومات من مدى تناسق حركات وإبعاد اعضاء الجسم الانسانى المختلفة .



والادراك عملية شخصية يصعب اخضاعها للمقاييس الموضوعية حيث تتداخل في التأثير عليها عمليات نفسية أخرى كالدافعية والتعلم، كما تتأثر بالظروف الموضوعية التي تحيط بالنظام السلوكي وبما تراكم فيه من معلومات وخبرات سابقة .

كذلك فالادراك عملية مستمرة ومتراكمة تخفى وراءها تاريخ النظام السلوكي كله الذي يتبلور في صورة « تنظيم فكري » يسهم في تحديد المعاني التي يستخرجها النظام من المعلومات الواردة إليه .

ومما يزيد في أهمية الادراك ارتباطه بكل مظاهر النشاط الذهني للإنسان ومن ثم تأثيره المباشر وغير المباشر على استجابات الإنسان وأنماط سلوكه في المواقف المختلفة .

التفكير

ان عملية التفكير أو التعلل والتدبر هي التي تتناول المبركات بالتأمل والتعمق في ضوء الخبرات والتجارب السابقة وفي إطار التوقعات expectations والأهداف goals . والرفبات needs التي يسعى إليها النظام السلوكي . وتختص عملية التفكير بالدرجة الأولى بمحاولة الكشف عن العلاقات بين المبركات وبين الاحتمالات والنتائج المتوقعة بالنسبة لبدائل السلوك المختلفة المتاحة للنظام السلوكي استجابة للمثيرات التي تم ادراكها .

وتختلف أسس التفكير وإن كان التقسيم المنطقي لها يراها تتخذ أحد نمطين ، أما أسس رشيده ومنطقية rational أو أسس خيالية .

التعلم

يستقبل النظام السلوكي عديد من المعلومات التي تعكس الخبرات والتجارب التي يمر بها أو تلك التي مرت بنظم سلوكية أخرى . وتم عملية ادراك تلك المعلومات وينتهى النظام

وعلى ذلك فان مجرد استقبال النظام للمعلومات لا يكفي لإنتاج استجابات معينة ، بل لا بد وان تخضع تلك المعلومات للتحليل من جانب اجزاء متخصصة تستطيع التوصل الى المعاني الحقيقية التي تعكسها هذه المعلومات .

ويختص الجزء الأوسط من النظام السلوكي (الدماغ الإنساني) بتلك العمليات الذهنية المختلفة . ونظرا لأهمية هذا الموضوع فسوف نعرض تصورا سريعا لتلك العمليات الآن ، على أن نعود إليها بتفصيل أكثر في الجزء الثالث من الكتاب حين نعرض للتحليل للأنشطة أو العمليات السلوكية .

وتتركز العمليات السلوكية المختصة بمعالجة المعلومات وتحليلها في الآتي :

- ١ - عملية الادراك Perception
- ٢ - عملية التفكير Thinking
- ٣ - عملية التعلم Learning
- ٤ - عملية تكوين الاتجاهات Attitude formation
- ٥ - عطية الدافعية Motivation
- ٦ - عملية اتخاذ القرارات Decision making

الادراك

هو عملية تفسير المعلومات الواردة للنظام السلوكي وتكوين المفاهيم والتصورات من العالم المحيط . وتطوى عملية الادراك على عمليات فرعية يتعد بعضها ليشمل عملية استقبال المثيرات التي تحدثنا عنها ، ثم تختص عمليات فرعية أخرى بتنظيم تلك المثيرات وتفسيرها أي إعطاؤها ممان ومدلولات خاصة، ثم تصل عملية الادراك الى ذروتها بتكوين مفاهيم شاملة وعامة عن البيئة المحيطة بالنظام السلوكي والتغيرات التي تطرأ عليها ، وهذا ما نطلق عليه « المبركات » .

الدافعية

لا بد لنا من أن نذكر أن الدافعية هي التي تحرك الإنسان في النظام السلوكي. إن الإنسان لا يتصرف إلا بدوافع. حركة في النظام السلوكي هي أن يتصرف الإنسان. النظام الرغبة في الاستجابة. بمعنى أن السلوك ينتج دائما إلى تحقيق رغباته وإشباعه للنظام السلوكي. وتنبطع فهم عملية الدافعية. أما اعتبرنا أن الهدف النهائي والمجتمعي للنظام هو المحافظة على حالة من التوازن النسبي في علاقته بالناحية من ناحية وفي تركيبه الداخلي من ناحية أخرى. وحيث يتعرض النظام لثلاث خارجية (بالإضافة إلى تصرفه الذاتي للتأثير) فإنه يعاني من خلل في توازنه. وبذلك يتولد في حالات الاختلال هذه فرصا لتحقيق التوازن مرة أخرى. عند مستويات أعلى من الإشباع. فخرجت من تحت أهدافه. كما تتولد في حالات أخرى مضطرب نظم ضرورية لتتولد عن تلك الأهداف. الأشباع العالي والنفعية. فخرجت من الأهداف التي سبق تحقيقها. وذلك لاستعادة النظام السلوكي لتوازنه المفقود.

وبذلك فإن الدافعية هي العملية الدهنية المستمرة التي يحدث بها النظام السلوكي رغباته وحاجاته ويستخدمها في توجيه باقي العمليات الدهنية وأشكالها واختيارات مناسبة لأنماط السلوك الممكنة.

والدافعية بذلك عملية مساهمة في توجيه السلوك وتحديد درجة قوته واستمراره. وهي عملية متجددة إذ أن حالات اختلال التوازن متكررة ومتجددة، ومن ثم تنشأ دائما فرص للنظام لاكتساب رغبات ومستويات إشباع أعلى. كما تهدد باستمرار فرص أخرى للحرمان من بعض الأشباع الذي تحقق.

وتعتمد عملية الدافعية على مصدرين رئيسيين للمعلومات، المصدر الأول هو الخبرات الشخصية التي يمكن للنظام السلوكي للفرد من خلالها في المنافع لأشباعه الأولي.

السلوكي إلى فهم معين لها، ومن ثم قد يقرر أحداث تفسير في أنماط استجاباته نتيجة للمفاهيم التي استوعبها من تلك التجارب. وبذلك يحدث التعلم. فالتعلم إذن هو العملية الدهنية المستمرة التي يستوعب بها النظام السلوكي تجاربه وتجارب الآخرين ويترجمها في شكل أنماط سلوكية جديدة.

وتترابط عملية التعلم مع عملية الأفعال وعملية التفكير. إذ أن قرار تغيير السلوك لا بد وأن يعتمد على فهم سليم للتجربة أو الخبرة، كذلك لا بد وأن يسبقه تدبر في الآثار التباسية من استمرار النظام السلوكي على نفس الأنماط سلوكه أو النوايا التي يمثل تحقيقها حال تغييره لتلك الأنماط السلوكية.

تكوين الإنجازات

حين تتجمع لدى النظام السلوكي معلومات من مثيرات خارجية، ونحن تتكامل وتنفذ معاني تلك المعلومات وتتخذ شكل مدركات محددة، وحيث يستهدف النظام تحقيق أهداف ورغبات معينة، فإنه يميل إلى اتخاذ مواقف تجاه تلك المدركات، فالمدركات التي يرى النظام السلوكي أنها معاونة له في تحقيق أهدافه أو تلك التي تتقبل أنماط استجاباته يتخذ حيالها موقفا إيجابيا يتسم بالثبات والقبول. أما تلك المدركات التي لا تسهم في تحقيق النظام السلوكي لأهدافه ليقم اتخاذ مواقف معادية أو معارضة لها. وبصفة عامة تمثل عملية تكوين الإنجازات إحدى العمليات الدهنية الوسيطة (شأنها شأن التعلم) التي تتوسط المرحلة بين إدراك المعلومات من ناحية واتخاذ قرار بشأنها من ناحية أخرى.

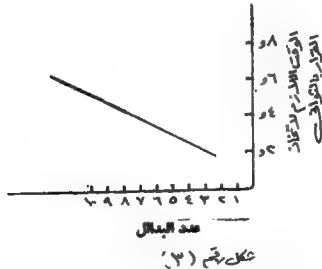
وتتفاوت عملية تكوين الإنجازات في النظم السلوكية من مجرد اتخاذ مواقف منفردة حيال موضوعات بذاتها إلى تكوين معتقدات ومقالات متكاملة ومرتبطة بشأن قضايا وأهم مسائل ومتداخلة.

وتتفاوت عملية اتخاذ القرارات في صوبتها تبعاً لتمدد البدائل المطروحة للاختيار وبموجب تداخل العوامل والمتغيرات المتفاعلة في الموقف. وينتج عن ذلك مستجدات كثيرة يصل فيها النظام السلوكي إلى قرار، ومن ثم تبدو الاستجابة في وقت قصير نسبياً قد يبدو أحياناً وكأنه رد فعل تلقائي أو آلي للمثير الخارجي. تلك هي القرارات الروتينية التي اعتمدها النظام السلوكي واختبر نتائجها وجدها في صالحه ومن ثم يعيل إلى تكرارها كلما تهيأت الظروف (نلاحظ هنا أثر عملية التعلم) . وهناك حالات أخرى يطول فيها الوقت الذي يستغرقه النظام السلوكي في الوصول إلى قرار حيث تكون المشكلة موضع البحث جديدة في نوعها لم يألها النظام بعد، أو حيث ترتفع درجة تعقيدتها. والشكل التالي يصور العلاقة بين درجة تعقد المشكلة المتمثلة في عدد البدائل المطروحة للاختيار من ناحية وبين الوقت اللازم للنظام السلوكي كي يصل إلى قرار. (١٢)

وبالتالي تكون دوافع إيجابية توجه السلوك ناحية الحصول على تلك الفرص، أو تعكس احتمالات الحرمان والمخاطر، ومن ثم تكون دوافع سلبية تستهدف تجنب تلك المخاطر. أما المصدر الثاني للمعلومات فهو المؤشرات والإبعاثات الصادرة عن النظام ذاته والتي تعكس حالات نقص الأشباع (أو زيادته) وبالتالي تسهم في عملية تكوين الدوافع.

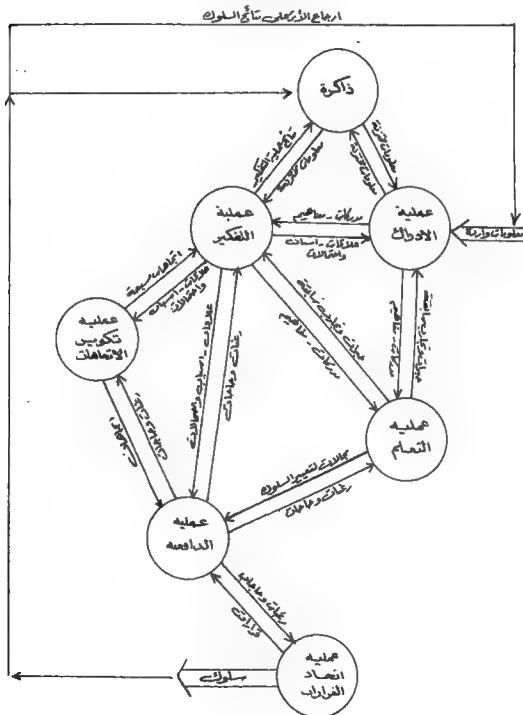
اتخاذ القرارات

تتلو المعلومات الواردة للنظام السلوكي من المؤشرات الخارجية بعد تحليلها وفراستها في شكل مجموعة من البدائل أو الاختيارات. وهنا تبدأ العملية الذهنية الأخيرة والهامة وهي أن يختار النظام أحد تلك البدائل لكي يترجم في شكل سلوك أو استجابة. وتتم عملية اتخاذ القرارات عادةً بعدة مراحل في ذاتها ويستخدم النظام السلوكي عدداً من القواعد والمعايير التي يستند إليها في اتخاذ قراره.



Fitts, p., The Influence of response coding on performance in motor tasks. In (١٢) current trends in information theory pittsburg : University of Pittsburg Press, 1963.

تلك هي العمليات الذهنية الأساسية التي تتعامل مع المعلومات التي استقبلتها أدوات الاستقبال الحسي في النظام السلوكي . ويمكن تصور تتابع تلك العمليات وعلاقاتها المتداخلة حتى تنتهي إلى سلوك مشاهد كما في الشكل التالي رقم (٤) .



المخرجات

ان المحصلة النهائية لسلسلة العمليات السلوكية هي انماط السلوك المشاهدة او الباطنة . وتقصّد بانماط السلوك هذه ايا من الأمور الآتية :

١ - الافعال Actions

وهي كل ما يصدر من النظام السلوكي من تصرفات كالعمل ، والكلام ، والكتابة ، والقراءة ، واللعب ، والبيع ، والشراء الى آخر ما يمكن تصويره من أنشطة . وتتطلب الافعال عادة أن يبذل النظام السلوكي قدراً من الجهد أو الطاقة وتتبدى في شكل حركات متباعدة يستغرق اداؤها وقتاً يختلف بحسب اتجاهات تلك الحركات ومدى بساطتها أو تعقدها .

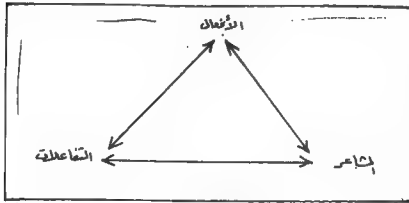
٢ - التفاعل Interaction

ويرمز التفاعل الى الاتصالات التي تتم بين الانسان وغيره من الافراد . وقد نعر من التفاعل بأنه نوع من الفعل action اذا كان

النظام السلوكي موضع الدراسة هو البادئ بالاتصال كما هو الحال حين يوجه الأستاذ المحاضر سؤالاً الى أحد طلبته . وقد يكون التفاعل هو نوع من رد الفعل reaction وذلك حين يجيب الطالب عن سؤال أستاذه . ومن ثم فأننا نستطيع أن نصف عمليات التفاعل بأنها سلسلة متتابعة من الافعال وردود الافعال بين النظم السلوكية المختلفة .

٣ - المشاعر sentiments

والمشاعر هي انماط العاطفة التي تنمو في النظام السلوكي أثناء ممارسته للافعال واشتراكه في التفاعلات مع الآخرين . ومثل هذه المشاعر امور الحب والكراهية والثقة والايمان وغيرها . وتسهم المشاعر في تأكيد أو اخفاف آثار الافعال والتفاعلات التي تصدر عن النظام السلوكي . كذلك فان للافعال والتفاعلات تأثيرها هي الأخرى على المشاعر . وبذلك فتلك الأشكال الثلاثة للمخرجات السلوكية تتشابك عادة وتتداخل كما يتضح من الشكل التالي رقم (٥)



شكل رقم (٥)

العلاقة بين المخرجات السلوكية

في إثارة عمليات سلوكية جديدة قد تسفر عن تأكيد المخرجات أو تغييرها .

وخلاصة ما توصلنا اليه من تحليلنا للسلوك الانساني انه يتخذ نموذج النظام المفتوح المتعامل مع المناخ والمتفاعل معه ، وانه يتصف بكل الخصائص التي تميز النظم المفتوحة ، كما تنطبق عليه جميع الاستنتاجات المستمدة من فكرة النظام .

والآن وبعدمناقشتنا لاجزاءالنظام السلوكي الثلاثة باختصارلابد من استكمال تحليلالدورة السلوكيةبان تأخلف الاعتبار ان النظامالسلوكي يعمل على تحسب نتائج السلوك وردودافعالها لدى النظم السلوكية الاخرى في المناخ المحيط وذلك عن طريق ما يسمى بعملية « ارجاعالانر » feed back . وتتم هذه العملية في صورة معلومات جديدة تصل الى النظام السلوكي بالطرق السابق شرحها . وتسهم هذهالمعلومات



مراجع البحث

1. Johnson, R., Kast, F. and Rosenzweig, J.,
The Theory and Management of Systems
N. Y. McGraw-Hill, 1967.
2. Kolasa, B., Introduction to Behavioral Science for Business N. Y., Wiley and sons 1969
3. March, J. & Simon, GH., Organizations N. Y. Wiley & Sons, 1958.
4. Seiler, J. Systems Analysis in Organizational Behavior Romaswood, IIL Iwin and the
Dersey Press, 1967.

٥ - د.علي السليم ، الإدارة العلمية ، دار المعارف بمصر ، ١٩٧٠ .

٦ - د.علي السليم ، السلوك الإنساني في الإدارة ، دار المعارف بمصر ، ١٩٧٣ .



منع الحمل

سكاي هولاند

منع الحمل الى فصل النتائج من المقدمات ،
أى الى اشباع الفرائز الطبيعية بدون خوف
من اتجاب اطفال غير المرغوب فيهم . (أى لا
يتعارض مع استمرار الجنس البشرى ويقال له) .

ومع ذلك فان منع الحمل ينتقد احيانا للأسباب

الآتية : —

١ — يشجع على البقاء — ومنع الحمل
بالتأكيد يجعل هذه المخاطرة ، ولكن اذا كان
الهدف الوحيد منه هو التشجيع على الانحراف
وتسهيل الفجور ففي هذه الحالة يجب على
المجتمع أدائته فوراً والمدول منه .

تعريف منع الحمل (Contraception) — هو
ان يمنع الحمل بوسائل اخرى غير الامتناع عن
الجماع ويشجع تحديد النسل (Birth Control)
او التخطيط الاسرى (Family Planning) .
ويمارس منع الحمل فى الوقت الحالى حوالى
٨٠٪ من الأزواج فى بريطانيا وأوروبا الغربية
والولايات المتحدة وهي نسبة فى ازدياد . وقد
اكتسب منع الحمل بالنسبة للزيادة المضطربة
فى عدد سكان العالم أهمية اجتماعية مظمى
فى الوقت الحالى وضرورة صحية ملحة .

والفريزة الجنسية هى الوسيلة المؤكدة
لاستمرار الجنس البشرى ويقال له . ويهدف

(١) - اسباب تتعلق بالمجتمع -

المستوى الاقتصادي المجتمع مهن ، ولتحديد عدد السكان يعتبر الآن عملاً شافطاً في جميع أنحاء العالم في الأمريكتين كما في أوروبا وآسيا في الدول المتقدمة والتنمية في حد سواء ، وذلك لأن التقدم في الطب والعلاج قد سيطر على المرض وما يسببه من وفيات . وفي الماضي عندما كانت نسبة الوفيات تبلغ ٤٠ / الألف في السنة كانت نسبة المواليد البالغة ٤٠ / ألف في السنة تعتبر معقولة ، ولكن الآن وقد هبط معدل الوفيات السنوي إلى ٢٠ / الألف وأقل فإن نسبة التوالد الذي لم تعد فلانها سوف تؤثر تأثيراً سيئاً على مستوى المعيشة ، وقد تضاف عدد سكان العالم في الخمسين سنة الأخيرة حيث كان تعدادها ٢٥٠٠ مليون عام ١٩٥٠ زاد إلى ٣٥٠٠ مليون عام ١٩٦٥ وينظر أن يصل إلى ٦٠٠٠ مليون عام ٢٠٠٠ م .

والعوامل التي تؤثر على معدل التوالد
بحجم الملات والزيادة السكانية تشمل
المناسبات ، الغذاء ، الخصوبة ، سن الزواج ،
المعدات والرغبة في انجاب الأطفال ، قوانين
الزواج ، العقيدة الدينية ، السياسة ، التعليم
ومعدل وفيات الوليد ، كل هذه العوامل لها
تأثيرها الكبير في النمو السكاني لمجتمع ما ،
وتختلف من مجتمع لآخر ، وهذا يؤكد الحاجة
الملحة الآن للتفكير على انتشار وسائل منع
الحمل من صنع التخصيب الكافي لمواكبتها
وتسريعها بالنظام .

٢. تحسين الليبل - وهذا يفرض سابق الإجابة - ولكن لاحظ أن الذين يهاوسون منع الرجل من الفئات العليا في المجتمع والاكثر ذكاء وتحضرًا ، في حين أن الطبقات الدنيا من المجتمع تتوالد وتكثر دون جناب ، وهذه مشكلة خطيرة على التوازن في المجتمع والتي

٢ - وسيلة غير طبيعية - وهذا يجب يمكن أن ينسب لاي وسيلة حضارية أخرى مثل ارتداء الملابس والنظافة والصحة والدواء .

في الظروف الطبيعية توازن نسبة الحمل العالية بنسبة عالية معاملة في مصطلح وفيات الاطفال والامهات مع عوامل مساعدة من قصر مصطلح الاعضاء الناتج عن المرض والعنف.

ولكن عندما تؤثر عوامل أخرى على هذه الظروف الطبيعية فإن أسباب المرض والوفاة بممارسة الطب والعلاج ، فإن نسبة المواليد - التي لا تحدها عوامل ولا مؤثرات - سوف تحطم هذا التوازن وتهدد هذا المجتمع بالازدحام والانتفاضة السكانية الزائدة من العدد المفعول الذي يسبب بهبوط في المستوى المعيشي للأفراد والجماعة في بعض الأحيان .
وبدليل الوحيد لمنع العمل والتحكم فيه هو **تخطيط النسل** بين الأزواج ، وهذه ضد الطبيعة وأكثر صعوبة من الأولى وتسبب ضغوطاً تهدد الزواج نفسه بالانهيار وسلامة الأسرة .

وقد عجزت عن العمل به. واولا من اخرى
كل من هو في التدين. ولكن كان يرضى ويشجع
بالتقوى او العادات التابعة اكروفا، ودالفا
كان في العمل به. واولا من اخرى
كالرقية في الحكام من سلطة الجماعة في الاما
غيرها من الجماعات او الامم مختلفة بظاني
وهو الخلق في العمل به. واولا من اخرى
في العمل به. واولا من اخرى
الاول من الجماعات التي هي في العمل به
من العمل به. واولا من اخرى

بممارسته عندما يُشفي أن يكون الجنين متخلف عقليا أو جسديا في حالة وجود طفل أو طفلين لنفس العائلة مصابين بهذه الأمراض .

٢ - توقيت الحمل (Birth Spacing) على

فترات متباعدة

يسبب الحمل السريع المتتابع إصابة المرأة بضعف الدم Anemia ، إجهاد العضلات والأوتار العضلية - الإجهاد العصبي والعيوب الجسدية المختلفة كما لا يعطيها الفرصة الكافية للإشراف على المنزل أو العناية بأطفالها .

٤ - تحديد عدد أفراد العائلة

(Family Limitation)

تزداد الاخطار بالنسبة للأم أو الطفل بعد الحمل الرابع أو الخامس ، ومعظم الزوجات من جميع الجناس يتكفين في الوقت الحاضر بطفل أو طفلين طالما كن على ثقة من سلامة تنشئتهن حتى سن النضج .

٥ - الزواج المبكر -

أن الزواج في الوقت الحالي يمثل سلسلة من الأعباء والمسؤوليات والمشاكل التي تواجه الزوجين الحديثين وخاصة إذا كانا صغيرين في السن ، والحمل والولادة يمثلان عبئا اضافيا جديدا يضاف الى الأعباء السابقة من تجهيز المنزل وإدارته والتكيف في الحياة الجديدة بالنسبة لزوجبة غريبة حديثة السن .

٦ - السنوات المتأخرة للزواج -

يُمنع الحمل بعد سنوات طويلة من الزواج عندما يتكامل عدد العائلة ويستقر الإيوان في حياتهما ، ويجب الاستمرار في منع الحمل بالنسبة للزوجة في سن اليأس حتى يتقطع الحيض تماما لمدة سنتين .

سوف تؤدي الى هبوط في المستوى العام للمجتمع من الناحية الفكرية والعنصرية .

ولتحسين المستوى العام في المجتمع للحصول على الانسان الأرقى والأكثر تفوقا يجب أن يمارس المتخلفون عقليا والتكسالي والعالة وحالات المجتمع منع الحمل للحد من ذريتهم التي سوف توث صفاتهم .

(ب) - أسباب فردية -

١ - سوء صحة الزوج أو الزوجة - لحماية

النسل من حمل جنين ضعيف أو به عيوب خلقية بسبب مرض أحد الزوجين ، هذا بالإضافة الى الإعياء المادية والنفسية التي سوف توضع على كاهل الأسرة بسبب الحمل في هذه الظروف غير المناسبة وهذا السبب أيضا ينسحب على الفترة التي تعقب العمليات الجراحية أو المرض .

٢ - مرض الزوجة المزمن -

● **مرض مزمن عام** - كالسل والتهاب الكلى وارتفاع الضغط وأمراض القلب ولصور الرئتين والاختلال العقلي، واضطرابات الدم - وأي مرض يجعل المرأة غير قادرة على تحمل أعباء الحمل والولادة أو تربية طفل آخر ، وتأجيل الحمل في هذه الظروف يهيئ الظروف المناسبة للشفاء إذا كان ذلك ممكنا .

● **بعض مضاعفات الولادة** - تكرر الحمل التسممي - تكرر العملية القيصرية - عقب العمليات الخاصة بالناسور الثاني المهلي أو حالات السقوط التنسوية (Prolapse) .

● **أمراض يمكن أن تنتقل للجنين** - ومن أحسن الأمثلة على ذلك مرض الزهري (Syphilis) وبعض أمراض تكرر الكرات الدموية الحمراء ، كذلك بعض الأمراض الوراثية كالصرع ، والبكم المصحوب بالصمم ومرض هيروفيليا . كما أن منع الحمل يوصى

خطواته وعيونه

بد من أن تكون الظروف مهيأة ومواتية لكي تتمكن البويضة الملقحة من أن تنفرض في جدار الرحم وتستمر في البقاء والنمو .

هذه العملية المعقدة القديمة قدم الحياة على هذه الأرض تتحكم فيها وتسيطر عليها وتوجهها افرازات الغدد الصماء أو الهرمونات سواء أكان ذلك في الذكر أم الأنثى .

وهذا الطريق الطويل الذي يقطعها الحيوان المنوى من لحظة تكوينه في خصية الرجل إلى تلقيحه البويضة في قناة فالوب في امحاق حوض المرأة ليس بالسهل ولا بالهين ولا يكاد ينجح في ذلك الا حيوان منوى واحد من مائة مليون في المرة الواحدة لو تصادف وكانت هناك بويضة صالحة وجاهزة للتلقيح خلال ساعات من الجماع الناجح (وتوضح الرسوم القابلة فيسيولوجية الحمل) .

وسائل منع الحمل ما هي الا عقبات توضع في هذا الطريق الطويل في أى مكان فيه لقطع الطريق على الحيوان المنوى لكي لا يصل الى البويضة بطريقة أو بأخرى فهي اما وسائل تتعلق بالرجل أو وسائل تتعلق بالمرأة أو وسائل تتعلق بعملية الجماع ذاتها .

وسائل منع الحمل قبل عام ١٩٦٥

تثرت وسائل منع الحمل واسمعت مجالاتها لتشمل طرقاً لم تكن متبعة في العالم قبل عام ١٩٦٠ ولم تكن تندرج تحت هذا الباب ، ويوضح الجدول المبين أدناه أهم الطرق التي كانت متبعة في إنجلترا وأمريكا من الثلاثينيات الى أوائل الستينات من هذا القرن ونسبتها في عدد محدد من الأفراد .

١ - بعض وسائل منع الحمل قد تؤثر على عملية الجماع نفسها ، وفي بعض حالات الزواج الذي لم يكن الاختيار فيه موثقاً قد يؤدي إلى البرودة الجنسية للزوجة أو يصبح الزوج عيئناً .

٢ - قد تذهب الفكرة بعقم الاتصال الجنسي بهيجته وإثارته في بعض الأحيان (ولو أن العكس صحيح في حالة وجود عدد كبير من الأطفال في الأسرة حيث يوفر الشعور بالأمان لكلا الزوجين) .

٣ - وعموماً ليس لمنع الحمل أى ضرر بالنسبة لزوجين متفاهمين على ممارسته ويستعملان الوسيلة المناسبة - اما الاندماه بأن منع الحمل بواسطة المواد الكيميائية الوضعية قد تسبب التهابات وقرحة في عنق الرحم وصفر حليم الرحم فهذه كلها ادعاءات على غير أساس علمي .

٤ - تأجيل الحمل لمدة طويلة قد يسبب بعض الأمراض النسائية كالاورام الليفية والاورام الطئية (Endometriosis) بالإضافة الى اضعاف الخصوبة نوعاً ما ، ولكن هذه هي ضريبة التقدم في العمر وليس منع الحمل .

● ● ●

فسيولوجية الحمل

لكي يتم الحمل الناجح لا بد من وجود حيوان منوى سليم وبويضة صحيحة ومسالكة تناسلية اثتوية سالكة وطبيعية لكي يستطيع الحيوان المنوى أن يصل الى مكان البويضة في الثلث الخارجي من قناة فالوب - كذلك لا

عدد الحالات

الطريقة	انجلترا ١٩٦٠ - ١٩٣٠	امريكا ١٩٥٥ - ١٩٣٥
الغلاف الذكري	٤٩	٤٣
العزل	٤٤	١٥
فترة الامان	١٦	٣٤
الكيميائيات	١٦	١٠
الحاجز المهبلي	١١	٣٦
الدوش المهبلي	٣	٢٨
طرق أخرى	٦	٤
	١٤٥ حالة	١٧٠ حالة

لتحمل المرأة بدورها هذا العبء من الرجل وتتحمل وحدها مسئولية منع الحمل في معظم الاحوال ولو ان هذا في الحقيقة لا يمنع من ان الغلاف الذكري ما زال الوسيلة الفعالة والمتبعة في كثير من مناطق العالم وتحت العديد من الظروف التي لا تتوافر فيها العناية الطبية اللازمة للإشراف على أقراص منع الحمل أو تركيب اللولب ..

ومن هذا الجدول نجد أنه قبل عام ١٩٦٠ كان الغلاف الذكري أو الكوندوم يأتي في المرتبة الأولى ويليه مباشرة طريقة العزل (القذف خارج المهبل) أي أن منع الحمل كان يقع على كاهل الرجل في النصف الأول من هذا القرن بعكس النصف الثاني منه حيث دخلت أقراص منع الحمل واللولب الرحمي إلى الحلبة ،

وسائل منع الحمل بعد عام ١٩٦٥ .

وسائل مستديمة	وسائل مؤقتة	الأجهاض
<p>في الذكر التعقيم</p> <p>ربط أو قطع الحبل المنوي</p> <p>في الأنثى</p> <p>١ (ربط أو قطع قناتي فالوب</p> <p>٢ (استئصال الرحم</p> <p>٣ (الأشعاع</p>	<p>١ (أقراص منع الحمل</p> <p>٢ (اللولب الرحمي</p> <p>٣ (الغلاف الذكري</p> <p>٤ (الحاجز المهبلي</p> <p>٥ (الكيميائيات القاتلة للحيوانات المنوية</p> <p>وسائل أقل أهمية</p> <p>٦ (الفسول المهبلي</p> <p>٧ (العزل والتحكم في القذف</p> <p>٨ (الاسفنج المبلل</p> <p>٩ (رفع حرارة كيس الصفن</p> <p>١٠ (مضادات الحيوانات المنوية</p>	<p>١ (الإجهاض الذاتي</p> <p>٢ (الإجهاض المتعمد</p> <p>أ - الطبي</p> <p>ب - غير الشرعي</p>

استعمال اللولب الرحمي حتى يأتي ترتيبه الثاني مباشرة بعد اقراص منع الحمل بعد عام ١٩٧٢ .

وفي هذه الاعوام ١٩٧٥ - ١٩٧٦ يكاد يساوى الاقراص في سعة الانتشار بين النساء . كما ان هذه الاحصائية تدل على ان هناك بعض الاشخاص ما زالوا يستعملون الوسائل التقليدية القديمة لبعض الوقت على الاقل .

ما هي الشروط الواجب توافرها في أى وسيلة من وسائل منع الحمل ؟

١ - ان تكون سليمة المواقب مأمونة الاستعمال .

٢ - ان تكون فعالة .

٣ - ان يتقبلها الناس ويستعملونها بطريقة صحيحة .

هذه الاهداف الثلاثة هي التي يهتم بها الطب عندما يتعامل مع وسيلة من وسائل منع الحمل .

١ - فالغلاف الذكري والحاجز المهبلي والرفاوى الكيميائية (Foam) كلها يتوافر فيها الشرط الأول ، فهي مأمونة وسليمة تماما ولا تسبب أية امراض عامة ولا يحرم استعمالها في أى حالة طبية معينة .

٢ - اما فعالية وسائل منع الحمل فهي تعتمد على عاملين هامين هما : -

- الفعالية النظرية وهي درجة النجاح النظرية للوسيلة .

- الفعالية العملية - (أو الاستعمالية) وهي درجة النجاح الفعلية عند الاستعمال حيث يوضع الغطاء البشرى في الاعتبار .

منذ اوائل الستينات استطاعت ابحاث منع الحمل وتكنولوجيا البحث العلمي ان تسرود العالم بهرمونات منع الحمل واللولب الرحمية وهما ذات فاعلية عالية جدا وبذلك قل استعمال الوسائل التقليدية القديمة ، وثبتت من الاحصائيات التي اجريت عام ١٩٧٢ في مراكز الحمل المختلفة في لوس انجلوس بالولايات المتحدة ان حوالي ٨٧٪ من المتردات على هذه المراكز اخترن ممارسة احدى هاتين الوسليتين ، في حين ان ١١٪ فقط اخترن بين الغلاف الذكري والحاجز المهبلي أو الكيماويات القاتلة للحيوانات المنوية .

وفي احصائية اخرى اهم واشمل تبين كل السيدات اللاتي يمارسن وسائل منع الحمل المختلفة حول عام ١٩٧٠ وجد ان ٣٤٪ يستعملن اقراص منع الحمل ، ١٦٪ سواء من الذكور أو الاناث اجري لهم عمليات تعقيم ، الغلاف الذكري ١٤٪ ، اللولب الرحمي ١٧/٢٪ - الكيماويات ٦٪ ، الحاجز المهبلي ١/٢٪ ووسائل اخرى ١٦٪ .

وفي عام ١٩٧٠ قدر عدد الاشخاص الذين يستعملون وسائل منع الحمل المختلفة في الولايات المتحدة الأمريكية كالآتي : -

اقراص منع الحمل ٧ - ٨ مليون

الغلاف الذكري ٤ - ٥ مليون

الحاجز المهبلي ٢ - ٣ مليون

الكيماويات (الايروسول) ١ - ٢ مليون

اللولب الرحمي ١ - ٢ مليون

ونلاحظ في هذه الاحصائية ان اقراص منع الحمل تأتي في المرتبة الاولى في الاستعمال في الولايات المتحدة ، ويأتي اللولب الرحمي في المركز الاخير في الترتيب وذلك في عام ١٩٧٠ ، اما الامور التي تلته فقد شهدت انتشارا

منع الحمل

تقع تحت سيطرة هرمونات البيض وهرمونات المشيمة أثناء الحمل .

٢ - للبياضى (Ovaries)

تفرز هرمونى الأستروايدول والبروجسترون التى تنظم تغيرات الأعضاء الخارجية كما تفرزها أيضا المشيمة البشرية بالإضافة الى هرمون الجنادوتروفين (Gonadotrophin) الذى يفرز في البول ويكون أساسا لاختبارات الحمل .

٣ - الغدة التنخامية الأمامية

(Anterior pituitary)

تفرز هرمونات تنظم وتسيطر على المبايض وبالتالي الأعضاء الخارجية بطريق غير مباشر وهذه الهرمونات هى (١) المنبه البويضى (F.S.H.) وهو ينبه افراز البويضة مسن المبيض .

(ب) المنفج البويضى (L.H.) وهو بالطبع بالتعاون مع الأول ينفج البويضة ويؤهلها للخروج من المبيض بواسطة عملية التبويض (Ovulation)

٤ - افرازات الغدة التنخامية يسيطر عليها وينظمها هرمونات تفرز من جسم مخسر في المخ اسمه الهيبوالاموس (Hypothalamus) وهى تنبه الغدة التنخامية لافراز هرمون (F.S.H.) وهرمون (L.H.) أما الهرمون الثالث ويدعى برولاكتين (Prolactin) فهو يؤدي الى هبوط افراز هرمون الـ (L.T.H.) السابق ذكره .

وهذا العرض المبسط للهرمونات المختلفة التى تؤثر على النشاط الجنسى الطبيعى للمرأة يوضح امكانية تأثيرها بالعقاقير المختلفة بل والسيطرة على هذا النشاط وتوجيهه الوجهة المطلوبة .

ففي حالة ربط بوقا فالوب تتساوى الفالية النظرية مع الفعالية العملية . وكذلك بالنسبة للولب الرحمي فهما متقاربتان . وتوسع الهوة بين الفعالتين عندما تكون الطريقة المستعملة مقعدة أو غير مريحة في الاستعمال أو تعد من حركة مستعملها أو غير مقبولة من الناحية الأخلاقية أو التهذيبية عند بعض الهيئات أو الجماعات .

٣ - تقبل الناس لطريقة معينة من طرق منع الحمل تختلف باختلاف الأشخاص لفغالبية الأزواج تفضل اتباع طرق لا تتصل أو تتداخل في عملية الجماع بطريقة مبشرة ، وقد يجد البعض ان الوسائل المبهلية غير مريحة وتعد من بهيمة وتتمتع الجماع فليجا الى اقراص منع الحمل واللولب الرحمية .



طرق ووسائل منع الحمل

أولا : I هرمونات منع الحمل Hormonal

Contraceptives

أثبت علم وظائف الأعضاء أن الدورة الحيفية في الأنثى وكذلك الحمل باطواره المختلفة تقع تحت السيطرة الكاملة للهرمونات التى تفرزها الغدة الصماء في الجسم ولكي نلم بتأثير هذه الهرمونات علينا أن نقوم بدراستها على أربعة محاور على الأقل والتي يجب ان تعمل جميعها في وقت واحد ويتوافق وبدقة تامتين حتى تنتظم الدورة الشهرية وبذلك تنتج حملا طبيعيا في حالة تلقيح البويضة .

١ - الأعضاء الهللية الخارجية

(Peripheral Target organs)

الرحم وعنق الرحم والمهبل تخضع لبعض التنفير بطريقة دورية أثناء الدورة الشهرية للحيض وكذلك أثناء الحمل ، وهذه التغيرات

أما عمل هذه الهرمونات وأثرها على الأعضاء الهدفية الخارجية فهو باختصار كالآتي :

عقب الحيض مباشرة يبدأ الفشاء المبطن لجدار الرحم الداخلي في التكون من جديد (بسبب قذف الفشاء القديم مع دم الحيض) وهذه العملية تقع تحت سيطرة هرمون الإستروجين (الذي يفرزه المبيض) والذي ينظمه هرمون (F.S.H.) الذي تفرزه الغدة النخامية والذي ينبه البويضة للنضج وازدياد الحجم وافرار هرمون الإستروجين ويبدأ ذلك تبدأ الغدة النخامية في افراز هرمونها الثاني (L.H.) التي تسبب عملية التبويض بالاشتراك مع الاول وتكون الجسم الأصفر (Corpus Luteum) الذي يبدأ بدوره في افراز هرمون البروجسترون (Progesterone) بالإضافة الى الإسترايديل (Oestradiol) وهذان الهرمونان يؤثران على الفشاء المخاطي الرحمي (Endometrium) الذي يبدأ الطور الافرازي (Secretory Phase) في النصف الثاني من الدورة الشهرية ، وفي حالة عدم تلقيح البويضة يبدأ الفشاء المخاطي الرحمي في التحلل والفساد لينتهي بالحيض . أما اذا حدث حمل فلا يحدث تحلل لهذا الفشاء بل تزداد سماكته وحيويته لكي يستقبل البويضة عندما تنفرض فيه .

كذلك فان الافراز المخاطي لعنق الرحم (Cervical Mucus) يتغير أثناء الدورة الحيضية فيصبح اقل لزوجة وأكثر سيولة في وقت التبويض أما بعد ذلك فهو لزج وسميك ويمنع دخول الحيوانات المنوية الى داخل الرحم . ويمكن التحكم في درجة اللزوجة هذه بواسطة بعض العقاقير لتظل بمنسج الحيوانات المنوية من الفخذ الى داخل الرحم .

كيفية عمل ومكان تأثير هرمونات منع الحمل .

هذه الهرمونات هي الوحيدة بين العقاقير الطبية التي تمنع الحمل بطريقة وقائية وليس لها أي تأثير على الحمل عند حدوثه ولا شك ان تأثيرها يمتد الى أكثر من موضع في الجسم .

١ - منع التبويض

منذ عام ١٩٣٧ والأبحاث قد توصلت الى الحقيقة العلمية الى انه أثناء الحمل لا يحدث تبويض جديد من المبيض وذلك بأفراز هرمونات بكميات كبيرة أثناء الحمل وقد أثبتت التجارب التي أجريت أن هرمون البروجسترون يتمتع بهذه الخاصية سواء في حيوانات التجارب او في النساء . كما تطورت الأبحاث بإضافة هرمون الإستروجين لتقوية الأثر المطلوب كما استنبطت مركبات فعالة بواسطة الفم بدلاً من الحقن ، أما موضع عمل هذه الهرمونات في الجسم فقد يكون على الهيبوثالامس الذي يتحكم في افراز الغدة النخامية بمنعها من افراز هرموني (F.S.H.) ، (L.H.) اللازمين لعملية التبويض . (غير معروف بالضبط) .

٢ - تأثير في الفشاء المخاطي الرحمي

يحدث تغيير في هذا الفشاء يجعله يمنع تمشش البويضة فيه . (Implantation) وهذا التغيير أثبتته الفحص الميكروسكوبي الذي أظهر ضموره وفقدانه لخصائصه . وهذا الأثر يكون بمثابة خط الدفاع الثاني ضد الحمل لو فرض وحدث التبويض .

٣ - تغيير في الافراز المخاطي لعنق الرحم

(Cervical) Mucus

يصبح أكثر لزوجة وأقل قابلية للاختراق بواسطة الحيوانات المنوية وهذا التأثير يحدث أساساً بواسطة هرمون البروجسترون .

هرمونات منع الحمل :**١ - هرمون البروجستوجين Progestogen
وانواعه المختلفة**

وهو يستعمل في اقراص منع الحمل بدلا من هرمون البروجسترون (Progesterone) حيث لا يعطى الاخير الا عن طريق الحقن وتقل فعاليته بطريق الفم .

ومن انواعه نوع يحتوى على مادة (١٩ نورلستميرون (Nortostosterone) ومن هذا الصنف طورت اصناف مختلفة تستعمل في اقراص منع الحمل فقط (وليس في حقن منع الحمل) وهذه الاصناف تختلف في فعاليتها باختلاف تركيبها الكيميائي وتقاس فعالية المستحضر بتعيين اقل جرعة منه التي اذا اضيفت الى (اراء) ملجم من هرمون ايثينيل اوستراديول (Oethenyl Oestradiol) تسبب تاخير العادة الشهرية لمدة اسبوعين .

وزن هذه الجرعة يستعمل كأساس لقياس ومقارنة فعالية مختلف انواع البروجستوجين . ومن هذه المركبات نجد ان مركبي نورايثينديرون ونورايثينديريل Norethindrone & Norethyadrel متساويان في الفعالية في حين ان مركب خلاص نورايثينديرون Norethindrone Acetate تبلغ فعاليته ضعف المركبين السابقين ، ومركب خلاص ايثينوديول Ethynodiol Diacetate فتبلغ فعاليته ١٥ ضعفا ، وهذه الفعالية المرتفعة تعتمد على مقاومة المركب لعملية الهضم عندما تؤخذ بالفم . (ومركب نوجستريل (Norgestril) فتبلغ فعاليته ثلاثين ضعفا) .

وهذا هو خط الدفاع الثالث ضد الحمل ومن المحتمل جدا ان يكون هذا الاثر هو الطريقة الوحيدة لمنع الحمل في بعض انواع الاقراص المستعملة والتي لا تمنع عملية التبويض ولا تغير في الفشاء المخاطي الرحمي .

طرق استعمال هرمونات منع الحمل

هناك طريقتان او نوعان - ١ - النوع المتحد (Combined) او المزدوج .

ب - النوع المتتابع (Sequential)

١ - النوع الاول - مزيج من هرموني الايستروجين (Oestrogen) وهرمون البروجستوجين (Progestogen) ويعطى بانتظام وباستمرار لمدة ثلاثة اسابيع .

ب - النوع الثاني - وفيه يعطى هرمون الايستروجين منفردا لمدة اسبوعين ويتبعه مزيج الهرمونين لمدة اسبوع آخر .

وفي كلا النوعين لا يعطى اى دواء خلال الاسبوع الرابع ويتبع هذا الاسبوع نزول الدم الذي يشبه دم الحيض (Withdrawal Bleeding)

ج - هناك نوع ثالث - (قليل الاستعمال نسبيا) وفيه تعطي جرعات صغيرة يومية من هرمون البروجسترجين منفردا بدون الايستروجين ، ونسبة الحمل من هذا النوع مرتفعة وتصل من ٢ - ٨٪ في السنة ويصاحبه نوبات من النزيف المهليسي غير منتظم . (Breakthrough bleeding) وما زالت الابحاث جارية حتى يومنا هذا لاستنباط انواع اخرى من عقار منع الحمل الهرمونية وغير الهرمونية مثال ذلك زرع امبولات تحتوى على مادة السيلاستيك (Cilastic implant) تحت الجلد والخواتم المهبلية (Intravaginal Rings)

٢ - هرمون الأيستروجين وهي كباته ومشتقاته**المختلفة :**

وهو الهرمون الثاني المكون لاقراص منع الحمل وهو محضر كيميائيا من مواد تشبه الأيستروجين في الفعالية والتي تحتفظ بها حين تؤخذ عن طريق الفم .

والنوعان الموجودان في اقراص منع الحمل هما : -

١ - إيثينيل إيستراديول
(Ethenyl Oestradiol)

ب - ١٧ إيثينيل إيستراديول
17 Ethenyl Oestradiol (17) وهو الميسترانول
(Mestranol)

وتبلغ فعالية المركب الأول ضعف فعالية المركب الثاني وهي أيضا لا تعتمد على وزن الهرمون الموجود في الاقراص ولكن على فعاليته الحيوية في الجسم اذا اخذ بالقلم وربما كان المركب ذو الوزن الأقل اكبر فعالية من ذي الوزن الكبير .

ومند وصف اقراص منع الحمل لسيدة ما يجب ان يوضع في الاعتبار هذان العاملان اي وزن الهرمون الفعال ونشاطه الحيوى في الجسم لكي تختار النوع المناسب لها وخاصة اذا كانت السيدة تشكو من النزيف المهلي أثناء تعاطي الاقراص او توقف نزول الدم كلية (Break through bleeding & Amenorrhoea) وتعالج هذه الحالات بزيادة هرمون الأيستروجين في الاقراص لعلاج النزيف المهلي وتخفيض كمية او نوع هرمون بروجستوجين لعلاج انقطاع الحيض .

ويستحسن عند وصفنا نوع معين من اقراص منع الحمل ان نصف انواعا تحتوي على اقل نسبة ممكنة من الهرمونات (حيث انها كلها فعالة تماما في منع الحمل) تكون بمثابة تمهيد للاستمرار في تعاطي الاقراص ، وفي حالة حدوث امراض جانبية كالنزف المهلي تزداد جرعة الهرمون او يستعمل مركب هرموني اقوى فاعلية .

كما وجد ان الاقراص التي تحتوي على ٥٠ ميكروجرام إيستروجين يصاحبها هبوط في معدل الاصابة بالسداد الاوعية الدموية .

وقد استعملت اقراص تخفض فيها نسبة الهرمونات الى درجة ٢٠ ميكروجرام من هرمون الأيستروجين مع ١ مجم فقط من هرمون البروجستوجين وهي فعالة في منع الحمل كغيرها من المستحضرات التي تحتوي نسبة اعلى من هذين الهرمونين الا انها تمتاز عنهما بضعف الاضرار الجانبية التي يسببها .

١ - النوع المتحد من الاقراص منع الحمل

(Combined)

وهو اكثر الوسائل المتاحة لنا حاليا فعالية في منع الحمل بشرط ان يكون تعاطيه منتظما كل ليلة ولا تنقطع السيدة يوما واحدا من تعاطيه ، في هذه الحالة تكون نسبة الحمل اقل من ٠.٢ من كل مائة سيدة لمدة عام كامل . (٠.٢ ٪ سيدة/عام) .

وكما اسلفنا فهذه المركبات تستعمل فعاليتها من تنوع تأثيرها على الامضاء المختلفة للجهاز التناسلي للمرأة . فهي تمنع عملية التبويض وتغير في طبيعة الافراز المخاطي لمنق الرحم فيصعب اكثر مقاومة للحيوونات المنوية ويمنع

الجنسية والتغيرات النفسية . وهناك امراض اخرى مثل قلة الطمث او انقطاع الطمث ، الام الثدي ، كلف الوجه .

وهذه الامراض تزداد شدة بارتفاع نسبة الهرمونات الداخلة في تركيب الاقراص .

وهذه النسبة المرتفعة سببها الاي : -

١ - تعطى الجرعة اللازمة لمنع التبويض بدلا من منع الخصوبة وهذه تحتاج لجرعة اكبر .

٢ - يراعى تقارب نسبة الهرمونات في جميع انواع الاقراص رغم اختلافها في الفعالية .

٣ - طريقة تناول الاقراص مرة واحدة في اليوم تسبب ارتفاعا سريعا في نسبة الهرمونات في الدم لم ينخفض تدريجيا خلال الـ ٢٤ ساعة التالية .

وعلى الصفحات التالية يوضح الجدول المرفق بياننا تفصيليا للاعراض الجانبية غير المستحبة لاقراص منع الحمل والهرمون الذي يسببها اذا كان ممرورا .

تؤثر اقراص منع الحمل على عملية التمثيل الغذائي (حوالي ٥٠ ٪) وقد قسم تأثيرها على باقى اجزاء الجسم الى ثلاثة اقسام رئيسية هي : -

(١) اثرها على الجهاز التناسلي

- **المبيض** - تسبب التليف المؤقت للمبيض الذي يعود لطبيعته يوقف استعمال الاقراص .

- **النسيج العضلي الرحم** - في حالة وجود اورام ليفية (Fibroids) تزداد في الحجم لتسبب امراضا التهابية تشعربها المرفضة ووجود هذه الاورام يمنع استعمال الاقراص .

دخولها لتجوف الرحم ، كذلك يغير من طبيعة الغشاء الرحمي الداخلي فلا تفرز عدده الكمية الكافية من سكر النشاء (Glycogen) اللازم للدم واضطراب نمو البويضة الملقحة وهي ما زالت في مراحلها الاولى قبل ان تمتش في الجدار الرحمي . كذلك يصبح المبيض اقل استجابة وتاثيرا بهرمونات الغدة النخامية . بالإضافة الى التأثير على يوقا فالوب والنسيج العضلي للرحم مما قد يؤثر على عملية نقل الحيوان المنوي والبويضة .

ب - النوع المتتابع (Sequential)

وهو اقل فعالية من النوع الاول ، ويقتصر استعماله على بعض حالات فردية نادرة ، فنسبة الحمل منه لم تبلغ ضعف النوع الاول حيث لا يمنع التبويض ولا يمنع افراز هرمونات الغدة النخامية وتأثيره على الغشاء الرحمي الداخلي والافراز المخاطي لمنق لرحم لا يبلغ درجة تأثير النوع الاول . ولكنه يحتوي على نسبة اكبر من هرمون الايستروجين ، فاعراضه الجانبية اشد من النوع الاول ، ولذلك فان استمرار السيدات ومواظبتهن على تعاطية اقل من النوع الاول .

الاناث والامراض الجانبية لالاراضى منع الحمل

(Systemic Effect)

هرمونات منع الحمل لها تأثير على كل اجزاء الجسم تقريبا بالإضافة الى تأثيرها على الجهاز التناسلي . وتبدو هذه التأثيرات على شكل امراض جانبية غير مستحبة مثل الرغبة في القيء ، النزيف للهلسي ، الانتفاخ ، ازدياد الوزن ، السورم ، وامراض خاصة بالجهاز العصبي المركزي مثل الصداع ، العصبية الزائدة ، التئيب ، الدوخان ، هبوط الرغبة

الآثار الجانبية لأقراص منع الحمل والهرمون السبب لها

هرمون إيستروجين	هرمون بروجستوجين	الآثار الجانبية
×		١ - القيء والغثيان (عارض مؤقت) ويؤول بعد عدة شهور ويخف إذا اخذت الحبة مع الحليب
×		٢ - الصداع والدوخان والصداع النصفي
×	×	٣ - ألم الصدر (عارض مؤقت)
×		٤ - كلف الوجه (Chloasma)
	×	٥ - الصفم والاكنتشاب (هذا العرض عادة موجود قبل تطابق الأقراص) ويمالج بواسطة أقراص فيتامين ب٦ . ٥. ملجم يوميا)
	×	٦ - حب الشباب وفروة الرأس الدهنية
-	-	٧ - الصلع بسببه القلق وليس الأقراص
	×	٨ - البرود الجنسي (غير موجود في صفات السن من النساء) سببه جفاف المهبل .
	×	٩ - القصد والتقلصات البطنية والطمث المؤلم (عارض مؤقت)
	×	١٠ - تقلص عضلات الساقين
×	×	١١ - النزف المهلي (Spotting) عارض مؤقت ويمالج بنوع من الأقراص فيه جرعة أكبر من هرمون الأيستروجين
×		١٢ - اضطرابات الحيض : أ - قلة الطمث ويمالج بامطاد مركب فيه جرعة أكبر من هرمون البروجسترون . ب - كثرة الطمث بغير أو بإدوار الطيب ج - امتناع الحيض ، توقف الأقراص
×	×	١٣ - ازدياد الإفرازات المهبلية البيضاء وقد يصاحبه قرحة الرحم
×	×	١٤ - الفطريات المهبلية

الآثار الجانبية للأقراص منع الحمل والهرمون المسبب لها

هرمون إستروجين	هرمون بروجستوجين	الآثار الجانبية
x	x	١٥ - زيادة الوزن مؤقتاً - بواسطة احتباس السوائل ويمالج بعمل رجيم دائماً - بواسطة ترسب الدهون وتحسن الشهية
x	x	١٦ - بعض التغيرات في عملية التمثيل الغذائي زيادة البروتين في الدم أ - زيادة هرمون الكورتيكسترون المتعلق بهما ب - زيادة مادة الصفراء في الدم وتغير وظائف الكبد ج - تغير في تمثيل حامض الفوليك (اللازم للدم)
x	x	١٧ - ازدياد الدهون في الجسم
-	-	١٨ - حصو المرارة (غير مؤكد)
x	x	١٩ - ارتفاع ضغط الدم في ١٪ من الحالات (موجود من قبل ويرجع للطبيعي بعد ثلاثة اشهر من توقف الأقراص)
x	x	٢٠ - زيادة الجلوكوز في الدم (Olyosuria) ويوقف استعمال الأقراص في هذه الحالة
x	x	٢١ - الجلطة الدموية والانسداد الشرياني لزيادة تجلط الدم بسبب زيادة مادة الفيرينوجين والعامل السابع والعاشر (وربما الثامن والتاسع) اللازمة لعملية تجلط الدم ، وميل الصفائح الدموية للتجمع . (هذا الأمر قاصر على المرأة البيضاء)
x	x	٢٢ - ازدياد حجم الرحم والأورام الليفية (مثلما يحدث في الحمل)
x	x	٢٣ - احتمال الإصابة بسرطان الثدي أو الرحم أو المجرى التناسلية السفلى - (بالكسبرين ذلك وجد أن الأقراص تحمي من سرطان الثدي فيما بعد كما تقلل من سرطان الرحم والمبايض)
-	-	٢٤ - أثر الأقراص على الحمل نظرياً فقط ولا يوجد دليل على تأثير الحمل بالأقراص .

ج - البانكرياس (Pancreas)

استعمال اقراص منع الحمل لمدة طويلة يؤثر على التمثيل الغذائي للجلوكوز يسدو واضحا في انحراف منحنى السكر في الدم من الطبيعي لذلك لا توصف اقراص منع الحمل لمريضات البول السكري (Diabetes) كما يجب الحذر ومتابعة الفحص لمن لديهم استعداد وراثي او عائلي للاصابة بهذا المرض او بنجبين أطفالا يكون وزنهم اعلى من الوزن المعتاد او يموت اطفالهن اثناء الولادة بدون سبب واضح .

د - الغدة النخامية (Pituitary)

من المعروف ان اقراص منع الحمل تسبب توقفا عن افراز هرمون (L.H.F.) الذي يثبه الغدة النخامية لافراز هرمون (F.S.H.) اللازم لانمام عملية التبويض في البيض . وقد تستمر هذه الحالة حتى الى ما بعد ان يتوقف استعمال الاقراص نفسها مما يسبب عدم الحيض لفترات متفاوتة وقد يمنع الحيض نهائيا ولكن هذه الحالة نادرة ولا تتجاوز نسبتها ٠.٢ ٪ وتصيب عادة من كن يشكين من اضطرابات الدورة الشهرية من قبل البدء في استعمال الاقراص لذا ينصح مثل هاتيك المريضات وخاصة من كن يشكين من قلة او عدم الطمث بان يبحثن عن وسيلة اخرى لمنع الحمل غير الاقراص او اذا اصرن على الاقراص فيستعملن النوع التالي ولمل هذه هي الحالة الوحيدة التي تستعمل فيها هذه الطريقة (Sequential)

الرها على باقي الجسم

١ - الدهنيات - تسبب ازديادا في نسبة الدهنيات في الدم وهذه بالإضافة الى التغيرات المتعلقة بتعجيل الجلوكوز في الجسم قد يسبب تصلبا في الشرايين Atherosclerosis ولكن لا يوجد دليل حتى الان على التعرض

- افشاء الرحم الداخلي - التأثير الحادث به يسبب انقطاع الحيض أو قلته أو التزيف المبلي اثناء الدورة الشهرية (Intermenstrual)

- عنق الرحم - زيادة الافراز المخاطي / تضخم عند عنق الرحم الحميد .

- الكبد - ليس هناك تأثير سيء على الالتهابات المبلية .

- التنقي - يسبب الما بالجنس (بسبب هرمون الايستروجين) .

يقل ويختلف نوع الطيب اثناء الرضاع فنقل فيه نسبة البروتينات ، وتظهر هذه الهرمونات في حليب الام بنسب محسوسة ، لذلك لا ينصح باستعمال اقراص منع الحمل اثناء فترة الرضاع .

(٢) الزها في الغدد الصماء -

١ - الغدة الكظرية (فوق الكوية) (Adrenal)

تؤثر هرمونات منع الحمل في تركيب البروتينات في الدم وبالتالي في افراز الكبد لانواع معينة من البروتينات اللازمة لهرمونات الغدة الكظرية مما يسبب هبوط نسبة افراز كسل من هرمون (١٧ كيتوستيرويد (Ketosteroid) 17 وهرمون الدوستيرون (Aldosterone) كما قد تزيد في افراز هرمون كورتيزول (Cortisol) وهذا يسبب احتباسا للسوائل في الجسم مما يسبب الصداع والاضطرابات العصبية النفسية .

ب - الغدة الدرقية (Thyroid)

تسبب ازديادا في افراز هرمون الغدة الدرقية يشبه ما هو حادث اثناء الحمل ولكن لا يوجد دليل على انها تسبب تقيرا في وظيفة هذه الغدة .

٦ - **الكلى** - قد تسبب ارتفاعا طفيفا او مؤقتا في ضغط الدم لاختلال التوازن بين مادتي الرنين (Remin) والانجيوتنسين Angiotensin في الدم ، وينصح بقياس ضغط الدم بصورة دورية عند استعمال الاقراص لمدة طويلة .

٧ - **وزن الجسم** - هذه الهرمونات هي مواد بشارة لاقترب تركيبها الكيميائي من الهرمون البناء المعروف تستسترون (Testosterone) . لذا يجب وقف استعمال الاقراص اذا زاد وزن الجسم عن (١٠) أرطال في السنة او استبدالها بنوع اخر يحتوى على نسبة اقل من هرمون البروجسترون .

٨ - تغيرات اخرى متفرقة

(Ulcerative colitis)

قد تسبب انسداد الاوعية الدموية للفشاء المعوى او قرحة القولون الالتهابية وهذه الحالات تهم وقف استعمال الاقراص فورا كما تغير في معدل نسب بعض العناصر الغذائية في الدم كخفض الفوليك و فيتامين ج ، ولكن المفزى الاكلينيكي لهذه التغيرات غير معروف حتى الان .

كذلك الكالسيوم والزنك . مع ازدياد نسبة فيتامين ١ والنحاس والحديد في الدم .

الحالات المرضية التي تمنع تعاطي الاقراص

منع الحمل بصفة قاطعة .

- ١ - سرطان الثدي والرحم .
- ٢ - الحمل .
- ٣ - امراض الكبد الحادة النشطة .
- ٤ - ازدياد معدل تركيز الدهن في الدم (Hypertipidaemia)
- ٥ - مرض البول السكرى او الاستعداد الوراثي او العائلي للاصابة به .

للاصابة بمثل هذه الحالة عند استعمال الاقراص لمدة طويلة .

٢ - **الكبد** - تعرقل هرمونات منع الحمل نشاط الانزيمات التي تساعد على التخلص من مادة الصفراء يشبه ما يحدث أثناء الحمل مما يزيد فرص تكون الحصو المرارى . كما قد يسبب الاصابة بمرض الصفراء العائد . Recurrent Jaundice . لذا يمنع

من اصيب بهذا المرض من استعمال اقراص منع الحمل .

٣ - **انسداد الاوعية الدموية** - تزداد نسبة هذا الانسداد مع استعمال اقراص منع الحمل بصورة بسيطة ونسبة الوفاة لا تتجاوز ٣ من كل ١٠٠٠٠٠ في السنة وهي نسبة ضئيلة جدا . ولا تؤثر على الملايين من النساء اللاتي يستعملن هذه الاقراص كل سنة من جميع انحاء العالم . ولكن يوصى بوقف استعمال هذه الاقراص فورا عند الاحساس بالحمى حاد في الصدر .

٤ - **الجلد** - تسبب اسمرار الجلد كما يحدث أثناء الحمل ويزداد بالتعرض لاشعة الشمس ويستغرق وقتا طويلا للاختفاء بعد التوقف عن استعمال الاقراص .

٥ - **الجهاز العصبي المركزي** - قد تسبب الاقراص الفتيان والصداع والاكتئاب وبعض الاضطرابات العصبية النفسية والبرود الجنسي ، وقد يكون سببه التأثير في النشاط الكيميائي لخلايا المخ وخاصة في مادتي الريبوتوفان (Tryptophan) والسيروتينين (Serotonin) . كما ان هناك ازديادا في معدل الاصابة بالذكريات المخية الدموية وبالرغم من كونها زيادة طفيفة جدا الا انه ثبت ان هناك علاقة اكدية بين اقراص منع الحمل وهذه الذكريات المخية . لذا يوقف استعمال الاقراص فورا اذا كان هناك نوبات من الصداع الشديدا او ظهرت امراض خاصة بالاعصاب الخارجية .

٤٥٪ من النساء يشعرن بالآلام أثناء الحيض وفى ١٢٪ منهن يكون الألم شديداً جداً بدرجة لا تحتمل .

٢ - علاج التوتر العصبي الذى يسبق الحيض - كثيرات من النساء يشعرن بتوتر مصبى في الأيام الثلاثة أو الأربعة السابقة للحيض مع بعض الأمراض كالصداع والاكتئاب وفقدان التركيز وأحياناً تصاب بنوبات تشبه نوبات الصرع وقد لوحظ أن اقراص منع الحمل تخفف من حدة هذا التوتر (التوتر العصبي يصيب حوالي ٣/١ من النساء) .

٣ - تمنع الحيض - من المعروف أن الحيض هو أحد مظاهر الحياة الحضارية فالمرأة البدائية أما حامل أو مريض وفى كلتا الحالتين لا ترى الحيض الشهري ولا تعاني من هذا النزيف الدوري . فاقراص منع الحمل تخفف الحيض الشهري الى درجة كبيرة وقد تمنع كلية وقد لوحظ أن نسبة هيموجلوبين الدم مرتفعة مع اقراص منع الحمل ، وفى ٥٠٪ من الحالات يقل الحيض ، وفى ١٪ يمتنع الحيض بالمرّة .

٤ - تخفيف حب الشباب (Acne) (مرض جلدي) - لوحظ أن اقراص منع الحمل تعالج وتخفف من أمراض مرض حب الشباب الذى يصيب الفتيات في وقت البلوغ ويكون سببه الهرمونات الذكرية التي يفرزها المبيض أثناء البلوغ (Androgens) وقد وجد أن ٨٠ - ٩٠٪ من المريضا يتحسن باستعمال اقراص منع الحمل .

٥ - علاج أمراض الذكورة (Hirsutism) فى بعض الحالات .

٦ - تخفيف آلام التبوليش (Mittelschmerz) والذى يحدث في منتصف العادة الشهرية .

الحالات التي قد يمنع فيها الاقراص منع الحمل بصفة اختيارية .

١ - حالات الاكتئاب النفسي
Depression neurosis

٢ - الصداع النصفي Migraine

٣ - ارتفاع ضغط الدم Hypertension

٤ - الصرع Epilepsy

٥ - قلة أو انقطاع الطمث

وينصح بالفحص الدوري مرة كل سنة على الأقل أثناء تعاطي الاقراص حيث يقاس ضغط الدم ويجرى الفحص المبلي ويسجل وزن المريضة ويفحص الثدي ويعمل منحنى للسكر في الدم ويعرف نسبة مادة الصفراء في الدم ، مثل هذه المتابعة الدورية تمكن استمرار تعاطي هذه الاقراص الى سن الخمسين بدون توقف ، وليس هناك اى ضرورة لابقاف استعمالها قبل سن اليأس الا في حالة الرغبة في الحمل . اما وقف استعمال هذه الاقراص بصفة مؤقتة على فترات معينة كما هو شائع الآن فليس له اى ضرورة ، كما انه يعرض السيدة لحمل غير مرغوب فيه وبذلك يقع المحذور . وعند بلوغ سن اليأس توقف هذه الاقراص مؤقتا ويعطى بدلا منها جرعة منخفضة من هرمون الاستروجين منفردا واذا ثبت ان البويضات تزال نشطا ويفرز بويضات صالحة للحمل فيعاد تعاطي الاقراص مرة اخرى او تستبدل بالوسائل التقليدية القديمة كالغلاف الذكرى والحاجز المبلي أو الرغاوى الكيميائية .

امراض جانبية مستحبة (حميدة) لاقراص منع الحمل

١ - علاج أو تخفيف الطمث الأول - ثبت أن اقراص منع الحمل تعالج الطمث الأول في ٩٠ - ٩٥٪ من الحالات (من المعروف أن

لم تستعملت الحلقات المعدنية القابلة للانثناء المصنوعة من بعض السبائك في التركيب ولتحتاج الى تخدير كلي .

واخيرا استعملت مادة البولي ايثيلين (Polyethylene) في صناعة اللوالب والتي تجمع بين الرخص في الثمن والفعالية في منع الحمل . وتتنوع الاشكال والتركييب وقد اثبت النوع المسمى لوب ليبس (Lippes Loop) انه احسنها واكثرها استمرارا في الرحم كذلك الانواع التي على شكل حرف (I) وكل هذه الانواع لها جهاز خاص بها لادخالها في جوف الرحم كما ينتهي طرفها بغيت متين من النايلون متدل في المهبل ويعتبر علامة على وجود اللولب واستمراره داخل الرحم كما يمكن ازالة اللولب من الرحم بالشد عليه اذا حدث ما يستدعي استخراج اللولب .

شروع اللولب

شاع استعماله في السنوات الاخيرة من بدء السبعينيات حتى احتل الان المركز الثاني مباشرة بعد اقراص منع الحمل وتمزج المادة البلاستيكية للولب بمادة الباريوم الذي يتيح له الظهور بوضوح في صورة الاشعة السينية التي تؤخذ للصوف عندما يراد التأكد من وجوده ومن موضعه . وقد اضيف منصر النحاس على اللولب مؤخرا لزيادة فعالته . ومعظم اللوالب المستعملة الان تكون على حجمين او اكثر للاختيار منهما على حسب حجم الرحم .

طريقة عمل اللولب

غير معروفة بالضبط حتى الان ولكن من المتفق عليه الان ان اللولب يمنع زرع البويضة الملقحة في الششاء الرحمي الداخلي بطريقة او باخرى ولذلك يجب ان يغطي اللولب كل القشاش الرحمي الداخلي ، ولذلك فان اللولب اذا كان صغير الحجم بدرجة

٧ - الرغبة الجنسية - من الصعب تقدير كمية التغير الحادث في هذه الفريزة فهي قد تزيد في ٥٠٪ وقد تنقص في ٤٠٪ من الحالات .

٨ - تحسين الحالة النفسية للزوجين - حيث يشعران بالسعادة لتحكمهما في الحمل والتخلص من الحمل الغير مرغوب فيه .

ثانيا : اللولب الرحمي

Intrauterine Contraceptive Device (IUD)

تعريف - هي تصميمات واشكال مختلفة توضع داخل التجويف الرحمي بقصد منع الحمل وهي مصنوعة من لدائن خاملة غير فعالة ورخيصة نسبيا وبراقي في اللولب ان يكون قابلا للانثناء ويمكن ادخاله الى التجويف الرحمي بسهولة ولا يسبب اي اذى او خطورة على المريضة ويكون من حجم مناسب فلا يطرد من الجسم .

تاريخ استعماله - الفكرة نفسها ليست جديدة فقد سبق استعمال اشكال مماثلة في القرن التاسع عشر ولكن كانت توضع جزئيا في الرحم وجزئيا في المهبل وقد عدل عنها فيما بعد بسبب الالتهابات التي كانت تنتج عنها . وطورت الفكرة بعد ذلك بوضع حلقات معدنية لولبية توضع كلية داخل التجويف الرحمي (كوقاية ضد الالتهابات) ومن امثلتها حلقة جرافنبرج (Grafenberg ring) الالمانية

وحلقة لوتا اليابانية وهاتان الحلقتان ما زالتا تستعملان حتى الان وتصنعان اما من الذهب او من الفضة او من سبيكة من النحاس والنيكل والزنك .

كما استعملت حلقات اخرى من امعاء دودة القز او من مشتقات مادة النايلون ولو انها اقل فاعلية .

متى يمنع استعمال اللولب

١ - في الأيام الأولى لفترة النفاس التي تعقب الولادة أو الإجهاض حيث يجب مرور ستة أسابيع على الأقل على الولادة أو الإجهاض قبل تركيب اللولب .

٢ - في حالة النزيف الرحمي المصاحب لصادة شهرية غير منتظمة وأورام الرحم وأمراض الحوض الأخرى .

٣ - عندما تكون هناك دلائل وشواهد على وجود التهاب حوضي (Pelvic Infection) في الحاضر أو الماضي .

٤ - عندما يكون الرحم به عيب خلقي كحالة ازدواج التجويف الرحمي (Bicornute) حيث يوضع اللولب في تجويف واحد ويترك التجويف الآخر مرفضة للحمل .

٥ - عندما تكون المرأة بكيرة ولم تلد بعد ، قد يكون اللولب ذا خطورة أثناء عملية التركيب بالإضافة إلى صعوبة وصغر حجم الرحم .

٦ - لا يركب اللولب في الحالات التي أجري لها عملية قيصرية أو إجهاض عن طريق البطن (Hysterotomy) فهناك احتمال كبير بعدم التئام الجرح داخل الرحم أو التئامه جزئياً مما يعرض الرحم لخطورة الخرق بواسطة اللولب .

٧ - عندما تثبت محاولات تركيبه وجود أمراض جانبية غير مقبولة (كالنزيف والانتهايات)

فعالية اللولب

يلى الأقراص في الفعالية إلا إنه كثير من المزايا التي تفوقها مثل : -

١ - يقتصر عمله على الجهاز التناسلي

واضحة أو نزع في أحد ثنائي الرحم مزدوج التجويف وهو عيب خلقي يسمى (Bicornute uterus) فإنه من الممكن حدوث الحمل .

وسبب منع زرع البويضة في جدار الرحم :

١ - قد يكون الالتئام الناقص من وجود جسم غريب داخل الرحم .

٢ - أو أن هذا الجسم الغريب قد ينبه بعض الدفاعات في الجسم التي تدمر البويضة بواسطة الخلايا المختصة لذلك (Macrophages)

٣ - وربما سببت مادة النحاس الموجودة في بعض الأنواع في تدمير الحيوانات المنوية أو البويضة الملقحة ذاتها أو تجعل إفراز منق الرحم طاردا للحيوانات المنوية أو يفقد النشاء الرحمي الداخلي استجابته لزورع البويضة .

٤ - والسبب الآخر قد تكون الهرمونات الداخلية في تركيب اللولب لها نفس التأثير إذا أعطيت بالفم أو الحقن وهو مشابه لما يحدث في الحمل .

متى يستعمل اللولب

١ - تستعمل اللولب الرحمية في حالة رفض المريضة لأعراض منع الحمل ، أو عدم إمكانية استعمالها لسبب من الأسباب التي تحرم استعمالها .

٢ - كما أنها ذات أهمية خاصة عندما تكون الزوجة من النوع اللاهي الذي لا يتحمل المسؤولية (وكذلك الزوج) وفي حالات الاختلال العقلي والظروف الاجتماعية السيئة .

٣ - في حالة فشل أو عدم إمكانية الوسائل الأخرى .

٤ - إذا توافر الأشخاص المؤهلين لتركيب مثل هذه اللولب فيمكن استعمالها على نطاق واسع لتعديد النسل .

لان البويضة تزرع دائما في جدار الرحم بعيدا عن اللولب .

عيوب اللولب واختلاطه

١ - الحمل (Pregnancy) - حدوث الحمل مع وجود اللولب داخل الرحم غير مستبعد ، في هذه الحالة لا يسبب أي تشوه خلقي للجنة او زيادة في نسبة الوليات داخل الرحم . ولكن وجد أن نسبة الاجهاض الذاتي أعلى من المعدل الطبيعي ، وعند حدوث الحمل فتتقسم الاراء حول طريقة التعامل مع اللولب الموجود بداخل الرحم .

الرأى الاول - ترك اللولب وشأنه حيث سيرتفع تلقائيا مع كبر حجم الرحم حتى يختفي الخيط من متناول اليد ويتوارى اللولب بين الاغشية ولا يسبب أي ضرر حتى يقدف به خارجها مع ما يقدف من الأغشية وتنتالج الحمل عند الولادة .

الرأى الثاني - اذا كان خيط اللولب مائل موجودا ومحسوسا في المهبل فيمكن الشد عليه لنزع اللولب من الرحم ، ويقول اصحاب هذا الرأى ان فرصة استئصال الحمل بعد استخراج اللولب اكثر من فرصتها لو ترك مكانه ، واذا لم يكن خيط محسوسا فيترك وشأنه ولا يباشر البحث عنه داخل الرحم ، لان هذا حتما سيؤدى الى الاجهاض .

ونسبة الحمل مع وجود اللولب هي حوالي ٢ - ٥ ٪ في السنة الاولى لتثبيت اللولب ثم تبدأ بالانخفاض بعد ذلك .

أي ان اللولب غير مرض بصفة عامة في ٣٠ - ٤٠ ٪ من الحالات في السنة الاولى وبعض اللولب تسقط من تلقاء نفسها خارج الرحم وبعضها (١٥ ٪) تستخرج عمدا اذا كانت مسببة لآغراض جانبية غير مستحبة .

فقط وليس له أي اثر عامة على الجسم كاقراص منع الحمل .

٢ - يركب لمرة واحدة فقط ويستمر عمله لمدة سنوات بعد ذلك طالما ظل في مكانه (أي لا يحتاج لأي اشرف طبي دوري مثل الاقراص)

٣ - تعرف الاطباء على فاعليته واثاره الجانبية اسرع بكثير من تلك التي جمعت بخصوص الاقراص (استغرق بعضها عدة سنوات وما زال يتقصنا الكثير)

٤ - وميزته الحقيقية هو انه في حالسة لبائه في موضعه فانه غير مسبب لأي السار جانبية (كالنزيف) ويصبح وسيلة رخيصة وفعالة لمنع الحمل وفي متناول الجميع (يعكس الاقراص التي تعتبر مرتفعة الثمن بالنسبة للولب وتحتاج لان تدفع المرأة باستمرار)

٥ - لا يحتاج الى عناية مستمرة وخاصة كالحاجز المعبلي .

٦ - لا يؤثر في الخصوبة على أي وجهه ، ويمكن الحمل خلال اشهر قليلة من استخراج اللولب .

الفعالية

١ - وتختلف فعالية اللولب (أي نسبة الحمل) باختلاف النوع المستعمل وفي النوع المسمى لولب ليبس (Lippes Loop) لا تزيد نسبة الحمل عن ٢.٧ ٪ بعد سنة من الاستعمال . ونسبة الحمل أكثر ارتفاعا في السنة الاولى للاستعمال منها في السنتين التالية .

٢ - نسبة الحمل أكثر ارتفاعا كلما صغر حجم اللولب من نفس النوع المستعمل .

٣ - عند حدوث الحمل مع وجود اللولب فان اللولب لا يوجد ابدا داخل الكيس الامينوس

النادرة قد تنزع المرضة بنفسها سواء بالسهر أو بالخضار .

أما إذا أعيد تركيب اللولب بعد طرده فإن احتمال الاحتفاظ به يصل إلى ٦٨٪ وإذا أعيد تركيبه للمرة الثالثة فإن هذه النسبة تنخفض إلى ٢٤٪ فقط أي لا توجد فائدة تذكر في إعادة تركيب اللولب إذا تكرر طرده .

٤ - التوقف عن استعماله (Discontinuation)

وهذه نسبة ثابتة مع كل أنواع اللوالب وتبلغ حوالي ٢٠ - ٣٠٪ في السنة الأولى و ١٠ - ١٥٪ في السنوات التالية إلى أقل من ١٠٪ في السنة الخامسة وأقل من ٦٪ في السنة السادسة - ونهاية السنة السادسة نجد أن حوالي ٤٠٪ من السيدات ما زلن محتفظات باللولب وهذه نسبة جيدة - كما وجد أن حوالي ٥١/٤٪ من حالات التوقف كان بسبب الحمل .

أسباب التوقف عن استعمال اللولب

١ - الحمل .

٢ - الألم - النزيف المهبلي (ولأسباب طبية أخرى) ونسبة التوقف في هذه الحالات تبلغ حوالي ١٥٪ في السنة الأولى وتنخفض إلى ٧٪ في السنة الثانية ، وهذا العامل يشكل نصف حالات التوقف عن الاستعمال تقريباً .

وأحسن أوقات تركيب اللولب هو وقت الحيض الفعلي للتأكد من عدم وجود الحمل ، كما أن الزيادة الطبيعية التي سوف تحدث في النزيف المهبلي الموجود فعلاً لن يزعج المرضة ، وقد يزداد النزيف المهبلي بعد سنة من تركيب اللولب ، وهذا سببه ترسب أملاح الكالسيوم على سطح اللولب الأمرس فيجعله خشناً مما يسبب قروحاً بالغشاء المبطن للرحم ، وهذا يسبب زيادة في دم الحيض وفي هذه الحالة يستخرج اللولب ويغير نوعه .

كما أن بعضها يفشل في منع الحمل ولكن تعتمد النتيجة النهائية على اختيار المرضة ونوع وحجم اللولب المستعمل كما أن تقبل المرضة له أهمية خاصة . وهناك أمل كبير في الأنواع الجديدة المتطورة النشطة Activated appliances التي تسبب امراضاً جانبية أقل من الأولى وفاطمية أكثر ضد الحمل .

٢ - الحمل خارج الرحم (Ectopic Pregnane)

اللولب يمنع الحمل داخل الرحم بنسبة ٩٧ - ٩٨٪ من الحالات ولكنه يمنع الحمل خارج الرحم بنسبة أقل أي في حوالي ٩٠٪ وفي حالة حدوث الحمل واللولب داخل الرحم فهناك احتمال ٢٠/١ أن يكون هذا الحمل خارج الرحم . وفي كل حالة تجري فيها عملية إجهاض لسبب فشل اللولب فيجب إرسال مينة من البقايا المستخرجة من داخل الرحم للتأكد من أن هذا الحمل داخل الرحم .

٢ - طرد اللولب

يحدث ذلك في السنة الأولى في ٢ - ١٠٪ من الحالات (معتمداً على نوع اللولب) وهو يعتبر من ميوب اللولب الرئيسية وخاصة إذا حدث بدون علم المرضة الذي يحدث في حوالي ٢٠٪ من الحالات وهذا قد يتجه العمل غير المرغوب ، وقد وجد أن حوالي ثلث حالات الحمل مع اللولب حدثت عقب طرد اللولب بشرع علم من المرضة بذلك ، وهذا يبين أهمية وجود الخيط المتصل باللولب كاملاً أثناء مهم إذا فقد الزره . ونسبة الطرد أعلى في الشهور الأولى وكذلك في السنة الأولى ، وتزداد نسبة الطرد كلما صغر حجم اللولب ولو كان من نفس النوع ، كما أن نسبة الطرد تكون أعلى إذا ركب اللولب في الأيام الأولى لفترة النفاس (Puerperium) كما وجد أنه كلما صغر سن المرضة وقل عدد الأطفال زادت نسبة الطرد التلقائي من الرحم ، وفي بعض الأحيان

وعند فحص النسيج الرحمي بعد استخراج اللولب نجد ان امراض الانتهاب غير الميكروبي تستمر مدة طويلة. هذا الانتهاب غير ضار وهو الاساس في عمل اللولب في منع الحمل .

وجود اللولب يساعد على انتشار اى التهاب حاد جديد تناسلى يصيب المرأة مثل مرض السيلان (Gonorrhoea) واللولب يساعد على انتشار هذا المرض الى اىواق فالولب وفي هذه الحالة يوصى باستخراج اللولب لسوراء وعلاج الحالة بسرعة وبهضم .

والتهاب اىواق فالولب الحاد والمزمن الذى يحدث في ١ - ٢٪ من حالات تركيب اللولب عادة يحدث اذا ركب اللولب خطأ مع حمل مبكر او كان هناك التهاب قديم بالايواق غير معلوم وقت التركيب ، او اذا ركب مبكرا بعد حمل ، او اذا سبب اجهاضا .

٧ - هل اللولب يساعد على الإصابة بالسرطان

لم تثبت الابحاث المستفيضة التي اجريت على اللولب انه يؤدي الى سرطان الرحم او سرطان عنق الرحم .

٨ - تعرق عنق الرحم

قد تسبب بعض الانواع التي لها جزء يوضع في عنق الرحم بعض التمزقات او الجروح به وهي ليست بذات خطر .

٩ - كسر اللولب

قد يصبح اللولب هشاً ويكسر بعد ٢ - ٣ سنة من الاستعمال فيصبح بذلك غير ذي فاعلية ويصير استخراجا من داخل الرحم كما ان اطرافه العادة قد تخترق جدار الرحم .

١٠ - الإغماء عند تركيب اللولب

قد يحدث ذلك احيانا .

٥ - خرق الرحم Perforation

هذه الحالة نادرة الحدوث ونسبتها ٢٥٠٠/١ ولكن مع النوع المسمى دلكان (Dulkan) تزداد النسبة الى ١/٣٥٠ (وقد اوقف استعمال هذا النوع اخيراً وصحب من الاسواق بسبب المضاعفات الخطيرة التي كان يحدثها كالخرق والحمل والاجهاض اللوث) .

ويمكن تجنب هذه الحادثة بتوخى العذر اللازم واتباع الطرق الصحيحة لتركيب اللولب (وذلك باستكشاف تجويف الرحم بواسطة الجس الخاص قبل تركيب اللولب) وقد تساعد انقباضات عضلات الرحم على دفع اللولب خلال جدار الرحم السميك الى التجويف البيروني . واختفاء الخيط ليس معناه خرق الرحم بالضرورة فهو يختفي في الحالات التي يدور فيها اللولب على محور ١٨٠ درجة ساحبا معه الخيط الى داخل الرحم .

ومع ذلك ففي حالة اختفاء الخيط تعمل صور شعاعية لتحديد مكان اللولب ويستكشف داخل الرحم (بشرط التأكد من عدم وجود الحمل) . وعند التأكد تماما من وجوده داخل البطن يستخرج بواسطة منظار Laparoscope او عن طريق المهبل Coldotomy . هذا اذا كان من الانواع التي قد تسبب انسدادا في الامعاء (كالانواع الطليقة) ما هذا ذلك يمكن تركه حيث لا ضرر منه .

٦ - الانتهاب (Infection) والتوت الميكروبي

لا يوجد دليل قاطع على ان اللولب هو السبب المباشر في بعض الانتهابات التي تحدث في المجاري التناسلية العليا التي تلاحظ احيانا مع وجود اللولب ، ولكن لا يجب تركيب اللولب مع وجود التهاب في قنوات فالوب، لان اللولب سوف يساعد على ادخال عدد اضافي من الميكروبات التي تزيد الحالة سوءا .

وما زالت الابحاث تجرى لاستنباط انواع اخرى من هذا النوع حيث يضاف هرمون البروجسترون على الزرع الممودية للولب في محاولة لتقليل الاعراض الجانبية الى الحد الأدنى .

احسن وقت لادخال اللولب داخل الرحم

الوقت المثالى هو انهاء الحيض او بعده مباشرة للتأكد من عدم حدوث الحمل ولكن عقب الاجاضى او الولادة يستحسن ان تنتظر المريضة ستة اسابيع قبل تركيب اللولب او على الاقل بعد الحيضة الاولى للولادة حيث تفحص المريضة بعد شهر من تركيب اللولب وبعد ثلاثة اشهر ، ثم تفحص دورياً كل سنة للتأكد من وجود اللولب في مكانه ولتغييره اذا جد ما يستلزم ذلك ، ويزال اللولب كلية عند بلوغ سن الياس وفي اى وقت قبل ذلك اذا سبب اعراضاً جانبية شديدة او مضاعفات .

وفي حالة حدوث حمل بالصدفة فيفضل الكثير من الاطباء ترك اللولب وشأنه ، فمع تقدم الحمل سيرتفع اللولب تلقائياً حتى يختفى تماماً .

ثالثاً : وسائل منع الحمل التقليدية

١ - الغلاف الذكري (Condom)

نسبة لطبيب يلمى دكتور كوندوم - وهي من اقدم وسائل منع الحمل التى ما زالت متبعة حتى الآن . وهي بسيطة وفعالة وأول وصف لها نشر عام ١٥٦٤ م كان عبارة عن غلاف مصنوع من الصوف يستعمل اساساً لمنع العدوى بمرض الزهري وتطور حتى اصبح يصنع الآن من مادة « لاتكس » مختلفة السمك ويزود احياناً بحلقة صغيرة في القمة كخزان للحيوانات المنوية ويستعمل اما جافاً او مشحماً وميزته انه يحفظ الاحساس اثناء الجماع ولكن الانواع الحديثة مرتفعة الثمن ، وفعاليتها

١١ - الزيادة كمية النزف الشهري او ظهور

بعض البقع الدموية وسط الدورة الشهرية

وهي تحدث لى ٥٠٪ من الحالات وشائعة في الايام والاشهر الاولى لتركيب اللولب . وقد تسبب انيميا وتعالج بمستحضر ايسيلون امينو كابوريك اسيد
(Epsilon Amino Caproic Acid)

١٢ - العظم المزلم (Dysmenorrhoea)

وتسببها تقلصات الرحم وهذه تتحسن بتعود المريضة على اللولب .

التطورات والتحسينات التى ادخلت على

اللولب

لما كان اللولب حتى الآن - ليس بالوسيلة المثالية لمنع الحمل حيث ان هناك ٢١/١٪ من حالات الحمل في السنة الاولى للاستعمال ، كما ان هناك ١٥٪ من حالات طرد او استخراج اللولب لاسباب طبية في السنة الاولى ايضاً فقد جرت محاولات كثيرة لتطويع اللولب وتحسين فاعليته كمنع للحمل ، من احدث التحسينات التى ادخلت على اللولب هو تعميم اللولب على شكل حرف (T) الذى يلف حوله سلك رفيع من النحاس ، وهذه الانواع ذات اهمية خاصة بالنسبة للزوجات اللاتي لم يحملن بعد (Nulliparous) واللاتي عساده لا يتحملن الانواع الاخرى بسبب الالم الذى تسببه لهن . وقد وجد انهن يحتفظن بهذا النوع ولا يتخلصن منه ، وهذا فتح لهن المجال لمنع الحمل كبديل للاقراص .

وهناك ايضاً اللولب النحاسي على شكل رقم (7) اللاتيني وهذا يشبه اللولب (TC 200) من حيث فاعليته ومناسبته للزوجات اللاتي لم يحملن .

٢ - الحاجز المهبلی Diaphragm

سبق ووصفه ميسينا عام ١٨٨٢ م . ولكن لم يبدأ استعماله إلا بعد عام ١٩٢٠ م ووظيفته مزدوجة فهو يعمل كحاجز وقائي وكرواه لمضاد الحيوانات المنوية ، وتقترب لفعاليتها مع المادة الكيميائية الخاصة به (جيل أو كريم)

Gell or Cream من فعالية اللولب الرحمية أو الغلاف الذكري ونسبة الحمل هي حوالي ٦ - ٣٠ سيده في المئة السنة . وهو يعتمد في فعاليتها الى حد كبير على الريضة نفسها وطريقة الاستعمال بالنسبة لوقت التعرض وميزته هو انه يمكن للمرأة ان تقيته في موقعه قبل التعرض لمدة طويلة ولذا فهو ليست له صلة مباشرة ولا يتدخل في عملية الجماع .

ولكن هذه الوسيلة لم تلق التشجيع الكافي من جانب السيدات لاحتياجه للتثبيت (يمكن تدريب السيدة نفسها على تثبيته في موقعه) كما ان المواد الكيميائية التي تستعمل معه قد يتقزون منها . وجدير بالذكر ان الكثير من الاطباء المتدربين على تركيب اللولب الرحمية ووصف اقراص منع الحمل هم قليلو الخبرة في تركيب وتثبيت الحاجز المهبلی . وبشئ اكبر حجم يمكن للمرأة ان تتحملة بدون ألم ، ومع ذلك تزحزح الحاجز من مكانه بفعل تمدد جدران المهبل أثناء عملية الجماع ولذلك يفقد فعاليته ، وقد يحتاج الحاجز لاستبداله عدة مرات بحجم اكبر منه . وهناك أربعة اشكال من الحاجز المهبلی - (يراعى عند تثبيته ان يغطي عنق الرحم تماما) .

١ - الحاجز ذو الملف الزنبركي (Coil Spring Diaphragm) وهو سهل الاستعمال بواسطة الريضة نفسها ، ومناسب للاستعمال العام (ينثنى على محور واحد) .

٢ - الحاجز ذو الملف المسطح - وهو ايضا سهل الاستعمال .

النظرية تكاد تقارب فعالية اللولب الرحمی ، ونسبة الحمل تتراوح بين ٤ - ٣٦ سيده لكل مائة عام من التعرض - وتزداد فعاليته اذا استعمل معه مركبات كيميائية تقتل الحيوانات المنوية واسباب الحمل مع الغلاف الذكري هي الآتية :-

- ١ - التمرق أثناء الاستعمال ١/١٥٠ - ٢٠٠ حالة (٢٠ - ٣٠ ٪) .
- ٢ - القلق السريع قبل تثبيت الغلاف .
- ٣ - فقد الغلاف في المهبل أثناء الجماع .
- ٤ - عدم الخبرة في استعماله .

٥ - وجود عيب في الغلاف (٣٠ - ٤٠ ٪) وربما كان هذا سبب ارتفاع لمن بعض الانواع التي يجري اختبارها بوسائل متقدمة قبل طرحها في الاسواق .

وأغراض استعمال الغلاف الرئيسية هي :-

- ١ - الوقاية من الحمل .
- ٢ - الوقاية من الأمراض التناسلية كالسيلان والزهري .

وللوقاية من السيلان يجب توافر عدة شروط كالحرص الزائد وسلامة الغلاف التامة طيلة فترة التعرض وبسببها ، وجدير بالذكر ان هذه الطريقة التي يمرها الان اكثر من اربعائة عام هي الوسيلة الوحيدة الشائعة لمنع الحمل بالنسبة للذكور ، وبالمق من الابحث المركزة من جميع انحاء العالم لايجاد بديل شعبي وواسع الانتشار مثلها فما زالت هي الاكثر شيوعا خاصة بالرجل كوسيلة أولى ومساعدة لمنع الحمل .

٣ - وقاية الذكر من بعض الالتهابات الاثنوية واولقات العادة الشهرية (عادة غريبة شائعة) .

وهذه المواد الكيميائية تتخذ اشكالا مختلفة فهي اما على شكل هلام (جيلاتين) ، كريم ، معجون ، محاليل ، مساحيق ، لبوس مهبلية ، مساحيق او اقراص رغوية ولكنها اقتصررت الآن على الرغوة ، الكريم ، الهلام واللبوس ، واستغنى عن الانواع الاخرى ومنذ عام ١٩٦١ استعملت رغوة ايروسول aerosol foam وشامت حتى تسامت مع القلوب الرحمي في الاستعمال عام ١٩٧٠ م .

والمادة الفعالة في بعض هذه المركبات هي مادة خلاص الفينك الريثيقية أو مواد أخرى ذات فعالية سطحية (Surface Active) وتفضل الكثير من السيدات استعمال الرغواوى الكيميائية لسهولة استخدامها ولا تترك أثرا ذا أهمية بعد الاستعمال ، ونسبة الحمل مع هذه الكيميائية هي من ٢ - ٣٨ حالة حمل/ مائة سنة من الاستعمال ويرامى عند استعمال هذه المركبات أن توضع عينا في قناة المهبل وتبقى بكميات أخرى إذا تكرر التعرض ، وفي حالة اللبوس المهبل يرامى أن توضع قبل التعرض بوقت كاف للانتصهار وبفعل حرارة الجسم داخل المهبل أى من ١٥ الى ٣٠ دقيقة قبل التعرض .

ومن التطورات في هذه المركبات هي ضخها في المهبل تحت ضغط عال لتوزع بطريقة متساوية على جدران المهبل ، ويمكن لهذا الحقن أن يظل صالحا أيضا بعد التنبئة لمدة أسبوع . وجدير بالذكر أن هذه المركبات الكيميائية صالحة أيضا كوسيلة وقائية من الأمراض التناسلية .

استعمالات وسائل منع الحمل التقليدية

(الأيروسول / الفلاف الذكري / الحاجز)

(المهبل)

١ - في الحالات التي لا تستطيع السيدة ان تستعمل الوسائل الاخرى او لتفضيل شخصي .

٣ - الحاجز المحدث او القوس - مناسب لحالات ميوب الرحم الموضعية كالرحم المائل كثيرا للامام حيث يأخذ عنق الرحم اتجاهها خلفيا .

٤ - اما في حالات ارتخاء الجدران المهبلية فيستعمل حاجز مهبلية على شكل عجلة هودج (Hodge Passary) .

والحاجز المهبل لا يصلح ولا يستعمل في حالات السقوط الرحمي الناتج عن ارتخاء عضلات الحوض ، أو بعض حالات الميوب التشريعية للحوض . وفي هذا الحال يستبدل الحاجز المهبل بغطاء عنق الرحم Cervical Cap .

والطريقة المثلى للحاجز المهبل هو تركه لمدة ست ساعات على الأقل بعد التعرض وهي المدة الكافية لتوقف حركة الحيوانات المنوية في المهبل - كما تضاعف كمية أخرى من الهلام القتال للحيوانات المنوية اذا ظل في المهبل لمدة اطول من ستة ساعات قبل التعرض ، وهذه الارشادات من باب الاحتياط ليس الا .

والحاجز المهبل غير صالح في حالات الجماع السريع المتتابع لانه عرضة في هذه الحالة لأن ينزلق من مكانه ويفقد فعاليته (كما في المومسات مثلا) .

وقد يعنى الحاجز المهبل الى حد ما من الإصابة بالامراض التناسلية (ولكن درجة هذه الوقاية غير مؤكدة حتى الآن) .

٣ - قنات الحيوانات المنوية

(Spermicidal Preparations)

هناك انواع تستعمل عادة مع الحاجز المهبلية ، وانواع تستعمل منفردة كوسيلة قائمة بذاتها لمنع الحمل ، وفائدتها الرئيسية انها تخلق حاجزا كيميائيا يمنع دخول الحيوانات المنوية الى داخل عنق الرحم (Endocervical Canal)

محلول الخل - محلول الشب - محلول الملح، حتى الصابون وتستهمل النساء (في بعض البلدان النامية شراب الكوكا كولا كنسول مهلي فعال بعد الجماع) وفي الفترة من ١٩٤٥ - ١٩٥٥ ثبت أن ٣٥٪ من النساء الأمريكيات يستعملن هذه الطريقة .

٢ - أنواع معينة من الجماع التامس - مثل

١ - العزل - القذف خارج المهبل
(Coitus Interruptus)

٢ - منع القذف - بالتحكم في عملية الجماع
Coitus Reservatus فلا تصل للدورها بالقذف

٣ - القذف الداخلي - بتوجيه الحيوانات المنوية الى المثانة بأغلاق قناة مجرى البول بالضغط عليها بالإصبع عند القذف
(Coitus Saxonicus)

٤ - طريقة الإسفنجة - ويمارسها كبار السن من الأزواج باستعمال إسفنجة مبللة بمواد قاتلة للحيوانات المنوية أو بالصابون أو الزيت .

٥ - كيس البلاستيك - يوضع في قناة مجرى البول للرجل لتلقى الحيوانات المنوية ، ومببه أنه يسبب التهابات موضعية .

٦ - رفع حرارة كيس الصفن - على أساس أنه بارتفاع درجة حرارة الخصية تتوقف عن إفراز الحيوانات المنوية ولكن هذه الطريقة تحت الاختبار وغير مؤكدة عمليا .

٧ - فترة الأمان - Safe Period وفيه يحسب الزوجان الجماع أثناء فترة نزول البويضة في الدورة الشهرية وهي نظريا تقع حول منتصف الدورة أي في اليوم ١٤ في دورة من ٢٨ يوما ويحدد وقت الجماع بالفترة المباشرة للعادة الشهرية أو قبلها بقليل (فترة

٢ - في حالات الجماع المتبادل والمتفرق كسفر الزوج لمدة طويلة متصلة كما في حالات البحارة والجنود وأشباههم .

٣ - قد تستعمل في بعض الحالات العاجلة (الجماع المفاجيء مثلا) أو لعدم تمكن السيدة من مراجعة مبادئ تحديد النسل ، أو لكراهيتها للوسائل الأخرى .

٤ - وقد تستعمل كمائل فائز مساعد كان تنسى السيدة قرصا من أقراص منع الحمل أو اكتشفت غياب اللولب الرحمي من الرحم في هذه الحالة يلجأ الزوجان لهذه الوسائل مؤقتا لحين مراجعة مركز تحديد النسل .

ومن واجب الأطباء دائما ألا يقللوا من شأن هذه الوسائل لأن ذلك قد يجعل الزوجين يهيمون عن استعمالها في بعض الحالات الطارئة مما قد يعرض المرأة للحمل . ويجب أن يكون جميع الأطباء العاملين في مراكز تحديد النسل على علم تام بهذه الوسائل ليستطيعوا إفادة مرضاهم وأرشادهم على الطريقة الصحيحة لاستعمالها . وجدير بالذكر أن استنباط وسائل منع الحمل المتعددة الأغراض كمضادة للأمراض التناسلية والالتهابات المهبلي بجانب الفرض الرئيسي لمنع الحمل قد يؤدي إلى زيادة العناية في تطوير وتحسين الوسائل المهبلي الحالية التي تستعمل في منع الحمل . كما أن المزيد من النساء ما زلن يفضلن استعمال وسائل منع الحمل البسيطة السهلة المأمونة بالرغم من إباحة الإجهاض في معظم بلدان العالم الآن .

وسائل منع الحمل الثانوية

١ - الفسول المهبلي - معروف منذ القدم وذلك بفضل قناتة المهبل مباشرة بعد الجماع وهي منتشرة في الولايات المتحدة أكثر منها في إنجلترا ويستعمل عادة المحاليل المنزلية مثل

٢ - استئصال الرحم (Hysterectomy)

وغالبا ما يستأصل الرحم لاسباب مرضية اساسية كتراخي وسقوط جدران المهبل وعضلات الحوض مع ما يصاحبه من سقوط للرحم والمثانة . ومن الناحية النظرية يعتبر الوسيلة المثلى لمنع الحمل برحم ما يصاحبه من مخاطر جراحية مرتفعة - وخاصة في النساء المتجيبات لعدة مرات حول سن الثلاثين حيث تكون عوارض الارتخاء العضلي ومضاعفاته هي شغل المرأة الشاغل فهو يؤمن لها الوسيلة الكاملة لمنع الحمل بالاغافة الى علاجها وخفاتها من مضاعفات الارتخاء الحوضي ومنع امراض الرحم في المستقبل ، وايضا هي الحل النهائي عند ظهور بعض المضاعفات بعد عمليات التعقيم بواسطة ربط الابواق والتي تبلغ حوالي ٥٠٪ من طرق علاج هذه المضاعفات (أى يستأصل الرحم في ٥٠٪ من حالات مضاعفات ربط الابواق) ومنع ذلك فما زال الاتجاه حتى الان - هو الى عدم اللجوء لهذه العملية الخطيرة بفرض منع الحمل والتعقيم فقط . وهذه العملية تجرى اما عن طريق البطن او المهبل (Vaginal)

٣ - الاشعاع

بواسطة الراديوم او الاشعة السينية الميعة وهذه الطريقة تؤدي الى حالة تشبه سن اليأس ولكن بطريقة صناعية وهذه تؤدي الى التعقيم ولكن تحمل في طياتها خطر التحول السرطاني وليس لها مكان في حقل التخطيط الامرى الان .

ب - التعقيم في الذكر

١ - ربط وقطع العنبر المنوي (Vasectomy)

وهذه شائعة في الهند وتعتبر الوسيلة الاكثر ذيوما في منع الحمل وتحديد النسل في هذا البلد ذي العدد السكاني الهائل .

الامان هي اربعة ايام الحيض و٣ ايام بعده وتسعة ايام قبله . (وفي الدورات الشهرية الاقصى تقصر فترة الامان تبعا لذلك .

ونسبة الحمل في هذه الطريقة يصل من ١ - ٢٥ - ٣٥ حملا لكل مائة سنة تعرض وهي نسبة عالية سببها ان وقت التبويض يختلف من سيده لآخرى ومن دورة لآخرى حتى ولو كانت منتظمة .

رابعا : اتساع حقل منع الحمل ليشمل

١ - التعقيم Sterilization

٢ - الاجهاض المتعمد (Induced Abortion) Sterilization (التعقيم)

التعقيم البشرى هو الخطوة النهائية لمنع الحمل بطريقة فعالة ، وفي السنوات الاخيرة اخلد التعقيم يلعب دورا رئيسيا في برامج منع الحمل في كثير من بلدان العالم . فهو مباح قانونيا في جميع انحاء الولايات المتحدة (في الخمسين ولاية) ولا يشترط الا موافقة المريضة والجراح على اجراء هذه العملية الجراحية شأنها في ذلك شأن العمليات الجراحية العادية والاختيارية (Elective) والتعقيم هو الوسيلة الوحيدة التي تدمر قدرة الفرد ووظيفة الطبيعة في الانجاب والتوليد Reproductive Function وهو يطبق على الذكر والانثى على السواء .

عمليات التعقيم الخاصة بالانثى

١ - ربط أو قطع اجزاء من بوق فالوب أو استئصال البوق كله . وهذه العمليات تجرى اما عن طريق البطن أو المهبل أو المنظار البطني (Laparoscope) وهي احدث واسرع الوسائل المتبعة الآن ، ونسبة الحمل لا تتجاوز (١ / ١٠٠٠) .

٤ - الاضطرابات النفسية - الناجمة من الشعور بالندم أو الاحساس بعدم الرضا ، أو الاعراض الأكثر شدة كالشعور بالنقص والضعف العام والضياع والتمزق ، فهذه الاعراض تكون أوضح بين المرضى المصابين من الاصل قبل اجراء العملية ولديهم اعتماد مرضي لمثل هذه الاضطرابات . كما تكون أوضح اذا أجريت بسبب طبي قاهر كمرض خطير يجبر المرأة على اجراء هذه العملية وتكون أقل في الحالات التي تطلب الرخصة اجرامها من طبييها بسبب كبر حجم عائلتها ، والتعقيم سلاح قوي وخطير في يد كل من الرجل والمرأة اذا قصدا ابداء نفسيهما أو شريهما .

ويختلف رد الفعل في المرأة من الرجل ، فني المرأة تزداد رعايتها وتعاطفها مع أولادها وقد تتخذ موقفا عدائيا من العلاقات الزوجية (الجنسية) وربما تشعر بالطمث القلم ، وبالنسبة للرجال فقد يتولد لديهم الخوف من العنة (Importence) ولكن سرعان ما يتعود الرجل الطبيعي على ذلك ويتكيف مع الوضع الجديد .

ومن اسباب القلق لدى الزوجين بعد عملية التعقيم هو الخوف من فقدان الاطفال بسبب الوفاة أو اتجاه احد الشريكين للزواج من جديد لفرض الانجاب . وهذه هوارش مؤقته يطفى عليها الشعور بالراحة والامان والتخلص من عقدة الحمل الغير مرغوب مما يزيد في ترابط الزوجين ويقلل من فرص الخيانة الزوجية بسبب الاشباع والارتواء .

٥ - الفشل - جميع القنوات في الجسم بما فيها قنوات فالوب والحبل المنوي عرضة لان يفتح مجراها من جديد ، ونسبة الحمل بعد ربط الابواب تتراوح من $\frac{1}{4}$ - $\frac{1}{10}$ ويعتمد على نوع العملية المختارة وطريقة ووقت اجرائها .

٢ - استئصال الخصيتين (فكرة غير مقبولة على جميع المستويات)

وعموما فان فكرة التعقيم في الذكر لها مؤيدون ومعارضون ، ومعارضوها يستندون الى كونها لا تؤدي في النهاية الى تخفيض عدد السكان ، حيث انه من المستحيل عمليا تعقيم الرجال في مجتمع حديث - مثل الذي نعيش فيه الآن حيث يتوافر وبياح فيه الاتصال الجنسي بكل الطرق - سوف يكفي للحفاظ على عدد السكان ، اما المؤيدون قانهم يجادلونه على اساس انه وسيلة بسيطة وامانة للمواقب جراحيا مما يؤهلها لتكون طريقة فعالة في منع الحمل .

الاعراض الجانبية لعمليات التعقيم

(لا تؤدي الى اية امراض في معظم الحالات)

١ - ازدياد الطمث (Monorrhagia) قد تصاحب ربط الابواق وقد استندى استئصال الرحم في ١٠٪ من حالات ربط الابواق لاسباب متفرقة .

٢ - بعد ربط الحبل المنوي لوحظ ارتفاع طفيف في نسبة مضادات الحيوانات المنوية في الدم ، ولكن افراز الحيوانات المنوية أو الهرمونات الجنسية لم يتأثر بعملية الربط ، وظل على معدله الطبيعي في الجسم .

٣ - المخاطر الجراحية -

معدل الوفاة بعد هذه العمليات منخفض جدا حتى يكاد يعدم في بعض المراكز ويقل من ١/١٠٠٠ ، علما بان الكثير من عمليات ربط الابواق يجري على مريضات بالقلب أو الرئتين مما يجعل الحمل ايضا شيئا وخطرا بالنسبة لهن وهنا تتوازي المخاطران ، وسبب الوفاة قد يكون الخدر أو الانتهايات.

إعادة الخصوبة بعد عمليات التعقيم

صعبة ونتائجها غير مشجعة وتعتمد على مهارة الجراح وخبرته والطريقة التي يتبعها ، وأولا وقبل كل شيء على نوع العملية التي أجريت أصلا للتعقيم .

٢ - دور الإجهاض في برامج منع الحمل

(Abortion)

ان ارتفاع نسبة الإجهاض في المجتمعات الغربية الآن دليل واضح على انه لا توجد طريقة واحدة فعالة بنسبة ١٠٠ ٪ لمنع الحمل ، وقد قدرت تقارير لجنة الخصوبة الاهلية الامريكاني في الخمس سنوات المنتهية عام ١٩٧٠ بان حوالي ٢١/٤ مليون طفل ولدوا على غير رغبة والديهم وبسبب فشل وسائل منع الحمل .

ومن المعروف ان الجنين عندما يبلغ مرحلة النضج القارونية (٢٨ اسبوعا) فان جميع القوانين تصميه وتضمن له البقاء حتى الولادة .

ولكن الامر يختلف بالنسبة لجنين في الاسابيع الاولى ، فبالرغم من ان الإجهاض كان يعتبر امرا محرما من أيام **ابو قراط** حتى ميثاق جنيف ، ويجب قصره فقط على الاسباب الطبية البحتة الا ان القوانين التي سنت في معظم بلدان العالم مؤخرا أصبحت أكثر اتساعا وفضفضة بالنسبة لتنفيذ الإجهاض ، بل قد ايجح كلية في بعض البلاد (كالإيابان مثلا) وإباحة الإجهاض يعتمد على الحجج الآتية :-

١ - إلغاء الإجهاض الاجرامي .

٢ - رفع الابعاء المالية والاقتصادية عن كاهل المرأة غير المتزوجة التي تسببها ولادة طفل غير شرعي لها .

٣ - تجنب ولادة اطفال غير مرغوب فيهم مما يؤدي الى اعمال ذريهم لم .

٤ - تخفيض عدد الاطفال غير الشرعيين في المجتمع .

٥ - اباحة وسيلة اضافة من وسائل منع الحمل والتخطيط الاسري .

ولكن حتى الان ما زال هناك جماعات متدنية تعارض الإجهاض وتعتبره وسيلة لا اخلاقية غير مقبولة وما زالت هناك (بحمد الله) الكثير من البلدان التي تمنع الإجهاض بقوة القانون أو تبيحه فقط في حالات الضرورة الطبية . وبذلك انقسم العالم الى ثلاثة اجزاء بالنسبة للإجهاض .

١ - قسم يحرمه الا في الحدود الطبية الضيقة .

ب - قسم يوسع الاباحة الطبية لتكون اشمل واعم .

ج - قسم يبيح الإجهاض على أساس اجتماعية واقتصادية .

الوسائل المتبعة في الإجهاض التاميد

(Induced Abortion) ومضامفاتها :

التحريض الطبي / توسيع عنق الرحم / زرع مواد غريبة في الرحم / توسيع وكحت الرحم / الشفط والكحت / تفرغ المسالك الاميتيوس من طريقة البطن / حقن مواد فعالة في السائل المنيوس / المعالج المجهضة / عقار البروستا جلاندين الحديث / فتح الرحم مهبليا او بطنيا / استئصال الرحم ، نسبة الوفاة ١٠٠٠/١ - **المضاعفات** - النزيف والصدمة العصبية - بقاء حمل يحتاج لاعادة العملية - تمزق عنق الرحم - خرق وانفجار الرحم - الالتئاب - انسداد الشرايين - اضطرابات عصبية بعد مدة من اجراء العملية - مضاعفات متأخرة كالاضطرابات الحوضية ، والعقم (= ١ - ٢ ٪ من الحالات) - الإجهاض

منع الحمل

سوما، وفي بعض أنواع التهابات تلك المسببه بواسطة الفطر المسمى *Trichomonas Vaginalis* يجب معالجة الزوج في نفس الوقت لانتقال المرض بواسطة الجماع ويمكن اعتباره نوعا من الأمراض التناسلية .

التقرحات الموجودة في عنق الرحم
Cervical erosions
والتهابات عنق
الرحم يجب علاجها ، كذلك يستأصل أى ورم
عنقودى به Cervical polyp

ب - الأمراض التناسلية V.D. - - - - -
كل حالة يثبت أو يشتبه في كونها مرضا
تناسليا في المركز التخصصي لذلك حيث تتوفر
الخبرة والمهارة اللازمة للعلاج الكامل الناجع ،
لأن العلاج الناقص على يد غير متخصص له
نتائج خطيرة على المريضة وعلى المجتمع .

ج - حالات أخرى - - - - -
النساء فحص المريضة أو من خلال تاريخها
المرض ، وفي هذه الحالة تعال المريضة للمكان
التخصص في علاج تلك الحالات سواء كانت
تشوها خلقيا أو حتى وربما سرطانيا . وبعد
الولادة تستكشف رغبة المرأة في تحديد النسل ،
تأهم غرض في رعاية ما بعد الولادة Post.
Natal Care

٢ - الطب الوقائي

حسن توقيت الفحص الدوري والتابعة
للحالات التي تتعاطى وسائل منع الحمل المختلفة
يشكل جزءا هاما من الطب الوقائي . ولكن لا
يجب أن يكون ذلك بطريقة تسبب قلقا أو
ازعاجا للمرأة . وذلك ينطبق على اقراص منع
الحمل فطالما قد استقرت المرأة وارتاحت مع
نوع معين من الاقراص فلا داعي لتبعتها على
فترات متقاربة لمدة طويلة ، فمن العلوم أن
الجلطات الدموية والانسداد الشرياني لا يمكن
التنبؤ بها - كما أن زيادة وزن الجسم من

- انفجار الرحم - الحمل خارج الرحم -
مضاعفات حامل روسوس/مضاعفات خاصة
بعنق الرحم كالنصور والتشوهات والالتهابات
للرئتين .

وسائل الاجهاض الاجرامي ومضاعفاته

(Criminal)

حقن الماء والصابون أو الديتول في الرحم -
تعاطي اقراص الحديد والكنين والارجوت
المضاعفات : كالنزيف - السداد الشرايين
الهوائي أو السائي - سيولة الدم - خرق
الرحم - التلوث الميكروبي والالتهابات وخاصة
بالميكروبات اللاهوائية - العقم - التسمم -
الوفاة - ونسبة الوفاة بسبب الاجهاض
الاجرامي هي ضعف نسبتها بسبب الولادة
العادية .

والاجهاض موعدا يشكل ١/٢ من جميع
الوقيات في المجتمع .



الجوانب الطبية لوسائل منع الحمل

ان الطبيب الذي يشرف على تنفيذ برامج
الحمل ويشترك فيها سوف تقابله بالضرورة
كثير من الحالات ذات الحالات الممتدة . فهو
سوف يصادف حالات مختلفة من امراض
النساء ، كما سيبدلي بدونه في حقل الطب
الوقائي وقد يجد نفسه مضطرا لحل كثير من
مشاكل الزواج والجنس وحيانا الطب
الاجتماعي Social Medicine .

١ - امراض النساء

١ - الحمل وعنق الرحم - يجب البدء في
معالجة اية التهابات فطرية أو ميكروبية قبل
استعمال اقراص منع الحمل لأنها قد تزيد

يليه في الأهمية الاضطرابات العيضية المختلفة للمرأة الناتجة عن التغيرات البيئية أو النفسية أو اضطرابات الفضة الدرقية أو بعض الاضطرابات .

هذه الحالة قد تصادف الطبيب الذي يشرف على وسائل منع الحمل وعليه يقع عبء الوصول للتشخيص الصحيح قبل أن يصف الوسيلة اللازمة لمنع الحمل، وهذا يتم بالفحص الكلينيكي أو بواسطة اختبارات الحمل المختلفة أو بظهور أعراض الحمل المبكرة . واختبارات الحمل الحديثة تصدق في حوالي ٩٥٪ من الحالات ويجب إجراؤها إذا اشبه في الحمل ولا يجب وصف أى طريقة لمنع الحمل قبل استبعاد الحمل .

٤ - مشاكل الجنس والزواج .

قد يجد الطبيب نفسه مضطراً للدخول في مشاكل الجنس والزواج التي تعترض سبيل الزوجين اللذين لجأ إليه لتلقى النصيحة بخصوص منع الحمل طبياً في حدود طاقته العلمية وإمكاناته وتداخل هذه المشاكل في هدفه الأساسي في تحديد النسل ووصف الطريقة المناسبة لمنع الحمل ، ويراض جانب الحذر في تناول هذه المشكلات، وهناك مشكلة غير المتزوجات والتي تبحث وتناقش بحرية أكثر في المجتمعات الغربية المتقدمة بخلاف مجتمعنا الشرقي المحافظ المتقلبة على هذه المشاكل ، ونادراً ما تصل إلى مراكز تحديد النسل التي لا تقدم العون إلا للمتزوجات .

٥ - مشاكل المقسم

قد يجد الزوجان نفسيهما عاجزين عن الانجاب بعد التوقف عن استعمال موانع الحمل المختلفة التي استعملوها بصورة مستديمة في السنوات الأولى للزواج وربما تستقر بهما الحياة ويتبعان لانجاب الأطفال - مثل هذه المشاكل قد يجابهها الأطباء بين قلة من الأزواج،

الحذ المقول سوف يدفع بالمرأة لراجعة طبيبها لاستشارته وبديل نوع الاقراص ، أما مع اللولب الرحمي فالوضع يختلف فيجب إعادة فحص المرأة دورياً على فترات متباعدة بعد تركيب اللولب للأطمئنان على ثباته في موضعه أو لازالته واستبداله بوسيلة أخرى في حالة المضاعفات التي قد يسببها .

لذا فيمكن أن تراجع المرأة التي تستعمل اقراص منع الحمل مرة كل ٦ شهور، والأفضل مرة كل سنة - وفي كل مرة تأخذ عينات من خلايا المهبل ومنتق الرحم ويفحص الثدي بدون الآلة شكوك المرأة . ولكن مثل هذه الاحتياطات الوقائية واجبة . فمن العلوم أن حوالي ثلث حالات الوفاة في النساء ما بين ١٥ - ٤٤ سنة من العمر تسببها الأورام المختلفة Neoplasia ولا يجب أن تكون الأمراض الجانبية لوسائل منع الحمل سبباً لحطب الانتشاء بعيداً من الاحتياطات السليمة الواجب اتخاذها نحو التشخيص المبكر للأورام السرطانية ، فإن اكتشاف ورم صغير في الثدي أو الثور على خلايا مشبه فيها في منتق الرحم قد يؤدي إلى انتقال حياة مريضة .

ومن المعروف أن معدل الإصابة بسرطان منتق الرحم في مرحلته الأولى *in situ* يبلغ ذروته بعد ١٠ - ١٩ سنة من الجماع الأول ، فنسبة سرطان منتق الرحم المبدي Pro-Clinical تكون أقل من ٥.٠٪ في النساء ما بين ٢٠ - ٢٥ سنة من العمر وترفع هذه النسبة إلى ١٪ في النساء ما بين ٤٠ - ٤٥ سنة من العمر .

ولهذا ينصح بعمل فحوصات للنساء ما بين ٣٥ - ٦٠ سنة من العمر .

٦ - العمل المبكر وطرق تشخيصه :

إن من أهم أسباب الإكراه للعلاج للحبس في تنظيم عمل المرأة الطبية (سواء متزوجة أو غير متزوجة) هو الحمل .

في هذا البلد وأن يحتفظ لنفسه بسجلات واضحة مفصلة وخاصة لعمليات التعقيم والاجهاض الطبي التي أجراها .

في إنجلترا

تطورت قوانينها تجاه منع الحمل من قانون عام ١٨٥٧ الذي يمنحها الى قانون سنة ١٩٢٠ الذي يحددها الى قانون سنة ١٩٥٤ الذي يقيّد الاعلان عنها الى قانون سنة ١٩٦٧ الذي اباح جميع وسائل منع الحمل بما فيها الاجهاض على أسس اجتماعية ونفسية لأول مرة في بريطانيا .

ولكن قانون المهنة الطبية في إنجلترا مازال يشترط ان تكتب المادة الفعالة بشكل واضح على عتبة الدواء من الاحتياطات لحماية المستهلك .

في الولايات المتحدة

منذ عام ١٩٣٠ كان السائد في الولايات المتحدة هو قانون عام ١٨٧٣ الذي كان يقف موقفا عدائيا من وسائل منع الحمل . ولكن عدلت هذه القوانين تباعا حتى ابيحت هذه الوسائل . ويتحكم في توزيعها ويبيعها قوانين اتحادية عامة وقوانين خاصة بكل ولاية من ولاياتها الخمسين وتتفاوت هذه القوانين الخاصة بالولايات المتحدة في درجة اباحتها لممارسة هذه الوسائل ولكن كلها لا تدخل اطلاقا في حرية المهنة الطبية الكاملة في ممارسة وسائل منع الحمل .

ولكن هيئة الدواء والاغذية الامريكية تراقب باستمرار كل هذه الوسائل وتشتترط فيها شروطا معينة لضمان سلامتها وفعاليتها بالنسبة للشعب الأمريكي ، كما يكتب التحذير من بعض المضاعفات الجانبية على ظاهر العبوة بوضوح (كتجلط الدم) .

وهذا « العلم الاجباري » يختلف من المزم الاختياري الذي يتم بوسائل منع الحمل وينتهي بانتهاء استعمال هذه الوسائل .

وقد وجد ان ٥٠٪ من حالات المزم الاجباري سببها الزوجة .

و ٢٠٪ من الحالات يكون الزوج هو سببها .

و ٢٠٪ الباقية تكون المسؤولية مشتركة بين الزوجين وقد يحدث الحمل مع طرف آخر بالنسبة للزوجين .

هذا مرض سريع للجوانب المتعددة التي يجب اخذها في الاعتبار وحل مشكلاتها على قدر الاستطاعة قبل او اثناء أو بعد ممارسة منع الحمل .



النواحي القانونية لمنع الحمل

تأخذ القوانين المتبعة في كثير من بلدان العالم اتجاهها من ثلاث : —

١ — القيم الاجتماعية السائدة في الاجيال السابقة .

٢ — اتجاهات المجموعة الحاكمة في البلد .

٣ — اتجاهات تماشى مع الاحتياجات الحقيقية للجتمع .

وبالنسبة لوسائل منع الحمل فهذه الاتجاهات تنسحب عليها ايضا ، ولذا نجد ان الوسائل المتبعة ونظرة المجتمع تجاهها تختلف من دولة الى اخرى ، فالولايات المتحدة واوروبا الغربية تأخذ الاتجاه الاول ، اما الدول الاشتراكية في اوروبا وآسيا فتأخذ الاتجاه الثاني ، وبعض الدول النامية (كالهند واليابان) فتأخذ الاتجاه الثالث ، وعلى الطبيب الذي يمارس منع الحمل في بلد ما ان يتأكد من القوانين المتبعة

البلاد الأخرى

يباح منع الحمل في معظم دول العالم الآن ، ولكن تختلف درجة المشاركة الحكومية فيه من دولة لأخرى .

وسائل منع الحمل ولوائح الاحتكاك والامتناع .

من المؤسف ان كثيراً من وسائل منع الحمل تقع تحت طائلة الاحتكاك التجاري ، فمن المصروف ان تكلفة اللوازم الرحمية تبلغ ١ - ٢ ٪ فقط من ثمن بيعها للمستهلك ، لذلك لا يجب احتكاك هذه الأنواع ويجب ان تدخل الحكومات لتوفيرها مجاناً لكافة افراد الشعب على كل المستويات اذا اريد تحقيق الفائدة المرجوة منها .

التعليم الاختياري

بأسثناء الهند وبورتوريكو، حيث يباح ويشجع التعليم الاختياري بواسطة الحكومات المعنية فان القانون في جميع دول العالم يقف منها موقف غير محدد بالنسبة لعمليات التعليم التي كانت تجري في الاصل لاسباب طبية ثم ادخلت بعد ذلك كوسيلة من وسائل منع الحمل .

الاجهاض

- ابيح في إنجلترا عام ١٩٦٧ لاسباب غير الحفاظ على حياة المرأة .

- في الولايات المتحدة حتى عام ١٩٦٧ لم تكن هناك غير اربع ولايات تبيح الاجهاض لاسباب غير الحفاظ على حياة المرأة .

لم بدأت النظرة تتغير ولكن ما زالت تبيح الاجهاض في الحدود التالية : -

١ - اذا كان استمرار الحمل يضر بصحة او عقل الام .

٢ - اذا كان الطفل سيولد بمعجز خلقي شديد في جسمه او عقله .

٣ - اذا كان الحمل ناتجاً عن الاغتصاب Rape او الخديعة او الحيلة .

- أما في الدول الأخرى فما زال الاجهاض لغير الاسباب الطبية محرماً وممنوعاً بقوة القانون - كما في الدول العربية - ويمرود الزمن يردّد عدد الدول التي تبيح الاجهاض قانونياً استجابة للضغط المستمر على الحكومات لتغير هذه القوانين .

- البلاد العربية ودولة الكويت -

كل البلاد العربية ترفض اباحة الاجهاض قانوناً حتى الآن وتعتبره معارضة للشريعة الاسلامية التي تدين بها كل هذه الدول .

ففي الكويت على سبيل المثال تقضي المادة (١٧٤) من قانون الجزاء على توقيع عقوبة الحبس او الغرامة على كل من اجهاض حاملاً سواء برضاها او بغير رضاها كما تنص المادة (١٧٦) من نفس القانون على عقاب الحامل التي تجهض نفسها او سمحت للغير باجهاضها . وتعاقب المادة (١٧٧) كل من يتخذ من وسائل الاجهاض سلعة يتجر بها ، وتنص المادة ١٨ من القانون رقم ٣٣ لعام ١٩٦٠ بوجوب امتناع الاطباء من اي شيء من شأنه اجهاض امرأة حامل ويمتص من اجراء عمليات الاجهاض مهما كانت الظروف . ومع ذلك فقد اباح للطبيب المتخصص في امراض النساء والولادة ان يقوم بعملية الاجهاض اذا كان يعتقد لاسباب فنية ان هذه العملية ضرورية للحفاظ على حياة الحامل .

٤ - اباحت الشريعة الإسلامية المرأة ان تمتنع عن الحمل اذا كان يضر بجسمها ، وهناك آسانيد من السنة على ذلك ، ومن باب أولى ان تبيح لها أيضا الامتناع عن الحمل اذا كان يضر باقتصاد الأسرة او دخلها المحدود .

هذه الآراء الفقهية المختلفة ان دلت على شيء فانما تدل على الحاجة الملحة لعقد مؤتمر اسلامي جامع يشمل علماء المسلمين من كافة الانظار ومن مختلف الفرق والآراء لوضع بيان شامل موحد في موضوع منع الحمل .

وسائل منع الحمل الحديثة التي تستعمل الآن

١ - قيد الاستعمال الآن الاقراص التي تحتوي على هرمون البروجستوجين منفردا بدون الايستروجين لتجنب الآثار الجانبية الضارة التي يسببها الاخير (وأهمها اثره على تجلط الدم والانسدادات الشريانية) Minipill

والهرمون الفعال في هذه الامراض من مشتقات هرمون البروجستوجين مثل هرمون الميجيسترول $\frac{1}{4}$ مجم نورجستريسيل (٥.٥ و. مجم) او نورايثيرون (٥ و. - ٥.٥ و. مجم) وتؤخذ حبة واحدة يوميا باستمرار طيلة الدورة الشهرية وإلّا رها أساسا على الافراز المخاطي لمنق الرحم فيجعل له رجا لدرجة لا تسمح للحيوانات المنوية باختراقه .

٢ - تؤثر كذلك على الفشاء المخاطي الداخلي للرحم فلا يتأثر ولا يستجيب للبويضة الملقحة وليس لها تأثير على عملية التبويض . وقد ينتج من استعمالها حالات من الحمل خارج الرحم ولكن هذا نادر الحدوث .

كما ان النسيف المهبلي المتقطع أثناء الاستعمال شائع الحدوث (حوالي ٣٠ ٪ من

منع الحمل والشريعة الإسلامية

الفقهاء الذين يعارضون اخذ بوسائل منع الحمل يمتنعون على النصوص والأدلة الآتية : -

١ - النص القرآني الكريم « ولا تقتلوا اولادكم خشية املاق نحن نرزقكم وإياهم »

٢ - النص القرآني الكريم « رزقكم في السماء وما توعدون »

٣ - النص القرآني الكريم « وما من دابة في الارض الا على الله رزقها » .

٤ - الحديث النبوي الشريف « تناسلوا تكاثروا فاني مباه بكم الام يوم القيامة » .

٥ - سئل الرسول (صلعم) عن العزل فقال هو الواد الخفي .

أما الفقهاء الذين يؤيدون اخذ بوسائل منع الحمل (تحت ضغط الظروف الاجتماعية والاقتصادية) فهم يمتنعون على الآتي : -

١ - سئل الرسول (صلعم) عن العزل فلم يأمر به ولم ينه عنه .

٢ - وجاء رجل يسأل عن جارية له هل يعزل منها فأجابته « أمزل من الجارية وسوف يأتيها امر الله » . ومعنى هذا الحديث الشريف ان قضاء الله واقع سواء اخذ بوسائل منع الحمل أم لم يؤخذ . فهي لا تتعارض مع قضاء الله .

٣ - وأثر من علي بن ابي طالب كرم الله وجهه قوله « لو كان الفقر رجلا لقتلته » .

وكثرة العيال من أهم أسباب الفقر .

الجماع لتجنب الحمل . وقد وجهت الأبحاث التي كانت وما تزال تجرى - وجهتها نحو الحالات التي يراد منها تجنب الحمل بعد حدوث التعرض بإيجاد العامل أو العقار الذي يمكنه تدمير البويضة الملقحة أو يمنع زراعتها في الرحم ، وقد أجريت أبحاث على حيوانات التجارب بإعطاء جرعات كبيرة من هرمون الإستروجين يوميا لمدة ٤٥ يوم ، ولكن مثل هذه الجرعات الكبيرة تسبب القيء وفاعلية هذه الطريقة مشكوك في أمرها فلو لم يحدث الحمل ونزل دم الحيض عقب استعمالها فمن المستحيل معرفة السبب هل هو من الأقراص أو من الصدفة المحضة ، وإذا حدث الحمل قد يتأثر الجنين ويصاب بالضرر من هذه الجرعة الكبيرة من الهرمونات . ولكن مكانها الوحيد هي بعد عملية الإخصاب حيث يعطى على أمل وليس على ثقة من تدمير هذا الحمل .

٤ - مضادات الهرمونات Antihormones

الأبحاث مستمرة ولم تتوقف منذ سنوات عديدة لاكتشاف عقار - غير الهرمونات - يمنع عملية التبويض من المبيض ، وقد عثر حتى الآن على مضادات هرمونات الغدة النخامية LH - RH ، ومازالت تجرى التجارب حتى الآن على حيوانات الحامل في هذا الحقل .

٥ - المناعة الطبيعية واستغلالها

Immunological Methods

أمكن تدمير خلايا الخصية في الحيوانات بواسطة حقن مركبات خلاصة الخصية وبالتالي تدمير الحيوانات النوية . وهناك بعض الدلائل أن هذه النتائج يمكن الحصول عليها في الإنسان ولكنها غير عملية حتى الآن

الحالات Break through bleeding

وقد يصاحبه حالات من الطمث الشديد Menorrhagia هذا بالإضافة الى الأمراض الجانبية الخاصة بهرمون البروجستوجين سالفة الذكر . ونسبة الحمل مرتفعة من هذا النوع وتبلغ ٤ - ١٢/ امرأة في ١٠٠ سنة من الاستعمال وعلى الأقل ٢٪ نسبة فشل في العام .

١ - الهرمونات ممتدة المفعول HormonaDepots

لكي يتجنب الحمل الحاجة لتعاطي قرص كل يوم بديء في استعمال اقراص ذات مفعول يمتد على مدى شهر بإحتوائها على الهرمونات الممتدة المفعول . كهرمون كونيسترول ٢ مجم ، وهرمون كونيسترول ٥ مجم ولكن أوقف استعمال هذا النوع واستبدلت بأقراص تحتوي على هرمون البروجستوجين ممتد المفعول منفردا وهي تستعمل في الأماكن المتخلفة في العالم ويعطى بواسطة الحقن العضلي وتحتوى على جرعات كبيرة ١٥٠ - ٢٠٠ مجم من عدة مركبات من هذا الهرمون (طويلة الأثر) . هذه المركبات تسيطر على الحمل ولكن قد تسبب بعض النزيف المهبلي أثناء الاستعمال كما يذهب تماما بالدورة الشهرية وقد تسبب وقفا تاما للصادة الشهرية Amenorrhoea إذا استعملت برغم ظهور هذه الأمراض ، وأحسن وقت لاستعمالها هو لحماية المرأة في الثلاثة أشهر التي تعقب الولادة حيث لا يعم النزيف المهبلي وحتى تتمكن المرأة من استعمال وسيلة أخرى كالولاب مثلا ولتخفيف أثر الأقراص العادة على الرضاع .

٣ - قرص الصباح التالي Post Coital Pill

ويعني القرص الذي يؤخذ بعد عملية

الطريقة التي يجب التغلب عليها هي أنها تسبب ضعف الرغبة الجنسية أو فقدها أو تضخم الثدي في الرجل *Gynaecomastia* عند استعمال هرمون البرجسترون كذلك الخوف من المخاطر التي قد تمرض الجهاز القلبي الدوري للمضاعفات . ويرغم هذه المشكلات فقد ثبت أنه بالإمكان منع تكون الحيوانات المنوية مؤقتاً *Azoospermia* بواسطة التحكم في الهرمونات الغدة النخامية (نفس الفكرة المنبذة في اقراص منع الحمل للنساء) .

٣ - طريقة معاد هرمون الذكورة

بالفم أو بـإبر *Antiandrogen*

كبسولات تحت الجلد (أو في العضية نفسها):

هذه المركبات تمنع نضج الحيوانات المنوية في مجمع المني في الخصية *Epididymos* فلا تتحرك بطريقة طبيعية وتسبب بذلك العقم المؤقت من غير فقد للقدرة الجنسية . وتجري الأبحاث الآن على متطوعين يتعاطون هذه المواد بالفم يوميا .

٤ - ربط الحبل المنوي ربطاً مؤقتاً بواسطة

مشابك قابلة للقطع *Removable Clips*

وهذه يمكن استخراجها وإزالتها بعد انتهاء الحاجة إليها ، ولكن لم تتوصل الأبحاث إلى النوع المناسب من هذه المشابك .

٥ - إغلاق قناة الحبل المنوي بواسطة جسم

غريب -

وهذه الطريقة أجريت على حوالي ١٠٠ متطوع وكان نجاحها جزئياً حتى الآن وقد طورت هذه الطريقة بإدخال مواد غريبة نشطة

وقد تكون ضارة إذا كانت عملية التدمير هذه جزئية ولم تقض على كل الحيوانات المنوية (حيث تبلغ أعدادها بمئات الملايين) كما أن تجارب حقن المرأة بغلابة المني لتلقيحها باءت كلها بالفشل .

الأبحاث الحديثة والحاجة لتطوير وسائل منع

الحمل :

أن نسبة الإجهاض التمدد العالية ، بالإضافة إلى الأعداد الكبيرة من الحمل السهو والأطفال غير المرغوب فيهم الذين يقذف بهم إلى مجتمع معاد لهم كل عام بالملايين أثبتت أن الحاجة مازالت ملحة إلى وسيلة متكاملة حديثة لمنع الحمل بالرغم من وجود الأقراص والولب والطرق الأخرى ، وهذه الحاجة إلى تطوير الأبحاث وجهت انظار الباحثين إلى فهم أعمق وأكبر للعمليات الحويضية المعقدة المتصلة بوظيفة الإنجاب والتكاثر الإنساني .

طرق خاصة بالرجال :

١ - طريقة الهرمون المزوج المسادة للحيوانات المنوية - (يمنع تكوينها) وهي تعطى بالفم أو بالحقن أو بزرع كبسولات *Implants* تحت الجلد . وتعتمد هذه الطريقة على زرع هرمون الذكورة *Androgen* بواسطة كبسولات تحت الجلد يستمر تأثيرها على الجسم لمدة عام أو أكثر وهذا يساعد بواسطة حقن هرمون البروجستوجين أسبوعياً في نفس الوقت .

٢ - طريقة الهرمون الذي يحقن ثلاث مرات

في السنة :

وقد جرب في هذه الطريقة على الأقل ثلاثة أنواع من هرمون الذكورة ومشاكل هذه

٦ - القرص أو اللبوس الشهري الذي يسبب نزول الحيض

اكتبرت حتى الآن قلة من المركبات التي تعتبر من مضادات للجسم الأصفر Corpus Luteum الموجود في المبيض والإلام لعملية غرز البويضة في الرحم واستمرارها إذا حدث وجرى تلقيحها بعد عملية التبويض ، وهذه المركبات بعد أن توقف النشاط الهرموني للجسم الأصفر (الذي يفرز هرمون البروجسترون) تؤدي إلى نزول دم الحيض لفقدان الدم الذي يقوم به هذا الهرمون للبويضة الملقحة . ومن هذه المركبات مادة البروستاجلاندين Prostaglandin

التي يمكن أن تمتص من خلال جدران المهبل أو الشرج والذي يمكنه وقف نشاط الجسم الأصفر .

كما جرب هرمون البروجستوجين الصناعي في منتصف المادة الشهرية أو في الأسبوع الأخير منها لوقف إفراز هرمون البروجسترون الطبيعي . والأبحاث موجهة الآن نحو تطوير هذه الفكرة الجديدة التي تبشر بالنجاح والتي تحل مشاكل التعرض للمخاطر باستعمال هرمونات منع الحمل باستمرار .

٧ - الحبة الشهرية أو الحقنة أو اللبوس الشهري الذي يمنع التبويض

Ovulation

سبق الإشارة إليها .

٨ - الحبة الشهرية (أو الحقن أو اللبوس الهلبي) التي ينظم الدورة الشهرية ويحدد موعد التبويض بالضغط لتصحيح استعمال أقراص منع الحمل ، باستعمال مركبات الاخصاب ، ونتائج غير مشجعة ، أو استعمال

إلى داخل قناة الحمل المنوى تسبب تشوها في الحيوانات المنوية .

طرق خاصة بالنساء

١ - حقن هرمون البروجستين ممتد المفعول (سبق الإشارة إليه) .

٢ - زرع كبسولات هرمون بروجستين تحت الجلد (سبق الإشارة إليه) . من مدة تتراوح بين ٩ أشهر إلى سنة .

٣ - حلقة مهبلية تحتوي على هرمون البروجستين - وهذه الطريقة تعتمد على إمكانية امتصاص هذا الهرمون بواسطة الغشاء المبطن للمهبل .

٤ - الاعتماد على إمكانية امتصاص هرمونات منع الحمل من طريق الجلد وتوضع هذه الهرمونات في مركبات تلبس على هيئة سوار على المعصم ، ومشاكلها هو تصميم مركب يمتص بطريقة منتظمة من طريق الجلد .

٥ - لوابل رحمية أو عنق رحمية حديثة -

اجريت الأبحاث حتى الآن على سبعة أنواع من اللوابل الرحمية ونوع واحد من اللوابل العنق رحمية Cervical ، ومغظهما يعتمد على ادخال بعض المركبات المضادة للحيوانات المنوية في تركيب اللواب (كالنحاس ، وهرمون البروجستوجين ، أو مركب غير هرموني) واللواب الفحاسية ادخلت فعلا الآن ، أما الأخرى فما زالت قيد التجربة والبحث وخاصة تلك التي تحتوي على هرمون البروجسترون الذي يفرزه بانتظام ، ويكفيها مصوبة لمقعام كامل - ويبحث الآن في زرع أجسام غريبة تحتوي على مركبات مضادة للحيوانات المنوية وغير هرمونية - .

الغشاء الخارجى للشمية (Chorionic) (RGG) Gonadotrophin واللازم فى أساسيس العمل الاول لبقاء الجنين واستمراره . وبذلك يساعد على نزول دم الحيض فى موعده حتى ولو حدث ولقحت البويضة فى هذه الدورة ، ولكن لهذه الطريقة أيضا مشاكلها ومضاعفها .

من كل هذا نستنتج ان هناك ١٨ طريقة تحت الاختبار لمنع الحمل خمسة منها تختص بالرجال والباقي (١٣) طريقة تختص بالنساء ، وهذه الطرق الثماني عشرة تمثل الأمل فى استنباط وسيلة جديدة لمنع الحمل فى المستقبل القريب تكون أكثر فعالية وأكثر أمانا من سابقتها .


ما هي الطريقة المثلى لمنع الحمل :

- اختيار النوع المناسب يعتمد على الزوجين نفسيهما فى المقام الاول .

- الفلاف الذكري + مضاد الحيوانات المنوية يعتبر الوسيلة المناسبة فى اشهر الزواج الاول لكثير من الأزواج .

- اذا توفرت القدرة المالية فتكون اقراص منع الحمل المزدوجة هي الوسيلة المناسبة فى حالة موافقتها للصحة العامة للمرأة .

- فى سن ٣٥ وما فوق يوصى بمماريات التعقيم لتجنب المراقضاطر الاستعمال الطويل المستمر للهرمونات وهي فى هذه السن المتأخرة وخاصة اذا كانت قد انجبت ما تشاء من اطفال .

- وبالنسبة للزوجات اللاهيات (لا يتحملن المسئولية) والجابلات واللاتى لا يهمن ان تكون وسيلة المنع مضبوطة مائة فى المائة ، فيمكنهن استعمال اللولب الرحمي  انواع

الواد المنبهة لهرمون الغدة النخامية المعروف باسم LRF والذي يمكن من طريقه التحكم فى عملية التبويض . كما تجرى الابحاث لاستنباط مركبات مقارنة لها Analogue لها القدرة على اتمام عملية التبويض بدون بويضة Anovulatory كطرق مناسبة لمنع الحمل .

٩ - حبة ما بعد الجماع Post coital

سبق الإشارة إليها .

١٠ - الحبة الاسبوعية التي توقف نمو الغشاء

البطن للرحم

ولكن وجد ان نسبة العمل مرتفعة كما يصاحبها اضطرابات نزفية .

١١ - المجهضات الكيميائية

باستعمال مركبات البروستاجلاندين او قرانها المشابهة فى الثلاثة اشهر الاولى من الحمل بفرض الاجهاض ولكن نتائجها مخيبة للأمال وغير مشجعة فى الوقت الحالى . ولكن تستعمل هذه المادة الآن فى المستشفيات كعامل مساعد على الانقباضات الرحمية فى حالات الانهاء المتأخر للحمل . كما استعملت المقارنات المضادة للسرطان كقاتلة للجنين والمشيمة فى اشهر الحمل الاولى .

١٢ - تعتبر الآن طرق لغلاق فتحات قناة فالوب من طريق الرحم بواسطة الكي الكهربائى (باستعمال منظار الرحم) او حقن سوائل كيميائية قوية المفعول تلتقى هذه الفتحات ، واذا نجحت هذه الطرق فسوف تحل مشكلة شغل الاسرة فى المستشفيات لغرض التعقيم بالطرق التقليدية .

١٣ - احدث مناعة فى جسم المرأة بتنبية اجسام مضادة Antibodies لهرمون

الحساسية اوتاع العمل الوضعية Allergy

قد تتولد بعض الحساسية - في اى من الشريكين - من بعض الوسائل المطاطية او الكيميائية - وتشمل في النساء على التهابات مهبلية كيميائية ، والتهابات قناة مجرى البول، والتهابات المثانة التي قد تكون من الشدة لتسبب البول المدم Haematuria وارتفاع درجة الحرارة والامراض الاكلينيكية العامة Systemic وفي حالة حدوث هذه الاعراض فتغير وتبدل الانواع المستعملة حتى يمكن الاهتمام الى نوع معين لا يسبب هذه الحساسية ، او تغير الوسيلة كلية الى وسيلة اخرى غير موضعية اذا كان ذلك ممكنا .

هرمون البروجستوجين ممتدة المفعول Depot كوسيلة فعالة على المدى القصير .

- اما بالنسبة للنساء اللدكيات المتعلقات اللاتي لا يتحملن اقراص منع الحمل ولا يردن اللولب الرحمي فيمكنهن استعمال الحاجز المهبلي + مضاد الحيوانات المنوية حيث ان فعاليته عالية وليس له اى امراض جانبية شريطة ان تحسن تركيبه واستعماله .

- اما باقى الطرق الاخرى فهي اما غير فعالة الى حد كبير ، او تحدد او تؤثر في عملية الجماع التي هي اساس السمادة والاستقرار الزوجي .



المراجع

- (1) ANN B. MSNAUGHT & Robin CaALLANDER, Illustrated Physiology, 3d. Edition 1975.
- (2) TNA JEFF COATE, Principles of Gynoscology & Obstetrics, 4th Edition 1975.
- (3) Clinical Obstetrics & Gynoeccology, American Medical Magazine (New York No. March 1974).
- (4) TEXT Book of Contraceptive Practice By John Peel & Malcolm Potts (1975).

★ ★ ★

صورة الاسلام والمسلمين في الأدب الغربي حتى القرن الثامن عشر

محمد عمر بنعور

البلاد الإسلامية كلها تقريباً تحت السيطرة الغربية . لذا فقد كان اختياره لموضوع مثل « الاتجاهات الغربية نحو الإسلام » في تلك السنة بحاجة إلى تبرير ، لأن العالم كان « مشغولاً بأمور أشد خطراً من المذهب المحدث » .^(١) وقد ذكر بولدوين مستعميه بأن « العالم المسيحي ، أو أجزاء هامة منه

في الاجتماع السنوي الثاني والعشرين للجمعية الأمريكية الكاثوليكية التاريخية ، الذي عقد عام ١٩٤١ ، ألقى مارشال و . بولدوين ، يوصفه رئيس الجمعية ، خطاباً جاء فيه قوله : أن الغرب ما عاد ينظر إلى الإسلام باعتباره خطراً على الحضارة . وهو في ذلك إنما كان يصف وضعاً حديثاً كانت فيه

* انتهى الكتابات الغربية عن الإسلام والكثير من الإقراعات وسوء الفهم وسوء الفهم . ومن حق المسلمين أن يعرفوا ما قال عنهم وعن دينهم وعن نبيهم - وهو الموضوع الذي يتابعه هذا المقال - التصحيح .

1. Marshall W. Baldwin, "Western Attitudes toward Islam," The Catholic Historical Review, 28 (1942), 403.

الأمر بالإسلام حتى بدأ يثق أبواب أوروبا نفسها ، ويؤسس موطيء قدم قوى هناك كان من المحتمل دائما أن يستعمله من أجل فتوحات أخرى . وعندما فتحت قوة المسلمين في اسبانيا ظهر خطر أعظم هو الخطر العثماني الذي بدأ يهدد الغرب من جهته الشرقية . وفي تلك الأثناء كانت الحملة الصليبية الغربية لاستعادة بعض المناطق التي خسرتها المسيحية للإسلام قد فشلت في أن تحقق الكثير سواء من الناحية العسكرية أو التبشيرية .

واضح إذن أن تاريخ الصلات بين الشرق المسلم والغرب المسيحي تاريخ ملاته العداوة المستديرة والشك المتبادل في النوايا . لذا فإن من غير المستغرب أن تكون الصورة التي كونها الغرب عن الإسلام والمسلمين صورة مشوهة لم تتضح معالمها إلا ببطء شديد خلال القرنين الأخيرين مع تقدم الروح العلمية الحديثة وزوال التطرف الديني . وأصول هذه الصورة تعود إلى المصور الوسطى حين كان الإسلام هدفا للكثير من الكتابات الجدلية ، بينما ملأ المسلمون - تحت اسم السراسينيين قصص وملاحم تلك الفترة .

لقد ظلت استراتيجية المجادلين المسيحيين الذين تباينوا أشد التباين في درجات معرفتهم بالإسلام هي نفسها حتى وقت متأخر نسبيا: كان مهمهم أن ينفذوا الإسلام باستعمال عدد قليل من الانتقادات التقليدية ، دون الخوض بالسؤال الكبرى كمسألة وحدانية ، وبسبب ذلك نابع من طبيعة المشكلة . فكما لاحظ نورمان دانيل في دراسته الممتازة عن الموضوع: « ظلت النقاط التي يختلف فيها الإسلام مع

على الأقل ، ظلت تواجه خطر عالم إسلامي معاد لفترة تقرب من الألف سنة تمتد من تاريخ وفاة النبي عام ٦٣٢ حتى تاريخ انهيار آخر هجوم عثماني أمام فيينا عام ١٦٨٣ . » ثم أضاف « أن الإسلام كان الدين الوحيد الذي جاء عقب المسيحية وهزم منها مناطق شاسعة ، وكبدها هزائم عسكرية كبرى (١) »

إذن كانت النظرة التي نظر بها الغرب للشرق الإسلامي منذ البداية وحتى عام ١٦٨٣ ، أو - كما يفضل بعض المؤرخين (٢) - ١٦٩٩ ، سنة إبرام معاهدة كارلويتس ، نظرة عداوة دفاعي في البداية تحولت إلى عداوة هجومي فيما بعد . إن العداوة يولد التحامل ، والتحامل يولد الجهل . لذا فإن تلك الروح الخلقة التي دفعت ، إبان قوتها وهنقوتها ، بالغرب البدو من صحرائهم ليشتدوا مدينة شاسعة خلال فترة مدحشة القصر ظلت غير مفهومة من قبل الغرب المسيحي . وأسباب عدم الفهم هذا ليست بعيدة المنال . فكما قال مريدث جونز : « استند المفهوم الغربي للعهد وتعاليمه على المصادر الأدبية لا على الملاحظة المباشرة الفعلية للمسلمين . . . وقد استمد الكتاب من أمثال ماثيو باريس معلوماتهم من مصادر ثانوية مفعورة ، فكانت النتيجة مزيجاً من قدر ضئيل من الحقيقة وقدر كبير من الخيالات ذات الصبغة التحاملية جدا . » (٣) وقد جاء بهذه المصادر في أغلبها المسيحيون الشرقيون الذين كانوا يهرون من أمام الجيوش الإسلامية المتقدمة في كثير من الجبهات ، والذين كانت تنتمهم معتقداتهم الدينية من تصور صورة صحيحة من الإسلام ، ناهيك عن نقل مثل تلك الصورة لمسيحيين الغرب . ثم أنه لم يطل

2. Ibid. 1

3. Paul Coles, *The Ottoman Impact on Europe* (New York : Harcourt, Brace, and World, 1998), p. 160.

4. C. Meredith Jones, "The Conventional Saracen of the Songs of Geste," *Speculum*, 17 (1942), 202.

النتائج ، ويوجه الخيال فيه الى جمهور يبدو لنا اليوم مفرطاً في السذاجة .

واذا ما بدأنا بالجانب الذي يعتمد على بعض الأصول التاريخية وجدنا أن المجادلين من امثال ماثيو بارس وسان بيدرو باسكوال وكتاب ما يسمى بـ « المجموعة الكونية » (١) مالوا لأن يأخذوا بعض الأحداث في حياة محمد من أجل أن يشككوا بأهليته للنبوّة . فقد شدوا على وثنيته قبل ادعائه النبوة مستندين — فيما يبدو — على رواية تقول أنه في شبابه قد ضحى بنعجة بيضاء للعرى . (٢) وأكدوا أنه كان يعاني من الصرع ، وأنه أدمى أن جبريل يزوره أثناء « النوبات » ليخفي مرضه . ورووا قصص زيجاته المتعددة بأسهاب ، واستنتجوا منها أنه كان عبداً لحواسه (مما يتناقض مع روحانية المسيح) ، وأنه لذلك لا يصلح للنبوّة ، وأنه كان دجالاً لأنه لم يتم بعمل معجزات ، ولم يتنبأ بأحداث المستقبل مثلما فعل أنبياء التوراة .

كل هذه النقاط لها أصول تاريخية ولهم ان تفسرها غير صحيح في كل الحالات — على الأقل من وجهة النظر الإسلامية . لنأخذ مسألة الصرع مثلاً . أدمى محمد ، وآمن المسلمون ، أنه خلال تلك « الحالات » التي سمحوا نوبات صرع كان يتلقى الوحي . والشك في ادعاء محمد وقبول التفسير المسيحي يقتضي الإيمان بأن شخصاً مصاباً بالصرع يمكنه أن يؤلف خلال النوبات التي استمرت مدة طولها ثلاث وعشرون سنة كتاباً كاملاً له من الاتساق الفكري والروعة الأسلوبية المتبصفت

المسيحية هي هي ، لذا فقد مال المسيحيون دائماً الى أن يثيروا نفس الانتقادات . وحتى حين حاول بعض الكتاب في العصر الحديث نسبياً أن يتحرروا من الاتجاهات المسيحية فانهم — عموماً — لم يحققوا من النجاح بقدر ما توهموا . » (٣)

ان بعض النقاط التي أثرت ضد الاسلام يمكن — جدلياً — أن نتوقعها من المسيحيين . فمثلاً لا بد أن يؤدي إيمان المسيحي بالوحي يسوع الى انكار أي ادعاء بمسك ذلك . والاسلام لا ينكر الوحي يسوع فحسب ، بل انه ينكر أنه صلب أيضاً ، مما يجعل الفكرة المسيحية من المخلص أو الفادي موضع شك بعد ذاتها . كذلك فإن اعتماد المسيحية على التبشير سبيلاً للانتشار يمكن — جدلياً — أن تثار ضد الاسلام الذي لم يتكبد من استعمال القوة لأسباب يحلو للمسيحيين اختزال الجانب الديني منها . (لكن هنا جعلت المسيحية من نفسها عرضة لنفس الانتقاد حين لجأت الى الحملة الصليبية العسكرية لفترة متناهرة القرنين .) كذلك فإن الكنيسة التي فرغت المزبوبة على رجالها تقليداً للسيد المسيح يمكن — جدلياً — أن تعترض على سماح الاسلام لأي مسلم بالزواج من أربع نساء في وقت واحد وعلى زواج النبي نفسه من أكثر من ذلك العدد .

لكن هذه النقاط وغيرها لم تكن إلا جزءاً يسيراً من الكتابات الجدلية ضد الاسلام التي بدأت بالظهور منذ العصور الوسطى . أما البقية فهي خليط عجيب من الحقائق والخيال ، نفس فيه الحقائق بشكل مفرض متسوق

5. Norman Daniel, *Islam and the West* (Edinburgh : Edinburgh Univ. Press, 1960), p. 1.

6. Daniej, pp. 365-408.

7. See Alfred Guillaume, *Islam* (Harmondsworth : Penguin Books, 1956), p. 8.

وتبرماجنث (أو تبر فاجنت) وإبولين ، وهو الثالث الذي قيل أن المسلمين يعيدونه نتيجة جهلهم . كذلك ادعى بعض الكتاب أن محمداً كان أحد أتباع هرطوق مسيحي يدعى سرجيوس هرب من البلاد المسيحية إلى شبه جزيرة العرب حيث ضل العرب البدو بمعونة محمد واليهود المحليين . كما أنهم كثيراً ما روى أن النبي دُوب حمامة لتأكل الحب من أذنه مقلدة بذلك الروح القدس (١٢) ، أو أنه دُوب ثورا أو عجلاً كي يأتيه عندما يأمره حاملاً القرآن على قرنيه . (١٣)

يمكننا أن نستنتج إذن ، وبدون أي حرج ، أن مجادلي تلك الفترة لم يرسوا صورة متسقة للإسلام ونبيه ، وأن الصورة التي رسوها فعلاً قاربت في الغالب جانباً للأسف من الجدير بالذكر هنا أن القيمة الجدلية لكثير من تلك الكتابات تكاد تكون معدومة لأن أكثرها ، إن لم يكن كلها ، كتب باللاتينية وكان موجهاً إلى جمهور القراء المسيحيين ، وعلى التحديد أولئك القادرين على قراءة اللغة اللاتينية ، وهم الكهنة ، لا إلى جمهور المسلمين . لكن المعلومات التي تضمنتها تلك الكتابات ، سواء منها ما استند إلى الحقيقة أو كان من نسج الخيال ، انتقلت هي والاتجاهات المبدئية التي شجعتها عبر لاتينية الكتاب العالية إلى اللغات المحكية المحلية ، وغدت جزءاً من

به القرآن الكريم . (١٤) ولقد بين نورمان دانييل ، وليس هو بالمسلم ، كيف أنه في بعض الحالات كانت توضع شروط معينة من قبل أولئك المجادلين (بشكل يهده قراء الفلسفة المدرسية) يكون بمقتضاها الإنسان مؤهلاً للنبوة لكنها تناقض جوانب من حياة محمد ، مما يجعله غير أهل لها . (١٥) يقول دانييل : « كل ما بدأ للمسيحي كرهياً في الإسلام بدا له أيضاً أنه أشد صفاته أهمية ، وقد كان من السهل وضع معايير تقاس بها كل النبوات وتفشل بها نبوة محمد . » (١٦) فقد أتكسر محمد القدرة على عمل المعجزات والمسلم بالغب ، فأعطى ذلك الفرصة للمجادل المسيحي لأن « يثبت » بطلان نبوة محمد ، وذلك بأن يشترط في النبي القدرة على عمل المعجزات وعلى التنبؤ بأحداث المستقبل ولما لم يتم محمد بأي من هذين الشرطين ، لذا فإن نبوته باطلة . « من الواضح » ، كما يقول دانييل ، « أن هذه المعايير فصلت مقدماً كي تناسب ظروف محمد . » (١٧)

أما في جانب الخيال فقد أكد الكثير من الكتاب أن محمداً كان كردبناً مسيحياً طموحاً اخترع الإسلام ، نتيجة حيرة من الوصول إلى كرسى البابوية ، كي ينفس به عن غيظه . وقد قيل عنه أنه كان أحد أقانيم الثالث الذي يضم ما هوند (أي محمد)

لم شام الاستزادة حول هذه النقطة ، هناك كتاب :

8. Tor Andre, Mohammed : The Man and His Faith, trans. Theophil Menzel (New York : Harper Torchbooks, 1960), pp. 45-47.
9. Daniel, pp. 97-73.
10. Ibid., p. 68.
11. Ibid., p. 71.
12. I Henry VI, Lii. 140-11.

قلت هذه الفكرة تردد حتى زمان شيكسبير . انظر :

13. See Byron Portes Smith's *Islamic English Literature* (Beirut : The American Press, 1939), pp. 6-7.

بل أنها تظهر بعد ذلك التاريخ كما سنرى .

ويضعون أنفسهم دائماً تحت حماية الشيطان.. وغالباً ما يوصفون ببهيمات شائعة التكوين ، فالكثير منهم عمالقة ، وقبائل برمتها لها قرون على رؤوسها ، بينما توجد قبائل مساوها سوداء كالشياطين . وحين يهرعون للمعاركة يطلقون صيحات أشبه بنباح الكلاب . وهم أناس مشبوبو العاطفة ، سريعو الاستثارة ، سرعان ما تسيل دموعهم أو يتكلمهم الغضب . أما من الناحية الاجتماعية فانهم يمثلون أبشع أنواع العادات ، وذلك ببساطة لانهم يفتقدون الشئ الأساسي في نظر المسيحيين للكمال - الإيمان بالمسيحية . لذا فانهم يستعملون العبيد ، ويأكلون أسرارهم ، ويشترتون نساءهم ويبيعونهن ، ويمارسون تعدد الزوجات .. وقد اخترع الشعراء لهم عدداً من الصفات التحقيرية والتعابيرية المهيئة هي من عدة الأسلوب المضحى المعتادة كي يؤكدوا فقدانهم للإيمان ، الذي هو سر شرمهم برمته . (١٥)

أما الإسلام فيوصف عادة باعتباره من اختراع محمد الذي هو أحد الأتائم الثلاث

الصورة الأوروبية الشائعة من الإسلام والمسلمين ، تلك الصورة التي ظلت على ما هي عليه لفترة طويلة لاحقة . وكما قال ميريدث جونز : « كان مفهوم شعراء العصور الوسطى عن الإسلام يستند على المصادر الكنسية التي كان من ههما أن تشوه معتقدات الكفار وعاداتهم . » (١٦) وقد تكررت صورة السراسيني الكافر المشوهة تكرراً بلغ من كثرة في الأغاني الشعبية في العصور الوسطى انه أدى الى تحنط تلك الصورة وتجمدها . لذا فان كتاب الملاحم في ذلك العصر وجدوا ، عندما أرادوا الكتابة عن السراسيني ، صورة مألوفة يستعملونها وصورة متوقعة يرسمونها لقراءهم . وقد وصف جونز هذه الصورة التقليدية للسراسيني كما رسمتها مجموعات « الشاسون دي جيست » على النحو التالي :

(السراسينيون) قوم أشراط يقضون إيمانهم في كراهية المسيح والسخرية منه وفي تهديم كنائسه . وهم أبناء صانع كل الشرور ، أبناء الشيطان . وهم ، كسلفهم ، يكرهون الله

14. Jones, p. 203.

15. Ibid., pp. 204-5.

أما الكتاب صموئيل س . تشولفد استمتع برسم الإزابيثا عنوانه « أشكال وحشية توجد بين الأفريقا والهند » . وهي منقطة تشمل معظم العالم الإسلامي ، ظهر فيها خمسة أشكال من الرجال الذين يوصفون في تلك المنقطة : الأول يعني Sciapod وله قدم واحدة يستعملها كظل ، والثاني له عين واحدة في جبينه ، والثالث قزم برأسين ، والرابع توجد عناءة خلفه في صدره ، والخامس له رأس كلب فوق كتفيه . والرسم المذكور يظهر في مقابل الصفحة ١٢ من كتاب :

Samuel C. Chew, The Crescent and the Rose (New York : Oxford Univ. Press, 1937),

والكرة الأشكال الوحشية هذه موجودة - بشكل مدهش - حتى عند درايدن . انظر :

Don Sebastian, II, l. 458
في عام ١٧٢٨ شعر الرحالة الإنكليزي توماس شو Thomas Shaw ان من الضروري ان يقدم مغاوب قراء كتابه المتن
Travels.....to several Parts of Barbary and the Levant

فيما يتعلق بالكرة المسماة التي تقول ان الأفريقا كانت مليئة بالكوشيين . انظر ايضا :
Wallace Cable Brown, „The Popularity of English Travel Books about the Near East, 1775-1825,” PQ, 15 (1936), 70-71.

محمدا نفسه كان كوردينا لا فاشلا كما مر بنا . (١٨) وبهذا الاعتبار تبدو جريمته أعظم من جريمة الوثني العادي . فهو ، كمسيحي منشق ، كان يسبب صدمًا في هيكل الكنيسة المسيحية بهرطقته (وقد اعتبر الإسلام فعلا بدعة نسطورية) . وعلى أى حال فإن نظرة دائتي لما حققه محمد وأتباعه هي النظرة نفسها التى يقبلها المؤرخون المسيحيون في زمانه . فمثلا يتضح من الفردوس (٣٢ : ١٣٠ - ١٣٥) حيث «يرمز كسر أرفسية عربة الكنيسة من قبل الوحش الى الخسارة التى أصابت الكنيسة من طريق محمد » كما يقول بالولوك (١٩) يعتقد دائتي أن العالم المسيحي قد خسر خسائر فادحة للإسلام ، وأن العقوبة الفظيعة التى يفرضها على محمد تعكس فظاعة الجريمة التى ارتكبها من وجهة النظر المسيحية .

لكن تجدر الإشارة هنا الى أن دائتي قد وضع ثلاثة من المسلمين البارزين هم ابن سينا وابن رشد وصلاح الدين الأيوبي في دائرة الجحيم الأولى مع الوثنيين الفضلاء . وقد كان الأولان فيلسوفين من أتباع المدرسة الأرسطية ، ووضعهما في الدائرة الأولى يبدو لي اعتراغا بقيمة أرسطاليتهما أكثر مما هو تسماع مع دينهما . أما إدراج صلاح الدين

الذى ذكرناه ، وهو يرأس هيئة كبيرة من الآلهة الأقل شأنًا مثل جوبيتر ، وجوبين ، وأفلاطون ، ولرعون ، وباراثون ، وكاهو ، ومارفوت ، ومالاكوين ، وسوراب ، ويايلت ، ويعلزيوب ، وغيرهم . ويوصف المسلمون بأنهم قوم ذور كهنوت منظم يرأسه بابا ، وتقام عندهم الصلوات في محددات (أى جوامع) أو معابد من قبل رهبان أو كهنة بشكل شبيه بالطقوس المسيحية . (١٦) وباختصار ، فإن الإسلام يرى بمنظار مسيحي (ثالث ، رهبان) بفرض اظهاره وكأنه تشويه للمسيحية .

ان صورة محمد والمسلمين في **الكوميديا** الإلهية لدائتي تنسجم مع هذه النظرة . ففي **الجحيم** نجد كلا من محمد وعلى ، ابن سم الرسول ، بين نازي بدور الخلفاء والفضائع والشقاق (٢٨ : ٣٥) في موقع حميق في الدائرة التاسعة من دوائر الجحيم . والمقاب الذى يلقاه محمد على جريمته « ليس فقط أشد فظاعة وتشنيعا من أى عقاب غيره ، بل انه لا مثيل له في أى مكان آخر من **الجحيم** من حيث التنفير والتشويه الجسماني وقبح التصوير . » (١٧) وتصور محمد باعتباره منشقا يستند بوضوح على الإدماء المسيحي بأنه تلقى العلم من هروطق مسيحي ، أو أن

16. Jones, pp. 208-10.

وفكرة الكنيسة والزهبان توجد حتى في دمايدن . **الفرسجية** Don Sebastian حيث يرمى المتن رجل كنيسة . ان الإسلام - طيما - لا يضم أى مؤسسة شبيهة بالكنيسة المسيحية .

17. J.S.P. Tatlock, „Mohammed and His Followers in Dante“, *MLR*, 27(1932), 192.

يعتقد بالتأويل هذا الرأي . لكن من يشاء الاطلاع على دراسة معتمة للعلاقة بين الإسلام والكوميديا الإلهية فان طيه قراءة كتاب :

18. Miguel Aslan Y Palacios, *Islam and the Divine Comedy*, trans. Harold Sunderland (1928 ; pt. London : Frank Case, 1968).

19. Tatlock, p. 186.

القديمة للسلسلات المسرحية (Cyclical Plays) يظهر السراسينيون دائماً كوثنيين لهم إله اسمه محمد هو واحد من عدد من الآلهة . وهذا أمر متوقع طبعاً لأن ذلك المفهوم كان جزءاً من التراث الأوروبي ، ولأن الأدب الانكليزي المبكر كان مقلداً الى حد كبير للأدب الفرنسي الأكثر ازدهاراً . (٢١)

لكن الغريب أن كلمة سراسين غالباً ما استعملت لتضم عناصر أوروبية كالكسكون ، بل أنها عنت أي شعب وثني . وقد كان من السهل بعد ذلك أن يعتقد مؤلفو ذلك الأدب وقرؤهم أن محمداً كان معبود جميع الوثنيين بغض النظر على التسلسل التاريخي أو البعد الجغرافي . وهكذا فإننا نجد فرمونا في واحدة من المسرحيات الدينية الانكليزية يحض اتباعه للصلاة لما هوند (محمد) كي يمنهم في محنتهم . ونجد القيصر أغسطس يقسم بنفس الإله ويصلي له ، بينما يدافع هيرو من ويهدد كل من لا يؤمن به . (٢٢) والمعنى الحديث للكلمة الانكليزية Maumet ، أي صنم أو دمية ،

تعود جذوره الى هذه الحقبة التاريخية . والكلمة مستمدة طبعاً من اسم النبي محمد ، وفكرة أنه كان يعبد أدت الى فكرة أنه كان صنماً ، ومن هذا المعنى فترعت المعاني

مع هذه الأنخبة فيبدو أمياً على التفسير . فلكد كان صلاح الدين هو البطل الاسلامي الذي دافع عن قضية الاسلام عندما كان الفسرب المسيحي يحاول استعادة بعض الأرضية التي خسرها للدين الجديد . لذا كان من المنطقي أن يوضع صلاح الدين عميقاً في جعيم دانتى لا مع الوثنيين الفضلاء . لكن دورويل ل . سايرل Sayers تفسر ذلك بقولها : « أن إدراج صلاح الدين هنا (في الدائرة الأولى) مع لوقان وابن رشد وغيرهما من شخصيات الحقبة المسيحية ممن لم يحرّموا من فرصة الاختيار لربما أشار ضمناً الى رأى دانتى بشأن كل أولئك الذين كانوا صادقين في عدم استطاعتهم قبول الوحي المسيحي رغم اتصالهم بالمسيحية ، ورغم ممارستهم لكل الفضائل الأخلاقية » . (٢٠) وسواء قبلنا هذا التفسير أم لم نقبله فإن من اللافت للنظر أن شخصية صلاح الدين قد حومت دائماً بقدر من الاحترام في الأدب الغربي لم تلقه أية شخصية اسلامية أخرى . (٢١)

يشبه المفهوم الذي ساد في الأدب الانكليزي حتى أوائل القرن الثامن عشر عن محمد والمسلمين ذلك المفهوم الذي وجدناه في سائر أوروبا . ففي الحكايات الشعبية الانكليزية

20. Dorothy L. Sayers, trans., *The Comedy of Dante Alighieri: Cantica I: Hell* (Baltimore: Penguin Books, 1919), p. 96.

21. *The Talsman*

انظر مثلاً رواية

السيف وفتر سكوت التي نشرت لأول مرة عام ١٩٢٥ .

حول تقليد الأدب الانكليزي المبكر للأدب الفرنسي انظر:

22. Albert C. Baugh et al., *A Literary History of England*, 2nd ed. (New York: Appleton-Century Crofts, 1967), p. 114.

23. See Chew, pp. 390-91. Chew refers to the York Plays, xix; The Townley Plays, ix, xiv, xvi; and the Chester Plays, i, viii, x.

تمثالا لفينوس» (١٣٢ - ١٣٣) . ورغم أنه كان سكيراً إلا أنه منع قومه من شرب الخمرة .
واخيراً

مات كأي إنسان نهم

لأنه افترط في شرب الخمرة

ووقع في بركة موحلة واكثته الخنزير .

(٢٤)

(١٥٢ - ١٥٤)

ولعل هذه هي نظر لدجيت وقرائه هي
الاسباب التي جعلت الاسلام يحرم الخمرة
ولحم الخنزير !



إذا ما وصلنا الفترة الإليزابيثية وجدنا
الكثير من المسرحيات التي تقوم على مواضيع
إسلامية استعدها الكتاب من كتب التاريخ
القديمة والحديثة للشعوب الإسلامية ، فضلاً
عن الأساطير التي تجمعت في أوروبا عن
الاسلام والمسلمين منذ العصور الوسطى . وقد
قام لويس وان باستعراض مفيد للمسرحيات
الإليزابيثية المتركزة كلاً أو بعضاً على مواضيع
شرقية . (٢٥) ووجد أنه بين عام ١٥٥٨ و عام
١٦٤٢ هناك سبع وأربعون مسرحية تعتمد على
مثل تلك المواضيع كتب أكثرها في الفترة ما
بين ١٥٨٦ و ١٦١١ . وقد انجذب أكثر
الكتاب الكبار إلى سحر الشرق التجلياً دها
كلاً منهم إلى كتابه مسرحية واحدة على الأقل
من هذه المنطقة . ومن اللافت للنظر ، كما

الأخرى . وقد أعطت هذه الكلمة للغة الإنكليزية
الكلمتين mahometry و mawmetry اللتين
تعنيان « عبادة الأوثان » أو « الدين الباطل » .
وقد ظل هذا المعنى مستعملاً حتى أواخر القرن
الخامس عشر ، بدليل وروده في قصيدة
لكاكستون بعنوان خود فرى (God Frey)
(١٨٧ : ٢٧٤) . أما قصيدة جون لدجيت
المسماة « عن محمد النبي الويف وكيف اكثته
الخنزير وهو سكران » فتعطينا أول « ترجمة
كاملة » للنبي في الأدب الإنكليزي . ففي مدى
مائة واحد عشر بيتاً تمكن لدجيت من حشر
معظم الأساطير الخيالية التي كانت سائدة في
زمانه (١٣٧٠ - ١٤٥١) . إذ تصور القصيدة
النبي على أنه كان نبياً مريفاً وساحراً وضيع
الأصل ، وأنه درس الكتاب المقدس في مصر
واقنع السيدة كارديجان (خديجة ؟) من بلاد
كوروزان (قريظة ؟) كي ترضى به زوجاً ،
مسحلاً أساليب الأشراف الضبيشة المزيفة
(الأبيات ٦٧ - ٦٩) . ونقرأ كيف أنه ، ادعى
أنه هو المسيح (٧٥) وقاد شعبه إلى الخطأ
العظيم . ونقرأ أنه كان مصاباً بالصرع ، ذلك
الداء الذي فسره بقوله أن « جبريل / قد
أرسل إليه من عليه السماء / من قبل الروح
القدس كي يعلمه / وظهر عليه الملاك بظلمة بلغ
من بهائها/ أنه لم يستطع الوقوف في حضرته»
(٨٧ - ٩١) . كذلك تجد في هذه القصيدة
كما هو متوقع - أساطير العمامة التي تأكل
الحب من أذن محمد « وسيرجيوس ، والثور ،
لكن الثور هذه المرة لا يحمل القرآن على قرنيه
بل يحمل « جرار اللبن والمسل » (١٠٤) .
كما نجد أن محمداً كان « زانيا وقها / فإشاد

24. See John Lydgate, *Fall of Princes*, ed. Henry Bergen (London : HETS, Extra Ser., no. 123, 1924), Pt. III, Bk. IX, pp. 920-23.

25. Lewis Wann, "The Oriental in Elizabethan Drama," MP, 12 (1915), 423-47.

استعملت قسوتهم بينهم هم أنفسهم (كما هي الحال في المكائد التي كانت تحصل في قصور السلاطين ، وهي الأمور التي مسرحت كثيراً على المسرح الاليزابيثي) ، إلا أن هذه الصفة ، كما يقول لنا المؤرخون الماصرون ، صفة بولغ فيها جداً ، وشيعتها الروايات الأوروبية من أجل تحريض القوى المسيحية لمقاومة تلك القوة الكاسحة. فكما يقول المؤرخ بول كوتز : « كلما اتجهنا غرباً في مناطق المجتمع الأوروبي النائية زاد ظهور الميثانيين كمصدر للكراهية والخوف ».

لقد كان الناس يعتقدون أن الأتراك ليسوا خارج حدود المسيحية فقط بل خارج حدود المدنية نفسها . ويضيف كوتز : « أن التقليد (القاضي بالثبوت بالأتراك) استمر وامتد إلى عامة الناس خلال القرن السادس عشر من طريق الحرب الدمائية الفجة التي شنها بارلوميو جيورفنتشي الكرواتي ، الذي ظهر كتابه ذائع الصيت الآم ومآسي المسيحيين انثنين يعانون من الجزية والصودية التريكتين عام ١٥٤٤ وطبع طبعات كثيرة وبلغات متعددة » (٢٨) وسواء عرف الكتاب المسرحيون أو كان باستطاعتهم أن يعرفوا أن الأتراك كانوا يتسامحون مع المسيحيين واليهود وأنهم كانوا لأسباب اقتصادية على الأقل ، يستقبلون من قبل قطاعات كبيرة من الشعوب البلقانية كمحررين من جور الإقطاعيين المحليين (٢٩) فإن ذلك لا يهتأ كثيراً هنا . أن ما يهتأ هو أن الصورة التي رسموها من الأتراك كانت ، في

يقول وان ، نجد أن « ثلثي هذه المسرحيات الشرقية مأساوية الطابع » . وأن « كل المسرحيات التي تعالج موضوعات شرقية خالصة هي مآثر اجيديايت خالصة أو مسرحيات غزاة » . (٢٩) والتفسير الذي يقدمه وان لهذه الظاهرة هو أن الاليزابيثيين – فيما يبدو – قد تصوروا الشرق باعتباره « منطقة تسود فيها عناصر الحرب والفرو وقتل الإغ لآخيه والشهوة والخديعة أكثر من سيادتها في البلاد المجاورة » – وهو تصور يدمي وأن « أن الأحداث الواقعية تبرره » (٢٧)

وأضح من ذلك أن كتابات المسرحيين الاليزابيثيين لم يكونوا يهتمون إلا بالعناصر المثيرة ، وأنهم اغفلوا الجوانب المثيرة ، لأنها لم تكن تلائم طبيعة الأسلوب الأدبي المستعمل ، وهو أسلوب يفضل ، كما يوحى اسمه ، كل ما هو دراماتيكي .

لكن الملاحظ – حتى من دراسة وان نفسها – أن الدراماتيكي قد قبل على أنه كل الحقيقة . وهكذا فإن كلمة « تركي » ، وهي الكلمة التي كانت تستعمل في أوروبا اسماً لكل مسلم ، ولم تكن تستثير في ذهن مستعملها أو سامعها أكثر من صورة للقسوة والمعاداة للمسيحية . وكان « الاستتراك » (to turn Turk) يعني العار الأكثر بالنسبة لأي مسيحي ، لأن ذلك كان يعني فقد كل الأخلاق والدين .

لقد كان الأتراك قساة حقاً ، وغالباً ما

26. Ibid., 428-29.

27. Ibid.

28. Coles, Ottoman Impact, pp. 145-47.

29. Ibid., p. 145.

تفسيره للاستجابة الى آمال المسيحيين وطموحاتهم . ففي الجزء الأول ، مثلا ، يقسم تيمورلنك أن « يخضع الأتراك ويحور الأسرى المسيحيين » الذين كانوا يستعملون لتسيير سفن القراصنة المسلمين . (٣٠) وفي الجزء الثاني يطالب مواطنو بابل حاكمهم عندما تهدد قوات تيمورلنك المدينة أن :

يستسلم ويرفع علم الهدنة

كي يشفق علينا تيمورلنك

ويعاملنا معاملة الفاتح الحدوب

ورغم أن هذا اليوم هو آخر أيام حصاره المخيف ،

وهو يوم تودع بهذه الأبا يتي رجلا أو طفلا ،

لكن عندنا بعض المسيحيين من جورجيا وهم سيحصلون على عفوه أن تكرمت بأرسلهم له

لأنه دائما كان يشفق عليهم ويعينهم في مصابهم .

(ج ٢ ، ف ٥٥ ، ١ ، ٢٦ - ٣٣)

وعندما يقارن تيمورلنك محوّر المسيحيين مع الحكام المسلمين الذين يحاربونهم (كما يفعل بايزيد) ويستعملونهم عبيدا لتسيير سفنهم (كما يذكرنا مارلو عدة مرات في سياق جزائي مسرحيته) فإن مواطني الشهداء يستميل

أقل ما يقال منها ، هي الصورة التقليدية الجامدة التي اخترعها الأوروبيون . وهذا الوضع يشبه الى حد بعيد صورة السراسيني التي ظهرت في أقاصيص العصور الوسطى : كان الناس يتوقعون صورة معينة فقدمت لهم تلك الصورة .

عندما كتب كرسنوفر مارلو مسرحية **تيمورلنك الكبير** (الجزء الاول عام ١٥٨٧ / ١٥٨٨ والجزء الثاني عام ١٥٨٨) كان الخطر الاسلامي ، أي التركي ، قد بلغ ذروته . ولهذا السبب كان من الطبيعي أن يرحب المسيحيون بأي شيء يمكن أن يرهيم أن الأتراك لم يكونوا قوة لا تطلب . وهذا يعني أن **مارلو** باختياره قصة تيمورلنك كان يستغل الماطقة الشعبية السائدة . فتيمورلنك لم يخضع الأتراك ويذل سلطانهم بايزيد فقط ، بل أنه كان - من غير قصد منه - حونا غير مباشر للمسيحيين المحاصرين في القسطنطينية منذ فترة طويلة . وقد اضطر مارلو ، من أجل التركيز على هذه النقطة ، أن يخالف التاريخ الحقيقي ويخلق شخصية يمكن للمسيحيين أن يقبلوها على أنها سوط الله المسلط على المسلمين . وهكذا تحول تيمورلنك المسلم ، الذي يقول لنا التاريخ أنه كان متساهلا مع أعدائه المسلمين وقاسيا أشد القسوة ضد المسيحيين ، تحول (باستثناء بعض التناقضات في تصوير شخصيته) الى بطل شبه وثنى ، واسع الاطلاع على الكتابات الكلاسيكية والديانة اليونانية والرومانية ، وإلى قاهر لا يرحم أعداءه المسلمين ، بينما يعيل بشكل يصعب

30. 1 Tamburlaine the Great, III. iii. 46-47.

All quotations from this play are from U. M. Ellis-Fermor's edition (London : Methuen, (1930) which is part is of the Works, ed, R. H. Case See also Pt. 1, III, iii, 248-51,

تيمورلنك بمحمد وأن يحرق «القرآن التركي» الذي تعبر بعض الشخصيات عن إيمان مهزور به هنا وهناك في المسرحية . وبإني هذا التنديد في الخطبة الشهيرة في المشهد الأول من الفصل الخامس ، وهي الخطبة التي جلبت على مارلو فيما بعد تهمة الإلحاد . وعلى أي حال فإن لغة الخطبة الضعيفة لا بد أنها راقت للجمهور الذي كان يتحنن سقوط « خطر » الإسلام ممثلاً بالامبراطورية التركية في ذلك العهد .

ولئن كانت مسرحية تيمورلنك مثلاً جيداً على ما يدعوه **لويس** وإن بمسرحيات الغزاة ، وهي مسرحية ظهرت فيها أربعة موضوعات على الأقل من الموضوعات التي يعتقد **وان** أنها تشكل مجموعها المفهوم الإليزابيثي من الشرق (إلا وهي موضوعات الحرب ، والغزو ، وقتل الأخ لأخيه ، والخيانة) فإن مسرحية **فيليب الموند** (١٦٢٤) مثل جيد على الموضوع الخامس : ألا وهي الشهوة . والمسرحية تتضمن مقابلة أساسية بين مايريمونيه من الطهارة المسيحية والحسية الإسلامية . وتتمثل هذه المقابلة بأجلى صورها في شخصيتي بولينا ودونوسا . أما بولينا فهي أسيرة عصام بك . واستسلامها لرغبات آسرها من شأنه أن يعطيها الحرية والسلطات . إلا أنها ترفض الاستسلام لأن « عقالها مترك على صخرة دجنها » (٣٢) أما

حتماً إلى تيمورلنك رغم قسوته التي لارحم والتي يظل شعور مارلو نحوها شعوراً غامضاً صعب التحديد . كذلك يجب ألا ننسى أن انتصارات تيمورلنك كلها تحققت ضد المسلمين مما يسهل على جمهور النظارة والمسيحيين أن يتقبلوه ويمدوه في صفهم .

غير أن من الغريب أن نجد تيمورلنك بعد ذلك كله يتسم بمحمد في الجزء الثاني من المسرحية . فإن كان علينا أن نفترض أنه مسلم منذ البداية (كما كانت مصادر مارلو ستقول له) فإن حماسه لقضية المسيحيين يعتبر تناقضاً في شخصيته . لكن الأقرب إلى الصواب هو أن هناك القليل القليل من الإسلام عند أي من الشخصيات المسلمة في المسرحية باستثناء إشارة عابرة لمحمد هنا وهناك؛ ضمن قسم في العادة . وجميع هذه الشخصيات الإسلامية تبدي معرفة أوسع **بأوفيد** من معرفتها بالقرآن . (٣١) زد على ذلك أن هدف مارلو كان سيتزعزع لو أنه ترك تيمورلنك يحتفظ بدينه . لأن ذلك كان سيناقض مهمته في الوقوف ضد الإسلام ، وهذه نقطة يؤكد عليها انتصارات تيمورلنك الساحقة ضد الأتراك وحلفائهم ، مثلما يؤكدنا تكرر ذلك التعبير كثيراً خلال المسرحية كلها . ولهذا فإن مما ينسجم وهدف المسرحية العام أن ينفذ

٣١. ان اعترافى جوزيف ادبسون ضد الاشارات الالفيدية التي يضعها دوايدن في الفواء شخصياته المسلمة في مسرحية Don Sebastian ، والتي نشره في صحيفة The Guardian ، العدد ١١ ، الصادر بتاريخ ١٧ تموز عام ١٩١٢ لهو احدى بان يثار ضد مسرحية Tamburlaine لمارلو لان مثل هذه الاشارات ترد فيها اكثر مما ترد في مسرحية دوايدن

٣٢. The Dramatic Works of Messinger and Ford, ed. Hartley Coleridge (London : Routledge & Sons, 1875), p. 115.

ستكون الاشارات التالية للصلصات وليس للفصول والشاهد لان آبيات المسرحية في مرفعة ، وسترد الاشارات في المتن نفسه بعد كل اقتباس .

ماذا تطلب منك ؟

ثم تقبله فيستجيب ، ويعود هي الى القول :

وافترض انها تشير الى

حجرة خاصة لا تدخلها أشعة الشمس أبدا ... (ص ١٠٦) .

وتترك المسرح وهي « تدعو كي يتبع » فيما تقول تلميحات المؤلف (ص ١٠٨) . كذلك فان دونوسا هي التي تطلب « لقاء ثانيا » (ص ١٠٨) في اليوم التالي ، بينما يرفض فيتلي طلبها . ورغم اللغة القاسية التي يستعملها معها الى انها تستمر في الاستجداء ، بل انها تركز له في النهاية :

هل أنت من حجر ؟

ان كان للمسيحيين امهات فلا شك ان فيهن من شراسة النور نصيب . فلو كان منك شيء من الشفقة الانسانية لما تحملت ان تركز اميرة لك ... (ص ١١٣) .

تلك هي شهوة المسلمين !

اما في جانب المذكور من اشخاص المسرحية فان فترة فيتلي على احتمال الآلام تكسب له اعجاب عصام بك ، بل حتى احترام مصطفى القاسي ، الذي هو غريمه في الحب . لكن غرام عصام بك المفرط ببولينا هو الذي يؤدي في النهاية الى هرب المسيحيين من الاسر . فعصام المسكين هذا - شأنه شأن غيره من المفرمين المسلمين - سرهنا ما يخذع بوعده من المشوقة بولينا بان « تتحول الى تركية » (اي تسلم) وتعطيه ما يريد شريطة ان يسمح لها بتصليب دونوسا المجرمة وبمصادرة

دونوسا فهي اميرة مسلمة ، لكن مركزها هذا لا يمنحها من استقلالها أول فرصة تستح لها مع بائع هادي للاراني الوجاجية لاشباع رغبتها الجنسية . وتفسر هذا التهور عند الأمير ياتينا من غم الأميرة نفسها : فخلافاً لحالة السيدات المسيحيات « الارواني يتمتعن بقدر اكبر من الحرية ممن يولدن هنا » ، تقول دونوسا :

نحن معشر العثمانيات لا نستمتع

اكثر منك رغم ان ديننا

يسمح بكل الملذات (ص ١٠١) .

المسلعات ممنوعات من المتع رغم ان الاسلام - فيما تقول هذه الاميرة المسلمة - يسمح بكل الملذات . ان هذه الفكرة ليست بالجديدة . فلطالما اعتبر مسيحيو الغرب الاسلام ديناً اباحياً . وقد اثيرت هذه الاباحية واحداً من اهم اسباب نجاح الاسلام في لوائل مهده ، لكن الشيء المدهش في دونوسا ليس علمها بامور دينها بقدر ما هو استمداؤها للتضحية بمكانتها كأميرة وتصرفها تصرف المومسات ، بالمعنى الحرفي للكلمة . انهما ليست قبيحة : فيتلي نفسه يشهد بالعكس . لكنها رغم جمالها تقوم بكل مقدمات الاغراء على المسرح :

ساملتك بالفريزة (ماذا تقدم)

وبتلك السهولة التي يجملى الحب اطلبها منك .

عندما تقوم سيدة باعتصار يدك هكذا ، او عندما تضغط على قدمك بلمسة عاشقة ،

وتعلق في مينيك ، وتداهب خصلات شمرك ،

الا تفهم ، حتى بدون عون المعلم ،

ومن زيف دعاوية الغربية ، ولن اقول كيف

انه علم حماية كي تاكل من اذنه

وجعل اتباعه السذج يؤمنون

انها كانت ملاكا يعلمه

اقوال القرآن ...

ان عزمك على كسبي

لدنيا مردد

خوفك من الموت . هل هناك قوة في ذلك

الدين الذي يجعلنا نرتعش

من ذلك الذي نسارع كل يوم ، بل كل ساعة ، نحوه ؟

(ص ١١٧ - ١١٨)

« هذا رد منضم » - هذا ما تقوله دونوسا ، متقلبة من دينها بسببه ، باسقة على محمد لاستكمال مراسيم اعتناقها للمسيحية !

واضح تماما ان دونوسا قد تنازلت من دينها بيسر شديد . لكن هذا التنازل في مسرحية كتبت لنظارة اكليز في القرن السابع عشر اقنع كاتبه ومشاهديه على السواء . فرد فيتلي يبيد كل النقاط المعروفة عن الاسلام ، ويثبت مدى « زيف » الاسلام لنظارة لا يطالبون بكثير من المنطق في هذا المجال .

• • •

تستخدم مسرحية جون درايدن دون سيباستيان (١٦٩١) ، التي تعتبر ميموا واحدة من افضل مسرحياته ، موضوعات

مجهراتها . لكنها - بطبيعة الحال - تستغل هذه الفرصة كي ترسل وسيلة الحرب لفيتلي ودونوسا بعد ان تكون هذه الاخيرة قد اعتنقت المسيحية .

ان المشهد الذي تتحول فيه دونوسا من الاسلام الى المسيحية يستحق بعض النظر هنا ، لا لما يتمتع به من قيمة فنية (وهو في الواقع خلو منها) بل لما يلقيه من ضوء على افكار القرن السابع عشر عن الاسلام ، التي ظلت هي في الواقع افكار المصور الوسطى . تحاول دونوسا في هذا المشهد ، مثلما نذكر ، كي تخلص نفسها من فضيحة الرنا ، ان تكسب فيتلي للاسلام ، الذي يقال لنا ان فيه حكما شرعيا يسمح للمرأة المسلمة بالزنا مع كافر اذا تمكنت بهذه الطريقة من كسبه للاسلام . هذه فرية سخيفة بطبيعة الحال ، لكن طريقة الاقتناع اسفغف . فدونوسا تحاول اقتناع فيتلي بصدق الاسلام من طريقين الاول هي انه بينما تقتضى المسيحية من المسيحي ان يظل « حذرا » ، « فطنا » ازاء اخراعات الدنيا ، فان الاسلام ، على العكس من ذلك ، يوفر الفرصة « للتنوع ، واختيار كل الملذات التي يستطيع البشر ممارستها » (وهنا لايد ان نلاحظ كيف ان دونوسا بهذه الفكرة تفتح المجال لاثبات افضلية المسيحية على الاسلام) . والثانية هي انه سادام الاسلام مردهرا والمسيحية ضميعة فانه لايد ان يكون الله في صف الاسلام ، لذا فلا مفر من ان يعترف فيتلي بان مبعوده « يحتاج الى القوة اللازمة لمساعدة » المسيحيين (ص ١١٧) . اما رد فيتلي « المنضم » فهو هذا :

ان الوث فمي بالكلام عن شعوبات

من غرر بك ، عن مولده الوضيع ، وعن علاقته المشينة مع النساء

أما بندر كار المسلم فيقابلته دوراكس المسيحي . الأول هو الآخر عند الإمبراطور الذي يثق به ويستشير في كل خطوة يخطوها، حتى في الأمور الشخصية . ولكنه (تنفيذاً لبدا الخيانة الذي صادفناه سابقاً) يخون سيده وينأمر على حكمه . وليس هو بالمخلص حتى لشركائه في المؤامرة لأن حافزه هو طموحه الشخصي الذي لا تحده حدود . أما دوراكس فيشعر أنه كان قد أهين من قبل سياسيتان بدون وجه حق . لذا فإنه يستترك (أي يسلم) نكاية بسياسيتان ويلتحق بهيئته الملا مالك . لكن عندما تلوح الفرصة له يرفض خيانه الإمبراطور المسلم رغم أنه لا يجه ، ويرفض أن يخون عدوه الملك سياسيتان الذي كان قد أقسم أن ينتقم منه . وفي النهاية يثبت دوراكس أنه مثال الاخلاص والشرف .

أخيراً هناك شخصيتا المفتي والوزير . هنا أيضاً تظهر المقارنة تفوق شخصية المسيحي على نده المسلم . فالمفتي ليس فقط انتهازياً، شهوانياً ، صاحب أعداد كبيرة من الزوجات والجواري والعبيد ، بل هو أيضاً حر التصرف بدينه بشكل مدھش ، يفسر شرائع الاسلام حسبما تقتضي الحاجات السياسية الآنية . أما الفاريز فعلى العكس من ذلك ، إذ يبلغ من حرصه على الفضيلة أنه مستعد للمخاطرة بحياته كي لا يسمح للملك سياسيتان أن يرتكب جريمة السفاح بولو جهلا .

منذ بداية المسرحية هناك تأكيد على قوة المسلمين . فالمسرحية تبدأ بهذه الايات

شديدة الشبه بتلك التي وجدناها في التراث لا سنجر . ففي كل منهما نجد طائفة مسلما (شخصية معنادة في المسرحيات التي تتناول الشرق) يقع في غرام البطلة المسيحية ، ونجد مرتدا يعود في النهاية الى دينه الاصلي ، المسيحية ، وينقذ اخوانه المسيحيين ، ونجد بطلة تنبذ الاسلام وتلتحق بالمسيحية ، ونجد أحيانا جادة مطعمة بعناصر كوميدية خشنه يعرض فيها الجانب المضحك من الاسلام من وجهة نظر الكاتب ، ونجد قوة مسيحية صغيرة تنتصر في النهاية على المسلمين في مقر دارهم ، رغم أن درايدن اختار أن يسلب سياسيتان انتصاره باضافته لموضوع السفاح الذي يعتل عنه في مقدمة المسرحية (٣٣) .

كما هي العادة ، يختلف الجانب المسيحي من شخصيات المسرحية عن الجانب المسلم اختلافاً جلياً . فالإمبراطور المسلم « الملا مالك » قصد خالقه منه أن يكون « تشخيصاً ساطعاً للوحشية » (المقدمة ، ص ٢٨٩) . أنه « بداخ ، خبيث ، قاس/كريم عندما يروق له ، لكنه عن الشر لا ينثنى أبداً » (ف ١ ، ص ١ - ٢٥ - ٢٦) . أما سياسيتان في المقابل

فقد كان وجلاً

أطول من غيره من الرجال ، يكاد يصل مرتبة الإلهية .

شجاع ، ورع ، كريم ، عظيم ، حر ، عادل كميزان السماء الذي يزن الفصول ،

أحب قومه فأحبوه حب العبادة ...

(ف ١ ، ص ١٠١ - ١٠٥)

33 John Dryden, *Four Tragedies*, ed. A. Beaumont and P. Fredson Bowers (Chicago and London: Univ. of Chicago Press, 1967), p. 288.

ستوضح جميع الإشارات التالية لهذه المسرحية في متن البحث نفسه .

لكن اذا كان المسلمون - فيما تقول
المرحبة - شديدى الرغبة فى اراقة الدماء،
فما أبعدهم - فى نظرها - عن اتباع بقية تماثيل
دينهم . ان الامبراطور يجب المفتى بهذه
الكلمات :

سيرد لمن الهدية العمراء مضاعفا ،
وعندما نفي بالتغر ستلغى الصيام ،
اذ ليس يخدم السماء جيدا اولو الوجوه
الجالعة .

توقف عن وعظ الناس بالكف من الشراب
انا اقول لك يامفتى
ان احياء الولايم خشوع ، وانت ياراس
ديننا

منلك وجه احمر متدين .
سنتعلم البلخ ، فدبتنا البغويل
بخيرنا امام المسيحيين الذين يعلمون
جيذا .
اما اذا اصلحت ديننا من الصوم للولايم
فيمكنك عندئذ ان تتوقع افواج المؤمنين .

(ف ١ م ١٤١ - ١٦٩ - ١٧٨)

وسرعان ما يطع المفتى فيقول :
الصوم هو حرفة الشرعة
التي تصلح للرماح .

التي يفوه بها الملا زيدان ، آخر الامبراطور
(الذى يتأمر على اخيه كما هو متوقع) :

الان انتهت حروب افريقيا الطويلة .
وقد استقت ارضنا المعطش من دم
المسيحيين ،

وسيكون عند اخي الفاتح كفايته من
العبيد

كى يفى ببلره القاسى لقاء النصر .

(ف ١ م ١٤١ - ١٤٤)

وعندما يظهر الامبراطور نفسه بعد ذلك
بفترة وجيزة نسمع المفتى ، الذى هو اهل
سلطة دينية فى البلد ، يطالب بوفاء ذلك
النذر :

نبينا الجبار يطالبك ، لقاء يوم النصر
هذا ،

بالعرفان بالجميل ، بان تضحي
بالعبيد المسيحيين الذين يجب ان تقدمهم
طالما عند النصر .

(ف ١ م ١٤١ - ١٦٠ - ١٦٨)

لسنا بحاجة الى القول ان «نبينا الجبار»
لا يطالب باى « تضحية » من هذا النوع ،
لكن هذه الفرية تناسب الصورة التقليدية من
الاسلام كدين قاس انتشر من طريق الفزود
واراقة الدماء فقط (٣٤) .

كذلك الخمرة تعارض الشرع ، لكن هذا أمر حر في أيضا .
أما أن كانت للملوك وهدايتهم فالخمرة شراب مقدس .

(ف ٤١ م ١ ، ١٧٩ - ١٨٣)

هذا الفن ينفخ نفسه بنفسه ولا يحتاج الى تعليق . لكن ذروة الشهوانية الاسلامية - في رأيه - ليست هي مجرد تحويل الصيام الى ولائم وتحويل الامتناع عن المسكرات الى الاستمتاع « بالشرع المقدس » ، بل هي - كالعادة - الجنس . فسمهم الحب يشترق قلبه الامبراطور في نفس اللحظة التي تروع الميدا ، أسيره ، الصباغ من وجهها في السوق ويرى جمالها الساحر . وبما أن الحب هو الجنس في نظره فانه يقول لبندركار :

لا بد أن أمتع نفسي بها ،

لا بد ، وما لا بد لي أن أفعله سأفعله .

اذ ما هو الملك ان لم يمن القدرة على امتناع النفس ؟

(ف ٢ م ١ ، ٤٤ - ٤٦)

(قارن هذه الجملة الأخيرة مع صورة سباستيان التي وصفت قبل) .

من بين وسائل اشباع الرغبة الجامحة عند الامبراطور الزواج . لكن الميدا ، التي تحب سباستيان ، ترفض الزواج من الامبراطور وسبب رفضها - فيما نقول - هو أنها قد تحولت الى الدين المسيحي : « وشريعتك لا تسمح لك بالزواج مني » (ف ٢ م ١ ، ٤٧٩) . لكن الشريعة الاسلامية - كما نعرف - لا تمنع المسلم من الزواج من مسيحية . الا ان حبكة المسرحية تتطلب مثل ذلك الحكم الشرعي ، وما أسهل أن يخترع درايسدن

حكما كذلك للإسلام . أما الامبراطور الذي أفضبه أن يحال بينه وبين شهوره فانه يهدد « بالحصول على سعادته بالقوة » (ف ٢ م ١ ، ٤٩٠) . وحين يسمح - فيما بعد - أن الميدا قد تزوجت من سباستيان فانه يحاول اجبار المفتي على اختراع نص قرآني ينقل الزواج « ويجعل من رقبته شرعية » (ف ٣ م ١ ، ٨٦) . لكن المفتي يتردد يادى ذى يده نظرا لجسامة الطلب ، الا أنه يرضخ مرة ثانية منلما يهدده الامبراطور بالقتل اذا لم يجد للمازق حلا . يقول المفتي الجليل :

صحيح أن شرعنا يمنع الزواج من مسيحية ،

لكنه لا يحرم عليك اغتصابها ،

اذ أن لك حق الفلاح على عيذك .

ثم انك كلما تعاديت في ايداء المسيحيين خدمت النبي أكثر لانه يكره تلك الطائفة .

(ف ٣ م ١ ، ٩٤ - ٩٨)



ليس من الضروري ، فيما اعتقد ، أن نتابع هذا الموضوع أكثر مما تابناه في الحبكة الكوميديية الثانوية حيث لا تكاد سلاسة الحديث التي تتصف بها الكوميديات السلوكية التي كانت سائدة في ذلك العصر أن تنجح في انتقاد المسرحية ، او على الأقل حيثكما الكوميديية الثانوية ، من صفة الابتذال . فلاقتباسات التي اقتبسناها أصلا تكفي لأن توضح أن الموضوعات التي كنا صادفناها سابقا ظلت تتكرر المرة تلو المرة في الادب الإبداعي الذي استعرضناه . لقد ظلت صورة الاسلام المشوهة تتردد ، وظل يتردد معها الاتجاه واضع الهدام للإسلام والمسلمين .

يقول روس انه لا خطر من قراءة القرآن لان المسيحيين عندهم كتب أعظم منه . وهم يقرأون الكتب الهرطقية أحيانا بدون ان ينخدعوا بها . ثم ان القرآن متوفر لقراءه بالفرنسية والإيطالية ، لذا فان اضافة ترجمة انكليزية لا ضرر منها . (٣٦) كذلك يبدو أن روس هو الذي كتب سيرة محمد التي تضمنتها الترجمة . وكما يلاحظ بايرون سمحت بحق ان تلك السيرة « مثل صاخر على بقاء الاساطير القديمة حتى تلك الفترة . » (٣٧) فهي لا تزيد عن كونها تجميعا للأساطير التي صادفناها منذ العصور الوسطى : الولد الوضيع ، الصرع ، سرجيوس ، الحمامة ، الثور ... لم يكن وضع البحث العلمي قد تحسن كثيرا بعد .



هناك سرتان أخريان تستحقان الإشارة . (ولنقل هنا بشكل عابر ان هذا التركيز على شخصية الرسول ليس وليد المصادفة . فقد كان من هم العدل المسيحي أن يفند الاسلام عن طريق تشويه سمعة محمد على الطريقة التي دموها المناطقة argumentum and hominem) والتي كانوا يظنونها أقوى سبل الهجوم .) وأولى هاتين السريتين تلك التي كتبها الانجيلولت اديسون بعنوان حالة المنهج المجهنم الأولى ، أو وصف للتدوي الباطلة ولحياة مؤلفها . وقد نشرت تلك السيرة بدون اسم مؤلفها عام ١٦٧٨ ، ثم تحت اسم المؤلف عام ١٦٧٩ وبمتوان حياة محمد وموته .

غير أن هذا الاتجاه لم يكن وقفا على الادب الابداعي فقط . ففي عام ١٦٤٩ قام الكسندر روس ، كما يعتقد أكثر الباحثين ، بعمل أول ترجمة انكليزية للقرآن من خلال الترجمة الفرنسية التي قام بها الفقيه سوسر دوريه والتي نشرت في ذلك العام . وعنوان ترجمة روس واضح الدلالة : قرآن محمد ، ترجمة من العربية للفرنسية سوسر دوريه ... وترجع للانكليزية حديثا لأرضاء كل من يود النظر في أباطيل الاتراك . لكن يبدو أن روس وناسره لم يكونا والقيين - كما يشير العنوان - من أن تلك الإباطيل واضحة للعيان . كان الامر في نظرهما يحتاج إلى مزيد من التفسير ، لذا كتب روس « تحذيرا لازما أو نصيحة لأولئك الذين يودون معرفة الفائدة المرجوة من قراءة القرآن ، أو أن كان هناك خطر في ذلك . » وقد ضمن هذا التحذير في الترجمة ذاتها . يبدأ التحذير بهذه الكلمات :

أيها القارئ الكريم ، ها قد وصل الدجال العربي

الكبير أخيرا بعد ألف سنة عبر فرنسا إلى انكلترا ،

وقد تعلم قرائه ، ذلك الخليط من الإباطيل (ابن)

مشوه كآبيه ، وفيه من الهرطقات بقدر ما في رأس صاحبه

الشائن من قشرة) أن يتكلم اللغة الانكليزية . (٣٥)

35. Quoted by Chew, p. 449,

36. See Chew, p. 450.

37. Smith, pp. 29-60,

وكلنا يذكر كيف أن المجادلين المسيحيين في
المصور الوسطى كانوا يشترطون بعض الشروط
للنبوة يعرفون مقدما أنها شروط تباير حياة
محمد . هنا أيضا نرى أن بريفو يجادل بنفس
الطريقة ، فهو يفسر الحقائق التاريخية المعروفة
من الإسلام بطريقة تجعل من السهل عليه أن
يضع معايير يستطيع عن طريقها أن يظهر أن
الإسلام دعوى باطلة . خذ مثلا مسألة الشهوة
الجسدية . في التراث المسيحي كان محمد دائما
يعتبر رجلا حسيا ، كثيرا ما اخترع الآيات
القرآنية كي يبرر شهوته للنساء . وإذا ذلك
لم يكن في وسع بريفو أن يقاوم أفراد وضع
الشهوة الجسدية كواحدة من أولى صفات
الدعوى الباطلة . ولو تمكنا بشكل ما من إثبات
أن زيجات محمد لم تكن في الواقع انعكاسا
لشهوته فإن هذا الجانب على الأقل من جدل
بريدو سيسقط سقوطا لا يقوم بعدها . ليس
من ههنا أن نفند آراء بريفو هنا ، لكن النقطة
التي تستحق التأكيد هي أن روح التعصب
ضد الإسلام حتى بين الباحثين كانت ما تزال
قوية جدا حتى في نهاية القرن السابع عشر
وأوائل القرن الثامن عشر .

لكن رباح التفسير كانت قد بدأت تهبط . فقد
بدأت بعض الاختلافات ، الأشد سخفا من
شخصية الرسول بشكل خاص ، بالاختفاء ،
وآدى ضهور الحماس الديني في القرن الثامن
عشر بالمقارنة مع القرون الماضية إلى تقبل نظرة
أكثر موضوعية من الإسلام والمسلمين . ويعطينا
جورج سيل ، أول من ترجم القرآن إلى
الانجليزية من العربية مباشرة مثالا جيدا على
الاجتهاد الأخذ بالتفسير . ولنتلاحظ على الفور

وكما يقول بايرون سمث : « يحاول أدبسون
أن يقدم لنا حياة محمد خالية من الأساطير
التي تجمعت حول اسمه ، وهو يتبع في ذلك
بشكل يدعو إلى الإعجاب ، حتى إلى حد اطراح
قصة سيرجيوس . لكنه أحيانا لا يستطيع أن
يقاوم أفراد سرد القصة الأسطورية أولا ثم
الحقيقة التاريخية . » (٢٨) لكن اطراح المنصر
المختلف من حياة الرسول لا يعني المحاولة
المحايدة غير العاطفية لفهم الرجل والدين الذي
بشر به . فما يزال محمد في نظر هذا الباحث
دجالا ودينه هرطقة (غير مسيحية هذه المرة)
انتشرت من طريق القوة والغدبة .

أما السيرة الثانية فهي أكثر طموحا رغم أنها
تظهر نفس الروح العدائية للتعصب . وقد كتبها
هينري بريدو بعنوان **الطبيعة المسيحية
للدعوى الباطلة كما تظهر على أوسعها في حياة
محمد (١٦٩٧)** . وقد قصد المؤلف من كتابه
أن يثبت تلك الطائفة من المفكرين الذين يؤمنون
بالله ولا يؤمنون بالآديان المنزلة (deists)
إن المسيحية ليست باطلة من طريق اظهار
الطبيعة الحقيقية للدعوى الباطلة كما تتمثل
بالإسلام . أن صفات الدعوى الباطلة في نظر
بريدو وسبب هي كما يخلصها بايرون سمث :
« أن الدعوى تتبع الإشهوات الجسدية ، أن
مؤلفيها لتأبى لشراء » . أي . كلنا الصفتين
السابقتين نطوون في غير كبرياء ذاتة ، أنها دائما
تضم لمثلة واضحة على الزيف ، أنها تنتشر
أول ما تنتشر بالبذخ ، أن طبيعتها لا يمكن
أن تخفى طويلا بعد أن تظهر للكثير من التأميرين
وأنها لا يمكن أن تتركز إلا بالقوة . » (٢٩)

38. Ibid., p. 30.

39. Ibid., p. 32.

مما يهمهم تشويه الاسلام ، تذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر « ديوبلو » ، « الاستاذ في الكلية الملكية الفرنسية » ، والذي ألف الكتاب الرائع المكتبة الشرقية (معجم موسوعي يضم معلومات بوفوفة عن التراث الاسلامي) ، ولطيمه « جالان » الذي خلفه في كرسي الاستاذية وترجم ألف ليلة وليلة الى الفرنسية و « بوكوك » ، استاذ الدراسات العربية في أوكسفورد الذي ترجم حتى بن يقطين الى اللاتينية بعنوان معناه معلم نفسه ، « واوكلي » استاذ اللغة العربية في جامعة كيمبرج الذي كتب تاريخاً عاماً للعرب .

لقد درس هؤلاء الكتاب النصوص الأصلية فوجدوا فيها صورة مختلفة أشد الاختلاف عن الصورة التي كانت شائعة في التراث الأدبي . ولخصم يول آرلر الأفكار الجديدة التي جاء بها هؤلاء بهذه الكلمات :

أشار هؤلاء العلماء الى أن ذلك القسم الكبير من الجنس البشري ما كان ليتبع خطى محمد لو أنه لم يكن أكثر من عالم مصاب بالصرع . وما كان لدين بتلك الدرجة من الفجاجة والسذاجة ، كما كان يشاع عنه ، أن يسدى تلك الدرجة الحيوية ويحرز مثل ذلك التقدم . ولو أن الناس بدلا من أن يشيعوا أكذب القصص وأبسطها عن الحقيقة ذهبوا الى الصرب اتسبهم من

أنه لم يكن لدى سبيل أي تعاطف مع الاسلام وأنه كان يعتقد أن القرآن « كتاب يوف بشكل واضح » (٤٠) ، وأنه ، أي سبيل ، هو الذي اشاع الفكرة التي ظالم ترددت بعده والقائلة بأن القرآن كتاب بليد ، مله بالتكرار . كذلك فإن سبيل ترجم القرآن ليقدم للبروتستانتين (الذين كان يعدهم مؤهلين أكثر من الكاثوليك) وسيلة لكسب المسلمين الى دينهم بصد أن ينفخوا تقاط الضعف في الاسلام . لكن سبيل كان رجل بحث وعلم ، واتعمد التعاطف مع الاسلام يفسره ايمانه بدين آخر ، وانتقاده لاسلوب القرآن مسألة هم النقد الأدبي بالدرجة الاولى وقد وجد سبيل الجحالة « أن أولئك الذين يتصورون أن (شريعة محمد) قد انتشرت بالسيف وحده مخطئون أشد الخطأ » (٤١) ويقول : « عندما تكلمت عن محمد وفكراته لم اسمح لنفسي أن استعمل تلك الصفات الكريمة والتعابير البديلة التي يبدو أنها أقوى وسائل التغلب لدى الكثيرين ممن كتبوا عنها » (٤٢) لا يجب أن هذا الكتاب ، حسبما يقول ر . ت . دافنبورت الذي كتب النبذة القصيرة عن حياة المترجم في الطبعة التي نستعملها ، كان قد انهم بأنه اعتنق الاسلام سرا . (٤٣)

• • •

لقد كان سبيل واحداً من مجموعة كبيرة من الباحثين الذين كانت مهمهم الحقيقة أكثر

40. George Sale, trans., The Koran : Commonly Called The Alkoran of Mohammad...to Which is Prefixed a Preliminary Discourse, 6th ed. (1734; rpt. Philadelphia : Lippincott & Co., 1876).

41. Ibid.

42. Ibid., p. vi.

43. Ibid., p. xlii.

وروحه الأكثر تجرداً (مما أدى إلى زيادة عدد الترجمات المباشرة عن اللغات الشرقية عامة والعربية خاصة ، فضلاً عن زيادة عدد البحوث المتجردة) - كل هذه العوامل وغيرها أدت إلى تغير الصورة القديمة وبروز صورة جديدة .
 ألا أن الصورة الجديدة بدورها ليست صورة دقيقة كل الدقة . فلئن كانت الصورة الأولى قد حددتها الرومانسية المتنامية والاستيعاقا الجديدة ، أن صبح التعبير . فترجمة جالان لائف ليلة وليلة في أوائل القرن الثامن عشر مثلاً شحلت الاهتمام بالشرق بصورة دفعت بالدين إلى المؤخرة وغلقت بدلاً منه تلك الروح الرومانسية المتنامية التي كانت تفتدى من مصادر أخرى في نفس الوقت أهمها المصادر الصينية والأمريكية والإسكندنافية . (٤٥)
 وهذه الصورة الرومانسية الجديدة نأمل أن نرسمها في بحث خاص بها في المستقبل القريب .

أجل معرفة الحقيقة لوجدوا أن محمداً وأتباعه كانوا يتمتعون بصفات في القلب والعقل تجعلهم لا يلقون قيد أنملة من أعظم الأبطال عند أي من أجناس العالم الأخرى ... والواقع أنه كان في دينهم من التناسق بقدر ما فيه من السمو والجمال . وعندما اجتاحت البربرية وجه البسيطة ، من هو الذي حمل لواء العقل وحضارته ؟ أتهم العرب ... (٤٤)

لقد أدى انكماش قوة الإمبراطورية المشائية ، وإزدياد السيادة البحرية البريطانية على بحار العالم (مما خفف خطر قرصنة شمال أفريقيا على التجارة الدولية) ، وزيادة الاتصالات المباشرة بين الشرق والغرب (مما أدى إلى ازدياد عدد كتاب الرحلات الموثوقة التي يعتمد عليها أكثر من سابقاتها في القرون الماضية) ، وإزدياد البحث العلمي الحديث



44. Paul Hazard, *The European Mind : 1680-1715*, trans. J. Lewis May (Harmondsworth Penguin Books, 1964), p. 32.

حول أثر ألف ليلة وليلة وغيرها من الأساطير الشرقية التي ترجمت إلى اللغات الأوروبية بعد النجاح الأول الذي أحرزه الكتاب الأول انظر :

45. Martina P. Conant, *The Oriental Tale in England in the Eighteenth Century* (New York : Columbia Univ. Press, 1968).

أما الصورة المتغيرة للإسلام والمسلمين التي بدأت بالظهور في القرن الثامن عشر واستمرت بالتطور خلال القرن الثاني فتجد تنبؤاً لها في الأطروحة غير المنشورة لكاتب هذا البحث بعنوان :

The Crescent and the Cross : Islam and the Muslims in English Literature from Johnson to Byron.

والتي قدمها لنيل درجة الدكتوراه عام ١٩٧٢ في جامعة إلينوا بالولايات المتحدة .

قصة ٢٥٠٠ عام من عمر إيران

تدوين الدكتور: أحمد كاظم الدين حامي

الأخيرين .. ووجدنا أنفسنا بالتالي مضطرين إلى تميم بحثنا بحيث يشمل البلاد الواسعة التي يطلق عليها « فلاة إيران » .

وفلاة إيران (١) أو بتعبير آخر « نجد إيران » هي إحدى فلات آسيا الواسعة الترابية

كلما تطرق بنا الحديث إلى التاريخ السياسي لإيران ، وعرج بنا على جغرافيتها التاريخية ... ووجدنا أنفسنا مضطرين إلى إدارة دفلة الحديث نحو حدودها الحالية .. تلك الحدود التي خلقتها الحوادث السياسية والعسكرية التي تعرضت لها البلاد في القرنين

الهدف من هذا البحث هو ايراد خلاصة تاريخ القرنين الإيرانيين في بلاد ايران ... وهو التاريخ الذي يتحصر بين الالف الثاني قبل الميلاد وعصرنا الحالي ، أي اواخر الالف الثاني . بعد الميلاد .. وهي فترة تشكلت خلالها وحسمت معالم .. (المترجم)

(١) وقع اختيارنا على كلمة « پشته » لتكون ترجمة فارسية لكلمة الفرنسية plateau ، تلك الكلمة التي ترجمها البعض إلى (تلة) .. وكما كانت هناك علاقة مشابهة : في الصورة إلى اليمين - بين كلمتي (پلاتو) و (تلة) . وقد أسقطت هذه الكلمة مترجمون إلى العربية إلى حد ما ، وشخصهم على اختيارها . وإن كانت اللفظة تنسب في العربية الصحراوات التي لا تشب فيها ولا ماء ، أو الغاية من تلك لفظ كما يرد في كتاب مناهج العرب ، بينما ترد كلمة (پلاتو) في الفرنسية بمعنى الصحراء المرتفعة .

ونساً وفراً ودهستان وبحر خزران حتى يبلغ حدود ائل . وفي غربي هذه الفلاة يجري نهر ائل، بينما يجري نهر جيحون وبحر خوارزم في شمالها ، وتقع حدود التوز (الفر) الممتدة حتى حدود البلقار .

هذا ويطلق على هذه الصحراء اسم مغارة الغزية أو مغارة خوارزم أو صحراء التركمان ، ويستندون في التسمية الأخيرة الى أن الفر = التركمان ، ويشكل حصص خوارزم أو حصص آمو جزءاً من هذه الصحراء التي قد يبلغ اتساعها في بعض المواضع منزلاً واحداً ، وقد يصل في بعض المواضع الى سبعة منازل . (٥)

ويحد الفلاة من الغرب السفوح الغربية لجبال زاغروس (Zagros) ممتدة من الشمال الغربي الى الجنوب الشرقي ، ومنطقة آروند رود (٦) . بينما يحدها من الشرق جبال وادي السند الغربية وسفوح جبال بامير الغربية ومنطقة نهر آمويه (جيحون) .

هذا وتقدر مساحة هذه الفلاة الواسعة بـ ٢٦٠ ألف كيلو متر مربع . ومنذ القدم وهذه

الأطراف . ويحدها من الجنوب بحر فارس وبحر عمان . وبحر فارس اسم آخر من أسماء الخليج (٧) ، وقد اطلق عليه ياقوت هذا الاسم ، وقال أن حمزة أسماء باسمه الفارسي على النحو التالي : (زراه « زره » كاسير) . كما قال أن القوم كانوا يسمون قسماً منه - وهو القسم الواقع في مدينة (مهرودان) الى جوار عبادان - باسم (زراه « زره » أفونج) (٨) .

أما حدود الفلاة من الشمال فهي بحر مازندران وحوض نهر كورا وصحراء خوارزم . وبحر مازندران اسم آخر لبحر آبيسكون ، وبحر طبرستان ، وبحر جرجان ، وبحر الخزر ، وبحر خزران . وبناء على قول حمزة بن الحسن فإن الفرس كانوا يسمون هذا البحر : زره اكفوده (اكفوده) ، كما كانوا يسمونه : بحر اكفوده (اكفوده) (٩) .

أما (كورا) أو (كر) فهو حوض نهر يجري في بلاد القوقاز الحالية من الغرب الى الشرق ويصب في بحر مازندران .

وصحراء خوارزم تطلق على الفلاة التي يمر تسمها الشرقي بحدود مرو حتى يصل الى جيحون ، ويمر قسمها الجنوبي بحدود باورد

(٢) انظر : حدود العالم ، طبع خزران ، ص ٨ .

(٣) انظر : سيم البلدان لياقوت الحموي ، تحت عبارة : بحر فارس .

(٤) انظر : سيم البلدان لياقوت الحموي ، تحت عبارة : بحر الخزر .

(٥) انظر : حدود العالم ، طبع خزران ، ص ٢٥ .

(٦) آروند رود : هو الاسم الذي أطلقه الآريون على نهر دجلة . يقول الفارديوسي الشاعر النام مرعشه قصة ليرة في يومين على الفصح ..

... فلما كنت لاأعرف اللغة البهلوية ..

فلما جئت (آروند) اسم دجلة كما في البهلوية .

شما ذكره الفارديوسي بغير أن (آروند رود) هو الاسم البهلوي لدجلة .

(٧) وآروند « التي يمكن ابدالها في الفارسية عاكلي « آروند » على التصريفات الشديدة ، وتطلق على التيمبل العالي لدى التحدث الزور ، أو على مجرى النهر الذي ينحدر مائلاً في سرعة فائقة .

والاصل في اللغة الآريستية (آروند) Aurvent بمعنى حاد وسريع

R. Blochet ; Lexique des Fragments de I, Avesta, Paris 1980 p. 5

٢٥٠٠ عام من مصر إيران

وان تقيض على زمام الحكم فيها ابتداء من القرن الثامن عشر قبل الميلاد وحتى عام ١١٧١ ق.م. وينتمي أفرادها إلى نفس العصر الذي ينتمي إليه الأوراليون أي شعب أورالي (ouratians) الذي كان يتخذ

من أرمستان مسكناً له ، والميتانيون أي الشعب الميتاني الذي كان يسكن شمال العراق ، والعميلاميون الذين يعتبرون أبرز هذه الشعوب ، وكانوا يحكمون في أنزان وشوش ، ويمتد نفوذهم في بعض الأحيان إلى حدود بابل .

ت هؤلاء القوم إذا هم من العصر الذي كان أفرادهم متناثرين على امتداد زاجروس ، والوديان التي في أطرافه من الشمال إلى الجنوب .

أما الشعوب والأجناس الأخرى التي كانت تسكن الأنحاء الوسطى والشمالية من إيران . . فإن حضارة بعضها - أمثال سكان هضبة سيالك كاشان - حضارة تسترعى الالتفات . (٧)

وفي منتصف الألف الثانية قبل ميلاد المسيح سلكت طوائف تنتمي إلى عصر أبيض طريقها إلى داخل نجد إيران . . عابرة في سبيل ذلك جيحون وجبال القوقاز .

وهكذا وفدت على البلاد عدة قبائل تشكل فرما من فروع العصر الأبيض الهندو أوروي (٨) ، اتخذت لها مقراً رئيسياً هو المساحة الواقعة بين هندوستان وسواحل

البلاد مسودها - على سمعتها - لغة واحدة ، وعمتها لهجات متشابهة ، وتروج في جنباتها ثقافة واحدة . هذه اللغة الواحدة هي لغة إيران ، وهذه الثقافة هي ثقافتها .

وكان يسكن وديان هذه البلاد وأراضيها الشخصية - هجرة الآريين الإيرانيين إليها - أناس ينتمون إلى العديد من العناصر والأجناس ، ويشابهون في نسيج حضارتهم . . غير أننا لا نملك الكثير من المعلومات عنهم .

وقد تجمعت - عن طريق الحفريات التي أجريت في فلاة إيران خلال القرن الأخير بعض المعلومات الخاصة بهذا الشأن ، وما زالت في نمو مطرد ، تنحو نحو التكامل .

والامر المستلم به ، والذي أمكن استنتاجه من هذه الحفريات هو أن بعض هذه الأقوام كان يسكن المدن والقرى ، ويمارس صناعة الأواني والآلات المعدنية ، ويعرف كيفية دفن أجساد الموتى ، ووسائل تربية الحيوانات . . وغير ذلك من أساليب الحياة الحضارية واحتياجاتها ، كما أمكن استنتاج أن حضارة بعضهم تعود إلى ما قبل ميلاد المسيح بأربعة آلاف سنة .

ومن القبائل المعروفة التي سكنت هذه البلاد - قبل هجرة الآريين - قبيلة تنتمي إلى العصر الكاسي (Kassites) . وكانت هذه القبيلة تعيش في الأماكن الجبلية من زاجروس . وقد أمكنها أن تسيطر على بابل ،

(٧) ارجع في هذا الصدد إلى :

إيران از آفات اسلام . . تأليف الحاج ميرشمس ، ترجمة الحاج دكتور محمد ميان ، ص ٨ - ٩ .

(٨) يطلق الاسم : Indo-europeen(enne) على عدد من الشعوب ذات لغات متقاربة متشابهة تنحدر من أصل واحد .

المحيط الأطلسي في أوروبا (مضافا إليها جزر بريطانيا العظمى) (٩) .

ويُعرف عن هذه القبائل أنها قد انفصلت عن زيميلانها في النصر قبل ميلاد المسيح بما يناهز الثلاثة آلاف عام . . إذ يرجع عهد أقدم مؤلف أدبي ما زال في أيدينا عن هذه الشعب - ونعني به اجراء الفدا القديمة - الى أواسط الألف الثانية قبل ميلاد المسيح .

وقد كان حساب القرون المحصورة بين ظهور أدب الفدا وهجرة الطائفة الهندية المتفرعة من الشعب المذكورة من آسيا الوسطى الى الهند . . . وحساب المدة التي ينبغي أن تميزها هذه الطائفة مع طائفة أخرى تنتمي الى نفس الشعب في آسيا الوسطى . . نقول كان هذا الحساب وذلك هما الدافع الذي دفع المحققين الى قبول التاريخ المذكور .

وقد أطلق على الشعب التي أشرنا إليها اسم آريا (= آري = Arya) . وهي تنقسم الى طوائف ثلاث : الهندو والآريانيين والسكا . (١٠)

واخذت هذه القبائل الوافدة المهاجرة تنجول في الصحراء وترعى الماشية ، وكانت

شأنها شأن غيرها من سكان الصحراء . . تبدي تفوقا في ميدان الفروسية ، ومهارة في قذف السهام . وانتهى بها الأمر الى أن تعيش مع بعضها البعض في جهة من جهات آسيا الوسطى . . كانت تمتد محتوية سفوح نجد بامير ، ووادي آمويه وسير الخصيين .

وقد اختلف الباحثون والمحققون فيما يتعلق بالموطن الأول للآريين - أي الشعب الهندو أوروبية التي هاجرت الى آسيا الوسطى - فقال البعض أنه يقع في وسط وادي نهرى سيحون وجيخون الخصيين . وقال البعض بل هو سفوح فلاة بامير ومنابع النهرين الكبيرين المباركة . واعتقد آخرون أنه يشغل كل الاجزاء القصيبة التي تجاور بلاد ما وراء النهر .

وإذا أخذنا برأي الاغلبية لحكمنا بأن أول موطن للشعوب الآرية الإيرانية - بعد انفصالها عن بقية الشعوب الآرية - هو آسيا الصغرى .

ويرى المحققون أمثال تيل Tiele ويوستي Yusti ، ماركوارت Marquart وأندراس Andreas أن الموطن المذكور يقع الى جانب خوارزم وخيوه الحاليين . . أي

(٩) تعتمد البحوث حول اجابة السؤال التالي :

اين كان أول مقر للهندو آرييين الاصليين ؟

تفاوتت آراء علماء الاجناس واللغات في القرنين التاسع عشر والعشرين حول هذا الموضوع ومن جملة الاسماء التي ذكروها في هذا الشأن : آريويا الشرقية ، آريويا الشمالية (البلاد الاسكتلندية) ، سواحل البحر الاسود ، وناحية من نواحي آسيا الوسطى .

(١٠) استعمل الكتاب اليونانيون اسم Aryan (enne) - منذ القدم المنصور - لنفس القرى ، ارجع الى دائرة المعارف - لادرس ، والى تاريخ إيران باستان . . تأليف الرحوم بشير الدولة ، الطبعة الاولى ، ص ١٥٣ وما بعدها ، والى يساناما - الاستاذ يور داود ج ١ ص ٣٤ .

يضاف الى ذلك انه يكثر في الاسرار القديمة التي خلفها الآريانيون اطلاق اسم الآريين على الآريانيين . فلنجد ان « دارويوش الكبير » - على سبيل المثال - فهاهنا نفسه في نقش رستم (آريا ومن النصر الآري) . ويلاحظ ان مويشت نجد انه قد اشر فيها الى مشاهير للمواطن الآرية Airyana Shayanem .

لغة ٢٥٠٠ عام من مصر إيران

جوستن (Justin) ، وديودور
سيسيلي Diodore de Sicile
فقد استطاع السكا بفضل هذه الشجاعة وتلك
المهارة أن يسيطروا في سرعة خاطفة على آسيا
الوسطى ، وأن يخضعوا لسيطرتهم المنطقة
المحصورة بين حدود جيحون من جهة القوقاز
وسواحل البحر الاسود من جهة أخرى .

وفي اقترن السابع قبل الميلاد تمكن هؤلاء
القوم من عبور جبال القوقاز ، وتدفعوا في
الاماكن المجاورة لما بين النهرين ، حيث هزموا
« كراكسوس » الملك المادي ، قبل أن يسلكوا
الطريق الى حدود مصر . وقد نجم من تقدمهم
وغلبتهم خراب كبير ، ولم تتمكن الدولة المادية
من الخلاص من براثنهم الا باللجوء للحيلة
والخدعة ، وقتل زعمائهم في وليمة
رسمية . (١٢)

ويرى بعض الدارسين ان قبيلتي داه Dahi
وساتيريم Satirima - اللذين ورد اسمهما
في الفستاق - قبيلتان إيرانيتان ، بينما يرى
البعض الآخر انهما تنتميان الى السكا .

وكلمة داه تلفظ في السنسكريتية (داس) ،
وهي تعني قبائل العدو الشريرة التي تحمل
صفات الشيطان . وبناء على قول آرين Arrien

في الناحية التي أطلق عليها في الأستاق - كتاب
زرادشت المقدس - اسم آيرين واجه (إيران
ويج) Airyana-Vaējah (١٣)

ويمكننا القول بأن هذه الاقوام كانت تنحصر
في جملتها الى مجموعتين أساسيتين ، يطلق
على أولاهما - وهي التي تتميز بالقوة والعنف
- اسم (سك) . بينما يطلق على المجموعة
الثانية - وهي التي تفوق الأولى تمدننا
وحضارة - اسم (آري) .

ويرد اسم السكا في التون الأوروبية قديما
وحديثا على النحو التالي :
Soytho, Saco Saka (وهو
نفس الاسم المأخوذ من الأصل اليوناني
« شكوث ») .

وبناء على ما ذكره هيرودوت فإن هذه
الطائفة هي الطائفة نفسها التي كان أفرادها
يسمون أنفسهم Soolotes .

وكان السكا دائمي الترحال لا يقر لهم قرار ،
كما كانوا فرسانا يتميزون بالشجاعة والاقdam
والمهارة في تفويق السهام . وطبقا لاقوال
الجغرافيين والقرخين امثال (هيرودوت
Herodote) كترياس (Ktésias) ،

(١١) فيما يتعلق بهذه الكلمة والشرح الاستيفائي ، ارجع الى : اليستاق ، دمج ١ تحت عنوان
« إيران ويج » للاستاد يود داود ، ص ٢٨ وما بعدها . ايريني در إيران ، ترجمة الدكتور صفا من رسائل
كريستي سن ، متن الصفحات ١٢ ، ١٤ ، ١٥ وهو انشأه ، طبع طهران ١٣٢٦ .

هذا ، وقد لفظ بعض المستشرقين (آندراس وليمكريستن سن Arthur Christensen كلمة آيرين واجه
على النحو التالي : آرين ، ويوجه Aryana vyōcah ولكن الرواية التقليدية لهذه الكلمة تأخذ الصورة
التي كتبناها .

انظر : مؤدا يريستي در إيران ، للدكتور صفا ، حاشية ص ١٢ .

(١٢) اورد هيرودوت شرحا مسجبا عن السكالكالغريين وسكالكهم ، وذكر عاداتهم ولغاتهم ، وهو شرح
عام يستحق الدراسة والتفحص .

انظر : تاريخ هيرودوت (كتاب ١٤ - ٨٢) .

وفيما يتعلق بالسكا ، ارجع الى : إيران باستان ، للمرحوم مشير الدولة ، ج ١ ط ١ ص ٥٧٧ - ٦١٨ ،
ج ٢ ط ٢ ، ص ٢٢٥٧ - ٢٢٦٢ - ٢٢٦٥ .

وطبقا لما ورد في إحدى النصوص القديمة
فان قبائل سارمات أو سورومات *Sauromata*
قد نشأت عن اختلاط السكا والمنصر الأمازوني
Amazona وعلى أي حال فان
قبائل سارمات من نفس جنس قبائل السكا ،
وكانت تعارب إلى جوارها جنبا إلى جنب ضد
الشاهنشاه الهخامنشي « داريوش » .

وقد نشأت قصة « سلم » (= سرم) وحويه
إلى جانب أخيه « تور » ضد « إيرج » . .
نتيجة لصراع قبائل سارمات (سورومات) مع
الإيرانيين ، تلك القبائل التي كان يتكون من
مجموعها (شعب سثيريم) الوارد في الإفتسا .

هذا وترد في النقوش الهخامنشية والكتابات
الفارسية واليونانية عدة أسماء لقبائل أخرى
غير ما ذكرنا . ومن بين هذه الأسماء : سك
هثوم ورك *Saka-Haoma-Varka* (١٦) ،
سك تيكركشوده *Saka-Tigra-Axodah* (١٧)
وكل طائفة من هاتين الطائفتين فرع من السكا
مجاور لسبحون .

ويقصد بـ *Sakātyaya-tara-daraya*
البلاد التي استوطنها السكا فيما وراء البحر
وتعني بالبحر هنا البحر الأسود . كما يقصد
بها مجموعة السكا الأوروبيين .

وفي المصريين المادي والهخامنشي أكثر عدد
من هذه القبائل من الأفاة على الأريسيين

فان قبيلة داه أو دا أي *dāci* أو داه *Dahae*
كانت تسكن شمال جرجان (هيركانيا) ومرو
على عهد الإسكندر . وبناء على قول غيره من
الؤرخين فانها لم تترك شمالي جرجان قط ،
وظلت هناك على نحو جعلهم يطلقون على هذه
اللتاحية اسم (دهستان) (١٨) .

اما الاسم سثيريم *Sairima* - سارمات
Sarmate فقد ورد في الفقرة ١٤٣ من
البشت ١٣ . (فرودين) يشت) . ويسرى
دوهاو له أن مملكة سثيريم هي سورية وآسيا
الغربية ، ويرى ماركوارث أن سثيريم تعني
شعب سور ماتي *Sauromat* (١٩) .

ويقصد بكلمة (سرم) الواردة في الفتا
العصر الاشكاني نفس شعب (سارمات) الذي
ذكره الكتاب اليونانيون القدماء . ويحتمل
أيضا أن يكون (سورماتي) و (سارمات)
اسمين لشعبين مختلفين . (٢٠)

وقد اخذت قبائل سارمات العديدة - التي
نشاهد اسمها في التون اليونانية - كتاب
هيرودوت - تنتشر ابتداء من القرن الخامس
قبل الميلاد تقريبا في الممالك الواسعة الواقعة
بين البلقان والسواحل الغربية لبحر مازندران .
وكانت هذه الجهات الواسعة تنقسم إلى
قسمين :

ساوماتي الغربية (أوروبية) وساوماتي
الشرقية (آسيوية) .

(١٣) : « داه » يرمي إلى إيران قديم من داه .

(١٤) : (سثوم - تا) *Sauruma-ta* يتكرر فيه الحرف « ت » وتكمل التاء إلى حالة الجمع . وقد كان
في الأصل طبقة لرسم إيران الشمالية (سثي ديم) يتكرر الحرف (ا) . .

(١٥) : « تار » : داه يرمي إلى إيران قديم ، ترجمه دكتور صفا عن رسالتى كريسطن سن ، ص ٨٢ - ٨٤ .

(١٦) : هثوم = هوم : وهو شعب مقدس لدى الآدين القدماء . ومن لاسم به أن هذا الشعب كان عظميا إلهيا
لدى أبناء عورتهم من السكا . . وكان يستخدم في الاحتفالات الدينية . وقد يعنى يرك أى ورقة شجر .

(١٧) : الاسم على السكا التشيغيين .

ويطلق الإيرانيون على هذا الجنس في اديهم
الفارسي اسم الترك والتورانيين . وينسبون
اليهم العديد من الاقوام امثال :

الهون ، القرقيز (الخرخيز) ، القراق
(قاراق ، خرلخ ، خلخ) ، الفز (التركمان ،
تفوز ، تفوزا ، غوز) ، القفجاق ، الكيمك
يفما ، توخشي ، القنقل ، الخزر ، التتار ،
المقزل ، الخطا وامثالها) .

قدم الآريون الإيرانيون الى إيران -
كما رأينا - من عدة أماكن ، وسلكوا أكثر
من طريق ، ولدت هجرتهم تدريجيا . وحين
ولدت قدم أول جنس آري فلولت إيران ..
بميتها اقدم بقتية القبائل ، واخذت في الانسياب
تدريجيا . فiran دخلوها البلاد وانتشرت
نفوذها لم يكن بالامر الهين السهل ، فقد
اضطرت الى الصدام بمن تقدمها من قبائل .
ولم تنجح احتلالها من الوقوع في قبضة قبائل
السكا التي كانت تهاجم حدود سيمون ،
ويصل بها الهجوم الى اعماق ما وراء النهر
والجهات القريبة من آموية .

وكما نتج من اصطدام الإيرانيين بالسكا
قصص بطولية عديدة .. فقد نسجت اذهان
الإيرانيين الشرقيين أكثر من قصة نتيجة
للمحروب التي وقعت بين الإيرانيين وذلك
الشعوب التي ذكرناها . وهذه القصص بشكل
التراث القصص البطولي الشعبي لايران .

وقد تسببت هجمات الأورال التائيين
على قبائل السكا في اضطرابها الى التقهقر ،
وانجاء بعضها شطر حدود إيران الشمالية
والشرقية . كما تسببت هذه الهجمات نفسها
في ارتباط طوائف أكبر بيني عمومها ، وذلك
في الأراضي الواقعة شمالي بحر الخزر وغربه ،
او البحر الأسود ، أو الأراضي الشرقية لشبه

الإيرانيين . وقد تمكن داريوش الكبير - لأول
مرة - من إخضاع معظمها ، وأفلح في ادخالها
في طاعة الدولة الإيرانية . (١٨)

وقد ترك طول الصراع والجلاد بين الإيرانيين
والسكا اعمق الال في نصص إيران الشعبي .
ووضع في الكتب ابتداء من الاثنتا حتى
الشاهنامه . وباتت هذه الصراعات تشكل
جانباً من مادة تاريخ إيران البطولي ، وحين
حلت القبائل الصفراء الأورال الثانية محل
عناصر آسيا الوسطى البيضاء ، وشغلت مكانها
في القرون التالية ، نسبت كل هذه الأحداث
التاريخية المرتبطة بها الى العناصر الصفراء
التورانية . بينما تؤكد التحقيقات وثبتت
الحديث من الأبحاث انه حتى النصف التتوي
(التوراني) - وهو النصف الذي تكرر ذكر
اسمه في الاثنتا - كان هو الآخر - بكل
أبطاله وملوكه - احد عناصر آسيا الوسطى
الهندو أوروبية .

ويطلق الاسم : أورال التائي Oural-
Altaique على مجموعة من الاجناس
البشرية ولغاتها ، وهي الاجناس التي كانت
تقع مواطنها الاصلية بين سلسلة جبال أورال
(الواقعة في أوروبا الشرقية) والتي تمتد
الحد الفاصل بين أوروبا وآسيا) وبين جبال
التائي في منشوريا ، لم اتسمت بعد ذلك
بسبب تفرق ابناءها وتبعثرهم .

ومن الاسماء الأخرى التي تسمى بها
الاجناس الأورال التالية :

أورالي Ouralien ، أوكروفنلاي
Ougro-Finois ، أوكرو آلتايلي
Ougro-Altaique ، فينسو أوكراي
Finno-Ougrien ، فينسو تاتاري
Finno-tatar ، توراني ، وغيرها .

(١٨) ارجع الى : تاريخ إيرانستان (تاريخ إيران القديم) للمرحوم مشير الدولة ، ج ١ ص ١٨٢ - ١٨٤ ،
ص ٦١١ وما بعدها .

جزيرة البلقان .. تاركة منازلها ومساكنها
للجنس الأصفر .

وحين أصبح الإيرانيون جيرانا للأوراليين
واللتانيين ، أخذوا يتكبدون الوقائع التي
تمت على يد سكان سيحون وجيخون ، فمحووا
من أذهانهم ذكرى السكا ، وانغمسوا إلى
الجيران الجدد .

ونجد من المناسب هنا أيضا أن نتحدث
عن الاسم تورى Turya فنقول أنه في المقام
الأول كلمة من كلمات الأستا نسبة إلى تور
Tara وتعني توراني .

أما كلمة توران الواردة في القصص
الشعبية وفي التاريخ فهي اسم للبلاد التي
كانت تقع في شمال شرقي إيران . ويرتبط
هذا الاسم بأواخر العصر السابق على العصر
الوسطى في تاريخ إيران ، أو ربما يرتبط
بأوائل العصر الوسطى .

ويعرف دارسو اليهودية أن الإداة (أن)
تستخدم في تلك اللغة كأداة من أدوات النسبة
مع الأشخاص والطوائف ، فيقولون مع
الأشخاص مثلا :

وزد كتر بوختكان ، بهمن سپند داتان ،
رام وشتاسيان .

ويقولون مع الطوائف والشعوب :

خوزان ، ديلمان

ويناد عليه فان (توران) معنى ناحية
منسوبة إلى شعب (تور) .

وقد ورد ذكر اسم قبيلة تور في
الإستا عدة مرات (١٩) .. مقترنا بقلب
آسو اسب Asu-aspa أي مالك الجيود
السرع ، كما ذكرت باعتبارها مدوة للإيرانيين
وهذه الكلمة تلفظ عند النسبة : توريه Turya
(تورى ، توراني) . وقد ورد اسم البلاد
التي عاش فيها شعب تور - أي توران - في
الأستا على هذه الصورة : تورين Turyana
وكان من بين أبناء هذا الشعب من يعتقدون
في مزدنسنا ، (٢٠)

ويمكننا الاستفادة من اشادة آبان
يشث (٢١) في تحديد محل سكنى التورانيين،
وتعني بذلك الإشارة الخاصة بحرب (توس
هم) قائد الجيوش مع شباب أسرة واس
(ويسه) الملكية . وقد وقعت تلك الحرب
في مر (خشتر سوك) على مشارف قلعة
كنك . ولو أخذنا بما قاله ماركوارت Mar-
quart في إبحاله من أن هذه القلعة كانت في
بخارى .. لثرب على ذلك أن يكون موضع
سكنى التورانيين هو هذا الجانب من جيخون
المحصور بين بخارى وبحيرة خوارزم . ويتفق
بطليموس مع ماركوارت في اعتبار توران نفس
خوارزم .

وساعدنا تحقيق ماركوارت هذا في
الاتجاه إلى التفكير في أن التورانيين فرع من
الجنس الآري الإيراني (٢٢) . كما يجعلنا الحكم
بخطا كل الإشارات الواردة في المتون البهلوية

(١٩) يشث ١٣ ، البندان ١١٢ ، ١٢٢ ، ويشث ١٧٠ ، البندان ٥٥ ، ٥٦ .

(٢٠) يساكي ١٢ ، بتد ٢٦ ، فرودين يشث بتدهاي ١١٢ ، ١٢٠ ، ١٢٣ ، ١٢٤ .

(٢١) البتود من ٥٢ - ٥٩ .

(٢٢) انرجةالة الإستا مينورسكى (Minorsky) يمتثلها توران ، وذلك في دائرة المعارف الإسلامية .

الأورالتائية قد غيرت طريق غاراتها - بعد أن أمر « سين » أمبراطور الصين بإنشاء سور الصين العظيم - وأصبح هجومها موجها إلى الغرب . وقد بدأت هذه القبائل الأورالتائية بهجمة بعض قبائل السكا من سكان آسيا الصغرى . وكانت بداية الهجمات موجهاة من قبل قبائل (يوتيه جي) التي كانت بدورها عرضة لهجوم قبائل الهون (خيوان) طبقا للتسمية التي وردت في الكتاب البهلوي آياتكار نديران التي ألحقت بها الهزيمة في حدود عام ٢٠٠ قبل الميلاد .

وقد أضافت قبائل يوتيه جي - بعد فقدان منازلها - على حدود أراضي سيحون الشرقية ، وطردت قبائل السكا نحو الجنوب الغربي . وكان فرهاد الثاني (١٣٦ - ١٢٧ ق . م) أول من تصدى لهم من بين الملوك الأشكانيين ، وقد قتل خلال حربه معهم .

وفي فترة هذه الأحداث أغار السكا على الجهات الغربية من دولة اليونان ، ثم استقروا في أفغانستان الحالية ، وطردوا يونانيي الغرب نحو كابل ووادي الهند . ولم يمض طویل وقت حتى سقطت بقية دولة اليونان الغربية في أيديهم فكونوا دولة جديدة هندوسكائية تقع بين حدود رَجَّح ووادي الهند . كما أدت تلك الغارات أيضا إلى سكنى قبائل من السكا - قدمت من أطراف سيحون وأنحاء جيحون - في مملكة سيستان .

وكان اسم سيستان - قبل سكنى السكا في شرقي إيران - يرد في الروايات الإيرانية على هذه الصورة : Zaranika

وما تلاها من اشارات تتعلق باختيارهم إيراكا (٣٣) . وهكذا نفترض قرابة التورانيين للأرنيين الإيرانيين . ونخلص إلى أن الشعب الإيراني الذي هاجر إلى بلاد إيران واستقر في المدينة قد طرد القبائل الآرية الأخرى التي كانت مازالت تسكن الخيام ، وتهاجم البلاد العامرة المجاورة طلبا للوقت . . وأنه - أي الشعب الإيراني - قد اعتبر هذه القبائل من طينة غير طينته .

والواقع أن أسماء الملوك والإبطال التورانيين أمثال :

فرنجرسين (Frangrasyana) فراسياب ،
أفراسياب (أفرارثا Aghraeratha) أفريرث
كرسوزدا Keresavazda (كرسوز) ، أرجست
أسب Arodjat-aspa (أرجاسب)
بمعنى (مالك الجواد والمنزلة) ، ونذر مشي
فيش Wandere Mainish (وهو في
الشاهنامه أنديرمان) وواسك Vaeenka
كلها أسماء آرية إيرانية ، ولا يوجد أدنى تشابه بين اسم منها واسم من أسماء الأورال التائيين .

ولم تكن هناك علاقة جوار أصلا بين الأرنيين والإيرانيين وبين القبائل الصفراء الأورالية والألتائية في عصر تدوين الأستا .

وقد حدث هجوم قبائل السكا وضغطهم على الحدود الشاهنشاهية الأشكائية في أواسط القرن الثاني قبل الميلاد . ويرجع السبب في ذلك إلى أن عددا من القبائل

(٢٣) أريج في هذا الصدد إلى :

أولا : مقالة استاذي وصديقي المفضل « السيفينيوسكي »

ثانيا : دراساتي في كتاب : « حضارة سراين دد إيران » ، چاپ دوم ١٣٣٣ ص ٦١٣ .

نسبت كل الاحداث التي جرت بين الشعوب الآرية الإيرانية وبين سائر الشعوب الآرية في جيحون وسواحل سيحون .. الى هذه الاجناس الصفراء بعينها .

ويبدو ان غارات القبائل الصفراء وهجماتها كانت سببا في الهجرات التي قام بها العديد من طوائف السكا ، وتركها آسيا الوسطى وانضمامها الى زميلاتها في المنصر ، وسكانها في سواحل بحر مازندران الشرقية والشمالية واقامتها في الاراضي الواقعة شمال البحر الاسود وشماله الغربي .

ذكرنا انفا ان قبائل آسيا الوسطى الهند أوروبية كانت تنقسم الى شعبتين كبيرتين هما السكا والآريين . ولتعتبر القبائل الآرية التي نسميها بالهندو آيرانية بمثابة الآباء لشعبي إيران والهند الكبيرين . وكانت تطلق على نفسها لقب (آري) اي الشجاعة والشرفة . وهذا هو السبب نفسه في انه حين عبر قسم من هذه القبائل اراضي (الهندوكوش) واستولى المراده على وادي السند وجزء من اراضي الهندوستان ، اطلق عليه اسم (آري ورت) Aryavarta (٢١)

كما انه بعد سكنى القسم الاخر - اي القوم الذين كانوا يطلقون على انفسهم اسم (آيري) في نجد إيران - بات يطلق على هذه البلاد اسم (آيرين) اي بلاد الآريين (بلاد

وهو نفس الاسم الذي كان اليونانيون يكتبونه درليكانا Drangiana . وقد حددوها من الشمال بآريانا (خراسان) ، ومن الشرق بأرخوزيا Arachosia (رخج) ومن الجنوب بكدروزيا Gedrosia ، ومن الغرب بكرمانيا Caramania (كرمان) .

اما بعد سكناهم في شرقي إيران فقد تحولت زرنك (درليكانا) الى سكستان . وهي نفسها الكلمة التي تطورت في العهد الاسلامي الى سجستان وسيستان .

والنسبة الى هذه الولاية في الفارسية (سكري) سجزى ، اما اسم الولاية القديمة فقد ظل يطلق على المدينة الرئيسية (سيستان) وحدها ، وهي المدينة التي ظل اسمها لفترة من فترات العهد الاسلامي (زرنج) . (٢٤)

وعلى اثر مجاورة العناصر الصفراء للامبراطورية الآيرانية عرف الإيرانيون القبائل الاورالية واللاتالية على حدود نجد إيران الشرقية ، واطلقوا عليها في آثارهم الادبية - التي يرجع تاريخها الى القرون الميلادية - اسم خيون تارة وهفتال تارة أخرى .. واخيرا اطلق عليها اسم الترك . (٢٥)

وفي قصص إيران الشعبية البطولية - تلك القصص التي يرجع تاريخ وشعبها وتدوينها الى ما بعد القرن الثاني الميلادي -

(٢٤) ارجع الى معجم البلدان الياقوت ، تحت كلمة زرنج .

(٢٥) الترك : نفس الكلمة التي استعملت في جميع الكتب الفارسية والعربية في العصر الاسلامي تسمية لسائر قبائل آسيا الوسطى الصفراء .

ارجع الى : تاريخ ادبيات دد إيران ، المكتورصلا ، ج ٢ خزان ١٢٣٦ ، ص ٧٧ وما بعدها .

(٢٦) اطلقت هذه القبائل على تلك البلاد اسم (بهارت وري) Bharatavarsha او بهارت بهومي Bhārata dhumi اما الإيرانيون فقد اطلقوا عليها اسم (الهند) .

ارجع الى : سنا : آفاي يود داود ، ج ١ ص ٢٤

ويؤثر عن الهيتين أن تفوذهم قد سري
لعدة قرون ، سيطروا فيها على ممالك تابعة
آسيا الصغرى وسوريا ووديان الفرات العليا ،
وذلك قبل أن تخضعهم آشور في القرن التاسع
قبل الميلاد . ولم يحاول الهيتيون استعادة
ما سلب منهم ، ولم ينهضوا طلبا للاستقلال
وانهاروا بصفة نهائية . والتون التي نعيمها
والتي تنسب إلى هذا الشعب ترجع كتابتها
إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد تقريبا . وقد
تم العثور عليها أثناء الحفريات التي أجريت
بين الميتينيين - سكان شمال بين النهرين -
وبين الدولة الهيتية .

وفي هذه التون يقسم الامراء الميتينيون
بالآلة الآريين امثال (ميثرا) Mitra
(ورون) Varuna ، و (إيسندرا) Indra
إله الحرب لدى الهنود والآريين - وناس تياس
Nasatyas وهذا القسم في حد ذاته يدل على
تفلفل نفوذ الهند وآريانيين في فلاة ايران قبل
التاريخ المذكور .

وقد تصور البعض - بسبب ظهور
أسماء هذه الآلهة - أن عددا من الهنود أو
جيرانهم الذين كانوا يعبدون الفلا قد هاجروا
إلى آسيا الصغرى وحملوا معهم هذه الأسماء

الشعب الآري (٣٧) . وظل هذا الاسم
يستعمل في مصور ايران التاريخية بأسرها
ومازال . وكان يلفظ في لهجات ايران الوسيطة
على هذا النحو آران وأرانشر ، ويلفظ في
اللهجات الحديثة : ايران وأيرانشهر .

وقد توقفت هجرات القبائل الآرية إلى
ايران في أواسط الألف الثانية قبل ميلاد
المسيح . . وبين أيدينا الكثير من الأدلة التي
التي تثبت هذا الأمر ، من بينها ما يستقى من
متون الهيتينيين . . سكان آسيا الصغرى .

والشعب الهيتي Hittite أو Hethen
أو Hethen يسمى في اللغة اليونانية
خنايوس Khettaios ، وفي السريانية ختي
Khatl ويشكل أحد شعوب آسيا القديمة
التي كانت تسكن المنطقة الواقعة على نهر
هاليس Halys وأعلى نهر الفرات في المصور
التاريخية الموقفة في القدم . وكان هذا
الشعب يضغط في بعض المصور للإمبراطورية
الآشورية ، وفي بعضها لقراصة مصر . وكان
يعبد الأوثان ، ويطلق على رب الأرباب لديه
اسم خاتي Khatl وكان حكامه يسرون على
طريقة ملوك الطوائف في حكمهم ، أما الأمراء
فكانوا يدينون بالطاعة لملك واحد كبير .

(٣٧) Airyana ايران : تعني بلاد الآريين (آيره Airya) . ويجب أن يسمى في الآريائي : أن آيره
(Anairya) ، وأن تسمى ما هنا ايران آن آيره (Anairya) .

وكلمة آيره في اللهجة اليهودية : آران Arān وفي الفارسية آيران .

وكلمة آن آيره في اليهودية تلفظ آيران (بالآلة الجبولة) ولذا استخدمت في الفارسية فاتها تارا - طبقا
للصلاة - (آيران) ، باستعمال آلهة العرولة .

(٣٨) بيازكوي Boghazkoi أو بياز كوي Boghaz-Kui اسم قرية في تركيا تقع في مدينة أنقرة
(أنقرة) . وتوجد أطلال مدينة بتر Ptérium في القرى على هذه القرية .

(٣٩) ميثرا Mithra هي في السنسكريتية ميثرا Mitra ، وفي اليهودية ميثرا Mitro وفي الفارسية ميثر .
ميثرا اسم إله من أهم آلهة الميثن الآلست . ومع هذا الإله فلم على ظهور جديدة وإيرانية . . وقد كان في
حد ذاته إله ظهور دين خاص باسم ميثر بركتي ، أي ميثرا ميثرا Mitraismo . فيما يتعلق بـ (ميثر) انظر : آلهي
يود حاد ، يشنها ، ج ١ ص ٢٢٢ وما بعدها .

مرو وبلخ ، هرثو *Haraova* (هرات) ،
واكرت *Vakoreta* (كابل) ،
أورو *Urva* وموقمها في خراسان الحالية ،
وخنكت *Khngenta* في بلاد وهركن
Vohrkana (كر كان = جرجان) .

(و) وهركن) هي نفس الاسم الذي ورد
في نقوش بيستون مضبوطا على النحسو
التالي : وركن *Varkana* ، ورد في التون
اليونانية على النحسو التالي : هيركانيا
Hyroania والري (رغ *Ragha*) .
(ويرى البعض نتيجة تأثرها بالتفاسير
البهلوية أنها نفس المدينة المجاورة لظهران
حاليا . بينما يعتقد كيبرت *Kiepert*
ودوهار له *De Hariez* أنها مدينة
(راكابا *Ragnia*) الواقعة في
بلاد (برثو) أي بارث التي أشار إليها
بطليموس في كتابه الخاص بالجغرافيا) .

وعقب هذه الاسماء وردت في هذا الفرکرد
اسماء ممالك أخرى تصل إلى هتاهندو
Haptahindu . ، أي تشمل قسما
من بلاد السند وحدود الهند . وهذه هي
النواحي التي هجرها الآريون منتقلين في
أنحاثها المختلفة هربا من الكوارث التي كانوا
يواجهونها حيث ينزلون .

ويوضح خط السير أن حركة الآريين
كانت تنحى من جنوب بحيرة خوارزم حتى
خراسان وكابل والسند من جهة ، وتوجه
غربا حتى تبلغ غربي كوش (قومنس) وحدود
الري من جهة أخرى .

بينما تصور غيرهم أن المهاجرين كانوا من
الآريين الذين وفدوا من جانب بحر مازندان ،
وأحضروا معهم عقائد أجدادهم الهندوآريانيين
والرأى الأكثر قبولا والأقرب إلى الصواب
هو أن الميتينيين قد أخذوا أسماء هذه الآلهة
من جيرانهم الجدد الذين كانوا قد ظهوروا في
تجد إيران ، ونعني بهم الآريين الإيرانيين ،
وكان هؤلاء بدورهم قد ورثوا الأسماء من
أسلافهم الهندوآريانيين .

ويستنتج من ذلك أن الآريين قد ظهوروا في
تجد إيران قبل حلول القرن الرابع هشر قبل
الميلاد . (٢٠)

وتوالت الهجرات إلى إيران من طريق
الشرق والشمال واستمرت فترة طويلة .
وأقرب الآراء إلى الصحة بالنسبة لما يتعلق
بالطريق الذي سلكه الآريون في هجرتهم إلى
تجد إيران هو أن مجموعة كبيرة منهم قد
وفدت إلى إيران من طريق جيحون . ويجب
أن نعتمد في هذا الصدد على إشارة الاقتسا
الواردة في (فرکرد أول ونديداد) ، حيث
يدور الحديث أول مايدور حول خلق (آئرين
وأجه) بمشيئة (آهو مزدا) وقدرته ، ثم
ينص على أنه بعد انقراض (أهرمين) وتخريبه
في تلك البلاد ، استحكم بردشديد ، وأصبحت
مدة الشتاء ١٠ شهور ، ومدة الصيف شهرين
وكان شهرا الصيف بدورهما باردين لهما
تأثيرهما القاسي على الماء والأرض والعشب .
عندئذ خلق آهور مزدا أراضي أخرى مشمرة
مثل :

سوغد *Sughda* (سفد) ، مورو
Mouru (مرو) ، باخدي *Bakhdhi*
(بلخ) ، نيسابه *Nisaya* (نيسا) بين

(٢٠) أرجع في ذلك الموضوع بمقالة خاصة إلى :

كريستن سن : ملاحظتي در باره قد يمشين هوداين زرتشتي (در مجموعة مزدا پرستي در ایران قديم ،
ترجمة دكتور صفا ، ص ٢٢ - ٢٦) .

● التوندنار : اسم التناك العشرين في كتاب الزند .

آشور كان في عام ٨٣٧ ق.م يخضع للكلماء
القبيلتين لنفوذه، ويحصل على خراج منهما .

وتجمع الآراء على أن قبائل (ماداي) هي
نفسها قبائل (ماد) ، أما قبائل (بارسوآ)
فإن البعض يحكم بأنها نفس شعب بارث
(أصلها برثو Parthava) ، بينما
يحكم آخرون بأنها قبائل (بارس) ، وظاهر
الكلمة يؤكد صحة الحكم الثاني (٢١) .

وكانت قبائل بارس ما تزال تسكن في تلك
الأونة شمالي بحيرة (أورمية) .. أي شمالي
نفس البحيرة التي ورد اسمها هكذا في متون
الإنستا : (جيشست) (٢٢) Tchaatchasta
وفي المتون البهلوية : (جيشست) Tchatchast
وفي شاهنامه الأستاذ أبي القاسم الفردوسي
(جيشست) .

أما الطائفة التي عبرت جيحون ، واختارت
إنحاء إيران الشرقية والشمالية الشرقية
مكانا لسكنائها .. فهي نفس الطائفة التي
راجت الإنستا بين أفرادها باللهجة التي
كانت متداولة بينهم .

وطبقا للأخبارات الواردة في الكتابات
واليشات القديمة أمثال : مهریشت وآبان
بشت ، وبناء على ما ورد في قطعات الينسات
القديمة التي يعود زمنها برمتها إلى ما بين
القرنين الخامس والعاشر قبل الميلاد .. (٢٣)

وبناء على بعض الآراء .. فقد استمرت
هذه الحركة من المشرق إلى المغرب ، وبلغت
الاجزاء الوسطى من آذربيجان .

وفي عام ٨٣٦ قبل الميلاد - وقت أن كان
شلم نسر الثاني يحارب الآريين في نجد
إيران - كانت هناك قبائل أخرى باسم
بارسوآ (بالضبط الآشوري) . وكانت هذه
القبائل تعيش في شمال الممالك التابعة للقبائل
المادية قبل أن تتجه جنوبا تاركة وديان مغرب
إيران ، وتسكن بلاد فارس .

وهناك رأي يؤكد أن طائفتي ماد وبارس
قد قمتا معا إلى إيران من طريق جبال
القفقاز ، بعد أن عاشتا معا فترة من الوقت
انفصلتا عن بعضهما البعض .

واستطاعت القبائل الدالية الحركة أن
تطهر الانحاء الشمالية الغربية ، والغربية ،
والوسطى ، والشرقية من بلاد إيران ، فتطرد
منها سكانها وتصل محلهم .

وكما يبدو من نقش شلم نسر الثاني الملك
Shalmanasser II

فإن من سكنوا المناطق المذكورة كانوا ينتمون
إلى قبيلتي (ماداي) Madai و (بارسوآ)
Parsus ، وأن هذا يرجع إلى
القرن التاسع قبل الميلاد طبقا للضبط
الآشوري . كما يتضح من النقش أن ملك

(٢١) رسالة كريستن سن بعنوان : ملاحظات : در باره قدیمترین مهوراين زردشتی . (ملاحظات حول
القدم مهوراين النين الزردشتی) ، وهي الرسالة التي ترجمتها ضمن مجموعة « موزا پرستی در ایران القديم »
ص ٢٧ ، ٢٨ . (تاريخ إيران عتيق) للفرحون مشيرالدوله بيرينا ، ج ١ ص ١٦٩ . ويثبت هذا الرجوع أن
حملة شلم نسر قد كانت في عام ٨٣٨ قبل الميلاد .

(٢٢) أورمييه هي الاسم السرياني لـ « جيحست » أي الرضائية العالية ، ومنعناها لعملة التي على شكلها
النهر ، ويطلق هذا الاسم في الأونة الأخيرة خطأ « أورمييه » .

(٢٣) فيما يتعلق بتاريخ اليشات ، انظر :

رسالة (تعليقات در باب کیش زردشتی ایران باستانی) ، تأليف الفرحون آرار كريستن سن ، التي قيدت
بترجمتها ضمن مجموعة « موزا پرستی در ایران القديم » (مجلة موزا في إيران القديمة) ، ويمكن الاستفادة بمسلة
خاصة من الفرست التي طبع في ص ١٢٢ .

ولو أخذنا بما ورد في الأفاستا من إشارات ، وبالمعلومات التي تصادفها في القصص الشعبي الإيراني .. لوجدنا أن نطاق نفوذ كاوس (كوي أوسن Kavusan) أو (كوي أوسون Kavi usdhan) على سبيل المثال كان يمتد إلى حدود وادي السند .. لأننا نرى اسمه في الفدا على النحو التالي :

اوسنس كاوي Usanaskavya (٢٥) .

وطبقاً لإشارات الأفاستا والتون البهلوية الفارسية فإن هذا الملك نفسه قد أغار على بلاد الشيطان المازندراني . ونستخلص من هذا اللون من الروايات رأياً يقول بأن نطاق هجوم الكيانيين كان محصوراً بين وادي السند ومازندران . ولا يستبعد أن يكون تقدمهم صوب مازندران قد تم من طريق شمال خراسان ومن طريق جرجان .

ومهما يكن من أمر فإن أول ملك ورد ذكره في الأفاستا من بين هؤلاء الحكام هو (كوي كوات) (كيقباد) ، وأكبر الملوك وأعظمهم هو (كوي هتو سروه) (كيخسرو) ، أما آخرهم فهذه (كوي ويشتاسب) (كي كشتاسب) ظهر الرسول زردشت وحاميه ونصيره . ويشاهد اسم هذا الملك مراراً في الكتابات .

وهناك تضارب في الأقوال فيما يتعلق بالمصر الذي عاش فيه زردشت . غير أن المحققين قديمهم وحديثهم يجمعون على أنه ينحصر بين القرنين العاشر والسادس قبل الميلاد . ومن بين أقوال قدامى المحققين يبرز قول جديري بالاهتمام نادى به خسانتوس Xanthos de Iydie

الليدي

كان يحكم هذه الطائفة مدد من الأمراء المحليين ، يلقب كل منهم بلقب (كوي) أو (كي) .

داولي الكلمتين تصادفها في أكثر من موضع في الكتابات واليشتات ، وهي نفسها الكلمة التي تغيرت في اللغة البهلوية إلى كي أو كي بالياء المجهولة kē وهي نفسها التي تغيرت أيضاً في اللغة الفارسية إلى كي . وأصبحت في تاريخ إيران بمثابة لقب يطلق على مجموعة خاصة من الملوك بدأ حكمهم بثولية قباد .

وكلمة (كوي) - في الأفاستا - إلى جانب كونها لقب لمجموعة خاصة من الملوك ، فإنها تعني مطلق شاه وأمر . وقد استخدمها الفردوسي الشاعر في هذين المعنيين . فتجده في البيتين التاليين مثلاً يستخدم (كي) (٢٦) بمعنى شاه ، وذلك عند حديثه عن أفريدون الذي لم يكن ولا شك عضواً في سلسلة الكيانيين :

ندانست خود افريدون كجاست

سراندر كشيد و همی رفت راست

جسو آن پوست نیزه بر دیدکی

بنیکی یکی اختر افکند بسی

ويقال ان هؤلاء الحكام من الأمراء المحليين كانوا يسيطرون نفوذهم على رقعة واسعة من الأرض ، ويمتد حكمهم ليشمل جرجان ومازندران من جهة ، ووادي السند من جهة أخرى .

والواقع ان ليس بين أيدينا دليل تاريخي يمكننا الاعتماد عليه كلية في هذا الصدد .

(٢٦) ارجع فيما يتعلق بذلك (كي) ومعانيها إلى :

جاسته سرايي در ايران ، دكتر صفا ، چاپ دوم ، ص ٤٩١ - ٤٩٢ .

(٢٥) الترجع السابق ، ص ٥٠٩ .

وتكن أهمية هذه الطائفة في ان اكبر مصلح ديني آرياني إيراني قد نشأ في أحضانها بالرغم من الروايات التي تنسبه إلى (دك = الري) و « جئجست = أورية) . (٢٨)

ونعني بهذا المصلح زردوشتر سببته Zarathustra Spitama « مالك الجمل الأصفر » كما يفضل البعض ترجمة اسمه . ويلاحظ أن هذا الاسم يضيف في البهولة على هذا النحو : Zarathuštr ، وفي الفارسية على هذا النحو : زرتشت - زردشت - زرتشت - زرتشت - زرتشت . وهذا بالنسبة للقسم الأول منه ، أما القسم الثاني ونعني به (سبي تم) فإن معناه العنصر الأبيض (سبيد تخمه : البيفة البيضاء) . ويلزم بناء على هذا المعنى أن يكون أسما لأسرة زرتشت ، على النحو الذي كان متبعاً في إيران في عصر الأوستا . (٢٩)

وزردوشتر هو الذي غير عبادة الشياطين الهندوإيرانية - تلك العبادة التي كانت تمثل أرباب النوع غير المجردة والعوامل الطبيعية المختلفة أو المفاهيم المجسمة المعنوية - إلى

الذي كان يعيش في القرن الخامس قبل الميلاد . ومن قوله يفهم أن عهد زرتشت سابق على حملة خشايارشا على اليونان بعدة ٦٠٠ سنة ، أي عام ١٠٨٠ ق.م (٣١)

ولو ثبت أن ظهور زرتشت الرسول كان قبل مولد المسيح بمئذنة قرون لثبت بالتالي أن تاريخ السلسلة الكيانية سابق على هذا التاريخ .

وإن ما نشاهد في تاريخ الكيانيين الأسطوري متعلقاً بالملوك الذين حكموا بعد « كسي كشتاسب » من خلط في المعلومات لناجم من تأثر بتاريخ الملوك الهخامنشيين ، كما أنه وليد الأفكار التي اخترعها الإيرانيون في أذهانهم حول هذه السلسلة مقبلة الإسكندر . (٣٧)

ونحن لا نملك معلومات كافية عن وضع الآريين في مشرق إيران قبل عهد الهخامنشيين . والمعروف أن هؤلاء الآريين كانوا ينقسمون إلى شعاب عديدة ذات خطر . ولن نحصل على ما نشاء من معلومات إلا إذا طبقنا إشارات الأوستا على بعض الشواهد التاريخية ، واستفدنا منها في هذا الصدد .

(٣٦) أرجع في هذا الصدد إلى مقالة « زمان زرتشت » ، لآلای پور داود ، يسنا ، ج ١ ص ٧٥ - ١١٠ ، مؤدا پورتي در ايران ، ترجمة رسلاني گريستن مسن للدكتور صفا ، ص ٢٧ - ٢٠ .

(٣٧) انظر : كيانيان Kayanides تأليف Arthur Christensen ، ترجمة دكتور صفا ، تهران ١٣٣٦ ص ١ وما بعدها ، حواشي سرايي در ايران از قد پيترين عهد تاريخي لآلان جهاردم صوري ، چاپ دوم ص ٤٨٢ - ٤٨٧ و ٥٣٧ - ٥٥٨ .

(٣٨) فيما يتعلق بمكان زرتشت أي محل ولادته والبيئة التي نشأ فيها ويث فيها دعوته وفيما يتعلق بزمان وجوده .. يوجد نقاش وخلاف . أرجع في ذلك إلى : آلتاها : للاستاد إبراهيم پور داود ، ص ٢٢ - ٢٦

C. de Harlez, Avesta ; deuxième édition, Paris 1881 Introduction, p. XXIII - XXIV

بناء على المعلومات المستفادة من الأوستا يجب أن يكون موضع ولادة زرتشت وحياته ومكان ظهوره وبنه رسائله هو التواحي الشرقية أو الشمالية الشرقية لإيران .

(٣٩) للاطلاع على بعض آراء العلماء حول معنى هذا الاسم المختلفة ، انظر :

C. de Harlez Manuel de la langue de L'Avesta, Paris 1882, p. 445

E. Blochet, Lexique des Fragments de L'Avesta, Paris 1900, p. 73

آلتاها : ترجمة آلتاى إبراهيم پور داود ، ص ٢٢ و ٢٣ وفيها .

اكتشفت في إيران وما جاورها من ممالك ..
فإن هذا التاريخ يبدأ بإيراني المغرب
والجنوب .. أي الطائفة التي سلكت طريق
جبال القوقاز إلى مغارة إيران ، ثم انقسمت
إلى فرق كالآريانيين والميديين والبارسيين ،
وخضعت للدولة الآشورية فترة من عمرها .

وقد سكنت قبائل ماد - وهي إحدى
القبائل الآريانية الغربية - في الولايات التي
كانت تبدأ من (الرى) وتتقدم نحو المغرب
شاملة مرتفعات زاغروس ، كما تتقدم نحو
الطرف الشمالي والشمالي الغربي بالغة حدود
نوكورا . وهذه المنطقة هي نفسها المملكة
التي تعرف باسم ماد الكبرى . وأكبر مدنها
مدينة (هك تان) ، وهي نفس المدينة التي
كان الآشوريون يسمونها (آمادانا) ، ونسبها
نحس الآن (همدان) .

وبين أسوار هذه المدينة المتينة نفسها
وضعت نواة دولة تاريخية لإيران الغربية
والوسطى ، وقد وضع هذه النواة (ديا أكو)
عام ٧٠٨ قبل ميلاد المسيح .

وقد تمكنت دولة ماد خلال قرن ونصف
من سيطرتها - إثر اقتراض الدولة الآشورية
القوية - من تأسيس إمبراطورية واسعة
مترامية الأطراف ، كانت تمتد من جنوب
إيران حتى تشمل قسما من أراضى آسيا
الصغرى . وبناء على هذا يمكن القول بأن
القبائل للمادية لم تلت نظر القبائل
الآرية الآريانية المنتشرة إلى الدول المستقلة
المستقرة المتمركزة فحسب ، بل إنها أول
القبائل الآريانية التي بسطت حكمها خارج
أراضى الآريين الآريانيين ، وعلمت من يشاركونها
العنصر والآرومة كتيبة تشكيل الإمبراطوريات .

عبادة المفاهيم المجردة . ويمكن أن يقال بعبارة
أخرى . إنه أصل « مزد يستأ » القريب من
التوحيد خلفا « لديويستا » رفيق الشرك
وحليفه .

ولهذه الطائفة أهمية أخرى وهي أنها تضع
بين أدينا المادة الأساسية للتاريخ الأسطوري
وللاحم القومية الإيرانية . فقد ورد قسم من
تاريخ إيران الأسطوري السابق على العهد
الهخامنشي في واحدة من (نسكلت) الأستا
المفقودة ، تسمى (جهردات نسك) . كما
بقيت أجزاء هامة منه أيضا وذلك في النسلات
التبقية من الأستا ، خاصة في اليسنات
والبشنتات .

هذا وتشكل حروب أمراء وملوك الطوائف
البارثيين بدورها قسما آخر من مادة ملاحمنا
القومية . والبارثيين هم الذين ذاعت شهرتهم
بعد العصر الأئسني (العصر الزردشتي) .

وتد ربطت أذهان وأسمي القصص
الآريانيين بين أخبار معارك أمراء وملوك
الطوائف وبين حوادث العهد الأئسني وأخبار
إبطاله ، وأضافت إلى ذلك بقايا المعلومات
الخاصة بتاريخ الملوك الهخامنشيين
وسيرتهم ، ومن هذا الطريق برزت السى
الوجود القصص المدونة المعونة :

خذ إنشامه ها (الآليات أو كتب الآلهة) ،
شاهنامة ها (كتب الملوك) (٤٠)

أما بالنسبة لتاريخ إيران المدون غير
الأسطوري - على النحر الذي كتبه اليونانيون
والروم والآراميون والأرمن - وهو الذي
يؤيده النقوش ، وتمزجه الإشارات الواردة في
كتب العهد القديم ، وبعض الآثار التي

(٤٠) قامت بعثت لمصل للغاية في كتاب « حملة سراي در إيران » كتار جهاد ، تحت عنوان « بنياد
دستگاههای ملی » الطبعة الثانية ص ٣٩٢ - ٦٢٩ ... حول أساس التاريخ والقصص الشعبي البطولي الإيراني « المرجع
إليه المؤلفون » .

وتنسب إلى الجد الأكبر للأسرة ويدعى « هخامنش » الذي انحدرت من صلبه سلسلة ملوك فارس وآوران .

وقد حكم البلاد - ابتداء من جا اش پش الثاني حتى هخامنش - خمسة ملوك (٤١) . ويرد في كتب التاريخ أن كوروش ينتمي إلى الفرع الإنزائي بينما ينتمي داريوش إلى الفرع الفارسي .

ويؤكد هيرودوت أن القبيلة الفارسية التي ينحدر منها الهخامنشيون كانت تنقسم إلى ست طوائف تقيم في المدينة ، و عشر طوائف تقيم في القرى ، وأربع طوائف تقيم في خيام بالصحراء .

وحسين سيطر « كوروش الأكبر » بن « كيموجيه » بن « كوروش » بن « جا اش پش » سليل الأسرة الهخامنشية وأحد أبناء قبيلة بارس - على (هكتمان) في عام ٥٥٠ قبل الميلاد ، خضعت إمبراطورية ماد القوية ، وأخلت مكانها للإمبراطورية الهخامنشية ، فبسط نفوذها على الأراضي الواسعة المحصورة ما بين وادي السند والبنجاب وفلاة سفوح بايهر الفسوية وبين اليونان وقرطاجنة . وظلت تسيطر على دنيا العالم المتحضر تخضعها لنفوذها مدة ٢٢٠ سنة تقريباً ، إذ استمر سلطانها نافذاً من أواسط القرن السادس حتى أواخر القرن الرابع قبل ميلاد المسيح .

ووفى هذه الفترة التي تدعو إلى الفخار . . حكم العالم المتحضر ملوك كبار أمثال كوروش الأكبر وداريوش الأكبر وخشيارش و اردشیر درازدست (أو دراز انكل) .

وتصل المدة ما بين العام الذي وضع فيه الماديون حجر الأساس في إمبراطورية إيران - وسط إيران ومغربيها - وبين زماننا هذا إلى ٢٦٦٨ سنة . كما تبلغ المدة الواقعة بين التاريخ الذي أسقط فيه (هو وخشتر) ملك الماديين الإمبراطورية الآشورية في عام ٦٠٥ قبل الميلاد وبين عصرنا الحالي ٢٥٦٥ عاماً . وطبقاً لما ذكره هيرودوت فإن أسماء ملوك ماد تسير على النحو التالي :

ديوكس - فورا ارس - كياكسارس - أستياكس .

غير أن الفهرست الذي ورد في كتابات كنزباس أكثر تفصيلاً ، ويشتمل على ١٠ ملوك يبلغ مجموع سنوات حكمهم ٣٥٠ سنة . ولو قبلنا هذه الرواية لقبيلنا أن يكون تاريخ حكم سلسلة ماد الحقيقي قد بدأ منذ عام ٩٠٠ ق . م .

وقد انهارت الإمبراطورية المادية بعد ١٥٨ عاماً من تأسيسها . ويرجع السبب الرئيسي في انهيارها إلى انعدام التشكيلات المنظمة والتنسيق بين جهاز الدولة والبلاط ، كما يرجع إلى ضعف الجنود وفتورهم الرثائم ، وإلى الفقرة والشقاق والخلاف بين قواد الدولة أنفسهم .

وإزاء هذه الحالة ، هبت طائفة أخرى تابعة لقبائل إيران الغربية مستهدفة حمل رؤية النصر ومواصلة المسيرة . وهي نفس الطائفة التي كانت قد حررت تسماً من جنوب إيران - منذ مدة - واستخلصته من أيدي سكاته . أما القبائل التي تتبعها فهي قبائل بارس ذات الأقسام العشرة .

ويبلغ بنا الحديث الأسرة الهخامنشية . وهي أسرة تنحدر من قبيلة فارسية كبيرة .

(٤١) وذلك بناء على الشجرة التي رتبها نولدكه Noideke في التاريخ الفارسي . انظر : مشير الدولة

بيليا ، چاپ اول ، ١٣٠٦ هـ ، ص ٨٠ .

من جهود الشعوب في البلاد المفتوحة ،
وتوجيهها لصالح الامبراطورية في شتى
الرافق . وانتصر الاسكندر المقدوني ، وتقبه
الايثانيون - قبل الاسلام - بـ (المغرب) ،
وأطلقوا عليه لفظ (كجستك) أى الملعون (٤٦)
وإذا كان اليمضى - بعد الاسلام - قد رفعه
الى مرتبة الرسول ، وخلط بين قصته وقصة
ذى القرنين ، وأثرل كتيبه الفارسية المنظمة
والمنثورة وأصولها العربية منزلة الحكمة
المالية والنبوة السامية (٤٧) . فان الفردوسى
قد اتهمه بالتخريب ، وسوء الذكر ، وتنبأ له
بالخلود في النار شأنه شأن الضعفاك وافرسياب .
يقول الفردوسى ذاكرا أعمال الضعفاك
وافرسياب السيئة :

لكه كن كه ضحكاك بيداركر

چه آورد از آن تحت شاهى پسر

هم افراسياب آن بداندیش مرد

كرو بد دل شورياران بدرد

ويعد أن ينمت أولهما بالظلم وينمت ثانيهما
بسوء الظن يقول في حق الاسكندر :

سكندر كه آمد برين روزگار

بگشت آنكه بد درجهان شهریار

والمعنى - الاسكندر الذى قدم في هذا
العهد ، قتل في الدنيا كل ما هو عظيم .

ثم يقول في حق الثلاثة :

برفتل وزيشان بجزام زشت

نما ند ونيابند خرم بهشت

ويشتهر الاخير بين المؤرخين بأنه تزوج
من ابنتيه : (آس سا) و (آمس تريس) ،
ويلقبه اليونانيون منهم : ماكرو خُسِر
Makroxeir والرومانيون منهم : لوتكى
مانوس Longimanos .

وقد ورد اسمه في كتب التاريخ الإسلامية
على هذا النحو : يهمن الملك الكيالى المدعو
أردشير ، والملقب بطويل اليدين أو طويل
الاصابع . ويقول البيرونى : أردشير يهمن ،
واسمه في كتب أهل المغرب ارطخشست ،
ولقبه طويل اليدين . ونجده في بعض المواضع
يسميه (مقدوش) . وهذا الاسم ولا شك
صورة محرفة للاسم ماكرو خُسِر اليونانى .
أما ابن السكيت فيسميه احيانا : طويل
الباع . (٤٨)

وقد وجد فحمب إيران الآرى في ظل
نفوذهم فرصة سانحة لنشر ثقافته وحضارته
بصورة محسوسة ملموسة . كما وجد الفرصة
للقضاء على كثير من العادات (المهجبة غير
الإنسانية التى كانت سائدة في الدنيا القديمة
من قبيل سلب البلاد ، وقتل العامة ، وتخريب
المعابد ، وفرض عقائد المنتصرين المذهبية على
المهزومين ، وذبح الأديمين وتقديمهم قربانا
للأصنام وأرباب النوع .

وهكذا نشأت في العالم - لأول مرة -
تشكيلات امبراطورية منظمة قائمة على قوانين
مقتنة مدونة ، تطبق على كافة ممالك
الامبراطورية بصورة واحدة . وكان من
مميزات الامبراطورية الهخامنشية : إطلاق
الحريات ، احترام العقائد والأديان ، والإفادة

(٤٧) انظر : مجمل التواريخ والقصص ، طبع طهران ص ٣٠ ، رسالة البيرونى في فهرست كتب معهد بن زكرا ،
طبع باريس ١٩٣٧ ص ٢٢ ، ١٤ ، ١٢ ، والفهرست لابن النديم ، طبع مصر ص ٣٤٤ ، الآثار الباقية للبيرونى ص ١١١ ، ١٠٥ .

(٤٨) ارجع الى الفصل ٣٣ من كتاب بند هشن ، والى مقدمة كتاب ارداى ويراڤناك ، والى مجمل التواريخ
والقصص ص ٤١٨ .

(٤٩) انظر : جملة سرائر دد ايران ص ٣٢٢ - ٣٥٢ ، مقالة داستان اسكندرى فليج الله صفا ، بمجلة
اموزش وپرورش .

قصة ٢٥٠٠ عام من مصر إيران

وقبض على زمام الأمور في بابل وحكمها
بعد وفاة الإسكندر بمدة قصيرة (٣٢٠
ق . م) وحين عزله أتى كون Antigone
والى كيليكية من منصبه هذا في عام ٣١٥ ق.م
صحب بطليموس وعددا آخر من قادة الإسكندر
ولم يكن بمساعدتهم من الانتصار على أعدائه ،
وفتح غزة عام ٣١٢ ق . م ، واستعادة حكم
بابل الاستقلال بها .

كما تمكن بعد فترة من الاستيلاء على ولاية
شوش وعلى مادی وكل الممالك المحصورة
بين الفرات والسند . وفي عام ٣٠٧ ق . م .
أطلق على نفسه لقب سلطان . لم فتح بين
النهرين وأرمستان فريكه وسورية ..
وهكذا أسس السلسلة السلوكية (السلوقية)
Seleucide .

وكانت السلسلة السلوكية (السلوقية)
تستقر بادية الأمر في بابل ، ثم استقرت في
سلوكية (سلوقية) التي كانت تقع عند
بغداد ، وبعدها استقرت في انطاكية . وكانت
تخضع لسلطانها أول الأمر قسما من إيران .
ومنذ عهد « أنتيوخوس الثاني » - حفيد
سلوكوس - نشأت الدولة الاشكانية ، وكان
مقرها مملكة خراسان . وارتقى أمرها سريرا
ولفتت من القوة جدا أن استطاعت أن عهد
مهرداد الأول (اشك السادس) وفرهاد
الثاني (اشك السابع) أن تنتزع إيران بأسرها
من يد السلوقيين ، وإن تكف يدهم منها ،
وتويل لسلطانهم منها نهائيا .

وهكذا انتهى حكم اليونانيين في إيران ،
وكان آخر ملك سلوكي يحكم قسما من إيران
الغربية هو « أنتيوخوس السادس » الذي
طوى بساط حكمه في عام ١٢٩ قبل الميلاد
على يد فرهاد الثاني .

والعنى - ذهبوا ولم يتركوا وراءهم سوى
الذكر السيء ..

وسوف لا يكون مآلهم الجنة ، ولن ينعموا

وفي البيت التالي من أبيات الشهامة :

نخست اندرايم زسلم بزوك

. زاسكندر آن كينه ووير كرك

يصف الفردوسي الاسكندريانه حاقدمنتم
وذلب مجوز .

وفي البيت التالي :

هيوني ذكر مان بيماد دمان

بشزورك اسكندر بد كمان

يقول في حق الاسكندر :

وجاء احد الرسل مسرعا صوب الاسكندر
سوى الظن .

والحق ان انتصار الاسكندر وفتح تخت
جمشيد عام ٣٣٠ ق . م . لم يكن هزيمة
لكل آريي إيران . فبعد وفاة الاسكندر بسبع
وستين عاما ، اى في عام ٢٥٦ ق . م . رفع
(اشك الاول) علم الاستقلال في پرلو (٤٥) اى
في خراسان ، وتمكن اعداؤه من ان يخفضوا
بسرعة كل انصار ايران ، وان يطردوا السلوقيين
- الذين بقوا بعد « سلوكوس نيكاتور » -
من غربى إيران الى نواحى سوريا وفلسطين .

وسلوكوس نيكاتور Seleucos Nicator
هو قائد جيوش الاسكندر الملقب بنيكاتور اى
الفايح . ولد في عام ٣٥٤ ق . م تقريبا ،
وتوفى في عام ٢٨٠ ق . م .

(٤٥) پرتو (پرتك) Parthava هي نفس الكلمة التي اشتقت منها في اللغات الأوروبية كلمة parthe ، وهي
نفسها التي صارت أصل الكلمات پهلو ، بهله ، بهلوان ، بهلوى ، بهلوانى .

حكما التي استمرت اربعمائة سنة - هباء الدفاع من ايران في الشرق والغرب . . لو طئت بلادنا ولاشك اقتدام الجنس الاصفر من الاوراليين والالتائيين او الرومان ، ولوجدت في هذه البلاد حضارة وثقافة من لون آخر .

وقد حالف التوفيق الأباطرة الاشكانيين في فتوحاتهم حتى آخر سنوات حكمهم ، فكان النصر دائما نهاية كل لقاء بينهم وبين الروم المهرة المحنكين ، وكانت الغلبة لجيوشهم على جيوش الروم المتعسرة بالقتال . حتى انه يمكن القول بان الامبراطورية الاشكانية عند سقوطها وزوالها لم تكن قد ضعفت بعد من حيث الفتوحات الخارجية ، فقد تم آخر فتح من فتوحات الاشكانيين وآخر انتصار لهم على الروم في عهد اردوان ، وذلك في حدود عام ٢١٨ م . وكما نعلم ، فان السلسلة الاشكانية قد انقضت بعد هذه الواقعة بست سنوات .

وقد انقرضت الدولة الاشكانية عام ٢٢٤ ميلادية ، على اثر هزيمة « اردوان » على يد « اردشير بن بابك » . ولم يكن انقراضها في الحقيقة سوى حادثة داخلية وانتقالية حكومية من طوائف ايران الشرقية الى الباريين ، وتغيير حكومة ملوك الطوائف اللادينية ، واحلال حكومة دينية مركزية في مكانها .

وقد سار الساسانيون على سياسة الاشكانيين ، وحلوا حلوهم في الدفاع عن الحدود الشرقية والغربية في بطولة وبسالة ، واستطاعوا بما لديهم من تشكيلات منظمة مدنية وعسكرية ان يجعلوا حدود البلاد تضارع الحدود التي يثبتها الامبراطورية الهخامنشية .

وقد حكم ايران ما بين اشك اردوان - في الفترة ما بين عامي ٢٥٦ ق . م ، ٢٢٤ م وهي فترة تبلغ اربعمائة وثمانين عاما - ٢٨ ملكا باريا . ومن بين هؤلاء الملوك تبرز اسماء بعد اصحابها مقصورة للجنس الآري الايراني ، امثال :

مهرداد الاول (اشك السادس) (١٧٣ - ١٣٧ ق . م) .

فرهاد الثاني (اشك السابع) (١٣٦ - ١٢٨ ق . م) .

مهرداد الثاني (١٢٤ - ٨٧ ق . م) ، ارد الاول (٥٥ - ٣٧ ق . م) .

فرهاد الرابع (٣٧ - ١ ق . م) .

وفي عهد الامبراطورية الاشكانية تحررت الثقافة الايرانية ، وتجاوزت مرحلة الخطر وبدأت في فرض وجودها بعد ان تضاعلت امام نفوذ الثقافة اليونانية زمنا ، واصبحت اللغة البهلوية الشمالية او البهلوية الاشكانية - بغطها الخاص المختص من الاصل الآرامي - لغة البلاد الرسمية ، وبها اُلفت بعض الآثار المنثورة والمنظومة ، مازال بعضها بين ايدينا . فمن الآثار الهامة التي تنسب الى اواخر عهد الاشكانيين كتاب (ايانكار ديريان) وكتاب (دخت آشوروك) . وقد ثبت في الآونة الأخيرة انهما منظومان (٤١) .

ومن اجل الخدمات التي قدمها الاشكانيون للشعب الايراني - بالإضافة الى طرد اليونانيين وتحقيق الاستقلال - دافعهم البطولي عن الحدود الغربية والشرقية ضد الرومان والمخبرين من الجنس الاصفر . ولو ان هذه السلسلة لم تأخذ على عاتقها - خلال فترة

(٤٦) يلجأنا هنا لكتاب الدكتور ديريان يمكن الرجوع الى سلسلة المقالات التي نشرها الكتاب في مجلة سخن ، السنة الاولى ، حاشية سرابي در ايران ، الصفحة الثانية ، ص ١٢١ - ١٢١ .

ويعد كل ملك من مشاهير ملوك الساسانيين
أمثال :

اردشير بن بابك (۲۲۴ - ۲۴۱ م) ، ساپور
الاول (۲۴۱ - ۲۷۱ م)

ففي المعنى الاول يقول القردوس :

دورا هوش در زاولستان بود

بدست یل یور داستان بود

وہو یعنی ان موت اسفندیار قد کان فی (زابلستان) ، و ہنا ہوش بمعنی الموت .

شاہور الثانی (۳۱۰ - ۳۷۹ م) ، بہرام
الخامس (بہرام کور ۴۲۰ - ۴۳۸ م)

قباد الاول (٤٨٧ - ٥٣١) ، خسرو الاول
انوشیروان (٥٣١ - ٥٧٩ م)

وفي المعنى الثاني، نقول الفردوس :

میریٹس بیل زیان ہوش خویش
نہادہ برین کونہ پردوش ہوش

وهو يعني هنا ألا تعرض روحك للهلاكه
امام ليل مخيف متوحش ، وهنا هوش بمعنى
الروح .

خسرو الثالثي أبريز (٥٩٠ - ٦٢٢ م)
... يعد كل واحد من هؤلاء الملوك - لسبب
من الاسباب - صاحب سيرة معمودة ومقام
رفيع والثر وخطري في تاريخ البلاد خاصة وفي
آسيا عامة . كما تعتبر الخدمات التي قدمها
بعضهم للعلم والادب خدمات جليلة لا تنسى .

ولا بأس هنا من ذكر معلومات حول بعض هذه الأسماء وكيفية نطقها . فالاسم الذي ورد في الأستانة بالنسبة لاسم « قباد » على سبيل المثال هو كوات (كلات Kavata وهو يلفظ في البهلوية كوات (كلات Kavāt) لذا يجب أن يسطط ويشكل في الخط الفارسي الجديد (قباد) بفتح القاف . ونقطه يضم أو له ، أو كتابته بالفنن (غ) أمر بعيد من الصواب .

وقد تحولت كلمة (أنوشك) في الفارسية
إلى (آنوشة) .

أما *ruvan* فاصلها في الأوستا (أورو)
Urvan والفارسي منها (روان) . أتوة
 روان ، أتو شروان ، أتو شيروان ، نوشيروان ،
 نوشين روان كلها صور في اللغة الفارسية
 مشتقة من الأصل (الهوى) أتوشك روان .

أما « أنوشروان » فلها التسمية الفارسية
Anoshak ruvān (روفان -)
أي الروح الخالدة .. وهي عبارة تستعمل
عادة عندما يذكر أحد بالخير ، أو عندما يوجه
الدعاء للموتى .

وإذا تعرضنا لكلمة ابرويز وجدناها تعني:
غير قابل للزينة لا يتهجر . وكانت هذه الكلمة
تستخدم بصيغة دالة كلقب لخصو الثاني
الشاهنشاه الساساني . ومعرب الاسم
ابرويوز ، والالف فيه (ا) تفيد التقى ، وقد
حدثت في الفارسية الدرية ، وقيل يرويز . وقد
نتيجة الجهل بأصل الاسم ومعناه ، ونتيجة
الافتقار بان الالف في اول الاسم تشكل جزءا
منه (من بنية الكلمة) . . بينما الاسم بهذه
الصورة - أي بعد حذف الالف - يعني
لعمري عكس المعنى (ابروز) .

وتتكون (أوشك) من (أ) حرف نفي ،
(أوش Osh) بمعنى الموت ، ومن حرف
النون الذي كان يأتي مادة من اللهجات
الإيرانية القديمة بين حرفين مصوتين للربط
بينهما ، (مثل : آتوان بمعنى غير ابران ،

وفي نهاية هذا العهد .. لم يكن للهجتين: البهلوية الشمالية والبهلوية الجنوبية رصيد كبير في المؤلفات المنظمة والمنثورة دينية وغير دينية فحسب ، بل انهما احرزتا تقدما وانتصارا كبيرين في ميدان العلوم اثر امتزاج ثقافات الايرانيين وثقافتهم بثقافات ومقائد كل من اليونانيين والاراميين والرومانيين والهنود .

وفي القرون الخامس والسادس والسابع الميلادية ، وحتى انتصار العرب ، كانت هناك في ايران مراكز زرتشتية وماتوية ومسيحية ويهودية .. وكان كل مركز من هذه المراكز مشغولا - بصورة من الصور - بنوع من انواع العلوم كالحكمة الايرانية او الضرورية ، الفلسفة الافلاطونية ، المنطق ، العلوم الاسطورية ، الطب ، الرياضيات ، النجوم .. وغيرها .

وقد دخلت اكثرية هذه المدارس في عداد المراكز العلمية الاسلامية .. بعد انتصار الاسلام او بعد التحول من اللغتين البهلوية والسريانية الى العربية . ونجم عن انتقال اغلب علماء هذه المراكز الى بغداد اول عصر من عصور النهضة العلمية في هذه المدينة. (٢٧)

ولقد تيسر للعرب الانتصار على الايرانيين في ضوء نور الاسلام ، ونتج من هذا ان استمر النزاع والصراع بين الدين الاسلامي وغيره من الديانات النشأة في ايران آنذاك ، ونمى بها الزردشتية والماتوية والمردكية والمسيحية واليهودية والبوذية . (٢٨) وظل النزاع والصراع قائمين طوال قرون اربعة كان فيها النصر حليف الاسلام ، والضعف والوهن من نصيب الاديان المذكورة .

(٢٧) ارجع في ذلك الى : داتشساي يوناني در شاهنشاهي ساساني (العلوم اليونانية في الامپراطورية الساسانية) للتكوير صفا ، تاريخ علوم علمي در زمان اسلامي ، الطبعة الثانية ، تهران ١٣٣٦ ص ١٠ - ٣٦ ، تاريخ ادبيات در ايران ، للتكوير صفا ، ج ١ ط ٣ تهران ١٣٣٨ ص ٩٤ - ١٠٧ .

(٢٨) تاريخ ادبيات در ايران ، ص ٦٢ ، ٢٢٠ - ٢٢٣ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ .

وإذا حسبنا المدة التي انقضت بين اليوم الذي انهار فيه الكفاح العسكري الإيراني المنظم أي في عام ٢١ هـ ، وبين اليوم الذي دخلت فيه جيوش « أبي مسلم الخراساني » (٥٠) الفاتحة الكوفة لإجلاس الامام العباسي «عبدالله السفاح» على عرش الخلافة مكان مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين .. لوجدناها ١١١ عاما .

وبعد ست وستين عاما من تاريخ الحدث الأخير ، أي في عام ١٩٨ هـ ، فتح « طاهر ذي اليمينين » (٥١) بشداد عاصمة العباسيين بعد محاصرتها ، وتمكن من قتل الخليفة العباسي .

وفي المدة المصورة بين التاريخين الآخرين قامت عدة ثورات ، من بينها : ثورة القائل فيروز الشهير بـ «سندباد كير في الري» (٥٢) عام ١٣٧ هـ ، ثورة استاسيس في خراسان (٥٣) عام ١٥٠ هـ ، وثورة المقتن هشام ابن حكيم (٥٤) في ما وراء النهر سنة ١٥٩ هـ

وفي عام ٢٠١ هـ . هب بابك خرم ديني (٥٥) في بشداد مقاومة جيوش الخليفة ، بينما شغل مازيار بن قارن (٥٦) (م ٢٢٤ هـ) في مازندران بمقاومة الموالين للخلافة العباسية

هذه الحركات التحررية ميدان الكفاح بطرق مختلفة وصور متعددة ، فواجه بعضهم من طريق الترجمة ونشر الكتب التي تخص بالذكر مفاخر إيران وماكرها . وواجه البعض من طريق اشعارهم العربية المحركة للقلوب وما تشتمل عليه من مفاخر وماكر . وكان هؤلاء المؤلفون والمترجمون ينتمون عادة الى فرقة الشعبية التي تنادي بتفضيل المجسم على العرب . وكانت مؤلفاتهم في اثبات هذا الرأي ، وترجماتهم المديدة للكتب التي تدور حول سير الملوك نابعة من تأثرهم بهذه الفكرة كما كان تأليفهم للشايفنامات ونظمهم لها ناجما من هذه الفكرة ذاتها .

ومن بين الشعراء الذين نشطوا لبيان مفاخر الإيرانيين المنصرية .. يمكننا أن نذكر الاسماء التالية :

اسماعيل بن يسار ، بشار بن برد (١٦٧م) ابا نواس حسن بن هاني (١٤٥ - ١٩٩) ، التوكل ابا اسحق ابراهيم بن مشاذ الاسفهانى ، وامثالهم .

كما وليح البعض هذا الميدان من طريق تدبيح المقالات الدينية ، والبعض من طريق اللجوء الى السيف والثورات العسكرية . (٢٩)

(٢٩) فيما يتعلق بكتابة مقالة الإيرانيين ، انظر صفا ، نهضت على الإيرانيان ، مجلة ارش ، سال هشتم .

(٥٠) يمكن معرفة الكثير عن أبي مسلم الخراساني بالرجوع الى مقالة الكاتب ، وعنوانها: أبو مسلم الخراساني ، وذلك في مجلة (آرشي) ، سال هفتم (السنة السابعة) .

(٥١) بالنسبة لطاهر ذي اليمينين ، يمكن الرجوع الى مقالة الكاتب ، مجلة ارش سال نهم (السنة التاسعة) ، شماره ١ و ٢ (بالمعدين الاول والثاني) .

(٥٢) دكتور صفا ، مجلة آرشي - سال هشتم (السنة الثامنة) : صبهيد فيروز .

(٥٣) دكتور صفا ، مجلة آرشي - سال هفتم (السنة السابعة) : استاسيس .

(٥٤) دكتور صفا ، مجلة مير - سال چهارم (السنة الرابعة) شماره ١٢ (العدد ١٢) ، شماره اول سال پنجم : نقليد ابرخاسان ، مجلة آرشي - سال هشتم (السنة الثامنة) : المقتن .

(٥٥) دكتور صفا ، مجلة آرشي شماره ٨ ، ٩ ، ١٠ سال هشتم : بابك خرم دين .

(٥٦) دكتور صفا ، مجلة آرشي شماره ٢ - ٧ سال نهم (السنة التاسعة) : مازيار پسر كازين .

عاصمة ومركز للدولة السامانية الكبيرة .
اما خوارزم وغور وخرجستان فكان يقبض
على زمام الامور فيها عدد من الامراء المحليين .

من هذا يمكننا ملاحظة ان نفوذ الخلفاء
وحكمهم في ايران خلال القرنين الثاني والثالث
الهجريين كانا في اغلب الاحوال اسميا اكثر
منه رسميا . وهذا نفسه احد اسرار بقا
الثقافة الإيرانية .

وفي اعقاب الجهود التي بذلت حتى اوائل
القرن الثالث في سبيل استعادة ايران لاستقلالها
خرج يعقوب بن الليث السيسستاني على الخلافة
وولى وجهه - بصحبة محاربي سيستان
ومقاتليها - سطر بغداد فاتها . (١١)

يعقوب بن الليث واحد من اكبر رجال
ايران العسكريين والسياسيين الذين تاروا في
مشرق ايران بعد ابي مسلم الخراساني ، وكان
حكمه نقطة تحول بالنسبة لمسار الادب
الفارسي ، فقد منع هذا الادب الاستقلال عن
طريق تحريم الشعر العربي في دولته، وتشجيع
الشعراء على نظم اشعارهم بالفارسية . كما
ان اللغة الفارسية الدرية قد تحولت في عهده
الى لغة بلاطات المشرق الرسمية ، وباتت
الكنز الرئيسي الذي يثري خزانة الادب
الفارسي .

وظلت الحكومة التي اقامها يعقوب بن الليث
باقية من بعده ، يتولى زمام الامور فيها اخوته

في بغداد . وكان الخوارج في سيستان ولى
خراسان دائم الثورة بدورهم ، يقودهم
المقاتلون امثال حمزة بن آذرك شاري (١٢) .

سارت حكومة الخلفاء في ايران في طريق
الوهن والضعف . في الوقت الذي كانت
فيه امارات ايران المحلية تستقيم على طريق
الحياة من جديد . فكان ابنام طاهر ذي
اليمينين يواصلون استقلالهم الداخلي في
خراسان . اذ اخذ طاهر بن الحسين من الامون
(في عام ٢٠٥ هـ) تفويضا بحكم كثير من
نواحي ايران . وظل اعقابهم يشغلون كرسي
الحكم بعد موته الى عام ٢٥٩ هـ . امسا
سيستان فكانت قد انتزعت فعلا من بين
الممالك التابعة للخلفاء العباسيين . (١٣)

وكانت نواحي واسطه من جرجان ، ومازندران
ودويان وبلاد الديلم وكيلان تدار بواسطة
الامراء المنحدرين من صلب الاسر القديمة
التي بقيت من العهد الساساني (١٤) . وقد
استمال هؤلاء اليهم - في عام ٢٥٠ هـ -
واحدا من صلب علي بن ابي طالب، يدعى حسن
بن زيد ، ونصبوه اماما دينيا على الرغم من
الخلفاء العباسيين . (١٥)

ولم تغل اذربيجان واران وشروان
والاراضي الجبلية التي تقع جهة الجبال من
الفتن والثورات بدورها ، وسقطت ما وراء
النهر هي الاخرى في يد اعقاب « سامان خدا »
منذ عام ٢٠٤ هـ تقريبا ، وتحولت بسرعة الى

(١٥) دكتور صفا ، مجلة مهر - سال نهم - شماره ٨ ، ٩ : يسر آذرك .

(١٦) دكتور صفا ، تاريخ ادبيات در ايران ، ج ١ ، ط ٢ ، ص ٣٢ - ٣٩ .

(١٧) نلسي المصدر والنجمة ص ٢٠٩ وما بعدها .

ابن استيعديار : تاريخ طبرستان ، چاپ مرحوم ميرزا قليچ ، ج ١ ص ١٤٧ وما بعدها .

(١٨) تاريخ طبرستان ، ج ١ ، ص ٢٢٤ وما بعدها .

تاريخ ادبيات در ايران ، ج ١ چاپ سوم ، ص ٢١٠ - ٢١٥ .

(١٩) دكتور صفا : يعقوب بن ليث ، مجلة آرش سال ششم .

بن سينأ (م - ٤٢٨ هـ) ، أبو ریحان البيروني
(م - ٤٤٠ هـ) ، بيمنيار بن مرزبان (م - ٤٥٨ هـ) ،
الروذكي السمرقندي (م - ٣٢٩ هـ) ،
الدقيقي (م - ٣٦٨ هـ) ، الفردوسي الطوسي
(م - ٤١١ هـ) ، أبو علي البلخي ، وغير
هؤلاء . (١٢)

ومنذ أوائل القرن الرابع الهجري وحتى
أواسط القرن الخامس - وهي الفترة التي كانت
فيها إيران خاضعة لسلطانين من أصل إيراني
أو نشأوا من بيئة إيرانية - كانت السلالات :
الصفارية (حتى سنة ٣٩٣ هـ) ، والسامانية
(حتى سنة ٢٨٩ هـ) ، والريارية (من ٣١٨ هـ
فما بعد) ، والبويهية (من ٣٢٠ هـ فما بعد)
الغزنوية (من ٣٥١ هـ فما بعد) ، وعسدة
سلالات أخرى صغيرة مثل الغوازي مشاهيرين
والأمراء الجفائيين وأمرام الغور ... تقبض
بيدها على زمام الحل والعقد في أنحاء البلاد
المختلفة .

وقد زالت بعض هذه السلالات إثر حملة
التركمانيين السلاجقة ، وبقي بعضها حتى
أوائل القرن السابع أو إلى ما بعد ذلك . (١٣)

وقد رأى كل هؤلاء الأمراء - صفارهم
وكبارهم - في تشجيعهم العلماء والكتاب
والشعراء قرينة تنبع من همتهم ، فسعوا

وإبناء أخوته وإبناء عمومته ، إلى أن سقطت
عام ٣٩٣ هـ على يد محمود الغزنوي . ونتج
من ثورة يعقوب تشكيل عدة سلالات إيرانية
مستقلة في أنحاء متفرقة من البلاد . ولم يعد
للخلفاء في إيران - بعد هذه الثورة - سوى
الرياسة المنيوية والدنيوية .

وقد كانت جهود حكم السامانيين والرياريين
والبويهيين وأمثالهم باعثة على أحياء كثير من
السنن والمعادن والتقاليد الإيرانية القديمة ،
ومواصلة الكتابة بالفارسية نظماً ونثراً ،
وترويج العلوم ، وإطلاق الحرية للانكسار
الدنيوية والآراء الفلسفية .

وفي هذه العهود ظهر عدد من كبار العظماء
الذين يعدون مخفزة للعلم والأدب في إيران ،
أمثال :

أبو زيد أحمد بن سهل البلخي (م - ٣٢٢ هـ) ،
محمد بن زكريا الرازي (م - ٣١٣ هـ) ،
علي بن عباس الجوسي الأهوازي (م - ٣٨٤ هـ) ،
أبو نصر الفارابي (م - ٣٣٩ هـ) ، أبو علي
مسكويه (م - ٤٢١ هـ) ، كوشيا ركيلى ،
أحمد بن عبد الجليل السجزي (م - ٤١٤ هـ) .

أبو الوفاء البوزجاني (م - ٢٨٧ هـ) ، أبو
حيان التوحيدي (م - ٤٠٠ هـ) ، أبو علي

(١٢) دكتور صفا : تاريخ علوم طلي ند تمدن اسلامي ، ج ١ ط ٢ ، ص ١٦٥ - ١٦٩ ، ١٩٤ ، ١٩٨ - ٢٠٢ ، ٢٠٦ ،
٢٨٧ - ٢٨٩ ، ٢٩٠ .

دكتور صفا : تاريخ ادبيات در ايران ، ج ١ ط ٢ ، ص ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٢٦ ،
٣٢٧ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٣٢ ، ٣٣٤ ، ٣٤٠ ، ٣٤٢ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٤٥ ، ٣٤٦ ، ٣٤٧ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩ ، ٣٥٠ ، ٣٥١ ، ٣٥٢ ، ٣٥٣ ، ٣٥٤ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ ، ٣٥٨ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦١ ، ٣٦٢ ، ٣٦٣ ، ٣٦٤ ، ٣٦٥ ، ٣٦٦ ، ٣٦٧ ، ٣٦٨ ، ٣٦٩ ، ٣٧٠ ، ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٣٧٣ ، ٣٧٤ ، ٣٧٥ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧ ، ٣٧٨ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٨١ ، ٣٨٢ ، ٣٨٣ ، ٣٨٤ ، ٣٨٥ ، ٣٨٦ ، ٣٨٧ ، ٣٨٨ ، ٣٨٩ ، ٣٩٠ ، ٣٩١ ، ٣٩٢ ، ٣٩٣ ، ٣٩٤ ، ٣٩٥ ، ٣٩٦ ، ٣٩٧ ، ٣٩٨ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠ ، ٤٠١ ، ٤٠٢ ، ٤٠٣ ، ٤٠٤ ، ٤٠٥ ، ٤٠٦ ، ٤٠٧ ، ٤٠٨ ، ٤٠٩ ، ٤١٠ ، ٤١١ ، ٤١٢ ، ٤١٣ ، ٤١٤ ، ٤١٥ ، ٤١٦ ، ٤١٧ ، ٤١٨ ، ٤١٩ ، ٤٢٠ ، ٤٢١ ، ٤٢٢ ، ٤٢٣ ، ٤٢٤ ، ٤٢٥ ، ٤٢٦ ، ٤٢٧ ، ٤٢٨ ، ٤٢٩ ، ٤٣٠ ، ٤٣١ ، ٤٣٢ ، ٤٣٣ ، ٤٣٤ ، ٤٣٥ ، ٤٣٦ ، ٤٣٧ ، ٤٣٨ ، ٤٣٩ ، ٤٤٠ ، ٤٤١ ، ٤٤٢ ، ٤٤٣ ، ٤٤٤ ، ٤٤٥ ، ٤٤٦ ، ٤٤٧ ، ٤٤٨ ، ٤٤٩ ، ٤٥٠ ، ٤٥١ ، ٤٥٢ ، ٤٥٣ ، ٤٥٤ ، ٤٥٥ ، ٤٥٦ ، ٤٥٧ ، ٤٥٨ ، ٤٥٩ ، ٤٦٠ ، ٤٦١ ، ٤٦٢ ، ٤٦٣ ، ٤٦٤ ، ٤٦٥ ، ٤٦٦ ، ٤٦٧ ، ٤٦٨ ، ٤٦٩ ، ٤٧٠ ، ٤٧١ ، ٤٧٢ ، ٤٧٣ ، ٤٧٤ ، ٤٧٥ ، ٤٧٦ ، ٤٧٧ ، ٤٧٨ ، ٤٧٩ ، ٤٨٠ ، ٤٨١ ، ٤٨٢ ، ٤٨٣ ، ٤٨٤ ، ٤٨٥ ، ٤٨٦ ، ٤٨٧ ، ٤٨٨ ، ٤٨٩ ، ٤٩٠ ، ٤٩١ ، ٤٩٢ ، ٤٩٣ ، ٤٩٤ ، ٤٩٥ ، ٤٩٦ ، ٤٩٧ ، ٤٩٨ ، ٤٩٩ ، ٥٠٠ ، ٥٠١ ، ٥٠٢ ، ٥٠٣ ، ٥٠٤ ، ٥٠٥ ، ٥٠٦ ، ٥٠٧ ، ٥٠٨ ، ٥٠٩ ، ٥١٠ ، ٥١١ ، ٥١٢ ، ٥١٣ ، ٥١٤ ، ٥١٥ ، ٥١٦ ، ٥١٧ ، ٥١٨ ، ٥١٩ ، ٥٢٠ ، ٥٢١ ، ٥٢٢ ، ٥٢٣ ، ٥٢٤ ، ٥٢٥ ، ٥٢٦ ، ٥٢٧ ، ٥٢٨ ، ٥٢٩ ، ٥٣٠ ، ٥٣١ ، ٥٣٢ ، ٥٣٣ ، ٥٣٤ ، ٥٣٥ ، ٥٣٦ ، ٥٣٧ ، ٥٣٨ ، ٥٣٩ ، ٥٤٠ ، ٥٤١ ، ٥٤٢ ، ٥٤٣ ، ٥٤٤ ، ٥٤٥ ، ٥٤٦ ، ٥٤٧ ، ٥٤٨ ، ٥٤٩ ، ٥٥٠ ، ٥٥١ ، ٥٥٢ ، ٥٥٣ ، ٥٥٤ ، ٥٥٥ ، ٥٥٦ ، ٥٥٧ ، ٥٥٨ ، ٥٥٩ ، ٥٦٠ ، ٥٦١ ، ٥٦٢ ، ٥٦٣ ، ٥٦٤ ، ٥٦٥ ، ٥٦٦ ، ٥٦٧ ، ٥٦٨ ، ٥٦٩ ، ٥٧٠ ، ٥٧١ ، ٥٧٢ ، ٥٧٣ ، ٥٧٤ ، ٥٧٥ ، ٥٧٦ ، ٥٧٧ ، ٥٧٨ ، ٥٧٩ ، ٥٨٠ ، ٥٨١ ، ٥٨٢ ، ٥٨٣ ، ٥٨٤ ، ٥٨٥ ، ٥٨٦ ، ٥٨٧ ، ٥٨٨ ، ٥٨٩ ، ٥٩٠ ، ٥٩١ ، ٥٩٢ ، ٥٩٣ ، ٥٩٤ ، ٥٩٥ ، ٥٩٦ ، ٥٩٧ ، ٥٩٨ ، ٥٩٩ ، ٦٠٠ ، ٦٠١ ، ٦٠٢ ، ٦٠٣ ، ٦٠٤ ، ٦٠٥ ، ٦٠٦ ، ٦٠٧ ، ٦٠٨ ، ٦٠٩ ، ٦١٠ ، ٦١١ ، ٦١٢ ، ٦١٣ ، ٦١٤ ، ٦١٥ ، ٦١٦ ، ٦١٧ ، ٦١٨ ، ٦١٩ ، ٦٢٠ ، ٦٢١ ، ٦٢٢ ، ٦٢٣ ، ٦٢٤ ، ٦٢٥ ، ٦٢٦ ، ٦٢٧ ، ٦٢٨ ، ٦٢٩ ، ٦٣٠ ، ٦٣١ ، ٦٣٢ ، ٦٣٣ ، ٦٣٤ ، ٦٣٥ ، ٦٣٦ ، ٦٣٧ ، ٦٣٨ ، ٦٣٩ ، ٦٤٠ ، ٦٤١ ، ٦٤٢ ، ٦٤٣ ، ٦٤٤ ، ٦٤٥ ، ٦٤٦ ، ٦٤٧ ، ٦٤٨ ، ٦٤٩ ، ٦٥٠ ، ٦٥١ ، ٦٥٢ ، ٦٥٣ ، ٦٥٤ ، ٦٥٥ ، ٦٥٦ ، ٦٥٧ ، ٦٥٨ ، ٦٥٩ ، ٦٦٠ ، ٦٦١ ، ٦٦٢ ، ٦٦٣ ، ٦٦٤ ، ٦٦٥ ، ٦٦٦ ، ٦٦٧ ، ٦٦٨ ، ٦٦٩ ، ٦٧٠ ، ٦٧١ ، ٦٧٢ ، ٦٧٣ ، ٦٧٤ ، ٦٧٥ ، ٦٧٦ ، ٦٧٧ ، ٦٧٨ ، ٦٧٩ ، ٦٨٠ ، ٦٨١ ، ٦٨٢ ، ٦٨٣ ، ٦٨٤ ، ٦٨٥ ، ٦٨٦ ، ٦٨٧ ، ٦٨٨ ، ٦٨٩ ، ٦٩٠ ، ٦٩١ ، ٦٩٢ ، ٦٩٣ ، ٦٩٤ ، ٦٩٥ ، ٦٩٦ ، ٦٩٧ ، ٦٩٨ ، ٦٩٩ ، ٧٠٠ ، ٧٠١ ، ٧٠٢ ، ٧٠٣ ، ٧٠٤ ، ٧٠٥ ، ٧٠٦ ، ٧٠٧ ، ٧٠٨ ، ٧٠٩ ، ٧١٠ ، ٧١١ ، ٧١٢ ، ٧١٣ ، ٧١٤ ، ٧١٥ ، ٧١٦ ، ٧١٧ ، ٧١٨ ، ٧١٩ ، ٧٢٠ ، ٧٢١ ، ٧٢٢ ، ٧٢٣ ، ٧٢٤ ، ٧٢٥ ، ٧٢٦ ، ٧٢٧ ، ٧٢٨ ، ٧٢٩ ، ٧٣٠ ، ٧٣١ ، ٧٣٢ ، ٧٣٣ ، ٧٣٤ ، ٧٣٥ ، ٧٣٦ ، ٧٣٧ ، ٧٣٨ ، ٧٣٩ ، ٧٤٠ ، ٧٤١ ، ٧٤٢ ، ٧٤٣ ، ٧٤٤ ، ٧٤٥ ، ٧٤٦ ، ٧٤٧ ، ٧٤٨ ، ٧٤٩ ، ٧٥٠ ، ٧٥١ ، ٧٥٢ ، ٧٥٣ ، ٧٥٤ ، ٧٥٥ ، ٧٥٦ ، ٧٥٧ ، ٧٥٨ ، ٧٥٩ ، ٧٦٠ ، ٧٦١ ، ٧٦٢ ، ٧٦٣ ، ٧٦٤ ، ٧٦٥ ، ٧٦٦ ، ٧٦٧ ، ٧٦٨ ، ٧٦٩ ، ٧٧٠ ، ٧٧١ ، ٧٧٢ ، ٧٧٣ ، ٧٧٤ ، ٧٧٥ ، ٧٧٦ ، ٧٧٧ ، ٧٧٨ ، ٧٧٩ ، ٧٨٠ ، ٧٨١ ، ٧٨٢ ، ٧٨٣ ، ٧٨٤ ، ٧٨٥ ، ٧٨٦ ، ٧٨٧ ، ٧٨٨ ، ٧٨٩ ، ٧٩٠ ، ٧٩١ ، ٧٩٢ ، ٧٩٣ ، ٧٩٤ ، ٧٩٥ ، ٧٩٦ ، ٧٩٧ ، ٧٩٨ ، ٧٩٩ ، ٨٠٠ ، ٨٠١ ، ٨٠٢ ، ٨٠٣ ، ٨٠٤ ، ٨٠٥ ، ٨٠٦ ، ٨٠٧ ، ٨٠٨ ، ٨٠٩ ، ٨١٠ ، ٨١١ ، ٨١٢ ، ٨١٣ ، ٨١٤ ، ٨١٥ ، ٨١٦ ، ٨١٧ ، ٨١٨ ، ٨١٩ ، ٨٢٠ ، ٨٢١ ، ٨٢٢ ، ٨٢٣ ، ٨٢٤ ، ٨٢٥ ، ٨٢٦ ، ٨٢٧ ، ٨٢٨ ، ٨٢٩ ، ٨٣٠ ، ٨٣١ ، ٨٣٢ ، ٨٣٣ ، ٨٣٤ ، ٨٣٥ ، ٨٣٦ ، ٨٣٧ ، ٨٣٨ ، ٨٣٩ ، ٨٤٠ ، ٨٤١ ، ٨٤٢ ، ٨٤٣ ، ٨٤٤ ، ٨٤٥ ، ٨٤٦ ، ٨٤٧ ، ٨٤٨ ، ٨٤٩ ، ٨٥٠ ، ٨٥١ ، ٨٥٢ ، ٨٥٣ ، ٨٥٤ ، ٨٥٥ ، ٨٥٦ ، ٨٥٧ ، ٨٥٨ ، ٨٥٩ ، ٨٦٠ ، ٨٦١ ، ٨٦٢ ، ٨٦٣ ، ٨٦٤ ، ٨٦٥ ، ٨٦٦ ، ٨٦٧ ، ٨٦٨ ، ٨٦٩ ، ٨٧٠ ، ٨٧١ ، ٨٧٢ ، ٨٧٣ ، ٨٧٤ ، ٨٧٥ ، ٨٧٦ ، ٨٧٧ ، ٨٧٨ ، ٨٧٩ ، ٨٨٠ ، ٨٨١ ، ٨٨٢ ، ٨٨٣ ، ٨٨٤ ، ٨٨٥ ، ٨٨٦ ، ٨٨٧ ، ٨٨٨ ، ٨٨٩ ، ٨٩٠ ، ٨٩١ ، ٨٩٢ ، ٨٩٣ ، ٨٩٤ ، ٨٩٥ ، ٨٩٦ ، ٨٩٧ ، ٨٩٨ ، ٨٩٩ ، ٩٠٠ ، ٩٠١ ، ٩٠٢ ، ٩٠٣ ، ٩٠٤ ، ٩٠٥ ، ٩٠٦ ، ٩٠٧ ، ٩٠٨ ، ٩٠٩ ، ٩١٠ ، ٩١١ ، ٩١٢ ، ٩١٣ ، ٩١٤ ، ٩١٥ ، ٩١٦ ، ٩١٧ ، ٩١٨ ، ٩١٩ ، ٩٢٠ ، ٩٢١ ، ٩٢٢ ، ٩٢٣ ، ٩٢٤ ، ٩٢٥ ، ٩٢٦ ، ٩٢٧ ، ٩٢٨ ، ٩٢٩ ، ٩٣٠ ، ٩٣١ ، ٩٣٢ ، ٩٣٣ ، ٩٣٤ ، ٩٣٥ ، ٩٣٦ ، ٩٣٧ ، ٩٣٨ ، ٩٣٩ ، ٩٤٠ ، ٩٤١ ، ٩٤٢ ، ٩٤٣ ، ٩٤٤ ، ٩٤٥ ، ٩٤٦ ، ٩٤٧ ، ٩٤٨ ، ٩٤٩ ، ٩٥٠ ، ٩٥١ ، ٩٥٢ ، ٩٥٣ ، ٩٥٤ ، ٩٥٥ ، ٩٥٦ ، ٩٥٧ ، ٩٥٨ ، ٩٥٩ ، ٩٦٠ ، ٩٦١ ، ٩٦٢ ، ٩٦٣ ، ٩٦٤ ، ٩٦٥ ، ٩٦٦ ، ٩٦٧ ، ٩٦٨ ، ٩٦٩ ، ٩٧٠ ، ٩٧١ ، ٩٧٢ ، ٩٧٣ ، ٩٧٤ ، ٩٧٥ ، ٩٧٦ ، ٩٧٧ ، ٩٧٨ ، ٩٧٩ ، ٩٨٠ ، ٩٨١ ، ٩٨٢ ، ٩٨٣ ، ٩٨٤ ، ٩٨٥ ، ٩٨٦ ، ٩٨٧ ، ٩٨٨ ، ٩٨٩ ، ٩٩٠ ، ٩٩١ ، ٩٩٢ ، ٩٩٣ ، ٩٩٤ ، ٩٩٥ ، ٩٩٦ ، ٩٩٧ ، ٩٩٨ ، ٩٩٩ ، ١٠٠٠ ، ١٠٠١ ، ١٠٠٢ ، ١٠٠٣ ، ١٠٠٤ ، ١٠٠٥ ، ١٠٠٦ ، ١٠٠٧ ، ١٠٠٨ ، ١٠٠٩ ، ١٠١٠ ، ١٠١١ ، ١٠١٢ ، ١٠١٣ ، ١٠١٤ ، ١٠١٥ ، ١٠١٦ ، ١٠١٧ ، ١٠١٨ ، ١٠١٩ ، ١٠٢٠ ، ١٠٢١ ، ١٠٢٢ ، ١٠٢٣ ، ١٠٢٤ ، ١٠٢٥ ، ١٠٢٦ ، ١٠٢٧ ، ١٠٢٨ ، ١٠٢٩ ، ١٠٣٠ ، ١٠٣١ ، ١٠٣٢ ، ١٠٣٣ ، ١٠٣٤ ، ١٠٣٥ ، ١٠٣٦ ، ١٠٣٧ ، ١٠٣٨ ، ١٠٣٩ ، ١٠٤٠ ، ١٠٤١ ، ١٠٤٢ ، ١٠٤٣ ، ١٠٤٤ ، ١٠٤٥ ، ١٠٤٦ ، ١٠٤٧ ، ١٠٤٨ ، ١٠٤٩ ، ١٠٥٠ ، ١٠٥١ ، ١٠٥٢ ، ١٠٥٣ ، ١٠٥٤ ، ١٠٥٥ ، ١٠٥٦ ، ١٠٥٧ ، ١٠٥٨ ، ١٠٥٩ ، ١٠٦٠ ، ١٠٦١ ، ١٠٦٢ ، ١٠٦٣ ، ١٠٦٤ ، ١٠٦٥ ، ١٠٦٦ ، ١٠٦٧ ، ١٠٦٨ ، ١٠٦٩ ، ١٠٧٠ ، ١٠٧١ ، ١٠٧٢ ، ١٠٧٣ ، ١٠٧٤ ، ١٠٧٥ ، ١٠٧٦ ، ١٠٧٧ ، ١٠٧٨ ، ١٠٧٩ ، ١٠٨٠ ، ١٠٨١ ، ١٠٨٢ ، ١٠٨٣ ، ١٠٨٤ ، ١٠٨٥ ، ١٠٨٦ ، ١٠٨٧ ، ١٠٨٨ ، ١٠٨٩ ، ١٠٩٠ ، ١٠٩١ ، ١٠٩٢ ، ١٠٩٣ ، ١٠٩٤ ، ١٠٩٥ ، ١٠٩٦ ، ١٠٩٧ ، ١٠٩٨ ، ١٠٩٩ ، ١١٠٠ ، ١١٠١ ، ١١٠٢ ، ١١٠٣ ، ١١٠٤ ، ١١٠٥ ، ١١٠٦ ، ١١٠٧ ، ١١٠٨ ، ١١٠٩ ، ١١١٠ ، ١١١١ ، ١١١٢ ، ١١١٣ ، ١١١٤ ، ١١١٥ ، ١١١٦ ، ١١١٧ ، ١١١٨ ، ١١١٩ ، ١١٢٠ ، ١١٢١ ، ١١٢٢ ، ١١٢٣ ، ١١٢٤ ، ١١٢٥ ، ١١٢٦ ، ١١٢٧ ، ١١٢٨ ، ١١٢٩ ، ١١٣٠ ، ١١٣١ ، ١١٣٢ ، ١١٣٣ ، ١١٣٤ ، ١١٣٥ ، ١١٣٦ ، ١١٣٧ ، ١١٣٨ ، ١١٣٩ ، ١١٤٠ ، ١١٤١ ، ١١٤٢ ، ١١٤٣ ، ١١٤٤ ، ١١٤٥ ، ١١٤٦ ، ١١٤٧ ، ١١٤٨ ، ١١٤٩ ، ١١٥٠ ، ١١٥١ ، ١١٥٢ ، ١١٥٣ ، ١١٥٤ ، ١١٥٥ ، ١١٥٦ ، ١١٥٧ ، ١١٥٨ ، ١١٥٩ ، ١١٦٠ ، ١١٦١ ، ١١٦٢ ، ١١٦٣ ، ١١٦٤ ، ١١٦٥ ، ١١٦٦ ، ١١٦٧ ، ١١٦٨ ، ١١٦٩ ، ١١٧٠ ، ١١٧١ ، ١١٧٢ ، ١١٧٣ ، ١١٧٤ ، ١١٧٥ ، ١١٧٦ ، ١١٧٧ ، ١١٧٨ ، ١١٧٩ ، ١١٨٠ ، ١١٨١ ، ١١٨٢ ، ١١٨٣ ، ١١٨٤ ، ١١٨٥ ، ١١٨٦ ، ١١٨٧ ، ١١٨٨ ، ١١٨٩ ، ١١٩٠ ، ١١٩١ ، ١١٩٢ ، ١١٩٣ ، ١١٩٤ ، ١١٩٥ ، ١١٩٦ ، ١١٩٧ ، ١١٩٨ ، ١١٩٩ ، ١٢٠٠ ، ١٢٠١ ، ١٢٠٢ ، ١٢٠٣ ، ١٢٠٤ ، ١٢٠٥ ، ١٢٠٦ ، ١٢٠٧ ، ١٢٠٨ ، ١٢٠٩ ، ١٢١٠ ، ١٢١١ ، ١٢١٢ ، ١٢١٣ ، ١٢١٤ ، ١٢١٥ ، ١٢١٦ ، ١٢١٧ ، ١٢١٨ ، ١٢١٩ ، ١٢٢٠ ، ١٢٢١ ، ١٢٢٢ ، ١٢٢٣ ، ١٢٢٤ ، ١٢٢٥ ، ١٢٢٦ ، ١٢٢٧ ، ١٢٢٨ ، ١٢٢٩ ، ١٢٣٠ ، ١٢٣١ ، ١٢٣٢ ، ١٢٣٣ ، ١٢٣٤ ، ١٢٣٥ ، ١٢٣٦ ، ١٢٣٧ ، ١٢٣٨ ، ١٢٣٩ ، ١٢٤٠ ، ١٢٤١ ، ١٢٤٢ ، ١٢٤٣ ، ١٢٤٤ ، ١٢٤٥ ، ١٢٤٦ ، ١٢٤٧ ، ١٢٤٨ ، ١٢٤٩ ، ١٢٥٠ ، ١٢٥١ ، ١٢٥٢ ، ١٢٥٣ ، ١٢٥٤ ، ١٢٥٥ ، ١٢٥٦ ، ١٢٥٧ ، ١٢٥٨ ، ١٢٥٩ ، ١٢٦٠ ، ١٢٦١ ، ١٢٦٢ ، ١٢٦٣ ، ١٢٦٤ ، ١٢٦٥ ، ١٢٦٦ ، ١٢٦٧ ، ١٢٦٨ ، ١٢٦٩ ، ١٢٧٠ ، ١٢٧١ ، ١٢٧٢ ، ١٢٧٣ ، ١٢٧٤ ، ١٢٧٥ ، ١٢٧٦ ، ١٢٧٧ ، ١٢٧٨ ، ١٢٧٩ ، ١٢٨٠ ، ١٢٨١ ، ١٢٨٢ ، ١٢٨٣ ، ١٢٨٤ ، ١٢٨٥ ، ١٢٨٦ ، ١٢٨٧ ، ١٢٨٨ ، ١٢٨٩ ، ١٢٩٠ ، ١٢٩١ ، ١٢٩٢ ، ١٢٩٣ ، ١٢٩٤ ، ١٢٩٥ ، ١٢٩٦ ، ١٢٩٧ ، ١٢٩٨ ، ١٢٩٩ ، ١٣٠٠ ، ١٣٠١ ، ١٣٠٢ ، ١٣٠٣ ، ١٣٠٤ ، ١٣٠٥ ، ١٣٠٦ ، ١٣٠٧ ، ١٣٠٨ ، ١٣٠٩ ، ١٣١٠ ، ١٣١١ ، ١٣١٢ ، ١٣١٣ ، ١٣١٤ ، ١٣١٥ ، ١٣١٦ ، ١٣١٧ ، ١٣١٨ ، ١٣١٩ ، ١٣٢٠ ، ١٣٢١ ، ١٣٢٢ ، ١٣٢٣ ، ١٣٢٤ ، ١٣٢٥ ، ١٣٢٦ ، ١٣٢٧ ، ١٣٢٨ ، ١٣٢٩ ، ١٣٣٠ ، ١٣٣١ ، ١٣٣٢ ، ١٣٣٣ ، ١٣٣٤ ، ١٣٣٥ ، ١٣٣٦ ، ١٣٣٧ ، ١٣٣٨ ، ١٣٣٩ ، ١٣٤٠ ، ١٣٤١ ، ١٣٤٢ ، ١٣٤٣ ، ١٣٤٤ ، ١٣٤٥ ، ١٣٤٦ ، ١٣٤٧ ، ١٣٤٨ ، ١٣٤٩ ، ١٣٥٠ ، ١٣٥١ ، ١٣٥٢ ، ١٣٥٣ ، ١٣٥٤ ، ١٣٥٥ ، ١٣٥٦ ، ١٣٥٧ ، ١٣٥٨ ، ١٣٥٩ ، ١٣٦٠ ، ١٣٦١ ، ١٣٦٢ ، ١٣٦٣ ، ١٣٦٤ ، ١٣٦٥ ، ١٣٦٦ ، ١٣٦٧ ، ١٣٦٨ ، ١٣٦٩ ، ١٣٧٠ ، ١٣٧١ ، ١٣٧٢ ، ١٣٧٣ ، ١٣٧٤ ، ١٣٧٥ ، ١٣٧٦ ، ١٣٧٧ ، ١٣٧٨ ، ١٣٧٩ ، ١٣٨٠ ، ١٣٨١ ، ١٣٨٢ ، ١٣٨٣ ، ١٣٨٤ ، ١٣٨٥ ، ١٣٨٦ ، ١٣٨٧ ، ١٣٨٨ ، ١٣٨٩ ، ١٣٩٠ ، ١٣٩١ ، ١٣٩٢ ، ١٣٩٣ ، ١٣٩٤ ، ١٣٩٥ ، ١٣٩٦ ، ١٣٩٧ ، ١٣٩٨ ، ١٣٩٩ ، ١٤٠٠ ، ١٤٠١ ، ١٤٠٢ ، ١٤٠٣ ، ١٤٠٤ ، ١٤٠٥ ، ١٤٠٦ ، ١٤٠٧ ، ١٤٠٨ ، ١٤٠٩ ، ١٤١٠ ، ١٤١١ ، ١٤١٢ ، ١٤١٣ ، ١٤١٤ ، ١٤١٥ ، ١٤١٦ ، ١٤١٧ ، ١٤١٨ ، ١٤١٩ ، ١٤٢٠ ، ١٤٢١ ، ١٤٢٢ ، ١٤٢٣ ، ١٤٢٤ ، ١٤٢٥ ، ١٤٢٦ ، ١٤٢٧ ، ١٤٢٨ ، ١٤٢٩ ، ١٤٣٠ ، ١٤٣١ ، ١٤٣٢ ، ١٤٣٣ ، ١٤٣٤ ، ١٤٣٥ ، ١٤٣٦ ، ١٤٣٧ ، ١٤٣٨ ، ١٤٣٩ ، ١٤٤٠ ، ١٤٤١ ، ١٤٤٢ ، ١٤٤٣ ، ١٤٤٤ ، ١٤٤٥ ، ١٤٤٦ ، ١٤٤٧ ، ١٤٤٨ ، ١٤٤٩ ، ١٤٥٠ ، ١٤٥١ ، ١٤٥٢ ، ١٤٥٣ ، ١٤٥٤ ، ١٤٥٥ ، ١٤٥٦ ، ١٤٥٧ ، ١٤٥٨ ، ١٤٥٩ ، ١٤٦٠ ، ١٤٦١ ، ١٤٦٢ ، ١٤٦٣ ، ١٤٦٤ ، ١٤٦٥ ، ١٤٦٦ ، ١٤٦٧ ، ١٤٦٨ ، ١٤٦٩ ، ١٤٧٠ ، ١٤٧١ ، ١٤٧٢ ، ١٤٧٣ ، ١٤٧٤ ، ١٤٧٥ ، ١٤٧٦ ، ١٤٧٧ ، ١٤٧٨ ، ١٤٧٩ ، ١٤٨٠ ، ١٤٨١ ، ١٤٨٢ ، ١٤٨٣ ، ١٤٨٤ ، ١٤٨٥ ، ١٤٨٦ ، ١٤٨٧ ، ١٤٨٨ ، ١٤٨٩ ، ١٤٩٠ ، ١٤٩١ ، ١٤٩٢ ، ١٤٩٣ ، ١٤٩٤ ، ١٤٩٥ ، ١٤٩٦ ، ١٤٩٧ ، ١٤٩٨ ، ١٤٩٩ ، ١٥٠٠ ، ١٥٠١ ، ١٥٠٢ ، ١٥٠٣ ، ١٥٠٤ ، ١٥٠٥ ، ١٥٠٦ ، ١٥٠٧ ، ١٥٠٨ ، ١٥٠٩ ، ١٥١٠ ، ١٥١١ ، ١٥١٢ ، ١٥١٣ ، ١٥١٤ ، ١٥١٥ ، ١٥١٦ ، ١٥١٧ ، ١٥١٨ ، ١٥١٩ ، ١٥٢٠ ، ١٥٢١ ، ١٥٢٢ ، ١٥٢٣ ، ١٥٢٤ ، ١٥٢٥ ، ١٥٢٦ ، ١٥٢٧ ، ١٥٢٨ ، ١٥٢٩ ، ١٥٣٠ ، ١٥٣١ ، ١٥٣٢ ، ١٥٣٣ ، ١٥٣٤ ، ١٥٣٥ ، ١٥٣٦ ، ١٥٣٧ ، ١٥٣٨ ، ١٥٣٩ ، ١٥٤٠ ، ١٥٤١ ، ١٥٤٢ ، ١٥٤٣ ، ١٥٤٤ ، ١٥٤٥ ، ١٥٤٦ ، ١٥٤٧ ، ١٥٤٨ ، ١٥٤٩ ، ١٥٥٠ ، ١٥٥١ ، ١٥٥٢ ، ١٥٥٣ ، ١٥٥٤ ، ١٥٥٥ ، ١٥٥٦ ، ١٥

العلم والأدب ، وعرف الفساد والعطب طريقهما إلى البناء الاخلاقي والاجتماعي .

وزاد الطين بلة أن تفتش في بلاد ايران العامرة الحافلة بالرونق والبهاء مظاهر الخراب والفقر والتشتت والضياع . (٦٥)

ورغم ان هؤلاء القتلة الذين يماثلون الشيطان طباعا كانوا يملكون في ايديهم القوة والسيطرة في بعض الاحيان كما يبدو ظاهريا ، فانهم لم يتمكنوا من التحكم في قلوب الايرانيين وافئدتهم . ومصادق قولنا ماورد من اقوال كثيرة من لسان المتحدثين في القرنين الخامس والسادس الهجريين . . اولئك الذين انبرى كل فرد منهم لانتقاد هؤلاء الشياطين بصورة من الصور ، وسب بعضهم هؤلاء الملامين السفاكين المخربين سببا فاحشا ، ونتمتهم بما لا يليق (٦٦) .

وفي الفترة المحصورة ما بين اواسط القرن الخامس الهجري واولال القرن السابع الهجري . . سيطرت على ايران سلاطات من السلاطين والأمراء كانوا ينتمون الى السلاجقة المظالم (٤٣١ - ٥٥٢ هـ) ، وسلاجقة العراق (٥١١ - ٥٩٠ هـ) ، وسلاجقة كرمان (٤٤٢ - ٥٨٢ هـ) ، واتبكة العراقي وآذربيجان (٥٣١ - ٦٢٢ هـ) واتبكة السلفريين واتبكة فارس (٥٤٢ - ٦٨٦ هـ) ، والخوارز مشاهيين من آل اتغر (٤٩٠ - ٦٤٨ هـ) ، وامراء الغور ، وآل باوند وامثالها .

سميا كبيرا في سبيل احياء الرسوم القومية ، والحفاظ على آداب السلف ، وتحقيق رفاهية الشعب . . حتى امكن القول بان عهدهم كان عهد رفعة الحضارة الايرانية وسموها ، ورفي العلوم والآداب الاسلامية ونموها .

غير ان كل ارتفاع يقبه هبوط ، وقد سرى هذا الهبوط الى ايران سريرا ، وذلك منذ اواسط القرن الخامس اثر استيلاء القبائل البربرية والفلمان التابعين لاجناس آسيا الوسطى الممجية على البلاد وسيطرتهم عليها . واستمر الهبوط ساريا عدة قرون ، وتخفض من انحطاط مرعب في حضارة ايران وثقافتها . وبعد انتصار التركمانيين السلاجقة - وهم شعبة من شعب الفز - نقطة البداية بالنسبة للهبوط والانحطاط . فمع انتصار هذه الطائفة ، وطئت ايران اقدام العديد من قبائل آسيا الوسطى المتنمين للجنس الاصفر ، وهم يعرفون لدى المؤرخين والكتاب والشعراء من اصحاب اللسانين باسم (الترك) . وهكذا وطئت ايران اقدام القراق والقراقرز والتغجق والقراخان والقراخا ، واجتمع اليهم حشد لا حد له من المهاجرين والفلمان ممن ينتمون الى القبائل الصفراء التي تسكن آسيا الوسطى . (٦٤)

ومع سيطرة هذه القبائل وتسلط هؤلاء الفلمان انهار صرح الحرية ، وكسدت سوق

(٦٤) لمعرفة كيفية نفوذ القبائل الصفراء من الاورال والالتايين وسيطرتهم ، وهم الذين عرفوا في تاريخنا بالتتر . . ارجع الى :

تاريخ ادبيات در ايران ، ٢ ط ١ ، ص ٥ - ٣٧ ، ٦٨ ، ٩٤ .

(٦٥) نفس المرجع ، ٢ ط ١ ، ص ٩٤ - ١٢٥ .

(٦٦) للحصول على نماذج من هذه الاقوال . . ارجع الى :

نفس المرجع ، ص ١٢٤ - ١٣٠ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١١٧ .

(٦٧) للاطلاع وتحميل المعلومات من هذه الاسر ، ارجع الى :

نفس المرجع ، ص ٥٩ - ٦٧ .

قصة ٢٥٠٠ عام من عمر إيران

ويحول عام ٩٠٧ هـ وجلس الشاه اسماعيل الصفوي على العرش تغير الوضع وبطل الحال.

ويمكن القول بأنه نتيجة لتلك الأحداث التي وقعت على مدى ٣ قرون متوالية ضاع تراث إيران القديم ، وذهبت حضارتها العريقة اندراج الرياح ، ولحقها الفناء والعدم ، وبلغ انحطاطها منتهاه .

ولولا ظهور عدد من المفكرين في هذه الحقبة الزمنية الطويلة ، ممن عاشوا قبل دخول الغول أو تربوا على يد من تبعوا من الإلزمة السابقة على عهد هؤلاء الفزاة ، لبدت بلادنا في صورة سجن أسود يضم بين جدرانها المخيفة هيكل الجهل والانحطاط والفساد .

ولم يكن يتوقع من أي شعب مهما بلغت قوته أن يتحمل تلك النكبات وأن يملك القدرة على الصمود في وجهها . . تلك النكبات التي حلت بالبلاد مع أواخر القرن الخامس الهجري ، ولذا يلتفت في أول القرن العاشر .

لقد زالت كثير من الشعوب الكبيرة من الوجود نتيجة غارة واحدة من هذا اللون من الغارات الوحشية البربرية ، وبقي شعب إيران صامدا .

وفي العصر الصفوي - ذلك العصر الهام الذي يستغرق الفترة ما بين عامي ٧٠٩ هـ ، ١١٤٨ هـ - استمادت الإمبراطورية الإيرانية عظمتها السابقة ، فمنذ زوال الدولة الساسانية والأحداث تتوالى في إيران ، والنسب الإيراني وسلاسل الأمراء والسلاطين الإيرانيين لا يكف صفحهم ولا يتوانى كبيرهم من بذل كل جهد ممكن لإعادة كمال النظم التي كانت سائدة في العصر الساساني . لقد سعى الجميع جاهدين ولمدة تناهز التسعة قرون ، إلى أن ظهر الشاه اسماعيل - أحد نوابغ التاريخ الإيراني - لكل هذه الجهود وتلك المساعي بالنجاح ، ومن

ومع أن معظم هذه السلالات ليست من أصل إيراني . . إلا أنها سرعان ما تأقلمت وخضعت للثقافة والحضارة الإيرانية ، نتيجة للتأثر بالوزراء والكتاب وكبار رجال البلاط ممن كانوا يختارون عادة من بين أبناء البيوتات الإيرانية المعروفة ، ومن ثم قامت بتصميم هذه الثقافة وترويج تلك الحضارة .

والحق أن بعض الأسر الإيرانية الكبيرة التي وُكبت ذلك العهد ، أمثال : آل بركهان ، آل صاعد ، آل عمران ، الأسرة المنجية ، والأسرة النظامية ونظائرها . . كان لها حكم العصب الذي يربط نظام حضارة إيران وثقافتها ، وقد ساهمت كل منها مساهمة فعالة في تربية الفضلاء والكتاب والشعراء .

وبعد هزيمة محمد خوارزمشاه المخلصة أمام جنكيز ، وعلى الرغبات الغول والتاتار ، التي بدأت في عام ٦١٦ هـ - تمشت في إيران الغوغائية من قتل ونهب وسلب وتخريب . وتمده هذه المصيبة من أكبر المصائب التي يمكننا أن نصادفها في تاريخ الربع المسكون ، خاصة إذا عرفنا أنه على الرها قد شيت ثوراته متينة متوالية ، ووقعت في البلاد اتفاقيات مطيعة . وقد توجهت هذه الأحداث في النهاية بجملة تيمور شارب النماء . . تلك الحملة التي قادها ضد البلاد في عام ٧٨٢ هـ .

وبالرغم من أن خلفاء تيمور - الذين حكموا إيران إلى عام ٩٠٧ هـ - كانوا عاجزين عن تركيز قواهم في البلاد وتوطيد الأمن والأمان فيها . . إلا أنهم حققوا نجاحا وتوفيقا كبيرين في ميدان تربية الشعراء والأدباء والفنانين .

وعلى وجه العموم . . فإن الحوادث الرهيبة التي كانت تحدث في إيران فيما بين عامي ٦١٦ هـ ، ٩٠٧ هـ كان لها حكم الضربات المتوالية على جسد إيران الخالي من الحياة .

يومها بلغت بلاد إيران المستقلة حدودها الطبيعية .

هذا ، وتشابه الامبراطورية الصفوية للماسانية في كثير من النواحي . . خاصة في فرضها مذهبها خاصا وجعلها مذهبا رسميا للدولة ، وفي سيطرة الدولة المركبة على حدود فلاة إيران وفروعها الطبيعية ، وفي ايجاد حكومة مستقلة مركزية وإزالة ملوك الطوائف ، وفي تشجيع التجارة والزراعة والصناعة والفن في البلاد ، وفي الاهتمام بالبناء الابنية والعمارات ونشر العمران ، وفي الصمود في وجه الطامعين في إيران . . ممن كانوا يغيرون عليها من الشرق والغرب . . وأمثال ذلك .

وهكذا يجب أن يكون مقبولا - على ضوء ما ذكرنا - أن إيران الصفوية أكثر من غيرها مشابهة لإيران السياسية في كثير من الجوانب .

ومن المسلم به أن التقدم السريع أمر لا يمكن

تحقيقه بالصورة التي يتوقعها معاصروننا خاصة وأن من يتوقع منهم ذلك كانوا أناسا يرحلون تحت نير انحطاط مستمر مثانة السنين .

ومن أهم الحوادث السياسية التي تستحق التسجيل والتي وقعت في إيران بعد زوال الدولة الصفوية . . ظهور « نادر شاه » ، وتشكيل الدولة الانشائية (ابتداء من عام ١١٤٨ هـ) ، ولورة كريمخان زند واقامة الدولة الزندية (من عام ١١٧٢ هـ) ، وتأسيس الدولة القاجارية على يد آقا محمد خان (من عام ١١٩٢ هـ) وتشكيل وزارة ميرزا تقى خان الأمير الكبير (من ١٢٦٤ هـ حتى ١٢٦٨ هـ) وإعلان الحياة النيابية في عام ١٣٢٤ هـ . ق ، واقامة أول دورة لمجلس النواب الإيراني في نفس العام ، والانتقال الذي قام به رضا شاه الكبير في عام ١٢٩٠ هـ . ش ، وانتراض السلسلة القاجارية ، وتشكيل السلسلة البهلوية الصلحة الساعية نحو الرقي (في عام ١٣٠٤ هـ . ش) .



الإنسان والزمن في التراث الشعبي

د. نبيلة إبراهيم *

فمنذ أن وجد الإنسان نفسه على سطح الأرض ، ملك العالم السماوي عليه حسه وفكره نتيجة شعوره العميق بارتباط حياته المادية بهذا العالم . فلما أطلق العنان لخياله في تصور هذا العالم ، صورته صورة مطابقة لعالمه الحسي بما فيه من أنهار وجبال وخضرة . ولابد أن تتربع على مرثى هذا العالم القوة المحركة لهذا الكون والمتحركة في مسيره ، وهي الآلهة . ولكن كيف كانت علاقة الإنسان بالعالم السماوي وآلهته ؟ هل كانت تتحكم في

(١)

من الميث أن نبحث في معجم الإنسان البدائي والشعبي عن المصطلحات الفلسفية الخاصة بعلاقة الإنسان بالزمن مثل الوجود والعدم ، والشئ الحقيقي والوهمي ، والثبات والصيرورة إلى غير ذلك . على أننا إذا كنا نعتقد هذه المصطلحات الفلسفية ، فإننا نجد البديل عنها وهو الشئ نفسه أو الرمز المجسد في الأساطير والطقوس .

* الأستاذة الدكتورة نبيلة إبراهيم مستقلة الأدب بالشعبى بكلية الآداب جامعة القاهرة ، لها العديد من الدراسات في القصة الشعبية والسحر الشعبية وترجمات بحوث أدبية .

ماوى لها . أى أن الانسان الشعبي يستطيع ان يحول الفوضى الى نظام من طريق اجراء الطقوس ، وبهذا يصبح المكان مقدسا ، ومن ثم تنشأ العلاقة الروحية بينه وبين هذا المكان .

وليست رحلة البطل من الاساطير والحكايات الخرافية للوصول الى شجرة الحياة او التفاحة الذهبية او الاميرة المسحورة او نبع الخلود ، سوى تعبير رمزى فني عن فكرة الوصول الى المكان المقدس . والطريق الى هذا المكان شاق ومحفوف بالمخاطر ، ذلك ان الوحش المهول يقف هناك متربصا بالبطل . واذا كان هذا الوحش رمزا للفوضى ، فلا بد للبطل من ان يقتله ، لكي تستعيد الحياة نظامها وقديستها .

وكما يخلق الانسان الشعبي طابع القدسية على المكان ، فانه كذلك يخلق طابع القدسية على الزمان . والزمان المقدس يعنى الزمن الاسطورى الذى لا ينتهى ، أى أن الانسان البدائي ومثله الشعبي يصارع التاريخ ، بمعنى انه احداث متعاقبة لا يمكن تفاديها او تفادى نتائجها ، بل انه يحسن دائما الى الزمن الاسطورى ، الزمن الاكبر حيث يند كل شيء . وهنا يختلف الانسان الشعبي أساسا عن الانسان المعصرى (modern) . فالثانى يعمل عبثا الزمن وثقله ، وهو يفكر دائما في لا مغزى ولا معنى للحياة . ذلك لأن الحياة متصل بكل شيء الى قمة ازدهاره وحيويته ثم تؤويل به بدم ذلك . الى الفناء . أما الانسان الشعبي الذى يسعى دائما الى الاحساس بوجوده الحقيقي ، فانه لا يريد أن يفقد صلته بالوجود ، ولا يريد ان يقع فريسة الإجماسى باللامعنى . وهو يصل الى قمة هذا الاحساس عندما يجد نفسه بعيدا ما قل من قبل ، أى يمارس الطقوس والاحتفالات التى فعلها اجداده . ففي هذه الاحتفالات التى يمارس الجميع فيها طقوسا واحدة . يشعر الانسان الشعبي بصلتها . انه نعمة في لمح جماعتي ، بل في لمح الكون .

مصره بحيث انها اذا قضت عليه بالشر او المرض والمجور ، ارضى هذا الحكم واستسلم له ، ام انه كان يتدخل في هذا الحكم بصورة او بأخرى بحيث يغيره من مجرى الشر الى مجرى آخر يقنمه بحقيقة وجوده ، وبقيمة الحياة التى يحيها ؟

اول ما يقال بصدد الاجابة عن هذه التساؤلات هو أن حقيقة العالم السماوى كانت تأسر الانسان البدائي ، ومثله الانسان الشعبي ، الى درجة انه يعن دائما الى ان يعيش فيما يشبه هذه الحقيقة او يقلدها . واذا كانت حقيقة العالم السماوى مرتبطة كل الارتباط بقدسيته ، فانه يحاول قدر الامكان ان يخلق على المكان الذى يعيش فيه طابع القدس ، لان هذه القدسية هي التى تشعره بمغزى وجوده وحقيقته . فهو فضلا عن انه يشعر بعلاقة روحية بينه وبين الطبيعة التى يعيش وسطها لانه تشير في نفسه قدسية العالم السماوى ، فانه يحرص على أن يشيد وسط المكان الذى يسكنه ما يجسد هذه القدسية ، وليكن غريبا لولي ، أو كنيسة أو جامعا . وبهذا تكتمل قدسية المكان ويصبح صورة مصغرة للعالم السماوى المقدس . ولعل هذا يفسر لنا بناء الانسان القديم للاماكن المقدسة مثل الكعبة والقدس وبابل ، فهي تمثل مع غيرها من الاماكن المقدسة صورة مكررة للنظام السماوى المقدس . ومن ثم كانت بعض هذه الاماكن ، وما يزال بعضها الآخر ، يمثل وجودا حقيقيا لا تتميز به الاماكن الدنيوية الاخرى . ولعل هذا يفسر لنا كذلك الانسان الشعبي على الا يسكن مكانا جديدا ، او يعمر مكانا غير مأهول ، الا اذا أجرى بعض طقوسه ، ولتكن اشعال البخور وقراءة التعاويذ او الايات المقدسة ، ولتكن تقديم ضحية عند عتبة المسكن الجديد ، ولتكن دفي تيمية او حجاب تحت أساس البيت الجديد . ومن البدوي ان الانسان الشعبي يفعل هذا لكي يكون المكان قابلا للسكنى ، اما قبل ذلك ، فانه يكون متجنبا الى عالم الفوضى حيث تجد الاشباح والعفاريت

والواقع أن كلا التومين من الاحتفالات يهدف إلى الإحساس بجدة الحياة واستمرارها ، وخلوها من موائع الأحداث التي تعبر عنها بالتاريخ .

فقد يمارس الإنسان الشعبي الزوار في أوقات دورية أثر إحساسه بوجود حائق بداخله يفسره بأنه تلك الجن له . وهذا المائق يحول بينه وبين الإحساس بالارتياح في حياته . وغالبا ما ينتابه هذا المائق في الحقيقة إثر حداث معين . ولكن لأن الإنسان الشعبي ينزع دائما إلى نحو الزمن الحسي والعيش في الزمن الأسطوري ، حيث يتجدد كل شيء ، فإنه لا يفكر في هذا الحادث ، بل أنه لا يتذكره . وقد عبر أحد أبناء الشعب المصري عن شعوره إثر اجرائه طقس الزوار ، بأنه يشعر أنه يولد من جديد . فهذا طقس يمارس بقصد طرد الأشباح من عالم الإنسان ، ولكن الهدف البعيد منه في الحقيقة ، هو اليمت الجديد على نحو ما يحدث في العالم الأسطوري ، عندما يمت الحياة بعد القضاء على العناصر الشريرة .

ويرتبط بفكرة تعلق الإنسان الشعبي بالزمن الأسطوري المتجدد موضوع تقديمه للأموات . فحرص الإنسان الشعبي على زيارة الأموات وتقديم القرابين لهم بصفة دورية ، وحديثه من أن الأموات يزورونه في الأحلام ، ويبلغونه قولا يتعلق بموضوع عيائشه ، وقد يتنبأون بما يمكن أن يحدث في المستقبل ، كل هذا يعني أن الأموات قد انتفت منهم الصفة التاريخية ، وأنهم يعيشون معه على الدوام . ولهذا يتم تجديد العهد بينه وبينهم في فترات دورية حتى يعيشوا مما في تصاليع دالم .

وحين الإنسان الشعبي إلى الزمن الأسطوري المتدفق جعله يتم بالاحتفال بتجديد دورة الحياة ، وذلك عن طريق احتفالاته

الكون الذي يتجدد دائما بتجدد ليله ونهاره ، وتجدد فصوله ، وتجدد قمره .

الإنسان الشعبي (١) إذن يسعى إلى تجديد الحياة ، أي نحو الزمن الحسي وهذا مانعته بعينه إلى الزمن الأسطوري ، أي الزمن المتجدد كما عبر عنه في أساطيره وما زال يعبر عنه في احتفالاته وممارساته . ولا يعني هذا أن الإنسان الشعبي لا يشعر بنهاية الأشياء أو نهاية فترة ما ، حقا أنه يشعر بهذا ، ولكنه سرعان ما يشعر باستمرار الحياة ، ويعلن إلى الخلق الجديد كما صورته في أساطيره ، فيقلده أو يعيد ذكره .

وانطلاقا من هذه الفلسفة نستطيع أن نصل إلى أبعاد طقوسه واحتفالاته الدورية ، وأن تكشف عن كنه كثير من ممارساته التي قد تبدو غامضة عندما يصير الباحث من أن يجد لها تفسيراً مقننا .

ويمكننا أن نقسم هذه الاحتفالات إلى نوعين : نوع يهدف إلى تطهير حياته من الأشباح والأمراض والذنوب ، والنوع الآخر يهدف إلى تجديد دورة الحياة الطبيعية المرتبطة بالخصب والنماء .

أما النوع الأول فتتمثل طقوسه في مراسيم التطهر ، وفي الصيام الدوري ، وفي طرد الأشباح والعاغريت من حياة الفرد والجماعة ، وفي تقديم الضحية في مناسبات معينة ، وغير ذلك .

وأما النوع الثاني فتدور حوله كثير من الأساطير والطقوس التي مرتها شعوب العالم أجمع وما تزال تعيد ذكرها بصورة أو بأخرى .

(١) سوف نلتزم بهذا الاصطلاح الذي نمنى به بشرحنا المتجاوز كلا من الإنسان البدائي والإنسان الشعبي الذي يعيش مرتبطا بالأموات والجنات والتقاليد الجماعية المتوارثة .

بالخشب والنمام . وهو في هذه الاحتفالات يشخص ما رواه في أساطيره من الحياة المتجددة في العالم العلوي ،

لقد احتفلت جميع شعوب العالم ، وما تزال تحتفل بصورة أو بأخرى ، بمودة النضرة للحياة ، أما بعد صيف جاف حار أصاب الزروع والجفافه ، أو بعد شتاء قارس قتل الزروع باستيمه . ففي كلتا العاليتين كانت الشعوب تحيي ، في قداسة بالغة ، الاحتفالات الدينية ، وتجرى الطقوس التي تتوسل من طريقها إلى الآلهة لكي تמיד للحياة نضرتها على الدوام . وينفذ الرقص منصرا هاما في إجراء الطقوس ، لأن الفرح منه هو إثارة الطبيعة كي تسقط أمطارها فتتمطره الأنهار بالمياه ، ويرتدي الزرع وتعود للحياة نضرتها .

وقد كان المصريون القدماء يحتفلون بفيضان النيل كل عام ، بأن يلقوا فيه بعروس مودانة لكي يتزوجها النيل ، فيعود إلى حيويته ونشاطه . ومعنى هذا أن النيل الذي قد يصل نشاطه إلى حد الإنهاك ، لابد أن يعود إلى كامل قوّة وحيويته من طريق الزواج الجديد.

وخول هذا المفزى تدور أسطورة ادونيس . فلقد كان ادونيس شابا جميلا فرمت به الآلهة الفروديت . وذات يوم هاجم ادونيس ثور وحشي وأصابه بجرح أفضى به إلى الموت . وحزنت الفروديت على موت حبيبها كل الحزن ، واخلت تتضرع لآله زيوس أن يعيد الحياة إلى ادونيس . فاشفق زيوس عليها ومنع ادونيس منحة العودة إلى الحياة ، ولكن في فترة معينة فقط من السنة . وتشير الطقوس التي كانت تؤدي للتعبير عن موت ادونيس ومن عودة الحياة إليه ، كما يشير توحيث الاحتفال وطابعه ، إلى أن ادونيس لم

يكن مجرد اله ، بل كان تجسيدا للزمن المتجدد الذي يؤدي إلى سلامة الطبيعة وأحيائها على الدوام . فقد كان الإغريق يحتفلون بهذا العيد في الربيع . وكان يحتفل به في فلسطين في شهر يونيه عندما يصل ازدهار النبات إلى قمته . ويقع موت ادونيس في التقويم السرياني المقدوني في الثالث والعشرين من شهر سبتمبر كما يقع بمث في اليوم الأول من شهر أكتوبر ، وهو بداية العام الجديد في هذا التقويم . وكان الاحتفال بموت ادونيس يتميز بحويل النساء عليه بصفة خاصة ، وذلك لخوفهن من أن يصبن بالمقم ، حيث أن الجلب يشمل كل مظاهر الحياة (٢) .

ويذكرنا حويل النساء على ادونيس بما روى من حويل البابليين والكنعانيين بسبب اختفاء الهمم تموز عنهم . وقد نجم من ذلك أن حل الخراب بالأرض ، وأصاب المقم الحيوان والإنسان . عند ذلك رفع الناس أصواتهم بالبكاء والحويل متوسلين إلى الآلهة تموز أن يعود إليهم ، وسمع الآلهة تموز بكاءهم ، فاشفق عليهم ، وقرر أن يضع حدا لمناعبهم بأن يعود إلى الأرض فترة قصيرة في كل عام . وما هي ذي بعض عبارات هذا الحويل ..

بكاؤنا يسمع في كل مكان في الأرض ،
مرتفعاتها ومنخفضاتها لعله يصل إلى بيت
الآله .

انه حويل من أجل النبات الذي كف عن
النمو

ومن أجل الشعر الذي ذبل

ومن أجل الناس والقطيع ، فقد كفوا عن
التوالد .

ومن أجل موت الشباب والأطفال

فيها مردوك أسيراً في الجبال عاجزاً عن التخلص من سيطرة تيامات عليه . وكل هذا يرمز لرحلة الفوضى التي سبقت خلق الكون وتنظيمه .

٢ - يدور الصراع بين فريقين أحدهما يمثل مردوك والآخر تيامات ، ويصبح الناس بفريق مردوك أن ينتصر ، بينما يدمون على الفريق الآخر بالفناء .

٣ - انتصار فريق مردوك الذي يعني الخلق الجديد للعالم والإنسان وما يعقب هذا من احتفالات (٤) .

ويحتفل البابليون في تراثهم بذكرى « تاما » ، وتاما عتصز روعي يعيش مع الإنسان ومع الأموات مع القديسين . فإذا أوشك الشتاء على الانتهاء مسلماً دورة الحياة إلى الربيع : تهجيت التاما وحاولت أن تترك جسم الإنسان الحي ، كما تحاول تاما الأصوات أن تفسد مسكن الأحياء . والفرض من هذا الاحتفال المشبع بالفزى النفسي الفسيولوجي هو تثبيت تلك المادة الروحية في الجسم . ذلك أن النفس الإنسانية التي يطول كتبها في موسم الشتاء ، تنهيج عندما تشرع بمقدم الربيع ، موسم الأزهار والأخصاب . ومن ثم يجري هذا الاحتفال لوضع حد لتهيجها لكي تمارس نشاطها في نظام مع مطلع الميلاد الجديد .

كل هذه الشعارات والطقوس هي في تكوينها البثائي نوع من سحر المشاركة كما شرحه فريقد في كتابه « الفصح الذهبي » . وهي تتبع أصلاً من حاجة الإنسان الشعبي إلى تحرير نفسه من أسر الأحاسيس بالزمن عن طريق استحضار النموذج القديم الذي يجعله يشعر بأنه معاصر للخطوة الميتولوجية لبداية الحياة .

ومن أجل النهر الذي كف عن الفيضان ومن أجل السمك الذي اختفى

ومن أجل الغابات التي لم يعد ينمو فيها شجر التمرسك

ومن أجل مخازن البيوت التي لم تصد تستقبل النجيل والعسل

ومن أجل البراري التي لم تعد تنبت فيها الحشائش

ومن أجل القصر الذي ولت عنه بهجة الإيام الماضية .

وإذا كان النص لم يشر إلى احتفالات الشعب ببعث الإله نموز ، إلا أن كلمة النص تشير إلى مودة الغضب إلى الحياة مرة أخرى ، فقد ورد فيه :

لقد تهرعت الحشائش حيث كانت قد اختفت

ولقد فتحت المياه وعاد الناس يجرعونها واستعاد الناس بناء الحظائر بعد أن كانت قد هدمت (٥) .

وقد تعود البابليون أحياء ذكرى الصراع بين تيامات ، وحش البحر الذي يمثل الفوضى ، والإله مردوك الذي يرمز إلى النظام ، وقد تمكن مردوك من أن يقتل تيامات ، ثم شرع بعد ذلك في خلق الكون والإنسان . وقد كانت الطقوس التي يحيى ذكرى هذه الحادثة الأسطورية ، تجري على النحو التالي :

١ - قضاء فترة من التطهر والتكفير عن الذنوب ، وتقديم الضحية وهي تمثل الفترة التي كان

Op. Cit. P. 39-40.

(٢)

Miroce Eliade : Cosmos and History, P. 57, 58 (New York, 1959).

(٤)

ان يقوم بها سوى رجل خال من أى عيب جسدى أو عقلى ، أى لابد ان تتوفر لهذا الملك الحيوية والشباب طالما كان يحكم شعبه . لقد كان شعبه يطلب منه ان يكون مهابا من الرجال الاقوياء ، وأن يستطيع ان يحكم بالعدل بينهم ، وان تنبت الأرض طول مدة حكمه الشمر والقمح وتحمل الأشجار الفواكه والثمار الطيبة . وولد القطيع الصغار ، كما يتوالد السمك في البحار ، وان يعيش الشعب في رخاء دائم . والملك يقدر على تحقيق كل هذا لشعبه اذا كان خاليا من أى عيب جسدى أو عقلى ، أما اذا كان مريضا على نحو ما ، ابتليت مملكته بالمرض . « ولهذا فقد حذرت النبوة الاسبرطيين من الحكم المزعج » (٥) .

وقد روى فريزارد ما يشبه هذا التصور عند الافريق ، من قبيلة الشلوك التي تسكن النيل الأبيض في منطقة تمتد من الشاطئ الغربي عند مدينة كاكا في الشمال الى بحيرة نو في الجنوب ، كما تسكن الشاطئ الشرقي من النهر من فاشودة الى التوفيقية . فملكهم الذي كان يقم في فاشودة ، ينظر اليه بوصفه تجسيدا للبطل المول « نياكنج » الذي كان اول من استوطن بقبيلته هذا المكان وفقا لاسطورتهم . وقد كان هذا البطل يؤله بوصفه مانع المطر . وعلى الرغم من تقديس القبيلة للملك على هذا النحو فإنه لم يكن يسمح له بأن يصير هزيميا ضيفا ، والا سرت عدوى الضعف الى قبيلته ، فيمرغض القطيع وتلدب المحاصيل ويموت الرجال بأعداد كبيرة ، واحدى علامات ضعف هذا الملك عجزه عن تحقيق رغبات زوجاته اللائي يمتلك منهن العدد الكبير . فلذا حدث هذا ولدت الزوجات شكواهن الى رؤسائهن الذين يشرمون على الثور في تمريرى الملك المجرى للقضاء ، وإحلال ملك شاب قوى مكانه (٦) .

وهو يشعر بالحاجة الى العودة الى تلك اللحظة أكبر وقت ممكن ، لكي يجدد نفسه ويجدد حياته . وسواء كانت تلك القوسى جمعية أو فردية ، وسواء كانت دورية أو تلقائية ، فإنها تحتوى في بنائها على معنى الاحياء من طريق تكرار الفعل القديم ، الذى غالبا ما يكون فعلا قد شارك في تكوين الكون لأول مرة . وكل ما بهمننا من سرد هذه الأمثلة هو تأكيد نزوع الانسان الى نحو الزمن الحسى .

وأكثر ما يؤيد لنا هذه الفليفة ، تطلق الانسان الشعبي منذ القدم بالقمع ، بحيث صاغ حوله الاساطير التي تستثير اليها وشيكا ،

فلذا كان القمع قد اسف لالانسان بقياس الزمن بطريقتة حسية ، وذلك قبل ادراكه للحساب الشمسي بزمان طويل ، كان القمع في الوقت نفسه رمز للعودة الابدية . لاله النمط القديم للاستمرار الذى يحسن اليه الانسان الشعبي ويصارع الحياة من أجله . فكما ان القمع يبرغ ثم يكتمل ثم يتعرق ويختفى ثم يعود للحياة مرة أخرى ، كذلك يولد كل شيء في الحياة ، وينمو ثم يعود للحياة مرة أخرى .

(٧)

وفي مرحلة تالية لذلك كان ينظر الى الملك عند شعوب الحضارات المتقدمة ، بل وعند بعض سكان افريقيا الاصليين في العصر الحاضر ، كان ينظر اليه بوصفه ممثلا للاله .

فقد كان الملك عند الافريق ، يقدس مثل لاله زويس . وقد كانت الوثائق القديمة على كاهل هذا الملك من المنطقة يكتفى ، تفصيح لا يمكن

الملك يعنيه وحده ، لما اهتم بذلك احد ، ولكن هذا الضعف الجسدى ، وربما العقلى كذلك الذى انتابه ، هدد بلاده بالخراب . وكان يتطلب الامر ، لكي يستعيد الملك قواه وحيويته ، ان يرحل فارس شاب الى قلعة بعيدة ، يكتنفها الضموس ليحضر منها السيف والكأس . وما ان وثقت قدماء هذا المكان حتى بدت له اشياء يقف لها شعر الرأس رهبا . فقد بدا له في السكون والظلمة المخيمة على المكان ، جنس ميت ، كما امتدت اليه يد مدمية من مكان مجهول ، والى جانب هذا سمع اصواتا مرعبة تحلوه من الاقتراب من هدفه ، ولكن الفارس البطول ، استطاع رغم كل ذلك ، مستعينا بتماويله السحرية ، ان يصل الى مطلبه . ثم راح يصد ذلك في سبات عميق . فلما استيقظ وجد ان القلعة قد اختفت ، وابصر نفسه يسير وسط ربوع خضبة مليئة بالورود . وعندما عاد الى بلده ، حيث تركه الناس يبكون ويوللون بسبب الخراب الذى تهددهم ، وجد الماتم قد انقلب الى فرح وسعادة ، ووجد الناس ينتظرون قدومه لكي يستقبلوه استقبال البطل الذى استطاع ان يعيد للملك شبابه وحياتهم الخصب بعد ان تمكن من الحصول على الكأس والسيف .

هذه القصة التى وردت في ملحمة الملك آرثر وفي قصة بريسفال ، وربما في غير ذلك من القصص التى شاع في المصور الوسطى ، تشبه ولا شك الاساطير الطقوسية التى سبق ان اوردناها .

واذا كان الباحثون قد انتهوا الى ان الكأس يرمز للثرى ، وان السيف يرمز للذكور ، فان دواء الملك الذى يسمى الفارس في الحصول عليه اذن ، يتمثل فيما يمكن ان يعيد للملك قواه الجنسية لكي يكون قادرا على الاخصاب فتخصب الارض ، نتيجة لذلك ، بتأثير سحر المشاركة ..

وكل هذا يعنى ان الملك لم يكن مجرد رجل يحكم ، بل كان تجسيدا لقوة الهية مرتبطة بخصب الارض ورخاء الناس ، وقدره الانسان والحيوان على الاخصاب . انه نصف اله ونصف انسان ، ومركزه يقع بين الناس والارض من ناحية ، والقوة الخفية التى تتحكم في مصائر الناس من ناحية اخرى . وسواء كان هذا الملك هو ادونيس او تموز ، او كان ملكا حقا ، فان نسج قصته واحد ، وطقوس الاحتفال بولده وبموته واحدة . ويتألف نسج القصة اساسا من مجموعة من التناقضات هي الموت والبعث ، والجندب والخصب ، والحزن والبهجة .

وقد ظل تأثير هذه الاساطير ممتدا حتى المصور الوسطى . فقد شاع في القصص الرومانسي في هذه الفترة في اوروبا نمط قصصى هو قصة « الملك الصياد والكأس »
The Fisher King and the Grail

وقد درست جيسى وستون « هذه القصة في كتابها القيم « من عصر الطقوس الى العصر الرومانسي » ، بقصد الكشف عن اصول هذه القصة ، وتفاصيل الطقوس والاساطير القديمة الخاصة بتجدد الحياة ، يؤكد ان قصة الملك الصياد والكأس ليس سوى امتداد للاساطير القديمة . ولا يرجع ظهور هذه القصة في الادب الرومانسي في المصور الوسطى الى مجرد تقليد هذا الادب الشعبي القديم واستيحائه لبعض نماذجه ، بل يرجع الى امتداد الاعتقاد القديم في حد ذاته ان الحياة تتجدد كلما آل بها الزمن الى الهرم ، وان هذا التجدد يحتاج الى اجراء طقوس معينة لكي تعود القوة والحيوية الى الشخص الاسطوري الذى يرتبط بشبابها وشباب الارض ومن عليها .

وتتلخص هذه القصة في اكمل رواياتها في ان الملك الصياد كان يعاني من ضعف بسبب مرض او بسبب الهرم . ولو كان ضعف هذا

وليس احتفال الشعب بالزواج ولقائهم بطقوس معينة ، ودعائهم للمروس ليلة زفافها بقولهم : « رينا يملك شجرة تطرح وتلاطح المطرح » ، سوى تمبير عن الاحتفال باستمرار الحياة المتمثلة في جيل مخصب يعقب جيلا أصحابه الجذب والهرم ، بل أن الربط بين الشجرة المثمرة والمروس المخصب لأكثر دليل على حنين الشعب لأن يرى الإخصاب المتجدد في كل مظاهر الحياة .

ويحتفل الشعب بميلاد الطفل بطقوس معينة حيث أن هذا الميلاد رمز لاستمرار الحياة . ولهذا فإن الشعب يعطي هذا الميلاد العديد بكل ما يضمن له البقاء والاستمرار ، فهو يحمين من الأرواح الشريرة عن طريق تعاويده وطقوس سحره ، وهو يجري له احتفالا خاصا في اليوم السابع من ميلاده عندما تغارقه الملائكة وفقا لاعتقاده ، بعد أن رعته من الشر الذي يكون معرضا له أكثر ما يكون في السبعة أيام الأولى من ميلاده . وفي هذا الاحتفال يدق الهاون حتى تهزب الأرواح الشريرة التي تفرع من صليل النحاس ، كما أنه يضع بجانبه الماء من القلة أو الأبريق ، وكذلك يضع سبع حبات في الماء كي تثبت . وهذا تعبير رمزي مجسد مفواه أن تكون حياة الطفل جارية جريان الماء ونضرة نضرة الزرع .

وحينئذ الشعب إلى الزمن الأسطوري يدفعه لأن ينتزع الشخصيات الجذابة التي تروقه لسبب أو لآخر من أطوارها التاريخية ويضعها في قالب أسطوري . ومن هنا ظهرت أساطير **هوقل وجعلشني ومارجوس ، والسيسيد الأبيض ، وعنترة وغيرهم** . وكلها ينزع إلى تشكيل الحدث الواقعي في شكل أسطوري ، بحيث يصبح هذا الحدث الأسطوري هو الأصل ، والحدث الواقعي صورة ميسوخة له . وتلاحظ أن كل هذه الشخصيات صارت القوى المهيمنة سواء كانت تبنينا أو غيره ، لأن هذا الفصل وحده يكفي أن يرحب بها في الزمن

ولا ننسى أن نذكر في هذا المجال أن لقب « الملك الصياد » هو في حد ذاته الرمز الذي تدور حوله الأسطورة بأكملها . ذلك أن السمكة تعد رمزا للإخصاب منذ المصور القديمة حتى اليوم ومعنى هذا أن الملك الذي يرتبط شباب الأرض بشبابه ، ينبغي أن يكون ممتلكا لمصدر الإخصاب وما يتولد منه ، وهو الماء .

على أن أساطير الفصحى القديمة لم ينف تأثيرها عند هذا الحد بل ما يزال تأثيرها وتأثير المتعدد نفسه جلجا في الحياة الشعبية المعاصرة وفي التفكير الشعبي بصورة أو بأخرى . فاحتفالات الربيع التي تجري في جميع أنحاء العالم ، ومن بينها احتفالنا الشعبي بشم النسيم ، ليس سوى تكرير لطقوس القديمة ، وأن غاب المضمون الديني القديم عن هذه الاحتفالات . وقد اعتاد الأطفال في بعض قرى مصر أن يصنعوا عروسة من الفصيح أو القماش ويلبسونها ، ويطوفوا بها في الشوارع ليلة الاحتفال بشم النسيم ، ثم كانوا يحرقون العروس في نهاية الاحتفال ويطفوا بها في النيل وهم ينفون :

عروسة شم النسيم .

كل سنة واتم طيبين

عروسة شم النسيم

سنة يبضه على حاضرين

قوم أصحى يا وحم

قوم اترك البلد

فالعروسة هنا رمز لسنة النضرة التي أصابها الهرم بحلول فصل الشتاء ، ولابد لهذه السنة أن تتجدد بحلول فصل الربيع . ولهذا فإن العروسة يلقي بها في الماء لأنه أصل كل شيء كما سبق أن ذكرنا ، ومن هنا نفهم الصلابة الألفية وحرق العروسة ، إذ أن الألفية تتضمن للناس بعد التفصيل على الشيء البالي ، كما لا خير وبركة ، مليئا بالحياة والنشاط ،

الخيرة على القوة الشريرة ، فتمسود للحياة
صيرورتها الدائمة ونظامها .

(٢)

ويتنوع تجسيد الشعوب لفكرة الزمن
اللامتناهى بحيث تأخذ أشكالا عدة تكون منها
تراث شعبى خصب . وقد سبق أن رأينا
كيف انتشرت في التراث الفريسي حتى المصور
الوسطى فكرة الملك المقدس الذى يتحتم عليه
أن يظل شابا مليئا بالحياة والا قضى عليه
بالموت . أما في مجتمعات العربى ، فقد تجسدت
فكرة الزمن اللامتناهى في شخصية **الظفر**
وفيما صيغ حولها من روايات .

فمن هو الظفر ؟ ولماذا سمي بهذا الاسم ؟
يفاجئنا هذا الاسم في شرح المفسرين
للآيات القرآنية التى تحكى عن مقابلة
موسى عليه السلام للشخصية المجهولة
عند مجمع البحرين على نحو ما ورد
في سورة الكهف في قوله تعالى « **وَأَدَّاهُ قَالُوسٌ**
لَفَتَاهُ لَا يُرَى حَتَّى ابْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ
أَمْضِيَ حَقْبًا . فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا
حَوْتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا . فَلَمَّا
جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَامًا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ
سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا . قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى
الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْغَدَامَ وَمَا اتَّسَانِيهِ إِلَّا
الشَّيْطَانُ ابْنُ آدَمَ . وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ
هَجَبًا . قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغُ . فَارْتَدَّا عَلَى
آثَارِهِمَا قَصَصًا . فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا
آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِزِّنَا وَعِلْمَنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا » .

وقد أورد الطبري على مادته روايات عدة
تشرح سبب نزول هذه الآيات وظفرها . في
الوقت نفسه . ومن بين هذه الروايات أورد
رواية هذا نصها : « **لَا مَوْسَى هُوَ نَبِيٌّ بَنَى**
إِسْرَائِيلَ سَالَ رَبَّهُ فَقَالَ : أَيُّ رِبٍّ أَنْ كُنْتُ فِي
عِبَادِكَ أَحَدٌ هُوَ أَعْلَمُ مِنِّي فَأَدَلَّنِي عَلَيْهِ . فقال
له : نعم في عبادي من هو أعلم منك . ثم

الأسطوري ويعددها من الزمن التاريخي . وكلما
ارتبطت الشخصيات بطقوس معينة تمارس
دوريا على سبيل الاحتفال بذكرها ، عاشت
هذه الشخصيات على الدوام في ضمير الشعب .
ولهذا كانت شخصية القديس مار جرجس
والسيد البدوي على سبيل المثال ما تزال
وسوف تظل مألوفة في نفوس الشعب المصري ،
في حين أن شخصيات السير الشعبية مثل
الظاهر بيبرس و**عنترة** قل حجمها بمجرد
اختفاء الأنماط القصصية التى نسجت حولها ،
وذلك لعدم ارتباط تلك الشخصيات بطقوس
معينة .

وإذا قام الإنسان الشعبي بعمل تتعلق حياته
بنتيجته ، سرهان ما يشعر بسيطرة العالم
المقدس عليه ، أو لنقل أنه سرهان ما يتجاوز
العالم المعلوم إلى العالم الغيبي ، حيث يعيش
فترة في الزمن الأسطوري المقدس ، فقد حكى
لنا صياد من منطقة رشيد الساحلية في مصر
من تجربته الشخصية عندما يخرج للصيد من
رشيد متوجلا في أصناف البهار لقتال : عندما
تقف على الشاطئ ، وقد استعد المركب للانطلاق
نوجه بصريا إلى ضريح الشيخ أبى مندور الذى
يقع قبائطنا على الساحل الآخر . فإذا بشملة
خافتة من الضوء تخرج من هذا الضريح وتتجه
إلينا . عند ذلك نتوكل على الله ونبحر والضوء
ملامح لنا كأنه النور الهادى لنا في الطريق .
ويظل هذا الضوء يصحبنا حتى نجتاز المنطقة
الخطيرة . وعند ذلك ينحسر الضوء ويرتد إلى
الضريح ، وبعد ذلك نشتم رائحة بخور مطر
تنتشر في الجو .

وقد يبدو هذا السلوك ساذجا إن هو بعيد
عن روح الحياة الشعبية ، ولكننا عندما نتعمق
في طبيعة الإنسان الشعبي ، نعرفه أن هذا
السلوك ينتمى إلى فلسفته العامة في اكتساب
كل ما هو دنيوى طامعا دنيئا مقدسا ، لأن
الحقيقة الكبرى لا تتمثل إلا في هذا الشيء
المقدس . ومن ثم فقد نقل الحدث الحسى إلى
الزمن الألى حصى الأكبر حيث تقضى القوة

وروي أن ابن عباس تمارى هو والبحر بن قيس بن حصن الفزاري في صاحب موسى : فقال ابن عباس : « هو خضر . فمر بهما أبي بن كعب فدهاه ابن عباس فقال : اني تماريت انا وصاحبى . هذا في صاحب موسى الذى سأل السبيل الى لقيه . فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر شانه ؟ قال : اني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : بينا موسى في ملا من بنى اسرائيل اذ جاءه رجل فقال : تعلم مكان احد اعلم منك ؟ قال موسى : لا . فابوحي الله الى موسى : بل عبيدا خضر . فسأله موسى السبيل الى لقيه . فجعل الله له الحوت آية وقيل له : اذا فقدت الحوت فارجع فانك ستلقاه . فكان موسى يتبع اثر الحوت في البحر . فقال فتي موسى لموسى : رأيت اذ اويننا الى الصخرة فاني نسيت الحوت . قال موسى : ذلك ما كنا نبغ ، فارعدا على آثارهما قصصا ، فوجدوا عبيدا خضرا ، وكان من شسائهما ما قص الله في كتابه . » (٩)

من كل ذلك نستخلص ما يلي :

اولا : ان الآيات القرآنية لم تذكر اسم ذلك العبد الذى لقيه موسى ، بل اقتصر على الإشارة الى كنهه في قوله تعالى : فوجدوا عبيدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لغنا فلما « . وعندما شرع المفسرون في شرح الآية ، والحواء على تحديد اسم هذا العبد حتى تتحدد شخصيته ويصبح تجسيدا لطبيعة مميزة بأفعالها وروحانياتها . وهذه الطبيعة لا تنتمى الى الطبيعة البشرية كلية ، بل انها تخرج من دائرة الانبياء المعروفين لتدخل في مجال اشد قربا الى الطبيعة الالهية ، وأكثر ابتعادا عن الطبيعة الانسانية . وعندما سميت

لمت له مكانه . واذاً له في لقيه . فخرج موسى ومعه فتاه ومعه حوت مليح وقد قيل له : اذا حوى هذا الحوت في مكان فصاحبك هنا لك وقد ادركت حاجتك . فخرج موسى ومعه فتاه ، ومعهما ذلك الحوت يحملانه ، فسار حتى جهده السير وانتهى الى الصخرة وإلى ذلك الماء ، ماء الحياة ، من شرب منه خلد ولا يقاويه شيء ميت الا حوى . فلما نزل ومس الحوت الماء حوى فانخذ سبيله في البحر سريرا . فانطلقا . فلما جاؤا متقلبه قال موسى : آتينا خدنا قد لقينا من سفرنا هذا نصبا . قال الفتى وذكر : « رأيت اذ اويننا الى الصخرة فاني نسيت الحوت وما انسانيه الا الشيطان ان اذكره ، وانخذ سبيله في البحر عجبا . » قال ابن عباس : فظهر موسى على الصخرة حتى انتهيا اليها . فاذا برجل متلف في كساء له : فسلم موسى فرد عليه السلام قال له : ما جاء بك ان كان لك في قومك شغل ؟ قال له موسى : جئت لتعلمني مما علمت رشدا . قال : انك لن تستطيع معي صبرا . وكان رجلا يعلم علم الفيل قد علم ذلك . » (١٠)

وفي رواية اخرى ان رجلا من بنى اسرائيل سأل موسى : « هل على الارض احد اعلم منك يا رسول الله ؟ قال : لا . فبعث الله جبرئيل الى موسى عليهما السلام فقال : ان الله يقول : وما يدريك أين أشع علمي . بل ان على شط البحر رجلا اعلم منك . فقال ابن عباس : هو الخضر . فسأل موسى ربه أن يرده اليه . فابوحي الله اليه ان أت البحر فانك تجد على شط البحر حوتا . فخذ فادغمه الى فسانك ثم ارم شط البحر . فاذا نسيت الحوت وهلك منك ، ثم تجد العبد الصالح الذى تطلب . » (١١)

(٧) الطبري : جامع البيان عن تأويل آي القرآن : ج ١٥ ص ٣٣٩ ، ٢٨٠ .

(٨) نفسه ص ٢٨١ .

(٩) نفسه ص ٢٨٢ .

ثالثاً : إن العلامة التي اعطيت لموسى للتعرف على هذا العبد المجهول ، تحدتت أولاً في الثور عليه في مكان ما ، سمي بمجمع البحرين ، والثر حادث قريب هو أن السمكة الملحة التي كان يحملها فتى موسى لابد أن تحيا اثر تسربها في البحر . ولهذا هنئنا أعلم الفتى موسى بأن السمكة تسربت في البحر ، على نحو ما ورد في الآية الكريمة : **« إنا رأيت الذرأنا إلى الصخرة فأتى نسييت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان ، إن الأكره ، واتخذ سبيله في البحر عجباً »** . فرد موسى قائلاً على الثور : **« (لذلك ما كنا نعي) »** ولعل هذا ما دفع بعض المفسرين لأن يوضح طبيعة الماء الذي تسربت إليه السمكة ، و بالأحرى الحوت ، يقول : **« فسار (أي موسى) حتى جهده السير وانتفى إلى الصخرة وإلى ذلك الماء ، ماء الحياة ، من شرب منه خلد ولا يقاربه شيء ميت إلا حيى . فلما نزل ومضى الحوت الماء حيى » فاتخذ طريقته في البحر سرباً** . والواقع أن حتمية وجود العبد الصالح أو الخضر عند هذا الماء بعينه الذى حيى فيه الحوت يدعو إلى التساؤل : هل هناك علاقة بين عودة الحياة إلى الحوت اثر لسها لهذا الماء ، وبين وجود الخضر في هذا المكان ؟ وبمعنى آخر : هل يعد هذا العبد الصالح خالداً لكونه كان يعيش عند نبع الخلود الذى شرب منه بالضرورة ؟ وهل اصطلح ، لهذا السبب بعينه ، على تسميته بالخضر أى الذى يتصف بالخضرة الدائمة ؟ هذا على الأقل ما رسخ في نفوس الشعوب الإسلامية ، وساعد على أن تعيش هذه الشخصية في ضمائر الناس بوصفها تجسيدا للزمن الأبدى .

ونحاول الآن أن نرى كيف استطلعت هذه الشخصية في الروايات الشعبية .

لعب الخضر دوراً مهماً في حياة بعض الشخصيات التاريخية البارزة التى نسج حولها القصص الشعبية . ومن تلك الشخصيات شخصية ذى القرنين التى ورد ذكرها في القرآن

هذه الشخصية باسم اطلق عليها اسم الخضر وليس هناك شك في أن الاسم يعنى الخضرة أى الخضرة الدائمة .

ثانياً : إن أكثر ما يميز هذه الشخصية هو وصولها إلى العلم الغيبى . وعلى الرغم من أن موسى نبي إلا أن الآيات شاعت أن تؤكد أن نبوته لم ترقه كلية من مستوى قدرات البشر العاديين . ولهذا فإن ما يفاجئنا في الآيات ، ادراك هذا العبد بأنه أرفع قدراً من موسى ، ولم ينس لذلك أن يذكر موسى بهذا الأمر منذ بداية مقابلته له وطوال رحلته معه : **« قال له موسى : هل التبعك على أن تعلمن مما علمت رشداً . قال إنك لن تستطيع معي صبراً . وكيف تصبر على ما لم تحط به خيراً . قال ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصى لأمرأ . قال فإن اتبعني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً »** . فلما ألح موسى على أن يعرف منه ما عجز علمه عن ادراك مفهوه ، ذكره العبد أكثر من مرة بوعده أنه إن يتدخل في شئونه فكان موسى يعتذر له المرة تلو الأخرى ، حتى إذا نفذ صبر موسى والعبد معاً ، شرع العبد في إراحة الستر الذى يقف حالاً بين موسى وبين ادراك الحقيقة الغيبية ، ولكنه فارقه واختفى اثر ذلك . **« قال هذا فراق بيني وبينك ، سأنبئك بتلويح ما لم تستطع عليه صبراً »** . وكان العبد أو الخضر ، في أثناء تفسيره لمعزى ما أقدم عليه من فصل يبدو في ظاهره منكراً ، وإن كان في باطنه فعلاً طيباً ، ينسب الإرادة لنفسه : **« فأودت أن أميتها »** **« فخشينا أن يرحمهما ففينا وكفرا »** **« فأردنا أن يضلعهما وهما خيرا منه ذكراً فإقرب وجها »** . حتى إذا جاء إلى نهاية تفسيره ذكر أن الإرادة الإلهية هي التى أودعته سرها : **« وما فعلته من أمرى »** . ومعنى هذا أنه بعد أن منح هذا السر الإلهي ، أصبحت له قدرة التصرف وفقاً لما ينجلي له باطن الأمر .

يقوله : « ليس على الأرض من يفسر تأويل رؤياك إلا نبي بيت المقدس من ولد اسحق ابراهيم الخليل » . فاستعد الاسكندر لمقابلته فلما نزل بيت المقدس سأل عن النبي الذي ذكر له ولم يطلب شيئاً غيره حتى ظهر عليه . قال له الصعب : انبي أنت ؟ قال له موسى الخضر : نعم . عند ذلك قص عليه ذو القرنين ما رآه في رؤياه . فاطلمه الخضر بأنه مقدم على مغامرات وفتوحات وأنه سيصطحبه فيها . وسار ذو القرنين بفتح البلاد البعيدة التي يسكنها أقوام غريباء والخضر يصحبه . وكان كلما من له أمر من الأمور ، سأل الخضر ، وكان الخضر يجيبه في غير تمتع . حتى اذا اقتربا من صخرة ، حاول ذو القرنين أن يرقاها عدة مرات ، ولكنها كانت في كل مرة تنتفض وترتعد وتضمقع . فلما دنا منها الخضر سكنت فرفى عليها ، فلم يزل يرفى وذو القرنين ينظر اليه والخضر يطلع الى السماء حتى غاب منه . فناداه مناد من قبل السماء . امض امامك فاشرب فانها عين الحياة ، وتظهر فانك تعيش الى يوم النخف في الصور ، ويموت اهل السماوات واهل الأرض ، فتلوق الموت حتما مقضيا . . . فلما رجع الخضر الى ذي القرنين ، قال له : يا ذا القرنين اني شربت من ماء الحياة وتطهرت منه وأعطيت الحياة الى يوم النخف في الصور وموت اهل السماوات والأرضين ثم اموت حتما مقضيا ، ومنعت انت ذلك ولك مدة تبلغها وتموت ، فارجع فليس بعد هاهنا ريد لانس ولا جن » (١١)

ولم تنف هذه الحقيقة ، رغم هولها ، دون مواصلة ذي القرنين لمغامراته في العالم المجهول بعد أن فرغ من غزو العالم المعلوم . وذات مرة قاده الطريق الى مكان تشعب فيه الزهرة ويشيع فيه السكون . ولم يكن قد ادرك انه قد تجاوز

الكريم . ووفقا لرواية الشعبية المدونة التي رواها وهب بن منبه في كتاب « التيجان في ملوك حمير » من ذي القرنين ، أن الصعب ذا القرنين - كما يسميه - رأى في مطلع حياته ، وقبل أن يقوم بمغامراته العجيبة ، رأى رؤى غريبة على مدى أربع ليالٍ على التوالي . فقد رأى في الليلة الأولى « أنه يرقى جبلا عظيما منيعا لا يسلك فيه سائر من هول ما رأى ، اذا أشرف على جهنم وهي تحتة لافز وامواجها تلتطم » ورأى في الليلة الثانية « كأنه نصب له سلم الى السماء يدق عليه ، فلم يزل يرقى حتى بلغ الى السماء ، فصل سيفه ثم علقه مصلتا الى الثريا ، ثم أخذ بيده اليمنى الشمس وأخذ بيده اليسرى القمر ، ثم سار بهما وبجمته الدراري والنجوم ثم نزل بهما الى الأرض ، فلم يزل يمشى بهما وتبعته النجوم في الأرض » وفي الليلة الثالثة رأى « كأنه جاع جوعا شديدا وظهر الى الأرض فصارت له غذاء ، فأقبل عليها يأكل جبلا جبلا وارضا ارضا حتى أتى عليها كلها ، ثم عطش فأقبل على البحار يشربها بحرا بحرا حتى أتى على السبعة أبهر . ثم أقبل على المحيط يشربه فلما أمعن فيه اذا هو بطين وحماة سوداء لم تسغ له بنا آناه . فلما نام في الليلة الرابعة « رأى كأن الانس والجن أتوه من الأرض كلها حتى جلسوا بين يديه ، ثم أقبلت البهائم والآنعام من الأرض كلها حتى جلست بين يديه . ثم أقبلت الوحوش من الأرض كلها حتى جلست بين يديه ، ثم أقبلت الطير كلها حتى أظلمت ، وأقبلت الهوام من جميع الأرض كلها حتى نحفت به ، ثم أقبلت الرياح حتى استدارت لوجه » (١٥)

وكان من الطبيعي أن يشعر ذو القرنين بقلق بسبب هذه الرؤى ، ولهذا فقد سعى الى من يفسرها له . وأشار إليه أحد حكماء قومه

(١٠) انبي . كتاب « التيجان في ملوك حمير » من وهب بن منبه رواية ابن معبد عبد الملك . ط . جدير إيراد . من

ص ٨٢ إلى ٨٨

(١١) انبي . كتاب « التيجان في ملوك حمير » من وهب بن منبه رواية ابن معبد عبد الملك . ط . جدير إيراد . من

٢ - حدث خلط تاريخي في الروايات الشعبية عندما تصور الرواة أن ذا القرنين الذي عرف بأنه الإسكندر الأكبر (انظر الطبري ج١٦) في تفسير آية « وسئلونك عن ذي القرنين » من سورة الكهف ، قد عاش قبل زمن موسى ، وبهذا يكون الخضر قد ظهر له قبل أن يظهر لموسى . بل أن أول ظهوره كان لدى القرنين ، ثم ظهر من بعده لموسى ولجميع النبيين كما تقول الرواية .

٣ - أن المضمون الاساسي الذي شاء الراوي الشعبي أن يبرزه في قصة الاسكندر هو خلود الخضر في مقابل فناء الانسان العادي مهما بلغت سطوته وبعد صيته . والسبب في خلود الخضر شربه من عين الحياة أو ماء الحياة ، في حين حرّم هذا على ذي القرنين . ولكن على الرغم من خلود الخضر ، فإن خلوده ليس نهائيا ، فهو سوف يدوق الموت قبل البعث مباشرة كما وضع له الصوت الذي سمعته عندما رقى الصخرة في قوله : « امض أمامك واشرب فانها عين الحياة ، وتطهر ، فانك تعيش الى يوم النفع في الصور ويموت اهل السماوات والارض فتلوق الموت حتما مقضيا . »

وقد نتساءل بعد ذلك : لماذا لم يمتد القصص الشعبي بقصة الخضر مع سيدنا موسى بدلا من ربطه بين الخضر وذي القرنين مرة أخرى ؟ ونحسن نرد على ذلك بأنه من السمات الاساسية في القصص الشعبي استغلال العادة الجوزية (الميراث) في أكثر من قصة ، بل ونقلها كلية في بعض الاحيان من القصة التي ارتبطت بها أصلا الى غيرها من القصص المؤلف . وربما كانت أهم حادثة جزئية استرعت نظر القصص الشعبي في قصة الخضر وموسى ، هي خلود الخضر . فلما شاء أن يقابل بين الخلود الذي يمن اليه ، بل ويشعر

حدود الارض الى عالم الملائكة . وفجأة برز له شخص اخذ يجره على نهمة الذي دفعه لان يتجاوز عالم الانس الى عالم الملائكة . وفي النهاية قدم له هذا الشخص حجرا صغيرا وقال له : « إنه بما ترى منك في الدنيا ، فان لك فيه عظة وعبرة » . فآخذ ذو القرنين الحجر « فوزنه بجميع جواهر الارض فرجع عليه ، ولم يزل يرجع كل ما وزنه به ، ولو وزنه بالكثير من جميع ما في الارض ما وزنه ، والخضر ينظر اليه ساكنا ، قال له ذو القرنين : يا ولي' الله ، هل من ذلك علم من هذا المثل ؟ قال له : نعم هذا الحجر مثل لعينيك ، لم يملأ عينك بجميع ما في الارض ، مثل هذا الحجر الذي لم يرجع عليه شيء في الارض ، ولكن هذا يملأها ، ومد يده فآخذ قبضة من تراب فجعلها في الكفة وجعل الحجر في الكفة الاخرى فرجع عليها التراب وخف الحجر . فقال له الخضر : هذه عينك لا يملأها الا التراب وهو الغالب عليها . » (١٢)

هذه هي رواية وهب بن منبه بقصة ذي القرنين . وهي تشبه الى حد كبير رواية عبيد بن شريك ، من ذي القرنين في كتابه « أخبار اليمن وأشعارها وانسابها » . ويختتم وهب بن منبه روايته بقوله : « ومات ذو القرنين بعد ذلك بفترة ، ثم غاب الخضر فلم يظهر الى احد بعده الا لموسى بن عمران صلى الله عليه وسلم ، وعلى جميع النبيين . (١٣)

نستخلص من هذه الرواية مايلي :

١ - أن اسم الخضر في هذه الرواية أصبح موسى الخضر . وهذا اعتراف ضمني بأنه هو المبدأ الصالح الذي اتقاه موسى عند مجيئه البحرين ، وفقا لما اصطلاح عليه المفسرون .

(١٢) الرجوع السابق ص ١٠٢ .

(١٣) نفسه ص ١٠٩ .

في الماء كي يفرقه ، ولكن الطاهي لم يفرق .
متندل أمسك به الاسكندر وربطه في حجر ثقيل
ورماه في قاع الماء لكي يعيش حياته الضالدة
مع الاحياء المائية . وهكذا فشل الاسكندر في
الوصول الى الخلود ، وهو الذي شقى في
سبيل ذلك ، في حين حصل عليه شخص آخر
لم يكن يسعى اليه .

وكما استغل ائمة السعبي شخصية
الخضر في حكاياته من الاسكندر الاكبر ذي
القرنين ، استغلها كذلك في انماط اخرى من
قصصه ونخص بالذكر هنا **سيرة الظاهر
بيبرس** . وإذا كان الخضر لا يظهر الا لأولياء
الله الصالحين ، فقد ظهر دوما للظاهر بيبرس
لانه كما تصوره السيرة ، كان على درجة كبيرة
من الولاية . وتحكى السيرة على سبيل المثال،
ان **الملك الصالح نجم الدين ايوب** ، بث الظاهر
بيبرس وبرفقته الوزير **ايك** والقاضي **جوان** ،
على رأس جيش الى أنطاكية ، لا لحصارها
بل لاحتضار ملك أنطاكية اليه حيا . فلما حاول
الجيش ان يعبر البحر ، فوجيء بان ملك
أنطاكية قد اغلق البحر بالسلاسل الضخمة ،
فوقف حيشما كان ، ووجد ايك وجوان ،
اللدان كائنا يكنان الحقد والقدر للظاهر بيبرس،
وجيدا ذلك فرصة لتحرير جيش على
التلسم ، فيضطر الظاهر بيبرس الى الصودة
دون ان يحقق رغبة الملك ، فلما الملك متندل
بقتله . وتلسم الجيش واخذوا بمرده متندما
اشتد البرد وتفشى المرض بين الجنود ، ومع
ذلك لم يفكر الظاهر بيبرس في العودة ، بل
كان يخرج في ظلام الليل وحده يبتهل الى الله .
وذات مرة ابصر مركبا يتجه نحوه ويروسو ،
ثم تقدم اليه المركبي وحياء ، فلما نظر اليه
الظاهر بيبرس عرف انه الخضر ، وطلب منه
الخضر في الحال ان يركب معه . فلما استقرا
في المركب هتف الخضر قائلا : باسم الله مجربها
ومرساها . وفي لحظة كان المركب قد وصل
الى شاطئ أنطاكية . عند ذلك قال الخضر
للظاهر بيبرس: اذهب الى باب المدينة وستجد
هناك رجلا في انتظارك وسيقدم اليك صندوقا،

انه جزء من تكوين هذا الكون ، وبين الفناء
الذي قدر للانسان مهما بعد صيته ، ربط بين
الخضر والاسكندر الذي لم يضارعه انسان
فان في فتوحاته .

هذا شيء ، والشئ الآخر هو ان شخصية
الاسكندر الاكبر ، في الحقيقة، لم تستهو خيال
القصاصين العرب وحدهم ، بل استهوت خيال
جميع القصاصين في بلاد الصالم على وجه
التقريب . وتكاد تنفق الروايات العربية
والاجنبية جميعا حول رغبة الاسكندر الملحة
في الحصول على الخلود ، كما انها تتفق جميعا
في انه حرم هذا الخلود، في حين قدر لشخصية
اخرى هي الخضر في الروايات العربية وطاهي
الاسكندر في الروايات الغربية . فتحكى هذه
الروايات الأخيرة ان الاسكندر قام بمغامرة
الى بلاد الظلمات بهدف الوصول الى منبع
الفرات حيث يوجد نبع الخلود . وطال تجوال
الاسكندر في بلاد الظلمات دون ان يعتدى الى
مطلبه . فلما تعب استقر مع طاهيه عند نبع
تخيله نبعاً عاديا كسائر الانبع التي مر بها .
ثم طلب من طاهيه ان يمد له طعاما . فآخذ
الطاهي سمكة ملحقة ونزل في النبع لكي يفسلها،
ولكنه فوجيء بان السمكة تحيا وتسرّب في
البحر . وادرك الطاهي ان انه بازاء نبع الخلود .
فاُسرع وجرع جرعات من مياهه ، واخفى خبر
هذا الحادث من الاسكندر . ثم أعد له طعاما
آخر ، فأكلا معا ثم استأنفا سيرهما ، حتى
بعدا كلية من هذا النبع ، ولم يكن هناك سبيل
للرجوع اليه . وشاء الاسكندر ان يستريح
مرة أخرى ، ثم طلب من طاهيه ان يقص عليه
حكاية تلتسلته . فعكى الطاهي ، مدفوعا
بغواية ما حدث ، حكاية السمكة التي تسربت
الى الماء وحييت . فتعجب الاسكندر غيظا
لخيانة الطاهي من ناحية ، ولامستحالة
الوصول الى هذا النبع مرة أخرى ،
بل التعرف عليه في تلك الظلمات الحاكمة .
فقام بدافع الغضب والياس ، ورمى طاهيه
بصخر كبير ليقتله . ولكن الطاهي كان قد
اكتسب الخلود ، فلم يمت ، فأخذه ورماه

الأبدى ، في صورة أو بأخرى . حقا أن شخصية الخضر لا تطابق شخصية الملك الصياد تماما ، بمعنى أن قصته لم تذكر صراحة أن خصيب الحياة مرتبط بشبابه وحبيبته ، ولكن الخضر على نحو ما صور بوصفه عقلا وروحاً إبديين يشاركان الحياة وتجدها المستمر ، ربما كان أبعد مراً وأكثر انساقاً مع فكرة الزمن الأبدى الذي لا ينتهى .



وعلى الرغم من أن الإنسان الشعبي يقاوم الزمن السيئ من طريق ممارسته للاحتفالات والطقوس التي يشمر من خلالها بأن حياته تسير في نعمة متناسقة مع لحن الطبيعة المتجدد على الدوام ، ومن طريق تجسيد فكرة الزمن اللانهائي ، على الرغم من ذلك ، لقد حركت حقيقة العمر المتدر له مشامره بحيث لم يستطع إخفاها في تعبيره الأدبي . ولقد رأينا كيف استقلت شخصية الخضر في رواية قصة الإسكندر ذي القرنين ، لا بهدف تأكيد هذا الرمز الأبدى لنشرة الحياة الدائمة فحسب بل أكثر من ذلك لتأكيد هذا التعارض بين حياة نشرة خالدة وحياة مؤقتة فانية من ناحية ، ورغبة الإنسان الملحة وسميه في الحصول على الخلود من ناحية أخرى . وحول هذا المعنى يدور كثير من أروع نماذج القصص الشعبية ، ونسوق هنا بعضاً منها .

قصة لقمان بن عاد صاحب النسور السعة مشهورة في التراث العربي . فقد روى (١٥) أن لقمان تمنى على الله أن يعيش أطول عمر ممكن فبعاه قالاً :

اللهم يارب البحار الخضر
والأرض ذات الثبت بعد القطر
اسألك عمراً فوق كل عمر

فخذه منه ، ولا تسأله بعد ذلك من شيء . . ومضى الظاهر يبيرس حتى وصل إلى باب المدينة وهناك قابله رجل وسلم إليه صندوقاً . وسأله يبيرس عن اسمه فرد قاللاً : قابس الذي ورأه سيخبرك بذلك ، ثم اختفى الرجل في طرفه عين . ولما عاد يبيرس إلى المركب وجد الخضر في انتظاره . فقال له معاتباً : ألم أتبعك عن أن تسأل ذلك الرجل عن شيء ؟ ثم ركبا المركب وهتف الخضر قائلاً مرة أخرى : باسم الله مجربها ومرساها . فوصل المركب في لحظة إلى الشاطئ الذي كان جيش المسلمين يقف عنده في أشد حالات التملسل . فلما استدار الظاهر يبيرس ليصالح الخضر ، كان الخضر قد اختفى . وعندما فتح الصندوق بعد ذلك ، وجد فيه ملك أنطاكية مغشياً عليه . فاغلق الصندوق وعاد بالجيش قافلاً يحمل الفتيمة إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب .

وما تزال شخصية الخضر ماثلة في نفوس الشعب العربي بصفة عامة والشعب المصري بصفة خاصة (١٤) تجسيدا للزمن الأبدى الذي تتجدد دوراته ولا ينتهى . فالخضر لم يمض وهو موجود في مكان ما . فإذا ذكره إنسان تقى طيب للاستمتاع به في موقف متأزم ، خضر الخضر ، وأن لم يظهر في صورة مجسدة لكي يسهم مع الناس في حل أزماتهم . وقد يشاركه الخضر في ذلك أولياء الله الصالحين الذين يستند الشعب في مشاركتهم بأرواحهم الخالدة في شؤون حياته . ولكن الخضر يختلف من هؤلاء في أن وجوده لا يرتبط بغيره بعينه لأنه لم يمض ، ومن ثم فهو باق بوصفه فكرة مجردة للبقاء الأبدى .

وهكذا نرى إلى أي حد يحس الإنسان الشعبي إلى الزمن الأسطوري حيث يولد كل شيء وحيث لا يفنى شيء ، وإلى أي حد يدفعه هذا الحنين إلى تجسيد فكرة الزمن

(١٤) زمن لم تكثر التسمية باسمي « خضر » ولا « خضر » (في الزيف المصري) .

(١٥) أخبار سعيد بن شعبة الجهمي (ف حين ابنه من ص ٣٧٦ - ٣٧٧ .

نبى الموت ، وفقا لرواية هذا القصصى ، كما قاومه موسى عليه السلام . فقد روى أن الله كلمه قائلا : « يا موسى : انى حكمت على جميع خلقى بالموت . فقال موسى : الهى وسيدى ، انى أخاف من الموت ومرارته . فنزل ملك الموت على موسى وهو جالس يتلو التوراة . فقال : السلام عليكم يا موسى . قال : وعليكم السلام ، من أنت ؟ فقال : انى ملك الموت جئت لأقبض روحك . قال موسى : من أين تقبضها ؟ قال : من فمك . قال : كلمت به ربى . قال : فمن يدبك . قال : قد أخذت بهما الألواح . قال : فمن أذيتك . قال : سمعت بهما الخطاب من ربى . فقال له : فمن رجلك . قال : قد وقفت بهما على جبل طور سيناء لمناجاة ربى . فقال له ملك الموت : انى أراك تكلمنى كلام من طلب المسكر . فعند ذلك اختلط عقله وقال : ما شربت خمرأ قط . فدعا منه ملك الموت ليقبض روحه ، فلفطمه موسى على فيه ففقاها . فرجع ملك الموت الى الله عز وجل فقال : يارب ، انك أرسلتنى الى عبد لا يريد الموت ففقا عينى . فرد الله عليه عينه وقال له : ارجع الى عبدى وقل له ، ضع يدك على متن ثور ، فك بك كل شعرة تحصل تحت يدك عمر سنة . فقال موسى : وما بعد ذلك ؟ قال : الموت . فقال : يارب الموت أحب الى الآن . فقبض ملك الموت روحه . » (١٧) وقد قيل : ان ملك الموت كان يجيئ عيانا ، حتى جاء الى موسى فلفطمه ففقا عينه ، فأصبح يجيئ مستترا . » (١٨)

وتعد ملحمة جاجامشى البابلية أروع عمل أدبى قديم عالج موضوع صراع الانسان الفانى مع الموت .

« فنودى أن قد اعطيت ماسألت ولا سبيل الى الخلود . فاختر ان شئت بقاء سبع بعرات من ظبيات عفر ، فى جبل وهر ، لا يمسها قطر ، وان شئت بقاء سبعة أنسر منهم ، كلما هلك نسر ائقبت نسر . فكان اختياره بقاء النسور . فبينما لقمان يدور ذات يوم فى جبل أبى ثبيس بمكة ، سمع مناديا لا يرى شخصه وهو يقول : يا لقمان بن عاد الم فرو ، اطلع رأسك ، ليس بعدد قدرك المقدور . فطلع رأسك ليرى ، فإذا بوكر نسر فيه بيضتان قد تفلقتا عن فرخيهما ، فاختر لقمان أحد الفرخين (١٦) ثم هدد فى رجله سيرا ليرفه وسماء المصون . ثم قال : المصون الخالص الكتون ، ومحدور السنون ، والباقي بعد المصون الى آخر الدهن الخورون . ولكن الزمن ولى على عدا النسر ، وكبر وضعف ثم خر ميتا . فجزع (لقمان) لذلك جزعا شديدا ، وقال : هذا بلاء ، وأنشأ يبكى نفسه ويقول :

موت المصون دل على أنا

ندوق الحماق حقا يقينا

ثم منع بعد ذلك النسر الثانى الذى سماه « عوشا » ، ولكنه لقي مصيره كذلك بعد وقت . وظلت نسوره تتساقط موتى واحدا تلو الآخر حتى لم يبق الا النسر السابع . فقال ابن أخ له : « يا لم ما بقى من عرك الا عمر هذا . فقال لقمان : هذا لئد ، ولئد بلسانهم (أى بلسان العرب) الدهر ، وهو اسم نسر من نسور لقمان . فلما اتقنى لئد ، رآه لقمان واقفا . فناداه : انهض لئد ! فذهب لينهض فلم يستطع فسقط ومات ، ومات لقمان معه »

وقد أغرم القصاصون العرب بتصوير الانبياء وهم يستقبلون الموت . وربما لم يقاوم

(١٦) قال بيد بن شربة : « انه كان ينظر الى افعولاسا واجلها عفا » (نفسه ٢٥٧) .

(١٧) القصص : قصص الانبياء - ص ٢٢٩ .

(١٨) التكميل : قصص الانبياء المسمى بالصهرالى : ص ١٩٢ .

كان يبدو أمامي شرسا ككلب الفساول . وفي لحظة قدف بي بعيدا في حفرة ، ثم حولني إلى شكل آخر ، واستبدل بذراعي جناسين وقال : الآن طر بجناحيك بعيدا حتى تصل إلى طريق لا مخرج للإنسان منه ، فسر فيه ، حتى تقابل بيتا لا مخرج له ، فادخل فيه . هناك يعيش الناس في حلقة دامية ، فهم من الضوء في غنى » .

ولم يفهم جلجامش أن هذه الرؤيا كانت تديرا بموت صديقه ورفيقه في الكفاح ، إذ لم يكن قد فكر قط في الموت من قبل . وفي يوم آخر استيقظ النجيدو من نومه مدفورا ودخل على جلجامش وقال له : « لقد تدهرت الآلهة امرها يا جلجامش وأحسبها أنها تدبر هلاكى . إن حلمي الليلية كان مزجعا ، لقد أنبأني بخطر عاجل . فقد أبصرت تسرا عظيما هوى من السماء ثم حملني في الفضاء مليا وظل يصعد بي إلى السماء ، ثم قال لي : اتق بعصرك الآن إلى أسفل ، كيف ترى الأرض وكيف ترى البحر ؟ فلما نظرت وجدت البحر كاتقصعة والأرض كقطعة العجين ، عندئذ تركني أهوى من بين مخالبه ، فهويت من أعزى محطما . »

ولاول مرة يفكر جلجامش في سلطان الآلهة ، إذ قال لصديقه : أوليل لنا أن كانت الآلهة قد أرادت بنا سوما . »

ثم تملكك النجيدو الحمى ورفد طريح الفراش ، ولكنه كان مألل يتحدث إلى جلجامش ، وكان قلبه مألل يخفق . وفجأة كف النجيدو عن النظر إلى صديقه ، وكف قلبه عن الخفقان . وفزع جلجامش وهزه في عنف وهو يصرخ به : « صديق النجيدو ، ألم تعد تسمعي ، ألم تعد ترائي ؟ بل ألم تعد ترى الضوء ؟ » .

وظل جلجامش راقدا بجانب صديقه يكيه بعويل مزجعية مستغايما وستليل ، ثم حفر

لقد كان جلجامش ملك « ورقا » . وكان لئله إنسانا ولثاء الإخراخ الهيا . وكانت صورته الجسدية تثير الرهبة والخوف معا . كان جميع أهل ورقا في خدمته ، الأقوياء والاسياد والحكماء والصغار والكبار ، بل والنساء كذلك فلم يترك فتاة لمحبيها ، ولم يترك زوجة لزوجها البطل ، حتى ارتفعت أصواتهن بالشكوى إلى الآلهة الكبير ، رب السماء ورب « ورقا » : لقد خلقت الوحوش المفترسة والأساد الضارية ، ولكن جلجامش يفوقها قوة ، فمثله لم تر أحدا ، لم يترك الحبيبة لمحبيها ، ولا البطلة لزوجها البطل . واستمع الآلهة « أنو » لشكواهن ، ودعا الآلهة « أورورو » خالقة البشر وقال لها : لقد خلقت الوحوش يوم أن خلقت مردوك ، اله مدينة بابل ، فاصنعني الآن مخلوقا يشبه جلجامش ويكون منافسا له ، حيثلد يوم « ورقا » الهدوء . وخلقت الآلهة « النجيدو » إنسانا قويا يملأ جسده الشجر ، ولا يعيش إلا مع الحيوان البري . وكان يقف متصدرا الغابة مثيرا الرعب في قلب كل من يقترب من الغابة . وسمع جلجامش بهذا الإنسان الغريب يناقسه في قوته ، فعزم على أن يحتال عليه لإخراجه من الغابة . وكان قد رأى رؤيا فسرتها له أمه على أن مناوئا سيظهر له في الميدان ، وسيصبح فيما بعد رفيقا له في الكفاح . وتنجح جلجامش في اخراج « النجيدو » من مملكة الحيوان إلى مملكة الإنسان ، بل إلى مملكة البطولة التي لا يقف في سبيلها أي عائق .

وضجت الآلهة بمغامرات جلجامش التي كثيرا ما كانت تتجاوز عالم البشر إلى عالم الآلهة ، ولهذا فقد عزمت على أن توجه إليه ضربة قاصمة تصرفه كلية من تلك المغامرات الجريئة التي يتعدى بها الآلهة .

قال له النجيدو ذات يوم : « أتني رأيت حلما أقض مضجعي ، رأيت أن السماء تبرق وأن الأرض تهتز ، ورأيتني أقف وحيدا أمام مخلوق وجهه مكتئب أسود كالظلام . لقد

لعلك تشفى غلالة صدري ، فترشدني الى الوسيلة التي حصلت بها على الخلود ، لعلني استطع ان اود الحياة لصدقي وان احتفظ بها لنفسي . « عند ذلك رد عليه اوتنا بشتيم قائلا : « اترك شكوكك وضغبتك جانبا باجلجامش ان الفرق كبير بين الالهة والانسان . الموت للانسان والدوام للالهة . واذا كان لتلك الالهة ، فان لتلك الانساني يدخلك في زمام البشر . ما ان يستقبل المولود ضوء الحياة ، حتى يجتمع « اوتوناتي » الروح الاكبر مع **ماميشوم** الاله الخالق للمصار ، ثم يدير ما امر هذا المولود ، فيقرر ما ولادته ووفاته . اما يوم ولادته فيملنان عنه ، واما يوم وفاته فيحتفظان به » .

والح جلجامش على اوتنا بشتيم ان يكشف له سر خلوده . وكشف له **اوتنا بشتيم** السر . لقد كان صراها بين الالهة ادى الى ان يأمر بعضها باغراق الارض ومن عليها ، واختلقت الالهة اثر ذلك ، وعقدت مجمعا وقررت فيه ان تنقل انسانا واحدا من البشر حتى لا تفنى البشرية من آخرها ، وكان هذا الانسان هو اوتنا بشتيم . انها حادثة حدثت مرة ، ولكنها لن تحدث مرة اخرى ، كما قاله اوتنا بشتيم . وبعد ذلك امره اوتنا بشتيم ان يصمد المركب ويعود الى « ودا » . ولكن زوجة اوتنا بشتيم التي كانت تستمع الى جلجامش في الم ، توصلت الى زوجها ان يكشف له عن سر آخر للخلود . فاشفق اوتنا بشتيم عليها وافشى لجلجامش عن مكان مشب الخلود في البحر الذي سوف يبحر فيه . فاذا مثر عليه واكل منه اصبح خالدا . ودب الامسل في نفس جلجامش مرة اخرى ، وانتمشت روحه . وفي الحال استقل المركب مع النوتي الى المكان الذي حددته جلجامش . وهناك مثر على مشب الخلود ، فامسكه بين يديه والامل يعلق به ، ولكنه لم يشأ ان يأكل منه الا بعد ان يقتسل في مياه البحر ، وينفض عنه غبار الرحلة ومتاعبها . ولهذا فقد اتى التششب على الشاطئ رثما يستحم ، وما كاد يفرج من

له في اليوم السابع ودفنه . وخرج هائلا على وجهه في البراري . فقابله رجل ازوجه منظر الملك فاستوقفه وساله : « ما الذي حصل وجهك هكذا شاحبا ؟ وما الذي اظلم روحك واحنى جسدي ؟ ولماذا يمتلئ قلبك بشكوى مريرة تودان تفرغها في اسي ؟ » وفتح جلجامش فمه في مشقة وقال : « صدقي انجيلو الذي ارتبط بي كعضو من جسدي . . صدقي الذي تجولت معه ، وصارعت الالهة معه قد وصل الى المصير الانساني . . كيف يمكنني ان استقر وبمن يمكنني ان استغني بعد ان اصبحت صدقي ترابا ؟ وهل سالتى يوما مثل هذا المصير لم اظل راقدا الى الابد ؟ » .

وكان جلجامش يعلم ان « اوتنا بشتيم » الانسان قد حصل على الخلود ، وانه يستقر هناك عند نهاية بحار الظلمات . فقرر ان يرحل اليه لعله يكشف له عن سر خلوده . ان الرحلة محفوفة بالمخاطر ، والاشكال الموهلة تسد طرقاها . ومع ذلك فقد امر جلجامش العنيد على الرحيل ، اذ كان ايمل عنده اقوى من الخوف .

واستطاع جلجامش ان يدلل كل صعوبة في رحلته ، وكان كلما استوقفه حارس مغرز من حراس الصالم الآخر ويتأهب لطرده والحيولة بينه وبين السير في الطريق الذي يهرسه ، يعود فيسمع له بالدخول متندما يقرأ في عينيه الاصرار والالم معا .

واخيرا وصل جلجامش الى **اوتنا بشتيم** في سفينة يقودها نوتي اوتنا بشتيم نفسه ، على الرغم من ان هذا النوتي قد حذر من ان ياتي بانسان فان الى هذا المكان ، فلما لمح اوتنا بشتيم جلجامش برفقة النوتي ، صرخ بتوقيه لانه يجيئه لاول مرة مصطحبا انسانا فانها . ورد جلجامش على اوتنا بشتيم قائلا : « انني جلجامش الملك ، وقد اتيك من مكان بعيد للتحديث معك فيما يزيج خاطري . لتعلميني موت صدقي انجيلو ، ولذلك فقد جئت اليك

فلما فعل الرجل هذا وجد نفسه في مكان آخر لم يعرفه من قبل ، كما وجد نفسه يقف أمام حائوت . ولا كان جائعا ، فقد طلب من صاحب الحائوت أن يعطيه رغيفا يقتات به . فسأله صاحب الحائوت عما إذا كان غريبا في هذا البلد ، فأجابته بالإيجاب . عند ذلك أخبره بأن الحظ يبدو أنه سيحالفه ، إذ أن الملك قد أعلن أنه سيزوج ابنته لأول غريب تطأ قدمه المدينة . ثم اصططحه إلى الملك الذي وافق على زواجه من ابنته بشرط واحد هو ألا يتدخل فيما لا يمتيه . ولم يتحرف الرجل الغريب على هذا الشرط ، إذ اعتقد أنه من السهل تحقيقه في سر . وذات يوم كان يسير في حديقة القصر ، فابصر رجلا دائم الصعود والهبوط على شجرة ، وكان يأكل في أثناء ذلك ثمارها الحلوة والنفجة على السواء . فالحظ ينظر إليه في تعجب لم سأل : لماذا تصعد الشجرة وتهبط عليها على هذا النحو ؟ ولماذا لا تستقر في مكان واحد منها وتلتقط ثمارها الحلوة وتأكلها حتى تشبع ؟ عندئذ رد عليه الرجل قائلا : إن هذا أمر لا يمتيك وليس من حقك التدخل فيه . وفي الحال تذكر الرجل الشرط الذي اشترطه عليه الملك ، ولكنه تصور أن أحدا لم يره . وعندما عاد إلى زوجته فوجده يقولها : انك أصبحت محرما علي بعد أن تقطعت العهد الذي أخذته على نفسك . انك تصورت أنني لم أرك ، ولكن الحجاب مكتشف عن بعري ، ولهذا فقد رأيت كل شيء . فخرج الرجل من عنده خائبا وسار في طريقه إلى دكان البهار . وتوسط له البهار عند الملك كي يعفو عنه ويزوج ابنته الثانية . ووافق الملك على ذلك ولكنه اشترط عليه الشرط نفسه . وابقن الرجل أنه لن يخطئ مرة أخرى . وذات يوم كان يسير على شاطئ نهر فابصر رجلا يملأ دلو بالماء حتى يطفئه ثم يسكب في أرض عطشى . لوقف متعجبا

إياه في اتجاه الشاطئ ، حتى أبصر حية تقضم آخر قضمة في العشب . فنظر إليها جلباشم في ذهول ، وهي تتخلع منها جلبدها القديم وتكتسى جلدا جديدا . لقد عثر على عشب الخلود ، ولكنه حرم منه واستفاد به حيوان دنيء لم يسع إليه ، ولئن يستمتع بمنعوله .

وهكذا بدأت رحلة جلباشم بالقتل ، ولم يكن لديه من سبيل سوى أن يرحل إلى «دورقا» وينتظر موته . (١٩)

والعلاقة واضحة بين الحكايات الثلاث التي سقناها ، وهي تمد جميعا من تراث الشعوب . فالبطل فيها يمتنى الخلود ويسعى إليه ، ويظل الأمر يساوره زمنا في الحصول على الخلود . ولكنه يقر في النهاية بأنه لن يحصل عليه لأنه يمتنى إلى الجنس البشري . وعلى الرغم من أن هنالك ما يسمى في القصص الشعبي بعشب الخلود أو ماء الحياة الذي قد ينجم الإنسان في الوصول إليه على نحو ما فعل الاسكندر وجلباشم ، ولكن الوصول لا يعنى الحصول على الشهرة . وكان الفنان الشعبي شاد أن يؤكد أن الخلود موجود ، وهو قريب من الإنسان ، لأنه يمثل جوهر الكون الذي يعيش فيه ، وإن فنى هو جلا بعد جيل .

وطبيعي أن يكون الإنسان الشعبي المصري أكثر واقعية من سبقه ، ومن ثم فإن تعبيره يكون أكثر تشاؤما إذا ما تناول هذه الظاهرة في قصصه . وتعد حكاية مصرية معاصرة ، وقد وردت في أكثر من رواية عربية أخرى ، أن رجلا كان يعيش في رغد من العيش ، ولكن الأحداث أطاحت بثروته . فخرج من بيته ذات يوم حزينا وجلس عند ضريح السيدة زينب . فمر أمامه رجل شيخ أخذ يتحدث معه وعرف منه قصة شجاع ثروته ، فقدم الشيخ له عبادة وطلب منه أن يدخل فيها .

أنه دائم التجول بين الناس يخطف أرواح الأخيار والأشرار على السواء . أما الرجل الذي رأته لا يمدل في توزيع الماء بين الأرض المخضرة والأرض الجدياء ، فهو الملك المكلف بتوزيع الأرزاق . أنه يوزع الرزق حسبما تراهي له ، فقد يزيد في رزق الثرى ويقتصر في رزق المعدم . وأما الناس الذين يشدون الطوق فيما بينهم ، فهم أناس هذه الحياة . أن كلا منهم يحاول أن يشد الحياة نحوه ويحرم منها غيره ، على الرغم من علمه أن نصيب كل إنسان من الرزق مقدر له ، وعلى الرغم من علمه أن الموت هو نهاية سمي الإنسان في الأرض .

فهذه الحكاية جمعت بين مشكلتين ، أحدهما مشكلة اجتماعية وهي عدم العدالة في توزيع الأرزاق ، والآخرى غيبية وهي مشكلة الموت . وحيث أن المشكلة الأولى لم تحل على مستوى اجتماعي ، وحيث أن الإنسان الشعبي عاجز عن أن يفسر هذا الظلم الذي يشمر به في توزيع الأرزاق ، فقد ربط بين هذه المشكلة ومشكلة الموت على أساس أنهما معا مشكلتان غيبيتان ، ليس من حق الإنسان العادي التدخل فيهما والسؤال عنهما . وهذا ما امت إليه الحكاية بشرط الملك الذي كان على الرجل بمقتضاه ألا يتدخل فيما لا ينيه .

● ● ●

— — —

لقد فكر الإنسان الشعبي اذن في الزمن ، رغم سعيه الدائم ، الى تجديد دورة الحياة ، ذلك أن الموت حقيقة واقعة . حقا أنه يعترض في أن الاموات لا ينفصلون عنه ، بل يشاركونه أحداث حياته المعاشة . ولكنه يعلم كذلك أنهم يفعلون ذلك بعد أن يصبحوا مجرد أرواح أو أشباح ، وبعد أن يغادروا عالمهم الحسي الى عالم آخر غير مرئي ، لا يدري كنهه على وجد التحديد . وكان من الطبيعي بعد أن أدرك الإنسان ذلك ، أن يفكر في سبب ابتلائه

من صنع هذا الرجل وسأله : لماذا لا تهتم بالأرض المجدية فتسكب فيها الماء الكثير على نحو ما تفعل مع الأرض المخضرة ، فرد عليه الرجل قائلا : أن هذا أمر لا يمتنيك وليس من حقه التدخل فيه . وأدرك الرجل أنه قد تقص العهد للمرة الثانية ، فلم يمد الى القصر ، بل رجع الى صاحب الحانوت ليحكى له في أسف أنه قد تقص العهد للمرة الثانية ، فتوسط صاحب الحانوت له عند الملك حتى يزوجه ابنته الثالثة بعد أن وعده أن الرجل سيبقي على وعده ولن يتدخل قط بعد ذلك فيما لا ينيه . ووافق الملك على زواجه من الابنة الثالثة وفقا لهذا الشرط . وقرر الرجل ألا يخرج من مكان تطاه الأقدام حتى لا يبصر ما يمكن أن يقدمه الى السؤال . فخرج ليسير على جبل بعيد لا تطاه قدم ، وما كاد يسير بضع خطوات حتى ابصر جماعة يشدون طوقا فيما بينهم دون التقاطع أو كلال ، بحيث كان يحاول كل منهم أن يشد الطوق نحوه . فوقف الرجل ينظر اليهم في دهشة ثم سألهم عما هم فاعلمون ، فردوا عليه بأن هذا أمر لا ينيه ومن لم لا يجوز له السؤال عنه . وعند ذلك أدرك الرجل أنه قد تجاوز المحظور للمرة الثالثة ، وكان هذا كافيا لأن يفكر في ألا يصود الى القصر أو الى صاحب الحانوت ، ثم ارتدى حياته فلذا به يجد نفسه مرة أخرى عند ضريح السيدة زينب ، والرجل الشيخ يقف امامه ميتسما . فسأله الرجل الشيخ : هل كنت في علم أم حلم ؟ فقال له الشيخ : بل كنت في علم وملك أن تقص عليّ ما رأيت . فقص عليه الرجل ما حدث له مع الرجال الغرياء الذين كانوا يسلكون على نحو غريب دفعه للتدخل في أمرهم . ثم قال له أنه لم يفهم شيئا من سلوكهم الغريب ، فيهم محاولته التدخل في شؤونهم . فحينذاك شرع الشيخ يفسر له ما غفص عليه . فقال : إن الرجل الذي رأته يصعد الشجرة ويهبط عليها دون ملل أو كلال ، وكان في اليد ذلك يأكل الثمرة الملوثة والقيمة معا ، في هذا الزوال قابض الأرواح ،

للحياة مرة أخرى ، تماما كما يحدث معه . وكلف القمر الأرنب أن يحمل رسالته إلى البشر ويقول لهم : كما أتى أموت ثم أحياهم ذلك ، كذلك أنتم سوف تموتون ثم تحيون مرة أخرى . ولكن الأرنب أبلغت الرسالة خاطئه إلى الناس أما عمدا أو سهوا . فلقد قالت لهم : أن القمر يموت ثم يحيا بعد ذلك ، أما أنتم فقد شاعلكم الإله القمر أن تموتوا إلى الأبد . وعندما عادت الأرنب إلى القمر وراعات عليه الرسالة كما أبلغتها ، فغضب القمر وغربها على وجهها ففلق شفتها العليا . وقد ردت عليه الأرنب فلفطته على وجهه فضدشته ، ثم ولت مسرعة ، وما تزال الأرنب تعود حتى اليوم .

ويقال أن رسول القمر أبلغ الرسالة صحيحة إلى البشر فقبلوها .. ثم حدث بعد ذلك أن ماتت أم رجل . وظل الآب ينتظر عودة الروح إليها أباما طويلة ، ولكن الأم ظلت راقدة أمامه بلا حراك ، فبدأ الرجل يشك في رسالة القمر ، وحاول القمر اقناعه بأن أمه لم تمت ، وإنما هي نائمة إلى حين ، فعارضه الرجل وصرخ فيه قائلا : لا بل إنها قد ماتت ولن تعود إلى الحياة مرة أخرى . فافتاظ القمر وصفه على وجهه ففلق شفتيه ثم مسحه أرنباً لأنه ، كما قال القمر ، قد عارضني ورفض أن يفتن برسائلي . ثم قرر القمر بعد ذلك أن يكون مصرع الإنسان الموت الأبدى . ولعل هذا هو السبب في أن بعض القبائل ترفض أكل لحم الأرنب ، لأنها وفقا للروايتين ، هي التي تسببت في محنة البشرية .

وتروي بعض الشعوب البدائية كذلك أن الإله كان في الزمن القديم يعيش بين الناس ويتحدث معهم وجهاً لوجه . ولكن تلك الأيام البعيدة لم تدم . فذات يوم كانت بعض النسوة يستحقن الشعر وتظفرن ، فإذا بالاله يقف بجوارهن يستمع إلى حديثهن ويشاهد ما يفعلنه ، فتضايقت النساء وظلن منه أن يبرح هذا المكان . فلما أمر الإله على الوقوف ،

بالوت . فإذا كانت الإله خالدة ، فلماذا لا تمنح الإنسان الخلود على نحو مما تحقق لها ؟ وهل قررت له هذا الحرمان بدافع حقدٍ عليه ، أم أن غيابه الإنسان وتواضعه الإنسانية كانا السبب في ابتلاء الإنسان بالوت ؟

لقد رفض الإنسان البدائي الاعتقاد في أن الموت قدر للجنس البشري منذ أن وجد على سطح الأرض ، ولكنه عندما رأى من ناحية أخرى أن الموت حقيقة واقعة ، حاول تفسير حدوثه من خلال تصورات فلسفية انعكست في حكاياته . وجوهر هذه الحكايات جميعا يتلخص في أن الإنسان كان قد منح الخلود في بادئ الأمر ، ولكنه فقد هذه المنحة إما بسبب غيابه ، أو بسبب خداع الحيوانات الدنيا له كما يتضح ذلك من الأمثلة الآتية ..

لقد استرعى نظر الإنسان البدائي عملية نمو القمر حتى يصبح بدراً ، ثم تضائل واختفاه بعد ذلك . ومن ثم فقد تصور أن القمر يخوض كل شهر تجربة الحياة والموت ثم البعث . ومعنى هذا أن القمر عندما يختفي للأمة أيام ، وهي المدة التي تفصل بين اختفائه وظهوره من جديد ، يموت موتاً مؤقتاً ثم يعود للحياة مرة أخرى ، فيبدأها من بدايتها ، كما يبدأها الطفل ، صغيراً ثم يكبر . ومن ثم كان القمر ، كما سبق أن ذكرنا في بداية بحثنا ، أوضح نموذج أو مثال لتجديد الحياة على الدوام ، ذلك التجديد الذي يمن إليه ، ويمارس طقوسه بشكل أو بآخر .

ويعتينا من كل ذلك أن الإنسان نظر إلى القمر بوصفه لها . وإذا كان هذا الإله قد منح منحة الخلود على نحو ما يراه حسيماً ، فإن هذا الإله لم يبخل بهذه المنحة على البشر ولهذا فقد قرر ، بعد تدبر ، أن يرسل رسولا للإنسان يخبره بأن لا يحزن إذا ما فارقت الروح جسده ، لأن هذا الفرق لن يكون ابدياً ، بل سوف تعود الروح إليه ويعود

الإنسان ، فاقترح أحد الآلهة أن يغير الإنسان جلده كلما بلى ، وبذلك يتجدد شبابه . وعلى الإنسان الهرم في هذه الحالة أن يذهب إلى شاطئ البحر وينزع جلده القديم ، ويصطاد جلداً جديداً من البحر ويرتديه .

وذاث يوم شعرت امرأة بأنها قد هرمت ، فذهبت إلى شاطئ النهر لتخلع جلدها القديم وترتدي جلداً جديداً ، ثم عادت إلى بيتها بعد أن ارتد إليها شبابه . فلما أبصرها حفيدها الذي كان يعيش معها أكرها ، وميها حاولت أن تقتنه بأنها جدته التي يحبها ، فقد استمر حفيدها في مزوغة عنها ، لأنه لا يود أن تكون جدته على هذا النحو من الشباب . وعندما عادت الجدة أشقة إلى شاطئ البحر مرة أخرى حيث اصطادت جلدها القديم وأردته . وفرح حفيدها بلقائها عند ماعادت إليه مرة أخرى في صورتها القديمة المألوفة لديه . أما الجدة فقد امتلأت حزناً على فقدانها نعمة شبابها ، بل تجدد شباب الجنس البشري بأكمله ، ذلك أن الجنس البشري قد حرم نعمة تغيير جلده إثر هذا الحادث . وقد كان في وسع الجدة أن تمر على ارتداء جلدها الجديد حتى يتعود حفيدها منظرها على هذا النحو . ولكن الإنسان البدائي شاء أن يعبر من فلسفة أخرى بحث من إحساسه بسيطرة الزمن على الإنسان ، وهي أن لكل عمر سحره ، وأن شخصية الإنسان وسلوكه يتحددان بعمره . والطفل في هذه الحكاية لم يكن يهمة أن تعود الجدة إلى شبابه بقدر مكان يهمة أن يحتفظ بعجه لشخصها ، الذي تكيف على هذا النحو بتقدم السنين عليه . أما إذا أردت الجدة إلى شبابه ، فلا بد أن يتغير سلوكها وفقاً لذلك وهذا ما يرفضه الحفيد . ولهذا فقد صرخ النفل عند رؤية الجدة الشابة ، وهذا رومه عند رؤية الجدة الهرمة ، وهي مفارقة قد تبدو غريبة ، ولكنها تعمل جانباً من جوانب فلسفة الزمن .

أمسكن بحفنة من الشعير ورميته بها . ففغضب الآلهة وصعد إلى السماء ولم يعد إلى الأرض مرة أخرى . ومع ذلك فإن الآلهة الرحيم أرسل رسالة إلى الناس يقول لهم فيها : إن هناك شيئاً يسمى الموت وسوف يصيبكم جميعاً . ولكنه لن يقضى عليكم إلى الأبد ، إذ سوف تصعدون إلى بعد ذلك وتعيشون معي في السماء . واختار الآلهة الجدي رسولاً ليلبغ الناس الرسالة . ولكن الجدي تكتأ في الطريق ، ورواه الآلهة وهو رابض مستريح يقضم الأعشاب ، فامرغ الآلهة وأرسل النشاة في الزه لتلبغ الرسالة ولكن النشاة أبلغت الرسالة خاطئة ، إذ قالت للناس : إن هناك شيئاً اسمه الموت ، وسوف يقضى عليكم لا محالة ، فلما وصل الجدي بعد ذلك وأبلغهم الرسالة الصحيحة ، لم يصدقها الناس وقالوا له : إن ما ذكرته النشاة هو الرسالة الصحيحة لأنها وصلت قبلك . وأما ما قلته أنت فهو كذب ملفق (٢٠) . ومعنى هذا أن الناس قد قبلوا الموت بسبب غيائهم ، إذ أنهم لم يستطيعوا أن يتصوروا ماهية الموت .

وهكذا نرى أن السبب في ابتلاء الإنسان بالموت يرجع في بعض الحكايات إلى خديعة الحيوان ، وفي بعضها الآخر إلى غيائ الإنسان وسذاجته . إذ لماذا لم يصدق الرجل الذي مات أمه ، وظل يصرخ في وجه القمر بأنه غير صادق وإن أمه ماتت إلى الأبد ، حتى أغضب القمر فحكم على الجنس البشري كله بالفناء ؟ ولماذا رفض الناس رسالة الجدي الصحيحة وأصرروا على أن الرسالة التي أبلغتها النشاة والتي بمقتضاها يفنى الإنسان إلى الأبد ، هي الرسالة الأصلية ؟

ويمثل غيائ الإنسان في رفضه العودة إلى الحياة في حكاية طريفة أخرى تروى على النحو التالي : اجتمعت الآلهة ذات يوم لتقرر مصير

شق ثمرة جوز الهند الذي احتفظنا به لتفنيسنا ،
ورحلت . (٢١)

ويعنى هذا ان الإنسان قد سلم في نهاية الأمر بأن الموت قد قدر له ، وأن الأسوات يعيشون في عالم متميز عن عالم الأحياء ، بحيث لا يتمكن الأحياء من رؤيتهم ، وأن تمكنوا هم من التحليق في عالم الأحياء والاطلاع على ما يجري بينهم . ومهما تكن الأسباب التي أدت إلى ابتلاء الإنسان بالموت ، فإن السبب لا يرجع قط إلى حقد الآلهة على الإنسان ، بحيث شابت ان تحرمه من نعمة احتفظت بها لأنفسها ، والأحرى ان وسيلة الاتصال المباشر بين الناس والآلهة لم تكن ميسرة بحيث حدث تحريف في تبليغ رسالة الآلهة إلى الإنسان ، أو رسالة الإنسان إلى الآلهة .

هذا التفوق الذي يعد من أبرز خصائص الإنسان الشعبي منذ القدم ، مازال يتصف به الإنسان الشعبي المعاصر . فهو يتعاطى بنفسه شخص له بطول العمر إذا ما عمل له عملاً خيراً . وعلى الرغم من اقتناع الرجل الشعبي بأن الأجل محتوم ، وأن موت الإنسان مقدر بزمان ومكان محددين ، إلا أنه يسعد بهذا الدماء لامتقاده بفأليته .

تحكي حكاية معاصرة ان فلاحاً كان يعمل في حقله الذي يقع بالقرب من القابر ، وذات يوم بينما كان يعمل في الحقل ، سمع صوتاً يقول له : ان فلان سوف يعمل إلى ذالماكان وبلائل فلاتة . أما فلان فقد كان جاره ، وأما فلاتة فكانت زوجته . وعاد الرجل إلى بيته حزينا ولكنه لم يخبر زوجته بأي شيء . وفي الصباح سمع صراخاً وويلاً مصدره بيت جاره ، فأتى ان جاره قد فارق الحياة كما أخبره الصوت . وإذا فسوف تموت زوجته حتما . ولكنه نظر إلى زوجته فوجدتها تملأ بالانشاط والحيوية ، ولهذا فقد سلم أمره إلى الله

وأخيراً هناك حكاية أخرى تحكي ان الآلهة فزعت لتكاثر الناس في الأرض ، وخشيت أن تضيق بهم الأرض في يوم ما ، ولهذا فقد عقدت مجلسها وقررت أن يكون مصر الإنسان كمصر شجرة الموز ، فشجرة الموز تكبر ثم تموت تاركة وراءها ذريتها ، وهكذا ينبغي أن يفعل الإنسان حتى تجد الأجيال الجديدة مكاناً لها على وجه الأرض ، وقد ارتضى الناس هذا الحكم ونفذوه ، ومازالوا ينفذونه حتى اليوم .

ومع أن الناس ابتلوا إلى هذه الأحداث بالموت ، فإن هذا لم يزل في نفوسهم كثيراً ، ذلك أن الموتى كانوا يختلطون بهم يوماً في كل عام ، وكانوا يحتفلون بهذا العيد الموسمى لهذا الفرس . ثم حدث أن توفيت امرأة تاركة وراءها ابنة حبلى ، ولما ولدت الأم الطفل ، لم يكن لديها الغذاء الكافي لاطعامه ، فانتهرت فرصة وفاة رجل وأرسلت معه رسالة لامها ترجوها فيها أن تعثر لابنتها فداء من عالم الموتى ، فحملت الجدة سلة مملوءة بالنبات ، ورحلت إلى أرض الأحياء . وعندما وصلت إلى بيت ابنتها ، أخذت تفلح الحديقة لتزود النبات الذي أحضرته . وبينما كانت ابنتها تظلم من النافذة ، أبصرتها وانكرها ، إذ كانت تبدو غريبة تماماً من الأحياء . ولم تستطع الابنة مقابلتها وهي على هذا النحو ، بل صرخت في وجهها من بعد وطلبت منها أن تعود صلى

الغور إلى أرض الأموات ، ففصبت الأم وقالت لابنتها : « لماذا تطرديني على هذا النحو ؟ ألم أزرع النبات لحفيدي ليتفدى من فمسه ؟ انني ذاهبة » . ثم أخذت ثمرة من فم جوز الهند وشقتها إلى نصفين ، وأعطت لابنتها النصف الذي لا يضر الإنسان من خلاله شيئاً ، واحتفظت لنفسها بالنصف الذي يتمكن الإنسان الرئية من خلاله ، ثم قالت لابنتها ، من الآن فصاعداً لم يعد الأحياء يرون الأموات رأى العين . أما نحن فسوف نراكم من خلال

ابتلائه بالموت ، ولكنه عندما فعل ذلك ، كانت أجابته نابعة من طبيعته المتفائلة بصفة عامة ، وهي تلك الطبيعة التي تتجنب التفلسف الذي قد يفقده الاحساس بقيمة الحياة وجوهرها الحقيقي . ومن لم فقد رأى انه قد ابتلى بالموت بسبب سلوكه غيبي من الانسان ، او بسبب خداع الحيوان له . اما الآلهة فهي بريئة من أن تتهم بابتلائها الانسان بالموت . فاذا كاد تعبير الانسان الشعبي يقترب من الحس الماساوي كما هو الحال في قصة الاسكندر الاكبر ، غلبته طبيعته المتفائلة وجعلته يذكر شخصية الخضر ويؤكد تجسيدها لفكرة شباب الحياة الدائم .

ثالثا - في ضوء هذه الفلسفة العامة التي نستخلصها من التراث الشعبي ومن سلوك الانسان الشعبي ، نستطيع ان نقرر أن ماورد في التراث الشعبي ، وهو في الحقيقة قلة ، معبرا في حزن من مأساة الانسان الذي تنتهي حياته بعد كفاح طويل بالفناء ، ليس مسوي تعبير عن احساس مؤقت باليأس ، ولكن ما يلبث هذا الاحساس ان يغلبه الشعور العام بتلك القوة الدافعة المتدفقة القادرة على تجديد الحياة ويعبثها من جديد .



- ٦ -

وعلى الرغم من أن الهرم سبيل الى الجذب، والجذب سبيل الى الفناء ، فإن تلك النظرة السلبية الى الشيئوخة يعوضها ما اكتسبه الانسان الهرم من تجارب وخبرة وحكمة . ومعنى هذا أنه اذا كان الانسان الهرم يرمز الى اضمحلال الحياة وتدهورها ، فإنه في الوقت نفسه يمثل قمة الحكمة والتجربة . ومن هنا استغلت شخصية الرجل المعجوز استغلالا رائعا في القصص الشعبي والأمثال الشعبية .

ورحل الى حقله . فلما عاد الى بيته في المساء فوجيء بأن امرأته ما تزال في نشاطها وجيويتها . فسألها عما فعلته طوال النهار ، فحككت له انها فرغت من اعمال المنزل ثم أمدت لعل الطعام وأخذت تنتظره . فلما تأخر عن مواعده ، وكانت تشر بالجرع ، أمدت لنفسها طعاما سريعا . وما كادت تجلس لتأكله حتى طرق بابها طارق جائع وطلب منها أن تمنحه رغيفا من الخبز يسد به رمقه . ففرغت الأكل كله الذي كان أمامها وأعطته للشحاذ الذي دعا لها بطول العمر . وسكنت الرجل وظل يتوقع في كل لحظة أن يسقط زوجته ميتة . فلما استيقظ في الصباح كانت زوجته ما تزال نشطة قوية ، فودعها وانصرف الى حقله . وهناك تحدث الى الصوت الذي سمعه وقال له : « أنك قلت ان فلانا سوف يحضر الى هذا المكان في الغد وكذلك فلانة ، وقد حضر فلان حقا ، ولكن فلانة ما تزال على قيد الحياة قوية ومليئة بالحيوية . فطلب منه الصوت ان يرفع بصره الى السماء . فلما فعل الرجل ، أبصر حجرا كبيرا كاد يهوى على رأس زوجته ولكن طبقا به طعام ، ورغيف حال بينه وبين السقوط . فتدلل تذكر الرجل قصة الشحاذ الجائع الذي أطعمته زوجته بطعامها ، فلبسها لها الشحاذ بطول العمر .

وهند ذلك قال الفلاح لنفسه : « حقا ، ان اللقم تمنع النقم » .

نستطيع ان نستخلص من كل ما أوردناه ما يلي :

أولا - ان ارتباط الانسان الشعبي نفسيا بالزمن الاسطوري حيث يولد كل شيء من جديد ، كان سببا وراء نزوحه الدائم الى تجديد حياته . وهو يفعل هذا من خلال ممارساته واحتفالاته وتصورات .

ثانيا - وهذا لا يعني ان فكرة الموت لم ترجع للانسان الشعبي ، وأنه لم يتساءل عن سبب

اهتمام فرويد بالتحليل النفسي ، واهتمام أدلي بعلم النفس الفردي .

وقد نظر يونج الى النفس الانسانية بوصفها وحدة متكاملة من الشعور واللاشعور. وهذا اللاشعور لا يحتوي على صنف من الكبت النفسي فحسب ، بل انه يحتوي على ما هو اهم من ذلك بكثير ، وهو القوة الدافعة الى تكييف الانسان لحياته بصفة عامة . وهذه القوة الدافعة هي التي تثير القدرة على التخيل ، وهي التي تنظمها على نحو ما يظهر في اشكال التعبير الشعبي والادبي بصفة عامة . فاللاشعور عند يونج يتكون من عنصرين : **عنصر فردي** و**عنصر جمعي** . اما **العنصر الفردي** فهو ما تحدث عنه فرويد واهتم به ، وهو ملك للانسان الفرد . واما **العنصر الجمعي** فهو ملك للناس جميعا ، لانه يحتوي على القوى الدافعة التي تعد عنصرا قائما في تكويننا النفسي ، وجزءا حيا وضروريا في حصيلتنا النفسية ، وهي ما اصطلح يونج على تسميتها بالانماط الاصلية Archetypes . وعندما تتحرك تلك الدوافع او الانماط الاصلية بداخلنا يكون لتأثيرها سلوك ذو طابع سحري ودروحي . فكم منا يشعر بشعور مخيف ازاء القوى المهددة التي ترقد مكبلة بداخلنا ، ولا ينطق في هذه الحالة سوى بكلمة السحر التي تظلم منها ؟ ان كلمة السحر في هذه الحالة ليست سوى تعبير عن الدور الفعال للنمط الاصيل الذي يتحرك بداخلنا . ويعد النمط الاصيل أحد أقطاب لا شعورنا ، اما القطب الآخر فهو القطب السليبي ، وهو ما يمكن ان نسميه بالفرايز . وعلى الرغم من ان الانماط الاصلية والفرايز تتعارض للغاية ، الا انها مرتبطة بنظام معين ، ذلك ان القوى الخلاقة في الانسان انما تنجم عن هذا التعارض البالغ بين القسوى الإيجابية والقسوى السلبية (٢٢)

فقد افنا ظهور شخصية الرجل المجوز فجأة للبطل في القصص الخرافية ، وذلك عندما يصبح البطل في حيرة من أمره ، وتلزم عليه النصيحة . ويحدث هذا عندما يعتزم البطل القيام بمغامرة من أجل الحصول على شيء محدد من العالم المجهول . عندئذ يخرج من بيته وحيدا ، ويسير في طريق يبدو له أول الأمر مغلوما ، ولكنه ما لبث ان يصادف مفترقا من الطرق ، فيثقف فجأة ولا يدري أي طريق يسلك . في تلك اللحظة يظهر له شيخ عجوز يسأله من تلقاء نفسه عن هدفه ، وعندما يجيبه بأنه يعتزم الوصول الى الاسيرة المسحورة او الليمونات الثلاث ، او الى أي شيء من تلك الأشياء الغريبة التي تعد وموتا في القصص الشعبي ، أشفق عليه الرجل المجوز من مخاطر الطريق الوعر ، الذي ينهي عليه ان يسير فيه لكي يصل الى مأربه، ونصحه بدافع هذا الشفقة ، ان يعود مدوجه ، ولكنه عندما يرى ان الشهاب مصر على الوصول الى هدفه ، وان خاض في سبيل ذلك الاحوال ، كشف له الرجل المجوز عن الطريق الصحيح الذي يوصله مباشرة الى غرضه ، وحلده من انه سول يقابل قوى شريرة في شكل مارد أو وحش مفترس أو تسعين يقف متربعا به ويود ان يبتله . لم يقدم له الشيخ في النهاية ، بدافع الحرص الشديد على نجاح مهمته ، اداة سحرية . كان تكون حصانا ، او عصا ، او أي شيء آخر . فلذا استخدم البطل هذه الاداة السحرية في اللحظة المناسبة ، جنب نفسه المخاطر ، ووصل الى مأربه .

وقد افاض العالم النفسي يونج ومن ورائه مدرسته في تفسير رموز القصص الخرافية ، الذي يتشابه كثيرا في جميع انحاء العالم ، على اساس ان هذه الرموز تكشف عن تكوين اللاشعور الجمعي الذي اهتمت هذه المدرسة بصفة خاصة بالكشف عنه ، وذلك في مقابل

قال له الرجل المعجوز : انك يا بني لن تستطيع ان ترجع الى الوراء بعد اليوم ، ولا مغر لك من التقدم حيث الجبل الشاهق الذي يقع شرقا ، ثم منحه المعجوز النصيحة والتميمة لكي يكونا هونا له في رحلته التي سيخوضها وحيدا .

فالطفل هنا ، وهو خيال نجم من قوة الانماط الاصلية ، يرمز الى الشيء الذي يولد ثم ينمو ويتوسع . ومن ثم فقد تحتم على الطفل الا يعود الى وراء ، بل يتحرك الى امام حيث الجبل الشاهق الذي يشبه ما تصبو اليه نفسه رفعة ، وحيث ان الطفل لم يستطع ان يحقق لنفسه - لاسباب داخلية وخارجية - المعرفة اللازمة التي يحتاج اليها ، فان هذا الاحتياج النفسي يتجسد في شكل رجل معجوز حكيم يقدم له الفداء الضروري ، كما يقدم له الوسائل السحرية التي تعينه على تحقيق هدفه .

وهكذا نرى كيف ان شخصية الرجل المعجوز التي استقرت في نفوس الناس بوصفها تحسيدا للخبرة والحكمة والطيبة ، أصبحت في القصر الشعبي انعكاسا للتأثير الايجابي للقوى الداخلية التي تدفع الانسان الى تحقيق الشيء الكبير . وحيث ان الانسان في مراحل حياته يحتاج العقبة ولو العقبة . كما لو كان ذلك يتم بطريقة سحرية ، حتى يصل الى الشخصية المتكاملة ، فكذلك يصل البطل في القصص الخرافية الى ما تصبو اليه نفسه من طريق الاداة السحرية ، فكان نوما من السحر قد اوصله حقا الى ما ربه .

وفي مقابل شخصية الرجل المعجوز الحكيم الذي ، كثيرا ما تصادفها في القصص الشعبي ، تجد شخصية المرأة المعجوز . ولكن اذا كان الرجل المعجوز قد اصبح مرآة للحكمة واتساع الخبرة ، ومن ثم فهو يظهر للبطل عندما يحتاج نفسيا الى قوة البصيرة التي تهديه سواء الطريق ، فان المرأة المعجوز ، على

وعلى ذلك يمكننا ان نلخص فكرة يونج في الانماط الاصلية في انها الطليعة الصافية غير الفاسدة في الانسان . ولا يجوز لنا ان نخلط ، كما يقول ، بين الانماط الاصلية والتصورات والخيالات النابتة عنها ، ذلك ان الانماط الاصلية ليست سوى دوافع ، وهذه الدوافع تتحرك في نشاط داخل الانسان ، وتدفعه الى تحقيق الشيء الكامل والى الشعور بالانتماء التام مع الوجود كله . وينتج من هذا التحرك انماط من السلوك ، كان ينطق الانسان بكلمات او يقوم بافعال لا يدرك مغزاها . وقد يستلهم هذا التحرك اشكالا من الخيالات تظهر في الاحلام او في التعبير الادبي او في حالة الامراض النفسية .

ولا يهمننا طبيعة الحال في هذا المجال ان نفرس كل صور القصص الشعبي بناء على نظرية يونج ، ولكن يهمننا ان نشير الى ما يخص موضوعنا ، وهو ظهور شخصية الرجل المعجوز او المرأة المعجوز كثيرا في الادب الشعبي .

وقد سبق ان اشرنا الى ان الرجل المعجوز المجهول كثيرا ما يظن في غير توقع لبطل الحكاية الخرافية ، وذلك عندما يتأزم موقف البطل في رحلته المجهولة ، فيشفق عليه ويمنحه النصيحة ويقدم له الاداة السحرية . وشيبه بهذا حكاية تحكى ان طفلا عهد اليه ان يرمي بقرة ، ولكن البقرة ولت منه هاربة . وظل الطفل يبحث عنها وهو خائف من العقاب الذي سيوقع عليه ، ولكن دون جدوى . فلما تصب من البحث نام في ظل شجرة ، واستيقظ فجأة وهو يمس بان سائلا كلمه اللبن يتسرب الى فمه . فلما فتح عينيه ابصر رجلا معجوزا يصب اللبن في فمه . فمسد به الطفل وتوسل اليه ان يريده من جرعات اللبن ، ولكن الرجل المعجوز قال له : كفاه اليوم يا بني هذا المقدار ، لقد كنت على وشك الموت حينما قابلتك ، ثم طلب من الصبي ان يحكي له قصته . لنحكي له الصبي قصته مع البقرة الضالة ، وكيف انه يخشى العقاب ، عندئذ

ولكنه سخر منها وقال لها انه يفعل مثل هذا الفعل مئات المرات كل يوم ، وان عليها ان تفتق ذهنها من عمل يصير هو حقا عن فعله . فعادت المرأة الى حانوت الرجل واهترفت للزوج بفعلتها القبيحة ، واهلنت له براءة زوجها . فرحل الزوج على الفور الى زوجته واعتزل لها واعادها اليه .

ولما علم ابليس بذلك قال للمجوز : هذا حقا مالا أقدر على فعله ، ثم ترك لها البلد .

فاذا ظهرت في القصص الشعبي شخصية أمنا الفولة بشعرها النفوس ، وامنانها الجائزة ، وملامحها الهرة الكريمة ، فانها تكون مساوية تماما لسائر الشخصوس الشريرة التي تظهر لبطل الحكاية الخرافية مثل المارد والتنين ، وتكون مهمتها عندئذ اختطاف البطل والحيلولة بينه وبين العودة الى بيته . فاذا لم يتمكن البطل من ان ينفلت من قبضتها التهمته . وليست هذه الصورة ، وفقا لليونوج كذلك ، سوى تجسيد للقوى الموقفة داخل الانسان ، وهي تلك القوى التي تصدر له الامر مفرما حتى لا يقدم عليه ويحقق تقدما ما في حياته . فاذا لم يكن الانسان واميا بتلك المواقف ، ابتلعه اللاشعور ، تماما كما تبتلع أمنا الفولة البطل .

وقد نتساءل بعد ذلك : لماذا خص الادب الشعبي المرأة المجوز بتلك الصورة الكريمة ، في حين جعل الرجل المجوز تجسيدا للحكمة وطيبة القلب . قد يرجع هذا الى ما عرف عن النساء المعجزة من ممارستهن السحر ، والسحر الاسود بصفة خاصة . (انظر فصل ساحرة عين دور في كتاب التولكلور في العهد القديم - الجزء الثاني - الترجمة) وربما يرجع هذا الى ما عرف عن النساء من ان هن باع طويل في الحيل والمكر ، وربما يرجع كذلك الى ما ترسب في نفوس البشرية من تأثير الام ، وهو ما اصطلح على تسميته بتأثير النمط النموذجي للام . فالام هي مصدر الحب ،

العكس ، هي رمز للخداع والمكر . وقد تصل الى قمة الشر لتصبح أمنا الفولة . وكلنا يذكر ان زوجة الاب او الحماة في القصص الشعبي ، اذا ارادت ابنة زوجها او زوجة ابنها شرا ، استعانت بمجوز شطواء لكي تدبر لها مكيدة ضد البنت العليبة البريئة . وهناك حكاية عربية تحت عنوان « كيد النساء يقلب كيد ابليس » تصور هذه النظرة الشائكة الى المرأة المجوز . فقد تراهن ابليس مع امرأة مجوز على ان يترك لها البلد ان هي استطاعت ان تقوم بعمل لا يقدر هو على فعله . فلهبت المجوز الى حانوت رجل يبيع القماش واخلفت تبكي لصاحبه وتقول اليه ان يمنحها قطعة من القماش ، لان ابنها يشقى امرأة ، والزمها ان تشتري له قطعة من القماش يدهبها لمشيقته ، وهي فقيرة لا تقدر على شرائها . فاشفق عليها صاحب الحانوت وقدم اليها قطعة من القماش . فشكرته المرأة ورحلت بقطعة القماش الى بيت صاحب الحانوت ، وعندما اقتربت من البيت ، ايسرت الروجة نطل من الشباك ، فاستطعت انها قد تمررت وولعت ولم تستطع القيام لمجوزها وضعفها . فلما راهها الروجة على هذا النحو . خفت اليها وامانتها على القيام وادخلتها بيتها وطلبت منها ان تستريح . ثم تركتها لكي تصنع لها قدحا من الشاي . في اثناء ذلك اخفت المرأة المجوز قطعة القماش تحت وسادة الاركة التي امتداد الزوج ان يستريح عليها بعد تناول القداء . ثم حثرت بعد ذلك الشاي وشكرت للزوجة فضلها وعطفها ورحلت . فلما رجع الزوج الى بيته ، تناول القداء وذهب ليستريح كالعادة على الاركة . وبينما كان يقلب الوسادة ، وتصتعيته على قطعة القماش التي كان قد اهداها للمرأة المجوز ليقيمها لابنها الى مشيقته . ولم يساوره شك في تلك اللحظة في ان زوجته في بعينها عشيقة هذا الابن ، ومن ثم فقد اتهمها بالضيافة ، وسرحها الى بيت ابيها . ولما تاكدت المجوز ان خدمتها قد تمت بنجاح ، رحلت الى ابليس لتحتكي له في زهو من فعلتها التي يصير هو عن اتعلمها ،

الحكيم التي تظهر في القمص الخرافي ، وان اختلفت عنها تماما في وظيفتها . ذلك ان هذه الشخصية لم تعد تمنح البطل الاداة السحرية ، بل اصبح يمنحه الحكمة ويصره بواقع الامور التي يعجز عن ادراكها كنهها .

فقد كان هناك ملك له ابنة واحدة يحبها ويعوها ، وذات يوم استبدى المنجمين لكي يقرأوا له طالع ابنته ويخبروه بأي رجل سوف تتزوج ، فلما نظر المنجمون في حساباتهم الفلكية ، سكتوا واطرقوا رؤوسهم . فنادى الملك ان في الامر شيئا ، فصرخ في وجوههم ليخبروه بما راوا . فقالوا له ان طالع ابنته يخبر بانها لن تتزوج الا بعبد مرجان . وعلى الرغم من ان الملك كان يحب هذا العبد ، فان اول خاطر خطر له في تلك اللحظة هو ان يتخلص منه ، ومن ثم فقد كلفه بحمل رسالة الى ملك الشمس وان ياتيه بردها . ولم يكن ملك الشمس هذا في الحقيقة سوى شخصية وهمية ، وقد وصف له الطريق المؤدي لها وكان طريقا محفونا بالمخاطر . ولهذا فلم يساور الملك شك في ان العبد مرجان سيهلك في هذا الطريق . وحمل العبد مرجان الرسالة وسار في طريقه منتظيا صهوة جواده . وفي منتصف الطريق برز له شيخ عجوز جالس في الظل ، فلما اقترب منه مرجان سألته الشيخ من مقصده ، فاخبره مرجان بان الملك كلفه بحمل رسالة الى ملك الشمس لكي ياتيه بردها . عند ذلك اخبره الشيخ بانه هو بعينه ملك الشمس وطلب منه الرسالة ، فلما فاضها الشيخ ، كتب في اسفلها عبارة « الي في علمه يتمه » ، ثم اعاد الرسالة الى العبد الذي شكره وسار في طريقه قافلا الى سيده الملك . فلما جن عليه الليل استراح عند جلع شجرة بعد ان ربط حصانه وراح في نوم عميق . ولكنه استيقظ على صوت صهيل حصانه وهو يركل الارض برجله بشدة . فلما نظر العبد مرجان الى المكان الذي يضرب فيه الحصان برجله بشدة ، ابصر فجأة وبداخلها كنز . فاخذ يستخرج من الكنز حتى تجمع

وهي التي تمت الابناء بالطعام والدفع ، وقد يكون تأثيرها ايجابيا الى ابد من ذلك عندما تتيح للابناء فرصة الانطلاق مع ارتباطهم بجذورهم ، وهي في هذه الحالة تعينهم على الوصول الى الحكمة والابداع . وقد يكون تأثيرها عكس ذلك تماما عندما تكون هائلا نفسها من الانطلاق الروحي ، ونمو الشخصية وتكاملها . وهذا السلوك الاخير للام هو ما جسده الاساطير في الالهة حارسة الصالم السفلي ، وفي الساحرة اليونانية كيرك ، كما جسده الحكايات الخرافية في صورة امثا الغولة .

وعندما اصبح الانسان الشعبي اكثر واقعية في عصرنا الحاضر ، لم يعد يتطلب من بطل الحكاية ان يخوض مغامرة مجهولة من اجل الوصول الى الاميرة المسحورة فيخلصها من قبضة المارد ، او من اجل الوصول الى التفاحة السحرية التي تتدلى من فرع شجرة تنمو في غابات مظلمة بعيدة لا يمكن ان يصل اليها الانسان المادي . كما انه لم يعد يفترض ان البطل لا يمكنه الوصول الى غرضه ، وان خاض في سبيل ذلك الاحوال ، الا عن طريق الاداة السحرية التي يستخدمها في الوقت المناسب . بل اصبح يتطلب من البطل ان يعبر عن مشكلاته الواقعية التي يعاني منها ، سواء كانت تلك المشكلات تنتمي الى عالمه المرمي ، او الى عالمه غير المرمي . وطبيعي ان الانسان الشعبي يدرك تماما مجرته من حل هذه المشكلات ، لانها مشكلات نجت اما عن عيب في بناء مجتمعه مثل مشكلة الظلم ومشكلة الفوارق الاجتماعية ، او انها نجت عن ارادة القوى الخفية ، وهي ارادة ليس للانسان ان يتدخل فيها . ومع ذلك ، فان الانسان الشعبي ، اذا يعبر من هذه المشكلات الواقعية التي أصبح يحسها ويعاني منها كل المائنة ، لا يكتفي بتصويرها في قصصه ، بل انه يجتهد في تفسيرها او ايجاد حل لها . ومن ثم فقد خلق في قصصه الذي يحكيه اليوم ، شخصية تشبه الى حد كبير شخصية الرجل الكهل

أن يخوض فيها ، بل له أن يصارمها ، وهي أن هناك أمورا مقدرة للإنسان لا يمكنه أن يتجنبها مهما كانت سطوته وقوته البشرية . وتلاحظ أن الرجل المجوز في هذا المثال لم يمنح البطل الأداة السحرية لكي يحارب بها التنين والمرد ويتصنر عليهما ، بل منحه الحكمة التي أصبح يحتاج إليها الإنسان المعاصر لكي تعينه على مشقات الحياة .

وإذا كان القصص الشعبي قد عبر في هذه الحكاية عن مشكلة غيبية تشغل الإنسان ، فهو لم يعبر عنها بقصد تشكيك سامعيه فيها ، بل أنه يسعى على العكس من ذلك إلى بث الطمأنينة في نفسه من حيث أنه لا ينبغي عليه أن يفكر في أمور المستقبل التي ليس من شأنه التدخل فيها ، إذ لا يكيف تلك الأمور سوى الإرادة العليا التي تتصف بالقدرة والرحمة في الوقت نفسه . ذلك أن ابنة الملك لم تقدر لها أن تتزوج بالعيد إلا بسد أن تغيرت صورته كلية ، حتى لو نجلده .

فإذا تناول القصص الشعبي مشكلة اجتماعية تحير أبناء الشعب ، فإنه يستعين كذلك بشخصية الرجل المجوز الحكيم لعله يجيب عن تساؤلاته المحيرة . وفي هذه الحالة قد لا يجد هذا الحكيم جوابا شافيا من هذه التساؤلات ، ذلك أن المشكلة من وجهة نظر الشعب ، قد أصبحت من التعقيد بحيث يختار فيها الحكما أنفسهم .

فقد اجتمعت الكلاب البلدية ذات يوم وتساءلت : لماذا تعيش الكلاب الرومية (وهو اصطلاح شعبي للكلاب التي يقتنيها أصحاب البيوت ويمتنون بها ويدللونها) مرفهة ، فلا تتناول سوى اللحم والخبز الشعبي ، في حين أنها قد قدر لها أن تظل تعدو في التوارع ليل نهار على غير هدي ، ولا تتناول من الطعام سوى ما تعثر عليه في القاذورات . ولا لم تجد الكلاب البلدية جوابا شافيا من هذا التساؤل ، قررت أن ترسل خطابا في مؤخرة كلب إلى

لديه مال وفير ، وتكر اثر ذلك أنه لا داعي للعودة لسيدته وأن يشرع في بناء قصر ليعيش فيه حياة رفاهية ورخاء، وأبنتى العبد مرجان قعرا شامخا تعيد به البسائين وتتدفق فيه النافورات . وذات يوم كان يستحم في النافورة ، فلما خرج منها ونظر الى نفسه في المرآة ، رأى أن لونه قد تحول من السواد الى البياض فيما عدا بقعة سوداء ظلت على جبينه .

وذات يوم خرج الملك مع وزيره ليربضا . وقادهم الطريق الى القصر الشامخ ، قصر العبد مرجان ، الذي يقف في بهاء وروعة وسط الرياض والبسائين ، وتعجب الملك من أن يكون في مملكته مثل هذا القصر الرائع ، ولهذا فقد طرق بابيه ليعترف على صاحب هذا القصر ، ورحب بهما العبد مرجان وهو يعرفهما تماما ، ويألف في ترحابهما ، وبعد أن مكث الملك والوزير عنده أياما في حفاوة بالغة ، عرض عليه الملك أن يزوجه ابنته . ورحب مرجان بذلك ، وما هي إلا أيام حتى كانت ابنة الملك تحمل الى العبد مرجان في صحبة أبيها وأُمها والخدم والعشم .

ومكث الجميع في ضيافة العبد مرجان طيلة شهر دون أن يتوقف الملك على حقيقة هذا الرجل الثري للضياف الذي بالغ في تقدير ابنته . وذات يوم فاجأ الملك بالسؤال عن هو ، وإلى أي أصل ينتسب . وكان رد مرجان على ذلك بأنه يعينه العبد مرجان الذي كلفه ذات يوم بحمل رسالة إلى ملك الشمس ، كما أخبره بأنه مازال يحتفظ بالرسالة التي تتضمن رد ملك الشمس عليها . فلما فض الملك الرسالة وجد مكتوبا في أسفلها تلك العبارة : « الي في علمه يتمه » .

فشخصية الرجل المجوز المجهول في هذه الحكاية ، لم تظهر فيها إلا كسي يصير الملك الذي يعد رمزا للسلطة والتسلط الدينيون ، بحقيقة ميتافيزيقية ليس من شأن الإنسان

كنت مسافرا وشغلت من عودتي بامر صير ، فلما عدت كان الرسوم قد نفذ وانتهى الامر . فسأله الملك مرة أخرى : وما هو ذلك الامر الصير الذي اخر هودك ؟ فاجاب الرجل : لقد كنت يا جلالة الملك احضر حفل زواج ابنة البومة من الغرباب . وقد دب الضلاف بين الطرفين في اللحظة الاخيرة . وكان يحتم علينا ، نحن المدحويين ، أن نفرض النزاع . ذلك ان البومة اشترطت أن يكون مهر ابنتها خمسين بلدا خريا . وقد انصفا الغرباب بقبول ذلك ، فقبل وانتهى الامر . عند ذلك قال له الملك : وهل من المقول ايها الرجل المغفل أن هناك خمسين بلدا خريا على وجه الارض ؟ فرد عليه الرجل الشيخ قائلا : نعم يا جلالة الملك ، ان كل بلد يحكمه رجل أخرق ، فهو خرب .

واسقط في يد الملك ، واثر بخطئه وقال : حقا « آلي ما لوش شيخ ، شيخه الشيطان » وقد أصبح هذا القول مثلا .

والشيخ في القصص الشعبية لا ينطق بالقول الحكيم لحسب ، بل هو قادر كذلك على فهم الاسئلة المقفلة ، وهو وحده القادر على لك رموزها .

فقد خرج الملك والوزير يتفقدان احوال الرمية . فوصلا الى شاطئ البحر وابصرا صيادا كهلا يصر سمكة كبيرة من البحر . وفي اثناء ذلك جرحته السمكة بزحانفها القوية فادمت يديه ، ولكنه لم يابه بذلك واستمر يجرها . فوقف الملك والوزير عنده وسأله الملك : كيف حال البعيد ؟ فاجاب الصياد : لقد أصبح البعيد قريبا . ثم سأله الملك : وكيف حال الجماعة ؟ فاجاب الصياد : لقد تفرقت الجماعة ولم يعد من الممكن لها اشتاتها فسأله الملك : وكيف حال الاثنان ؟ فاجاب الصياد : لقد أصبح الاثنان ثلاثة . عند ذلك قال له الملك : اياك أن تبيع رخيصا ؟ فاجاب الرجل : انك ان توصي حريصا . وبهذا انتهى حديث الملك مع الصياد الشيخ . وفي اثناء

الملك سليمان ، ذلك الشيخ القديم الذي يفهم لغة الحيوان ، لتسأله فيها من هذا الامر . ولكن الكلب لم يعد حتى اليوم برد الرسالة ، ذلك ان النبي سليمان نفسه لم يجد بعد الرد المقنع من هذه المسألة المحيرة . ولكن الكلاب ما تزال تنتظر الجواب حتى اليوم . ولهذا فانها ، مثلما ترى كلبا مقبلا نحوها ، تجتمع حوله وتشمه من مؤخرته ، لعله قد أتى برد الرسالة .

واذا كان الشيخ يمتلكون الحكمة والعالم الى هذا الحد ، فإن اصحاب السلطة يخشون تقديم الذي يمكن أن يهيج الرأي العام ضدهم ولهذا فقد أصدر ملك من الملوك مرسوما يقضي بأن يقتل كل شاب اباه الكهل حتى تخلو له البلاد من هؤلاء الحكماء الذين ينتقدون سلوكه على الدوام . واذا كل شاب لامر الملك فقتل اباه ، فيما عدا شابا واحدا ابي أن يفعل هذا مع ابيه ، واكتفى بتخنيته في البيت ، ولما اطمان الملك الى أن شيوخ بلده قد قتلوا من آخرهم ، كان كل يوم يجمع شباب البلد عند الجبل ويرهبهم بشق الارض الصلبة دون أن يهدف من وراء ذلك تمهيدا للزرع .

وذات يوم سأل الاب الشيخ الذي ظل على قيد الحياة ، سأل ابنه عما يفعله مع سائر الشباب ، فاجابه الابن بأن الملك يجمعهم كل يوم عند جبل ويطلب منهم أن يشقوا الارض الصخرية دون أن يدركوا هدفا لهذا العمل المهنى . فلما سمع الاب ذلك قال لابنه : اذا جاءك الملك ليبر عليك فاصطنع انك ترفع يدك الى املى فمك ، وانك تضع شيئا فيه . فاذا سألك عما تفعل ، قل له ، ان ما نزرعه ناكه . فلما فعل الابن ذلك وسمع الملك منه تلك الصبارة الحكيمة ، قال له على الفور : ان هذا القول ليس قولك ، بل هو قول رجل شيخ . اذهب واحضر اباك الذي لم تنفذ فيه امرى . فلحق الابن واحضر اياه الذي مثل امام الملك . فسأله الملك : اين كنت وقت ان اصدرت المرسوم ؟ فرد الاب قائلا لقد

ليشتري خيارا ولكن شوك الخيار الرفيع آله وتسبب في مرضه . وتعجب الملك لذلك وذكره باليوم الذي وآه فيه على شاطئ البحر يجر السمكة الكبيرة وقد جرحته زعانفها الصلبة فسال دمه . ولكنه لم يكن مكتوما بذلك واستمر يجر السمكة . وظل الصياد ينصت للملك ولما فرغ من كلامه ، رد عليه قائلا : ان هذا صحيح يا جلالة الملك ، ولكنه من الثبأه التام ان يبعد الإنسان فرصة للتعيم والرأهية ولا يفتنم هذه الفرصة .

وتهدف هذه الحكاية ، كما يتضح تماما من مضمونها العام ، الى إبراز عيب خلقى ، ولا تبعذ اذا قلنا أنه عيب سياسى ، وهو أن من يتولى منصباً قيادياً من أبناء الشعب ، سرعان ما تلغيه حياة الرفاهية عن التفكير في أحوال الشعب الذى كان ينتمى إليه ذات يوم ، ويمانى مما يمانيه . ولكن الملك لم يغطيه عندهما استند الوزارة الى ذلك الشيخ ، وأن كان صيادا بدلا من الوزير ، لأن الأول حنكته الأيام ، ومفتت ادراكه بحقائق الأمور . في حين قصر عقل الثانى عن ادراك أبعاد مشكلات الحياة ، وهو ما ترمز اليه الحكاية هنا بفشله في حل الاسئلة الملغزة .



ومن الطبيعى أن تكون هناك بعض الأمثلة الشعبية التى تتلخص فلسفة التسبب في الشيخوخة والهزم . والمثل الذى سبق أن ذكرناه هو : « الى ما لوش شيخ ، شيعنه الشيطان » يصور تقدير الناس لمسنيتهم ومدى احسانهم بقيمة وجودهم بينهم . ومن ثم فقد سمي رجال الدين بالشيخوخ ، بصرف النظر عن مقدار أعمارهم ، لأن الشيخ مجمع للمعرفة والحكمة والقدرة على تبصير الناس بجوهر الحياة .

وكل هذا يشير الى مدى احترام الناس

هودة الملك والوزير سأل الملك الوزير عما اذا كان قد فهم شيئا من حديثه مع الصياد ، فأجاب الوزير بالنفى . عند ذلك طلب منه الملك أن يفسر له مادار بينه وبين الصياد والا قطع رأسه ، ثم أعطاه مهلة أسبوع .

وأخذ الوزير يدير في رأسه العبارات التى سمعها من كل من الملك والصياد حله يصل الى مفزى هذا الكلام ولكن دون جدوى . وأخيرا استقر رأيه على أن يذهب ليقابل الصياد وينفحه بعض المال لكي يفسر له الكلام الذى دار بينه وبين الملك . ولكن الصياد أبى أن يفسر له شيئا الا اذا تنازل له عن الوزارة ولم يجد الوزير مجالا للخيار فوافق على ذلك . عند ذلك اصطحبه الصياد الى الملك لكي يتنازل أمامه رسميا عن الوزارة في مقابل أن يفسر له الحديث . فلما أبصرهما الملك بادر الصياد بالسؤال وقال له : هل بعت رخيصة ؟ فأجاب الصياد : لقد أخبرتك بإجلالة الملك انك لن توصى حريصا ، لقد بعت الإجابة عن الاسئلة في مقابل الوزارة . ثم شرع يشرح للوزير مادار بينه وبين الملك ، فقال : لقد سألتنى الملك عن حال البعيد ، وهو يعنى بذلك بصرى الذى كنت أرى به بعيدا وأنا شاب ، فأجبته بأن بصرى قد ضعف مع هرمى ، وبذلك صرت لا أبصر الا الشؤء القريب ، ثم سألتنى عن الجماعة وهي أسألتنى فأجبته بأنها قد تفرقت مع كبر سنى . ثم سألتنى بعد ذلك عن الاثنين وهو يعنى به قلبي ، فأجبته بأنها أصبحتا ثلاثة ، اذ لم أجد أسير الا بمساعدة مكاترى .

وبهذا تنهى الوزير عن الوزارة وتقلدها الصياد . وبينما كان الوزير الصياد عائدا ذات يوم الى بيته ، صادف رجلا يبيع خيارا ، فوقف ليشتري منه . ولما كان الخيار طازجا للغاية فقد آله شوكه الرفيع ، ولهذا فقد رمى الخيار للبالغ ، ورحل ومكث في بيته بعد ذلك أياما لم يذهب فيها الى الوزارة ليباشر عمله . وقلق الملك عليه وذهب ليسأل عنه . فآخبره الصياد الوزير أنه وقف

لتقادم الأيام على الإنسان ، وهم لذلك يحثون على احترام الصغير للكبير ، لأن إضافة يوم في عمر الإنسان معناه زيادة في علمه وخبرته . وهم يقولون في ذلك : « أكبر منك بيوم يعرف عنك بسنة »

ومع هذا لا تخلو الأمثلة الشعبية من نظرة الشعب السلبية إلى الشيخوخة . فالشيخوخة هي نهاية المطاف في حياة الإنسان ، ولن يعود الشيخ بعدها شابا بهال من الأحوال . وفي ذلك يقول المثل الشعبي في صيغة سؤال استنكاري : « هو الرائب يقسى حليب » ؟ فاللبن الحليب هو الأصل ، وهو يتحول بصد عملية بيولوجية إلى لبن رائب . ولا سبيل إلى أن يصبح اللبن الرائب حليباً مرة أخرى . حقا أن اللبن الرائب له فوائد التي ربما فاقت فوائد اللبن الحليب ، ولكن هذا لا ينفي الحقيقة وهوان اللبن الحليب هو الأصل الطازج اللبن الرائب . وربما ذكرنا هذا المثل بقول الشاعر القديم :

اترجو أن تكون وأنت شيخ

كما قد كنت أيام الشباب

لقد كذبتك نفسك ليس ثوب

دريس كالجديد من الثياب

وإذا كان الأمر كذلك ، فواجب على الشيخ أن يحتفظ بوقاره بما يتلاءم مع سنه ومقله . فإذا حاول الشيخ أن يتصاير ، قال فيه المثل : « الشاب لما بدلع يبقى ذى الباب المخلع » . أو يقول : مجور ومتصاير ! فإذا لم يكن الرجل الكبير متمسكا بالحكمة والعقل اللذين يورثانه بعد بلوغه سن الشيخوخة ، قال فيه المثل : « شابت لعاهم والعقل لسه ما جاهم » .

•••••

هذه جولة مع الإنسان الشعبي وصراعه مع الزمن . وقد حرصنا في الجزء الأول من

البحث أن نبرز صور هذا الصراع من خلال أشكال تعبيره من ناحية ، كما حاولنا أن نستخلص منها فلسفته في فكرة الزمن بوجه عام من ناحية أخرى . وصراع الإنسان مع الزمن يعني رفضه للزمن الحسى ، وهذا الرفض يتمثل في أمرين : الأمر الأول ، رفض التاريخ ، بمعنى أنه أحداث يسلم بعضها إلى بعض بحيث لا يمكن تجنبها أو تجنب نتائجها . فالإنسان الشعبى في هذه الحالة لا ينظر إلى هذا الحدث ، مهما كانت نتائجه ، على أنه نهاية حتمية لا مفر له من أن يخضع لها ويستسلم في يأس ، بل أن علاقته الروحية القوية بالقوى العليا سرعان ما تزيل مخاوفه ، وتقوى أمسه في تغير الحياة وتجديدها ، كما هو شأنها منذ الأول ، أما الأمر الثانى فهو رفض الاستسلام للحظة تبدو فيها الحياة ، سواء كانت الحياة الطبيعية أو حياة الإنسان - أنها قد أجديبت أو فُتيت . ذلك أن الجذب والفناء يأتى بمدحهما الخصب والبُعث لا محالة ، وهذا يعنى أن الخصب دائم والزمن دائم ، وأن تغل ذلك فترات من الضعف والجذب والموت المؤقت .

أما الجزء الثانى من البحث فقد انتقلت فيه من فكرة الزمن المجرد إلى فكرة الزمن المجدد في العجز والهرم والشيخوخة ، كما تتمثل في القصص الشعبى والأمثال الشعبية.

وبهذا يكون الإنسان الشعبى قد عبّر عن فكرة صراعه مع الزمن على تحدد يتسم بالشمولية والتنوع والتفاؤل الذى يجيب التشاؤم . وربما كان أدوم من هذا كله أنه لم يتوقع داخل ذاته لعبور من مأساته ، بل عبّر عن نفسه بوصفها نفسا تتغلق بين أنفاس الكون النابضة ، وبوصفها إيقاعا من إيقاع الحياة الذى يتردد صداه في جميع الأجواء ، في الفضاء وفي الأنهار وفي الجبال وفي البحار ، ومع حفيف الأشجار ، وانغام الطيور ، وربما مع الأصوات الهامسة الصادرة من العالم غير المرئى .

الحياة في عالم مزدحم بالسكان

أحمد أبو زيد

دون تحقيق سمادة الإنسان ، ثم البحث من مدى إمكانية القضاء على تلك الأسباب ، أو على الأقل التخفيف من وقعها وتناجها على ما يذكر هو نفسه صراحة في الصفحة الأولى من الكتاب . وفي سبيل ذلك وجد مالتوس أنه يتعين عليه أن يعالج بعض القضايا الهامة مثل العلاقة بين السكان والطعام ، على اعتبار أن وفرة الطعام عامل أساسي في تحديد عدد السكان في المجتمع ، وأن زيادة الطعام في مجتمع ما كافية بأن تؤدي إلى زيادة السكان ، ما لم يكن هناك ما يمنع من ذلك ، وذلك كله لكي يصل في آخر الأمر إلى قضية من أهم

حين صدر كتاب مالتوس عن السكان عام ١٧٩٨ تحت عنوان :

An Essay on the Principle of Population as it affects the Future Improvement of Society.

اعتبر أول دراسة تقوم على أسس دقيقة من جمع المعلومات بقصد الإجابة عن الأسباب المؤدية إلى شقاء الجنس البشري ويؤسسه وتعاونه ، بل أن البعض ذهب إلى حد اعتباره بداية للدراسة الاجتماعية الحديثة بوجه عام (١) . ولقد حاول مالتوس في ذلك الكتاب أن يركز على مسألتين على جانب كبير من الأهمية ، وهما البحث عن الأسباب التي تقف

Bogardus, E.S. ; The Development of Social Thoughts, Mckay N. Y. 1960, p. 222. (١)

لتحرر المرأة ، وبخاصة في المجتمع الغربي ، من سيطرة الرجل وشعورها بالمساواة معه في الحقوق والواجبات ، ومن هذه الحقوق حقها في أن تحدد بنفسها عدد الاطفال الذين تحب هي أن تنجبهم . وذلك كله بالإضافة بطبيعة الحال الى ازدياد شعور الناس وأدراكهم لضرورة العمل على توفير مستوى اقتصادي واجتماعي معين يعيشون فيه ويوفرونه لأنفسهم وأولادهم . فهذه كلها أمور من شأنها أن تؤدي في آخر الأمر الى التحكم في عدد السكان ، بحيث لا يتعرض العالم لكارثة تنكك التي يتنبأ بها المتشائمون من الكتاب .

يبد أن الوضع السائد الآن في العالم يبين أن هذا التفاؤل فيه هو ذاته كثير من الفسوف والمبالغة ، وإن كل ما يقال من حكمة الانسان وتلقه ووعيه وقدرته على التحكم في نسله لم يمنع من ازدياد السكان في العالم ككل زيادة رهيبة وبسرعة فائقة ، مما يثير القلق ويبدو الى ضرورة الاسراع بوضع سياسة حكيمة يمكن بمقتضاها اعادة التوازن بين السكان وموارد الطعام ، أو يقول أهم بين الموارد البشرية والوارد الطبيعية وبخاصة الطعام . ويعتبر ذلك من أهم الاسباب التي تكمن وراء الاهتمام المتزايد في الوقت الحالي بمشكلات التخطيط من أجل التنمية الاقتصادية والاجتماعية في المجتمع المتخلف على الخصوص ، نظرا لأن هذه المجتمعات هي التي تعاني أكثر من غيرها من فقدان ذلك التوازن نتيجة للزيادة السكانية السريعة فيها . ولكن هذا لا يعني أن المجتمعات المتخلفة هي وحدها التي تعاني من هذه المشكلة ، فالشعوب بالزيادة السكانية وتكدس السكان مع عدم التنسيق مع موارد الطعام المتاحة أصبح شعورا عاما ، وبدأ كثير من الكتاب يكتبون من ظاهرة ازدياد العالم بسكانه باعتبارها من أخطر الظواهر التي تواجه المجتمع الحديث بوجه عام ، ويحاولون التعرف على اسبابها وخصائص ونتائج ذلك الازدياد ، والمشكلات المترتبة عليه ، وكيف يمكن حل تلك المشكلات ، ومتطلبات الحياة

القضايا التي كان يؤمن بها ، وهي أن التعفف الأخلاقي ، وكبح الفريضة الجنسية هما خير وسيلة لتحقيق اللامعة المنشودة بين السكان والطعام ، على أساس أنها تؤدي الى قلة النسل ، وبالتالي الى التحكم في سكان المجتمع . وهذا معناه أن الانسان الفرد هو الذي يستطيع في آخر الأمر أن ينجب نفسه والمجتمع الانساني عموما كثيرا من النتائج الضارة التي تنجم عن التزايد السكاني ، وذلك من طريق الامتناع ووضع القيود والضوابط على نشاطه الجنسي الخاص . وإن يتيسر للفرد ذلك الا من طريق التربية والتعليم ، وبالذات تعليم الفقراء وتدريبهم على تأجيل زواجهم الى سن متأخرة ، وعلى العمل على خفض معدلات المواليد بينهم ، لم الاقتصاد في الانفاق ، وتشجيعهم على التوفير ، واستثمار مدخراتهم .

ولقد وجدت آراء مالطوس غير قليل من المعارضة . وليس هنا مجال التعرض للانتقادات الكثيرة التي وجهت اليه من بعض رجال الدين ، ورجال المال ، ورجال الحرب ، ورجال الفكر على السواء . ولكننا نكتفي هنا باعتراض واحد وجهه اليه بعض المفكرين والفلاسفة الاجتماعيين وهو اعتراض لا يزال يجد له صدى عند كثير من الكتاب المحدثين ، ويتردد كثيرا في كتاباتهم من أن للانسان القدرة على اعادة التوازن بين السكان والغذاء من طريق البحث عن المصادر التي لم تكتشف بعد ، وبخاصة في المناطق البكر الشاسعة في افريقيا وأمريكا الجنوبية ، وأنه بناء على ذلك ليس ممكنا يدعو الى تلك النظرة المشائمة التي تميز كتساب مالطوس وتصبح فكره بلون أسود قائم . بل انه ليس ما يدعو الانسان الى أن يفرغ على نفسه وعلى حياته الجنسية تلك القيود التي يوصي بها مالطوس باسم التعفف ، مثل تأخير الزواج على ما فعل هو نفسه . فلو فقدت الأمور والأوضاع الاجتماعية كثيرا منذ هذه ، وأمكن للمرأة بوجه خاص أن تتحكم في النسل برغبتها وأرادتها الحرة ، بعد أن كانت مجرد أداة للحمل والولادة ، وذلك نتيجة

الجماعة التي تعرضت لها البرازيل عام ١٩٦١ وفتكت بمئات الآلاف من البشر . وليس بعيد تلك المجاعة التي حدثت منذ سنوات قليلة في أنحاء واسعة من أفريقيا نتيجة (للمعش) أو عدم سقوط الأمطار وجفاف الأرض وموت الحيوان ، ولا تزال واضحة حتى الآن حيث لازالت تفتك ، رغم كل الجهود المبذولة ، بالآلاف الأرواح التي يصعب تحديد عددها بالضبط نظرا للظروف غير الواضحة التي تعيش فيها أفريقيا ، والتي تمنع من الحصول على أرقام دقيقة من كثير من جوانب الحياة . ومع ذلك فإنه يمكن القول بوجه عام أن أثر المجاعات في تحديد الزيادة السكانية في الوقت الراهن ضئيل ، ولا يكاد يقرن بما كان يحدث في الماضي .

وما يقال من المجاعات يمكن أن يقال من الأمراض والأوبئة . وتاريخ الشعوب مليء بأحداث الأمراض التي كانت تفتك بأعداد كبيرة من سكان العالم . فهناك مثلا وباء الموت الأسود الذي أودى بحياة أكثر من ربع سكان أوروبا في القرن الرابع عشر ، وهناك الطاعون الذي فتك بحياة سكان لندن في عامي ١٦٦٤ و ١٦٦٥ ، وهناك الكوليرا التي انتشرت في نيويورك في أعوام ١٨٣٢ ، ١٨٤٦ ، ١٨٥٤ ، وادت إلى ارتفاع معدلات الوفيات إلى أكثر من ٤٥ في الألف ، ولم يهبط المعدل الاجتماعي للوفيات هناك إلى أقل من ٣٠ في الألف إلا بعد عام ١٨٧٠ (٣) .

والهم هنا إذن هو أن التغلب على المجاعات والأمراض والأوبئة ، وبالتالي القدرة على التحكم في معدلات الوفيات تربط عليها زيادة هائلة في السكان في العالم أجمع ، بما في ذلك

في ذلك العالم المزدهم بالسكان ، ونوع التنظيم الذي يجب أن يسود في المجتمعات الحديثة المزدهمة ، وغير ذلك من المسائل التي تملئها بها الآن الكتابات السوسولوجية والأنثروبولوجية التي تعنى بمشكلات السكان والتنمية فضلا عن كتابات عدد كبير من الديموجرافيين (علماء السكان) .

والمعروف أنه حتى عهد غير بعيد كانت المعدلات المرتفعة للوفيات نتيجة لانتشار الأمراض ونفسي الأوبئة وكثرة تعرض المجتمعات الإنسانية للمجاعات والحروب تعتبر عاملا محددا للخصوبة العالية بين جميع الشعوب بغير استثناء . ولكن التقدم الذي أحرزته الإنسان في الفترة الأخيرة ساعده على التغلب على اثنين من تلك المحددات الطبيعية للزيادة السكانية ، ونسني بهما المرض والمجاعات . وكما يقول فيليب هاوارد (٢) ، قد يكون من الصعب علينا أن نتصور الآن كيف كانت المجاعات تلعب دورا هاما في تحديد الزيادة السكانية . لقد بُدئ العهد بهذه المجاعات في كثير من المجتمعات بعد أن كانت تفتك بأعداد كبيرة من البشر . فآخر مجاعة كبرى حدثت في أوروبا مثلا كانت في أيرلنده عام ١٨٤٦ ، وذلك حين تعرضت لنقص شديد في المواد الغذائية ، واستمر ذلك ست سنوات . وفي روسيا أدت الحروب والأمراض بين عامي ١٩١٤ و ١٩٢٦ إلى ارتفاع حالات الوفاة لحوالي ٢٥ إلى ٣٠ مليون حالة أكثر من العدد الذي كان يتوقع حدوثه في الظروف العادية . ومع ذلك فهناك مجاعات أخرى حدثت في تواريخ أقرب من هذه ، مثل المجاعة التي حدثت في الهند عام ١٩٤٣ ثم في عام ١٩٥١ ، وكذلك

(٢) فيليب هاوارد : الأزمة السكانية ، ترجمة حصاروك وياشد البراوي ، للكتب المصري الاقتصادي

١٩٧٠ صفحات ١٤ - ١٥ والاصل الإنجليزي للكتاب هو :

Philip Hauser ; The Population Dilemma, Prentice - Hall, N.J. 1963

(٣) المرجع السابق ذكره .

القرون لكي يصل الى ذلك الرقم (نصف بليون) وهي فترة طويلة جدا حين تقارنها بالوقت الذي استغرقه الانسان لكي يضيف الى ذلك نصف بليون نسمة اخرى جديدة ، اذ لم يتطلب الامر في الحقيقة اكثر من قرنين فقط ، وهذا يشير الى مدى التسارع الرهيب في الزيادة السكانية خلال فترات اقصر فاقصر من الزمن . والواقع ان كل اضافة جديدة لنصف بليون جديد من البشر بعد ذلك كانت تستغرق فترات اقصر بشكل واضح . فنصف البليون السادس مثلا الذي استكمل به الانسان تعداده الى ثلاثة بلايين لم يتطلب اكثر من مئتي سنوات ، ولو استمرت معدلات النمو السكاني على هذه السرعة نفسها فسوف يستغرق نصف البليون الثامن والذي سيرفع سكان العالم الى اربعة بلايين ، ست أو سبع سنوات على أكثر تقدير (٤) . وهذا هو ما يشير الالهع في نفوس الكثيرين من المفكرين ، وان كان هناك كما ذكرنا من يحاول التهوين من شأن هذا الخطر ويستخف بذلك الالهع على اساس ان مستوى المعيشة والصحة العامة بين شعوب العالم في تحسن مستمر رغم الزيادة العددية ، وأنه ليس من المعقول ان يصغر التقدم العلمي والتكنولوجي من سد حاجات الاعداد الجديدة من البشر الذين يضافون كل يوم الى سكان العالم ان لم يرتفع من مستوى معيشتهم عن المستوى الحالي . ولكن الرأي السائد على العموم هو ان مستقبل الانسان محفوف بكثير من المخاطر ان لم يتدارك الانسان نفسه الامر ، ويتحكم في الزيادة السكانية التي يضيفها هو ذاته الى تعداد العالم . وقد يكفي لتبيين نوع المخاطر

الاجتمعات المتخلفة التي عرفت الخدمات الصحية طرقها إليها أخيراً . وكل هذا كان خليقا بان يدفع الى التفكير في مدى ما يمكن للمجتمع الانساني ككل ، وكل مجتمع على حدة ، ان يتحملة من حيث الزيادة السكانية.

(١)

وتاريخ الزيادة السكانية المطردة في العالم موضوع طريف الى ابعد حدود الطرافة ، وان كان يثير الكثير من القلق حول مستقبل الجنس البشري . والمسروف ان علماء الانثروبولوجيا يختلفون فيما بينهم اختلافا شديدا فيما يتعلق بتحديد بدء ظهور الحياة البشرية على وجه الارض ، بل وايضا حول المقصود بكلمة « البشر » ، ومن هنا تفاوتت تقديراتهم بين ٢.٥.٠٠٠ سنة و ٢.٠.٠٠٠ سنة ، ولو ان الكثيرين منهم يميلون الآن الى القول بانها بدأت قبل هذا بكثير جدا ، معتمدين في ذلك على نتائج الاكتشافات التي يقومون عليها من حين لآخر في مجال البقايا الحجرية . وليس هذا موضوع حديثنا على اي حال ، اما الذي يهمنا هنا فيما يتعلق بالزيادة السكانية هو ان ثمة أدلة كثيرة تشير الى ان الامر احتاج الى عدة آلاف من السنين قبل ان يصل عدد سكان العالم الى ربع بليون نسمة ، وكان ذلك في الاغلب منذ حوالي ٢.٠٠٠ سنة ، ثم استغرق الانسان ستة عشر قرنا لكي يضيف ربع بليون نسمة اخرى الى ذلك العدد بحيث يرتفع تعداد سكان العالم الى نصف بليون نسمة . وهذا معناه ان الجنس البشري احتاج لعدة مئات من

(٤) المرجع السابق ذكره ، صفحة ١٩ ، ٢٠ - انقرا ايضا الاعداد الخاصة من مجلة اليونسكو عن مشكلات السكان والفترة التالية من التمدد ١٥٦ الصادر في يوليو ١٩٧٤ تقريبا من الفصول على هذه الطائفة : « استغرق الانسان على الاقل مليون سنة لكي يصل هذه الى رقم المليون . ولجميع سكان العالم بلغ الى ١٠ ملايين قبل ان تظهر الزيادة المستمرة بها قبل ٨.٠٠٠ عام . وبمجيء التنظيم الاجتماعي الأكثر تعقيدا امكن اعادة اعداد أكبر من السكان وقبل ٢.٠٠٠ سنة تقريبا بلغ سكان العالم ما بين ٢٠٠ و ٤٠٠ مليون نسمة . وقد وصل البشر الى رقم البليون حوالي سنة ١٨٠٠ ، وجاء البليون الثاني بعد ١٢٠ سنة تقريبا . أما البليون الثالث فلم يستغرق مجيئه سوى ٢٠ سنة ، ولن يستغرق مجيء الرابع اكثر من ١٥ سنة » ومجلة اليونسكو عدد ١٥٦ بعنوان (ولما كنا يصبح عددا) صفحة ٦

ان يستوعب خمسين بليون نسمة يعيشون بغير خيوط ، ويحققون كل ما يحتاجون اليه من تقدم ، ويوفرون لانفسهم ما يكفي لاشباع حاجياتهم ومطالبهم المختلفة . ومع ان التقدير الاول يقلب عليه طابع التشاؤم ويفضل امكانيات التقدم العلمي والفني واستخدامها في توفير الطعام فان ذلك لا يعني ان العالم يستطيع ان يستوعب اضافات سكانية جديدة بغير حدود أو قيود . وعلى العموم فان معظم التقديرات في الوقت الحالي تذهب الى ان العالم يمكنه استيعاب ما بين خمسة بلايين وسبعة بلايين نسمة ، وان كان يبدو ان هذا الرقم ذاته سوف يتحطم مع نهاية هذا القرن .

وعلى أية حال فلا بد في أي محاولة لتقدير مدى ما يمكن للعالم ان يستوعبه من سكان ، أو على الاصح تقدير الحد الأقصى للسكان في العالم ، من ان تأخذ في الاعتبار التفاوت بين امكانيات المناطق المختلفة . فالتوزيع السكاني لا يمكن ان يكون متساويا في كل أنحاء العالم نظرا للاختلافات الهائلة بين الموارد الطبيعية من ناحية واختلاف درجة التقدم العلمي والتكنولوجي من ناحية أخرى . ومن الصعب ان نرول هذه الفوارق والاختلافات تماما نظرا للاختبارات السياسية بالذات التي تباعد بين مختلف الشعوب . ومن هنا فان الزيادة السكانية قد تصل الى نقطة الانفجار والخطر في مجتمع معين أو في دولة معينة قبل ان يتأثر العالم ككل بتلك الزيادة أو حتى يشعر بوطائها ويدرك مفزاعها وخطورتها بالنسبة اليه . وعلى الرغم من كل ما يقال من الخطر الذي يتهدد العالم نتيجة لاختلال التوازن بين

التي تهدد الانسان في المستقبل ان تقتبس هذه العبارة من فيليب هاويز الذي يعتبر من أكبر المشتغلين في الوقت الحالي بمشكلات السكان ومستقبل الانسان حيث يقول : - « اذا استمرت الزيادة السكانية على هذا النحو لمدة عشرة أو عشرين عقدا من السنين لوصلت هذه الزيادة الى ما يجعل الكرة الارضية اشبه ما تكون بجبل من النمل .. فالأربعة البلايين من الأشخاص التوقّع وجودهم في عام ١٩٧٥ سوف يصبحون ٣٢ بليوناً بعد قرن واحد ، ويصبحون بعد قرن وربع قرن أي عام ٢٢٠٠ نحو ٥٠٠ بليون نسمة . وإذا وزع هذا العدد توزيعاً متساوياً على سطح البسيطة - بما فيها من صحراوات وجبال وغابات والمناطق القطبية المتجمدة - فان كثافة السكان تكون اقل قليلا من الكثافة في واشنطن عاصمة الولايات المتحدة في سنة ١٩٦٠ (٥) .

ولقد شغل العلماء وبخاصة في السنوات الأخيرة بمحاولة وضع تقديرات للحد الأقصى للسكان الذين يمكن للعالم ان يستوعبهم بحيث يستطيعون الحصول على حاجياتهم بغير مشقة تذكر . وبعض تلك التقديرات متواضع الى حد كبير ، بينما يصل البعض الآخر الى درجة عالية جدا من المبالغة والمغالاة . ففي عام ١٩٤٥ مثلا كان هناك من العلماء من يعتقدون ان العالم لا يستطيع ان يستوعب أكثر من ٢.٨ بليون نسمة . ولكن من الواضح ان سكان العالم في الوقت الحالي - أي بعد ثلاثين سنة من ذلك التقدير - تجاوزوا ذلك الرقم بالفعل . ومن ناحية أخرى نجد عالما مثل هاريسون براون Harrison Brown يذهب في تناوله الى القول بان العالم يمكنه

التجمعات السكانية الهائلة التي تتمثل في المدن الكبرى أو المدن العملاقة والأمصار من ناحية أخرى ، وما يترتب على هائسين الظاهرين المتكاملتين من آثار اجتماعية واقتصادية وظهور تنظيمات جديدة تتلاءم مع هذه الأوضاع الناشئة .

(٢)

منذ حوالي وبسب قرن تقريباً قام عالم البيولوجيا الأمريكي جون أملين John Emlen بتجربة على عدد من الفئران لمعرفة معدلات تولدها ، فوضع خمسة أزواج منها في مخزن يقبوا مستشفى Wisconsin ، وكان يترك لها ٢٥ جراماً من الطعام في كل يوم من الأيام التي استغرقتها التجربة . وتوالدت الفئران في المخزن ، وارتفع عددها بسرعة حتى جاء الوقت الذي أصبحت كمية الطعام المحددة تكفي بالكاد لإطعامها ، وحيث بدأت بعض الفئران تترك المخزن وتنتشر في المبنى كله ، وكانت هذه الهجرة - على ما يقول ديفيد هاي David Hay هي الاستجابة من الفئران لعدم كفاية الطعام المتاحة لها لإطعامها جميعاً (١) .

وهذا الموقف هو الذي نجده بعد ألفه في المجتمعات الإنسانية بل وفي كل المجتمعات الحيوانية ، وهو موقف يعبر عن وجود علاقة قوية بين عدد السكان وكمية الطعام المتوفرة لهم . ولقد ترجم مالتوس هذا الموقف بطريقة الخاصة في قانونه المشهور عن التزايد السكاني وزيادة إنتاج الطعام ، كما أن هذا الموقف هو أحد الأسباب الرئيسية وراء الهجرات والتحركات السكانية في كثير من مناطق

السكان والموارد الطبيعية وبخاصة الطعام فإن التعرض لذلك الخطر يتفاوت من دولة لأخرى ومن شعب لآخر ، كما أن الدول المختلفة أو النامية تتعرض له بشكل أوضح من المجتمعات الراقية المتقدمة .

والى أن يأتي اليوم الذي تتحقق فيه الملازمة بين السكان والموارد الطبيعية في العالم أما من طريق تحكم الإنسان في نسله بحيث تضيق الفجوة الواسعة بين معدلات المواليد والوفيات ، أو من طريق استغلال كل الإمكانيات الطبيعية وبخاصة مصادر الطعام بالذات بحيث توفر للسكان كل احتياجاتهم ، فإن كل الطول الأخرى لا بد أن تكون حلولاً جزئية ومؤقتة ، بمعنى أنها قد تحل المشكلة في مجتمع محلي معين أو في منطقة معينة أو في دولة معينة أو حتى في قطاع معين من السكان لحسب . ولا بد للإنسان أثناء ذلك كله من أن يقبل الحقيقة الواقعة ، وهي أن عليه أن يعيش في مجتمع مزدحم يسكنه بوجه عام ، رغم ما قد يكون هناك من اختلاف في درجة الكثافة السكانية بين مختلف المناطق والمجتمعات بحيث تضيق بعض تلك المجتمعات بسكانها ، بينما تشمر مجتمعات أخرى بأنها في حاجة إلى مزيد من السكان حتى يمكن الاستفادة من الموارد الطبيعية المتاحة بشكل أفضل . ومن هنا كانت المناطق الأقل ازدحاماً والأكثر غنى في مواردها الطبيعية وإمكاناتها الاقتصادية تجلب إليها السكان الذين يريدون من حاجة وإمكانيات المناطق الأكثر قسراً وتخلوا . وقد نجم عن هذه التحركات السكانية ظاهرتان متكاملتان لهما خطرهما في المجتمع الحديث ، وتعني بهما الهجرات الداخلية والخارجية من ناحية ، وظهور

الطول . وكانت بعض هذه الهجرات مسيرة أو ميسورة نتيجة لعدم وجود حواجز طبيعية، ولا امتداد الأرض إلى مسافات واسعة متصلة كما كان الحال في امتداد واتصال أفريقيا وآسيا وأوروبا التي تكون كتلة من اليابسة متصلة ومتماسكة إلى حد كبير ، مما سهّل عملية الانتقال ، بينما كانت هناك صعوبات في الانتشار إلى القارات الأخرى التي يعتقد أنها لم تسكن إلا في فترات حديثة نسبياً من التاريخ البشري ، وإن كانت هذه القارات ذاتها قد أصبحت ملحولة بالسكان في عصر البلايستوسين Pleistocene منذ ما يقرب من ثلاثين ألف سنة تقريباً ، كما هو الحال بالنسبة لأستراليا ، وذلك نظراً لصعوبة عبور المسطحات المائية الواسعة التي تفصل هذه القارة عن آسيا ، وإن كانت مناطق العبور هي بالضرورة تلك التي تقترب فيها القارات بعضها من بعض بحيث تفتيق الفواصل المائية إلى أقل حد ممكن (٧) .

والهم هنا هو أن هذه الحركات الهجيرة التي ساعدت على انتشار الجنس البشري واستيطان الأرض كانت ذوافها بيولوجية إلى حد كبير ، تتمثل في عدم التألم بين عدد السكان وكمية الطعام المتوفر ، وإن كان هذا لا ينفي بطبيعة الحال العوامل الأخرى السيكولوجية والاجتماعية مثل حب الكشف والارتياح والمخاطرة إلا أنه يصعب رد التحركات السكانية الهائلة إلى مثل هذه العوامل وحدها . والواقع أنه على الرغم من أهمية

العالم ، وذلك حين يزداد حجم الجماعة زيادة هائلة بحيث لا تكفيها كميات الطعام ، فيضطر بعض أفرادها إلى النزوح إلى مناطق أخرى جديدة . ولقد أجريت دراسات عديدة على هجرة بعض أنواع الحيوانات ، وانتهت كلها إلى أن تلك التحركات تنجم في الأغلب من زيادة أفراد القطيع للدرجة لا تتناسب مع مساحة المكان الذي تعيش فيه أو قلة كفاية الطعام . وصحيح أن نسبة معينة من الحيوانات المهاجرة تموت أثناء هذه التحركات ولكن يبقى بعد ذلك العدد الملائم في الأغلب ، وبذلك تعتبر هجرات هذه الحيوانات أو الأنواع والفصائل الحيوانية بمثابة وسيلة لتخفيض حجمها - أي تقليل الكثافة السكانية - إلى الحد الذي يتناسب مع مقدار الطعام أو سعة المكان . وكما هو الحال بالنسبة للهجرات البشرية ، فإن (رواد) هذه التحركات والهجرات (هم) في العادة الأفراد الأصغر في السن والأقدر على الحركة والمغامرة وحب الارتياح ، ويكونون بذلك أهم العوامل التي تؤدي إلى انتشار أفراد النوع خارج الموطن الأصلي .

والسائد لدى عدد كبير من علماء الانثروبولوجيا أن الجنس البشري نفسه كان قد نشأ في موطن واحد محدد هو في الأغلب أفريقيا ، وأن كانت هناك نظريات كثيرة متعددة لا داعي للدخول في تفاصيلها ، ثم انتشر الجنس البشري من هذا الوطن الأول إلى بقية أنحاء العالم خلال التاريخ البشري

(٧) ويدعو أن وصول الإنسان إلى أمريكا كان في عصر البلايستوسين أيضاً وحوالي هذا الترخيف ذاته وإن كان البعض يزعم أنه لا يرجع إلى أبعد من مئتين ألف سنة ، والمعروف أن للهند العصر ملاحج مثقولة . والسائد أن الإنسان هجر آسيا إلى أمريكا من طريق ما يعرف الآن باسم مضيق بيرنج Behring Strait من سيبيريا إلى ألاسكا حيث كانت مياه المحيط متجمدة ، وبذلك تمكن له العبور والانتقال ثم استيطان أمريكا والانتشار فيها - انظر المرجع نفسه ، صفحة ٢٨ .

المواصلات . ومن هنا لم يكن امام تلك الجموع الا ان تهاجر الى ارض جديدة ، حيث كانت تتوقع ان تجد مصادر جديدة للعمل والرزق والكسب والدخل الوفير .

لكان حجم الهجرات السكانية يرتبط ارتباطا وثيقا بالظروف والأوضاع الاقتصادية وهذا يصدق على الهجرات الخارجية الى حد كبير . فالهجرات الى أمريكا مثلاً تزداد في اوقات الانتعاش الاقتصادي هناك ، كما ان الهجرات من العالم العربي وبخاصة من بلد مثل مصر في السنوات الاخيرة ارتبط ارتباطا قويا بالأحوال الاقتصادية السيئة هناك مع الانتعاش الاقتصادي في بعض البلاد العربية نتيجة للكشف عن البترول وما ارتبط بذلك من تقدم عمراني كبير في تلك البلاد .

وعلى الرغم من أهمية هذه **الهجرات الخارجية** فهي ليست الشكل الوحيد للتحركات السكانية ، اذ هناك **الهجرات الداخلية** التي قد لا تكون على مثل هذه الدرجة من الوضوح ولكنها تلعب مع ذلك دورا هاما في حياة المجتمعات . وتتميز هذه الهجرات الداخلية - أو تحركات السكان من مكان لآخر داخل الوطن الواحد - بقصر المسافات التي يقطعها المهاجرون ، كما انها تتجه في معظم المجتمعات الى مناطق ووجهات معينة بالبلد ، فهي تتجه في بريطانيا مثلا في الاغلب نحو الطرف الجنوبي الشرقي ، وفي مصر من الجنوب الى الشمال ، وفي ألمانيا من الشرق الى الغرب ، وفي إيطاليا من الجنوب الى الشمال ايضا ، وهكذا . وعلى العموم فان هذه التحركات السكانية الداخلية تخرج من المناطق الأكثر فقرا وتضخا الى المناطق الأكثر غنى وتقدما والتي توفر مجالات أوسع للعمل والكسب . ومن هنا كانت معظم الهجرات الداخلية من المناطق

هذه العوامل البيولوجية فانها لم تعد هي العوامل التحكّمة الوحيدة في هجرات السكان في العصر الحديث ، على الأقل بشكل مباشر . ذلك ان التقدم التكنولوجي في الوقت الحاضر يعفى الناس من كثير من المتطلبات أو الضغوط البيولوجية ، بحيث تكاد الهجرات البشرية الآن تكون نتيجة لأسباب اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية أو ثقافية أكثر مما يمكن ردها للأسباب البيولوجية التقليدية ، وإن كان هذا لا يمنع من وجود قيود بيولوجية على البيئة البشرية ، فزخم التقدم التكنولوجي لا يمكن للإنسان مثلاً ان يعيش باستمرار وبطريقة مريحة في أجواء شديدة الحرارة أو قارسة البرد أو فقيرة في تربتها بحيث لا تنتج الطعام الكافي وما الى ذلك .

ولقد شهد العصر الحديث كثيراً من الهجرات السكانية ، الا ان أكبر هجرة من هذا النوع هي في الاغلب هجرة الأعداد الكبيرة من الأوروبيين في القرن التاسع عشر الى أمريكا . وهي تعتبر أكبر هجرة في التاريخ البشري بأسره ، اذ يقدر عدد من شملتهم هذه الهجرة الواسعة بحوالى سبعين مليون نسمة استقروا في الاغلب في أمريكا وأستراليا وجنوب أفريقيا . وقبل ذلك التاريخ كان معظم الذين يهاجرون هم من الرواد والمغامرين ، فضلاً عن اللاجئين السياسيين أو الهاربين من الاضطهاد الديني أو حتى من المجرمين المبرورين أو المنفيين من بلادهم . ولما أسباب كثيرة لتلك الهجرات السكانية الجماعية الهائلة التي شهدتها أوروبا في القرن الماضي ، وهي أسباب معظمها اقتصادي يتمثل في قلة مساحة الأرض بالنسبة للنمو السكاني ، ثم ما نجم من التطور الصناعي من هبوط وانخفاض في الأجور بعد اعتماد الصناعة على الآلات ، وزيادة البطالة الى جانب تحسن

الحياة في عالم مدمر بالسكان

الطاردة للسكان والتي يتميز نمط الحياة فيها بالركود الى حد كبير نتيجة لظروفها واوضاعها الاجتماعية والاقتصادية .

وربما كان اهم هذه التغيرات في نمط التركيب السكاني هو زيادة نسبة الذكور عن الانثى في المجتمعات التي تستقبل المهاجرين، وذلك نظرا لان المهاجرين عموما ، سواء في الهجرة الداخلية أو الهجرة الخارجية ، هم في الغالب من الرجال الذين يسبقون عائلاتهم الى مقر الإقامة الجديد للكشف عن الأوضاع الجديدة حتى يوفروا لمن يعولونهم سبل العيش . ويتمثل هذا بوضوح في المجتمعات النامية التي لم تحتل فيها المرأة بعد نفس المركز الذي يحتله الرجل ، أو على الأقل حيث لا تمارس المرأة كل الاعمال وأوجه النشاط التي يمارسها الرجل . كذلك يمثل هذا التغير في نمط التركيب السكاني التقليدي ثانيا في ازدياد المزاج من المتزوجين زيادة كبيرة في المجتمعات الجاذبة ، نظرا لان الرجل غير المتزوج يكون في العادة أقدر على الحركة والهجرة والانتقال من الرجل الذي يرتبط بعائلة ويكون مسئولاً عنها . وأخيرا تتمثل هذه التغيرات في ازدياد عدد الشبان وبالتالي اختلال الهرم السكاني ، الطبيعي أو المألوف الذي نجده في المجتمعات

الريفية المتخلفة الى المراكز الحضرية والصناعية، الى حيث تتوفر مشروعات التنمية الزراعية التي تجلب اليها بعض الأيدي العاملة في الزراعة . والنمط السائد على أي حال هو اتجاه الأيدي العاملة الى المناطق الصناعية المتقدمة المقعدة مما يترتب عليه اتساع المدن الصناعية ونموها وامتدادها ، وزيادة تمعد الحياة الاجتماعية والاقتصادية فيها بشكل غير مألوف ، وهذا يؤدي بدوره الى ظهور ما يعرف باسم المدن العملاقة . (٨)



وليس ثمة شك في أن لهذه الهجرات الواسعة أثرا كبيرا واضعاه على التركيب السكاني في البلد الطارد للسكان ، أي الذي تخرج منه هذه الهجرات ، وكذلك الذي يستقبل هذه الجماعات الوالدة أي المنطقة الجاذبة للسكان وهذه تأثيرات معروفة ، وقد كتب عنها الكثير في كتب الاجتماع والأنثروبولوجيا والاقتصاد ، ولذا فليس ثمة ما يدعو الى التعرض لها هنا بالتفصيل ، وإن كان يمكن مع ذلك الإشارة بسرعة وبوجه عام الى هذه التأثيرات وبخاصة على النمط السكاني التقليدي في المجتمعات الجاذبة للسكان ، لأنها هي في الغالب المناطق التي تتعرض للتغير بدرجة أكبر من المجتمعات

(٨) ولكن على الرغم من كل ما يقال عن التغيرات السكانية وسهولتها وكثرتها نتيجة لسهولة الحركة والانتقال ولتقدم وسائل التواصل ، فلا يزال الجانب الأكبر من الأفراس ماعول أو مسكون ، كما لا تزال هناك مساحات كبيرة يسكنها أعداد قليلة من السكان الذين يتناوون فيها في شكل تجمعات متفرقة صغيرة ، ولا تزال المناطق القبلية السكان أو الرحمة بالسكان مناطق قليلة مبدودة نسبيا . ويميز علماء الديموجرافيا والأنثروبولوجيا بين أربع مناطق رئيسية للكثافة السكانية العالية في العالم هي الشرق الآسيوي والهندوآفريقيا وشمال شرق أمريكا ، وذلك فضلا عن عدد من المراكز السكانية الأصغر في المساحة مثل حوض النيل والساحل الباسيفيكي لأمريكا الشمالية ، كذلك رغم كل ما يقال عن تحركات السكان من المناطق الأكثر كثافة الى المناطق الأقل كثافة فإن ذلك لا يصدق في كل الأحوال .

فلقد كان وادي النيل دائما كثيف السكان ومع ذلك فإن التحركات السكانية منه الى المناطق الجاذبة الأقل كثافة كانت قليلة دائما أو حتى معدومة . ومن هنا فإن العلماء يفسلون الآن الكلام عن التحركات السكانية من المناطق التي لا تتميز إلا فرصا وامكانيات أكبر وأشمل وأكثر تنوعا ... كانت مصر مثلا في وقت من الأوقات تستقبل مهاجرين من الدول الغربية فلا بالمس هو الذي يهبط الآن ، وتقوم بتصدير عدد كبير من السكان الفقراء من حاجتها الى البلاد التي كانت ظفيرة أو معدمة قبل أن يدهش الاقتصاد بأنها ظهور التلطف وتنمو وتصبح مناطق جذب سكاني . ولكن هذا أيضا يدخل فيه كثير من الاتجاهات البيولوجية والجغرافية كالتناوب ونوع الأرض والتربة . انظر نفس المرجع السابق ، صحتها ٢٣ وما بعدها .

كلها امور معروفة ، ولكن قد يحسن أن نضرب هنا مثالا من أحد المجتمعات النامية التي تعرض أخيرا لبعض حركات الإنعاش الاقتصادي الذي تمثل في محاولة التصنيع ، وما ارتبط بهذا من تحركات سكانية وهجرات أدت الى ظهور كل هذه المشكلات الاجتماعية .



والمثال الذي نضربه مستمد من افريقيا ومن يوغندا بالذات ، وتقتصد بذلك ظهور مدينة چنچا كمركز للتصنيع والجذب السكاني

ويرجع اكتشاف چنچا كقرية زراعية صغيرة جدا الى عام ١٨٦٢ على يدى الرحالة البريطانى الشهير سيك Speko الذى يعتبر من أوائل مكتشفى منابع النيل . ولم تكن چنچا تلعب أى دور واضح فى اقتصاديات يوغندا فى ذلك الحين ، ولكنها لم تلبث أن تحولت فى بداية هذا القرن (١٩٠٠ - ١٩٠١) الى مركز ادارى صغير لاحتدى المقاطعات ، وذلك نظرا لموقعها الاستراتيجى الممتاز ، وظلت كذلك حتى الاربعينات من هذا القرن حين فكرت حكومة يوغندا بالاتفاق مع الحكومة المصرية فى تنفيذ بعض مشروعات الرى فى تلك المنطقة . وقد قام مهندسو الرى المصرى بوضع الخطة لذلك المشروع الذى بدأ تنفيذه عام ١٩٤٨ . ولم يلبث المشروع أن تطور من مجرد مشروع للرى الى مشروع لاستغلال مساقط المياه المعروفة باسم مساقط اوين Owen Falls فى توليد الكهرباء ، وبالتالي استخدام الكهرباء فى تشغيل المصانع وادخال بعض الصناعات ، وبذلك تحولت چنچا من قرية صغيرة أو مركز ادارى مقصور الى مدينة صناعية من أهم المدن الصناعية فى شرق افريقيا ، بحيث أصبحت من حيث النمو الاقتصادى اكبر مدينة بعد كمبالا Kampala العاصمة . وقد انتهى المشروع عام ١٩٥٤ حين انطلقت أول شرارة كهربائية مؤذنة بالتغير الاقتصادى الهام وبكل

السوية أو التي لا تتعرض لكل هذه الموجات السكانية الصادرة منها أو الوافدة اليها .

ولمست المسألة مجرد مسألة تغيرات فى نمط التركيب السكانى من حيث النوع أو العدد لحسب ، بل المهم هنا هو التغيرات التي تطرأ على نمط الحياة الاجتماعية المألوفة ، وبخاصة على العادات والتقاليد المتوارثة وظهر ظواهر اجتماعية جديدة قد تعتبر شاذة أو غير سوية سواء فى الجانب الاجتماعى أو الاقتصادى . اذ ليس من شك فى أن ازدياد حركات الوافدين الى منطقة من المناطق سوف يؤدي فى آخر الامر ، ان لم توضع قيود على هذه الحركات ، الى زيادة الايدى العاملة فى المجتمع الجديد من حاجة العمل ، مما يترتب عليه انخفاض الأجور أو حتى ظهور البطالة ، على الأقل بين فئات معينة من الوافدين ، وبخاصة غير المهرة . فان المسألة هنا هى مسألة التناسب بين وفرة الايدى العاملة وفرص العمل المتوفرة ، بحيث نجد أنه فى بعض الاحيان حين تختل هذه النسبة تبدأ بعض الحركات الهجرة تخرج من هذا البلد الجاذب للسكان الى مناطق أخرى جديدة وهكذا . وقد يصل الامر الى الحد الذى يعتبر فيه هذا البلد الجاذب للسكان مكتظا هو أيضا ، أى انه أخذ يعاني من مشكلة الاحتفاظ السكاني أو الازدحام الذى كانت تعاني منه المجتمعات الطاردة ، وبخاصة اذا استقبل هذا البلد أعدادا كبيرة من الوافدين فى فترة قصيرة لا تسمح له باستيعابهم وتقبلهم وتمثلهم فى حياته ، وما ينجم من هذا كله من مشكلات فى المواضلات والاسكان وغير ذلك ، وما يرتبط بهذا من مشكلات اجتماعية أخرى تتمثل فى سرعة انتشار الأمراض ونفسي الجيرالم وانتشار العلاقات الجنسية والدعارة والأمراض التناسلية ، بل وتعاطى المخدرات والادمان على الضمور وهى كلها مشكلات اجتماعية تعاني منها المجتمعات الجاذبة للسكان بغير تفرقة مع بعض الاختلافات فى الدرجة . وهذه

الراكدة التقليدية . ولعل هذا يمثل أهم تغير في التركيب السكاني نتيجة لتلك الهجرات الداخلية والخارجية التي تنشأ عن النمو الاقتصادي ، وتلازم ظهور فرص جديدة للعمل والكسب ومصادر جديدة للثروة .

ولقد كان من الطبيعي ومن المنطقي أن يلازم هذه الهجرات هدم من المشكلات الهامة في كل مجالات الحياة ... فهناك أولا المشكلات العنصرية والسلالية الناجمة عن تعدد الانتماءات العرقية والسلالية والقبلية وما يرتبط بذلك من تلويح اجتماعي في هذا المجتمع الصغير . ويتمثل هذا في شعور السلالات الأوروبية البيضاء بامتيازها واستعلائها على السلالات الآسيوية التي تشعر بضعفها وتغلبها أمام تلك العناصر البيضاء من ناحية ، وتميزها واستعلائها من الناحية الأخرى على الأفريقيين والرتوج . ومن الطريف أن نجد مثل هذا التدرج الطبيعي والاجتماعي بين الأفراد الذين ينتمون إلى القبائل الأفريقية المختلفة ذاتها ، وأن كان الأفريقيون جميعا ينظرون إلى غير الأفريقيين من العناصر الأوروبية والآسيوية الأخرى على أنهم دخلاء عليهم وعلى المجتمع الأفريقي ، وأنهم يقتصبون حقوق أبناء البلد الأصليين في العمل . وهناك ثانيا المشكلات اللغوية الناجمة ليس فقط من اختلاف اللغات الأوروبية والأفريقية والآسيوية بل وأيضا من تعدد اللغات الأفريقية ذاتها . فال معروف أن لكل مجموعة من القبائل الأفريقية لغتها الخاصة التي لا تشارك أفراد المجموعة ... ثم هناك ثالثا المشكلات الإدارية التي تتمثل في التنافس بين الأوروبيين بعضهم وبعض على المراكز الإدارية الكبرى ، خاصة وأن هذه المنطقة كانت من الناحية التقليدية التاريخية منطقة نفوذ بريطاني ، ولكن حركات التحرر والاستقلال جعلت اليوغنديين يشجعون هجرة العناصر الأوروبية الأخرى ، مما نجم عنه نشوب حزازات شديدة بين الانجليز من ناحية وبقية الجنسيات الأوروبية من ناحية أخرى .

ما ترتب عليه من تغيرات اجتماعية .. ففي ذلك العام (١٩٥٤) تم توليد حوالي ١٢٠ ألف كيلووات / ساعة من الكهرباء يمكن زيادتها إلى ١٥٠ ألف كيلو وات / ساعة ، وهو مقدار من الكهرباء يكفي ليس فقط لتشغيل مصانع جنجا أو حتى انارة يوغندا كلها فحسب بل وأيضا تزويد كينيا بمقادير كبيرة جدا من الكهرباء . وقد تم الاتفاق حينذاك بالفصل على أن يتم تزويد كينيا بهذا القدر من الكهرباء لمدة خمسين عاما تبدأ من عام ١٩٥٥ ، وذلك فضلا عن إقامة عدد كبير من المصانع في جنجا ذاتها وفي المناطق المحيطة بها . وإنشئت عدة مصانع للنسوجات القطنية والأسمنت ومصانع قطع الخشب وتكرير السكر والسجائر والبيرة وكلها تستخدم الكهرباء في إدارة الآلات ، إلى جانب إنشاء عدد كبير جدا من المصانع المحلية الصغيرة أو الورش . ومن هذه الناحية التكنولوجية البحتة يمكن اعتبار جنجا نموذجا لمجتمع أوروي صناعي في وسط تقليدي متخلف .

والذي يهمني هنا هو أن هذا التحول إلى الصناعة جعل من جنجا مركز جذب للسكان ، ومجتمعاً مقبلاً إلى أبعد حدود التعقيد ، بحيث نجد أن السكان فيها في الوقت الحالي يتألفون من بعض العناصر الوطنية مع عناصر أخرى وافدة ، بعضها آسيوي وبالذات من الهند وباكستان ، وبعض العمال العرب من حضرموت وعدن ، بالإضافة إلى بعض العناصر الأوروبية التي تعمل كموظفين وإداريين ومهندسين . وأهم هذه العناصر الأوروبية هم الانجليز والابيطاليون والدينماركيون على التوالي .. والأكثر من ذلك أن العنصر الوطني في جنجا يضم ممثلين من كل قبائل يوغندا الثمانية فضلا عن عدد من الأفراد من كثير من القبائل الأخرى من شرق أفريقيا . وهذا كله يوضح لنا كيف أن مناطق الجذب السكاني تتميز في الأغلب بالاعتد العرقي أو العنصري ethnic الذي تفتقر إليه المناطق المتخلفة

هذا المجتمع يتغير من المجتمعات الشابة التي تضم نسبة عالية جدا (٦٠ ٪ من السكان) من الأيدي العاملة التي تقوم فعلا بالإنتاج (١٠) .

(ج) أن ٥٠ ٪ من السكان من الذكور غير المتزوجين .

(د) أن ٥٠ ٪ من المتزوجين النازحين لم يأتوا بزوجاتهم معهم .

(هـ) أن نسبة كبيرة جدا من النساء المقيمت داخل المدينة ذاتها، وبخاصة المتزوجات يمارسن بعض الأعمال في المصانع والورش ، وفي ذلك خروج على النمط التقليدي السائد في المجتمعات الإفريقية . إذ المعروف أن عمل المرأة الرئيسي في هذه المنطقة هو الزراعة بينما يقوم الرجل بالري فضلا عن جميع الأعمال غير المتعلقة بالزراعة والتي تعتبر معروفة تماما على المرأة . ولكن في جنجا نجد أن الصناعة وبخاصة التي لا تحتاج إلى مهارات خاصة أو كفاءات معينة ، تقوم بها المرأة ، وبذلك فإن المرأة تسهم اسهاما فعالا في النشاط الاقتصادي وقد توجب على ذلك دخولها إلى المجال السياسي حيث نجدها أصبحت عضوا في الأحزاب السياسية الوطنية هناك ، وأن لم يكن لها في ذلك الحين حق الانتخاب والتصويت .

ويكفي هذا القدر من المعلومات عن جنجا ، وهو قدر يكفي لاقناع الضوء على المشكلة السكانية والاجتماعية التي تنجم من الهجرة السكانية من المناطق الفقيرة إلى المناطق الأكثر غنى والتي توفر للسكان إمكانيات كثيرة ومتنوعة

انما الذي يهمنا حقا هنا فهو التغيرات التي طرأت على النمط السكاني في جنجا نتيجة لذلك ، وربما يمكن الاستدلال على هذه التغيرات من بعض الأرقام المتاحة ، رغم أنها أرقام قديمة بعض الشيء (٩) .

وتتمثل هذه التغيرات في النمط السكاني من ناحية في أنه ما بين عام ١٩٣٤ وعام ١٩٥٤ الذي تم فيه المشروع ، أي في مدى عشرين سنة ، ارتفع عدد السكان من ٥٠٠٠ نسمة إلى حوالي ٨٥٠٠ نسمة ، ولم يلبث ذلك العدد أن ارتفع عام ١٩٦٢ ، أي خلال ثمانية أعوام فقط إلى ثلاثين ألف نسمة ، أي أن عدد السكان تضاعف حوالي أربع مرات خلال ثماني سنوات . وليس من شك في أن هذه الزيادة لا يمكن أن تكون نتيجة للزيادة الطبيعية الناجمة من التناسل والولادة ، وإنما هي زيادة في السكان نتيجة للهجرة .

كذلك حدثت تغيرات هائلة في البناء العمرى والجنسى للسكان ، ويمكن أن نجعل هذه التغيرات فيما يلي :

(١) أن ٧ من كل ١٠ من السكان كانوا من الذكور (أي أن ٧٠ ٪ من السكان كانوا ذكورا وهذا يبين مدى الاختلال بين الجنسين عن النسب المألوفة في المجتمعات في حالتها السوية) .

(ب) أن ٦ من كل ١٠ من السكان كان عمرهم يتراوح بين ٢٠ ، ٤٥ سنة ، وهذه هي سن القدرة على العمل . ومعنى ذلك أن

(٩) تعتمد هنا في الملل الأول على الدراسة المحلية التي قمنا بها عام ١٩٦٢ والتي جملنا خلالها بعض المعلومات الإثنوجرافية ، وذلك فضلا عن بعض المقالات والكتابات المتوفرة لدينا .

(١٠) الواقع أن كل الأرقام تشير إلى أن كل الذكور البالغين كانوا يشتغلون بالزراعة في بعض الأصقال ، سواء في مجال الصناعة أو الزراعة وأن كانت غالبيتهم تشتغل في الصناعة . (المصانع أو الورش) ، كما أن النساء الموجودات في المنطقة كان هن الأقرب (أزواج أو أبناء أو أبنات) وأن كان هذا لا يمنع من وجود نسبة معينة من نساء المنطقة وليس من المدينة ذاتها وأغلب بدون مال ، ولذا كن يمارسن بعض الأصقال والهن ، ويقوم هؤلاء النساء في العادة على أطراف المدينة وليس داخلها نظرا لشدة التحم الذي يمارسه السكان .

ولقد حاول علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا تحديد المحركات التي يقيسون بها الحياة الحضرية واختلفوا فيما بينهم في ذلك اختلافا كبيرا ، ولكنهم يكادون يتفقون مع ذلك ، مع لويس ويرث Louis Wirth في الأخذ بثلاثة محركات رئيسية هي حجم السكان ، وكثافة السكان ، والتغاير أو الاتجانس في التركيب السكاني ... وقد كان معظم الاختلاف يبدو بالذات حول حجم السكان أو على الأصح العدد الذي حين يتوفى في أى مجتمع محلي يكون ذلك المجتمع قد غطى الشكل القروى أو الريفي إلى الشكل الحضرى .

وبينما نجد بعض علماء الاجتماع مثلا يعتبرون عشرين ألفا هي الحد الفاصل بين نومي المجتمع يرتفع البعض الآخر في تقديراتهم إلى خمسين ألف نسمة أو حتى إلى أكثر من ذلك . والواقع أن هذا التقدير لا يصدق على كل التجمعات البشرية في المجتمعات المتخلفة أو النامية حيث قد يصل بعض هذه التجمعات إلى عدة ملايين دون أن تنطبق كلمة (مدينة) بالمعنى الحقيقي الدقيق عليها . ولأزال عدد كبير من علماء الاجتماع الحضري في القرب مثلا يتشككون فيما إذا كانت (مدن) مثل بغداد أو دمشق تؤلف معنا بالمعنى الحقيقي للكلمة . بل إن هناك من هؤلاء ينطعم من يرون أن كلمة (مدينة) لا تصلح إلا على القاهرة وحدها دون غيرها من (مدن) العالم العربي أو حتى (مدن) الشرق الأوسط .

فمسألة حجم السكان إذن مسألة نسبية إلى حد كبير . وهذه النسبية ذاتها تنطبق على المحك الثاني وهو كثافة السكان . فنجسم السكان أى عدد السكان في المجتمع - لا يصلح مهما كبر أن يكون وحده أساسا لتكوين مجتمع حضري إذا كانت كثافة السكان (أى عدد الأفراد في الكيلومتر المربع مثلا) ضئيلة ، كما

للمعمل ... وواضح من ذلك أن هذا الحراك السكاني ترتب عليه كثير من المشكلات الناجمة من تعدد الانتماءات والثقافات والمستويات الاجتماعية ، وهي كلها من المايير التي ترتبط بالمجتمع المعقد أو الأكثر تعقيدا وتركيبا بينما تختفى من المجتمعات التقليدية المتجانسة الصغيرة المساحة والقليلة العدد .

- ٣ -

وواضح من هذا إلى أى حد يؤدي التحرك السكاني إلى ظهور المراكز الحضرية وبخاصة حين يكون هذا الحراك الأفقي مرتبطا بظهور مشروعات للتنمية الصناعية ، وشاة مراكز صناعية أو مراكز التعدين تجلب إليها الأيدي العاملة من المناطق الفقيرة . والواقع أنه حتى للهجرات الداخلية من المناطق الريفية إلى المناطق الحضرية وشبه الحضرية أثرا كبيرا جدا في اتساع مدى التحضر ، وظهور ليس فقط مدن جديدة بل وأيضا تضخم حجم المدن الموجودة ولتقعد الحياة فيها . والسائد في الكتابات الأنثروبولوجية والسوسولوجية أن القرن العشرين ، وبالأدات النصف الثاني منه ، يعتبر عصر ثورة حضرية جديدة ، ليس فقط بالنسبة للمجتمعات النامية بل وأيضا بالنسبة للمجتمعات المتقدمة ذاتها لدرجة أن هناك من العلماء من يصفون القرن الحادى والعشرين بأنه سوف يصبح يعق عصر المدن الكبرى ، بعكس الحال بالنسبة للقرون الماضية التي تعتبر عصر المجتمعات الريفية أو عصر المدن الصغيرة التي يتصدى تعدادها مئات الآلاف ، أو على أقصى تقدير بضعة ملايين قليلة من السكان . وهذا معناه ببساطة أن « ظاهرة المدن » هي ظاهرة سكانية إلى حد كبير من حيث ارتباط التحضر ، على الأقل في المجتمعات المتقدمة ، بكم حجم السكان وتعتمد الحياة الاجتماعية والاقتصادية وكذلك إلى الحد الذى يمدد فيه هذه المدن بوجودها إلى الهجرة من الريف إلى المناطق التي تتوفر فيها فرص العمل .

دمرت ، واستمدى ذلك التساؤل من جدوى إقامة مدن جديدة مكان تلك التي تم تدميرها ، وأهم الشروط البيئية التي يجب أن تتوفر في إقامة هذه المدن الجديدة .

كذلك دفع الى ذلك الاهتمام بالايكولوجيا محاولة ادخال مشروعات التصنيع في المجتمعات المتخلفة والتنمية وبخاصة في أفريقيا حيث كان يتم على اصحاب رؤوس الاموال ان يختاروا انسب المواقع لإقامة مراكز الصناعة التي تتوفر فيها شروط النجاح يؤكد .

ب - الناحية التنظيمية Organizational
وليس المقصود بذلك التنظيم المادى المتعلق بتخطيط المدينة أو أنواع المساكن والمباني أو المرافق والخدمات ، وإنما المقصود هو الحياة الاجتماعية في تشابكها ومقدورها والملاقات الإنسانية التي توجد في المدينة سواء كانت هذه المدينة هي المدينة الناشئة نتيجة لتنفيذ مشروعات التصنيع أو التهجير أو المدينة المملقة *Megalopolis* ، وما يترتب على ذلك كله من ظهور مشكلات خاصة بالصراع والتنافس أو التعاون بين الجماعات المختلفة التي تقم فيها .

ج - الناحية السيكولوجية الاجتماعية Psycho-social
: التي تسود في المدن الحديثة الناشئة ، وبالتالي اهم ملامح شخصية سكان المدينة وما يتعرض له المهاجر الجديد من شعور بالضياع والوحدة والعزلة

هو الحال حين ينتشر السكان في مساحات شاسعة جدا من الأرض . ومن هنا كان **المحك الثالث** ، وهو عنصر التفاير أو اللابجائس ، يعتبر في نظر غالبية هؤلاء العلماء أهم هذه المحكات في قياس درجة التحضر . والمقصود بالتفاير هنا أو عدم التجانس هو الاختلاف أو التباين الشديد في المستويات الاجتماعية والاقتصادية وفي التخصص وفي الانتماءات السياسية والحزبية وامتتاق الايديولوجيات المختلفة . (١١)

ومهما يكن من شيء فان العلماء الذين يهتمون بمشكلات السكان وتزايدهم وظهور المدن وكبر حجمها ونموها وبخاصة في العالم الثالث يهتمون في دراساتهم بثلاثة موضوعات أساسية تتمسك كلها بالضرورة في المدن الناشئة التي ظهرت نتيجة لمشروعات التنمية ، وهذه الموضوعات هي :

١ - الناحية الإيكولوجية Ecological :
والمقصود بها اختيار الموقع الذي تنشأ فيه المدن وأنواع النشاط الاقتصادي والاجتماعي الذي يرتبط بكل مدينة منها ، بحيث يعتمد هذا النشاط على الموارد الطبيعية المتوفرة في ذلك الموقع المحدد .

وقد كان الدافع الرئيسي للاهتمام بالايكولوجيا المتمدن هو ما نجم من تخريب في المدن الأوروبية بعد الحرب العالمية الثانية ، والرقبة في انشاء مدن أخرى في المناطق التي

Wirth, L., „Urbanization as a Way of Life“

(١١) راجع مقال : -

وهو يعتبر المثال الرئيسي الذي اطلق كثيرا من النماذج والآراء حول ظاهرة التحضر .

راجع ايضا المثال الذي كتبه الاستاذ بارك Park بعنوان « المدينة كمعمل اجتماعي

“The City as Social Laboratory”

حيث يبين لنا فيه كيف ان الباحث الاجتماعي يستطيع ان ينظر الى المدينة بنفس النظرة التي ينظر بها عالم الفيزياء الى العمل الذي يعمل فيه بحيث يلاحظ اختلافات العناصر البشرية والتفاعل بين هذه العناصر العظيمة وما ينتج عن هذا التفاعل من ظهورهم لهم اجتماعية مختلفة ومتباينة .

توفرها في مدينة المستقبل ، والتي يمكن لتخصيصها فيما يلي : -

أولاً : أن المدينة المملقة ليست « مدينة »
بالمعنى الدقيق للكلمة ، وإنما هي عبارة عن إقليم متسع يضم عدداً من المدن الصغيرة الموجودة الآن بالفعل والتي تعتبر كل منها بمثابة مركز حضري يدور حوله عدد من التجمعات الريفية أو شبه الحضرية التي تدمر باحتياجاته من الطعام إلى السلع الصنعة ، مقابل ما يقدمه هو إليها من مختلف الخدمات . وهذا الوضع السائد الآن في المدينة المملقة الأمريكية يعتبر نقطة الانطلاق نحو تخطيط المدينة المملقة للمستقبل . والحروف أن المدينة التقليدية كانت تنجح في نموها من المركز نحو الأطراف في كل الاتجاهات بحيث يظل لتلك المدينة مركز واحد ثابت مهما اتسع نطاقها ، أما المدينة المملقة فإنها تنمو - أن صحت هذه التسمية - وتمتد في اتجاه واحد فقط بحيث تظهر مراكز حضرية عديدة يقوم كل منها بخدمة المناطق التي تقوم حولها ، وبحيث تبدو المناطق الريفية وشبه الحضرية كما لو كانت فروعاً تفصل بين المراكز الحضرية والصناعية المتناوبة .

ثانياً : الخاصية الثانية خاصة سكانية
تتمثل في تزايد عدد السكان في تلك المدينة المملقة زيادة تفوق كل ما عرف حتى الآن في المدن الكبرى ، مما يترتب عليه ظهور كثير من ملامح التغيرات السكانية سواء في الثقافات أو السلالات أو الأصول الأولى على ما هو حادث الآن في المدينة المملقة الأمريكية . فالمدينة المملقة تجلب إليها في العادة عدة ملايين من البشر وليس مجرد بضعة آلاف من الناس ، كما هو الحال الآن في المراكز الصناعية الجديدة . ومع أن علماء السكان والاجتماع والانثروبولوجيا والتخطيط ينظرون إلى ذلك بكثير من الخوف والارتباك ، إلا أن هذه الزيادة السكانية الهائلة في المدينة

حين يأتى لأول مرة إلى المدينة . ويظهر هذا بنوع خاص في انفصال العمال الوافدين من المناطق الداخلية والقبلية إلى المدن الحديثة وانفصالهم عن مجتمعاتهم الأصلية . كما تتمثل في شعور الرجل الأمريكي بالضياع في المدن الأمريكية الكبرى وهو الموضوع الذي عالجه بدقة ويومان في كتابه *The Lonely Crowd* .

وتعتبر مشكلة نمو المدن الآن من أهم المشاكل التي تقابل علماء التخطيط في البلاد النامية والمتقدمة على السواء ، بمعنى أن كل التجمعات تصان الآن معاملة شديدة من المشكلات الناجمة عن الاتجاه نحو زيادة معدلات التحضر . ولكن طبيعة هذه المشكلات تختلف في التجمعات المتقدمة منها فهي التجمعات النامية أو المملقة . والملاحظ على العموم أنه قد بدأ في العالم التقدم بالذات اتجاه نحو خلق وإيجاد طراز جديد من المدن يسود الاعتقاد أنه سوف يكون النموذج لما يجب أن تكون عليه مدينة المستقبل ، وأن ذلك النموذج سوف يعم جميع أنحاء العالم نتيجة للتقدم العلمي والتكنولوجي ، وهو ما يطلق عليه الآن اسم « المدينة المملقة » *Megalopolis* التي تتميز بتميز كبير عما يعرف بالمدينة الأم أو المدينة الكبرى أو العاصمة *Metropolis* مثل نيويورك ولندن والقاهرة وغيرها من المدن التي يقرب تعداد سكانها من عشرة ملايين نسمة .

والتفكير في إنشاء هذه المدن المملقة تفكير قديم يرجع إلى العصور اليونانية ، حيث تجد أول محاولة لأقلمة مثل هذه المدن ، وأن كان لا يمكن أن نقيس بطبيعة الحال ضخامة تلك المدينة بما هو قائم الآن ، وبخاصة على طول الساحل الشرقي لأمريكا الشمالية . وتتميز هذه المدينة المملقة بعدة ميزات تعتبر بمثابة الخصائص التي يجب

الصناعي الذي يطبع المجتمع الأمريكي بوجه عام ، فإن نسبة كبيرة من السكان لا تزال تعمل بالزراعة ، كما أن قدرًا كبيرًا من العمل الزراعي نفسه لا يزال يدويًا أكثر منه آليًا ، إلا في تلك المنطقة الممتدة بطول الساحل الشرقي حيث نجد لأول مرة أن المشتغلين بالاعمال الزراعية يؤلفون نسبة ضئيلة جدًا من مجموع الأيدي العاملة في المنطقة ، مع أن نسبة الإنتاج الزراعي هناك أعلى بكثير جدًا منها في أي منطقة أخرى في أمريكا ذاتها .

ثالثاً : وتعلق الخاصية الثالثة بالحياسة

الاقتصادية وبخاصة في مجال العمل ، ذلك أن المشتغلين بالتخطيط يرون أن العالم مقبل على ما يسمى باسم الثورة في المجال المهنى أو Job revolution نتيجة للتغيرات التي تحدث الآن في المدن الكبرى من ناحية ، والتحام تلك المدن بعضها ببعض لتكوين مدن عملاقة تتفاعل أمامها هذه المدن الكبرى ، بحيث تصبح مجرد مراكز حضرية تدخل في تكوينها وتؤدي وظائف وأدوار محددة في بنائها وحياتها من الناحية الأخرى ، وهي وظائف وأدوار تتلاءم والتقدم التكنولوجي الهائل الذي يتمثل على أقل تقدير في ازدياد الاعتماد على الآلات في الإنتاج الزراعي وتطبيق الأوتوميشن في المجال الصناعي ، وبالتالي الاستغناء عن نسبة كبيرة جدًا من الأيدي العاملة في هذين المجالين اللذين يشار إليهما باسم أعمال الفئة الأولى primary (الزراعة) وأعمال الفئة

الثانية Secondary (الصناعة) ، وما يترتب على ذلك كله من تحول هذا الفائض من الأيدي العاملة إلى الفئة الثالثة Tertiary وهي الأعمال الخاصة بالخدمات . والواقع أن هؤلاء المشتغلين بالتخطيط في الوقت الحالي يحاولون أن يتعرفوا على مجالات التخصص المختلفة التي سوف تقتضيها ظروف الحياة في مدينة المستقبل ، وهي تخصصات سوف تبلغ من الدقة ومن اتفرع حدة يتمثل فيما أعلنت عنه

العملاقة سوف تعتبر عاملاً ودليلاً وحافزاً على مزيد من التقدم وليس العكس ، وذلك نظراً لعدة عوامل لا تتوفر في الوقت الحالي للمدن الكبرى القائمة الآن . وتنشأ هذه العوامل في الأصل من التقدم الهائل في التطبيق التكنولوجي في كل المجالات ، وهذا سيؤدي بدوره إلى مزيد من العمل والإنتاج سواء في المجال الصناعي أو المجال الزراعي .. فقي منطقة الساحل الشرقي لأمريكا مثلاً ، الذي ينظر إليه كمثال للمدينة العملاقة التي سوف تسود في المستقبل ، تصل الكثافة السكانية إلى أكثر من ٧٠٠ شخص للميل المربع الواحد ، بينما هي لا تزيد في أمريكا ككل من خمسين شخصاً فقط . ومع ذلك فإن هذه المنطقة تعانق بالتقدم الهائل في الصناعة ومعدلات الإنتاج الزراعي على السواء ، بل أنها تكاد تصبح الآن المركز الثقافي للعالم بأسره على اعتبار أن فيها أكبر الجامعات من ناحية ، وأكبر الشركات الصناعية وأهم الصناعات الثقيلة من ناحية ثانية ، كما أنها تجلب إليها أعداداً كبيرة جداً من العلماء والمفكرين والفنانين من كل أنحاء العالم . وقد بلغت بعض هذه الجامعات حجماً كبيراً بالنسبة لأعداد الطلاب الذين تضمهم ، وأصبح يطلق عليها اسم الجامعة العملاقة أو جامعة الأعداد الكبيرة Megaversity وبلغت التخصصات فيها درجة عالية جداً من الدقة والتفرغ .

وعلى الرغم من أن الغالبية العظمى من سكان المدينة العملاقة سوف يعملون في المراكز الحضرية ، فإن مواطني السكن والإقامة ستكون في المناطق الريفية أو شبه الحضرية ، كما أن معظم السكان (الريفيين) سوف يجمعون بين خصائص الحياة الريفية والحياة الحضرية من حيث الثقافة واستخدام الآلات المعقدة في العمل الزراعي الذي يمارسونه ، مما سوف يترتب عليه قلة الأيدي العاملة في مجال الزراعة إلى حد غير مألوف في الوقت الحاضر . والمعروف أنه على الرغم من الطابع

الحاسبة الالكترونية في كثير من الميادين غير الميدان الاقتصادي البحث ، كان يستعان بها في اجراء العمليات الجراحية الدقيقة مثل الانفصال الشبكي في العين ، وما الى ذلك . والواقع ان هناك من الآن ميلا واضحا الى خلق وظائف أخرى جديدة تدخل ضمن ما يعرف باسم وظائف أو أعمال الفئة الرابعة ، ولكنها كلها لا تزال في بداياتها الاولى .



كل هذه الامور كفيلا بأن تثير عدة تساؤلات حول شكل الحياة وتويع العلاقات الإنسانية في تلك المدن العملاقة الجديدة ، وإلى أي حد تتفق هذه الأنماط من الحياة مع ما هو سائد في الوقت الحالي ؟ وهل يمكن تنفيذ وإقامة هذه المدن العملاقة في كل المناطق وكل المجتمعات سواء في ذلك المجتمعات المتقدمة أو المتخلفة ؟ أو أن هناك أنماطا أخرى من الحياة الحضرية يمكن الوصول إليها بحيث تتلاءم مع التقدم العلمي والتكنولوجي في الوقت الحالي ، ويعينهم في الوقت ذاته فرصا أحسن وأكثر تنوعا من العمل الذي يحتاج إلى التخصص الدقيق ؟



الواقع أن الاتجاه نحو إنشاء هذه المدن العملاقة كحل لمشكلة زيادة السكان والهجرة السكانية وكأسلوب للحياة في هذا العالم المزدهم يسكانه يلقى كثيرا من النقد والاعتراض من جانب عدد كبير من العلماء والمفكرين الذين يعتقدون أن قيام هذه المدن سوف يؤدي إلى ظهور كثير من المشكلات الجانبية الخطيرة التي سوف تواجه السكان مثل ارتفاع تكاليف

أخيرا مؤسسة القرن العشرين من حاجتها إلى مهندسين ينتمون إلى ما لا يقل عن ٣٩ تخصصا دقيقا في مجال الهندسة الإنسانية وحدها ، حتى يمكن لها تنفيذ أول مشروع من مشروعات المدن العملاقة في شرق إفريقيا .

وكل هذا سوف يقتضي بالضرورة إدخال تغييرات جذرية في نظرة السكان في تلك المناطق إلى العمل ومعناه ، وإلى ضرورة توفير مجالات جديدة لتضييق أوقات الفراغ ، بمعنى أن المشكلة التي يأخذها علماء التخطيط في اعتبارهم لن تكون هي مشكلة ازدحام المناطق السكنية بالسكان وما يترتب على ذلك من تفشي الأمراض وانتشار الجريمة والبطالة كما هو الحال في الوضع الراهن في المدن الكبرى ، ولن تكون هي انخفاض مستوى الحياة وانخفاض الدخل نتيجة لزيادة العمالة من فرص العمل المتوفرة ، وإنما ستكون بالآخرى هي مشكلة ارتفاع الأجور إلى حد غير مألوف حتى الآن وما قد ينجم من ذلك من مشاكل التضخم النقدي وما إليها ، كما أن انخفاض ساعات العمل إلى عشر ساعات أو خمس عشرة ساعة أسبوعيا على الأكثر سوف تدفع إلى التفكير في إيجاد أساليب ووسائل جديدة وغير معهوده لتضييق أوقات الفراغ .

بل سوف يظهر في المستقبل القريب أن التخصصات القائمة الآن والتي تعتبر تخصصات دقيقة لن تكون كافية ، وأن الأمر سوف يتطلب قيام تخصصات أخرى جديدة في مجال الخدمات ، وبخاصة في مجالات البحث العلمي الدقيق واتخاذ القرارات السياسية والإدارية ومشاكل الإدارة العليا بالبلدات والاعتماد على السيراتيقا في أداء هذه الأعمال المتخصصة بل واستخدام الأجهزة

في هذا المجال وبخاصة في أمريكا مثل استخدام الهليكوبتر والطائرات العمودية بحيث أصبح الانتقال بالطائرات بين المدن في أمريكا أمرا من أمور الحياة اليومية وبحيث تستخدم الطائرات بنفس السهولة واليسر الذي تستخدم به الحافلات والسيارات العامة في الدول والمجتمعات الأخرى ، كما أن هناك بعض المشروعات التي قد تبدو خيالية وصعبة التنفيذ مثل مشروعات الشوارع المتحركة التي كانت تفكر فيها نيويورك ، أو الأرصفة المتحركة بما عليها ، ومن عليها كما تفكر لندن ، لكي تسهل من مشاق الانتقال مع اختصار الوقت . ولكن مثل هذه المشروعات يصعب تنفيذها نظرا لما تتكلفه من نفقات باهظة رهيبة ، كما أنها لن تحل سوى مشاكل الدول الأكثر تقدما والأكثر غنى ، وهي الدول التي تعاني أقل من غيرها من المشكلة السكانية .

ولكن الأهم من هذا كله من الناحية الاجتماعية البحتة هو شعور الفرد بالضياع في تلك المدن العملاقة ، وبخاصة الفرد الذي يفد من المناطق الريفية ، وهذا الشعور بالضياع كثيرا ما يؤدي إلى الانحراف والجريمة وانتشار الرذيلة بكل ألوانها بين هؤلاء الوافدين ، وإلى ازدياد اتساع الفوة بين السلالات المختلفة التي تؤلف تلك المجتمعات الحضرية المركبة . ولقد كانت أمريكا دائما أكبر مثال لذلك الصراع بين السلالات ، ولكن يبدو أن هذا الموقف انتقل أخيرا إلى بعض المجتمعات التي كانت مشهورة بالاعتدال أو

الحياة والعيش فيها (١٢) ، وما تعرض له أجواؤها ومياها وتربتها من عوامل التلوث . والمعروف أن مشكلة التلوث البيئي تعتبر من أخطر المشكلات التي تواجه العالم الحديث بأسره وبخاصة المجتمعات الصناعية المتقدمة ، وهي مشكلة تهمس لها الحكومات الآن والهيئات والأجهزة الدولية المتخصصة كثيرا من العناية والجهد والأموال لبعثها ومحاولة التغلب عليها ، كما يقصد لها الكثير من المؤتمرات الدولية . يضاف إلى ذلك أن امتداد هذه المدن العملاقة إلى مسافات شاسعة يؤدي إلى التباين بين مقر الإقامة ومكان العمل ، وهذه مسمة أساسية تميز المدن الكبرى في الغرب وسوف تكون أوضح بغير شك في المدن العملاقة ، بل أنها بدأت تمتد إلى المدن الكبيرة في المجتمعات النامية ذاتها وتسبب كثيرا من الصعوبات والتألم لسكانها . وسوف يلقى السكان في المدن العملاقة كثيرا من العناء والفتن في الانتقال نتيجة للتزاحم على مسبل المواصلات وكثرة حوادث البرود ، وارتفاع تكاليف السفر ، وأنه في كثير من الأحيان قد تفصل مئات من الكيلومترات بين مقر الإقامة ومكان العمل . كذلك سوف يؤدي هذا البعد بالضرورة إلى ضياع كثير من الوقت والجهد ، مما سيقرب عليه الغفاس إنتاجية العمال والموظفين أثناء فترة العمل المحددة ، وإن كان يمكن التغلب على ذلك بطبيعة الحال باستخدام التكنولوجيا الحديثة المتقدمة .. وصحيح أن هناك بعض وسائل التيسير على الممارين في الدول المتقدمة

(١٢) فالعياة اليومية في المدن العملاقة سوف تعتمدها كثيرا كما ذكرنا على نتائج التقدم التكنولوجي . وهذه التكنولوجيا المتقدمة غالية التكاليف في الإطب بحيث لم يقدر عليها غالبية أفراد المجتمع ، مما سيؤدي بالضرورة إلى ظهور فوة اجتماعية واسعة وسيخلق بين الفئات القادرة على الاستفادة من التطبيقات التكنولوجية لعدم العيش ، وتلك التي تعجز عن امتلاكها والإفادة منها .

تعددا خلال هذه الفترة القصيرة ، مما يتيح لهم الفرصة الكافية لامتصاص كل الوسائل والأساليب التكنولوجية الحديثة وما يرتبط بها بالضرورة من أنماط الحياة والسلوك . وسوف يؤدي ذلك بغير شك إلى تفكك المجتمع التقليدي وتدهوره وتغيير القيم الاجتماعية التقليدية مع عدم وجود بديل يمكن أن يحل محلها .

والغريب في الأمر هو أن المناطق النامية التي يراد إنشاء بعض المدن العملاقة فيها كلها بلاد لا تمانى ، حتى الآن على الأقل ، من زيادة سكانية خطيرة . فالمعروف أن دول شرق أفريقيا مثلا التي تعتبر في نظر بعض المخططين الأمريكيين المكان المثالي لتنفيذ مثل هذه المدن تمانى من قلة السكان على العموم ، كما أن الكثافة السكانية فيها بوجه عام لا تزيد على شخصين اثنين في الجبل المربع ، وأنه يكفى إقامة مدينتي مدينتي كبريين لاستيعاب غالبية السكان في أي بلد في تلك المنطقة وتوفر الحياة الحضرية لهم . يضاف إلى ذلك أن هذه المجتمعات النامية لا تملك في حقيقة الأمر رؤس الأموال اللازمة رغم كل ما يقال عن امكانياتها الاقتصادية الكامنة ، كما أنه سوف يكون من الصعب عليها امتلاك كل الأساليب التكنولوجية الحديثة وتمثلها واستيعابها بكفاءة في وقت قصير، فضلا عن قلة المتخصصين الكفاء ذوي المهارات الحديثة العالية والمتنوعة التي تلزم لقيام الحياة في تلك المدن العملاقة. وهذا كله سوف يبنى في نهاية الأمر أن تقام المدن العملاقة - لو أريد تنفيذها بالفعل - بأموال أجنبية ، كما أن إدارتها وإدارة الأعمال الخاصة بالخدمات فيها والإسقاط بأعباء الإدارة العليا واتخاذ القرارات التي تعتبر في قمة التخصص المهني ستكون أيضا في أيدي أجنبية ، وهذا ما يلقى كثيرا من المعارضة من القوى الوطنية التحررة في تلك المجتمعات .

التصامع مثل بريطانيا حيث أصبحت التفرقة العنصرية الآن في المدن الكبرى واضحة ولا تقل في آثارها المدمرة عما هو موجود في أمريكا ، وذلك نتيجة لازدياد حركات الهجرة السكانية من الخارج ، وازدياد التباين الاجتماعي بين مختلف السلالات التي تعيش في المدينة الواحدة واختلاف الثقافات والقيم وأنماط السلوك . وليس من شك في أن هذه الهوة سوف تزداد اتساعا وعمقا نتيجة لازدياد تدهور المناطق الفقيرة في تلك المدن العملاقة بحيث تصبح هذه المناطق بمثابة (جيوب) للتخلف، بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى وما يؤدي إليه من نتائج وكرار .

ومهما يكن من شيء ، فإن الاتجاه الذي ساد لفترة من الزمن بين عدد من المثقفين بتنمية المجتمعات المتخلفة من أماكن إقامة مثل هذه المدن العملاقة في تلك المجتمعات أو في بعضها على الأقل مثل بعض مجتمعات شرق أفريقيا - كوسيلة لحل المشكلات الاقتصادية والسكانية التي تعاني منها هذه المجتمعات والارتفاع بها إلى مستوى الدول الصناعية الحديثة . قد بدأ يتغير ، وأخذ اصحاب هذا الاتجاه يراجعون مواقفهم وحساباتهم في ضوء الصعوبات والمشاكل التي تلزم قيام هذه المدن ، خاصة وأن المدن العملاقة نشأت - كما هو الحال في أمريكا الشمالية نشأة تدريجية نتيجة لعوامل النمو الطبيعي

Natural growth وأن اقامتها في المجتمعات النامية كجزء من خطة التنمية معناه الخلط بين عملية النمو الطبيعي التلقائي التدريجي وعملية التنمية المقصودة التي يخطط لها عمدا والتي يتم تنفيذها خلال فترة زمنية قصيرة ومحدودة بحيث ينتقل سكان المنطقة من حياتهم التقليدية المتخلفة إلى أقصى درجات التحضر واكثرها

كبيرة من المهاجرين الذين يأتون أصلاً من المناطق الريفية بقصد العمل وبقصد التمتع بحياة المدينة والمعيشة في مستويات أكثر ارتفاعاً من تلك التي تسود في المجتمعات الريفية . وقد أدى هذا إلى اكتظاظ لندن والمدن الصناعية الأخرى ، وخلق مشكلة ضخمة للسكان وانتشار الجرائم الناجمة من تراحم السكان في منطقة صغيرة فقيرة متخلقة ، كما أدى من الناحية الأخرى إلى هجرة الأزارع وأعمالها أهلاً بكاد يكون تاماً . ومن هنا كان هاوارد يرى أن الحل الطبيعي هو العمل على تخفيض سكان تلك المناطق الحضرية الصناعية المزدحمة ، ليس عن طريق ترحيل العمال إلى مناطقهم الأصلية التي ولدوا منها وردهم إلى العمل الزراعي ، وإنما عن طريق إنشاء مدن صغيرة تجمع بين العمل الزراعي والعمل الصناعي . أي أن هذه المدن تقوم في مناطق ريفية أساساً ولكن تنشأ فيها بعض الصناعات المتقدمة ، وتختلط على منوال المدن الحديثة بحيث تتوفر كل أساليب الحياة الحضرية من تعليم وتسلية ومواصلات وتجارة وما إلى ذلك ، بحيث يشعر ساكنها بنفس التمتع في أساليب الحياة التي يتمتع بها ساكن المدينة نفسها ، وفي الوقت ذاته يعارض جانب من سكان هذه المدن العمل الزراعي في الحقول مع إقامة بعض المصانع التي تستخدم المواصلات الزراعية مثل مصانع التسميد والتعليب وحفظ الخضروات والفواكه وتجفيفها وما إلى ذلك . . فكان الفكرة الأصلية نشأت كنوع من الاستجابة أو رد الفعل للأوضاع السائدة في لندن حينئذ ، ومحاولة حل تلك المشكلات التي كانت تقابلها تلك المدينة وغيرها من المدن الكبرى .

والظاهر أن هذا الاتجاه القديم الذي ظهر منذ حوالي ثمانين عاماً قد وجد له صدى

ولكن إذا كان الأمر كذلك ، فكيف يمكن التغلب على الصعوبات الناجمة عن هجرة الأيدي العاملة من الريف إلى المدن وإلى المناطق الأكثر تقدماً - ولو نسبياً - مع تطبيق البيل المتزايد إلى التحضر الذي يعتبر إحدى السمات الرئيسية التي تميز العصر الحديث ؟

• • •

يبدو أن هناك اتجاهًا مضاداً تماماً لاتجاه إنشاء المدن العملاقة قد بدأ يشيع وينتشر بين الكثيرين من المهتمين بشئون التخطيط والتنمية وعلماء الاجتماع الحضري والانثروبولوجيا السكانية بالأت ، ويهدف إلى تشجيع إقامة ما يعرف الآن « المدن الصغيرة الجديدة » New Towns كأفضل وأسرع وسيلة لحل المشكلات الناجمة عن التزايد السكاني وهجرة السكان من المناطق الريفية المتخلقة وما يترتب على هذه الهجرة من تدفوز الحياة الاجتماعية في كل من الريف والحضر على السواء . وقد عقد لهذه المشكلة مؤتمر دولي كبير في موسكو في الستينات إلى جانب عدد كبير من المؤتمرات الإقليمية والقومية . والواقع أن هذا الاتجاه ليس جديداً تماماً ، إذ ظهر منذ أواخر القرن الماضي في بريطانيا وبالأذات في عام ١٨٩٨ على أيدي أحد علماء الاجتماع المهتمين بدراسة المشكلات الصناعية والعمال في المراكز الصناعية البريطانية وكذلك مشكلات الإقامة في مدينة لندن نفسها ونعني به الدكتور هاوارد Howard الذي أصدر في ذلك كتاباً من « المدن ومشكلاتها في المستقبل القريب » .

ولقد بين هاوارد في كتابه كيف أن المدن الصناعية الكبرى تستقبل كل عام أعداداً

المجتمع الانساني بأسره لا يقل عن الاخطار التي تهدد البشرية من جراء قيام حرب نووية مثلاً . بل أن هناك من الكتاب والمفكرين من يعتقدون أن هذا النمو السكاني الرهيب أشد خطراً أو فتكاً بمستقبل البشرية من احتمال قيام حروب نووية ، لأن قيام مثل هذه الحروب يتوقف - على الأقل - على ارادة عدد محدود من الدول التي لا يعوزها حسن الإدراك وتقدير الأمور بدقة ، بينما النمو السكاني موكول إلى رغبة وأدراك مئات الملايين من الأفراد المتزوجين أو القادرين على الانجاب . ومن الصعب أن يتفق كل هذا العدد الهائل من الناس على اتخاذ القرار الصحيح السليم ... وسواء استقر رأي علماء التخطيط والتنمية والسكان أو لم يستقر على إقامة مدن عملاقة أو مدن صغيرة ، أو وضع قيود على تحركات السكان من الريف إلى الحضر ، ومن بلد لآخر أو إطلاق حرية الناس في تلك التحركات ، فإن المشكلة التي يجب أن تدرس لها الجهود هي كيف يمكن التحكم في هذا النمو السكاني المطرد . وربما كانت الدول الأكثر تقدماً قد استطاعت الوصول إلى بعض الحلول في ذلك بحيث تتحكم في عدد سكانها ، ولكن الدول الأكثر فقراً وتخلفاً لا تزال تفتقر إلى مثل هذه الحلول التي تفتقر وضع قيود وضوابط على السلوك الجنسي للأفراد . وقد تتعارض هذه الضوابط والقيود على الأوضاع السائدة في الثقافات التقليدية .

وليس بعيد ما حدث في الهند نتيجة لتدخل الحكومة ومحاولة فرض بعض إجراءات معينة على الرجال بقصد تنظيم الزيادة السكانية هناك ، وذلك على الرغم من إدراك الجميع لإبعاد المشكلة وما يهدد

لدى بعض المنظمات الدولية بعد الحرب العالمية الثانية ، وهي المنظمات التي تهتم بمشكلات الإسكان والتنمية وتزايد النمو السكاني ، بحيث اتخذت هذه المنظمات في كثير من الأحيان هذه الفكرة أساساً لسياساتها في التنمية في المجتمعات المتخلفة حتى يمكن المواجهة ، كلما أمكن ذلك ، بين النشاط الاقتصادي التقليدي القائم على الزراعة أو حتى تربية الحيوان ، والنشاط الاقتصادي الحديث الذي يعتمد على الصناعة ، أي أن هذه السياسة تركز على فلسفة إدخال الحياة الحضرية الحديثة التي تتوفر في المدن - والمدن الصناعية بوجه خاص - إلى تلك المناطق المتخلفة ، بدلاً من نقل السكان إلى المراكز الحضرية المتقدمة . وهذا يؤدي في آخر الأمر إلى ملء الفجوة أو الهوة التي تفصل بين المجتمع الريفي التقليدي والمجتمع الحضري الصناعي ، مما يترتب عليه استقرار السكان في مناطقهم الأصلية وممارسة تلك الأعمال التي قد ينصرفون عنها في بحثهم عن حياة أكثر تقدماً وفراخاً .



ومع الاعتراف والتسليم بأهمية هذه (الحلول) التي يقترحها المشتغلون بالتخطيط والتنمية وبعض علماء السكان للتغلب على مشكلة الازدحام التي تعاني منها بعض المناطق ، مع توفير مستوى لائق من الناحية الاجتماعية والاقتصادية ، إلا أن كل هذه الحلول تعتبر حلولاً جزئية لمشكلة محدودة ، ولا تمس المشكلة الرئيسية بشكل مباشر ، وتتمنى بها مشكلة الزيادة السكانية التي لا تكاد تخضع لاية قيود أو ضوابط أو منطق معقول ، بحيث أصبح النمو السكاني المطرد يمثل خطراً على

لا تتعارض مع القيم السائدة في المجتمع ،
 وببعض يمكن الوصول في آخر الأمر إلى الوضع
 المثالي الذي يتزايد فيه السكان بمعدلات
 منخفضة ، كما تنخفض فيه معدلات الوفيات
 مما قد يؤدي إلى استقرار حجم السكان في
 العالم ككل وفي كل مجتمع على حدة . ولكن
 ذلك نفسه يحتاج لبذل كثير من الجهد من
 التوجيه والتوعية . وسوف يتطلب ذلك وقتا
 طويلا ، ولكنه جهد خلاق بأن يبذل .

الهند من أخطر . فلقد بلغ سكان الهند
 حوالي ٦٤٠ مليون نسمة كما أنهم يتزايدون
 بمعدل مليون نسمة كل شهر .

ومع ذلك فلم يفقد علماء السكان
 والاثربولوجيا السكانية والاجتماع والمهتمون
 بالمشكلة السكانية الأمل تماما ، ولا تزال هناك
 كثير من الإجراءات التي يمكن اتخاذها ، وكلها
 تدور حول تنظيم هذا النشاط الجنسي بطرق

ماذا يحدث في العلوم البيولوجية

عبد المحسن صالح

ينتهى ذلك بدبل سمكة وزعانفها ، أو قد يتصورون هذا المخلوق على هيئة كائن أسطوري له رأس أسد وجسم شاة وذنب حية ، .. إلى آخر هذه المخلوقات الخرافية النابعة من تصورات قديمة وردنية !

لكن .. ما دخل مثل هذه الكائنات الخرافية في دراسة تتحدث عن انجازات العلماء في العلوم البيولوجية ؟

ان هذا التصور الرديء القديم قد بدأت رائحته تفوح الآن في معامل نخبة ممتازة من علماء الحياة ، ولقد بدأوا بالفعل في تخليق كائنات خطيرة لا تخرج في فكرتها عن الفكرة التي راودت أجدادنا القدماء ، مع فرق

من الاسطورة إلى الحقيقة

وردت في اساطير القدماء مخلوقات خرافية ما انزل الله بها من سلطان ، اذ تخيلوا وجود كائنات تجمع في تكوينها اجزاء مختلفة من حيوانات متباينة ، فلا يرال مثال ابي الهول ، الرابض بجوار اهرامات الجيزة ، تجسيدا لمثل هذه التصورات ، فنراه تارة يعمل رأس انسان وجسد أسد في التصور المصري القديم ، وتارة أخرى له أجنحة نسر ثم رأس امرأة وذيابها في التصور الافريقي ، وأحيانا ما يأخذ هذا المخلوق بنصفه العلوى على هيئة انسان ، ونصفه السفلى على هيئة ثور ، او يظهر على هيئة حورية من حوريات البحر لها رأس امرأة وذيابها وشعرها وجسدها ، ثم

الواقع أن لكل شيء جذورا قديمة ، لهذا
.. فمن الأوفى أن نبدا القصة من أولها .



من زراعة الاعضاء الى زراعة مقومات الخلايا

من الانجازات العظيمة التي حققها العلماء
والاطباء في مجال العلوم البيولوجية والطبية
تبرز انتصارات لا تكاد نحصيها هذا ، لكن
الامر اعظم الذي استولى على اهتمام الناس ،
والاراء في نفوسهم كثيرا من الإعجاب والجدل
والحيرة يتركز في امكان نقل عضو من انسان
وزداعته في انسان آخر يحتاج اليه ، فاذا
بالذي يكاد يموت ، يعيش بكلية غيره ، أو
قلبه ، أو بآى عضو آخر يصلح للنقل
والزراعة .. صحيح ان هذه المحاولات البارة
قد حققت نجاحا محدودا في الوقت الحاضر ،
وصحيح أنها تصطدم بصعوبات بيولوجية ،
أهمها على الاطلاق أن الجسم الحي يرفض
دائما الاستجابة لوجود أى عضو غريب فيه ،
وصحيح أن العلماء قد تغلبوا في بعض الحالات
على هذا «العناد» الذي يبديه الكائن الحي ،
والذي نطلق عليه اسم **المناعة الحيوية** ،
وصحيح أن المحاولات لازالت مستمرة لتغلب
على هذه الصعوبات ، وهي بالتأكيد تحتاج
الى فهم ودراسته وسئل وتطویر .. كل هذا
وفيه صحيح وممزوف وشائعة أمور « بين
العلماء والخاصة » ، وكنتب منه أجهزة الاعلام
وأطنبت فيه ، وراحت تدعو « **لبنوك** » من
نوع جديد يطلق عليها « **بنوك** » **الاعضاء**
البشرية ، أو قطع الفياض البيولوجية أو
الجسدية التي تحتاجها الأجسام المعطوبة ،
أسوة بما يحدث في قطع الفياض الآلية ، مع
الفرق طبعا بين التكنيك هنا وهناك .

ولقد حاول بعض المتزمتين محاربة زراعة
الاعضاء البشرية مركزين في هذا الى آراء
عقائدية أو أخلاقية أو إنسانية ، لكن محاولاتهم
لم تجد لها صدى بين الناس والطعام ، تقول
هذا لأن هناك قوّة بيولوجية أخرى لا تختلف

جوهرى واحد ، ذلك أن المخلوقات الاسطورية
التي ذكرناها والتي لم نذكرها لم يكن لها
وجود الا في الخيال ، لكن مخلوقاتنا الاسطورية
«الحديثة» قد ظهرت جذورها بالفعل في معامل
العلماء ، ومن أجل هذا - ولأول مرة في التاريخ
بدا العلماء في التراسق فيما بينهم بالانهايات
والاخطار والمصائب التي يمكن أن تحيق بهذا
الكوكب ، فلا تبقى مخلوقاته ولا تلبس ، ولأول
مرة أيضا يضع بعض العلماء أمام المتحمسين
لهذه التجارب المثيرة العراقل والحدود ،
وكانما بهذا تعود الى أفكار كالفكار المصور
الوسطى ، وهي التي حرمت فيها الكنيسة
على العلماء أن يبحثوا في اسرار الطبيعة ، والا
ينشروا آية آراء تخالف آراء الكنيسة !

هل يعنى هذا أن العلماء في طريقهم الى
تخليق كائن يشبه « كنج كنج » العجيب ..
وهل من الممكن إعادة اسطورة فراكتشتين
لتصبح حقيقة واقعة ؟ .. أو هل يستطيع
العلم حقا أن يقوم بتخليق كائن يجمع في جسده
رأس انسان ، وجسم فيل ، وأرجل حصان ،
وذيل حية .. الى آخر هذه التصورات
الساذجة ؟

ليس ذلك تماما ، وإن كانت الفكرة لا تخرج
في أساسها العميق من مثل هذا التصور
الغريب ، وهي بلا شك ستؤدي الى نتائج لا
يمكن لآسان أن يتصور مداها ، ذلك أن
البحوث التي تجريها الآن بعض معامل قليلة
خاصة بمشابة سيف ذي حدين : في حد منه
قد تمكن شرو لا يمكن التنبؤ بها ، وفي الحد
الأخر تبرق آمال بغير حدود .

اذن .. ما هي قصة هذه البحوث التي
يتكتمها العلماء ، وتقيدها الحكومات بتشريعات
موقفة ؟ .. وما هو الزها في مجال العلوم
البيولوجية ؟ .. وهل سيهد منها الانسان ؟
أو هل سترجع عليه بالبلاء والاختصاص التي
لا يمكن تجنبها ؟ ..

الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد» (سورة فصلت، آية ١٠٤-١٠٥).

ويمثل هذا المفهوم أيضا ، أو يشبهه قريب منه بصريح ألفريد فيلوشى ممدة الاجتماعات العلمية محللا ومنددا باللمبة مدينة كميريدج الأمريكية في إحدى الاجتماعات العلمية محللا ومنددا باللمبة الخطرة التي يقوم بها العلماء في جامعة هارفارد الشهيرة والتي تقع في حدود اختصاصه ، وهي واحدة من الجامعات انقلية الشهيرة بالسبق في بحوث عمليات الخلط بين مكونات الخلايا من الأنواع المختلفة للكائنات ، وكأنما فيلوشى يخشى على مدينته من وباء مدمر قد يخرج من معامل العلماء يوما ، ولهذا يلوح مهددا « إن الله وحده يعرف ماذا يمكن أن يحدث علينا من هذه المعامل القريبة منا ، إذ ربما يخرج منها وباء مدمر لا يستطيع أحد أن يجده له علاجا ، أو ربما ينطلق منها « قول » « رهيب » . . . ثم يتساءل فيلوشى « هل يسمى العلماء حقا إلى تحقيق حلم فرانكشتين وجعله حقيقة واقعة من خلال هذه البحوث المدمرة ؟ » -

لكن مما مما شك فيه أن فيلوشى كان يتدخل فيما لا يعنيه فهو أولا وآخر لا يترك الفزى العميق من هذه البحوث التي قد تحدث تطورا هائلا في فهمنا للأسس البيولوجية التي تقوم عليها الكائنات ، ثم هل قد تقودنا إلى إنجازات ربما لا يستطيع العقل البشرى أن يسبر أغوارها ، فالأمم لا يهم فيلوشى بقدر ما يهم العلماء ، ولا شك أنهم - أي العلماء - يستأمنون أشد الاستياء عندما يتدخل في أمورهم من لا يفقه شيئا في مفزى بحوثهم ، لكن الأمور قد تطورت في الوقت الحاضر تطورا خطيرا ، وتدخلت فيها الهيئات والحكومات ، وجرت وعقدت لها المؤتمرات والندوات ، وجرت حولها مناقشات لم تنته حتى يومنا هذا ، وقد تستمر لسنوات طويلة ، ولقد وضعت لهذه البحوث مواصفات ، وسنت لها شرائع

كثيرا من الثورة التي أثرت حول زراعة الأعضاء البشرية ، أو استبدال عضو بعضو آخر ، لكن الذي يقود هذه الثورة الآن علماء متخصصون ضد علماء آخرين من المهنة ذاتها، والمتزمتون من العلماء هنا يبذلون قصارى جهدهم لمنع زملائهم من التمداد في هذه الزراعات الجديدة التي قد تؤدي إلى عواقب وخيمة .

وليس المقصود بهذه الزراعات - التي لم يسمع بها الناس - أن ينقل رأس إنسان ليوزع على رأس أسد ، أو أن يحدث خلط بين أعضاء من حيوانات مختلفة لتحصّل في النهاية على مخلوق خرافي من ذلك النوع الذي ورد في أساطير الأقدمين . . . ألن ، ليس هذا هو المقصود طبعاً ، ولو سعى العلماء إلى ذلك لكانوا من الهالدين ، لكن سعيهم يتناول الخلط بين الكائنات من الأساس ، والأساس دائما خلية ، أو بتحديد أدق مكونات هذه الخلية ، أو بتحديد أدق وادق جزئيات محددة في تلك الخلية !

وقد يبدو - من أول وهلة - أن مثل هذه البحوث على مستوى الخلية لا تستحق كل هذا الاهتمام ، أو لا تتطلب مجاهبات وتحديات بين العلماء ، لكن الأمر أخطر مما يتصور البشر ، إذ لم يحدث في تاريخ العلم كله أن يجد العلماء من نشاط علماء آخرين ، حتى فيما يختص بتصنيع القنابل النووية ، ذلك أن عملية الخلط بين خلايا الأنواع المختلفة يشر بأخطار قد تفوق أخطار القنابل النووية .

والواقع أن الدمار الذي يسيطر على بعض العلماء من جراء خلط مكونات خلايا بخللها أخرى قد لا يختلف في درجته عن درجة الدمار التي قد تصيب رجل الأمن الاصيل عندما يهاج بان كتاب الله قد حدث فيه خلط بما ليس فيه أو منه ، فهو يعلم أنه في « لوح محفوظ » ، « وأنه لكتاب عزيز لا يأتيه

الكائنات الجديدة قد يؤدي إلى الحصول على
خيرات كثيرة لا هي مقطوعة ولا ممنوعة !

**ونقول هنا أن العلماء يسعون إلى تطبيق
أنواع جديدة لاختلافها ، ذلك أن التخليق غير
الخلق ، فالخلق ابتكار ، أما التخليق فتقليد ،
وشتان ما بين هذا وذلك ، فالخلق لله ،
والتخليق أو التقليد للإنسان !**

لكن .. كيف توصل العلماء إلى إنتاج
مخلوقات جديدة من طريق التزاوج بين أنواع
من الكائنات لا تنتمي لبعضها في قليل أو كثير !

الواقع أن ذلك قد قدم على مستوى الخلايا ،
وليس على مستوى الكائنات الكبيرة ككل ..
صحيح أن الأساس في التزاوج بين الكائنات
من النوع الواحد هو خلط المكونات الوراثية
للذكر بالمكونات الوراثية للإناث ، ومن هذا
الخلط يأتي مولود جديد يختلف عن والديه في
بعض التفاصيل ، لكنه لا يزال يحتفظ بصفات
النوع الأساسية ، فالإنسان لا يلد إلا أنساناً ،
ولا تنجب القرود إلا قروداً ، وعلى هذه الويرة
تكون ملايين الأنواع من المخلوقات .. بداية من
الميكروب والدودة والحشرة والنبات ، حتى
الحصان والقرود والإنسان !

ثم إن عملية التزاوج أو الخلط بين مكونات
الذكر والإناث يتم أساساً من طريق الخلايا
الجنسية ، فالذي يمثل الذكر خلية جنسية
ذكرية (حيوان منوي) ، والذي يمثل الإناث
خلية جنسية أنثوية (بويضة) ، ومن اندماج
هاتين الخليتين في خلية واحدة ، تتحدد صفات
المخلوق من البداية .. إذن فالبداية دائماً
خلية ، وعلى هذه البداية بدأت بحوث العلماء
في عصرنا الحاضر تتخطى نعمة أخرى لم تعرفها
الحياة على هذا الكوكب منذ أن نشأت بكائنات
جد بسيطة من حوالى ثلاثة آلاف مليون عام .

إذن .. فلنبداً من البداية .

● ● ●

وأحكام ، وهذا ما أثار إثارة العلماء المهتمين
بمثل تلك البحوث التي سوف نعرضها ههنا ،
لتعلم إلى أي عصر من عصور العلوم البيولوجية
نحن مقبلون .

● ● ●

تخطي حدود الخالق فيما خلق !

لكن تصور إيهاد المرحلة الحالية والمقبلة
التي يتناولها العلماء في بحورهم البيولوجية ،
كان علينا أن نتصور أننا قد زواجنا بين إنسان
ذكر وقردة أنثى ، أو العكس ، أو أننا قد
فلنا الشيء نفسه بين حمام وليونة ، أو بين
بطة وديك ، أو بين قط وفأرة ، حتى بين نبات
وحيوان .. أو أي نوع من الأنواع الكائنات
نشأ .

وهذا بلا شك نوع من أنواع الأفكار الرديئة ،
أذ لم يحدث هذا لا في الواقع ولا في الخيال ،
ولو حدث بطريق الخطأ أو من طريق وسيلة
من وسائل العلم التجريبي ، لما أدى ذلك إلى
نتيجة تذكر ، ذلك أن الخالق قد وضع لكل
نوع من الكائنات حدوده ، وفقد له سلوكه ،
وأرسى فيه الأحكام الموقفة لئلا هذا الخلط
المشوّالي بين الأنواع ، أذ لو حدث مثل ذلك ،
لكانت الفوضى ، والحياة لا يمكن أن تقوم على
فوضى !

**لكن العلماء قد تجاوزوا حدود الله في خلقه ،
وفعلوا بالكائنات ما يجعلنا نحسب للمستقبل
ألف حساب وحساب ، ثم إن تخطي مثل هذه
الحدود قد يصيب أصحاب العقائد بالفرح
والقنوط ، فليس من حق الإنسان أن يتدخل
فيما خلق الله بالتغيير والتحوير والتبديل ،
ولكن العلماء لهم وجهة نظر أخرى ، ذلك أنهم
يؤمنون ما يفعلون من أجل رفاهية هذا
الكوكب ، بما في ذلك السيطرة على معظم
الأمراض الخطيرة التي تصيب الإنسان
والحيوان والنبات ، ثم إن تخليق أنواع من**

العلمية المتخصصة - تروى على عشرات الآلاف، ان لم يكن مئات الآلاف ، ورغم ذلك فلا تزال الخلية تحتفظ في جميعها بأسرار أكثر وأدق وأعمق ، حتى ليبذل لنا إن أسرارها لن تنتهي بدا .

ورغم أن علماء الخلية كثير وغزير ، إلا أن أعظمه على الإطلاق يكمن في جزئه واحد له بناء عجيب . . هذا الجزء يعرف علمياً باسم حامض « دي أوكسي ريبونوكليك Deoxyribonucleic acid » ، أو « ج د ن » من باب الاختصار ليس إلا ، أو إذا أردنا اسماً شاملاً فلتسمه الحامض النووي ، لأنه يوجد - في أغلب الأحيان - في نواة الخلية .

وإذا كنا قد سمعنا عن عصر البخار والكهرباء والآلة والذرة والصاروخ ، فإن عصرنا هذا يشهد ثورة هائلة في عالم الحياة والأحياء ، وسوف يطلق عليه - أن أجلاً أو عاجلاً - عصر الجزيء ، أو بالتحديد عصر الجزيء الوراثي « ج د ن » الذي سبق أن أشرنا إليه .

لذا كان الناس يعتبرون أن آدم أبو البشر، فإن هذا الجزيء « ج د ن » - بلا شك - هو « آدم » كل الجزيئات العضوية، وهو « آدم » الخلايا ، وهو أيضاً « آدم » كل المخلوقات . . بداية من الفيروسات والميكروبات حتى ننهي بالإنسان سيد المخلوقات .

وعلى آدم الجزيئات هذا تركت البحوث وتعمقت منذ حوالي ربع قرن من الزمان ، فهو بمثابة « الكتاب المكتوب » أو « اللوح المحفوظ » لكل نوع من ملايين الأنواع من المخلوقات التي ظهرت على الأرض منذ آلاف الملايين من السنين .

وفي هذا اللوح أو السجل الوراثي العظيم بدأت خطة التفسير والحذف والتبديل والتزييف ، وكأنما العلماء هنا « يصنعون لعبة

الأساس دائماً خلط وراثية في خلية

كل المخلوقات - صغيرها وكبيرها - تكون من خلايا ، فالإنسان البالغ مثلاً يقسم في جسده أكثر من ٦٠.٠٠٠.٠٠٠.٠٠٠.٠٠٠.٠٠٠ خلية (أي ٦٠ مليون مليون) ، ولا شك أن

هذا العدد الهائل قد نشأ من خلية أولى ملقحة ثم اذ بها تنقسم وتمر بمراحل محددة ، فتتطور الخلايا - التي كانت تبدو متشابهة - إلى أنسجة وأعضاء مختلفة ، رغم أن الأصل واحد ، ولقد ذاب علماء الخلية والوراثة على دراسة سر هذا التطور أو التحول منذ عشرات السنين ، وجمعوا فيه حقائق كثيرة لا تكفيها دراسات طويلة ، ولهذا فلن نعرض لها هنا ،

حتى لا نخرج من موضوعنا الأساسي ، لكن يكفي أن نذكر أن سر هذا الاختلاف بين خلايا المسخ والأنعام والفضلات والعمى والجلد والفرد . . . الخ . . . الخ ، يكمن في الخلية ذاتها ، فهي تمتلك الفاتيخ أو النمط الوراثية التي تحولها إلى خلية في لسان أو رئة أو قلب أو طحال أو كبد . . . الخ ، ثم أن الخلايا - في مراحل متعددة من تطور الجنين - « تتفاهم » مع بعضها بلغات كيميائية على درجة هائلة من الدقة والتعميد ، ومن خلال هذه اللغة الرائعة تؤثر في بعضها ، فتتحرك وتهاجر وتتماص وتندمج وتتميز في النسجة وأعضاء شتى ، وتجد أجرى العلماء - في هذا المجال - تجارب كثيرة هادفة قادتنا إلى أسرار ضخمة وعظيمة عن إبداع الله في خلقه ، وليثبتن لنا بحق أنه « خلق كل شيء فقدره تقديراً » . . ولا يزال العلماء يمشون في هذه الأمور للكشف عن المزيد من أسرارها الرائعة .

على أن السر الأعظم يكمن في الخلية ذاتها ، فهي - والحق يقال - مضز أو مستودع يلدح لأسرار هائلة ، ولا يزال العلماء في العالم يحصلون من الخلية على مئات وربما آلاف الأسرار سنوياً ، حتى أن عدد البحوث البيولوجية المختلفة - التي نشرت في المجلات

الله في مخلوقاته » على حد تعبير الباحثين في هذا المجال .

ولكى تستوعب معنا خطورة هذه اللعبة المشيرة ومفزاها في حياتنا الحاضرة ، أو في حياة الأجيال القادمة ، كان لا بد أن نطلعك على بعض اسرار هذا الجزىء العظيم باختصار شديد .



من الجزىء الباحث الى الرسول ا

ان أعظم ما في بحوث الحياة الآن هي تلك البحوث التى تتعامل مع ما يسمى بعلوم **الحياة الجزيئية** Molecular Biology ، ذلك ان حياة كل مخلوق وفد ويند الى هذا الكوكب انما تستمد اساسا على خطة محددة ، وتنفيذ متقن ، وفاعل مقدر ، وتجاوب متقن ، وهدف عظيم لا خلل فيه ولا فوضى ، حتى تكاثرنا لهذه الجزيئات في مالها اقدار ومخططات ورسالات لا تختلف كثير عما نعرفه في حياتنا اليومية .

فهناك الجزىء الباحث ، وهو الحامل للخطة الوراثية ، وهو المبر من كل صفة من الصفات التى تتميز بها الكائنات الحية ، ولهذا كانت له السيادة على كل الجزيئات الاخرى التى ترخر بها الخلية الحية ، ومن هنا فقد وضعت الحياة في مكان أمين حتى لا يختلط بالجزيئات الاقل شأنًا . . وجزيئات الباحث أو « السيد » هو « ح د ن » ، ومكانه أو « لوحه المحفوظ » هي نواة الخلية .

وهناك ايضا **الجزىء الرسول** Messenger ويعرف علميا باسم حامض ريبو نيوكليك أو « ح د ن » من باب الاختصار (Ribonucleic acid or RNA) وهو قريب الشبه من باعته « ح د ن » ، لكنه لا يرتى اليه ، فقد حذف منه الباحث شيئا ، واضاف اليه شيئا (بالطبع حذف واضاف اشتقاق كيميائية) ،

ومن هذه « السياسة » الكيميائية الجزيئية الحكيمة لاستطيع « الرسول » الجزيئى ان يتصرف في مقدرات الخلية الوراثية بحال من الاحوال ، لكل مهمته ان يخرج من ساحة باعته بالخطة الوراثية المسجلة في كيانه بجزيئات كيميائية خاصة ، وهو لا يستطيع ان يبدل او يغير فيما خرج به ، حتى ولو كان في ذلك خطأ يحتمل او لا يحتمل (ومن هذه الاخطاء تظهر كثير من الامراض الوراثية نتيجة لخطأ حل بالخطة التى يعملها الباحث ح د ن) .

وفي ساحة الخلية توجد ملايين فوق ملايين من مصانع او مطابع دقيقة تسمى ريبوسومات Ribosomes (شكل ١ ا ، ب) ، وفي هذه المطابع تنفذ الخطة التى يحملها الرسول ، وعلى اساسها تخرج البروتينات والخصائص (الانزيمات) ، هذا ويقدر العلماء ان كل خلية من خلايا الانسان تحتوى على اكثر من مائة الف خلية ، لصناعة مائة الف نوع من البروتينات والانزيمات ، واى خطأ في الخطة ، ينمكس على خطأ في البروتين او الخصيرة ، فيؤدى هذا الى عملية كيميائية خاطئة ، او الخلل هى بمثابة الهيئة التنظيمية او الادارية في ساحة الخلية ، وهى التى تخرف على كل خطة كيميائية ، وتنفذ كل عملية حيوية ، وهى التى تهدم ويبنى ، وهى التى ترمم وتعالج ، ومنها ما يحارب ويدب كل جزىء غريب دخل الى الساحة . . . بالاختصار فهى التى تقوم عليها امدة حياة الخلية ، ولكن على اساس خطة محددة تهيم عليها جزيئات « ح د ن » الكامنة هناك في النواة .

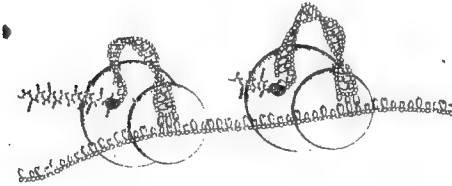
لهذا ، فان التلاعب او التغيير في جزيئات **الخلية الاساسية** او **الوراثية** اى (د ح ن) ، انما هو تلاعب بصفات المخلوقات التى اوجدها الله ، وسوف يؤدى ذلك الى يمس خطة دخيلة تؤدى ايضا الى عملية كيميائية لم تعرفها قبل ذلك على الإطلاق .

ماذا يحدث الآن في العلوم البيولوجية



شكل (١١)

صورة بالميكروسكوب توضح نواص الموربات أو الجينات وفيها تظهر آلات تصنيع البروتينات على هيئة نطف صفراء متراصة على جدار خلوة داخلية خاصة ، إلا أن هذه الآلات الجزئية (أو النطف) لا تكاد بين لفصوص كبير في قوى الميكروسكوبات الإلكترونية ، ولقد أسعان العلماء على توضح بعض تفاصيلها بطرق فيزيائية وكيميائية بطول ترعها (انظر شكل ١ ب) .



شكل (١ ب)

نموذج يوضح تفاصيل أكثر لوحداث تصنيع البروتينات (أي الريبوسومات) وفيها يمر السريط الرسول أو البعوث ، « هلم » المسفرة المسجلة عليه ، ونبدأ في عمله بجميع الأحماض الأمينية (وهي الوحدات الصفراء التي تكون الف باء البروتينات) في جزيئات بروتينية كبيرة ، مثلها في ذلك كمثل جميع الحروف في المطابع لتكوين جمل وعبارات .

يتزاوج أو يرتبط بالشريط الآخر وجها لوجه، ولهذا الارتباط قوانين كيميائية لا تحيد عنها الجزيئات ولا تميل ، ومن هنا نرى الأدينين يرتبط دائما بالثايمين ، والجوانين بالسييتوزين (١ مع ث ، ج مع ص - شكل ٥) . اخسف الى ذلك ان نمو الخلايا والكائنات يرجع اساسا الى هذا الشريط المزدوج ، اذ انه يستطيع ان يصنع نسخة طبق الاصل من ذاته (شكل ٦) ، ومن هنا تتضاعف اعداد الخلايا ، وتتمسوا الكائنات ، وتحفظ كل الانواع بصفاتها التي جاءت عليها ، ما لم يحدث خطأ أو تلاعب أو تغيير في النظام . . . وهذا ما سمي اليه الانسان في عصرنا العالي ، بعد ان عرف بعض اسرار الحياة الخلوية .

اذن . . . كيف حدثت اللعبة فيما خلق الله فقدر ؟ .

• • •

الخلية تمتلك أدواتها « الجراحية » !

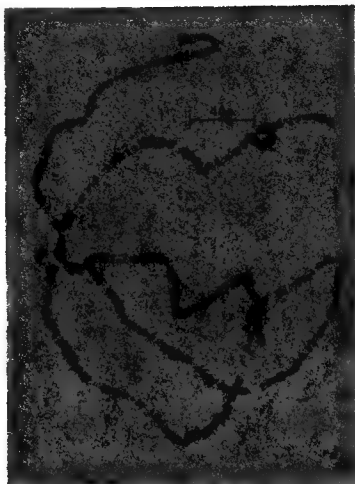
الواقع ان اللعبة قد نشأت من الخلوية ذاتها ، فعندما اكتشف العلماء سرها ، وعرفوا سلاحها ، نفلدوا مخططاتهم بنفسى السلاح المكتشف .

ففي عام ١٩٦٧ وما بعدها ، اكتشف العلماء عددا من الانزيمات او العوامل المثرة في بعض الخلايا الميكروبية ، وتبين - فيما بعد - ان الخلايا تستخدم هذه الانزيمات كما نستخدم نحن القصات والمباضع والابر وخيوط الانسجة في العمليات الجراحية التي نجريها في مستشفياتنا .

بمعنى آخر نستطيع ان نقول ان الخلية تمتلك الاداة او الادوات الكيميائية التي تستطيع ان تصلح بها شاتها ، وترمم ما تملك من مراقفها ، وتوصل ما تقطع من كيانها ، ثم هي قد ملكت ايضا الانزيمات التي تمكنها من

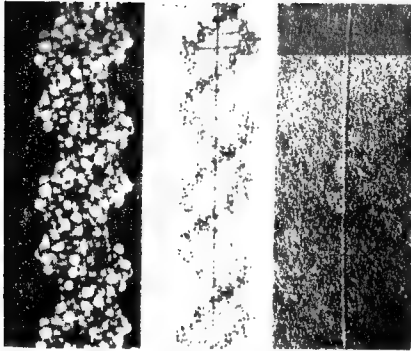
على ان اعظم التنظيمات او المخططات الدقيقة التي اكتشفها العلماء في نواة الخلية قد اوجت للملاحظة بمزيد من التالعب ، ذلك ان كل صفة وراثية ، او عملية حيوية ، تتحدد عن طريق معلومة معينة تعرف باسم **المجموعة او الجينة Gene** ، وقد نرى هذه المورثات او الجينات احيانا وهي تتراس على هيئة عقد او حبات . (شكل ٢) ، فلذا ارادت الواحدة منها ان تنفذ اسرا لصالح الخلية ، كان لا بد ان تخسوج من انطوائها ، وتظهر لنا على هيئة شريط دقيق غاية الدقة ، ولقد امكّن تصوير هذا الشريط بالميكروسكوبات الالكترونية (شكل ٣) ، وقد لا يثر هذا الشريط في نفسك مجبأ ، لكنك او اطلمت على باطنه لرايت لم رايت نظاما عجيبا ، ويناد فريدا ، لم اكنو استطعت ان تقرا لغة الحياة على هذا الشريط كما يقرؤها العلماء ، لعرفت ابداع سر طوئه الحياة من الميون وعن العقول ، ولعلمت انها تتخذ لنفسها « شفرة » Code من مركبات كيميائية اربعة لاجر (هي ادينين وثايمين وجوانين وسيتوزين Adenine, Thymine, Guanine, Cytosine) . وكل مركب من هذه المركبات يتألف بدوره مع جزيء خاص من السكر (اسمه ريبوز Ribose) وجزيء آخر اسمه فوسفات ، وكل واحد متآلف مع هذه الوحدات . تسمى نيوكليوتيد Nucleotide وهي رمز الشفرة . . فكلمة كل شفرة من هذه الشفرات التي تتألف حروفا من حروف لغتنا ، وهذه يعني ان مستقبلات الانواع من المخلوقات - مثلا - لا ترى - قد قامت وسابقتها بتجهيز كل صفاتها من خلال هذه الشفرة الكيميائية التي تلعبها الانزيمات على هيئة سطر او شريط كيميائي له في ماله الدقيق شان عظيم ، وملك قويم (شكل ٤) .

لكن - فكلما انزلنا الى اسفل - بل - فكلما انزلنا الى اسفل - بمعنى ان الشريط



شكل (٢)

صورة بالميكروسكوب توضح براص الزلقات أو الجينات على هيئة حبات أو عقد على واحد من الكروموسومات ، وفي داخل كل جينة توجد نرط وراثي مطوى ، ويعمل خيطه وراثي معقد ، مستتول عن عملية حيوية واحدة مقدرة (طبيعي أن النرط لا يمكن أن يرى هنا لتصف الكبير) .



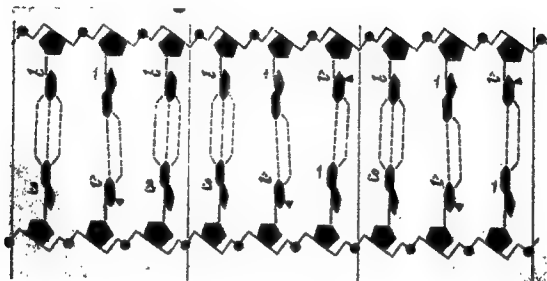
شكل (٢)

التربيط الوراثي ج د ن كما يظهر تحت الميكروسكوب
الالكتروني مثلاً عنبراف الاكوف من المرات (التي اقصى
اليمن) . وفي الوسط تتضح بعض تفاصيله الخارجيه
(او حدوده) منها انظر الى السطيل الكبيره والاخرى
الضخيمه ... والى اليسار نموذج لما يكون انشرو المعدل
للتربيط نفسه .



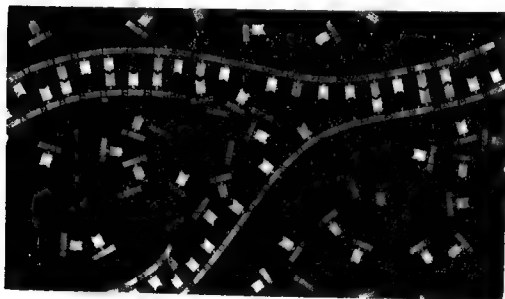
شكل (٣)

نموذج يوضح شعرة الحياة الثلاثية على أحد أنصاف جزء من التربيط الوراثي .. هاشقرة الثلاثية أ ت ج يعني امرا
محددا في حياة الخلية ، وهي تختلف عن مضمون السعرة المجاورة ج س أ ، والنفرة ج ت ج (هذه الحروف ليست
الا اختصارا لاسماء قواعد كيميائية جزئيات حن الوراثية)



شكل (٥)

تألف شعرة الحاء في شرائطها ذاتها أزواجا ... وكل زوج يعرف زوجة ويربط به دون سواء ، لا لا ددين (١)
لا يتألف الا مع الثامن (ب) وكذلك لا يربط الجوانين (ج) الا بالسيكون (س) .



شكل (٦)

تكاثر جميع الكائنات عن طريق تكاثر السريك الورياني ويظهر هنا وهو يشاهد ذاته ، او كأنها هو يكون نسخه
اخرى طبق الاصل من النسخة القديمة ، فيصبح التبريط شرطين ، او الخلية خليتين .

تطعيم او ووصل شريطها الوراثي في اماكن محددة ، او لتدمير اشرطة وراثية غريبة قد « تدنس » ماحتها .

ويدون الدخول في التفاصيل او المعممة العلمية نقول ان العلماء قد اخلدوا هذا السر من الخلية الحية ، وتساولوا : ما دامت الحياة تمتلك هذه الادوات الدقيقة التي تستطيع ان تنص الاشرطة الوراثية وان توصلها ، فلماذا لا تقوم نحن بملها ودراستها ومعرفة اسرارها ، ثم بعد ذلك نستخدمها في عملية « زرع » او « تطعيم » او « تهجين » وراثي بين شرائط خلايا الكائنات المختلفة ؟

ومن خلال هذه الفكرة العظيمة بدأ العلماء بالفعل في اجراء ادق عمليات « جراحية » غير منظورة ، ولقول غير منظورة لان الادوات المستخدمة فيها لا ترى على حقيقتها وهي تقوم باجراء ما قر في حقول العلماء من افكار ، ذلك ان هذه الادوات تقع - لدقتها المتناهية - فيما وراء حدود ميوننا و « هيون » مجاهرنا الضوئية ، وبها الايكترونية . ايضا ، لكن نتيجة هذه العملية الدقيقة جدا سوف تتضح من خلال تغير مصفات الخلية او الكائن ، فاذا اكتسب صفة وراثية جديدة ومحددة ، دل ذلك على نجاح العملية . وذلك لان غير ذلك ، دل على الفشل . ولقد - والجمال تكلمك - سعى تطوير وتجهيز وصقل العملية حتى يمكن ان تطبق عملياً : المرحومة .

لكن انما نريد ان نذكر اننا قد قمنا في هذا المقال على الاشارة الى بعض النواحي من هذه العملية ، ولكن ذلك - كما ذكرنا - خلال مجرم ، وبقينا نود ايضا الى تكملة تفاهيم بيات على نبات من نفس السلالة او الكائن ، دون تفهم خلايا البرتقال على التارنج والخوخ على البرقوق ، والكثيرى على السفرجل .. الخ ، فيكون النبات من نباتين : المجموع الجارى لنبات ، والمجموع الخضرى للنبات الاخر ، او قد نرى ثمار هذا وذالك على

اصل واحد .. وهكذا ، وطريقة وصل نبات بنبات قريب الصفات منه جداً معروفة من زمن طويل ، ولقد افادت الانسان في الاحتفاظ بجودة الصنف في الثمار ، ومقاومة الامراض ، وسرعة الثمار ، واستكثار نباتات في تربة لا تلائم نمو جذورها ... الخ .

ثم انتقلت فكرة التطعيم من عالم النبات الى عالم الحيوان ، واراد العلماء تطبيقها في الانسان والحيوان ، وهذا ما عرفناه حديثا بزراعة الاعضاء ، ونقلها من انسان لاسنان ، او من حيوان لآخر .. صحيح ان الهدف من التطعيم وزراعة الاعضاء مختلف ، لكن الفكرة واحدة ، والاساس واحد ، وهى تقبل انسجة لكائن في كائن آخر من نفس سلالته ونوعه .

• • •

بحث بيولوجى للجسد :

على ان فكرة الخلط او الائتام بين انسجة النوع الواحد قد انتقلت من حيزها الواسع المنظور ، الى حيز دقيق غير منظور ، ونعني بذلك ان نقل الانسجة والاعضاء من كائن لآخر قد حل محله نقل اجزاء من خلية الى خلية اخرى ، ويعرف ذلك باسم عمليات **الاجراحة الخلوية** Cellular Micro-surgery .

لكن انما نريد ان نذكر اننا قد قمنا في هذا المقال على الاشارة الى بعض النواحي من هذه العملية ، ولكن ذلك - كما ذكرنا - خلال مجرم ، وبقينا نود ايضا الى تكملة تفاهيم بيات على نبات من نفس السلالة او الكائن ، دون تفهم خلايا البرتقال على التارنج والخوخ على البرقوق ، والكثيرى على السفرجل .. الخ ، فيكون النبات من نباتين : المجموع الجارى لنبات ، والمجموع الخضرى للنبات الاخر ، او قد نرى ثمار هذا وذالك على

الا ان نجاح ذلك يحتاج الى تفهم أعمق ، وإلى « تكتيك » اقوم ، ويبحث أعظم ، وإمكانات أعظم ، اذ ليست أسرار الحياة بالامر الهين . لكن تدخل الانسان فى شئون الخلق ، وأحلاله التكاثر من طريق اندماج الخلايا الجنسية بعملية التزاوج الطبيعية المعروفة ، محصل التكاثر من طريق الخلايا الجسدية قد يؤدي الى تصورات رديئة وهويسة ، وان ذلك يستلزم تغيير الشرائع والسنن والقوانين ، ويتطلب نظاما اجتماعيا لم تعرفه الأرض قبل ذلك أبدا .

نعمنى تحويل خلية جسدية من أى عضو فى أعضاء الجسد الى خلية شابة تستطيع ان تنقسم وتتكاثر وتطور كما يتطور الجنين فى الرحم .. معنى ذلك انك سوف تحصل على نسخة جديدة من ذلك ، نسخة طبق الاصل منك ، أى كلما أنت تعود فى الزمن الى الوراء ، او كأنما طفولتك قد بعثت من جديد ، ثم تعر بنفس حراجل النور التى مورت بها قبل ذلك ، وكأنما ذاك الطفل او الشابة تقف أمام ذاك الهرم او الكهنة .. الى آخر هذه التصورات الرديئة التى قد يحققها العلم يوما .

لكن ذلك كلام لا شك غامض وغريب ، ويحتاج الى شرح وتفسير .

• • •

التغذية بخلية بدلا من البلور !

ألقى مستوفى شيئا مما يطوف بالذهان العلماء ، يوما يجرى فى معاملهم ، كان علينا ان نلتهم أولا ملحق من الامثلة التى نجحت فيها هذه التجارب ، ولابد اننا بيناين معروفين : **تجربة التلقيح ، وتلقيح البلور** ، نكلاهما يتكاثر من طريق البلور ، والبلورة جنين نائم فى مهد من غذاء معتزن ، وهو نتيجة حتمية لاندماج حبة لقاح (خلية جنسية ذكورية) مع بويضة

فى الكائنات الراقية يتم التزاوج بين الذكور والاناث ، وفى التزاوج يحدث التلقيح بين خلية جنسية ذكورية ، وأخرى انثوية ، فتنفص هذه مع تلك ، فيؤدى ذلك الى سبيكة جديدة ، جديدة لا يمكن ان تتكرر أبدا بين ضفدع وضفدع ، وحمار وحمار ، وانسان وانسان .. يستثنى من ذلك فقط حالة التوائم المتماثلة او المتطابقة Identical twins ، لانها تنتج من السبيكة الوراثية ذاتها ، وذلك بعد ان تنفصل هذه السبيكة الموحدة الى جزئين او نصفين متشابهين ومتماثلين تماما (من حيث الصفات الوراثية بطبيعة الحال) ، وعندما ينمو كل نصف ليمطى جنينا مستقلا ، فعان الجنينين يكونان متشابهين ومتطابقين فى كل صفاتها الوراثية .

لكن بعض التجارب التى يجرىها علماء النبات على النباتات ، وعلماء الحيوان على الحيوان ، قد الفت هذه لطريقة - طريفة التزاوج بين الذكر والانثى ، وامكن الاستعاضة عنها بالحصول على نباتات جديدة من للنبات نفسه ، أو حيوانات من الحيوان نفسه - ليس ذلك من طريق خلايا جنسية فى أنابيب الاختبار او غير ذلك مما يعول فى العقول من افكار ، بل جاء من طريق خلايا جسدية ، وهذا هو الامر المثير والقريب .

يعنى هذا - ببساطة شديدة - اننا نستطيع ان نأخذ خلية جسدية من أعضاء ضفدع ليخرج منها ضفدع طبق الاصل من الضفدع الأول ، او قد نحصل على خلية من ذب ذب ، لنعطى ذبها ، او من مین مصفور ، لنكون مصفورا ، وما قد يجرى على الضفادع والمصفوري والذباب قد - يجرى - من حيث الابدأ - على الاسماك والقرود والحمير والبشر - فالاساس واحد ، وان اختلفت الصور !

هذه اللعبة الخطرة قد نجحت بالفعل فى إنتاج بعض النباتات والحيوانات ، ولكن لم ينتج مع سائر أنواع الحيوان ، بما فى ذلك الانسان .

وبعد ذلك ، قام كل من ف . فاسيل ،
 أ.س. هيلرانت بتطبيق نتائج ستيوارد ،
 لكنهما استخدما نبات التبغ في تجاربهما ،
 وحصلانه على شرائح من نسيج يعرف باسم
 اللب او النخاع Pith ولا يهم ان كان هذا
 النسيج من ورقة او جلد او فرع او ساق ،
 المهم انهما فصصا هذا النسيج الى خلايا ،
 وزرعت الخلايا مباشرة على جيلالين به غداء
 خاص ، وتكاثرت الخلايا ، واعطت كل خلية
 نسيجها ، ثم تحولت الانسجة - بمرور الايام
 وبالرعاية والعناية - الى جذور وسوق
 وأوراق وأزهار ، ولاول مرة ايضا في تاريخ
 الحياة على الارض يتم انتاج ذرية لنبات
 اللخان من خلايا جسمية - لا جنسية .

هذا - باختصار شديد - بعض ما جرى في
 عالم النبات . فلماذا تم في عالم الحيوان ؟

اليوم صنفه .. وهذا انسان !

شيء آخر مختلف .. وذلك ان الامور في
 عالم الحيوان اكثر تعقيدا ، وابعد مثالا ، ثم
 ان الوصول الى النتائج يحتاج الى صبر
 جميل ، واساس في العلم عميق ، وحساسية
 في الاداء لا يقدر عليها الا كل باحث دؤوب ،
 ثم ان النتائج غير مضبوطة ، ونسبة النجاح
 فيها ضئيلة ، ولكن المتفانين من العلماء
 يقولون : ليست كل بداية دالماموفقة ، كما
 ان كل شيء يبدأ صغيرا ومتواضعا ، وبعدها
 يصقل ويتطور الى الاحسن دائما .

صحيح ان العلماء يستطيعون الحصول
 على اى نسيج يشاؤون ، من اى مخلوق
 يرغبون ، وبوسائل خاصة يفككون الانسجة
 الى خلايا ، ومن الممكن ان نمد تلك الخلايا
 الهالمة بمحاليل غذائية ومعقدة ، فاذا بها
 تنقسم وتكاثر وتنمو (شكل ٧) ، لكنها مع
 ذلك لم تشكل وتتحول الى مخلوقات تسمى ،
 ولو حدث هذا كما يحدث في التجارب التي
 اجريت في عالم النبات ، لاستطعنا ان نقدم

في مبيض زهرة (خلية جنسية انثوية) ،
 وهذا هو الامر الطبيعي في حياة هذين النباتين
 او في حياة كل النباتات الاخرى التي تتكاثر
 بالبذور ، لكن بعض العلماء قد ضربوا بهذا
 المبدأ عرض الحائط ، واستطاعوا انتاج نباتات
 طبق الاصل من النبات الام - من طريق خلايا
 جنسية ... لا جنسية !

في جامعة كورنيل الامريكية كانت تجارب
الجزر ، وهناك نجح عالم النبات ف . س .

ستيوارد في انتاج الجزر من طريق آخر غير
 طريق البذور ، فعندما احضر جزرة ، وجهر
 منها عديدا من الشرائح الرقيقة ، اخذ منها
 نسيجا خاصا يعرف بالبلغم Phloem ، وهي
 خلايا حية مسئولة من نقل العصارة الغذائية
 من الاوراق الى جميع اجزاء النبات ، ثم وضع
 انسجة اللحاء على جهاز ميكانيكي رجراج في
 دورق به غداء خاص محقق ، وعندما رجحت
 الانسجة رججا شديدا على هذا الجهاز ، ادى
 ذلك الى انفصال بعض الخلايا اللحاءية .. اما
 فرادى او في مجموعات ، واخذت الخلايا
 ووضعت في دوارق واقفاة تساقط على غداء
 ذات مكونات ومغائر تشابه ، ومرت الايام
 وتكاثرت الخلايا ، ثم بمعاملات كيميائية خاصة
 تحولت الى انسجة ، ومن الانسجة برزت
 جذور ، وعندما نقلت هذه الى اطباق بها
 غداء هلامي متصلب كالجيلاتين ، تفترمت
 الجذور هنا وهناك ، بدأت تمتص عناصر
 الغذاء من الطبق ، وتبعت بها الى الانسجة
 المتكورة ، وحدث لهذه الخلايا بالمرور ان تنشق
 من النسيج ساق واوراق ، وتطقت النباتات
 الى ارض كالحية ، وتشتتت جذورها ،
 واستطاعت ان تنمو وتنتج البذور ، وتنتج
 تنمو بمخاطرون ، وتنتج البذور ، وتنتج
 من البذور البذور ، وتنتج البذور ، وتنتج
 الابصيل من البذور ، وتنتج البذور ، وتنتج
 فانسجة ، وتنتج البذور ، وتنتج البذور ،
 منها ، كما ان البذور ، وتنتج البذور ، وتنتج
 ولا بد من في تاريخ الحياة على الارض !



شكل (٧)

يسطح الكلباء الآن عزز الكلاباء من أجسام الأسماك والحيوان ، تم تربيتهما في المعامل على مساحات ضيقة معدة .
 جند وشمس ونشره وطور ونشأ ، والسرور يوسع يفسى هذه الخلايا الهائلة في مساحاتها ، وفيها يجري
 العلماء تجاربهم كعلم أكثر وأفضل - برزت الحياة الخلوية (الصورة إلى اليسار لخلايا صغرى وإلى اليمين خلايا ل
 صمام ذوقها) .

ويعي بعدهما عالم الحيوان ج. جوردون من
جامعة أكسفورد بانجلترا ليعلم - لأول مرة
في التاريخ - أنه تمكن من إنتاج ضفادع كاملة
التكوين بطريقة تختلف تماما عما يحدث في
الطبيعة .. أي دون أن يكون هناك تزاوج أو
تلقح بين خلايا جنسية .

والواقع ان هذا الانجاز العلمى العظيم يقوم على اساس عمليات جراحية دقيقة ، وهى عمليات لا تستخدم فيها الأدوات الجراحية التقليدية ، لانا نتعامل مع خلايا لا ترى الا بالميكروسكوب الالكترونى ، ومن اجل هذا يستطيع العلماء ادوات جد دقيقة لتناسب هذا العالم الدقيق ، وبها يستطيعون زراعة نواة خلية فى خلية اخرى بعد تفرئها من نواتها ، ولا شك ان هذه العمليات تتم تحت مجاهر خاصة ، وهى تستلزم مهارة العالم وصاحبه واتزانه ومثابرته الى ان تعرف الكل . والله .

ولكى يتم انتاج نسخ ضفدية من طريق
للخلايا الجسدية لا الجنسية ، يقوم العلماء
بم سحب نواة من خلية في امعاء ضفدع ، او من
بعض انسجيم آخر مناسب ، ثم يصفرون بويضة
لتنقى لها نكسب بعد ، وتفرغ البويضة من
نويجها ، ويوجد التفرغ لزرع فيها نواة الخلية
الجسدية لصفدع من النوع ذاته ، وتحتاط
البويضة الجسدية بالرعاية في حوض به ماء ،
يرى العلماء ان كانت الملية قد نجت او
خسبت ، تماما كما يضع الجراحون مرضاهم
الذين نزلت اطيهم قلوب او كليات غيرهم
نحت : الواقعة العلمية الصارمة ، لروا ان كان
السلندة قد قتل عضو الزرد او لم يقتل!

والخلاصة: لا بد من النواة الجسدية على
النواة النفسية ولازم الخاص بالخلية الجنسية
(نواة الخلية) ، أو قد يحدث العكس ، فلا
أحد يدعى ، فننتقل فيها كذيفة الانقسام ،
فتتكاثر وتتكاثر ، وتتطور وتنمو ، وتتحول
في النهاية تحت سمع العلماء وبصرهم الى ابي

لك من ذلك نسخا عديدة لا يمكن لاحد ان يميز بين صفاتها الظاهرة والباطنة ، ولا ان يميز بينك وبينها . فالامر لا يحتاج الا لشرعة جد دقيقة بين البشره والاصبع والساك والكبد او الى اى جزء تريد من اى عضو تشاء ، ومن مئات الخلايا الجسدية المتكئة او ربما الالف (ذلك يتوقف على حجم الشريعة المعزولة) ، يمكن تحويلها الى مئات الانسجة . هذا لو امكن ان يمول الانسان مئات الانسجة الاتالي يقينان يصعب حفظت لتلك الخلايا لتشكّل في الارحام ، وحفظها لتظهر الخلايا الجسدية على هيئة اجنة تنمو وتتطور وتولد وتحيو وتمشي وتكبر لتكسر وتجسّد البيولوجي في غير الزمان والمكان . . . لما كنت ، وماكنت انا !

مثل هذه الأمور لا يمكن أن تحدث بسهولة في عالم الحيوان الذي يتكون من انسجبة مقدرة ، ومضاهة ، ويرافق حيوية تعلم بعضها بعضها ، لكنها قد تحدث مع الحيوانات الدنيا التي ليس لها مثل مالنا ، والتجارب الكثيرة التي أجريها العلماء ويجريها الآن توضح هذه الحقيقة تماما ، لكننا لن نعرض لهذه الموضوع كثيرا هنا لضيق المجال ، إذ يكفي أن نذكر أن هناك كثيرا من التجارب والتجارب البيولوجية التي توضح لنا الكثير مما خفى علينا من أسرار الخلق ، ثم إن حله الأسرار الله ففصح لنا الأبواب إلى أسرار صديقنا ، علما أننا نتفحص مستقبلا في فهم بيولوجية الإنسان التي بدانا فيها بصورة

لا علينا من كل قلة منكم ، واستغفرني جنة
تجارب مشرة كان يفتخر بها ، يستعبد
السرطان في ليلاته في كل ليلة ، يستعبد
الذئب في هذا الجحيم ، يستعبد في
وقر في النفس ، يستعبد في النفس ، يستعبد
قولنا هذا بعد ان تمكن كل من العالين توماس
تجرب وديترب برجع من انتاج اجنة فساد
بغير طريق الخلايا الحسية او التواو ،

أصول كتبها كتابها ، وجمعت في مطابعا ، وانتظمت في ابوابها ، وذارت آلات الطببع بهذه الأصول ، لتنتج آلاف النسخ التي لا يمكن أن تختلف في مادتها ، ومن الممكن أن تطبع عشرات الألوف أو الملايين ، وكل النسخ - بطبيعة الحال - متشابهة ، حتى أخطؤها متشابهة أيضا ، وكذلك تكون كل الخلايا الجسدية التي اشتقت من الخلية الأولى (وهي هنا بمثابة النسخة الأصلية التي جمعت في المطبعة) ، فمادتها الوراثية نسخة طمسق الأصل من المادة التي نشأت بها البويضة الملقحة من زمن .

والى هنا قد يبرز سؤال هام : صحيح أن كل نسخ الطبعة الواحدة في الكتب والمجلات متشابهة تماما ، ولكن كيف نفسر اختلاف الخلايا الجسدية وتنوعها في المخلوق الواحد ؟

الإجابة على هذا السؤال تحتاج الى صفحات وصفحات ، لكن يكفي أن نقول ان الذي يؤثر على تشكل خلايا المخ والعين والجلد والاعضاء والدم والمضلات وما شابه ذلك هي الخلايا الوراثية في نواة الخلية ذاتها ، ففي كل مرحلة من مراحل نمو الجنين ، تؤثر الخلايا بعضها البعض عن طريق رسائل كيميائية خلصية ، فتتحول هذه الرسائل الى ما يشبه المفاتيح والاقفال ، فتفتح في المخطط الوراثي لكل خلية « ملفات » وتطلق اخرى ، أو تكتسب هي تظهر فقرات من كتاب ، وتطمس اخرى ، فاما الملموس أو المثلث فيبقى ساكنا ، واما الذي افتتح فقراته ، فعليه ان ينفذ ما جاء في هذه الفقرات من اوامر ، ويحول الأوامر رسل ، وبها توجه الى مساحة الخلية ، فتتحول الى بروتينات والزيوت ، هي التي تسيطر على تشكيل الخلية ، ويحور في عملها ، حتى يتناسب ذلك مع وظائفها .

فمن المؤكد مثلا ان خلايا الكبد لا تشبه خلايا المخ ، ولا خلايا المخ تشبه خلايا اللسان ولا العضلات ولا البشرة ولا الرئة ... الخ ...

ذنية (وهو طور من أطوار نمو الضفادع) الذي يسبح امامهم في الماء ، ثم اذ باى ذنية يتحول بدوره الى ضفدع بالغ .. ضفدع طبق الأصل من ذلك الضفدع الذي سحبنا نواته وزرعناها في تلك البويضة .

لكن .. ماذا تعنى هذه التجربة حقا ؟

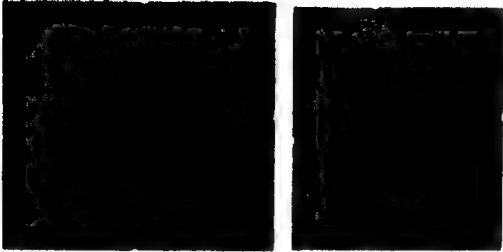
انها تعنى امرا بالغ الخطورة والتعقيد ، اذ لو امكن - في المستقبل القريب أو البعيد - تطبيقها على الإنسان ، لأحدث ذلك مصاعب ومواقف لا يمكن ان تكون في الحصان .. ولكي نوضح ذلك ، دعنا نتعرض باختصار للاساس .

طبقات مكررة من ذات المخلوق !

ان اية نواة في اية خلية جسدية مشتقة اساسا من النواة الاولى في البويضة الملقحة ، حيوان منوي مع بويضة في رحم انثى ، أو بالتجديد من نواة تحمل كل صفات الذكر ، واخرى تحمل كل صفات الانثى ، ومن اجل هذا ياتي الجنين ثم الوليد حاملا لصفات ابويه (شكل ٨) .

اي كانما النواة في البويضة الملقحة بمثابة سجل وراثي متكامل ، أو طبعة جديدة لمخلوق قادم ، وان كل ملايين الملايين من الخلايا الجسدية المختلفة مشتقة حتما من الخلية الاولى الملقحة من خلال عملية التكاثر والانقسام ، وفي هذه العملية « طبخ » المادة الوراثية - أو بالتحديد الجزيئات الوراثية (ح د ن) التي سبق أن اشرنا اليها - ملايين وبلايين النسخ من ذاتها ، وتحفظ في أنبوبة تتوزع في كل الخلايا الجسدية لتدير بها شئونها .

ولكي نوضح ذلك نقول عليك مثلا ان تتأمل هذه النسخة من المجلة التي بين يديك .. انها واحدة من آلاف ، والالاف نشان من



شكل (أ)

· البويضة إلى اليسار لا تستطيع أن تنتج ذرية إلا إذا تلاقحت مع حيوان منوي (الصورة إلى اليمين) ، وهنالك يلج إليها ، وتختلف اشهرته الوراثية بأشهرتها ، ومن هذه اللحظة تبدأ حياة الكائن الحقيقية .

أن الآن أن نسال - بناء على ما قدمنا -
سؤالاً : ماذا لو حصلنا على نواة من خلية في
كبد أو أمعاء أو طحال .. الخ ، واستطعنا
أن نفتح في كل منها جميع مخططاتها الوراثية
المغلقة ؟

في هذه الحالة سوف تعيد النواة -
المتحررة من أغلالها - قصة حياة الكائن الذي
مزلت منه أول مرة .. بداية من حالته
الجنينية إلى طفولته وصباه وشبابه ورجولته
.. تعيده صورة طبق الأصل ، أو كنسخة
بالتكرير في بصماته وبروتيناته وصوته ومزاجه
ولونه وكل صغيرة وكبيرة فيه ، وبحيث لو
نقلت نسيجاً أو عضواً من « النسخة » المبعوث
للحياة إلى النسخة الأتلة عن الحياة ، أو
العكس ، فإن أحد الجسدين لن يرفض ما
ينقل إليه ، ولن يتصرف على أن ما نقل إليه

الخ ، هذا رغم أن كل هذه الخلايا قد
اشتقت من خلية أولى ، وهذه بدورها
انقسمت إلى خلايا متشابهة لا يمكن تمييزها
(شكل ٩) ، أما باقي التمييز في مراحل
زمنية محددة ، وكأنما هذه الخلايا تحمل معها
زمنها (١) ، فتخرج الأواصر الكيميائية لتفلق
كل المخطوط الوراثية في خلايا الكبد مثلاً ،
وتترك ما بين ١ - ٥ ٪ فقط في حالة عمل ،
وهذه النسبة البسيطة هي التي « تفتح »
ملفاتها الوراثية لتشرّف على تحويل خلايا
محددة في الجنين إلى خلايا كبد ، هذا رغم
أن نوى خلايا الكبد تحصل كل المخططات
الوراثية الصالحة لتحويلها إلى خلايا عصبية
أو دمعية أو طحالية أو كلوية ... الخ ،
ولكنها مغلقة جميعاً ، إلا ما صلح فقط مع
رسالة خلايا الكبد ... وعلى مثل هذه
الوتيرة تكون كل المخططات في الخلايا الأخرى .

(١) انظر في هذا الصدد دراستنا عن « الزمن البيولوجي » في العدد الثاني من المجلد الثامن من هذه المجلة

هذه الذن واحدة من الإنجازات البيولوجية الثميرة والفريدة ، وحسباً لله أنها قد حدثت مع ضفدع ، ولم تحدث مع إنسان . . صحيح أن اليوم ضفدع ، ولكن غداً قد تكون النجولة مع قار أو حصان أو إنسان .

ولماذا لم يفعلها الطعام مع إنسان ؟

الواقع أن نجاح نسبة من التجارب في الضفادع يرجع إلى أسباب : منها أن الضفادع لا تمتلك أرحاماً كما هو الحال في الحيوانات الثديية . بما في ذلك الإنسان بطبيعة الحال ، فمن المعروف أن أنثى الضفدع تضع بويضاتها في الماء ، وفيه تخصب وتنمو وتشكل وتخرج من بويضاتها على هيئة حيوانات جد صغيرة تضرب بذيلها أو أذناها في الماء ، ولقد كان لوفرة بويضات الضفادع ، وكبر حجمها بالنسبة لحجم بويضات الحيوانات الثديية ،

هو جزء من الذات الأخرى ، حتى ولو اختلفت مراحل النمو في الأجساد ، ذلك أن الخطط الوراثية التي اشرفت على تكوينه في المرة الأولى عن طريق التزاوج ، هي التي ستنفذ « الطبيعة » الثانية ، وربما الثالثة والرابعة . الخ عن طريق تحرير نواة خلية جسدية من كل أغلالها .

وهذا ما حدث بالضببط في حالة الضفدع . . فعندما انتقلت نواة خلية جسدية من أمعاء هذا الكائن ، إلى بويضة أنثى افترقت من نواتها ، أثر السيوبلازم على النواة ، وحررها من أغلالها ، وافتتح كل ملفاتها ، وعادت إلى حالتها الجنينية مرة أخرى ، وبهذا أعطيت ضفدعاً طبق الأصل من الضفدع الذي نشأ أول مرة ، أو كأنها هي طبعت منه طبعة ثانية لا تفسير فيها ولا تبديل !



شكل (٩)

بما البويضة الملقحة في سلسلة من الانقسامات المتتالية يتحول إلى خلايا متشابهة لا يمكن التمييز بينها (الخلايا الأربعة إلى اليسار) ، لكنها في مراحل تمييز السبديات خلايا مختلفة (الصورة التي إلى اليمين وهي تكون من أطوار الإنسان عمره ما بين ٦ - ١٤) ، ثم تتحول الخلايا إلى أنسجة متباينة . . . فما أتدري يشكها . . (راجع الدراسة) .

ما ساعد العلماء على إجراء عملياتهم الجراحية الخلوية فيها .

لكن كل هذه الأمور ليست ميسرة في حالة الإنسان على وجه الخصوص ، وهى - بلا شك - تصطم بالعديد من المشاكل العلمية والتكنيكية والاجتماعية والمقالية . . لكن الزمن وجهود العلماء كفيل بتدليل تلك الصعاب ، فكم من أمور حسبنا الوصول إليها خيالاً ، فاذ بها تتحقق ، وتصبح ملء سمع الناس وأبصارهم .

• • •

تصورات رديئة !

لكن .. هل نستحق تلك اقتجابات - تجارب اصلافة نسخ انسان بلالاه ، او حيوان بيمينه - كل هذه الاهتمامات ، آخلين في الاعتبار كل ما تتطلبه من جهد ووقت وصبر ومال وامكانيات ؟

الجواب : ان ذلك قد يكون مفيدا في حالة الحيوان دون الانسان ، فانتاج نسخة من حصان لم يجد به الزمان من قبل امر مرغوب فيه ، وكذلك يكون الحال مع نور قوى خصيب ، او فصل جاموس معتبر ليورث صفاته الحسنة الى اجيال قادمة . . او ما شابه ذلك من خصال محمودة يجب المحافظة عليها « بطبع » نسخ طبق الاصل منها ، اسوة بما حدث مع الضفدع .

لكن إعادة طبع نسخة او نسخ من انسان سوف يحدث ثورة فكرية واجتماعية ونفسية وتشريعية وفي ذلك من امور لا نظرا لنا على يال . . صحيح ان بحث نسخة طبق الاصل من انسان مدبر من الحياة (يستوى في ذلك الذكر او الانثى) سوف تضعنا في مأزق فكرية رديئة ، اذ كيف سيتعامل افراد الاسرة الواحدة مع نسخة من اب او ام في دور

الطفولة ؟ . . وما مصر هذه النسخة بالنسبة للاولاد ؟ . . وهل سيتعامل معها على انها أحد الوالدين ، او على انها أخت او اخ ؟ . . وما هو حكم الميراث الشرعى في مثل هذه الحالات ؟ . . ثم ماذا سيكون موقف العائلة لو حدث الاستلطاف بين نسخة جديدة من الاب ونسخة جديدة من الام ؟ . . وما هو حكم الشريعة لو حدث التزاوج بينهما ؟ . . وكيف سيكون حال ذريتهما ؟ . . وما صلة القرابة بينهم وبين افراد العائلة التي جاءت من النسختين القديمتين (اى الاب والام الكهلين) ؟ . . الى آخر هذه الاسئلة العويصة التي تنبع من تصورات سخيفة ، وأفكار رديئة !

ونعوذ بالله من حدوث مثل هذه الامور المفرقة في المستقبل القريب او البعيد ، ولم ان البحوث اليوم قد تجحت في ضفدع ، وربما تنجح في البشر ، وعندئذ قد لا تبقى في التقاليد المتوارثة ولا تدر !

ومع ان مثل هذه البحوث البيولوجية الخطيرة قد نشرت في المجلات العلمية ، الا انها مع ذلك لم تثر روية ولا اعتراضا كتلك الروبة التي نشهدها الآن في مجال نقل وزرع احدى مكونات النواة من خلية ، الى مكونات النواة في خلية اخرى ، اذ ان ذلك سيكون بمثابة تخطى الحدود التي رسمها الله لحفظ الانواع المختلفة من الخلط والتبديل والتغيير ، ولقد فعلها الانسان ، ومن هنا قامت قيامة بعض العلماء والهيئات والحكومات منددة بخطر قد يتكسح الارض اكتساحا ، والى هنا قد يتحقق القول الفصل « حتى اذا اخلقت الارض زخرفها وازينت ، وعلن اهلها اتهم قادرون عليها ، اتاهام امرنا ليللا او نهائرا ، فجعلناها حصيدا كلن لم تقن بالامسى » (سورة يونس : آية ٢٤)

ومع ذلك ، دعنا نتعرض لآخر مرحلة دقيقة من مراحل البحوث البيولوجية التي

ففي صيف عام ١٩٧١ ، وفي أحد المعاهد الأمريكية الخاصة ببحوث السرطان ، كان العالم الشاب **ويوت بول** يحاضر عن كيفية تداول الفيروسات المسببة للسرطان في البحوث الجارية بطريقة سليمة ومأمونة والعواقب ، وبعد أن انتهى من محاضراته ، سمع من عالة زائرة للمعهد أن رئيسها البروفيسور بول بيرج بالمرکز الطبي بجامعة ستانفورد ينوي القيام بتجربة مثيرة ورائدة في هذا المجال ، فهو يعد العدة لكي يزرع الفيروس المعروف باسم **س ف - ٤٠** في داخل ميكروب يعيش في بيئة تعاونية ومسالة في أمعاء الإنسان والحيوان ، وهذا الميكروب يعرف باسم **البكتريا القولونية (إيشيريشيا كولاي)** *Escherichia coli* (أما

الفيروس المراد زراعته في الميكروب ، فهو واحد من الفيروسات التي ثبت أنها تسبب نوعا من السرطان في حيوانات التجارب .. صحيح إن الفيروس قد عزل من القرد ، وصحيح أنه لا يسبب لها أوراما سرطانية في بيئتها الطبيعية ، إلا أن الأمر يختلف في حالة حقن هذا الفيروس في حيوانات المعامل ، إذ أنه - في هذه الحالة - يحدث فيها أوراما سرطانية ، أخف إلى ذلك أنه يستطيع أن يصيب خلايا الإنسان المبرولة والمزروعة في الدوايق والأنابيب المقممة ، ويحولها إلى خلايا سرطانية ، رغم أنه لم يثبت - ولو مرة واحدة - أن هذا الفيروس يمكن أن يسبب أوراما سرطانية في الإنسان ، علما بأنه كان يدخل مع اللقاحات المضادة لشلل الأطفال بطريق الخطأ ، ولو كان فيه ضرر ، لظهرت آثاره بعد ذلك على البشر .

ولقد ذم بولك عند سماحه هذا الخبر ، وطاعت بقله الهواجس من احتمال نجاح مثل هذه التجربة ، وما قد تتمخض عنه نتائج أو أضرار لا يعلم مداها - في الوقت الحاضر - احد ، ومن ثم طلب جامعة ستانفورد على الهاتف ، ليتحدث شخصيا مع البروفيسور بيرج ليؤكد بنفسه من الخبر ، وتمت المكالمة واستمع البروفيسور إلى الشاب باهتمام ، وهو

تتمس بالعمق والإصالة والصقل والتطور ، لنرى لماذا يعترض بعض العلماء على هذه البحوث رغم علمهم أنها مستطوره مبررنا لفهم اعمق وادق لكثير من اسرار الحياة التي لا زالت صعبة المنال .

• • •

بداية بحوث اقرب وأخطر

قبل أن تلج في هذا الموضوع ، الهام نرى انه من الاولف أن نستعرض سريعا التصورات والانجازات التي راودت الإنسان من قديم الزمن ، وما تحقق منها حتى الآن .

في البداية تصور الإنسان مخلوقات اسطورية تجمع بين أجزاء مختلفة من حيوانات معروفة ، ثم يجه على الإنسان عصر يتوصل فيه إلى تطعيم نبات على نبات ، ويثله عصر آخر ينجح فيه في نقل عضو من أنسان إلى أنسان (زراعة الأعضاء) ، وأخيرا استطاع أن ينقل نواة من خلية جسدية ويزرعها في خلية جنسية متفرغة من نواتها ، فتعطي نسخة طبق الأصل من الحيوان القديم ، وكأنما هو يبعث من جديد ، ثم في الوقت ذاته ينجح علماء النبات في إنتاج نباتات من خلايا خضرية (أو جسدية) معزولة من بعض النباتات ، وبمعاملتها بمواد كيميائية خاصة تعطي نباتات طبق الأصل من النبات الأول ، وهذا يعني أنه لأول مرة في التاريخ ينتج العلماء نباتات من طريق خلايا جسدية بدلا من زراعة البذور التقليدية ، وأخيرا نجح العلماء في نقل صفة محددة من كائن ، ويزرعها في كائن آخر ، ليكتسب صفة جديدة لم يبرها طيلة حياة نوعه الذي ربما ظهر على الأرض منذ مئات الملايين من السنين .

ولكي نوضح مغزى نقل الصفات الوراثية بين الأنواع المختلفة متخطين في ذلك كل الحدود الفاصلة بين الأنواع ، كان علينا أن نعرض لأول محاولة تمت في هذا المجال .

تخولهم الى احتمال حدوث تفسير ورائى في الميكروب المسالم ، وقد يكون هذا التفسير في غير صالح اجسامنا واجسام الحيوانات الأخرى ، خاصة وأنه يعيش في امعائنا ، ويمتبرها بيئة في صالحه وصالحنا ، فعماذا لو تفسر وقلب علينا الموالد ، وعندئذ قد لا يبقى في الحياة ولا يلد ؟

بين اشرطة الحياة واشربة البشر !

ولقد لزم العلماء جانب العذر ، لكن يبدو ان الكشوفات البيولوجية الهامة كانت تدفعهم دفعا لارتداد آفاق اعمق واخطر ، اذ حدث - بعد ان الفى بيرج تجربته المرة - ان باحث بعض الخلايا الحية بأسرارها التى سال لها لعاب العلماء ، وعندئذ بدأت سلسلة من التجارب البيولوجية كانت ادهى وامر !

وقبل ان نتعرض لمثل هذه الامور العلمية العويصة ، كان لزاما علينا ان نهيئ لذلك بشيء من واقع حالنا ، فنحن نعرف جميعا اشرطة التسجيل ، ثم اننا اذا اردنا ان نسجل شيئا على شريط ، فلا بد ان يكون التسجيل امينا ومتقنا وكاملا بدون شوائب أو تداخل أو ما شابه ذلك ، سواء كانت المادة المسجلة محاضرة قيمة ، أو سيمفونية خالدة ، أو ذكريات غالية ، أو أغنية محببة .

وفي جهاز التسجيل الذى يدور عليه الشريط يوجد « مداد » ليحدد لك اول مقطع الاغنية ، أو بداية الحديث ، كما يحدد لك نهايته ، ثم بداية الاغنية التالية وهكذا .

لكن قد يحدث ان يأتى من يريد ان يداخلك مداعبة ثقيلة ، فيأتى بموسى ويشريط لاصق ثم يقطع من شريطك المسجل جزءا من اغنية، أو شطرا من حديث ، ويدس جزءا من مقطع اغنية اخرى ، أو حديثا لشخص آخر ، أو قد يلسق تسجيلا لنهيق حمام ، أو صياح ديك .. أو ما شابه ذلك ، وقد تستمع ب

يسر عليه مخاوفه من جراء اجراء مثل تلك التجارب ، وعندئذ طمانه الاستاذ ، وأمر اليه انه لا داعى للخوف أو القلق ، فمعدن سنين طويلة ، ومعامل العالم اجمع تتداول هذا الفيروس دون ان يسبب للانسان اية اضرار تذكر .

ثم يذهب الاستاذ الى ابعاد من ذلك ، ويشرح للشباب وجهة نظره ، ذلك ان اختباره لزوع الفيروس في الميكروب يرجع الى اسباب: منها ان هذا الفيروس بالذات بسيط التركيب جدا ، وأنه يحتوى على عدة مورثات (جينات) قليلة ، وان هذه المورثات قد درست بالتفصيل ، وامكن قراءة شفرتها (الكود Code الورائى) ، ثم يبدو من نتائج التجارب التى حصل عليها العلماء ان هذا الفيروس يحوى جينة محددة ، وإنها قد تكون المسؤولة من تحويل الخلايا المعزولة (من القرود ومن البشر) والزروعة في الدواقر الى خلايا سرطانية ، وان نجاح زراعة هذا الفيروس في ميكروب ، ثم دراسة سلوكه مع الميكروب ، قد يوضح لنا المزيد من اسرار هذه المورثة ، وربما يقربنا ذلك الى تفهم اعمق لبيولوجية السرطان ، وفوق كل ذلك ، فقد يؤدى مثل هذا الكشف المثمر الى تطوير علومنا البيولوجية، ولا يستبعد ان يحوز على اعظم جائزة عالمية متمثلة في جائزة نوبل للعلوم الطبية أو ما شابهها !

وبدا خبر هذه التجربة ينتشر ، وتناقش العلماء فيها وفي مفزاها ، فمعظم من ايدها ، ومنهم من اعترض عليها وجافاها ، وحتما احس بيرج بأن التباد في غير صالحه ، وشر بان مثل هذه التجارب يمكن ان تجر امورا قد لا يحمدها عقباها ، تخلق من القيام بها ، وهجرها هجرا جريلا .

ويرجع سبب تخوف العلماء المحترسين على مثل تلك التجارب - تجارب زرع فيروسات او جينات في خلايا لم تعرفها قبل ذلك - يرجع

ولو تصورنا اننا قد أوصلنا هذه الأشرطة الوراثية الموجودة في نواة خلية واحدة ، بلغ طولها حوالي المترين ، لكن ممكنا لا يتجاوز جزئين اثنين من مليون جزء من المليمتر . . وهذا يعني أنك لو طويت هذا الشريط الوراثي ، فإنه لن يظهر ، حتى ولو نظرت إليه بالميكروميكروبات العادية ، ورغم ذلك فهو يحتوى على أكثر من ثمانية آلاف مليون شفرة وراثية ، وهذه هي التي تحدد كل صفة وكبيرة في صفات الإنسان البيولوجية والوراثية !

وطبيعى أن هذه الأشرطة الكائنة في جيناتها تعمل في تناسق وتفاهم تام ، ولولا ذلك لبيت الفوضى في الأجسام ، ثم أن تحديد صفاتنا يتوقف على انتظام التشفرات في أشرطةها بطريقة خاصة ، وإن أى تلاعب في هذا النظام ، أو أى تغيير فيه بالتحذف أو الإضافة ، سوف يؤدي حتما إلى نتائج خطيرة .

ولاشك أن الحديث عن هذه الأشرطة العظيمة سوف يتشعب ويطول ، ولكن يكفي هنا ما قدمنا فأوجزنا ، ولنعد الآن إلى الحديث عن كيفية تلاعب العلماء بهذه الأشرطة ، وكيف زوروا فيها !



فصل « المشاوط » الكيميائية من « جسد » الطبيعة !

علينا أن نعود فنذكر أن المهيم على التقدير الوراثي لكل كائن حي على هذا الكوكب - صفر شأن هذا الكائن أو كبر - هو شريط أو عدة أشرطة مسجّلة عليها الشفرة الوراثية ، وإن كل كائن قد جاء بسجلاته التي حفظت له فيها صفات نوعه ، ولقد اكتشف العلماء له لهذه الأشرطة - في بعض أنواع البكتيريا - « مقصات » تقصها في مواقع محددة ، وما

إلى هذا الشريط المزيف - دون سابق علم بما حدث ، وعندئذ قد تنزع لما تسمع ، وتسخط على من فعل !

وأحيانا ما تقوم إدارة المخابرات في بعض الدول بعمليات تمويه غريبة في الأشرطة المسجلة وبحيث يضاف إليها عبارات بصوت من يريدون اتهامه ، أو تحذف منها كلمات أو عبارات لتدين الإنسان البريء ، وعند إعادة تشغيل مثل هذا التسجيل الموه على اسماع من يريدون اتهامه ، يصعق بما جاء فيه ، فهو يعلم تماما أنه برئ مما يدعون . . هذا رغم أن الصوت صوته ، والاعتراف اعترافه ، ولكنها البراعة في التزييف والاثام .

هذا التغيير أو التمويه أو الخلط المقصود أو الاعتيابي في أشرطة التسجيل التي نديرها على أجهزةنا يماثل بالضبط الخلط الذي بدأ العلماء بجروحه الآن على « أشرطة » تسجيل الحياة التي طبعت عليها الشفرة الوراثية بجزيئات كيميائية .

والواقع أن أشرطة الحياة دقيقة لحسية الدقة ، ومع ذلك فهي تحوى من المعلومات الوراثية ما يملأ عشرات من المجلدات الضخمة فلو أننا فحصنا أية خلية جسمية من خلايا الإنسان (عدا كرات الدم الحمراء) ، لوجدناها تحتوى على نواة . . النواة تحتفظ في داخلها بثلاثة وعشرين زوجا من الأمشاج أو الكروموسومات ، جاء ثلاثة وعشرون منها من الخلية الذكرية (الحيوان المنوي) ، والثلاثة والعشرون الأخرى من الخلية الأنثوية (البويضة) ، وعلى كل كروموسوم تتراص آلاف الجينات أو المورثات على هيئة عقد ، وكل جينة تحتوى على شريط محدد ومعلوم من جزيء ح د ن (وهو الحامض النووي أو الوراثي الذي سبق أن أشرنا إليه) ، وكل شريط يحتوى بدوره على آلاف النيوكليدات أو الشفرات الرمزية (١ ، ث ، ج ، س التي قدمناها قبل ذلك - انظر أيضا شكل ٤) ،

فعل الانزيم الآخر على الفيروس ذاته ، فتبين انه لم يقطع الا في موقع واحد محدد ، فبدلاً من وجود الفيروس على هيئة حلقة ، قطعه الانزيم وحوله الى شريط له بداية ونهاية (هذا ويبلغ طول ذلك الشريط حوالي جزء من الف جزء من المليمتر ، وبه حوالي ٥٠٠ نيوكليوتيدة او شفرة) .

والى هنا شعر العلماء بانهم قد وضعو ايديهم على عائلة من الانزيمات الغريبة ، وان كل انزيم منها يستطيع ان يقطع الاشرطة بطريقة تخالف طريقة الانزيم الآخر ، وانه بالامكان استخدام هذه الادوات البيولوجية الدقيقة في تفكيك الاشرطة الوراثية الى اجزاء محددة ، ثم دراسة كل جزء منها على حدة ، للتعرف على شفرته او « لفته » المكتوبة ، وكيفية تحويل هذه اللغة الى امر كيميائي ، او الى خطة عمل !



علم جديد اسمه هندسة الوراثة !

ثم يبعث كشف آخر اعظم وأهم ، فبينما العلماء متكبون على دراسة الانزيمات القاطعة او العادة ، تظهر لأول مرة عائلة أخرى تسمى الانزيمات الرابطة او الواصلة ، وهذه يطلق عليها اسم **خمائل الليجيز** *Ligase enzymes* والغريب انها اكتشفت في وقت واحد في خمسة معاميل مختلفة ، وهذا يثبت بان هناك تناساً شديداً بين العلماء في كشف اسرار الطبيعة ، ومن لا يسارع منهم بشر ما اكتشف ، فاعت عليه لمرة اكتشافه ، واصبحت من نصيب غيره !

والى هنا تسامع العلماء : اذا كنا الآن قد حصلنا على السر الذي تصل به الطبيعة ما تقطع من اشرطتها الوراثية ، فلماذا لانستخدم هذه الانزيمات الجديدة في وصل قطع مختلفة من اشرطة وراثية جاءت من خلايا متباينة ؟

هذه المقصات الا خمائل او انزيمات تعرف باسم **الانزيمات القاطعة او القاطعة للجزيئات الوراثية** *Restriction enzymes*

ووظيفتها ان تهاجم اشرطة الجزيئات الوراثية الغريبة ، وتقطعها الى اجزاء ، وبهذا تبطل معمولها ، وفي الوقت ذاته تنقد نفسها من كل دخيل (والدخيل يتمثل لنا في الفيروسات الالاق التي تهاجم البكتيريا وتقتلها) . . . الا انه من المثير حقاً ان هذه البكتيريا تحمي اشرطتها من هذه « المقصات » او « الامواس » الكيميائية بوضع موانع من جزيئات صغيرة على المواقع التي يمكن ان يحدث منها الهجوم والتقطيع ، فاذا جاء الانزيم ليشطر ، وجد الباب في وجهه موصداً !

ولقد استطاع كل من **هانكس** *Hancks* و**توماس** *Thomas* كيميائي الباحثين في مدرسة الطب التابعة لجامعة جون هوبكنز ببلتيمور ان يمزلا احد هذه الانزيمات بحالة نقية من بعض سلالات من البكتيريا المعروفة باسم **هيموفيللاس** *Haemophilus influenzae*

انفلونزا واستطاعوا ان يحددوا المواقع التي تستخدم في القص او الفصل ، ثم تبينها عالمان آخرون من المركز الطبي بسان فرانسيسكو والتابع لجامعة كاليفورنيا (وهما هيريت بويز وهوارد جودمان) في فصل انزيم آخر مختلف من البكتيريا التي تعيش في امعاء الانسان والحيوان وجاء كل من دانيل نالغز وكالين دانا من جامعة جون هوبكنز ايضا ليدرسا فعل هذا الانزيم القاطع او البتار على الفيروس المعروف باسم **س ف ٢٠** ، وهو نفس الفيروس الذي كان بول بيريغ ينوي زراعته في احدى الخلايا الميكروبية ، ثم قابته في وجهه زوجة ، فالتى تجاربه (وهذا ما سبق ان اوضحناه) المهم ان هذين العالمان قد اوضحا ان هذا الانزيم قد استطاع ان يقطع الشريط الوراثي للفيروس الى اجزاء مهيئة - قطعة محددة ، في حين ان مجموعة أخرى من العلماء قد جربوا

الآن (صفات بعينها .. كل هذا وغيره قد تمخض عن علم حديث جدا قائم بذاته .. هذا العلم يطلقون عليه أسم علم الهندسة الوراثية Genetic Engineering ، وهو تعبير له ما يبرره ، ذلك ان بعض صفات الكائنات الوراثية قد بدأت تخضع - من خلال اشرطتها - للنقل والقطع واللحم والتشغيل والتداول على « خطوط » جديدة ، لانتاج صفات مبتكرة لم تعرفها الحياة في كائناتها حتى الآن .

ومن المستلزمات الاساسية لكي تنجح هندسة الوراثة ، وتصبح سلاحا رهيبا في ايدي العلماء ، ان تقوم على اربعة امحة هامة:

اولها : تشغيل طريقة لقطع ولصام الاشرطة الوراثة .

وثانيها : وسيلة نقل لتعمل هذه الاشرطة الجديدة ، او الصفات المبتكرة ، لم لا بد من دفعها للتكاثر ، وتكوين نسخ من ذاتها .

وثالثها : طريقة لزود الشريط او ادخاله في جسم الخلايا .

ورابعها : انتقاء الخلايا التي تقبلت زراعة الشريط الوراثي القريب ، وعبرت عنه وراثيا بصفات جديدة لم تعرفها من قبل .

ولقد تحققت كل هذه الخطوات الاساسية بالفعل في غضون عدد من السنوات لا يتعدى عدد اصابع اليد الواحدة ، او على اكثر تقدير عدد اصابع اليدين !

كائنات جديدة معدلة !

وتتوالى بعد ذلك الانجازات العلمية المثيرة.

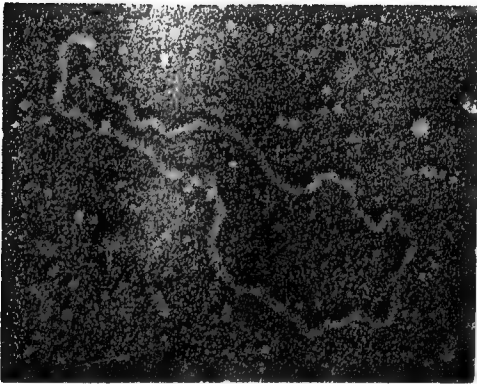
ففي عام ١٩٧٣ نجحت مجموعة من علماء مدرسة الطب بجامعة ستانفورد في انتاج اول شريط وراثي « محين » - اي يجمع بين

وتركزت على هذا التساؤل بحوث كثيرة وعميقة ، اذ ليس التطبيق ميسرا كهذا الكلام ، لم ان « لحام » شريط بشريط يتطلب عمليات بيولوجية على درجة هائلة من الدقة والتنظيم ، ولا بد - والحال كذلك - من معرفة تفاصيل ما يجري في الخفاء ، فليست أسرار الحياة بالامر الهين .

فهناك بعض الجينات أو المورثات أو الوحدات الوراثية المراد نقلها من خلية الى اخرى ، والتي توجد على هيئة حلقات مغلقة أو مغلقة ، ولقد اكتشفت مثال هذه المورثات في الفيروسات وتسمى بالاحماض النووية الفيروسيية الدائرية circular viral DNA واكتشفت ايضا في داخل خلايا بعض الميكروبات واطلقوا عليها اسم البلازميدات Plasmids (شكل ١٠) ، وطبعي انه لا يمكن لحم هذه بتلك - طرفا بطرف - الا اذا سطرونا الحلقة ، ليتحرر طرفاها ، ثم وصل الاطراف في اشرطة اطول ، ثم ارجعها الى حالتها الاولى - اي الى حلقات اكبر ، تعمل صفات جديدة مختلفة (شكل ١١ أ ، ب) .

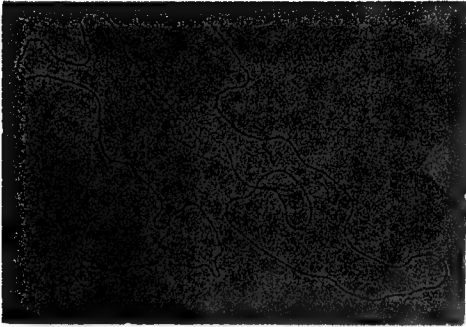
والبتر والوصل ، او القطع واللحم ليسا بالمشكلة الصعبة الآن ، لان العلماء يملكون الآن الوسائل أو الانزيمات التي تقوم بتلك العمليات ، وبهذا يستطيعون ان يحصلوا على خطوط تشغيل وراثية ، اسوة بملحوظ التشغيل التي نراها مثلا في جميع قطع الآلات والسيارات في المصانع الكبيرة .

ومن هذا المنطلق الحديث في دراسة الصفات الوراثية للكائنات ، وتجميع خطتها في اشرطة جديدة ومختلطة ، ثم تشغيل هذه الخطط ، وتحويلها الى مخططات كيميائية أو صفات وراثية مكتسبة ، ثم التلاعب بهذه الاشرطة بين الكائنات المختلفة ، وبحيث تضاف اليها ، أو تحذف منها (عمليات الاستئصال أو الزرع المضيوي الذي نعرفه في عالم الجراحة



شكل (١٠)

أحد الأشعة الوراثية الحفائية أو المفلقة (البلازميد) التي فصلت من بعض البكتيريا ، وهي هنا مكبرة حوالي ٢٢ ألف مرة .



شكل (١١) ب

صورة باليغروسكوب الإلكتروني لشريط ج دن الذي تقبل في كيانه قطعة من شريط وداني لكائن آخر (السمار
اليها بالسهم ، والمبينة في رسم توضيحي مرافق) .

الوقت الحاضر - تداول هذه الميكروبات التي أجريت عليها بعض التصديلات الهندسية الوراثية ، ولا خروجها من معاملها بأية حال من الأحوال ، وسبب ذلك المنع ستعرض له في حينه .

ومن بعض الميكروبات التي قدت حساسيتها للمضادات الحيوية ، عزل العلماء بعض الجينات من ساحتها الخلوية ، وبيّن أن هذه الجينات هي من ذلك النوع الحلقي المغلق ، وهو الذي أطلقنا عليه قبل ذلك اسم **البلازميدات** . صحيح أن هذه البلازميدات لا تعدد ولا تتدخل في الخطة الوراثية للميكروب ، ولكنها تحلو حلو هذه الخطة في التكاثر والانتسام والتركيب والنظام الجزيئي ، كل ما في الأمر أنها معلومة وراثية محددة ، تضع خطة مقننة لصناعة أزيوم أو خمرة معينة ، وبهذا الخمرة تستطيع أن تدمر المضاد الحيوي الذي يتعامده الإنسان للقضاء على ميكروب مسبب لمرض من الأمراض وبهذا يفقد الدواء مفعوله ، ونقول وقتها : أن هذا الميكروب بالذات قد أصبح ذا مناعة ضد مضاد حيوي معين .

وطبعي أن كثيرا من الميكروبات قد اكتسبت هذه المناعة ، وسر مناعتها يكمن في خطتها المحددة على جينتها الحلقية المنتشرة في مادتها الحية ، ولكل مضاد حيوي خمرة تحطمه ، أو أزيوم يظل مفعوله . . المهم أن العلماء قد عزلوا بعض هذه الجينات التي تحيل الميكروبات المسالة إلى كائنات مستأيدة أو خطيرة ، واستطاعوا زراعتها في الميكروب السالم الذي يعيش في أمعائنا ، فإذا به يستأيد - من خلال هندسته الوراثية التي منحه العلماء إياها - ويصبح منيعا ضد مضاد حيوي بذاته .

ومن الممكن - بطبيعة الحال - ادخال الجينات الفيروسية المسالة أو الممرضة إلى بعض الكائنات البكتيرية ، وزراعتها فيها ، لتصبح جزءا من جهازها الوراثي ، نفتكثر معها إذا تكاثرت ، وتسكن إذا سكنت ، وتعبّر

شرطين مختلفين من الكائن البكتيري الذي يعيش في أمعاء الإنسان والحيوان (وهو بكترة إيشيريشيا كولاي التي سبق أن أشرنا إليها قبل ذلك وأصبحت الآن بمثابة الكائن المفضل لمثل هذه التجارب الرائدة) ، ولقد تمت هذه التجربة في أنابيب الاختبار ، ثم أمكن زراعة الشريط المزودج في الخلية البكتيرية ، وعندما انقسمت الخلية إلى ملايين الخلايا في عملية التكاثر السريعة التقليدية (من المعروف أن هذا الكائن أو غيره من كائنات البكتيريا يستطيع أن يعطي ذرية تقدر بالملايين في غضون ساعات) ، انقسم الشريط الهجين أيضا مع كل انقسام خلوي ، وكناثر جنبيا إلى جنب مع الخطة الوراثية الأساسية للخلية البكتيرية ، ثم عبر من نفسه بإنتاج صفات وراثية كيميائية لكل من الشرطين أو المورثتين المحتمتين في شريط واحد !

ثم بدأت خطوة أخرى اجرا ، وحاولت المجموعة نفسها نقل جينة أو مورثة من كائن بكتيري إلى كائن بكتيري آخر مختلف ، ولقد تمت هذه المحاولة بنجاح ، وهبرت الجينة المنقولة في الكائن البكتيري الذي احتضنها من نفسها ، وانقسمت معه ، ومنحت ذريته صفة وراثية مكتسبة لم يملكها « الآباء ولا الأجداد » منذ ملايين السنين !

ثم ينجح العلماء بعد ذلك في نقل جينة من ميكروب يعيش في أمعاء الموشى إلى الميكروب الذي يعيش في أمعاء الإنسان ، والمعروف أن هذه الجينة المنقولة هي من ذلك النوع الذي يحمل الخطة الوراثية لصناعة بروتين على هيئة خمرة أو أزيوم يستطيع أن يحل مادة السيليلوز الموجودة في النباتات التي ترعاها الحيوانات ، ثم يحولها إلى مادة سكرية ، تمتصها أمعاؤها ، وهذا يعني أن نقل هذه الجينة إلى الميكروب الذي يعيش في أمعائنا ، معناه أن الإنسان قد يستفيد من أكل الألياف النباتية مستقبلا كما تستفيد بها الحيوانات المجترة ، وطبعي أنه ممنوع - في

« سيالك ». وزالية مبتكرة ما اتزل الله بها من سلطان !

ولقد بدأت تجارب الهندسة الوراثية تنمو وتتطور وتنشعب وتنتشر في معامل كثيرة ، وكانما قد جن جنون العلماء بهذه اللعبة الخطرة ، وتسابقوا في زراعة الجينات ، ونقلها دون ضوابط او روابط بين الانواع المختلفة من الكائنات ، واصبح الآن من المبادئ المسلم بها انه من الممكن نقل صفة بذاتها من خلية كائن الى خلية كائن آخر لا ينتمى اليه من قريب او بعيد .. بدايمن الفيروس والميكروب والنبات ، الى الانسان سيد الكائنات !

على ان اهم هذه الانجازات العلمية التي تمخضت عنها الهندسة الوراثية اخيرا هو ما نشرته حديثا مجلة « العالم الجديد » البريطانية New Scientist بتعديها الصادرين في ٢ يونيو ، ١٦ يونيو عام ١٩٧٧ عن محاولة العلماء نقل الجينة المسؤولة عن صناعة جزء الانسولين الى البكتريا القولونية ، بفرض دراسة خطة التشفييل الوراثية لفهم اعمق لهذه العملية التي تؤثر في صحة نسبة كبيرة من البشر المصابين بداء السكر ، وهي - على أية حال - محاولة جريئة قد تتمخض مستقبلها عن اصلاح الجينات المسؤولة عن تصنيع الانسولين في بنكرياس البشر .. صحيح ان جينة الانسولين المنقولة كانت من احد خلايا بنكرياس احد انواع الفئران ، لكن قد تكون اليوم فئران ، وفدا قد ياتي الدور على الانسان .

فماذا هناك حقا من انباء أخرى عن هذا الموضوع الهام ؟ !

نقل جينة الانسولين من حيوان الى ميكروب !

في جامعة كاليفورنيا بدأت التجربة تأخذ مجراها على ايدي مجموعة من العلماء تحسب

عن نفسها بزمش. قد يصيب الانسان والنبات والحيوان ، هذا اذا كانت الجينة المزروعة من ذلك النوع الذي يسبب الامراض لهذه الكائنات ولقد تم زراعة بعض هذه الجينات الفيروسية ، الا ان ذلك يحدث في اضييق الحدود ، وفي معامل جد قليلة تناسب مثل هذه الهندسة الوراثية الخطيرة .



امكان نقل شيعوية الصفات بين كل الكائنات !

لكن .. هل من الممكن نقل جينة او مودلة من حيوان وانسان ، لتوضع في خط التشفييل الوراثي للميكروب ، او العكس ؟

الواقع ان هذه التجربة قد تمت بالفعل ، وانها قد نجحت منذ ثلاث سنوات مضت ، واشترك فيها عدد كبير من الباحثين ، وعلى رأسهم ستة من اكف العلماء في هذا الزمان ، وينتمون الى عدة معاهد وجامعات امريكية مشهود لها بالاصالة وعمق البحوث المنشورة في هذا المجال ، وبدون الدخول في التفاصيل العلمية نقول ان هؤلاء العلماء قد اختاروا عدة جينات مناسبة من نوع من الضفادع يعرف باسم زينوباس ليليس Xenopus laevis . وامكن اقامتها في البكتريا القولونية ، فتقبلتها قبولا حسنا !

ولقد يمكن بعض العلماء البريطانيين حديثا من تهجين مكونات خلية حيوانية بمكونات خلية نباتية .. صحيح ان هذه التجربة سابقة لاوتها وصحيح اننا لايمكن ان نتج - على الاقل في الوقت الحاضر - كائنا جديدا يجمع بين صفات الحيوان والنبات او بين صفات الحيوان والانسان ، او الانسان والنبات ، ولكنها تدل على ان العلماء قد بدأوا يكسرون الحواجز التي تفصل بين الخلايا المختلفة للانواع المتباينة من المخلوقات ، وكانها هم يريدون انتاج

ويتطلب نقل الجينة الى البكتيريا عدة خطوات هامة : **أولهما :** عزل الجينة او الجينات المسؤولة عن تصنيع الانسولين من بين مئات الالوف من الجينات التي تحتويها نواة خلية البنكرياس ، وقد تحقق ذلك * .

وثانيها : تركيب هذه الجينة في الجينة المعزولة من البكتيريا والتي عرفناها قبل ذلك باسم البلازميد الحلقية ، وقد تم ذلك من طريق اجراء عملية فك ولحام لكل من الشريط الوراثي في جينة الانسولين وجينة البكتيريا (البلازميد) ، وفي ايدي العلماء الانزيمات اللازمة لانعام هذه العملية الهندسية على مستواها الوراثي .. **وثالثها :** ايجاد سلالة او طفرة من البكتيريا القولونية تقبل هذه الزرعة وقد وقع الاختيار على طفرة يطلقون عليها « س ١٧٧٦ » ، وهي من الطفرات التي جهازها العلماء خصيصا للاستماتة بها في بحوث هندسة الوراثة ، فلكي يدخلوا الجزء المراد زرعها من « جسد » البكتيريا الدقيق ، كان لابد من تمريرها لصدمة حرارية ، مع معاملة كيميائية بمحلول خاص .. فيؤتى بالبكتيريا في انبوبة اختبار ، ومعهما تخطط الاشرطة الهجينة او المتحمزة ، وتوضع البكتيريا في محلول مثليج من ملح كلوريد الكالسيوم ، ثم تسخن فجأة وبسرعة ، فيؤدى ذلك الى فتح ابواب او منافذ دقيقة في « جلد » البكتيريا ، لتسمح بمرور الشريط الجديد الى الداخل ، وبعد فترة ، تفلق المنافذ ، وتعود البكتيريا الى طبيعتها .

ونحن الآن في انتظار ما تأتى به الايام !

اشرف كل من البروفيسور ويليام وهوارد جودمان ، وبالفعل نجحا في عزل الجينات الخاصة بصناعة هرمون الانسولين لاحد الفئران ، وزرعتها في البكتيريا القولونية المعزولة من امعاء انسان او حيوان ، واعتبر هذه الخطوة من الخطوات الهامة المؤدية الى امكان دراسة تكوين الانسولين خطوة خطوة في الخلايا البكتيرية أثناء تكاثرها واتقسامها بسرعة لا يجازيها فيها اى كائن حي آخر ، ثم ان نجاح هذه الزرعة ، وما قد يتبعها من تشغيل جينات انتاج الانسولين في اجسام البكتيريا قد يؤدى الى انشاء صناعة هامة لهذا الهرمون الذى يحتاجه ملايين البشر ، وسيكون المنتج الاساسي فيها هو هذه البكتيريا الجديدة التي تعمل بضغط تشغيل هندسي ورثي من ابتكار الانسان العظيم !

ويعلق البروفيسور بول بيرج استاذ البيولوجيا بجامعة ستانفورد - وهو الذى سبق ان اشرنا اليه ، واعتبرناه الرائد الاول في هذا المجال - يعلق على هذه التجربة المثيرة بقوله « لقد تحققت نبوءة ظلت تراود عقول العلماء طيلة السنتين الماضيتين » ... ثم يضيف بيرج : لكن لابد ان نشير الى ان هناك العديد من الخطوات والمشاكل المويصة التي تحتاج الى حلول جذرية قبل ان تستغل هذه الجينة بكفاءة في بيئتها الجديدة (وهو يعني جسم البكتيريا الدقيقة) ، ثم انه يعتقد ان حل هذه المشاكل سوف يحتاج الى فترة اطول من الشهور الستة التي حدها رواد هذه التجربة الكبيرة (وكان روتر قد صرح انه وزملاؤه سوف يسيطرون على هذه الجينة لانتاج الانسولين قبل نهاية عام ١٩٧٧) .

(*) الواقع ان العلماء قد استطاعوا ان يزلوا الامر الكيمىالى الذى يجعله « الرسول » الوراثي (ج د ن - الرسول Messenger - R N A - الذى اشرنا اليه) ، وهو امر مطبوع او جزئيات كيميائية مبعولة من الشريط الاصلى الذى يحمل الطفرة في جينته (ج د ن - او العاصمى النووى) ، واستطاعوا بعد عمليات دقيقة وعويصة - ان يقوموا الى حل « طعمة » مكسبة من هذا الامر الكيمىالى الى انبوبة الاختبار ، اى طبع شريط اصلى من الشريط المبعوث، مع بعض تعديلات بسيطة يعرفها العلماء حتى المعرفة ، ولقد تم ذلك في سبع خطوات طويلة متتابعة .

بداية فرض القيود على هندسة الوراثة ؟

ومع أن بحوث الهندسة الوراثية تبشر بآمال عريضة ، ومع أنها ستفتح لنا آفاقاً واسعة ، وأنها ستقودنا إلى تفهم أعمق لأسرار الحياة ، إلا أنها لا تسير وفق ما يأمل العلماء المحمسون لها ، إذ - لأول مرة - تصطدم البحوث العلمية بالعديد من السلاسل والقيود التي تشلها عن الانطلاق بحرية تامة ، ولأول مرة أيضاً لا يرحب فريق من العلماء بأبحاث فريق آخر من التخصص ذاته في المضي في هذا الطريق المحفوف بالمخاطر ، وكأنما ، وكأنما نحن مقبلون على « قنابل » وراثية أخطر بكثير من القنابل الذرية ، ومن أجل هذا عقدت المؤتمرات ، وقدمت الاقتراحات ، وإنهالت الاعتراضات ، وسنت القوانين والشرائع ، وقدمت نماذج جديدة لتشديد أنواع خاصة من المعامل وحرمت تجارب ، وأمتعض العلماء من تدخل من لا يفقهون شيئاً في تفاصيل بحولهم ، وكأنما هم قد أصبحوا تحت وصابتهم ، أو كأنما يعيشون في جو قريب من جو المصور الوسطى ، حيث كانت الكنيسة تتدخل في شئون العلماء ، فللأسف يعيشون في شيء يتعارض مع ما وقر في عقول البابوات والناس !

على أنه ينبغي علينا هنا أن نقدم بعض آراء العلماء الضالعين في مثل هذه البحوث ، والمدرّكين لمعظم جوانبها الحقيقية ، لأن ذلك - بلاشك - يوضح الأهمية التي سوف تتمخض منها بحوث هندسة الوراثة !

يقول دكتور رويسر شينشايمر R. Shinsheimer وليس قسم البيولوجيا بمعهد كاليفورنيا للتكنولوجيا « لقد وصلنا في عصرنا الحاضر إلى نقطة حاسمة في مسألة تطور الحياة على الأرض ، ولهذا السبب فأنني أعتقد أنه يجب علينا أن نفكر طويلاً وجددياً في طبيعة عملية التطور التي سنتدخل فيها عنوة من خلال هندسة الوراثة ، وذلك قبل أن يعيق

بنا - في قفلة منا - دمار رهيب ، أننا نترك جميعاً أن هناك عمليات خلط ناجحة بين جزيئات الوراثة في الفيروسات والبكتيريا ، وأن هذه الخطوات لازالت متوافضة بالنسبة لمستقبل سيكون فيه خلط المورثات بين النباتات المختلفة ، والحيوانات اللاقارية والغفارية - وبدون شك أيضاً في الإنسان - أمراً محتوماً ومتطوراً .. أنني لست معترضاً على هذه البحوث ، بل أنني على يقين أن هناك نتائج باهرة سوف نحصل عليها في مجال هندسة الوراثة ، وأن بعض هذه النتائج ستكون ضرورية من أجل رفاهية كوكبنا واستمرار الحياة فيه ، لكنني لازلت أرى جانباً آخر مظلماً من جراء هذه البحوث ، لهذا فإن التحفظات التي وضعتها هيئة المعاهد القومية للصحة (في الولايات المتحدة) على تلك البحوث ليست كافية للحد منها ومن أخطارها !

وسر تشالام شينشايمر وتخوفه يرجع إلى اعتقاده أن هذه البحوث ستنتقل إلى الدرجة التي يتحكم فيها الإنسان في أصول الوراثة على مستوى كسل الكائنات ، فيغير فيها ويبديل كيف يشاء ، فإذا كان العلماء قد حصلوا على هذا الكنز العظيم من المعلومات الوراثية في غضون ربع قرن فقط ، فما بالنا بما سيفعله العلماء في القرون المقبلة ؟

ويلهب شينشايمر إلى شرح وجهة نظره ، ويذكر أن كل أنواع المخلوقات التي نراها الآن هي ثمرة حتمية لعملية تطور طويلة .. طويلة ، وأنها أخذت من عمر هذا الكوكب حوالي ثلاثة آلاف مليون عام لتضع كل مخلوق في مكانه ، ولقد حافظت الطبيعة على « المخزون » الوراثي لكل نوع من الكائنات ، وحجمته من التلوث أو « الدنس » أو الخلط مع « المخزون » الوراثي لأي نوع آخر ، ثم أن نشأة الأنواع وتطورها كانت تأتي هيئة لينية ، وعلى خطوات جد بطيئة ، ولقد كان للطبيعة وسائلها الفعالة

الواجب علينا أن نتحمل مسئولياتنا في حماية جميع المشتغلين في هذه البحوث من العلماء الشبان والفنيين وعمال معامل ، لم هي مسئولياتنا أيضا نحو عامة الشعب .. وعلينا أن نبدأ بها من الآن !

ولقد كان هذا المؤتمر — مؤتمر جورودون الذي عقد في ١١ - ١٥ يونيو عام ١٩٧٣ — بداية الشرارة التي أشعلت النار ، وامتدت حرارة المناقشة إلى الهيئات العلمية المعنية ، وإلى الكونجرس ، ثم إلى رئاسة الدولة هناك ، وانطلقت هبر المحيط حتى وصلت إلى أوروبا ، ومما زاد الطين بلة أن أجهزة الإعلام قد تدخلت في الأمر ، وكتب عن هندسة الوراثة مقالات مثيرة ومتسرعة ، وبها فسحت رجل الشارع ، وهيات له المناخ لكي يطالب بأخذ رأيه فيما يجري بين جلدان المعامل ، لأنه أولا وأخيرا هو دافع الضرائب ، وهو الممول لهذه البحوث .

ففي أوروبا — وعلى سبيل المثال — عقدوا مؤتمر في دافوس بسويسرا في الأسبوع الثاني من شهر أكتوبر عام ١٩٧٤ لمناقشة الاحتمالات التي ستؤدي إليها بحوث هندسة الوراثة ، وفي بداية افتتاح هذا المؤتمر وقف دكتور ماكس بERNSTEIN من معهد بحوث الجزيئات البيولوجية وقال : « أننا الآن على حافة انفجار علمي في التحكم الجيني » (أي وجهات الوراثة) .

ولم يكن سبب عقد هذا المؤتمر في سويسرا أن دول أوروبا قد خاضت هندسة الوراثة ، أو توصلت فيها إلى نتائج تدعو إلى المناقشة واقتراح ورقة عمل للمستقبل ، بل كان السبب — في المقام الأول — هي تلك الزوينة التي أثرت في الولايات المتحدة حول تلك البحوث ، ولقد حضر هذا المؤتمر بول بيرج الذي تزوم — بادية الامر — في أمريكا فكرة الهندسة الوراثية ، ثم هجر معمله طرأ لاشهر ستة . طاف فيها معمل معامل العالم المتقدم داعيا إلى تقييم هذه البحوث

والمعقدة لتأمين وتضمن عدم الخلط في المادة الوراثية بين الأنواع المختلفة .

وأخيرا يجيء الإنسان بتجديده ، ويتخطى الحدود ، ويقتحم سنن الحياة اقتحاما ، ويخلط ما يشاء له الخلط بين جينات من نبات وحشرة ، أو بين عنق (فطر) وإنسان ، أو أي مخلوق يشاء ، صحيح أن بعض هذا الخلط سيكون عشوائيا ، لكن بالتجارب المرسومة والتقنية ، سوف يتوصل إلى تصميم كائنات تدمر ، وأخرى تضر ... الخ .

بحوث هندسة الوراثة . تزعج نيران النقاش !

ومن جهة أخرى كتبت دكتورة ماكسين سنجر Maxine Singer رئيسة قسم خمائر الأحماض النووية في المعهد القومي لبحوث السرطان بالولايات المتحدة دراسة عن هذا الموضوع الشائك في منتصف عام ١٩٧٧ ، ولتحت عنوان « العلماء وانسحاب العلم » تقول « عندما كنت أشارك في رئاسة مؤتمر جورودون الخاص بالأحماض النووية (شفرة الوراثة) في عام ١٩٧٣ قلت لزملائي المجتمعين : اتنا جميعا نقاسم الحماس والإعجاب بما ذكره متحدث الاسم عندما أشار إلى أن البحوث التي أقيمت في هذا المؤتمر سوف تسمح لنا بوصول أجزاء من الأحماض النووية (الخريطة الوراثية التي سبق أن تحدثنا عنها) ، وأن هذا سيؤدي إلى نتائج مثيرة ، وكان سبب تحمسينا أن تلك البحوث ستطورا ولا مفرنا من هذه الجزيئات المدهشة ومن بيولوجيتها المذهلة ، وسوف تقودنا لأنيا إلى استنباط وسائل هامة لكى نصلح بعض الأمراض الوراثية التي تصيب الإنسان ، ورغم ذلك ، كان لابد أن تكون مدركين أن هذه التجارب سوف تثير العديد من القضايا الأخلاقية والأدبية والاجتماعية نتيجة للاختطار المحتملة التي قد تتولد عنها .. ولكوننا — نحن معشر العلماء — نقرم بهذه التجارب ، ولكوننا نعرف ماذا تعنى ، كان

يحضر هذا المؤتمر عندما علم - في آخر الأمر - أن الصحافة والناس سوف يدسون أو فهم فيه ، وأنهم - أي غير الملمين - قد لا يدركون إبعاد هذا الموضوع العميق ، وقد يشوهون ما يسمعون ، أو قد يتدخلون في ما لا يعرفون ، مما قد يسبب ضياع الوقت والجهد ، ويعوق اتخاذ القرارات العلمية المناسبة ، فمثل هذه المؤتمرات تعقد أساساً ليتحدث فيها العلماء إلى العلماء ، ولقد صدقت توقعات هاريس ، لأن المناقشات طالت وتفرقت وتمزقت دون التوصل إلى نتائج إيجابية لها وزنها !

بداية التشريعات المنظمة لبحوث هندسة الوراثة .

والحق أن موضوع هندسة الوراثة قد تلقى من الاهتمام والمناقشات ومقد المؤتمرات والاجتماعات مالم يحظى به أي موضوع علمي آخر ، كما أن العلماء لم يختلفوا على شيء مثلاً اختلفوا في هذا الموضوع ، ونحن لا نستطيع أن نتعرض للآراء التي تسانده أو تعارضه لضيق المجال ، ولكنه بعيد إلى أذهاننا الجدل الذي دار بين العلماء والناس حول نظرية التطور لداروين في القرن الماضي ، مع الفرق بين مضمون هذا ، وذلك ، فسواء أصابت نظرية داروين أو لم تصب ، فإن ذلك لن يؤدي إلى نتائج تؤثر تأثيراً مباشراً في حياة الناس ، لكن أن يغير الإنسان في طبيعة المخلوقات ، دون أن يدري شيئاً مما يمكن أن يعمل المستقبل من مفاجآت ، فهذا يتطلب أن نعالج الموضوع بدقة وحذر .

ولقد تمخضت الدراسات والمؤتمرات والمناقشات الساخنة التي درت بين العلماء والعلماء ، أو بين العلماء والهيئات والحكومات والناس على مدى سنوات أربع من تقييم مدى خطورة تلك البحوث ، ولقد وضعت كل دولة الشروط أو الخطوات التي يجب على العلماء اتباعها أثناء القيام بهذه التجارب ، وهي -

على المستوى العالمي ، وليس على مستوى الدول ، واتخاذ قرار حاسم بشأنها ، لكنه فوجيء بأن المؤتمر لم يناقش الموضوع من جوانبه العلمية ، بل انقلب - على حد تعبير مجلة نيوساينتست New Scientist البريطانية إلى مؤتمر أخلاقي عقائدي ديني ، وكأنما مسائل العلم قد تحولت فيه إلى دموع دينية مثل العلماء فيها دوز رجال الدين ، وظل الناس ورجال الصحافة يرقبون ويتجسسون ، ولا يستطيعون أن يدلوأ في الموضوع برأي واضح !

ولقد أراد بيرج أن يلفت نظر أعضاء المؤتمر أنه لم يأت ليناقش موضوعاً عقائدياً أو أخلاقياً أو اجتماعياً ، بل أن الأمر ينصب على مناقشة الأخطار التي يمكن أن تتخفى عنها هذه البحوث ، وإلّاها على مستقبل الجنس البشري خاصة ، وحياة الكائنات الأخرى عامة .

ويعلق تشارلز وايزمان من معهد بحوث بيولوجيا الجزيئات الوراثة زيوريج على ما جاء في إشارة بيرج ويذكر أن البحوث الانسانية هي التي تبحت دائماً عن الحقائق ، وأن الحقائق ليس لها دلالة أو مفهوم أخلاقي أو عقائدي ، ثم أن الأخلاقيات - على حد قول وايزمان - تتغير بالوقت ، لكن الحقيقة لا تتغير ، وأن ما يجري في هذه القاعات مناقشات (ولقد كان حوالي ٢٥ من المشتركين فيها من غير العلماء) سوف يعطي انطباعاً سيئاً لدى الناس عن طبيعة هذه البحوث . هذا ومما يذكر أن الحكومة السويسرية قد شطبت جزءاً كبيراً من الميزانية التي خصصتها قبل ذلك لبحوث هندسة الوراثة ، عندما ضرب السيف عليها أن مثل هذه البحوث تعمل بلزور الشر للبشر ، كما أن الحكومة الأمريكية أو الهيئات التي تعمل معاملاً هندسة الوراثة بدأت بدورها في التقتير في ميزانياتها .

ولقد تمهد البروفيسور هنري هاريس العالم إبريطاني الشهير (من جامعة أكسفورد) إلا

ملابسهم كلما خرجوا او دخلوا ، وان يرتدوا ملابس معقمة خاصة ، وبعد الانتهاء من عملهم ، يذهبون الى حمامات بها « أدشاش » ترش عليهم وابلا من الماء المختلط بالواد المطهرة ، ومنها يخرجون عن طريق مسالك خاصة الى حجرات تغيير الملابس ، وفي داخل المعامل - حيث تجرى التجارب - توضع احتياطات شتى ، فلا يسمح للعامل او الفني الباحث بأن يمسك شيئا من الادوات او الدوائر او الانابيب ، بل عليه ان يتناولها بمقابض خاصة ، وان يتم ذلك داخل « كابينة » سفيرة مزوالة عزلا تاما عن المعمل وعن العالم الخارجي . . . وفي هذه المعامل - معامل الدرجة الرابعة - يتم زراعة الفيروسات في الميكروبات ، او نقل الجينات بين نوع ونوع ، او دراسة الجينات الخطرة او الممرضة ، ثم فصل شرطها الوراثية وتطعيمها ثم لحما وزرعها . . . الخ ، وفي هذه المعامل تنتج كائنات فريدة وجديدة لم تعرفها الارض قبل ذلك ابدا !



تصميم ميكروب مناسب للتجارب !

لكن الحذر ايضا يبلغ منتهاه عندما يتخوف بعض العلماء من امكان تسرب بعض هذه الكائنات خارج المعامل ، نتيجة لخطأ غير مقصود ، او لانفجار فجائي يؤدي لانتشارها في الهواء والتربة والماء ، ومنها الى امعاء الانسان ، فتستعمرها وتعيش فيها كما تعيش الميكروبات الاخرى متوازنة ، او قد تقلب التوازن ، فلا تبقى فيها ولا تضر .

وما يدرينا ان امعاءنا صالحة لها ، او ان يبيتها - اى الامعاء - توافق مزاجها ؟

لان الميكروبات التي يختارها العلماء لهذه التجارب واسعة الانتشار جدا في الطبيعة ، وان الاختيار يتم على اساس ان هذا الميكروب قد درس اكثر من غيره دراسة وافية ، وان المعلومات الوراثية التي جُمعها

وان اختلفت في بعض التفاصيل - الا انها تنفق في المضمون . . . هذا وتنوى هيئة الصحة العالمية ، والهيئة الاوروبية للبيولوجيا الجزئية (وبالتحديد جزئيات الوراثة) والمجلس العالمى للاتحادات العلمية في التصاون بغرض تقديم برامج محددة تلتزم بها الدول التي تنوى الاضطلاع بمثل هذه البحوث .

ولقد قامت الهيئات العلمية الامريكية بتصنيف التجارب التي يقوم بها العلماء الى درجات اربع :

اولها : تجارب عادية ، وهي التي تقوم بدراسة التركيب الوراثى للميكروبات والخلايا دون اقامام مكونات هذه وتلك في بحوث هندسة الوراثة ، ويستلزم ذلك بعض الحرص الكائن في معامل الميكروبيولوجيا التقليدية (اي معامل الكائنات الدقيقة كالبكتيريا والفطريات والفيروسات) ، ويكفى اجراء هذه التجارب في المعامل القائمة من قبل .

وثانيها : تجارب الدرجة الثانية ، وهي اكثر من عادية ، وتحتوى على بعض الخطر ، ولهذا تستلزم درجة اكبر من الحذر ، فلا يسمح لهذه الكائنات بالانتشار داخل المعمل او خارجه ، ولا بد من عمليات تطهير او تعقيم كلما لزم الامر .

وثالثها : تجارب الدرجة الثالثة وهي اخطر من سابقتها ، ولا بد من معامل خاصة تصمم على ان يدخل الهواء اليها ، ولا يسمح له بالخروج منها ، خشية ان تسرب احدى الكائنات التي اجريت عليها عمليات هندسية وراثية ، فغرت طبائهما .

ورابعها : وهي اخطرها على الاطلاق ، وهذه تستلزم كل ماقى هذا الكوكب من حرس وحذر ، ولا بد ان تشيد لها معامل ليس فيها لقب واحد يسمح بمرور الهواء من الداخل الى الخارج ، وتستلزم ان يفسر الباحثون

المختلفة التي يغزو بها الفيروس الخلايا (شكل ١٣) .. أضف الى ذلك ان الفيروسات ضئيلة غاية الضالة ، لدرجة ان المليمتر المكعب الواحد يحتوى على ١٠٠.٠٠٠.٠٠٠.٠٠٠.٠٠٠ فيروس (اى مائة مليون مليون) وهذا يعنى ببساطة شديدة ان العلماء يتعاملون مع عالم يقع فيما وراء حدود الاحساس والخيال ، وهم ايضا لا يرون الاشارة على حقيقتها ، بل هناك أجهزة تحليل وتقدير وتريه مالا عين رأت ، وعلى هذا العالم غير المحسوس تجري تجارب هندسة الوراثة ، فربما يساعدنا ذلك على فهم ما يجري فى خلايانا ، اذ ليس هناك شك الآن فى ان اساس الحياة واحد ، وشغرتها التي تتعامل بها مع كل الكائنات واحدة ، والفكرة بينها جميعا موحدة ، ولهذا فلا فرق بين ميكروب ونبات وانسان من حيث المبدأ ، بل تتجسد الكائنات كما نراها من خلال « كتبها » المكتوبة .. نعتني طريقة انتظام شفرة الحياة على تلك الشرائط !

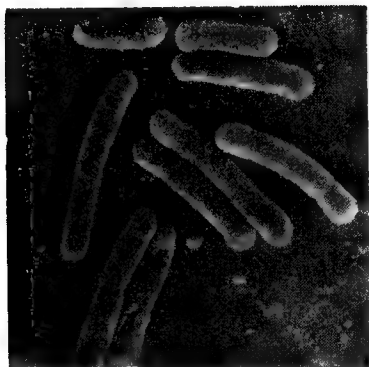
لكن .. لا علينا من كل ذلك ، فالحدث فيه قد يتشعب ويطول ، ولنعد الى ميكروبنا الذي يعيش فى امعائنا ، والذي هوله العلماء ودرسوه أكثر من غيره ، ثم اتخذوه بمثابة « حيوان تجارب » في بعوث هندسة الوراثة ، ولقد برزت بعض تساؤلاته فى أحد المؤتمرات التي عقدت بغرض التوصل الى وسائل كفيلة بمنع انتشار الميكروب « المعدل » هندسيا ، اذ ربما يؤدي بتصميمه الوراثي الجديد الى وباء مدمر ، وسأعال عالم الوراثة روى كيرس Curtis : هل يمكن اجراء تغيير وراثي فى « خريطة » الميكروب بحيث نجعله لا يستطيع مقاومة الحياة خارج معامل العلماء ، وهندلثه نضمن عدم انتشاره فى الطبيعة او امعاء الانسان والحيوان ؟

ولقد تحقق ما رمى اليه كيرس ، اذ امكنه - بمساعدة زملائه - من تخليق ميكروب

منه العلماء من قبل تمهد لهم سبل البحث والتجربة ، والانسان - بطبعه - يختار ما يعرف ويترك ما لا يعرف ، هذا ، ولم يحفظ اى ميكروب بالدراسة والتحليل الدقيق قدر ما حظى الميكروب الذي يعيش فى امعائنا وامعاء الحيوانات ذات الدم الحار (وهو ميكروب ايشير يشيكاولاي الذي سبق ان اشرنا اليه .. شكل ١٢) ، ثم ان جزءا من خريطة الوراثة ، او خط التشغيل البيولوجي الكامن على اشرطته قد عرف ، فبعد ثلاثين عاما من الدراسة والتحليل والبحث العميق استطاع العلماء فى جميع بقاع العالم ان يفكوا تلك رموز الشفرة الكائنة على كروموسومه الوحيد ، وسوف يحتاجون الى سنوات طويلة قادمة لمعرفة باقى التفاصيل !

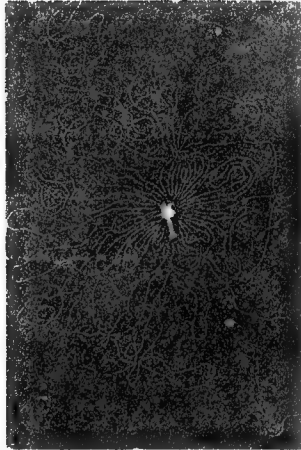
ولقد نتابك هنا حيرة وتساؤل : هل بعد كل هذه السنين الطويلة من البحوث المتقدمة لم يتوصل العلماء الا لفك تلك الشفرة الوراثة لميكروب واحد .. ميكروب دقيق لا تكاد العين تراه ؟ .. واذا كان الامر كذلك مع كروموسوم وحيد فى ميكروب صغير ، فهل معنى هذا ان فك الشفرات الوراثة للانسان سوف يحتاج الى زمان طويل ؟

نعم .. ربما مئات السنين ، وهذا ينبك بالخبر اليقين ، خبر ان اسرار الحياة على مستواها الدقيق ليست بالامر الهين ، كما ان ميكروبنا هذا يحتوى فى كروموسومه الى اربعة آلاف جينة او مورثة او « خطة عمل » مسجلة على الشريط ح د ن ، لتشرّف على تصنيع وتسيير وتوجيه ما يزيد على اربعة آلاف عملية كيميائية حيوية هي التي توجه دنة هذا المخلوق فى الحياة .. وعلى ذلك الشريط - الذى لا يتجاوز طوله مليمتر واحد - يتراص أكثر من سبعة ملايين رمز شفرى Genetical Code ، فى حين ان طول شريط الفيروس لا يتجاوز جزءا من ألف جزء من المليمتر ، وبه ١٧٠ ألف رمز شفرى وراثي تكفى لصناعة مئات الانواع من البروتينات



شكل (١٢)

بكتيرة القولسون (ايشير يشيا كولاي) كما يظهرها
الميكروسكوب الالكتروني .



شكل (١٣)

بوسيلة علمية ذكية أمكن تعظيم (رأس) هذا الغرير ، فخرج « مغه » أو شريطه الودائي كخيط واحد طويل ، لكنه لا يزيد في عائلته من جزء من ألف جزء من المليار (التشفرة الوراثية لا تظهر هنا لأنها تضع فيما وراء حدود (المكرو سكوبات الاليترونية) .



ماذا يحدث الآن في العلوم الجيولوجية

والبلابين دون ان تظهر بينها طفرة وحيدة
تزم ما تهدم !

وفرك العلماء ايديهم فرحا ، لكن ذرية
الميكروب المعدل كانت أكثر حيلة وعنادا
وتشبها بالحياة ، اذ استطاعت ان تعيش
وتتكاثر حتى ولو لم يمد لها العلماء بالخاصة
التي تبني بها جدارها ، هذا رغم أنها لم
تستطيع ايضا ان تصنع هذه المادة بنفسها .

اذن .. كيف عاشت وتكاثرت بدون جدار
بحميها ؟

لقد اوقع الميكروب العلماء في حيرة
بعض ، الا ان الشاب ديتيس بيريرا *Pereira*
- وهو خريج حديث يعمل تحت اشراف
كيرنس في هذا الموضوع بالبلات - قد اكتشف
ان الميكروب يسلك سلوكا مثيرا لكي يحمي
مادته الحية من التشتت .. اذ كانت الملايين
والبلابين منه تتجمع وتلتصق وتتماسك من
طريق مادة هلامية لزجة تحيطها وحميها ،
ولقد امكن معرفة هذه المادة (اسمها حامض
كولانيك *Colanic acid*) ، وامكن
ايضا حرمان الميكروب من غطاء التشفيل
الورالي المسئول عن صناعته ، وبهذا فقد
اخر خطة وراثية يملكوها لاثام تشييد جداره ،
ليس هذا فحسب ، بل ان الميكروب اصبح
حساسا للأشعة فوق البنفسجية ، ومجرد
تعريضه لضوء الشمس يفقده حياته ، وهذا
هو المراد حقا !

ثم ظهرت في الافق مشكلة جديدة ، ولا بد
لها من حل عاجل ، حتى لا « يتزاوج »
الميكروب المخلوق مع الميكروب الطبيعي ، اذ من
المعروف انه تحت ظروف خاصة تمتد بين
الميكروبيين فتاة تزواج جد دقيقة ، ومن خلال
هذه القناة تنتقل المادة الوراثية من احد
الميكروبيين الى الآخر ، وفي هذه العملية
المختلطة ، تنتج « سبيكة » وراثية جديدة

جديد من الميكروب الاصل ، واجريت عليه
التصميمات الوراثية المناسبة بحيث يدمر
نفسه في اية بيئة جديدة غير البيئة التي
ارتضاها له العلماء في معاملهم ، ولقد نفذ
كيرنس فكرته بخطة ذكية ، ففي المركز الطبي
التابع لجامعة الاباما جرت البحوث على
اساس الـ « ينسج » الميكروب لنفسه
« رداء » سليما يحمي به مادته الحية من
التشتت والضياع ، ولقد توصل الى تحديد
الجينة ، او المورثة الحافظة للخطة المسئولة
عن تصنيع مادة كيميائية معددة لبنائها في
جدار الميكروب ، وبهذا تمطي قوة وصلابة
وحماية ومناعة (**والمادة اسمها حامض داي
امينويا ينيليك** *Diamido Pimelic acid*) ..

ولكى يعيش الميكروب المخلوق بهذه الصفة
الجديدة ، كان لابد من امداده في المصائل
بالمادة الناقصة التي لا يستطيع لها تصنيعا
(بعد تدمير جينته المسئولة عن هذا التصنيع) ،
وبهذا يأخذها ويكمل بها جداره ويعيش ، فاذا
فرس وسئل الميكروب الى خارج المصائل
لاي سبب من الاسباب ، فانه لن يستطيع
مواصلة الحياة ، ذلك ان احدا لن يمد له بما
ضاع ، ولهذا يكتب عليه التمرق والانفجار
والموت .. فميكروب بغير جدار بقية ، كالنسان
بغير جلد بجميه !

الميكروب يتحدى العلماء ويقاومهم !

وفرح العلماء بهذا الانجاز العلمي كثيرا ،
لكن فرحتهم لم تدم طويلا ، اذ من خيال
عمليات الطفرة (التفسير) التي تحدث في
الميكروبات سريرا (نظرا لتكاثرها كتكاثر اهريليا) ،
استطاع الميكروب ان يطرر ليمطي سلالة
جديدة (يكنى لذلك ميكروب واحد من آلاف
الآلاف) تستطيع بدورها ان تعيد الى كيانها
ما هدمه العلماء بهندسة الوراثية .

ولم يفقد كيرنس وزملائه الامل ،
فتمكنوا من اكتشاف جينة جديدة ، فاوقفوا
خط تشفيلها ، وجعدها لذيتها بالملابين

ما بين الطفرات الطبيعية وهندسة الوراثة.

بعد هذه الجولة السريعة في أهم وأخطر ما يجري في بحوث علوم الحياة (البيولوجيا) في وقتنا الحاضر، أن لنا أن نتساءل: ما هي الأفعال المحزنة التي يمكن أن تؤدي إليها هذه البحوث؟ .. ولماذا يفسد بها الناس وبعض العلماء حقاً؟ .. وهل من فائدة ترجى من ورائها؟ .. ثم ماذا يعمل لنا المستقبل القريب أو البعيد من مفاجآت؟

الواقع أننا تعرضنا قبل ذلك لشرح بعض ما تنطوي عليه بحوث هندسة الوراثة من أخطار، ونضيف إلى ذلك أن بعض العلماء - وكثيراً من الناس العائنين بالموضوع خارج نطاق العامل والبحوث - يخشون انتشار بعض الميكروبات (« المذلة » أو « المحورة ») ورأيا بطريق الخطأ أو الصدفة أو التلوث أو ربما عن طريق حادثة غير متوقعة، فلا أحد يضمن شيئاً من الاحتمالات التي يتخذها العلماء في معاملهم ومع ميكروباتهم التي « فصلوها » تفصيلاً لتناسب بحوثهم الجديدة.

ونحن قد نذهب بدورنا إلى إبعاد من ذلك ونقول: أن بعض الميكروبات التي عاشت الإنسان من قديم الزمان ما زالت تعيش بيننا، وتضرب ضربتها المباشرة دون أن نستطيع القضاء عليها، صحيح أن جهود العلماء والهيئات الصحية في العالم قد جعلت من بعض الأوبئة التي يهدد بها كالتفون والتيفوس والجذري الذي ينتشر الآن في أصقاع الحدود، إلا أن ميكروبات الكوليرا والتيفود والانفلونزا وشلل الأطفال... الخ، ما زالت جميعها تعيش بيننا، دون أن نستطيع القضاء عليها قضاءً مبرماً. أضف إلى ذلك أن أجسام البشر من قديم الزمان لم تستطع أن تكتسب مناعة شامة ضد بعض أنواع الميكروبات والفيروسات.

تحمل صفات الكائنات معاً، (وهو يماثل عملية التزاوج في الكائنات الأدنى بما فيها الإنسان بطبيعة الحال) وهذا يعني أن الميكروب الضعيف التهاك الهارب من المعامل لا يزال يشكل خطراً، إذ قد تواتيه الفرصة لأن يتحد مع ميكروب سليم، حتى ولو كان الهارب في « رفقته » الأخير، إذ ما دام التزاوج قد تم، فلا بد أن تحصل اللزجة القادمة « بدور » الكثر التي زرعتها فيها العلماء.

على العلماء إذن أن يصمموا ميكروباً - من خلال هندسة الوراثة - بحيث لا يستطيع أن يكون جدواً، ولا أن يلتحم بغيره ليحمي نفسه بعبادة لاصقة، ولا أن يتزاوج مع ميكروب سليم، ولقد تم الشرطان الأولان بنجاح، وتبقى مسألة تخليق الميكروب « العائنين » .. أي الذي لا يستطيع أن يتزاوج، ولا يزال كيرس ومعاونوه يفسدون الخطط لطمس الجينة أو الجينات التي تقوم بإعطاء الأمر بمتنامة مركب النابيين (أو « ث » ..) وهو أحد القواعد الأربع التي تشكل لغة الحياة على الشريط الوراثي كما سبق أن المينا، فإذا تم ذلك، عاش في المصل (لأنهم يمدونه بالركب المدور جاهراً، وإذا خرج من المصل، لم يستطع تزاوجاً، ولو استطاع فلن تقبل الخلية الأخرى مادته الوراثية التي جاءت مختلة، وسيكون ماله الموت سريعاً لا محالة!

ومع ذلك، فبين يدي العلماء الآن مزارع ميكروبية فصلت جيناتها تفصيلاً، لتكون مناسبة لهذه البحوث الجديدة التي يطلقون عليها اسم بحوث هندسة الوراثة، وهي بحوث بدأت تشتق طريقها بصعوبة، بعد أن توقفت زهاء سنتين حتى يؤذن للعلماء بالسير في طريق أكثر أمناً وسلامة، وبميكروبات أقل ضرراً!



وانتشارها فيها ، قد يؤدي الى طفرات جديدة الله اطمع بها ، فلا احد يستطيع ان يتبنا مقدما ما اذا كانت الطبيعة مستغرب ضربتها لتدخلنا في شئونها ، أو انها مستخاضى عن ذلك وتترك الامور تجري على علائها ، ولا نطن ذلك ، لان اى خلل في التوازن الطبيعى او الفيزيائى او الحيوى وما شابه ذلك سوف يؤدي الى خلل في نظمها التى جاءت بهامتوازنة من قديم الزمن (كالخلل الذى اصاب البيئة مثلا نتيجة تلوث مائها وهوائها وترباتها) .

كائنات مفصلة قد تقلب التوازن الطبيعى

ولكى نوضح جانباً آخر من مخوف العلماء من الخلط الموجه بين السلالات والانواع ، كان لابد ان تعود الى التجربة التى نجح فيها دكتور اناندا شاكرا بارتي Ananda Shakraarty الذى يعمل في مركز جنرال اليكتريك للبحوث والتنمية بنيويورك . . فبعد سلسلة من التجارب توصل الى عزل الجينة المسئولة عن هضم السيليلوز في امعاء الحيوانات من البكتريا التى تعيش فيها ، وزرعها في الميكروب الذى يعيش في امعائنا ، وبعد ان تمت التجربة بنجاح ، تخوف من امكان انتشار هذا الميكروب المعدل في امعاء البشر ، وقد يؤدي ذلك - كما يظن بعض العلماء - الى اصابة الامعاء باسهال مزمن ، أو قد يكون ميتاً

ويذهب البعض الى ابعاد من ذلك ويقول: ان هضم السيليلوز في امعائنا سوف يؤدي الى نواتج قد لا تستطيع امعاؤنا ان تمتصها ، وعندئذ ستعيش على هذه النواتج ميكروبات اخرى ، وتحولها الى غازات كثيرة ، ويعنى هذا قلب امور التوازن الطبيعى والميكروبي الذى عرفته امعاؤنا من قديم الزمن ، ثم ان تناول اى نوع من انواع الخضروات (وهى تحتوى جميعا على نسب متفاوتة من السيليلوز) سوف يؤدي الى تحول امعاء الانسان الى مخزن معتبر للغازات ، ولابد من التخلص

بفيروس الانفلونزا مثلا لا يضرب ضربته المباشرة القوية ، ويحتاج العالم كله كوياديعرض مئات الملايين كل بضع سنين ، لا يفعل ذلك الا بعد ان يغير قليلا في شفرة حياته ، ويتحول الى طفرة جديدة لم تتعامل معها اجسام البشر من قبل ، ولهذا يستأسد الفيروس ويستند ، ثم بعد عدة اسابيع او شهور تنحسر موجة الوباء ، بعد ان تكون الاجسام قد تعلمت كيف تقاوم هذا الوباء ، ولكي ينتشر من جديد كان لابد ان يغير الشفرة مرة ومرة ومرة ، وهذا ما نعرفه علميا باسم الطفرات ، او باسمائها الدارجة كفيروس هونج كونج ، او الانفلونزا الاسيوية وانفلونزا الخنازير . الخ .

فاذا كان حال اجسامنا هكذا مع هذا التغير الطفيف في الفيروس ، فما بالنا اذا قلب الانسان امور التوازن الوراثى في الكائنات ، وتخطى الحدود التى اوجدها الحياة لتعافظ على الانواع من عمليات خلط قد يؤدي الى لوفى ليس لها من تراث ؟

ثم ان هذا التغير الجلى السريع قد يؤدي الى قلب المواليد على دموستنا ، فلا تستطيع الاجسام ان تتصرف حيال كائنات لم تتعامل معها من قبل بهذه الصورة ، وكأننا هي كائنات قد جادتها من كوكب آخر ، وهنا قد تحصل لعنة الحياة على من تلاعبوا بسنن الحياة ، وعلى من لم يقاوموا هذا التلاعب !

ومن البحوث التى تشكل نوعا من الخطورة تلك التى تتناول وصل فيروس بفيروس لانتاج فيروس هجين ، او ذرع انواع خاصة من الفيروسات في الميكروبات المعدلة المزولة من امعائنا ، وبعض هذه الفيروسات له اتصال وثيق بحدوث طرز من السرطان في انواع خاصة من الحيوانات . . صحيح ان هذه الفيروسات لم يثبت انها تسبب اوراما خبيثة في الانسان ، الا ان انتشارها ، ثم غزوها لامعائنا (في حالة ما اذا استأسلت السلالة الميكروبية وخرجت من ضعفها ،

منها أولا بأول ، وهذا امر لا يدعو الى الراحة أو الاحترام !

من اجل هذا - وكما يقول شاكرا بارتي - وبدون أن التحقق تجريبيا من نبوت هذه الظنون - قمنا بتدمير هذا الكائن الجديد حتى لا نتحمل وزرا قد تاتي به الايام (وقد تم القضاء على هذا الميكروب بالفعل منذ سنتين - أي عام ١٩٧٥) .

ولقد بدأت بعض المعامل في عزل الجهات المسؤولة من تكوين السموم في انواع خاصة من الميكروبات ، وأرادوا زرعها في الميكروب المعزول من امعائنا ، وعندئذ ارتفعت الاصوات منادية بضرورة وقف مثل هذه التجارب الخطرة ، وبالفعل قد اوقفت ، وحسن انها اوقفت ، إذ لو انتشر هذا الميكروب بسموحيه ، فان بيئته الطبيعية ستكون امعاء الانسان ، ولا يمكن لامعاء او انسان ان يعيش واستنساخ السموم القاتلات لتنتشر في داخله ليل نهار !

ثم ان امثال هذه البحوث ستكون بمثابة بكرة لادوات تدمير « شيطانية » في بعض معامل انتاج الميكروبات المستخدمة في الحنروب البيولوجية . . صحيح ان بعض المعامل قد توقفت الآن بفضل معاهدات دولية ، لكن احدا لا يستطيع ان يضمن مثل هذه الملحعات على المستوى العالمي ، وما أكثر ما تقض منها ، ولو تم « تفصيل » ميكروب جديد (كما يفصل الناس الملابس على المقام) ، لاستخدامه في الحنروب ، فان ذلك سيكون أشد دمارا في الأحياء من دمار القنابل النووية وما يصاحبها من اشعاع .

ومما يزيد انتشار هذه البحوث - ربما على جميع المستويات - ان الشركات الكبرى - لتصنيع الادوية قد اسرعت الى تبني بحوث انتاج ميكروبات « مفصلة » لاستخدامها في انتاج سريع وميسر لبعض المشتقات الدوائية الصعبة المثال ، فهناك احصائية تشير الى

وجود اكثر من ١٨٠ معملا لبحوث تخليق كائنات جديدة بطريقة هندسة الوراثة المستخدمة ، وان كل هذه المعامل موجودة في الولايات المتحدة وحدها ، وان ميزانيتها تروى على ٢٠ مليونا من الدولارات ، ولا أحد يدري ان كانت كل هذه المعامل والمصانع قد استحدثت الامكانيات الكفيلة بعدم انتشار هذه الكائنات الضرية في كوكبنا ، أو أنها لم تستحدثها .

مزيد من الخوف والقيود القاسية !

ولقد سمعت هذه المخاوف وغيرها الموضوع برمتها الى أعلى المستويات ، حتى وصل الى الكونجرس الأمريكي ، وإلى الرئيس جيمي كارتر ، ولقد تشكلت هيئة برئاسة السناتور إدوارد كينيدي لتضع مشروع قانون يحد من حرية العلماء في بعوث هندسة الوراثة ، ومن المعروف الآن ان هذا القانون سيصدر بعد عدة أسابيع قليلة بعد ان تنتهي الهيئة من وضع لمساته الأخيرة ، ولقد احس العلماء انهم قد أصبحوا لا يملكون التفكير ولا التعبير عن تفكيرهم ونظرياتهم بالتجارب الهادفة . . والا فما قالة ان تفكر دون ان تعبر أو تجرب ، اللهم الا اذا كنت تعيش في مجتمع رهيب يضع الحدود على أفكار الخيرة ممن يملكون زمام العلم وقلمه ؟ . . وهل هي ردة أو تكسة كالتى اصابت العلم والعلماء في عصور الظلام ؟

ومما زاد العين بلة أن هذا القانون القاسي سوف يضع القيود الصارمة على نوع التجارب القادمة ، فلا يستطيع معمل أو عالم أو هيئة ان يجري بحثا الا اذا اخذ ترخيصا من الهيئة العليا المشرفة على هذه البحوث ، وإذا حصل على الترخيص ، فلا بد من خضوعه لعمليات تفتيشية لتتقرب ما اذا كانت التجارب تتبع اللوائح بحذافيرها ، وإذا ثبت غير ذلك ، فان القرارات سوف تصل الى عشرة آلاف دولار من كل يوم انتهكت فيه التشريعات المتيدة لتلك البحوث !

وذكور ديفيد يوتستين ، وكلاهما من معهد ماساشوسيتس التكنولوجي ، وذكور فريد بلاتر من جامعة واشنطن ، مع دكتور هوارد جوردون (الذي أشرنا إليه) ليكتبوا صيغة الخطاب ، هذا في الوقت الذي كان فيه ١١ عضوا منتخبين من قبل الرئيس الأمريكي كارل يعضون قانون تقييد تلك البحوث منهم ستة خبراء في مجالات الطب والقانون والأخلاق والشئون الاجتماعية المختلفة ، وليس لهم المام بشئون بحوث جزيئات الوراثة ولا يتبعون الهيئات الممولة لتلك البحوث ، والخمسة الباقون من العلماء ، لكن ليس مهما أن يكونوا من المشاركين في الوراثة .

ولقد جاء في الخطاب المقصوح الذي أقره مؤتمر بحوث الوراثة الأخير ما يلي : « أننا قلقون لأن الفوائد التي ستمتص منها بحوث إعادة جمع » جين « (وهو اختصار لاسم جزيئات الوراثة .. أي حامض دي أوكس ريبونوكليك) سوف تنكرها الدولة وتحررها من خلال تشريع قاس لا دأى له . فمئذ أربع سنوات مضت كان أعضاء مؤتمر جوردون - الخاص بمناقشة موضوع الإحماض النووية عام ١٩٧٣ - هم أول من أثاروا اهتماما عاما بالأخطار الممكن حدوثها من جراء بحوث اتحاد جزيئات جين ، ولقد تمخضت المناقشات التي دارت في هذا الاجتماع من ورقة عمل وضعتها المعاهد القومية للصحة في عام ١٩٧٦ لرسم الخطوط المريضة لهذه البحوث .

« أننا نحن أعضاء مؤتمر جوردون عام ١٩٧٧ لبحوث « جين » قلقون من جراء التشريع الذي قد يوافق عليه الكونجرس أو الولايات أو السلطات المحلية ، إذ أن هذا التبرع سيكون غير عملي وصعب التطبيق ولا يمكن التنبؤ بما جاء به ، مما سيشكل خطورة بالغة على تثبيت البحوث في هذا المجال ، لم أننا نشعر أن الحافز لئلا هذا التشريع هو التهويل أو المبالغة في الإخطار الافتراضية الناتجة من ذلك التشكك ».

ولاشك أن هذه أول مأساة يتعرض لها الفكر العلمي في عصرنا الحالي ، وطبيعي أن العلماء لم يبقوا مكتوفين الأيدي ، فكان أن دعوا إلى مؤتمر عاجل لدينا نقشا أمورهم ، وانعقد هذا المؤتمر بالفعل في الأسبوع الثاني من يونيو الماضي (١٩٧٧) ، وكان ذلك المؤتمر نفسه - مؤتمر جوردون - قد عقد قبل ذلك بأربع سنوات ليتحدث العلماء إلى العلماء من أفاق هندسة الوراثة ، وما يمكن أن يكون لها أو عليها ، وهم بهذا يعرفون ما لهم وما عليهم ، وأنهم يتعاملون مع ضمايرهم ، ولا يفرطون في الإمالة للمقاة على عاتقهم ، ويدركون كيف يتخذون السبل الكفيلة بدم الأضرار بشعوبهم دون وصاية من أحد ، أو نصيحة من مخلوق بل هم أوصياء على أنفسهم ، ولابد أن تتبع النصيحة منهم .

لكن هذا المؤتمر - مؤتمر جوردون أيضا - المنعقد في نيوجرسي من ذلك العام يختلف من سابقه ، ففيه يحاول العلماء الأثلاث من قبضة من يريدون تنصيب أنفسهم أوصياء عليهم ، ويطالبون بحريتهم في بحولهم ، مسع التزامهم بشرف مهنتهم ، وأنهى المؤتمر - بعد مناقشات ساخنة - إلى كتابة صيغة خطاب مفتوح إلى الكونجرس الأمريكي (وقد نشر أيضا في مجلة العلم الأمريكية وانتقل منها إلى المجلات العلمية الأخرى ، وإبضا إلى الصحافة) ، وقد وقعه ١١٠ عالما من المائة والسنتين المشاركين في هذا المؤتمر (وفي نهاية المؤتمر ينصرف البعض لارتباطهم بمهام أخرى ، ولهذا فإن عدد غير الموقعين لا يدل على عدم موافقتهم ، بل لانصرافهم) .

ولقد كان هوارد جورمان (وهو الذي وضع جينة أنسولين الفأر في البكتريا بفرض أنتاج الأنسولين كما سبق أن أوضحنا) هو المحرك الأول للمؤتمر ، وهو الذي أوجع إلى المجتمعين أن يرسوا إلى الكونجرس خطابا شديدا ، فكان أن تكونت هيئة تضم دكتور والي جيلبرت ،

.. قاموس به لغة ذات حروف اربعة متراسة بنظام بدعي ، ولا يقرأ هذه اللغة السجبية الا نفر قليل جدا من العلماء الذين وهبوا انفسهم وحياتهم ليفتكوها الف باء الحياة .. صحيح انهم قد يقضون سنين طويلة ، او ربما العمر كله في لغة « فقرة » كيميائية في جينة ، لكي يعرفوا منها امر البروتين ، ولقد توصلوا - في هذا المجال - الى فك شيفرة عشرات البروتينات

المختلفة ، ومنها جزء اليموجولين الموجود في الدم ، فهذا وحده يتكون من ٦٠٠ حامض اميني مختلف (حدد انواع هذه الاحماض عشرون ، وهي تؤلف « حروف لغة »

البروتينات) ، والذي يجمعها في هذا الجزء الملاق اكثر من ١٨٠ شفرة وراثية مرسومة على شريط غير منظور، وللتصور اتيه الريب الذي يعيش فيه العلماء وهم يقرأون سطرا او شريطا عليه كل هذا المدد غير المنظور .. وطبعي ان اجسامنا تحتوي على اكثر من مائة ألف نوع مختلف من البروتين ، ولكل منها شريطه .. ثم ان اى خطأ في ترتيب الشفرة الكيميائية ، او استبدال حرف بحرف (اى شفرة وراثية محل اخرى) ، سوف يؤدي حتما الى مرض وراثي .. هذا ولقد اكتشف العلماء حتى الآن اكثر من الف مرض وراثي بسبب هذه الاخطاء التي تتمرر لها الجينات ، وكأنما وهم يتممقون في فهم لغة الجينات ، او معرفة خط تشفيرها ، يريدون ان يصلحوا للحياة اخطاها ، أو يصححوا لها هفواتها ، أو يعجرون ادق عمليات جراحية لاجلال الصحيح محل الخطأ .

لكن المتاهات الضخمة جدا في خلية الانسان تمنع تشفير هندسة الوراثة فيها - الآن على الاقل ، أو ربما تمنعها لاجيال طويلة قادمة ، فصعوبة التطبيق فوق ما نتصور ، وطبعي ان أمل العلماء لا يتركز الآن على الانسان ، بل يريدون أولا ان يتعلموا اللغات البسيطة ، وهذه ميسرة وموجودة في الكائنات الدقيقة ، وعلى هذه الكائنات بدأت البحوث حقا .

« ان هذا الاجتماع قد اوضح امكان بروغ الكثير من المعرفة الشقة الناشئة من اتحاد جزئيات حذن . ثم ان الخبرة التي مارسناها طوال السنوات الاربع الماضية قد اعطتنا اقشرب بانعدام وجود اى خطر حقيقي . لهذا فان القيود التي لرضت على العلم الآن والتي لم يسبق لها مثيل لا مبرر لها » .

« واننا نطالب الكونجرس بالحاح ان يضع هذه الاراء في الاعتبار ، واذا رأى الكونجرس ان التشريع ضروري ، فعليه ان يكون متسقا بحيث لا يعوق تقدم مثل هذه البحوث » .

صعوبة لغة الحياة وتصحيح مفرداتها ١

والواقع ان معظم العلماء حريصون على الاستمرار في بحوث هندسة الوراثة ، فاذا كانت هناك اخطار ، كانوا اول ضحاياها ، فهم اقرب الناس حقا - بكم عملهم - لهذه الاخطار ، وان يخاطر الانسان بنفسه من اجل الوصول الى الحقيقة ، فذلك - بلا شك - يدعو الى الاكبار لا الى الانكار ، فهم - اى العلماء - يشعرون بمرارة من هؤلاء الذين ينكرون عليهم معرفة قد تنطوي على فوائد كبرى لمستقبل الحياة على هذا الكوكب .

فمعرفة لغة الجينة تؤدي الى معرفة الخطأ الذي قد تقع فيه .. فمرض السرطان الريب ليس معروفا حتى الآن ، لاننا مازلنا نجعل لغة الحياة المسجلة على شرائطها الوراثة ، وكلما عرفنا تفاصيل اكثر ، وضعت امامنا الحقائق اعظم .

وفي الحديث الشريف « من تعلم لغة قوم امن شرهم » .. صحيح ان هذا الحديث ينطبق على البشر ، ولكنه ينطبق ايضا - بمفهومنا الحديث - على الخلايا التي لا تصغر منها همسة ولا كلمة ولا شيء مما يدور في ملكنا ، ولكنها تحتوي على اعظم قاموس وراثي كيميائي

أحد ، وهو نفس العمل الذي تقوم به بعض صناعات الاسمدة الضخمة ، لكن هذه الصناعات تتكلف طاقة وجهداً ومالاً ، ومع ذلك فنحن في حاجة ماسة اليها لكي نمدح محاصيلنا بما تحتاجه من مواد .

والى هنا تراود العلماء بعض الآمال فيتساءلون : لماذا لا ندرس الجينات المسؤولة عن صناعة السماد في الميكروبات ، ونسرف هندسة خط التشغيل الوراثي فيها ، فننقله الى معظم الميكروبات التي تسكن الترى ، أو تنتشر في مياه البحار والمحيطات ، فيم الخير، ويتضاعف الطعام ، ليسد بلايين الألسواه الجائعة التي سيودحهم بها هذا الكوكب في الأجيال القادمة)

ولو تم ذلك دون مشاكل جانبية ، لكان هذا بحق أعظم وأروع هدف يحققه العلماء منذ بدء الخليقة حتى الآن .. ذلك أن معظم ميكروبات الأرض والبحار سوف تتكفل بتسميد هذه الرقع الهائلة تسميداً يجعل الناس يعتمدون الله على ما أتاهم بفضل هؤلاء العلماء ، إذ ما لا شك فيه أن الإنسان خليفة الله على الأرض، والعلماء هم حاملو راية هذه الخلافة بهمكم سعيهم الدائب نحو الحقيقة ، وما تتمخض عنه غالباً من خير ورفاهية وتيسير لأمور الإنسان .

تعدد أنواع الكائنات الدقيقة التي «تصطاد» النيتروجين الجوي وتحتبته لصالحها ولصالح النبات والحيوان والإنسان قد لا يزيد على عشرة أنواع ، هذا وهناك عشرات الألوف من الكائنات غير المتفورة التي تعتمد على غيرها في نيتروجينها لبناء بروتينها ، إذ أن النيتروجين هو أساس البروتين الذي تقوم عليه كل صور الحياة ، ولو أمكن السيطرة على تشغيل عدد لا بأس به من الميكروبات في تثبيت النيتروجين الجوي عن طريق وصل خط تشغيلها الوراثي بخط التشغيل الوراثي (أو الجينات) المحرول من إرثها (أي الكائنات الطبيعية التي تثبت

ومع ذلك فالعلماء يأملون في دراسة هندسة الوراثة في الخلايا السرطانية ، والظلية السرطانية كانت في الأصل خلية عادية ماقلة ، لكنها أصبحت بالجنون ، والجنون في البشر والحيوان يتركز في المخ ، وكذلك الحال مع الظلية ، فمخها هو نوابها ، وفي النواة تحفظ الشرائط الوراثية ، ولا بد أن يكون أحد هذه الشرائط قد تعرض لشيء من التبديل ، والتبديل أمر جد خطير ، إذ قد يؤدي الى إعطاء أوامر خاطئة تفقد الظلية توارثها ، فيصيرها جنون التكاثر دون ضابط أو رابط ، فيظهر على أساسها ورم خبيث .. وطبيعي أن البحوث في هذا المجال ليست سهلة كهذا الكلام ، بل هي في الواقع أكثر غموضاً من الغار السماء أو أي شيء آخر في الكون .. لكن البداية تكون دائماً متواضعة ، ثم تتطور الى الأحسن دائماً .

أي ان غاية القصد من هذه البحوث هو انقاذ الإنسان من عذابه وآلامه الناتجة من خطأ في إحدى شرائط حياته ، وهندسة الوراثة - حتى ولو بدأت على الميكروبات الطمعة ببعض جينات الإنسان - كقيلة بارتباد هذه الأفاق المجهولة لمعركة طوفان زاخر من الأسرار التي لا تنتهي أبداً .



أغالي عظيمة تفتحها هندسة الوراثة .

لكن العلماء يأملون فيما هو أنفع وأجدى ، إذ من خلال هذه البحوث يستطيعون عزل واختيار ذرع الجينات المعبودة من كائن الى كائن آخر يستطيع أن يبررغفاً نقل اليه بطريقة آتة وأسرع وأجدى .

ولكي نوضح نقول : ان هناك للة-قلية من الميكروبات التي تمتلك خنط-تشغيل جيني لاصطياد النيتروجين الجوي وتثبيتها في سلسلة من العمليات الكيميائية الهامة ، وهي تقوم بهذا العمل دون شجة أو إعلان أو إشراق من

التوازن يؤدي الى التلوث .. أي ان هذا ينبع من ذلك ، وعندئذ قد يقول الإنسان ، فلندع ما لله ، وما لقيصر لقيصر .. لكن قد يقولها بعد فوات الأوان، وعندئذ لا تنفع صلوات ولا دموات لاجلح خلل جسيم لا يقدر عليه الإنسان .

الا ان هناك فكرة أخرى - في هذا المجال - قد لا تنطوي على أخطاء جانبية ، فبدلاً من زراعة جينات خطوط تصنيع السماد في الميكروبات، تمتد بها - أي الميكروبات - فيها من كائنات لا تستطيع تصنيعه ، بدلاً من ذلك ، قد يمكن تحقيق زراعة هذه الجينات رأساً في النباتات التي نحتاجها من غذائنا بالسماد . بمعنى اننا قد نختار نبات القمح أو الذرة أو الأرز أو أية شجرة من أشجار الفواكه ... الخ ، ونحاول « غرس » جينة أو أكثر في خططنا الوراثية ، من خلال خلية مزعولة من أي من هذه النباتات ، ثم نحاول دمج هذه الخلية الجسدية الى التحول الى نبات بالغ ليزهر ، فينتج بدوره وثماره التي تحتوي بدورها على الخطة الوراثية المتكيفة بتصنيع السماد لنيتروجين الهواء ، فإذا زرعنا هذه البذور ، فقد تكون البداية الحقيقية لنباتات بالغة قوية غنية بالبروتينات ، وفوق كل هذا لا تحتاج الى سمادنا ، بل هي تسمد نفسها بنفسها ، وفي الوقت ذاته تسمد أرضنا من خلال ما يصود الى هذه الأرض من بقايا تلك النباتات ، أسوة بما يحدث الآن مع النباتات البقولية ، فهذه تستطيع ان تعيش فيشبة تكافلية مع بعض أنواع البكتريا التي تصنع السماد من نيتروجين الهواء ، فهي - أي البقوليات - تثقل لها حياتها بامدادها بالمكروبات التي لا تستطيع لها تصنيعها ، والبكتريا تثقل لتلك النباتات الخضراء مدداً من سماد يقلل سائرها ما دامت حياتها قائمة ماء، فإذا وصل النبات الى نهاية حياته ، توفقت عملية التكافل ، وتتحلل بذلك جذور النباتات بما عليها من عقد بكثيرة غنية بالمواد

هذا الفاز) ، لتضاف انتاج السماد ، ولاغلقنا كل المصانع التي أنشأها الإنسان لهذا الغرض، وعندئذ تصبح هندسته وآلاته شيئاً بدأبياً ومتواضعا بالنسبة لهندسة الوراثة . يرشد السيطرة عليها وتوجيهها لصالح الحياة !

ان أحداً - في وقتنا الحاضر - لا يستطيع تسميد البحار والمحيطات ، حتى ولو اشتغلت لها أضعافاً ما يملك الإنسان من مصانع السماد ، ذلك ان هذه المسطحات الهائلة من المياه اكبر مما نتصور ، فيها أكثر من ١٤٠٠ مليون طن من الماء ، وتركيز النيتروجين فيه لا يتعدى نصف جزء في المليون فقط ، ولهذا كان ذلك الفاز الهام (أو مركباته) من العوامل التي حدثت من خصوبة البحار ، ولو أمكن مضاعفاتها الى بعض الميكروبات السالدة في تلك المياه ، لتضاعفت تبعاً لذلك خيرات البحار ، ولأعطتنا باليمن واليسار .

الفكرة بلا شك جميلة وجذابة وتدمسو للانفكار ، وتبشر أيضاً بأمال مراض ، الا ان لنا تحفظاً وحيداً نسلطه هنا لما قد تأتي به الايام .. فزيادة خصوبة المياه من خلال الكائنات الدقيقة المزروع تخليقها قد يؤدي على المدى القصير او الطويل الى خلخلتي التوازن الطبيعي والحيوي الذي عرفته الأرض منذ آلاف الملايين من السنين ، وقد ينتج من ذلك ان تتحول البحار الى « شورية » غريبة لا يفوح منها الا كل ما هو كريه وفاسد ، ذلك ان زيادة العناصر من مقننتها المضبوطة (وخاصة مركبات النيتروجين) ، سوف يؤدي الى تغيير لا يعلم مداه الا الله، فلوا اشتغلت الميكروبات الجديدة، ورادت تبعاً لذلك العناصر الغذائية ، لكان أستمفيد الأول بها يتكون الصور الدقيقة للحياة ، وسوف تتكاثر هذه دون رايست او ضابط ، وكلما زادت العناصر الغذائية ، زادت تبعاً لذلك امداد هذه الكائنات ، وهنا نقول ان الإنسان قد لوث البحار بما ليس فيها ، فالتلوث يقود الى اخلال التوازن ، واخلال

من اسرار الخالق المبدعة ، ثم انها لا تفصح عن مكوناتها من اول طريقة ، ولا تستجيب الا لكل باحث دقيق صبور ، لمر الجينة او الجينات هو حجر الاساس في كل المخلوقات لان كل جينة - كما سبق اوضحنا مرارا - مسئولة عن كل صفة تظهر بعد ذلك في المخلوقات ، والجينة لا تستغل بذاتها ، ولا تكفي ، بل لا بد من معرفة دقيقة ايضا « بالمفاتيح » الكثيرة التي تفتح فيها مراكز تشغيل ، وتطلق اخرى .. مثلها في ذلك كمثل شريط التسجيل في عاكثا ، فالشريط بذاته لا قيمة له ، ولا كذلك لما هو مسجل عليه ، ولكي نوضح مضمونه ، فلا بد من آلة التسجيل المتقدمة لتظهر ما خفى فيه !

ومن خلال طوفان هذه الاسرار العويصة والمتداخلة والمتعدة يأمل العلماء في الاستعانة بما خلق الله في كائناته ، ليخلقوا بها صناعات جديدة لم تظهر على الارض قبل الآن (لنستثنى من ذلك طبعا الكائنات الحية) ، ولكي نتجع اية صناعة من الصناعات ، فلا بد من اخذ سرعة الانتاج وتكلفتها في الحسبان ، ثم انتقاء الجينة المناسبة ، لوضعها في الكائن المناسب ، لتشغيلها في البيئة المناسبة في تجهيزات صناعية من ابداع الانسان ، وهذا يعني ان هناك هندستين : هندسة وراثية وهي الامر الاصعب والابعد مثالا ، وهندسة ميكانيكية وانشائية ، وهي الاسهل !

وليس كالميكروب اداة حياتي سرعة التشغيل والانتاج ، ذلك انه - اي الميكروب - لو وجد البيئة المناسبة ، فان ذورته تتضاعف كل نصف او ثلث او حتى ربع ساعة ، وهذا بلا شك سيؤدي الى انتاج كميات خيالية من المادة الحية في اليوم الواحد - كميات قد تصل بلايين فوق بلايين من الاطنان - اذ كلما ارتدت محصولا اكثر ، فعليك ان تمدها بغذاء ميسر .

لكننا لا نريد مادة الميكروبات المفضية (اللهم الا اذا كان ذلك بغرض انتاج محصول

النيتروجينية ، فستفيد به الارض كمساحد لمحصول قادم .

لكن ان ننقل هذه الفكرة وراثيا داخل تكوين النباتات ذاتها عن طريق بحوث هندسة الوراثة الحالية ، ليتكفل كل نبات بنفسه ، دون الاعتماد علينا ، لو حدث ذلك لكان فاتحة لعصر يختلف في جديته والارثه عن كل المصور الماضي ، وسيكون ذلك اكثر فائدة من اصلاح الاخطاء الوراثية في الانسان ، كما انه سيكون - نسبيا - اسهل مثالا ، واعظم مطاماً .

يكفي ان نذكر هنا ان واحدة من الصناعات التي اجرها بعض العلماء تقول : انه بطول عام ٢٠٠٠ فان ارضنا الزراعية سوف تحتاج الى سماء تصل قيمته الى اكثر من مائة الف مليون دولار ! .. وعلينا ان نقارن ذلك بمائة مليون دولار فقط - هي تكلفة بحوث هندسة الوراثة لتطبيقها بكفاءة في النباتات ، والاختيار هنا امر سهل ، فانتاج نباتات « مفعلة » على الجاهز لتصنيع سمادها ، او فر وكافا حتما من انتاج سماد المصانع الكلف .. هكذا يعطى دكتور جيمس دانيلي رئيس قسم البيولوجيا النظرية بجامعة نيويورك !



اداة لتصنيع القوالب والفيتمينات

والهormونات

على ان هناك آمالا اخرى تتعلق بكثير من الصناعات ، فتصميم المصانع والآلات وهندسة الانتاج التي ظهرت مع ظهور عصر الصناعات الثقيلة والآلية هي من عند البشر ، وتصميم « آلات » الحياة الجزيئية الدقيقة هي من عند الله الذي اتقن كل شيء صنعا ، وطبيعي انه لا وجه للمقارنة بين هذا وذلك ، ولهذا لجأ العلماء الى ما صنع الله ، ففيه كنوز لا تفتى ، لكن هذه الكنوز لا تفتح الا للمعول التي بحث

الخطأ أو إيقافها في خلاياها الأصلية (أي دون الجود الى نقلها الى الميكروبات) ، وعندئذ يستطيعون « الضغط » على « زيارها » لتنطلق العمليات دون توقف ، وبهذا يقوم الانتساج كما يشاء العلماء ، لا كما تشاء الخلايا ، إلا - من خلال هندسة الوراثة - سيصبح الامر بيد الانسان ، لا بيد الحياة !

ولو سيطر العلماء على هذه العمليات ، حقاً ، لسوف تمشي الارض في خيرات فطرتها - دائية ، ولن يشكو الناس فقراً ولا مسغبة ، ولكي نوضح ذلك اكثر كان لا بد ان نتعرض لاضخم وأضخم عملية تتوقف عليها حياة كل الكائنات على هذا الكوكب .

التحكم في عملية التمثيل الضوئي :

لا شك ان النبات الاخضر هو المستفيد الاكظم بالأشعة الشمسية ، وهو القائد على استغلال طاقتها ، وتحولها الى طاقات كيميائية مخزنة في الجزيئات العضوية التي تتكون في كل الكائنات الحية ، وعندما تحترق هذه الجزيئات او تتفكك الى وحدات جزيئية اقل ، فانها تطلق طاقتها داخل الخلايا والمخلوقات لتستفيد بها في ادارة كل عملياتها البيوكيميائية .

وعملية تحويل الطاقة الشمسية الى طاقة كيميائية في النبات الاخضر يطلق عليها اسم التمثيل الضوئي او الكلوريفلي . . . وهي أضخم واكبر عملية حيوية على الإطلاق ، اذ يدخل فيها سنوياً مئات الآلاف من ملايين الاطنان من غاز ثاني اوكسيد الكربون مع مئات الآلاف من ملايين الاطنان من الماء ، لانتاج كل مسور المادة العضوية في جميع الكائنات الحية .

ولقد درس العلماء هذه العملية بالتفصيل ، وما زالت بعض اسرارها غامضة حتى الآن ، ويأمل العلماء في معرفة تفاصيل آلية الجزيئات التي تسيطر على تصنيع جزيئات الكلوروفيل في النباتات ، وهم يأملون ادخال هذه العملية

وافر من البروتين والدهون . وما شابه ذلك لتحويله الى علف للحيوان ، ليطعم غنى بالبروتين للانسان) . . بل نريد بدلا منها مركبات كيميائية محددة من الصعب تصنيعها في المعامل ، او تصنع بصعوبة ، مما يؤدي الى ارتفاع اسعارها ، لكنها - اي هذه المركبات الغالية - تصنع في الكائنات الحية بسهولة قد نعجزها عليها ، فهي مع قديم الزمن تمتلك شر الط-ورانية لطبعها نبيها او غطط جعل خامية لتصنع فيها تلك المركبات ، ولهذا فإن لعالم العلماء هندسة الجزيئية يسيل على تشغيل هذه الخطوط من خلال تحكمهم فيها بعيدا من الكائنات الحية ، الا ان الكائن الحي يصنع هذه المركبات بحدائق ومقدار ، وغالبا ما يحتاج منها كميات جد ضئيلة ، فيعض الهرمونات والفيتمينات والمركبات المسيطرة على اطلاق الاشعرات العصبية في اسماكنا . . الخ ، قد لا يزيد تركيزها من عدة اجزاء من الف جزء من الجرام ، او ربما من مليون جزء من الجرام ، ثم ان اجسامنا بدورها لا تستطيع ان تصنع بعض هذه الفيتامينات ، ولا بد ان تحصل عليها من الطعام . . . اذن الى ذلك ان استخراج بعض هذه المركبات من مصادرها يتطلب عمليات كيميائية حريصة فيها ضياع الجهد والمال .

ومن هذا المنطلق يأمل العلماء في العثور على هذه الجينات في كائناتها ، ثم عزلها منها ، ووصلها في الشريط الوراثي ليكروبيها ، فلذا تقسيم التسمية بعد سرعته الكبيرة المتعددة ، وهذا يعني اننا متفصلين في نهاية الامر على بلاتين النسخ من الجينة المطلوب تشغيلها ، لكن هذه النسخ - رغم نجاح ترانسها وتكاثرها - قد لا تجد بالتأثير . . . ولا بد ان يبيىء العلماء انهم انفسهم انفسهم في التفتيش على تسخير كل الخطة الكيميائية التي تسيطر على تشغيل الخطة ، واعطاء الامر لانتاج المادة الكيميائية المطلوبة ، او قد يتوصلون الى الجين الكامن وراء تشغيل

لكن اغرب من تصورات البشر وخيالهم ، فكل شيء يتطور الآن بسرعة مذهلة ، « ولكن أكثر الناس لا يعلمون » !

هندسة الوراثة قد تحول في أنسان المستقبل !

على ان هذه البداية المثيرة والعظيمة في بحوث هندسة الوراثة ، ثم استجابة بعض الكائنات لسماسي النخبة المتأخرة من علماء هذا الزمان ، ثم النجاح المبذول الذي تحقق ، فشحج الرجال على خوض جميع التحديات .. كل هذا وغيره قد اثار فينا بعض الخيال ، ورب فكرة تكون اليوم خيالا ، فتصبح حقيقة قس المستقبل القريب او البعيد ، فما أكثر الأفكار الخيالية التي تحققت بالمساعي العلمية الحميدة.

الآن - فملفا يدور في العقل من تصورات ؟

ان النفس تراودني ، والعقل يحاورني ، والخيال يدهمني بان بحوث هندسة الوراثة قد تذهب - بعد مئات السنين - الى ايصدا مداهما ، وتحاول التلاعب بجينات الانسان ، وتفصلها حسب هواها ، فتضيف اليها ، او تحذف منها ما تشاء ، على اساس ان يبقى للانسان صفاته الطبيعية ، بالإضافة الى صفات اخرى نقلت اليه من كائنات شتى ، ليصبح مخلوقا يجمع صفات الانسان والنبات ، او بعض صفات حميدة من الحيوانات !

فانسان المستقبل الناتج من تشغيل خطوط وراثية اخرى قد لا يلتهم الحوم ولا الدهون ولا النشويات ولا أى نوع من انواع الاطعمة الصلبة ، وقد ينظر الى تاريخنا ومادائنا الماخية ، بعد ان تكون قد اقترضنا كنوع ومما يعيش على اجساد غيره من نبات وحيوان .. قد ينظر اليينا ويقول : كم كانوا متوحشين هؤلاء الذين عاشوا في القرون الماخية !

فانسان القرون القادمة قد يتحول الى انسان كلوروفيلي او اخضر اللون ، هذا لو تصورنا مثلا ان العلماء قد وضعوا في خط

لحت بنود بحوث هندسة الوراثة الجريئة ، ليزيدوا من كفادها وسرعتها وتمثيلها ، اذ ان النباتات لا تستطيع الآن ان تستفيد بأكثر من نصف بالمائة من الطاقة الشمسية ، ولو ضاعف العلماء - بطريقة او باخرى - استفادة النباتات بهذه الطاقة ، لتضاعف انتاجها بما لذلك ، ولاعطت ثمارا وحبوبا وانتاجا يسر الناظرين.

او قد يدفع العلماء النباتات - من خلال بحوث هندسة الوراثة ايضا - الى الاسراع في معدلات نموها ، بمعنى ان يختصروا الفترة التي يمكثها النبات في الأرض (لكي يجود بمحصوله) الى النصف او الثلث او الربع ، وبهذا يمكن زراعة الأرض بأكثر من ثمانية او عشرة محاصيل سنويا .. كل ما هنالك ان يتمموا في الضوابط التي تسيطر على خط التشغيل الوراثي ، ومن هنا قد يفتحون العيار على اخره ، اسوة بما يحدث في السرعات المختلفة التي يمكن ان تنطلق بها اية آلة أو سيارة ، فان شئت اسرعت بها ، وان شئت ابطأت ، فكل امر هنا تحكم آلي هندسي ، وهكذا ربما تتطور بحوث هندسة الوراثة ، وتسرع بمماريات الكائنات ، او تبطء فيها من خلال خطوط تشغيلها .

والواقع ان هناك كثيرا من الآمال المقودة

على هندسة الوراثة .. صحيح ان الصعاب التي تكتنفها ليس لها حدود ، وان تداخل العمليات الحيوية المعقدة قد يصعب اعظم العقول بالهيرة والفنانين ، لكن حماسة العلماء وجاذبية اسرار الحياة ، والتنافس العظيم الكائن بين معامل البحوث والجامعات ، والميزانيات الكبيرة التي ترصدها الدول الفنية لبحوث الحياة .. كل هذا وغيره كفيل بالاسراع في تحصيل كنوز هائلة من المعرفة لكي نفزو بها هذا العالم الثمير ، ومما يشجع على ذلك ان ما ينشره العلماء الآن من بحوث في سنوات ، يساوى كل ما نشره الاسبقون في عشرات او ربما مئات السنين ، وهذا قد ينبئك بان مفاجات المستقبل القريب او البعيد قد

وقد تأتى السلالات البشرية بروائع عطرية طبية ، فبدلاً من هذا العرق الذى يظهر على جلودنا ، وقد يتحول - بالأعمال - إلى روائع فيها بلاء للمستنشقين ، بدلاً من ذلك قد يمرق الجسم بنفسجاً أو ورداً أو ياسميناً . . الخ ، والغرض فى ذلك يرجع إلى هندسة الوراثة التى استطاعت أن تزرع جينات الروائع العطرية - كلا على حدة - فى الخلايا البشرية!

أنا بلا شك مقبلون على عصر قد تتحقق فيه أمور لا تطرأ على عقل بشر ، ولقد وضع الإنسان العاالى البلدة، وسوف ترمأها الاجيال القادمة بالتهذيب والمقتل والتطوير ، حتى ترقى ثمارها ، وأنا لمنظرون ، ونرجو الا يطول الانتظار ، لنرى تحقيق بعض هذه الاممال الكبار ، ولنعلم ان كل شوء يسير بحساب ومقدار ، ولا يدرك ذلك تمام الادراك، الا كل من بحث فجميع قانوى لعرف فلقدر الله حق قدره . . «وما فعروا الله حق قدره» ، فابداع خلقه يمتد أمام عقولنا وميولنا بغير حدود ، « ولكن اكثر الناس لا يعلمون » .

تشغيله الوراثة الجينات المسئولة من صناعة الكلوروفيل ، وانه من خلال بحوث عميقة وطويلة ومضنية قد امكن تشغيل هذه الجينات، لنتنتج المادة الخضراء التى تنتشر على بشرتنا، جنباً إلى جنب مع مركبات الدماء ، وما على الانسان لكن يتسبح الا أن يعرض جسمه للشمس قليلاً او كثيراً - يتوقف ذلك على درجة جوعه، فاذا بهواء زفيره يتحول إلى مركبات سكرية، وهذه قد تحتزن على هيئة نشا حيوانى او دهون .

وماذا اذن من البروتين او اللحوم ؟

قد ينجح العلماء فى نقل الجينات التى تستطيع تحويل الاملاح النيتروجينية إلى مركبات بروتينية - تماماً كما يفعل النبات ، ولهذا يكفى هذا النوع الانسانى الجديد (او الانسان الاخضر) مشروب خاص مضاف اليه تلك الاملاح او هذا السماد الانسانى ، مع مزجه بمواد ذات نكهة طيبة ليكون المحلول للـ لشاربين !

المراجع

- ١ - دكتور عبد الحسن صالح : « اليوم ضفدع وغدا انسان » ، آفاق عربية (العراق)
معد ٧ (١٩٧٦) .
2. Bennet, W. and Gurin, J., "Public and Science Regulation".
The Atlantic (Monthly) Febr. 1977.
3. Cohen, S.W. „The Manipulation of Genes".
sci. Amer. Vol. 233. No. 1. 1975.
4. Chad, G., „Genetic Engineers discuss and our Future".
New Sci. Vol. 65 No. 939 1975.
5. „Threat to U.S. Genetic Engineering".
New Sci. Vol. 71 No. 1007 1976.
6. Davis, B.D. and Waid G. „Genetic Engineering Debated by a Spirited Pair".
Sci. Dig. Vol. 81 No. 6 1977.
7. Hogness, D.S. „Human Use of Genetics", In The Great Adventure. Perennial
Labr. 1974.
8. Holliday, R., „Should Genetic Engineering be Contained?"
New Sci. Vol. 73 No. 1039 1977.
9. Hyde, Margaret. The New Genetics.
Pub, Franklin Vette, New York, 1974.
10. Jones, A. and Bodmer, W., Our Future Inheritance : Choice or Chance? Oxford
University Press 1974.
11. Lewin R., „The Future of Genetic Engineering".
New Sci. Vol. 64 No. 919, 1974.
12. "U.S. Genetic Engineering in a Tangled Web".
New Sci. Vol. 73 No. 1043 1977.
13. „Scientists backlash against U.S. legislation on DNA"
New Sci. Vol. 74 No. 1057 1977.
14. Michael W. Berns. "The Carbon-copy world of cloning".
Encyc. Brit. Yearbook of Science and the Future 1975.

15. Shinsheimer, R. "An Evolutionary Perspective for genetic Engineering".
New Sci. Vol. 73 No. 1035 1977.
16. Singer, Maxine " Genetic Engineering. Four Year on Scientists and the Control
of Science. New Sci. Vol. 74 No. 1056, 1977.
17. Time Special Report : Tinkering with Life.
Vol. 109 No. 16, 1977.
18. Tooze, J. "Genetic Engineering in Europe"
New Sci. Vol. 73 No. 1642, 1977.
13. Wade, N. „Hazzards and Restraints in Genetic Engineering"
Science Vol. 195 1977.
20. Ziff, E. „Benefits and Hazzards of Manipulating DNA",
New Sci. Vol. 60 No. 869, 1973.





طبيعة الفقر

عرض وتحليل: الدكتور محمد فايز المراد

ربيع قرن هو استخدام الماء كمصدر للطاقة وتطوير الحصول على الطاقة الحيوانية ، هذا بالإضافة الى الطاقة الانسانية التي يمتلكها المجتمع . وبينما كان يفترض ان يؤدي ذلك - من حيث المبدأ - الى زيادة كبيرة في كمية الطاقة الجديدة المكتسبة نظرا لتعاظم الامكانيات المتوفرة لانتاج هذه الطاقة ، الا ان الشواهد الامبريقية التي اكدتها هذه الدراسة تشير الى استمرار فقدان الرسائل الانسانية القادر على الانتاج نظرا للاهمال الشديد الذي تعرض له هذه الطاقة الانسانية ، وظهور طبقة جديدة في القرية تتحكم بالمجتمع وبموارده . فالأرصدة المتوفرة أصبحت تنفق - وبشكل متزايد - لتمويل أشكال جديدة من الحاجات الاستهلاكية بدلا من استخدامها في مجالات الاستثمار ، كما

اضحى الفقر مقننا Institutionalised
فالخوف من الجوع قد اختفى الى حد بعيد الا ان الفقر بمعناه العام - المعجز بان نعيش حياة

على الرغم من العنوان المضلل الذي يحمله هذا الكتاب الا انه يقدم لنا دراسة تفصيلية للتغير الاجتماعي والاقتصادي الذي تعرضت له قرية افريقية من قرى جامبيا خلال الفترة الواقعة بين ١٩٤٧ و ١٩٧٤ . لقد شاركت مؤلفة هذا الكتاب في دراسات ميدانية اجريت في هذه القرية عامي ١٩٤٧ و ١٩٦٢ ، اما الدراسة التي يتضمنها هذا الكتاب فقد قامت المؤلفة باجرائها عام ٧٣ - ١٩٧٤ . وما يعطى لهذه الدراسة نوعا من التفرد والتميز هو استخدام المؤلفة لنفس الفريق الميداني الذي اشترك معها في الدراستين السابقتين ، وكذلك اتباع طرق القياس الكيفية والكمية التي استخدمتها في دراستها الاستطلاعية عام ١٩٤٧ .

ان صورة التغير الذي تلقى هذه الدراسة الضوء عليها هي صورة قائمة وكثيفة ، فالتغير التكنولوجي الاساسي الذي تم احداثه خلال

لنمو . وبسبب بطء عملية النمو في سوق العمالة الحضرية فإن الأعداد الضخمة من السكان الريفيين الذين تزخر بهم حالياً مجتمعات الدول النامية سوف تتزايد خلال العقود المقبلة بصورة مضطربة ومطلقة . هذا ولن تفلح ضغوط ما يسمى « بالبروليتراريا الفلاحية » في التمكن من إقامة مجتمع استهلاكي شبيه بذلك المجتمع الذي تتمتع به الصفوة الحضرية ، وذلك بسبب مواصلة انغماس هذه البروليتراريا في إنتاج المواد الغذائية التي تكفل لها البقاء على قيد الحياة .

وهكذا فإن ملاحظته اليوم من احتياج شعبي صاحب على نقص الغذاء العالمي لا يبدو من كونه *تقنين للفقر Institutionalisation of Poverty* وأقرار به ، في الوقت الذي يطبق فيه الجهل في القطاعات الريفية للمجتمعات النامية بدوافع الإنتاج وحوافزه .

استمرارية التمازج القديمة في ظل التثقيفات الجديدة :

إن الشواهد التي تقدمها هذه الدراسة من حياة مواطني هذه القرية - مير ربع قرن من الزمن - تعزز الآراء التي أشرت إليها سابقاً ، حيث أن ما تتمرض له من نقص في كمية الغذاء المثلّي المتوفر لديها في عام ١٩٧٣ هو نفس النقص الذي كانت تعاني منه في عام ١٩٤٧ ، وما استجد الآن هو تدخل تلك السلسلة المتصلة من العوامل الخارجية - سياسية ، اجتماعية ، اقتصادية - والتي تأثرت بها العلاقات الإنسانية ومصادر الطاقة البشرية .

وهكذا لا يجوز القول بأن النقص الحقيقي في كمية الغذاء العالمي - الذي تعاني منه البشرية الآن - ظاهرة عالية ناجمة من الاعتماد الكلي للإنسان على العوامل المناخية . إن تحرف

مشبعة هو الذي يولد الخوف اليوم . فشبّاب القرية الذين حالفهم الحظ ونجوا من مرض عضال أو عجز جسماني سوف يحاولون بلا شك الهرب من ظلمة وكآبة حياة القرية إلى أضواء المدينة الثلاثية ، وذلك في بحثهم اللامتحي من الهوية والأشباع .

ويبدو أن مدى الضرر النفسي الذي تتعرض له نسبة كبيرة من سكان المناطق الاستوائية وشبه الاستوائية نتيجة لانخفاض إنتاجها الزراعي ، ذلك البلاد الذي مصدره بلا شك المجتمعات الغنية (لسيطرته الشاملة على موارد الغذاء العالية وعدم اكتراثها المبكر للمؤشرات التي تنذر بقرب حلول كارثة في كمية الغذاء العالمي المتوفر) - يصعب الآن تقديره وتحديد النتائج المترتبة عليه ، إن أول ضحايا مخططات التنمية الغربية (برامج المونة الغذائية والمجهر من الإدراك بأن شعوب البلاد الأكثر فقراً ليست جموعاً عاجزة من الحركة والإنتاج ولكنها نماذج بشرية قادرة على الاستجابة للحوافز الشخصية) هي بلا شك حكومات ومجتمعات الدول الأكثر تخلفاً وفقراً .

لقد شكلت الممارسات الزراعية التقليدية طريقة لحياة المواطنين الريفيين الذين يخضعون للعزلة النسبية ، فكان طيهم تكييف نشاطاتهم الاقتصادية بما يتلاءم ودورة فصول السنة ، والقبول بمنهج من اقتصاد الورقة والتدرة في الموارد الغذائية يفضح لتقلبات الجوع التي لا سيطرة لهم عليها .

ولكن تدخل الوكالات الدولية وكفاحها من أجل الحصول على مزيد من مساعدات التنمية التي تقدمها الدول الغنية لما يسمى بالدول الفقيرة قد دفع العديد من الحكومات الوطنية في دول العالم الثالث إلى اتباع المسار المضلل

الزراعيين على التجار في تأمين حاجات العيش والبقاء ، فاللشترى المحلى مهم جدا كمصدر للسيولة النقدية اللازمة للحصول على المواد الغذائية وغيرها من الحاجات الشخصية .

ويمكن اقتفاء اثر هذا النموذج من التعامل في المجتمع التقليدى على الرغم من تغير وسائل التبادل ، ان عملية الحصول على المونة والمساعدة في تلك المجتمعات التقليدية تقوم على مجموعة من قواعد السلوك المتفق عليها ضمن اطار سلطة العائلة الممتدة . ففى ظل اقتصاد مغلقة يعتمد كليا على المجهودات الذاتية لاقراده من اجل توفير احتياجاته من الغذاء ، يكون في مقدور الفرد الذى تتعرض مزروعاته لموسم حصاد سيء الاعتماد على اقربائه لمساعدته في تجاوز هذه المحنة على اساس السداد المعنى في موسم الحصاد التالي . ويتربط على استخدام هذا الاسلوب من التعامل في مجتمع يقوم على الاقتصاد النقدي اسوأ النتائج . فالصقعة التى تتم بين المزارع او التاجر الصغير والدائن تؤدي الى ربط ذلك المزارع او ذلك التاجر بطلبات متصلة من الديون التى يعجز عن الايفاء بها والتخلص من ريفتها . وفي مجتمع تفرو البضائع الاستهلاكية اسواقه وشجع أبناءه على شرائها ، في حين ان دخلهم الذى يعتمد على الانتاج الزراعى - المنخفض المردود الدائى - لايتيح لهم فرصة الحصول على هذه البضائع ، في هذا المجتمع تسود صورة من الحاجة الدائمة - الفقر الدائم - تؤدي الى التوقف عن الانتاج (لسوء الحالة الصحية وانخفاض الكفاءة والفعالية) مما يتربط عليه خسارة المجتمع وهلاكه لطاقاته .

الانسان المستمر من امكانية التعرض للخطر وبحته الدائب عن الطمأنينة يشكل في حد ذاته أبرز الخصائص الانسانية سيطرة واكثرها تحكما في سلوكه وتصرفاته . وتمثل هذه الخاصية في ادنى مستوى لها في حاجة الانسان الى الامن وسعيه الدائب لتأمين احتياجاته الاساسية من اجل البقاء : الماء ، الغذاء والمأوى . ان ما تعرضت له الطاقة البشرية في دول العالم الثالث من افعال قد نعيم من الزيادة الحاصلة في انتاجية الوحدات الزراعية للدول التى تبنت التكنولوجيا الحديثة واستخدمتها بنجاح ، ولقد انابت شبكة المواصلات الحديثة الفرصة لنقل الفائض الغذائي المتراكم لدى تلك الدول الى المجتمعات التى تعاني نقصا في تلك المواد الغذائية .

ولا يبدو ان هذا الاتجاه السائد - تحويل الفائض الغذائي الى الدول المحتاجة - منذ عام ١٩٧٥ هـ هو الذى أدى الى احداث تغيرات في قيم وتنظيمات تلك المجتمعات التى اعتمدت على هذا الفائض . فمزارعو تلك المجتمعات يفتقرون الى التقاليد او الخبرة في العمل التعاونى - الا على المستوى المحلى الضيق - ، ويبدو ان أهم ما تعرضت له تلك المجتمعات الريفيتمن ككثير عدد التجار المحليين وزيادعدد اصحاب المحلات الصغيرة واستحداث شبكة مواصلات افضل ، حيث يقوم هؤلاء التجار واصحاب المحلات في مواسم الحصاد بشراء فائض المحاصيل الزراعية بأسعار زهيدة ، كما يمنحون القروض للمزارعين في اوقات الضيق بفوائد مرتفعة . فالاهمية المترتبة على وجود التجار المحليين يمكن تبينها من مدى اعتماد

في عام ١٩٧٥ - قامت هيئة الأمم بتقييم الحكومات لأول مرة - الى مشكلة النقص في كميات المواد الغذائية وسوء التغذية الذى تعاني منه بعض المجتمعات الاساسية .

فلسفة الاقتراض من أجل الغذاء

The Philosophy of "Borrow and Eat"

تعتمد الزراعة في المجتمعات البدائية على الحرث اليدوي ، ونظرا لانخفاض مستوى إنتاجية اراضي تلك المستوطنات فان كمية الغذاء المنتجة تكون محدودة وهامشية ، مما يؤدي بالضرورة الى الاقتراض المتبادل للغذاء بين الاسر المختلفة ضمن إطار سلطة العائلة الممتدة . وعندما تتعرض هذه المعادلة للخل نظرا لتدخل عوامل جديدة واستخدام مصادر أخرى للطاقة ، مما يؤدي الى تعطيل القيود الموسمية وتجاوز امكانيات الطاقة البشرية ، فان ذلك قد يعنى بالضرورة زيادة في الانتاج الزراعى تؤدي بدورها الى توفير احتياجات المجتمع الغذائى وتحقيق درجة عالية من الاشباع والطمانينة لدى ابنائه .

ولكن طالما يتجاهل رجال التكنولوجيا ، من ناحية ، الفائدة المترتبة على استغلال تلك الطاقة البشرية الكامنة والقادرة على الاستفادة من استخدمات التكنولوجيا الحديثة والتي تستهويها البضائع الاستهلاكية التي تفسر الاسواق ، في حين تقوم التعاونيات الممولة والمدارة من قبل وكالات الحكومة ، من ناحية أخرى ، بتشجيع المنتجين لأخذ القروض لتغطية احتياجاتهم المعيشية في مقابل رهن محاصيلهم . وما يمكن تسميته في هذه الحالة تقدما ، ليس هو في الحقيقة والواقع الا فقر مدقع ومقتن . وترداد خطورة هذا الموقف عندما تشرع غالبية المزارعين في وضع التشريعات والقوانين التي تكفل لهم مصدرا « رخيصا » لقروض منظمة ، باعتبارها واحدة من الوسائل الرئيسية التي تؤمن الحصول على الخبر اليومى ، وهذا يعنى ضمنا السماح للاستهلاك بأن يفوق الانتاج في القطاع الزراعى الذى يعانى

من نقص التمويل الاستثمارى . ولكن طبيعة هذه المصروفات الاستهلاكية والتي تبدو كمعيق للتنمية هي في الواقع جزء لا يتجزأ من فلسفة اقتراض وكل Borrow and Eat .

ان النتائج المترتبة على استخدام الادارة المصرية في تعبئة الموارد وزيادة الانتاج لا تفوق من حيث الاهمية ذلك الرأسمال البشرى الذى يمتلكه ذلك الشعب . والخطوات التي كان مأمولا تنفيذها لتنمية الموارد خلال ربع القرن الاخير لم تتعرض قط لتباطؤ شديد في تنفيذها دون مشاركة حقيقية من السكان المحليين ، وانما تركزت الجهود ايضا على العمل لزيادة سرعة النمو الاقتصادي باستخدام الاختراعات التكنولوجية التي استهدفت تحديث القطاع الزراعى ، معجلة في ذلك اى مشاركة ممكنة للمعصر البشرى في هذه العملية الانتاجية ، مما ادى الى ضعف هذه الطاقة الانسانية نتيجة تعرضها لأمراض فتاكة ومزمنة وجبرها من القيام بدورها الانتاجى في القطاع الزراعى . ان الاقتصاد الذى يقوم على عمالة تنتشر الامراض المزمنة بين أفرادها انما يتعرض لضغوط شديدة تتمثل في النفقات الإضافية اللازمة لتوفير الدواء والحصول على التحويلات (السحر) لحماية الجسد ، والمساعداة اللازمة لتخفيف العناء والشقاء الانسانى ، وتأمين المواصلات للحصول على المعالجة الطبية ، وتوفير الصابون والمساكين التي تحقق النظافة الصحية ، هذا بالإضافة الى توفير السجابر والمشروبات المسكرة (الروحية) .

لقد تلاشى اليوم لدى معظم شعوب المناطق الزراعية ذات الدخل المنخفض ذلك الغوف من الجوع ، الى حد بعيد ، وذلك نتيجة للدور الذى يقوم به الوسطاء الدوليون ، والسهولة

المنخاية والطبيعية . ولكن عندما تستخدم الوكالات الدولية حدوث مثل هذه الكوارث أو تنبؤها بإمكانية حدوثها كمبرر للقيام بعمليات اغالة وبرامج تنوعية ضخمة فإن ذلك سيهدد ذلك الميكانيزم الحساس لقدرة الإنسان على البقاء بالإنهيار التام . كما أن طبيعة الفقر تتحدى ذلك التعريف القائل بحدوث الفقر عند تلك النقطة التي ينعدم فيها التوازن بين حاجات الإنسان وإنتاجية الأرض ، حيث لن يكون بمقدور الإنسان أن يستمر في اعتماده على الخصوبة الطبيعية للأرض من أجل بقائه.

ولقد أوضح لاوتون Lawton (٢) بأن « هناك عاملا أساسيا ومهما في تطور وتقدم المجتمع الإنساني المحدد ، ألا وهو قدرة عدد قليل من أفرادها على تأمين الحاجات الغذائية لأعداد كبيرة من السكان » ، ولكن هذه الأنظمة التي ابتكرناها لتوفير الغذاء باهظة التكاليف وتعتمد كلياً على مصادر الطاقة الجاهزة (الخارجية) التي تفقد هذا النظام وتتحكم فيه . ويعد لاوتون من أن التنظيم الحالي للمراكز الحضرية المعزولة عن مواقع الإنتاج الفعلية للمواد الغذائية وتعمل أعدادا سكانية ضخمة ، لا يمكن الحفاظ عليه بدون استثمار توفر طاقة كبرى تفدى النظام الإنتاجي الزراعي لهذا المجتمع مصدرها بطن الأرض (لحم ، بترول ، غاز) والتي قد لايدوم أو يسهل توفرها . فطبيعة الفقر في هذا السياق يمكن أن تعرف بأنها تلك الحالة التي تعجز

الكبيرة التي تتم بها تعبئة الفائض المحلى ونقله إلى أى بقعة على الكرة الأرضية في سرعة متناهية . لقد زالت ظاهرة الإحساس بالخوف من عدم إمكانية توفير المواد الغذائية الأساسية، وذلك بسبب الثقة الساذجة لدى أفراد المجتمع بحتمية قيام الحكومة بتوفير هذه الحاجات بطريقة ما ومن مكان ما إذا ما افتتحت الضرورة ذلك . وقد أدى ذلك إلى اختفاء فلسفة (اقترض وكل) التي لا تستند إلى أى تبرير اقتصادي .

إعادة صياغة تعريف « الفقر Poverty » :

إن الفكرة السائدة والقائمة بسيطرة الطبيعة وتحكمها في حياة الإنسان ومعيشتة ، قد أفلتت على ما يبدو المرونة التي يتمتع بها الإنسان في تعامله مع مختلف التغيرات التي تتعرض لها البيئة الطبيعية ، حيث يلدكرنا جروف Grove مثلا بأن « دور الإنسان في إرياد الصحراء والتغلب على قساوة الحياة فيها قديم جدا ، لقد عرف الإنسان كيفية الحصول على النار منذ العصور القديمة ، وقام منذ عشرة آلاف سنة برعى حيواناته على أطراف الصحاري ، كما قام باستغلال المناطق الأكثر ملائمة للرعاة ، وأقام المستوطنات الكبيرة ، واستخدم أخشاب الأشجار التي قام بقطعها للحصول على الوقود وتشديد الأبنية . (١)

للكوارث والتكتبات كانت ملازمة للإنسان دوماً ، كما أنه سيستمر وقوعها بفعل العوامل

Grove, A.T. "Desertification in the African Environment, African Affairs, Vol. (١) 73 (1974), P. 145

Lawton, J.H., The Energy Cost of "Food Gathering", in B. Benjamin, (٢) P.R. Cox and J. Peel (eds.,) Resources and Population (London, 1973), pp. 59-75

فيها الطاقة المتوفرة من تلبية حاجات المجتمع بنفس المستوى الذي اعتاد عليه سابقاً .

وتؤكد الشواهد الإمبريقية لهذه الدراسة على أن الاستخدامات البسيطة للطاقة المستخرجة من الماء وسخير العمالة الحيوانية بالإضافة إلى استغلال تلك الطاقة البشرية المتوفرة لإنتاج الغذاء تمثل التقدم التكنولوجي الحقيقي في مجتمع كامل التريف ، لأنها استراتيجية منخفضة التكاليف نظراً لارتفاع كمية الطاقة المكتسبة إذا ما قورنت بالطاقة المدولة لإنتاجها ، وهي بذلك تفوق في فعاليتها عملية استخدام الطاقة المستخرجة من الأرض والطاقة البشرية للحصول على المواد الغذائية نظراً لارتفاع نسبة نفقات الطاقة المدولة إذا ما قورنت بقيمة الطاقة المنتجة في هذه الحالة .

فمن هذا المنطلق يصبح تعديل التعريف السائد للفقر في هذه المجتمعات أمراً لا مفر منه - في إطار الوضع الجديد من انخفاض كثافة الطاقة المطلوبة وانخفاض تكلفة هذه الطاقة - ففى ظل النموذج الجديد لاستخدام مصادر الطاقة فإن نسبة الطاقة المنتجة (المواد الغذائية) تفوق الطاقة المدولة في ظروف كل من الزراعة « الجافة » Dry التي توظف عمالة إنسانية وحيوانية ، والزراعة « الرطبة » Wet التي توظف عمالة إنسانية وتستخدم المياه للري . وفي هذه الحالة يمكن تخزين الفائض التراكم لتأمين عملية ترويض منتظمة من المواد الغذائية لتوفير احتياجات المجتمع على مدى شهور السنة ، ولإمداد غير العاملين في القطاع

الزراعي ، والذين نحن في حاجة لاستغلال مهاراتهم في مجالات أخرى . وإذا لم يتم الوصول إلى هذه المرحلة من التوازن بعد إجراء التغييرات اللازمة في مصادر الطاقة ونمطها ، فإن الفشل قد يكمن في عدم تخصيص الاستثمارات اللازمة للحفاظ على صحة الإنسان وتحقيق رفاهيته ، وعلى وجه الخصوص صحة الأطفال الصغار الذين يشكلون أجيال المستقبل وبنائه .

الحاجة لسياسة موجهة لرفع مستوى الخدمات في المناطق الريفية :

لقد أوضح هتير وفورستر Huthur and Forster (٣) - في دراستهما عن مصادر الطاقة ومدى كفايتها لحاجات الإنسان - بأنه منذ عام ١٩٤٥ فقط بدأ مستوى استهلاك النفط في المملكة المتحدة يزداد ارتفاعاً سنة بعد أخرى بشكل ملحوظ . أن نمو الحاجة للطاقة وازدياد الطلب عليها لا يشكل بعد ذاته ضرورة حيوية من أجل بقائنا أو للاحتفاظ بسلامتنا الجسمية والعقلية فحسب وإنما يعبر بشكل رئيسي عن مواصلة السعي لاقتفاء أثر ذلك المفهوم الفاضل « مستوى معيشى أعلى Higher Standard of Living » والذي تسبب في تلك الحياة المأساوية لشباب مجتمعات الدول النامية الذين تدفقوا على المنطقة الحضرية ملتجئين بوظائف غير منتظمة أو متدنية الأجر ، وذلك نظراً لما يحدونه من اختلال واضطراب في خدمات المدينة غير المهيأة

(٣) Huthur, F.W., and Forster, C.I.K., "Sources of Energy and their Adequacy for Man's Needs, in B. Benjamin, P.R. Cox and J. Peel (Eds.), Resources and Population (London, 1973)

يستخدمون هذه الطرق السريعة ؟؟ ألا يوجد هناك أى مخرج على هذه الطرق الرئيسية يقود الى أماكن تشجع المسافرين على ارتيادها ؟؟

أن مرور الزمن لم يغير كثيرا من تلك الحوافز التى تتحكم بالسلوك الانسانى « كالخوف من التورط Fear of Involvement » فما زالت القاعدة السائدة اليوم تقوم على أساس تجاهل وتجنب ما لم تقع عيننا عليه اذا كان ذلك يجلب لنا التعاسة أو اذا كنا لسنا بحاجة اليه . وقد تختلف تلك الاسباب التى تحفز الإنسان على عدم التورط أو تقديم التضحيات ، فقد أوضح ويتز Weitz أنه « لكى نرفع مستوى الخدمات فى المناطق الريفية فأننا نحتاج الى قوة عمل مؤهلة لإدارتها والإشراف عليها ، إلا أن عناصر قوة العمل هذه لا تتوفر لديها الرغبة للإقامة فى القرية بسبب انخفاض مستوى الخدمات المتوفرة فيها » .

ويؤكد مكريجور McGregor على ضرورة اعطاء الأولوية للعلاج الوقائى والاجتماعى ، لأن الوقاية من تلك الامراض المستوطنة يمكن ان تتحقق من خلال وضع الخطط وتوفير الامكانيات والوسائل التى تضمن تطبيقها ، وهذه الخطط ترتبط الى حد بعيد بالعادات الغذائية والنظافة الشخصية ونظافة البيئة ، ولا يمكن طبعا استثناء الدور الذى تلعبه العوامل المناخية .
Matobinson فان أنه كما يشير هيتشينسون Matobinson « الإنسان ليست لديه القدرة على السيطرة او احتمالات السيطرة على الاشعاعات الشمسية ، ونمط توزيع الحرارة ، وطول الليل والنهار ، وإنما عليه أن يقبل كل ذلك ويتعايش معه كما هو » .

لاستقبالهم ، كالمواصلات والاسكان والصحة العامة والوقائية .

ولا شك ان ايماننا لمشاكل البيئة الانسانية فى القطاع الريفى فى الوقت الذى تكشف فيه الجهود لحل المشاكل التى يتعرض لها القطاع الحضرى ، ان هى الا سياسة قصيرة النظر . فالقطاع الريفى قادر على الانتاج اذا تهيأت له الظروف لذلك .

لقد تبين أن أبرز الثغرات وضوحا فى برامج التخطيط للدول النامية فى أعقاب الحرب العالمية الثانية هى اقامة تلك السلسلة من المباني المتلاصقة والشوارع الضيقة وخطوط المواصلات السريعة التى تربط بين النقاط المركزية وتفتقر الى الروافد الفرعية لتغذيتها . فالسهولة المعصرية التى تمكن المسؤولين ورجال الأعمال والخبراء الدوليين من الانتقال من مدينة الى أخرى ، مستخدمين مثل هذه الشبكة من الطرق والشوارع الواسعة ، لعبت دورا ملموسا فى العزلة الكلية للقطاع الريفى من نظيره الحضرى . ولم يسد يتوجب على المسؤولين الاهتمام بالطرق الفرعية أو التربية التى تدخل ضمن حدود المناطق الريفية ، كما لم تعد القرى تحظى بأى اهتمام لاقامة المنشآت الفندقية أو الاستراحات الليلية فيها ، فقد اضفى ممكنا قطع مسافة ١٠٠ كم أو أكثر عبر الريف خلال ساعات الصباح فى وسيلة تقل مريحة والعودة الى المدينة فى الوقت المحدد للفداء دون الاضطرار للاعتماد على أى من الخدمات فى المناطق الريفية التى تخترقها طرق المواصلات السريعة ، ودون مشاهدة أى من الظروف والادوضاع الريفية المختلفة . ولكن قد يتساءل البعض عن السر الذى يكمن فى تلك العجلة التى تحكم سلوك أولئك الذين

قراء الريف الشجعان ، باسم التقدم التكنولوجي ليدافعوا عن بقائهم في ظل ظروف غاية في القسوة والخراسة .

الأداة « السياسية » لوضع التشريعات التي تكفل النهضة التنموية للأجيال القادمة :

ان الحرية السياسية التي تتمتع بها الشعوب حديثة الاستقلال لها معنى خاص ، فأولئك الذين يسكون بمقاليد الأمور تكبلهم أحداث الماضي وسياسات الإدارات السابقة بدرجة أو بأخرى ، ومثل هذه الظروف تستدعي وجود قيادة قوية وشجاعة لتعبئة كافة قطاعات المجتمع في معركة البناء .

ان الدرس الذي نستقي من هذه الدراسة الامبريقية هو ان الاكثية المظلة بالضعفاء - التي تعيش على الكفاف - قد أجبرت على قبول ظروف حيائية فرضتها عليها الاقلية المثلة بالاقوياء التي ورتت واكتسبت الثروة المادية ، بالإضافة الى متممها بالصحة الجسمانية وتطوير قدراتها العقلية .

وهكذا فان التغير الاجتماعي والاقتصادي قد أدى الى خلل في تنسيق الخدمات وسوء في توزيع الموارد ، مما يؤكد مدى الحاجة الى وضع التشريعات اللازمة التي تكفل القدرة التنموية للمجتمع الحالي والمستقبلي وتحميها . فتطوير استخدامات الطاقة الحيوانية مثلا ، يتطلب تشريعا يضمن اتباع الممارسات السليمة للرعاية الحيوانية (تربية الدواجن) ، فإذا كنا نستهدف الحصول على انتاجية أفضل فان ذلك يتطلب اشكالا مكثفة من عمليات الانتاج . « فمع وجود الادارة السيئة والتنفيذية الرديئة تلعب الامراض والطفيليات دورا مهما

ان الشواهد الامبريقية التي تتضمنها هذه الدراسة تعتبر فريدة ومتميزة من حيث منظورها الزمني ، لأنها تطرح من تلك الخسارة الكبيرة في الثمن موجودات هذا العالم ، ألا وهو « الراسمال الانساني » ، وذلك عندما تهمل صيائنه باعتباره مصدرا للطاقة لا أمل في تحويلها الى الوضع المرغوب فيه . وترداد في هذه الايام الحملة القاتلة باحتمال استنزاف ونضوب المصادر الرئيسية للطاقة الانسانية والتي تكمن في العطاء التقليدي للأرض ومننتاجها ، ويستطرد دعاة هذه الحملة في القول بان الامكانية لتجديد هذه المصادر - التي ترسم التكنولوجيا الحديثة توفيرها - إنما تكمن في مدى الاستعداد الذي يتبديه الشعوب لقبول المعرفة المستوردة من الخارج واستخدامها .

ان مساهمة الاختراعات التكنولوجية في زيادة العاصلات الزراعية لجماعة تتسم باللامبالاة ، بددت معظم طاقاتها الداخلية بفعل عوامل خارجة عن سيطرتها تبدو ضئيلة . فالعالم قد انتهى به الأمر الى القبول بحتمية وقوع تلك الكوارث التي تعرض لها المجتمعات الانسانية بفعل العوامل المناخية ، ولم يكن العالم مهيا على الاطلاق لاتخاذ خطوات عاجلة للتخفيف من حدة ويلات هذه الكوارث . ولكن عدم الانتظام - بالمقياس الانساني - في المجرى الطبيعي للحياة والناجم من فرص ومساومات مقدمة من مصادر وكالات اجنبية - حيث بإمكان عدد قليل من السكان الاستفادة منها بسبب غياب سلسلة متكاملة من الخدمات التي تعد من التفاوت القائم في توزيع الدخل ، وتزيد من فرص الاستفادة منها من قبل أفراد المجتمع ككل - لم ينظر اليها باعتبارها تحد من نشاطات وجهود أولئك المهتمين بالسياسة الزراعية ، في حين ترك أولئك المناضلون ،

هذا التفسير المحافظ لظواهر التقدم والتخلف والنمو في ضوء مقولات فكرية وقيمة وسبولوجية تركز على قضايا النظام والتوازن والتسائد داخل النسق ، وترجع ظواهر الفوضى والتخلف الى انتقاد القيادة القادرة على الضبط والتنظيم والتحكم ، ان هذا التفسير يعجز عن تحقيق الفهم السوسيوتاريخي التكاملي لاسباب التخلف ، وبالتالي لا يسهم في مساعدة مجتمعات الدول النامية في نفسها ضد هذا التخلف واطلاق حركة النمو الذاتي داخلها بطريقة فعالة ومؤثرة . ولعل هذا هو ما يحتم على الباحثين في هذه الدول معالجة قضية التخلف والتنمية من مدخل مختلف قادر على مواجهة الاهداف والتطلعات القومية والمحلية .

ان الفقر الذي تعانيه مجتمعات الدول النامية يرجع تطليبا الى مختلف الصوامل التاريخية المتشابكة المتفاعلة ، ويتطلب اسلوبا مختلفا في الواجهة يستند الى تصور مختلف من الانسان والمجتمع ، ووظيفة الدولة في الحياة الاجتماعية ومن العلاقة بين الفرد والمجتمع ومن التزامات المجتمع تجاه الفرد .

وهكذا لا تمثل التنمية في مجرد اعادة صياغة العلاقات بين المتغيرات الاقتصادية الصورية ، ولا تقتصر على محاولات استحداث تغيرات في انساق القيم والاتجاهات ومجالات الاهتمام ، فهي في الدرجة الاولى تجمع بين كل هذه التصورات أو التغيرات الى جانب اسلوب ومسارات التوجيه .

في احداث الفوضى التناسلية في قطاعات الماشية في تلك المناطق الاستوائية وشبه الاستوائية (٤) واستلاب قطاعات الماشية ، باعتبارها موجودات رأسمالية ، دون الاهتمام او معرفة وسائل وطرق التعامل معها والصيانة بها ، يشكل في النهاية خسارة للمجتمع تثقل كاهله ويمجر من تحملها .

وكذلك فان عدم وجود تنسيق في عملية استخدام الاراضي واستغلالها ، في الوقت الذي تحصل فيه على الابتكارات التكنولوجية ويرداد فيه الضغط السكاني يشير الى الحاجة الملحة لاتخاذ اجراءات تشريعية لاقامة نظام مناسب لتسجيل الاراضي وتحديد طريقة استعمالها.

ويؤكد دوسلدورب Dusseldorp (٥) الى ان هناك علاقة قوية بين مجمل مخططات التنمية لمنطقة زراعية وظروف الحياة والعيشة فيها . واذا ما توفر لدى المخططين بُعد النظر هذا ، فانه اهمية خاصة سوف تمنح لعملية تضيق المستوطنات البشرية وتصميم منشآتها ووحدات الخدمات فيها ، فالظروف المعيشية لمنطقة ما تقرر الى حد بعيد كمية ونوعية وطريقة توزيع وحدات الخدمات الاجتماعية والاقتصادية المنتشرة في هذه المستوطنة .

الخلاصة :

على الرغم من أهمية هذا التحليل الذي تقدمه لنا هذه الدراسة لاسباب التخلف والفقر الذي تعاني منه الدول النامية ، الا ان

Payne, W.J.A. Cattle Production in the Tropics, Vol. I (Longman, 1970), P. 298. ()

Van Dusseldorp, D.B. W.M., Planning of Service Centres in Rural Areas () of Developing Countries, International Institute for Land Reclamation and Improvement (Wageningen, 1971).

تبعية المستعمرات . ومن خلال هذه التبعية وظفت كافة أنواع النمو الإقتصادي والتربوي والإداري . . . الخ لصالح القوى الخارجية . أن يطمح نمو القوى الإنتاجية في الدول النامية، ظاهرة ملحوظة نتيجة لتجميد البناء الإقتصادي، ويرجع التجميد الى عوامل خارجية بفعل قوى خارجية كالاستعمار والاحتكارات . . .

الخ ، والى عوامل داخلية مثل ضعف التراكم وسوء توجيهه ، وبعض العوامل الاجتماعية كالإنفاق البذخي Consumption وارتباط البرجوازيات الوطنية بالاحتكارات العالمية . يضاف الى هذا بعض العوامل الثقافية مثل سيادة الروتينات الهامدة ، والتحجر القيمي ، وضعف الشعور بالمسؤولية ، ونظم التعليم والتدريب المتخلفة.

وبوجه عام نستطيع القول أن الدراسة الموضوعية لقضايا التخلف والنمو تتطلب منا تبني مدخل متعدد النظم ، حيث نحلل هذه القضايا من جميع الجوانب الاقتصادية والسكانية والثقافية ، في إطار السياق التاريخي الملالم . ولعل ما يتمخض عنه هذا الفهم من نتائج يمكن أن يسهم اسهاما إيجابيا في رسم خطة المواجهة .

وفي ضوء هذا الفهم يمكن القول بأن مختلف عمليات التنمية في الدول النامية تتمثل في تلك العمليات المخططة التي يتحول من خلالها المجتمع من نسل اجتماعي يعكس شكلا معيناً من أشكال التنظيم الاجتماعي والاقتصادي والسياسي الى نسق آخر يعكس شكلاً مختلفاً يحقق التقدم الاجتماعي لجماعه المجتمع في إطار من العدالة الاجتماعية .

والواقع أن التحليل الموضوعي للتخلف ، يجب أن يتجنب النظرة المسحية الوضعية السطحية ، وأن ينبثق من إطار نظري يتسم بالشمول والتكامل ، مع أخذ البعد التاريخي في الاعتبار ، كبعد محوري في صياغة التخلف، وكمبدأ في رسم سياسة التنمية . أن أي تحليل موضوعي يجب ألا يزل تلك الدول ، عند دراسة ظواهر التخلف ، ليحيط منها شيئاً في ذاته ، بل على العكس يجب أن يضمها في شبكة علاقات التنمية والاستغلال التي عرفت لها تاريخياً ، والتي ما زالت واقعة في شراكه وأن تغير الشكل ، والتي يجب أن تتخلص منها لانطلاق اقتصادياتها القومية من أسر التبعية والاستغلال .

لقد وقعت الدول النامية خلال مرحلة تاريخية معينة في شرك التبعية السياسية أو



(١) الصحافة في أمريكا

مدخل إلى وسائل الإعلام

عرض وتعليق: الأستاذ ياسر الغدير

كل من وسائل الإعلام الرئيسية الأربع : (الصحيفة - المجلة - الراديو - التلفزيون) وأسس الكتابة إليها . وهو بترتيبه وتنظيمه الفريدين ، وأخراجها الجميل ، ومعالجته العملية يمثل مرجعا لأولئك الذين ينشؤون معرفة المزيد من وسائل الاتصال وأسس الكتابة الصحفية المعاصرة . ويستفيد العاملون في سلك الصحافة ، بشكل خاص من الكتاب نظرا لأنه يلقي الكثير من الضوء على معظم جوانب مهنتهم المظلمة . يتناول الكتاب كلا من وسائل الإعلام الأربع بصورة مستقلة ، مبينا مدى تأثيرها الجماهيرى ونفوذها لدى المجتمع الأمريكى . أما الطالب الذى يمتزم دراسة فن الصحافة والإعلام فيجد فيه مسارا وتمارين ترافق كل فصل من فصوله . وهكذا فهو يعد كتابا ثنائيا وتعليميا في آن واحد . ويشتمل الكتاب على مقدمة وأربعة عشر فصلا .

للسحافة دور كبير معروف في حياة الأمم وتأثير هائل في أفكار الناس وقيمهم ومعتقداتهم . ولأرباب الصحافة ، بصورق عامة ، أكثر رقباء في البلدان المتقدمة منها في وطننا العربى . لذلك فإن اطلعنا على الصحافة الأجنبية ، وفتح المناقل والكوى على آفاقها ومنجزاتها يولر الفرص أمام تطور صحافتنا . ومن هنا كان اهتمامنا بكتاب أجنبي جديد صدر باللغة الانجليزية خلال عام ١٩٧٦ من دار نشر هيستنجنس هاوس في الولايات المتحدة . قام بتأليف الكتاب الدكتور توماس إليوت بيرى Thomas Elliott Berry الذى ظل يكف على تدريس فن الصحافة لمدة (٢٦) عاما . وكان بيرى قد ألف ١٢ كتابا آخرى في وسائل الإعلام منذ أن نال شهادة الدكتوراة من جامعة بطسبرغ . ويعد الكتاب الذى بين أيدينا ويضم بين دفتيه ٢٨٠ صفحة من القطع الكبير ، مصورا صحفيا هاما يتقصى أدوار

١ - الفصل الأول وعنوانه : الصحافة -**نظرة عامة**

ويعالج دور وسائل الإعلام وتأثيرها وقيمتها وعلاقتها بالثقافة الجماهيرية ، كما يتعرض للتطورات الحديثة في الصحافة الأمريكية .

٢ - الفصل الثاني وعنوانه (المشكلات**الحديثة في حقول وسائل الاتصال)**

ويتعرض لقضايا الإذاعة والتلفزيون ومستقبل الصحافة اليومية ومسألة حرية التعبير .

٣ - الفصل الثالث وعنوانه (القصة الإخبارية)

ويتناول موضوع الأخبار، أهميتها والصور عليها وطريقة تشويهاها ، وكذلك القصة الإخبارية وكتابتها واسلوبها .

٤ - الفصل الرابع وعنوانه (المقابلة الصحفية)

ونقرأ فيه عن مستلزمات المقابلة الصحفية الناجحة، وأنواع المقابلات والمشكلات المتصلة بها .

٥ - الفصل الخامس وعنوانه (القصة**الشخصية)**

وهي على الأغلب قصة غير واقعية ، وفيها يظهر الاتجاه الشخصي بشكل واضح ، فينقل الكاتب آراءه الخاصة ومشاعره الشخصية والانسانية . وهذا خلاف ما هو عليه الحال في القصة الإخبارية حيث الجور، بأكمله غير شخصي ، فلا نجد فيها أى رأى أو إشارة خاصة أو تعبير انساني .

٦ - الفصل السادس وعنوانه (الصور في**الصحف)**

ويعالج موضوع الصور ومصادرها ووسائل تحسينها .

٧ - الفصل السابع وعنوانه (تحرير المواد**في الصحف اليومية) .**

ويتصدى هذا الفصل لمهام المحررين الذين يراجعون المواد المعدة للنشر ويتدققونها ويصححون أخطاءها ويعدلون بعض أنكارها عند اللزوم قبل دفعها إلى الطباعة . ونجد في الفصل نفسه أيضا عرضا لتاريخ الطباعة بدءا من الطباعة بالأحرف المنضدة ، ومرورا بالأدوست ، وانتهاء بالوسائل الطبيعية الحديثة ومنها طريقة أنبوب أشعة كاثود (CRT) وهي أحدث طرق الطباعة وأكثرها سرعة وكفاءة وتوفرا .

٨ - الفصل الثامن وعنوانه (الإخراج الفني)

ويتناول فن تنظيم المواد المنشورة على شكل أعمدة أو صفحات ، وترتيبها حسب أهميتها ومضمونها وأرقامها بالصور والوسائل التوضيحية . وبينما يعد الإخراج فنا بالدرجة الأولى إلا أنه أيضا علم بالدرجة الثانية .

إن المحتوى الفني أهم من المحتوى العلمي في الإخراج ، لأن الخلق الجماعي فيه الأساس كما الحال في الرسم والموسيقى وغير ذلك من الفنون التي تعد فيها الناحية الجمالية متصرا رئيسيا .

٩ - الفصل التاسع وعنوانه (السياسة**التحريرية)**

ويتعرض لمياسة الصحيفة أو المجلة في التحرير ، وهي السياسة التي تمنحها

المدرسية ، وللصحيفتين مبادئهما ومشكلاتهما .

١٣ - الفصل الثالث عشر وعنوانه (الكتابة للاذاعة والتلفزيون) :

ويعرض شرحا للمبادئ الاساسية التي تدخل في اسس الكتابة للاذاعة والتلفزيون . ومن المسائل التي يتصدى لها : اعداد التعليقات ونشرة الاخبار ، وكذلك الفرق بين النشرة الاذاعية والنشرة التلفزيونية .

١٤ - الفصل الرابع عشر وعنوانه (الكتابة للمجلات)

وهو اكبر الفصول وأهمها ، ويتناول المجلات وانواعها وكتابتها وأشكال الكتابة فيها . يمد هذا العرض السريع للخطوط الرئيسية الكبرى في الكتب تنتقل الى تقديم بعض الملاحظات حوله ، ثم الى تناول أهم الأفكار الواردة فيه تناولا مفصلا :

يستخدم كتاب الصحافة في أمريكا أهميته من ناحيتين :

١ - كون مؤلفه صحفيا مهتمنا تفرغ للعمل لفترة طويلة من الزمن لصالح واحدة من أهم الصحف اليومية الأمريكية ، في حين كان يمد عددا كبيرا من الصحف والمجلات الأمريكية الأخرى بمقالات خارجية . وقبل تأليف الكتاب استأنس المؤلف بأراء عدد من كبار الصحفيين الأمريكيين واعتمد على نصيحتهم ومشورتهم . ثم أضاف الى كل ذلك خبراته كأستاذ جامعي في كلية الصحافة .

ب - ثائر الرأي العام الأمريكي الى حد كبير بالصحافة ووسائل الاعلام . وقد اظهرت

خصائصها الخاصة ومميزها من باقي الصحف والمجلات ، كما يتعرض لسؤاليات الصحافة والاعتبارات المختلفة التي تتدخل في تقرير النشر وهي الاعتبارات التجارية والاجتماعية والعرقية والدينية والشخصية والمزاجية . (ومعظم هذه الاعتبارات واردة في الصحافة العربية باستثناء الاعتبارات العرقية والدينية ، كما ان الاعتبارات التجارية غير قائمة بالنسبة للصحف والمجلات التي تصدرها الدولة على نفقتها لان غايتها تنقيفية لا تجارية) .

١٥ - الفصل الخامس وعنوانه (الافتتاحية)

ويعالج ماهية الافتتاحية وأهميتها وطريقة كتابتها وانواعها ، وكذلك الخطوط الارشادية التي يمكن الاستعانة بها عند كتابتها .

١٦ - الفصل السادس عشر وعنوانه (العمود)

وهو خاص بالنواحي المتعلقة بالعمود المخصص لكتابتها وموضوع معين . وفي أمريكا يمد تحرير العمود الخاص في الصحيفة اليومية عملا هاما وممتعا له أسلوبه الخاص الذي يختلف عن أسلوب المقال العادي والمحرر أن يكتب فيه كما يحلو له . وينظر البى هذا العمل على أنه ابداعي من الدرجة الأولى ويتقاضى صاحبه لقاءه تمويضا كبيرا جدا . للعمود عادة قراءه الخاصون به .

١٧ - الفصل الثامن عشر وعنوانه (الصحيفة المدرسية)

ويدور حول الصحيفة المدرسية التي تشكل جزءا من الحياة المدرسية ووسيلة تمير بالنسبة للطلاب المهتمين بالنشر . هناك أيضا الجامعية وهي أرقى من الصحيفة

واسلوبها . وبعض المجلات تقتصر على نشر الموضوعات التي ينتجها جهاز تحريرها الخاص مثل مجلة كومباني Company وبعضها الآخر ينشر انتاج الكتاب الخارجين فقط ومثال عليها مجلة سكولارلي Scholarly وهناك زمرة ثالثة من المجلات تجمع بين نشر المواد من داخل جهاز التحرير وخارجه ومنها مجلة Saturday Review ستودي ريفيو

وهذه الزمرة يدخل فيها اكبر عدد من المجلات . والكتاب الرئيسيون ، في أهمها وأكثرها رواجاً ، هم خبراء مشهود لهم في مجالات اختصاصاتهم (كالطب والقانون والتربية ... الخ) وتتم المجلات الأميركية بصفة عامة وهي التجديد والتبديل ، فهناك باستمرار اتجاهات جديدة في السياسات التحريرية ، وكذلك زوايا وكتاب جدد ، كما أن هناك دالماً مجلات جديدة تظهر الى الوجود ، ومجلات أخرى تحتجب مؤقتاً أو تختفي .

أنواع المجلات الأميركية

يمكن تقسيم المجلات الأميركية مبدياً الى الزمر التالية :

١ - المجلات النوعية quality magazines
اي المجلات التي تتناول الموضوعات الفكرية والإدبية والفنية الراقية ، وهي موجهة الى صفوة المفكرين الذين يهتمون بالظواهر الاثر مغزى وأهمية في الحياة . ومن الامثلة عليها :
مجلة أتلانتيك مثلي Atlantic Monthly
ومجلة هاربرز ماجازين Harper's Magazine
ومجلة الستردى ريفيو Saturday Review
ومجلة أتلانتيك ريفيو Atlantic Review
وهذه المجلات تشكل مصدر افراء قوى للكتاب

الاستفتاءات - وجاء هذا في مقدمة الكتاب - أن ٩٨ ٪ من الشعب الأميركي يعتمد على أجهزة الاعلام للحصول على ٩٥ ٪ من المعلومات والحقائق المتعلقة بنشاطات حكومته والحكومات الأخرى . وهذه المعلومات هي التي يستخلص المواطنون في ضوءها النتائج حول الشؤون الداخلية والخارجية للبلاد . وتعرض وسائل الاعلام في أميركا الى النقد والمدح في آن واحد ، فالتلفزيون مثلاً يلقى الاستحسان لانه يأخذ المشاهدين الى أقاصي العالم ، ويعرفهم بأحدث المكتشفات والمستطرفات ، ويظلمهم على شؤون العالم وأحداثه . ولكن كثيراً من المسؤولين ، من جهة أخرى ، يتضيقون منه ومن أجهزة الاعلام الأخرى بسبب تأثيرها الواسع في الرأي العام ، ودورها في إثارة موجات الانتقاد وتحريك المشاعر ضدهم في بعض المناسبات . وهناك آخرون يباركونها لأنها تعمل من أجل المصلحة العامة وتعتبر من مفهوم حرية الرأي .

وعلى الرغم من تأثير الصحف اليومية والإذاعة والتلفزيون فإن للمجلات في أميركا دوراً مهماً بشكل خاص ، وهي تمثل الوسيلة الاعلامية التي تجلب اكبر عدد من الكتاب الطامحين الى الكتابة ، الهواة منهم والمتنهمين ، الناشئين والمشهورين . ففي كل شهر يقوم هؤلاء بتقديم مجموعات هائلة من الأعمال الكتابية الى المجلات الأميركية تحدهم الى ذلك الرغبة في التعميش المادي او الشهرة او القناعة الشخصية . ويعرف الكتاب الناشئون ان مجال النشر امامهم ضيق في هذه المجلات ولكنهم مع ذلك يستمرون في دفع مقالاتهم الى المجلات . ويوجد في أميركا (٧٠٠٠) نشرة دورية يمكن ان نطلق عليها اسم مجلة . وتباين هذه المجلات تبايناً كبيراً في محتواها وأهدافها

المختصين ذوي التدريب العالي أمثال المهندسين والعلماء والتقنيين . والكاتب الذي يريد الإسهام في الكتابة إلى هذه المجلات يجب أن يعلم أن ذلك يستلزم دقة علمية خاصة . (وهناك مجلات عربية اختصاصية عربية شبيهة بهذا النوع من المجلات مثل مجلة المهندس الطبيعى السورية ، ومجلة نفط العرب الكويتية) .

٥ - المجلات الزراعية Farm Magazines

بما أن أمريكا تعتمد اعتمادا قويا على الزراعة ، فمن الطبيعى أن نجد فيها عناية خاصة بهذا النوع من المجلات . ويوجد هناك حوالي (١٤٠) مجلة زراعية أشهرها المجلة الزراعية ، Farm Journal ، التى توزع حوالى ثلاثة ملايين نسخة من كل عدد . وهذه المجلات على نوعين : (١) الزراعية العامة ، وهى مجلة شبه متنوعة يمكن أن تفيد جميع القراء على اختلاف مشاربهم ، ولكنها تركز تركيزا خاصا على نشر الأعمال المتصلة بالزراعة .

ب - الزراعة المتخصصة : ونختص كل منها بجانب معين من جوانب الزراعة (الألبان - الحبوب - القطن .. الخ) . وهذه المجلات قريبة الشبه بالمجلات المهنية .

٦ - مجلات الشركات Company Magazines

تصدر من معظم المنظمات والشركات التجارية أو الصناعية مجلة أو أكثر ، هدفها بناء علاقة سليمة بين الموظف ورب العمل . وفى معظم الحالات فإن الشركة هى التى تعين رئيس التحرير وهيئة التحرير . أما الكاتب من خارج هيئة التحرير فإن فرص النشر أمامهم ضئيلة فى هذه المجلات .

الطامحين إلى النشر بسبب ماكسبهم من شهرة ، فالكاتب الذى ينشر فى مجلة كمجلة اتلانتيك ريفيو يصبح شهيرا لأن اسمه يضاف إلى الأسماء الأعلام التى اقترنت بها هذه المجلة أمثال امرسون وهولز ولوروز وسمت وأنشورون ... الخ . وتدفق هذه المجلات أجورا عالية تتناسب مع مكانة الكاتب وشهرته (وأقرب نوع إلى هذه المجلات فى الوطن العربى المجلات الثقافية النعمة ومنها : عالم الفكر كويتية) ، أفكار (أردنية) ، الهلال (مصرية) المعرفة (سورية) ، الثقافة (جزائرية) الخ ...

٧ - المجلات المهنية Professional Magazines

وهى كما يدل عليها اسمها موجهة إلى أعضاء من مختلفة . ومعظم مقالات هذه المجلات يكتبها متخصصون مهنيون أمثال الأطباء والمحامين والمهندسين والعلماء . الخ . ومثال عليها المجلة الطبية الأمريكية American Medical Journal ومجلة الرابطة القومية للتربية National Education Association

٨ - مجلات العمل Business Magazines

بما أن العمل التجارى والصناعى بأشكاله المتعددة يؤلف أساس النظام الاقتصادى الأمريكى ، كان لابد من إصدار مجلات فى كل حقل من حقول العمل تقريبا كى توجه المختصين وتقدمهم بأخبار المهنة وأحدث تطوراتها . ومن هذه المجلات مجلة Nation's Business (ويوجد فى الوطن العربى مجلات اختصاصية مهنية كثيرة) .

٩ - المجلات التقنية Technical Magazines

وهى تجمع بين خصائص المجلات المهنية ومجلات العمل وتبشر الأعمال التى تفيد

٧ - المجلات المتخصصة

Special-Interest Magazines

وهي المجلات التي تنشر موادا في حقل متخصص معين كالمرح والرياسة والأدابة والتلفزيون والسفر ، بطريقة شعبية يمكن ان يفهمها غير المتخصصين . ومن هذه المجلات :
 مجلة مرشد التلفزيون T.V. Guide
 ومجلة الفنون المسرحية Theatre Arts

الأطفال بشكل خاص على القصص القصيرة ، لأن الأطفال يولعون عادة بهذا النوع من القصص . ومن مجلات الأطفال : تشيلدرز دايجست Children's Digest وتتمسم الأعمال المنشورة فيها بقصر الجمل وسهولة المفردات وبالألوان التخاطبية المشوقة (ولهذه المجلات مثيلاتها العربية مثل مجلة سميد الكويتية) .

أما مجلات المراهقين فموادها أكثر نضجا من مواد مجلات الأطفال . ومنها مجلة جاك وجيل Jack and Jill ، ويقابلها مجلة تان تان المصرية العربية) .

١٢ - المجلات الحرة

ولا يمكن اعتبارها مجلات مخصصة لفئة ما من القراء لأنها تغطي حقولا عديدة . وهي أقل مرتبة من المجلات ، وأحيى ما تكون بالشرائح . وتوزع هذه المجلات عادة ضمن الشركات أو الوزارات أو المكاتب ، ولاتباع في الأسواق العامة .

كما أنها على الأغلب لا تدفع أجورا للكتاب لأنها تنشر مقالات مكررة سبق نشرها . ومن هذه المجلات ومزودي Woman's Day

خصائص المجلات الأميركية

تتمتع المجلات الأميركية بمدة خصائص مميزة منها :

١ - ليس هناك مجلة أميركية تحتكر نوعا معينا من أنواع الأعمال الكتابية أو مجلة يحظر عليها نشر أي نوع ، فالإقبال نحو التنوع يزداد الآن امتصاصا في الصحافة الأميركية وهذا عكس الحال في المجلات العربية فهناك

٨ - المجلات الشعبية

Popular Magazines
 وهي موجهة إلى القراء من الطبقة المتوسطة، وتنشر قصصا ومقالات وأخبارا وأحاديثا ورسائل إلى الحرة ، ورسوما كاريكاتورية . . . أي أنها مجلات متنوعة بكل معنى الكلمة . ومن هذه المجلات ستودي إيفننج بوست Saturday Evening Post ومجلة ليبيرتي وكوليرز Liberty and Colliers

٩ - المجلات النسائية

Women's Magazines
 وبما ان النساء في أمريكا يقرأن أكثر من الرجال فان المجلات النسائية هناك تجد رواجا كبيرا . وتهتم هذه المجلات عادة بشؤون الآداب والزينة والأثاث وتربية الأطفال . ومنها مجلة ليندهوم جورنال Ladies Home Journal

١٠ - مجلات الرجال

Men's Magazines
 وهي تحتوي على موضوعات تهتم الرجال فقط بوصفهم ذكورا ، مثلها مثل مجلة بليبيوي Play Boy التي تتفوق على كل مجلة أخرى من نوعها (وليس لهذه المجلات مثيلات عربية) .

١١ - مجلات الأطفال والمراهقين

Children's and Adolescents' Magazines
 ومعظمها توزع في المدارس . وفي هذه المجلات

أو الاستمرار في إصدارها كبيرة جدا ، الأمر الذي يدفع بالجلات الى التنافس لبيع أكبر عدد من النسخ ، لذلك نراها مضطرة الى التسابق على الكتاب الذين تروج مقالاتهم وتجد صدى أكبر عند القراء . وهي تدفع لهم أجورا عالية لقاء نشر هذه المقالات . وهذا التنافس هو في صالح الكتاب طبعا . (وإذا قارنا هذا الوضع بالجلات العربية نجد أنه ينطبق في معظم الأحيان على المجلات الخاصة أما المجلات التي تصدرها الدولة على نفقتها فلا تهتم بالربح المادي طبعا لأن إصدارها يدخل ضمن الواجبات الثقافية للدولة) .

عوامل النشر في الصحافة الأمريكية :

قبل أن يفكر الكاتب في تدبير مادة وعرضها على صحيفة أو مجلة ما فإن أول ما يجب أن يتم به مدى امكانية نشر هذا المادة . وتعتمد الصحف والمجلات الأمريكية في قبولها للأعمال الكتابية المرشحة للنشر وتقرير امكانية نشرها على عدة مقاييس منها :

١ - قابلية رواجها ، نكل مجلة تحاول أرشاء فئة معينة من القراء ، وكذلك مدى انسجام مادة النشر مع الخطة التي تنتهجها المجلة .

والمحررون في أمريكا على نوعين :

أ - محررون يمدون المجلة بكتاباتهم

ب - محررون يقومون المواد المعروضة ويبتون بمدى صلاحيتها للنشر ، وهؤلاء يتمتعون عادة بمحس خاص حول سوق النشر والأعمال الكتابية التي تلقى قبولا أكبر عند القراء .

عدد كبير جدا من المجلات الاختصاصية التي تنفرد بنشر لون واحد من ألوان المعرفة دون سواء ، مقابل عدد ضئيل من المجلات المنوعة .

٢ - المجلات الأمريكية أصبحت مجلات بصرية تكثر من نشر الصور والشرحات التوضيحية ، لذلك كثيرا ما يتقرر قبول مقال أو رفضه في ضوء أرفاقه أو عدم أرفاقه بصور توضيحية .

(وهذا اتجاه سليم لأن الصفحات المكتظة بالكلمات والجمل الجامدة تنفر القارئ وتسمه ، أما تلك الزينة بالصور المشرقة الجذابة فتفتنه وتجعله يقبل عليها) .

٣ - أن سرعة القرن العشرين قد تركت بصماتها على المجلات الأمريكية وأثقت بظها على اتجاهاتها التحريرية ، فالحياة الحديثة تؤكد على الاختصار والوضوح . لذلك نجد المجلات في أمريكا ترحب بالمقالات المختصرة السريعة كتلك التي يمكن قراءتها في الباص أو في غرفة انتظار طبيب الأسنان أو ردهة الاستقبال في النادي (وهذا الاتجاه له ما يبرره غير أنه لا بد من الجمع بين المقالات المنهجية المطولة والموضوعات القصيرة المختصرة ، كلا النوعين مكمل للآخر ولا يمكن الاستغناء عن أحدهما لحساب الآخر) .

٤ - أن المجلات الأمريكية الحديثة أصبحت تنهج نحو معالجة مشكلات الساعة اليومية بدلا من المباحثات الأدبية التقليدية ونحو بنى المادة العملية عوضا عن الموضوعات النظرية .

٥ - المجلات الأمريكية تتأثر بالعامل التجاري ، فالتكاليف اللازمة لإصدار مجلة

الكتاب مغفورا يحرمه من فرصة النشر ، بل أن جودة المقال وجدته يعوضان أحيانا عن عدم شهرة الكاتب. وفي الحالات التي يستطيع فيها شخص عادي غير متمرس بالكتابة لمرسا كافيا أن يكتشف حدثا هاما جديدا، كما حدث بالنسبة لكاتب المقال الذي كشف النقاب عن حادث الانتحار في ووترفيت ، فإن محرر المجلة يقدم المقال مشيرا الى اسم مؤلفه الاصلى إشارة عابرة ، أو ينشره باسم رمزي بعد تنقيحه وصياغته صياغة مقبولة .

اشكال الاعمال الكتابية في الصحافة

الاميركية :

ان الاشكال الرئيسية للامال الكتابية هي القصة والمسرحية والمقالة والقصيدة .. ولكل شكل منها عدة أنواع . وبعض المجلات يعمها فقط مضمون المادة وأهميتها بصرف النظر عن الاسلوب اللغوي ، ولكن بعضها الآخر يضع الاسلوب اللغوي في الدرجة الاولى من سلم الاهتمام .

١ - **القصة القصيرة** : وهي الشكل الذي يجربه الكتاب الناشئون أكثر من باقي الاشكال . وتحظى القصة القصيرة بشعبية كبيرة بين الكتاب بسبب شعبيتها بين القراء . وحسب تقديرات المحررين القوميين للامال الكتابية فإن محاولات تأليف القصة القصيرة تزيد على المحاولات الادبية الاخرى جميعها بمعدل ١/٣ وبالطبع فإن عددا قليلا جدا من قصص الكتاب الناشئين يتاح له فرصة النشر . ولكتابة القصة القصيرة الناجحة لابد من توافر عدة شروط :

١ - الالهام

٢ - القدرة على الادراك

٢ - **المجلة** : فالمجلات تمنح اولوية النشر للمقال الذي يحتوي على معلومات جديدة ومبتكرة . فقد لاقى مثلا مقال عن انحراف الاحداث نشرته مؤخرا إحدى كبريات المجلات الاميركية رواجاً هائلا ، فعلى الرغم من أن موضوع المقال شائع وسبق أن كتب فيه الكثير إلا أن المالمجة فيه كانت جديدة كل الجدة ومبتكرة فقد عالج الكاتب موضوع انحراف الاحداث بطريقة لطيفة وقدم مقترحات عملية أصلية لحلها ، لم يسبق أن قدم لها .

٣ - **فاعلية التعبير** : فالعمل الكتابي ينبغي ان يتسم بالوضوح والقوة ودقة المعلومات ، وإذا كان المقال يتمتع بجودة كبيرة ولكن يفقر الى قوة التعبير فإن المجلة قد تشتري المقال وتدفع لئنه لم توزع الى محرريها كي يمدوا سبكه وصياغته من جديد (ونعتقد أن هذا نهج سيديد جدا لو سارت عليه مجلاتنا العربية التي كثيرا ما يصلها مقالات جيدة المضمون بشكل غير عادي ولكن تموزها حلالة اللغة وتتناثر فيها بعض الاخطاء اللغوية والنحوية فتتمتع المجلة من نشرها . والاجدى من ذلك أن يمد جهاز تحرير المجلة الى تنقيحه وتعديله ثم نشره . ولكن تبرز هنا مشكلة ما اذا كان ينبغي نشر المقال باسم الكاتب ام لا . والحل الوسط المعقول ان ينشر المقال بالاحرف الاولى من اسم الكاتب لا باسمه الكامل الصريح .

٤ - **شخصية الكاتب** .. من هو .. ما أهميته .. ما اختصاصه .. ما مركزه .. هل هو كثر ؟ هل هو أهل للثقة ؟ وهنالك كثير من المقالات تقبلها المجلات الاميركية وتوافق على نشرها فوراً حتى قبل قراءتها في بعض الحالات لان اصحابها معروفون وسووثون لديها بدرجة كافية . وهذا لا يعني أن كون

في الشرك الذي كثيرا ما يقع فيه بعض زملائه ويتمثل بالاتجاه نحو تقليد انتاج الكتاب المشهور واسلوبه .

فقد أصبحت أعمال كبار الكتاب امثال ارنست همنجواي ووليام فوكسر وجيمس بالدوين وغيرهم مصائد لكثير من الكتاب الناشئين ، فتقليد هذه الاعمال من قبلهم يقتل فيهم اصالتهم ، ويسودى بامكاناتهم الحقيقية ، ويحولهم من مبتكرين الى مقلدين . والقدرة على التصوير هي اصعب ما يواجهه الكاتب الناشئ . فهناك كثيرون يستوهبون الحوادث والخبرات ويتوقون الى الكتابة منها ولكنهم يمحزون عن ايجاد الكلمات والتعبير من انفسهم كتابيا .

ب - المقالة : وهي اكثر الاعمال الكتابية شيوعا في المجلات الاميركية ، وتقسم من حيث الشكل الى نوعين :

١ - المقال الشكلي المنظم Formal essay
ويتسم بالجدية والرصانة والتنظيم .

ب - المقال العابر informal essay
وهو مقال عرضي غير جدي في اسلوبه ولكنه هادف في محتواه ، ويكون احيانا هزليا وساخرا .

ويتمتع هذا النوع من المقالات بشعبية ودواج كبيرين . وتقسم المقالات من حيث المحتوى الى :

١ - المقال التأملي (او الخاطرة)
collective essay ويتسم بنظر الكاتب وانطباعاته تجاه حالة او حادثة او مشكلة .

٢ - القدرة على التصوير .

اما الالهام فيربط بالرغبة ، فما لم يكن الكاتب شغوقا بالكتابة فانه لا يستطيع ان يأمل الا باحراز القليل من النجاح . ويجب ان تصل درجة تشوقه للتأليف الى الحد الذي يجعله يتحمل كافة المشاق المتصلة به . فاذا تمتع بعزيمة ماضية لا تثبط بسهولة أمكنه عندئذ ان يحاول ويحاول ثم يعيد المحاولة الى ان يصيب النجاح ، متحملا جميع انواع النقد .

واما القدرة على الادراك فتعنى القدرة على تعرف مادة القصة بدءا من خطوطها العريضة ثم دقائقها ومقداه . ويعتقد البعض ان هذه القدرة فطرية بينما يرى آخرون امكانية تطويرها بالممارسة ، وبالنسبة للقدرة على التصوير فان المقصود بها القدرة على ايجاد الكلمات والتراكيب والصور البلاغية الأكثر تأثيرا وفعالية ، ويعتبر آخر القدرة على اختيار احسن طريقة لرواية القصة ، وليست هناك قواعد لتعليم هذه القدرة الا ان من المؤكد انها تتحسن بالممارسة . والخطوة الاولى تجاه تطوير القدرة على تأليف القصة القصيرة ان يملك الكاتب حسا تقديريا سليما تجاه هذا النوع من القصص . وعليه من اجل ذلك ان يبدأ بقراءة قصة ثم يتسائل : ما الميزات التي جعلت كاتب هذه القصة ناجحا ؟ ما نقاط الضعف والقوة فيها؟ ما الذي يجعل القصة من النوع العادي او غير العادي؟ وعندما يتمكن الكاتب من الاجابة من هذه الاسئلة بشكل مرضي يكون قد دخل الطريق الى تطوير حسه النقدي . وفي اثناء هذه العملية يجب على الناشئ ان يتجنب الوقوع

٢ - الصورة الأدبية الوصفية

Personality sketch) أن أى شخصية مهمة ، سياسية كانت أم أدبية أم غيرها ، مرشحة لأن تكون موضوعا لقصة . ويواجه كاتب الصور الوصفية عدة مصائب ، ذلك أنه مامن كاتب يرقى الى مركز سياسي أو علمي أو أدبي جديد حتى يدخل دائرة الضموم يبدأ الاقلام بالكتابة عنه . فإذا أراد كاتب أن يديج مقالة وصفية ناجحة عليه أن يكون البادئ في الكتابة من هذه الشخصية الكبيرة تجنباً للزدواجية . والصعوبة الثانية أن هذا النوع من الكتابة يستلزم من الكاتب أن يجري لقاء مع الشخصية الجديدة ، مما يمثل مشكلة بالنسبة للكاتب غير المشهور لأن الشخصيات البارزة تكثر التعامل مع الكتاب المفورين لعدم وجود ضمان لنشر الموضوع وللإمانة في نقل الحقائق بدقة ومصاطف وموضوعية بعيدا عن أى تزوير أو تحريف .

٣ - مقالة الخبرة الشخصية :

personal experience account

أن القراء مسحهم عادة النشاطات النادرة غير العادية التي يمارسها الآخرون ، فمثلا أن المواطنين المثقفين تبهرهم استكشافات الفضاء وتستحوذ على اهتمامهم ، وبخاصة منها محاولات الإنسان غزو الكواكب الأخرى، لذلك تراهم يراقبون وسائل الاعلام لتتبع اخبار الفضاء ، ويهتم هؤلاء عادة بالخبرات الفعلية للإبطال الذين يشتركون في رحلات الفضاء ، فما الذي يخطر ببال رجل الفضاء عندما يجلس في المركبة ينتظر اقلامها ؟ ما شعوره حينما تنادر المركبة منصة الاطلاق ثم تحلق في أعالي الكون موهلة في أقاصيه ؟ ما احساساته عندما يخطر خطراته الاولى على أرض القمر ؟ الجمهور يريد أجوبة لهذه

الاسئلة من فم رجل الفضاء مباشرة مفضلا ذلك على الحصول عليها بواسطة ناقل آخر بعد تكتيفها أو تحريفها .

وتحظى الموضوعات التي تجرى على لسان أصحاب الخبرات النادرة مباشرة بشعبية عظيمة بين القراء .

٤ - المقالات المبسطة للعقائ :

Popularizing facts

أن حقل تبسيط العقائ وجمعها في متناول الجمهور العادي يمثل مصدرا غنيا للكتساب الأميركيين . ومرجع ذلك الى أن معظم القراء يجدون متعة كبيرة في المقالات الشعبية التي تبحث في بعض النواحي الغامضة غير الواضحة بالنسبة للرجل العادي في حقل مثل الطب أو العلوم أو الاقتصاد ، بطريقة مألوفة تقربها الى الأذهان ، وجمعها وأضحة نيرة لا تدق على الأفهام ، ولا تستعصى على العقول .

٥ - المقالات العلمية النافذة

Utility article وهذه المقالات تشرح كيفية القيام بعمل ما أو تطوير مهارة معينة (مثل : مقال كيف تلعب الشطرنج أو كيف تمارس السباحة بنجاح ... الخ وأهم شرط لرواج هذا النوع من المقالات هو الجودة في الموضوع والمعالجة ، وكون صاحبه مرجعا موثوقا في مادة اختصاصه التي يكتب فيها . وسوف هذه المقالات رائجة عند الذين يهمهم موضوع المقال لانهم يستطيعون من تطبيقه عمليا . وينجح المقال بشكل خاص عندما يبنى على معلومات مستقاة من مصدر خبير فريد من نوعه . مثال ذلك أن أحد الصحفيين الأميركيين المفورين أفلح في الحصول على معلومات طريقة ومفيدة حول تزوير

لذلك فإن استكشاف هذه السوق يمثل أول خطوة يتخذونها في عملية الكتابة . وهكذا فإن على الكاتب أن يقرر اسم المجلة التي يمكن أن ترحب بنشر مقاله ثم يشرع في الكتابة حتى لا يقع في محذور احتمال إهمال مقاله بسبب عدم ملائمة لخط المجلة . فمثلا أن مقالا من الرياضة في المدارس الثانوية يصعب نشره في مجلة مثل مجلة فيلد أندستريم Field and Stream الأمريكية ، بينما يمكن أن توافق على نشره في مجلة رياضية . وكذلك فإن مقالا من فن الطهي يصلح للنشر في مجلة هاربرز ، ولكن المجلات النسائية هي أكثر استعدادا لنشره . والخطوة الثالثة في عملية الكتابة هي التخطيط الفعلي . وعلى الرغم من أن التخطيط يختلف باختلاف شكل الكتابة (مقال ... خاطرة ... قصة ... الخ) فإن هناك مدة حقائق تجدر ملاحظتها وأولها أن التخطيط يجب أن يكون شاملا ومفصلا لجميع جوانب العمل الكتابي المقترح . أي أن على الكاتب أن يقلب الموضوع في عقله من كافة وجوهه . وهذا التمعن الأول ينطوي في رأي الكثيرين على أهمية كبيرة . ويصدق ذلك ينتقل الكاتب إلى تلوين جميع الأفكار التي تخضر له حول الموضوع دون إهمال أي فكرة مهما صغرت . وعندما تكتمل قائمة الأفكار تصبح أساسا للخلاصة النهائية للموضوع .

وهكذا يتضح أن (كتاب الصحافة في أمريكا) قد عالج مشكلات وأمورا كثيرة بهم كل كاتب وصحفي . صحيح أن الصحفي الأمريكي يستفيد من الكتاب أكثر من غيره ، إلا أن أي عامل في سلك الصحافة في أي بلد كان لابد أن يعثر فيه على كثير من الحقائق التي تهمة في ممارسة مهنته . وقد لاحظنا أن

التحرف الفنية من أحد نجاري الموبيليا العريقين في مهنتهم ، وكان هذا قد أوضح له كيف أن بعض الأشخاص الذين لا تتطرق إليهم الشكوك يتمكنون من صنع نسخ مزيفة عن التحف الأصلية . ونجح الصحفي في بيع المقال بثمن مرتفع إلى إحدى كبريات المجلات نلتقي بعد نشره أقبالا شديدا من القراء . ويعود الفضل في ذلك إلى أن المصدر الأصلي للمعلومات التي تكون أرضية المقال ، وهو نجار الموبيليا ، صاحب خبرة واسعة في شؤون الترويس والتقليد ... أليس أساس عمله خلق نماذج جديدة تشبه نماذج قديمة ؟

ج - الشعر : وأهميته آخذة بالازمحلال في المجلات والصحف الأمريكية على عكس ما كان الحال في الماضي .

عملية التأليف :

عندما يعتقد الكاتب أن في مجتمه ما يصلح للنشر عليه أولا أن يفكر بالشكل الأدبي الذي يريد أن ينتجه فيقرر ما إذا كان سيؤلف مقالا أم قصة قصيرة أم غير ذلك ، حسب قدرته وموهبته ، أما الخطوة الثانية فتتمثل بدراسة السوق الأدبي وفرص النشر . أي أن على الكاتب أن يحدد الصحف والمجلات التي يمكن أن ترحب بنشر مقاله . فمن المعلوم أن المجلات لا تسير جميعها على منوال واحد بل أن لكل منها خطتها وطابعها الخاص بها . ومن الأفضل للكاتب ألا يبدد جهوده في إرسال مقالات إلى مجلات لا تناسبها ولا تتوافق مع اتجاهاتها مما يؤدي إلى رفضها وعدم نشرها . أن مسألة السوق الأدبية مهمة جدا للدرجة أن بعض كبار الكتاب ينزلونها النزلة الأولى من الأهمية ويرون أنها تسبق جميع الاعتبارات الأخرى .

إبداء ملاحظة بسيطة وهي أن الكتابة العربية تفتقر إلى كتب ناجحة في موضوع الصحافة ، ذلك أن معظم الكتب المتوافرة إنما تدور حول تاريخ الصحافة . ونحن الآن بحاجة إلى كتب من نوع جديد تنهج نهجا تقويميا نقديا وتقتصر السبل العلمية السلمية لتطوير الصحافة وتخليصها من السلبيات التي تعوق مسيرتها .

الكتاب يتمحور بصورة رئيسية حول المجالات لأن هذه هي الوسيلة الإعلامية الأكثر تأثيرا في الولايات المتحدة ، وقد انعكس هذا الاتجاه على مرصنا للكتاب فوجدتنا نتناول المبادئ الأساسية في فصل المجالات بكثير من التفصيل .

ولابد لنا قبل اختتام هذا التحليل من

★ ★ ★

من الكتب الجديدة

كتب وصلت الى ادارة المجلة ، وسوف تعرض لها بالتفصيل في الإصدار القادم

1. Bluhm, William T., Ideologies and Attitudes, Modern Political Culture, Prentice Hall, Inc., Englewood Cliffs, N.J.
2. Currell, Melville, Political Woman & Littlefield, N.J., 1974.
3. Dickens, A.G., The Age of Humanism and Reformation, Europe in the Fourteenth, Fifteenth and Sixteenth Centuries, Prentice Hall, Inc., Englewood Cliffs, N. J. 1972.
4. Henderson, C. William, Awakening, Ways to Psychospiritual Growth, Prentice-Hall, Inc., Englewood Cliffs, N. J. 1975.
5. Tugwell, Franklin, Search for Alternatives : Public Policy and the Study of the Future, Winthrop Publishers, Inc., 1973.

★ ★ ★

العدد التالي من المجلة

العدد الاول - المجلد التاسع

ابريل - مايو - يونية - ١٩٧٨

قسم خاص عن

العلوم عند العرب

بالإضافة الى الابواب الثابتة

الخيلج العربي	٥	ريالت	٣	ليرات
البحرين	٥	ريالت	٢٥٠	مليم
اليمن الجنوبية	٤٠٠	فلوس	٢٥٠	مليم
اليمن الشمالية	٤٠٠	فلوس	٣٥	قرشا
العراق	٤	ريالت	٤٠٠	بابو
لبنان	٣٠٠	فلوس	٥	رغيف
الاردن	٢,٥	ليرة	٥٠٠	ماهم
	٢٥٠	فلوس	٥	مليم
سوريا				
المتنمرة				
السودان				
ليبيا				
مستقط				
الجزائر				
تونس				
المغرب				

الاشتراكات :

للإشتراك في المجلة يكتب إلى : الشركة العربية للتوزيع - ص.ب ٤٢٢٨ - بيروت

مطبعة حكومة الكويت

